



△△△

الْمُهَيَّبِ

فی علوم لغت

مَآئِف

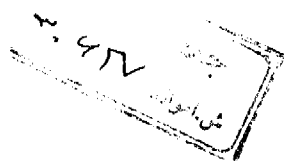
卷之五

المعراج

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله



٥٨٤



٤١٤٧

الْمَقْشَرُ

فِي
عُلُومِ الْقُرْآنِ

تَأَلِيفُ
مُحَمَّدِ هَادِي مَعْرِفَتَا

الْجُزْءُ الْخَامِسُ

مُؤَسَّسَةُ النَّسْرِ الْإِسْلَامِيِّ
الَّتَابِعَةُ لِمَجْمَعَةِ الْمُدَرِّسِينَ بِبَيْتِ الْمُسْتَقَرِّ

كتابخانه مرکز تحقیقات کتب پویا تری علوم اسلامی	
شماره ثبت:	۳۱۲۶۶
تاریخ ثبت:	



التمهید

(ج ۵)

■ المؤلف:	الاستاذ المحقق الشيخ محمد هادي معرفة
■ الموضوع:	علوم القرآن
■ تحقيق ونشر:	مؤسسة النشر الإسلامي
■ عدد الصفحات:	۷۳۸
■ المطبوع:	۱۰۰۰ نسخة

مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجامعة المدرسين بقم المشرفة

شماره ثبت کتابخانه ۳۱۲۶۶

جمع‌آوری شد
ش. اموال:

دلائل الاعجاز (البياني والعلمي والتشريعي)

أبعاد ثلاثة هي خطوط اتجاه البحث الأساسية
وتتشعب منها فروع متصاعدة لا نهاية لها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قدّمنا لك حديثاً مسهباً عن آراء ونظرات حول قضية الإعجاز القرآني، ومحاولات وجهود مبذولة بشأنه طول التاريخ. وهكذا الحديث عن أجواء أدبية رفيعة كانت أحاطت بعهد نزول القرآن، ذلك العهد الحافل بحافل من خطباء مصانع وفطاحل من شعراء مفلقين، كانوا على ذروة من فصاحة البيان وطلاقة اللسان. فباهاهم وتحذاهم: لويأتوا بحديث مثله، أي يُماثله ويجاريه في شرف الكلام وفي فضيلة البيان. لكنهم -بأجمعهم- عجزوا عن مقابلته، وأمسكوا عن معارضته، وتراجعوا صاغرين.

وبعد، فقد حان أوان الخوض في خضمّ دلائل إعجازه، والوقوف على أسرار بلاغته، تطلعاً إلى المستطاع من فهم دقائقه ومزاياه، والكشف عن نكته وخباياه... المستخلص ذلك في ثلاثة أبواب -هي خطوط اتجاه البحث- كل باب يشتمل على فصول هي حقول من الرياض النضرة:

الباب الأول في الإعجاز البياني: بديع نظمته وعجيب رصفه وغريب أسلوبه.

الباب الثاني في الإعجاز العلمي: إشارات عابرة وإماعات خاطفة عن غياهب الوجود.

الباب الثالث في الإعجاز التشريعي : معارف سامية وشرايع راقية
عبر الخلود.

تلك جهودنا المتواصلة في سبيل الوصول إلى وجوه إعجاز هذا الكلام
الإلهي الخالد، الذي لم يزل موضع إعجاب الخافقين. ولكن هل بلغنا الغاية أم
نحن في البداية؟! هذا مبلغ وسعنا، والغاية بعيدة الآفاق.

١ - الإعجاز البياني

(بديع نظمه وعجيب رصفه)

- ١ - دقيق تعبيره ورقيق تحبيره.
- ٢ - طرافة سبكه وغرابة اسلوبه.
- ٣ - عذوبة ألفاظه وسلاسة عباراته.
- ٤ - تناسق نظمه وتناسب نغمه.
- ٥ - تجسيد معانيه في أجراس حروفه.
- ٦ - تلاؤم فرائده وتألف خرائده
- ٧ - حسن تشبيهه وجمال تصويره.
- ٨ - جودة استعارته وروعة تخيله.
- ٩ - لطيف كنايته وظريف تعريضه.
- ١٠ - روائع من فنون بدائعه.

الباب الأوّل في الإعجاز البياني

بديع نظمه وعجيب رصفه:

قال الشيخ عبدالقاهر الجرجاني: إذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حُلُوّ رشيق، وَحَسَنٌ أنيق، وَعَذْبٌ سائع، وَخُلُوبٌ رائع، فاعلم أنّه ليس يُنبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده^(١).

تعريف بديع عن أسّ البلاغة الفاخرة، وتحديد دقيق عن سرّ الفصاحة الباهرة، ليس يقصر جمالُ الكلام في حسن منظره حتى ينضاف إليه كمالُ مخبره:

إنّ الكلام لفي الفؤاد وإنما
جُعل الكلام على الفؤاد دليلاً
وهكذا تجلّى القرآن في سناء جلاله وبهاء جماله، رائعاً في بديع نظمه، وفخماً في رفيع أسلوبه، فذاً فريداً، لا يُدانيه أيُّ كلام، ولا يضاهيه أيُّ بيان، قد فاحت من طيّاته نفحات القدس، وفاضت من تواقيع نغماته نسمات الأنس... «رَوْحٌ وَرِّيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ»^(٢).

(١) أسرار البلاغة: ص ٣.

(٢) الواقعة: ٨٩.

«وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشأ من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم»^(١).

وتلك زهوره الباسقات، جاءت في حقول عشرة مكتملات، نقدم لك إجمالها قبل بيان التفصيل:

أولاً - دقيق تعبيره ورقيق تحبيره:

«واضعاً كلّ لفظٍ موضعه الأخصّ الأشكّل به، بحيث إذا أبدل بغيره جاء منه فسادٌ معنى الكلام أو سقوط رونقه».

«لو انتزعت منه لفظةٌ ثم أُدير لسانُ العرب على لفظة في أن يوجد أحسن منها لم توجد».

«فلم يجدوا في الجميع كلمة ينسبونها مكانها، ولفظة يُنكر شأنها... بل وجدوا اتّساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور».

(قداى علماء البيان)

ثانياً - طرافة سبكّه وغبابة أسلوبه:

سبك جديد واسلوب فريد، لا هو شعر كشعرهم ولا هو نثر كنثرهم، ولا فيه تكلف أهل السجع والكهانة، على أنه جمع بين مزايا أنواع الكلام الرفيع، فيه إناقة الشعر وطلاقة النثر وجزالة السجع الرصين، ممّا لم يوجد له نظير ولم يخلفه أبداً بديل، ولا استطاع أحد أن يماريه أو يجاريه، لا في أسلوبه ولا في نظمه البديع. حلّو رشيق وخلوّ رحيق «إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، إنه يعلو وما يعلو...» كلام قاله عظيم العرب وفريدها الوليد.

ثالثاً - عذوبة لفظه وسلاسة عباراته:

يسبح سيجاً كجري الماء في مصبّه، ويفيح فيحاً كنسيم الصبا من مهبه،
عذباً سائغاً رويّاً، تبتّج له الأرواح وتنشرح له الصدور، في رونق جذّاب
وروعة خلّابة.

رابعاً - تناسق نظمه وتناسب نغمه:

«قد جمع بين مزايا الشعر وخصائص النثر...».

«ويجد الإنسان لذّة، بل وتعتريه نشوة إذا ما طرق سمعه جواهر حروف

القرآن...».

«لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها، في هزّ الشعور واستثارة الوجد

النفسي...».

(أدباء معاصرون)

خامساً - تجسيد معانيه في أجراس حروفه:

تتواءم أجراس حروفه مع صدى معانيه، ويتلاءم لحن بيانه مع صميم
مراميّه، من وعد أو وعيد، ترغيب أو ترهيب، كل تعبير يجري مجراه من شدة أو
لين، ويتطلّب مقتضاه من تفخيم أو تهويل، كل يتناسب وجرس لفظه ولحن
أدائه، الأمر الذي يزيده جلالاً وفخامة واثبة وكبرياء...

سادساً - تلاؤم فرائده وتآلف خرائده:

كأنه عقد جمان تناسقت فرائده، وتناسبت لئاليه. سياقاً منتظماً متلائماً،

متلاحم الألفاظ والمعاني، متواصل الأهداف والمباني.

قال سيّد قطب: «من ألوان التناسق الفتي، هو ذلك التسلسل المعنوي

بين الأغراض في سياق الآيات والتناسب من غرض إلى غرض...».

سابعاً - حسن تشبيهه وجمال تصويره:

اعترف أهل البيان بأنّ تشبيهات القرآن أمتن التشبيهات الواقعة في فصيح

الكلام، وأجمعهنّ لمحاسن البديع، وأوفاهنّ بدقائق التصوير ورقائق التعبير ورحائق التحبير.

ثامناً - جودة استعارته وروعة تخيله:

عمد القرآن - في إفادة معانيه، والإشادة بمبانيه - إلى أنواع الاستعارة والكناية والمجاز، في نطاق واسع، أبدع فيها وأجاد إجادة البصير المبدع، وأفاد إفادة الخبير المصطلع، في إحاطة بالغة لم يعهد لها نظير، ولم يخلفه أبداً بديل.

تاسعاً - لطيف كتابته وظريف تعرضه:

جاءت كنيائته - حسباً تقدّم - أو في الكنيائات وأدقّهنّ وأرقّهنّ، ولم تفته لطافة في كناية ولا ظرافة في تعريض.

عاشرأ - طرائف وظرائف:

محاسن جَمَّة غفيرة، ومزايا كَثرة وفيرة، تجمّعت في القرآن الكريم، لانظير لها في سائر الكلام ولا مثيل.

وختاماً - فصاحة القرآن في كَفّة الميزان:

عرض مباشر لعلوم البلاغة وفنون البديع، على آيات الذكر الحكيم، عرضاً تطبيقياً نموذجياً، سمحت بها قريحة الأديب الأريب الأمير يحيى بن زيد العلوي، وهي خاتمة البحث عن الاعجاز البياني للقرآن الكريم... وختامه مسك و«في ذلك فليتنافس المتنافسون».

وبعد... فإليك تفصيل البيان:

١ - دقيق تعبيره ورقيق تحبيره

يمتاز القرآن على سائر الكلام بدقته الفائقة في تعبيره، واضعاً كل شيء موضعه اللائق به، مراعيّاً كل مناسبة -لفظية كانت أم معنوية- في إناقة تامّة، لم تفته نكتة إلّا سجّلها، ولم تفلت منه مزية إلّا قيّدها، في رصف بديع ونضد جميل، جامعاً بين عذوبة اللفظ وفخامة المعنى، متلائماً أجراس كلماته مع نوعية المراد، متماسك الأجزاء، متلاحم الأشلاء، كأنما أُفرغت إفراغة واحدة، وسبكت في قالب فذّ رصين. بحيث لو انتزعت لفظة من موضعها أو غيّرت إلى غير محلّها أو أبدلت بغيرها لأخلّ بمقصود الكلام واضطرب النظم واختلّ المرام. ولقد كان ذلك من أهمّ دلائل صيانته من التحريف، فضلاً عن كونه سند الإعجاز.

أضف إليه جانب «الحن الأداء» هو تناسب جرس اللفظ مع نوعية المفاد، من وعد أو وعيد، ترغيب أو ترهيب، أمر أو زجر، عظة أو حكمة، فرض أو نفل، مثوبة أو عقاب، مكّمة أو عتاب... إلى غيرها من أنواع الكلام، كل نوع يستدعي لحناً في الخطاب يخالفه نوع آخر. الأمر الذي راعته التعابير القرآنية بشكل بديع واسلوب غريب. وكان سرّاً غامضاً من أسرار إعجازه، ودليلاً واضحاً على كونه صنيع من لا يعزب عن علمه شيء، وقد أحاط بكلّ شيء علماً.

وهذا شيء اعترفت به جهابذة الفن، وأذعنت له علماء البيان وأمراء الكلام، فضلاً عن شهادة أفذاذ العرب الأقحاح...
فلنستمع الآن إلى كلماتهم المشرقة:

قال الشيخ عبدالقاهر: أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمهم، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادي آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها، وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشراً عشراً وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبوها مكانها، ولفظة يُنكر شأنها أو يُرى أنَّ غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أخرى أو أخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاماً والتئاماً، وإتقاناً وإحكاماً، لم يدع في نفس بليغ منهم - ولو حكَّ بياFOXة السماء^(١) موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول، وخلدت القروم^(٢) فلم تملك أن تصول^(٣).

وقال - في مفتتح رسالته الشافية -: اعلم أنَّ لكل نوع من المعنى نوعاً من اللفظ هو به أخص وأولى، وضروباً من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى. ومأخذاً إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب، وبالقبول أخلق، وكان السمع له أوعى، والنفس إليه أميل... وهذا هو السبب في عجز العرب حين تحدوا إلى معارضة القرآن، وإذعانهم وعلمهم أنَّ الذي سمعوه فائت للقوى البشرية، ومتجاوز للذي يتسع له ذرع المخلوقين.

(١) اليافوخ: عظم مقدم الرأس، والمثال كناية عن الشموخ بالرأس تكبراً.

(٢) القرم: العظيم الشأن، يقال: خلد بالمكان أي أقام به، وخلد بالأرض: لصق بها، كناية عن المسكنة والخنول.

(٣) دلائل الإعجاز: ص ٢٨.

وقد فصل هذا المجمل في كتابه (دلائل الإعجاز) أبان فيه عن وجه هذا السرّ وكشف عن حقيقته واستخرج لبابه، قال:

واعلم أنّ هاهنا أسراراً ودقائق لا يمكن بيانها إلّا بعد أن نعدّ جملة من القول في النظم وفي تفسيره وبيان المزية من أين تأتيه؟ وما أسباب ذلك وعمله؟ وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفضيم قدره والتسويه بذكره، وإجماعهم أن لا فضل مع عدمه، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ. وأنه القطب الذي عليه المدار، والعمود الذي به الاستقلال، فكان حريّاً بأن توقظ له الهمم وتتحرّك له الأفكار وتستخدم فيه الخواطر.

واعلم أن ليس النظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي تقتضيه قواعد الأدب فتعمل على اصوله وتعرف مناهجه وتحفظ رسومه التي رسمها لك، فلا تخلّ بشيء منها ولا تزيع عنها.

وذلك أنّنا نعلم أنّ الذي يجب أن يتغيه الناظم في كلام أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر مثلاً في وجوه الخبر من نحو قولك: زيد منطلق. وينطلق. والمنطلق. وهو المنطلق. وينطلق زيد. ومنطلق زيد... وفي الشرط والجزاء: إن تخرج اخرج. وإن خرجت خرجت. وإن تخرج فأنا خارج. وأنا خارج إن خرجت. وإن خرجت خارج. وفي وجوه الحال: جاءني زيد مسرعاً. وجاءني يسرع. وجاءني وهو مسرع أو وهو يسرع. وجاءني وقد أسرع. أو قد أسرع بلاواو. فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويأتي به حيث ينبغي له.

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثمّ ينفرد كل واحد منها بخصوصيتها. فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه، مثل أن يأتي بـ«ما» في نفي الحال. وبـ«لا» لنفي الاستقبال. وبـ«إن» الشرطية فيما يترجّح بين أن يكون وأن لا يكون. وبـ«إذا» فيما علم أنه كائن.

وينظر في الجمل التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل،

ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع «ثم»، وموضع «أو» من موضع «أم»، وموضع «لكن» من موضع «بل». ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فيضع كلاً من ذلك مكانه، ويصيب بكل موضعه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.

هذا هو سبيل النظم في الكلام، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساد، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وتجده مرجعه إلى ذلك. وهذه جملة لا تزدد فيها نظراً إلا ازدادت لها تصوراً وازدادت عندك صحة وازدادت بها ثقة. وإذا قد عرفت ذلك فاعمد إلى ما توصفوه بالحسن، وتشاهدوا له بالفضل، ثم جعلوه كذلك من أجل النظم خصوصاً، دون غيره مما يستحسن له الشعر أو غير الشعر، ومن معنى لطيف أو حكمة طريقة أو أدب رفيع أو استعارة بديعة أو تجنيس أو غير ذلك، فاذا رأيته قد ارتحت واهتزت واستحسنته فانظر إلى حركات الاريحية مم كانت؟ وعند ما ظهرت؟ فإنك ترى عياناً أن الذي قلت لك كما قلت.

ثم اعلم أن ليست المزية في نفسها ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض. فليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤم. وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش. فكما أن الصابغ قد يهتدي في الأصباغ التي عمل منها الصور والنقوش إلى ضرب من التخيّر والتدبر في نفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجها وترتيبها ما لم يهتد إليه غيره فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصورته أغرب كذلك حال الشاعر والكاتب في اختيار نوع الكلمات والأساليب والتعابير.

واعلم أنّ من الكلام ماترى المزية فيه تتلاحق وتنضم بعضها إلى بعض، حتى تكثر وتملأ العين، ولذلك لا تُكبر من شأن صاحبه ولا تقضى له بالحدق والأستاذية وسعة الذرع والقدرة، حتى تستوفى القطعة وتأتي على عدّة أبيات. ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعة، ويأتيك منه ما يملأ العين فجأة، حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل وموضعه من الحدق وطول الباع. وأنه من قبل ناطق فحل وخرج من يد صانع قدير. وما كان كذلك فهو شعر الشاعر والكلام الفاخر والنمط العالي الشريف، والذي لا تجده إلا في كلام الفحول البزل الملهمين إلهاماً^(١).

* * *

وأجل من استوفى الكلام في هذا الجانب من ميزة القرآن - حسباً قدّمنا - هو أبو سليمان البستي. قال في بيان السبب الأوفى لدقيق تعبيره ورقيق عبيره: إنّ الذي يوجد لهذا الكلام من العذوبة في حسّ السامع، والهشاشة في نفسه، وما يتحلّى به من الرونق والبهجة، التي يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع في القلوب، والتأثير في النفوس، فتصطلح من أجله الألسن على أنه كلام لا يشبه كلام، وتحصر الأقوال عن معارضته، وتنقطع به الأطماع عنها، أمر لا بدّ له من سبب بوجوده يجب له هذا الحكم وبمصوله يستحقّ هذا الوصف.

قال: وقد استقرينا أوصافه الخارجة عنه، وأسبابه النابتة منه، فلم نجد شيئاً منها يثبت على النظر أو يستقيم في القياس ويترد على المعايير. فوجب أن يكون ذلك المعنى مطلوباً من ذاته ومستقصى من جهة نفسه. فدلّ النظر وشاهد العبر على أنّ السبب له والعلّة فيه: أنّ أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها

في نسبة التبيان متفاوتة، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية، فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل، ومنها الجائز المطلق الرسل. وهذه أقسام الكلام الفاضل المحمود، دون الهجين المذموم، الذي لا يوجد في القرآن شيء منه البتة.

فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه. والقسم الثاني أوسطه وأقصده. والقسم الثالث أدناه وأقربه. فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصّة، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة. فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعدوبة.

وهما على الانفراد في نعوتها كالمضادّين، لأنّ العدوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه - مع نبوّ كل واحد منها على الآخر - فضيلة خصّ بها القرآن.

وإنما تعدّر على البشر الإتيان بمثله لأمر: منها أنّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوها، إلى أن يأتوا بكلام مثله.

وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه.

وأما المعاني فلا خفاء - على ذي عقل - أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدّم في أبوابها والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرّق في أنواع الكلام، فأما أن

توجد مجموعة في نوع منه، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً.

فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف، مضمناً أصح المعاني، من توحيد له عزت قدرته، وتنزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهج عبادته، من تحليل وتحريم وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يرى في صورة العقل أمر أليق منه. مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئاً عن الكوائن المستقبلية في الأعصار الباقية من الزمان جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم مادعا إليه، وأنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه.

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمرٌ تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قُدرهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله.

ثم صار المعاندون له يقولون مرة: إنه شعر، لما رأوه كلاماً منظوماً. ومرة سحر، لما رأوه معجزاً عنه غير مقدور عليه. وقد كانوا يجدون له وقعاً في القلوب وقرعاً في النفوس، يربهم ويحيرهم، فلم يتمالكوا أن يعترفوا به نوعاً من الاعتراف. وكيف ما كانت الحال ودارت القصة فقد حصل باعترافهم قولاً، وانقطاعهم عن معارضته فعلاً، أنه معجز... وفي ذلك قيام الحجة وثبوت المعجزة، والحمد لله.

ثم أضاف قائلاً: اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص

الأشكال به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة...

ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، غير أن الأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها.

فإذ قد عرفت هذه الأصول تبينت أن القوم إنما كاعوا وجبنوا عن معارضة القرآن لما قد كان يؤدهم ويتصعدهم منه. وقد كانوا بطباعهم يتيقنون مواضع تلك الأمور ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها، ويعلمون أنهم لا يبلغون شأوها، فتركوا المعارضة لعجزهم، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم.

فأما المعاني التي تحملها الألفاظ فالأمر في معاناتها أشد، لأنها نتائج العقول وولائد الأفهام وبنات الأفكار.

وقال بصدد الإشادة بشأن النظم: وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحدق فيها أكثر، لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان.

وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفناه فقد علم أنه ليس المفرد بذرب اللسان وطلاقة كافيًا لهذا الشأن، ولا كل من أوتي حظاً من بديهة وعارضة. كان ناهضاً بحمله ومضطرباً بعبئه ما لم يجمع إليها سائر الشرائط التي ذكرناها على الوجه الذي حدّدناه... وأنى لهم ذلك ومن لهم به؟ و«لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»^(١)

(١) بيان الإعجاز: ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢١ - ٣٧ وقد تقدّم نقل كلامه بتفصيل عند عرض الآراء والنظرات في دراسات السابقين. والآية المذكورة هي ٨٨ من سورة الاسراء.

وقد تقدّم كلام ابن عطية في متابعتة للخطابي في الاختيار، قال: ووجه إعجازه أنّ الله قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كلّ علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، ويتبين المعنى دون المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره. والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم بالضرورة أن أحداً من البشر لا يحيط بذلك، وهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة.

قال: وكتاب الله سبحانه لو نزعته منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة في أن يوجد أحسن منها لم توجد...^(١).

* * *

وللأستاذ دراز تمثيل رائع بشأن روعة نظم القرآن وفخامة أسلوبه، شبه ألفاظ اللغة والكلم الموضوعية بالمواد الأولية اللازمة للبناء، فلا تختلف البناءات في أصل المواد، ولا كانت المواد ممّا ابتدعه المهندسون، لا وإنما التفاوت هو تفاوت الأذواق ومقدار المعرفة بانتخاب أصلح المواد وأتقن الآلات والأدوات. إنها هندسة البناء يخلقها قرائح البتّائين وابتدعها المهندسون.

قال: إنّ مثل صنعة البيان لمثل صنعة البنّان، فالمهندسون البتّاؤون لا يخلقون مادة بناء لم تكن في الأرض، ولا يخرجون في صنعتهم عن قواعدها العامة، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدراناً مرفوعة، وسقفاً موضوعة، وأبواباً مشرعة، ولكنهم تتفاضل صناعاتهم وراء ذلك في اختيار أمتن المواد وأبقاها على الدهر، وأكثتها للناس من الحرّ والقرّ، وفي تعميق الأساس وتطويل البنّان، وتخفيف المحمول منها على حامله، والانتفاع بالمساحة اليسيرة في المرافق الكثيرة، وترتيب الحجرات والأبهاء، بحيث يتخلّلها الضوء والهواء، فمنهم من

(١) مقدّمة تفسيره: ص ٢٧٩، وراجع البرهان للزركشي: ج ٢ ص ٩٧.

يفي بذلك كله أوجله، ومنهم من يخل بشيء منه أو أشياء... إلى فنون من الزينة والزخرف يتفاوت الذوق الهندسي فيها تفاوتاً بعيداً.

كذلك ترى أهل اللغة الواحدة يؤدّون الغرض الواحد على طرائق شتى يتفاوت حفظها في الحسن والقبول، وما من كلمة من كلامهم ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغة وقواعدها في الجملة، ولكنه حسن الاختيار في تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام، حتى يسترعي سمعك ويثلج صدرك ويملك قلبك. وسوء الاختيار في شيء من ذلك قد ينزل به حتى تمجّه اذنك وتغثى منه نفسك وينفر منه طبعك.

ذلك أنّ اللغة فيها العامّ والخاصّ، والمطلق والمقيّد، والمجمل والمبيّن، وفيها العبارة والإشارة، والفحوى والإيماء، وفيها الخبر والإنشاء، وفيها الجمل الإسمية والفعلية، وفيها النفي والإثبات، وفيها الحقيقة والمجاز، وفيها الإطناب والإيجاز، وفيها الذكر والحذف، وفيها الابتداء والعطف، وفيها التعريف والتنكير، وفيها التقديم والتأخير، وهلمّ جزاً. ومن كلّ هذه المسالك ينفذ الناس إلى أغراضهم غير ناكبين بوضع منها عن أوضاع اللغة جملة، بل هم في شعابها يتفرّقون وعند حدودها يلتقون.

بيد أنّه ليس شيء من هذه المسالك بالذي يجهل في كل موطن، وليس شيء منها بالذي يقبح في كل موطن، إذن لسان الأمر على طالبه، ولأصبحت البلاغة في لسان الناس طعماً واحداً وفي سمعهم نغمة واحدة، كلّاً، فإنّ الطريق الواحد قد يبلغك مأمنك حيناً، ويقصر بك عن غايتك حيناً آخر. وربّ كلمة تراها في موضع ما كالخرزة الضائعة، ثمّ تراها بعينها في موضع آخر كالدرّة اللامعة. فالشأن إذن في اختيار هذه الطرق أيّها أحقّ بأن يسلك في غرض غرض، وأيّها أقرب توصيلاً إلى مقصد مقصد، في الجدال أيّها أقوم بالحجّة وأدحض للشبهة، وفي الوصف أيّها أدقّ تمثيلاً للواقع، وفي موطن اللين

أيها اخفّ على الأسماع وأرفق للطباع، وفي موطن الشدة أيّها أشدّ اطلاعاً على الأفئدة بتلك النار الموقدة، وعلى الجملة أيّها أوفى بحاجات البيان وأبقى بطراوته على الزمان.

والأمر في هذا الاختيار عسير غير يسير، لأنّ جمال الاختيار كثير الشعب، مختلف الألوان في صور المفردات والتراكيب، والناس ليسوا سواء في استعراض هذه الألوان، فضلاً عن الموازنة بينها، فضلاً عن حسن الاختيار فيها. فرب رجلين يهتدي أحدهما إلى ما غفل عنه صاحبه، ويغفل كل منهما عمّا هدى إليه الآخر، ورب وجه واحد يفوتك هاهنا يعدل وجهين تحصلهما هناك، أو بالعكس.

فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخيّر له أشرف المواد، وأمسّها رحماً بالمراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج. ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحقّ بها وهي أحقّ به، بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلّا مرآته الناصعة وصورته الكاملة. ولا يجد اللفظ في معناه إلّا وطنه الأمين وقراره المكين، لا يوماً أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور. فلا المكان يريد بساكنه بدلاً، ولا الساكن يبغي عن منزله حولاً. وعلى الجملة يجيئك من هذا الاسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان^(١).

* * *

نماذج من فوارق اللغة

وإذ قد عرفت أنّ من عمدة السبب في الاعجاز البياني للقرآن هو جانب رعايته للمزايا اللغوية، وإحاطته بفوارق الأوضاع إحاطة فاقت طوق البشر وخرجت عن طوع إرادته القصيرة. فكان جديراً أن نلّم الإمامة عابرة بنماذج من تلك الفوارق اللغوية كشواهد مثال على أنّ مرّة المترادفات إلى المتفارقات في نهاية المطاف، وأنّ كل وضع إنما يختصّ بميزة يفتقدها وضع مشابه يحسبه النظر البادي مثيله في المفاد! أما النظرة الدقيقة فتقتضي بخلافه وأن لا ترادف في أوضاع اللغة حسباً حقّقه أهل التحقيق.

وهذا موضع دقيق وفي نفس الوقت خطير، إنما كان يدركه الجهابذة من أهل الفصاحة وعلماء البيان. وقد لمستّه أقحاح العرب - منذ أول يومهم - في تعابير القرآن فأعجبته إحاطته والوفرة من مزاياه، بمافاق مقدورهم وهم صناديد اللغة وأفذاذ الخطابة والبيان. ومن ثمّ كان اعترافهم بالعجز، وأنه ليس من كلام البشر وأنه يعلو وما يُعلى.

قال أبو منصور الثعالبي النيسابوري (المتوفى سنة ٤٣٠): لو لم يكن في الإحاطة بخصائص اللغة العربية والوقوف على مجارها وتصاريحها والتبحر في جلائلها ودقائقها إلا قوّة اليقين في معرفة إعجاز القرآن وزيادة البصيرة في إثبات النبوة التي هي عمدة الإيمان لكفى بذلك فضلاً يحسن أثره ويطيب في

الدارين ثمره^(١).

وقال أبو هلال العسكري (المتوفى حدود سنة ٤٠٠): إن اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني، لأن الاسم كلمة تدل على معنى دلالة بالإشارة، فاذا أُشير إلى الشيء مرةً فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة، وواضع اللغة حكيم لا يأتي بما لا يفيد، فإن أُشير منه في الثاني والثالث إلى خلاف ما أُشير إليه في الأول كان ذلك صواباً، فهذا يدل على أن كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة، فإن كل واحد منها يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلا لكان الثاني فضلاً لا يحتاج إليه. وإلى هذا ذهب المحققون من العلماء. وإليه أشار المبرّد في تفسير قوله تعالى: «لكلّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً»^(٢) قال: فعطف «شرعة» على «منهاج»، لأن الشرعة لأول الشيء والمنهاج لمعظمه ومتّسعه. واستشهد على ذلك بقولهم: شرع فلان في كذا، إذا ابتدأه، وأنهج البلى في الثوب، إذا اتسع فيه. قال: ويعطف الشيء على الشيء وإن كانا يرجعان إلى شيء واحد إذا كان في أحدهما خلاف للآخر، فأما إذا أُريد بالثاني ما أُريد بالأول فعطف أحدهما على الآخر خطأ. قال الشاعر:

امرتك الخير فافعل ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا نشب

قال المبرّد: المال إذا لم يقيّد فإنما يعنى به الصامت، وأما النشب فهو ما ينشب ويثبت من العقارات، فقد اختلفا.

وكذلك قول الحطيئة:

ألا حبّذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبُعد

(١) فقه اللغة وسر العربية: ص ٢١.

(٢) المائدة: ٤٨.

وذلك أنّ النأي يكون لما ذهب عنك إلى حيث بلغ، وأدنى ذلك أن يقال له: نأى. والبُعد تحقيق التروّج والذهاب إلى الموضع السحيق. وتقدير الشعر: أتى من دونها النأي الذي يكون أول البُعد، والبُعد الذي يكاد يبلغ الغاية. قال أبو هلال: والذي قاله المبرد هاهنا في العطف يدلّ على أنّ جميع ما جاء في القرآن وعن العرب من لفظين جارين مجرى ما ذكرنا، من العقل واللبّ، والمعرفة والعلم، والكسب والجرح، والعمل والفعل، معطوفاً أحدهما على الآخر. فإنما جاز هذا فيها لما بينهما من الفرق في المعنى.

ولا يجوز أن يكون قَعَلَ وأَفْعَلَ بمعنى واحد، كما لا يكونان على بناء واحد، إلّا أن يجيء ذلك في لغتين، فأما في لغة واحدة فحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد، كما ظنّ كثير من النحويين واللغويين. وإنما سمعوا العرب تتكلّم بذلك على طباعها وما في نفوسها من معانيها المختلفة وعلى ما جرت به عاداتها وتعارفها، ولم يعرف السامعون تلك العلل والفروق، فظنّوا ما ظنّوه من ذلك وتأوّلوا على العرب ما لا يجوز في الحكمة... وقال المحقّقون من أهل العربية: لا يجوز أن تختلف الحركتان في الكلمتين ومعناهما واحد.

قالوا: فإذا كان الرجل عدة للشيء قيل فيه «مِفْعَل» مثل مِرْحَم ومُحْرَب، وإذا كان قوياً على الفعل قيل «فَعُول» مثل صبور وشكور. وإذا فعل الفعل وقتاً بعد وقت قيل «فَعَال» مثل عَلَام وصَبَّار. وإذا كان ذلك عادة له قيل «مِفْعَال» مثل معوان ومعطاء ومهداء. ومن لم يتحقّق المعاني يظنّ أنّ ذلك كله يفيد المبالغة فقط، وليس الأمر كذلك، بل هي مع إفادتها المبالغة تفيد المعاني التي ذكرناها.

وكذلك قولنا: فعلت، يفيد خلاف ما يفيد أفعلت، في جميع الكلام إلا ما كان من ذلك في لغتين. فقولك: سقيت الرجل، يفيد أنك أعطيته ما يشربه أو صببت ذلك في حلقه. وأسقيته يفيد أنك جعلت له سقياً أو حظاً من الماء.

وقولك : شرقت الشمس، يفيد خلاف غربت، وأشرقت يفيد أنها صارت ذات إشراق. ورعدت السماء أتت برعد، وأرعدت صارت ذات رعد.

فأما قول بعض أهل اللغة: إنّ «الشَّعْر» بفتح العين و«الشَّعْر» بسكونها و«التَّهَر والتَّهَر» كذلك بمعنى واحد، فإنّ ذلك لغتان.

وإذا كان اختلاف الحركات. يوجب اختلاف المعاني فاختلف المعاني نفسها أولى أن يكون كذلك.

ولهذا المعنى أيضاً قال المحققون من أهل العربية: إنّ حروف الجر لا تتعاقب حتى قال ابن درستويه: في جواز تعاقبها إبطال حقيقة اللغة وإفساد الحكمة فيها وخلاف ما يوجب العقل والقياس.

قال أبو هلال: وذلك أنها اذا تعاقبت خرجت عن حقائقها ووقع كل واحد منها بمعنى الآخر، فأوجب ذلك أن يكون لفظان مختلفان لهما معنى واحد، فأبى المحققون أن يقولوا بذلك، وقال به من لا يتحقق المعاني.

ولعلّ قائلًا يقول: إنّ امتناعك من أن يكون للفظين مختلفين معنى واحد ردّ على جميع أهل اللغة، لأنهم إذا أرادوا أن يفسروا اللب قالوا: هو العقل، أو الجرح قالوا: هو الكسب، أو السكب قالوا: هو الصبّ، وهذا يدلّ على أنّ اللب والعقل عندهم سواء، وكذلك الجرح والكسب، والسكب والصبّ، وما أشبه ذلك.

قلنا: ونحن أيضاً كذلك نقول، إلّا أنا نذهب إلى أنّ قولنا: اللب - وإن كان هو العقل - فإنّه يفيد خلاف ما يفيد قولنا: العقل. ومثل ذلك القول، وإن كان هو الكلام والكلام هو القول، فإنّ كل واحد منها يفيد بخلاف ما يفيد الآخر. وكذلك جميع ما في هذا الباب.

ولهذا المعنى قال المبرد: الفرق بين أبصرته وبصرته به، على اجتماعهما في الفائدة، أنّ بصرت به معناه أنك صرت بصيراً بموضعه وفعلت، أي انتقلت إلى

هذا الحال. وأما أبصرته فقد يجوز أن يكون مرة ويكون لأكثر من ذلك . وكذلك أدخلته ودخلت به، فإذا قلت أدخلته جاز أن تدخله وأنت معه وجاز أن لا تكون معه. ودخلت به إخبار بالدخول لك وهو معك بسببك . قال أبو هلال: وحاجتنا إلى الاختصار تلزمنا الاختصار في تأييد هذا المذهب على ما ذكرناه وفيه كفاية^(١).

* * *

وبعد، فهناك لأبي سليمان البستي تحقيق لطيف عن خواص المزايا اللغوية، وضرورة العلم بفوارقها، وأنه الأساس لبناء بلاغة الكلام. قال: اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام، موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة. ذلك أن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكالنعمة والصفة، وكقولك: أقعد واجلس، بلى ونعم، وذلك وذاك، ومن وعن، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات مما سنذكر تفصيله فيما بعد.

والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في بعضها. تقول: عرفت الشيء وعلمته، إذا أردت الإثبات الذي يرتفع معه الجهل، إلا أن قولك «عرفت» يقتضي مفعولاً واحداً كقولك: عرفت زيدا،

(١) الفروق اللغوية: ص ١١ - ١٤.

و«علمتُ» يقتضي مفعولين، كقولك: علمتُ زيداً عاقلاً. ولذلك صارت المعرفة تستعمل خصوصاً في توحيد الله تعالى وإثبات ذاته، فتقول: عرفتُ الله، ولا تقول: علمتُ الله، إلا أن تضيف إليه صفة من الصفات فتقول: علمتُ الله عدلاً، وعلمته قادراً، ونحو ذلك من الصفات. وحقيقة البيان في هذا أن العلم ضده الجهل، والمعرفة ضده النكرة.

و(الحمد والشكر) قد يشتركان أيضاً، الحمد لله على نعمه أي الشكر لله عليها. ثم قد يتميز الشكر عن الحمد في أشياء فيكون الحمد ابتداءً بمعنى الثناء ولا يكون الشكر إلا على الجزاء، تقول: حمدتُ زيداً، إذا أثنت عليه في أخلاقه ومذاهبه وإن لم يكن سبق إليك منه معروف. وشكرتُ زيداً، إذا أردت جزاءه على معروف أسداه إليك. ثم قد يكون الشكر قولاً كالحمد، ويكون فعلاً كقوله عز وجل: «اعملوا آل داود شكراً»^(١). وإذا أردت أن تتبين حقيقة الفرق بينهما اعتبرت كل واحد منها بضده، وذلك أن ضده الحمد الذم، وضده الشكر الكفران. وقد يكون الحمد على المحبوب والمكروه، ولا يكون الشكر إلا على المحبوب.

وأما (الشح والبخل)^(٢) فقد زعم بعضهم أن البخل منع الحق وهو ظلم، والشح ما يجده الشحيح في نفسه من الخزاة عند أداء الحق وإخراجه من يده. قال: ولذلك قيل: الشحيح أعذر من الظالم.

(١) سبأ: ١٣.

(٢) قال الراغب: الشح بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة. قال تعالى: «وأحضرت الأنفس الشح» النساء: ١٢٨. «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» الحشر: ٩ والتغابن: ١٦. أي ينفلت عن رذيلتها بترويض النفس ومكافحة خسائسها.

على أن البخل صفة تنبئ عن عمل رذيل وإن كان منشأه خزاة في النفس. أما الشح فهو نعت عن صفة نفسية خسيسة لا غير.

قلت: وقد وجدت هذا المعنى على العكس، ممّا روي عن ابن مسعود، حدّثنا أحمد بن إبراهيم بن مالك عن عمر بن حفص السدوسي عن المسعودي عن جامع بن شدّاد عن أبي الشعثاء قال: قلت لعبد الله بن مسعود: يا أبا عبد الرحمن، إني أخاف أن أكون قد هلكت قال: ولم ذاك؟ قلت: لأنني سمعت الله يقول: «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون»^(١). وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء! قال: ليس ذاك الشح الذي ذكره الله في القرآن، ولكن الشح أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذاك البخل، وبئس الشيء البخل.

وأما (النعت والصفة) فإنّ الصفة أعمّ والنعت أخصّ، وذلك أنك تقول: زيد عاقل وحليم، وعمرو جاهل وسفيه، وكذلك تقول: زيد أسود ودميم، وعمرو أبيض وجميل، فيكون ذلك صفةً ونعتاً لهما، وأما النعت فلا يكاد يطلق إلّا فيما لا يزول ولا يتبدّل، كالطول والقصر والسواد والبياض ونحوهما من الأمور اللازمة.

وأما قول القائل لصاحبه: اقعد واجلس، فقد حكى لنا عن النضر بن شميل أنه دخل على المأمون عند مقدمه مرو، فثل بين يديه وسلّم، فقال له المأمون: اجلس، فقال: يا أمير المؤمنين ما أنا بمضطجع فأجلس، قال: فكيف تقول؟ قال: قل: اقعد، فأمر له بجائزة.

قلت: وبيان ما قاله النضر بن شميل إنّما يصحّ إذا اعتبرت إحدى الصفتين بالأخرى عند المقابلة، فتقول: القيام والقعود، كما تقول: الحركة والسكون، ولا نسمعهم يقولون: القيام والجلوس، وإنّما يقال: قعد الرجل عن قيام، وجلس عن ضجعة واستلقاء ونحو ذلك.

وأما قولك: (بلى ونعم) فإن بلى جواب عن الاستفهام بحرف النفي كقول

القائل: ألم تفعل كذا؟ فيقول صاحبه: بلى، كقوله عزّوجلّ: «ألست بركم قالوا بلى»^(١) وأما نعم فهو جواب عن الاستفهام نحو هل، كقوله سبحانه: «هل وجدتم ما وعد رّكم حقاً قالوا نعم»^(٢).

وقال الفراء: «بلى» لا يكون إلّا جواباً عن مسألة يدخلها طرف من الجحد. وحكي عنه أنه قال: لو قالت الذرية -عند ما قيل لهم: ألست بركم-: نعم، بدل قولهم: بلى، لكفروا كلّهم.

وأما قولك: (ذاك وذلك) فإن الإشارة بذلك إنّما تقع إلى الشيء القريب منك، وذاك إنّما يستعمل فيما كان متراخياً عنك.

وأما (من وعن) فإنهما يفترقان في مواضع، كقولك: أخذت منه مالاً، وأخذت عنه علماً.

فإذا قلت: سمعت منه كلاماً أردت سماعه من فيه، وإذا قلت: سمعت عنه حديثاً كان ذلك عن بلاغ. وهذا على ظاهر الكلام وغالبه. وقد يتعارفان في مواضع من الكلام.

ومما يدخل في هذا الباب ما حدّثني محمّد بن سعدويه عن ابن الجنيّد عن ابن النضر عن مساور عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال: جمعنا الحسن لعرض المصاحف، أنا وأبا العالية الرياحي ونصر بن عاصم الليثي وعاصم الجحدري. فقال رجل: يا أبا العالية، قول الله تعالى في كتابه «فويل للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون»^(٣)، ما هذا السهو؟ قال: الذي لا يدري كم ينصرف، عن شفع أو عن وتر. فقال الحسن: مه يا أبا العالية، ليس هذا، بل الذين سهوا عن ميقاتهم حتى تفوتهم. قال الحسن: ألا ترى قوله عزّوجلّ: «عن صلاتهم».

قلت: وإنما أتى أبو العالية في هذا حيث لم يفرّق بين حرف «عن» وحرف «في» فتنبّه له الحسن فقال: ألا ترى قوله «عن صلاتهم». يؤيد أنّ السهو الذي هو الغلط في العدد إنّما هو يعرض في الصلاة بعد ملابتها، فلو كان هو المراد لقليل: في صلاتهم ساهون، فلمّا قال: «عن صلاتهم» دلّ على أنّ المراد به الذهاب عن الوقت، لأنه سهو عن أصل الصلاة.

ونظير هذا ما قاله القتيبي^(١) في قوله تعالى: «ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين»^(٢)، زعم أنه من قوله: عشوت إلى النار أعشوه، إذا نظرت إليها. فغلطوه في ذلك وقالوا: إنّها معنى قوله «من يعرض عن ذكر الرحمن» ولم يفرّق بين عشوت إلى الشيء وعشوت عنه. وهذا الباب عظيم الخطر، وكثيراً ما يعرض فيه الغلط، وقديماً عني به العربي الصريح، فلم يعرف (أي القتيبي) ترتيبه وتنزيله.

روي عن البراء بن عازب أنّ أعرابياً جاء إلى النبيّ (صلى الله عليه وآله) فقال: علّمني عملاً يدخلني الجنة، فقال: اعتق النسمة وفكّ الرقبة، قال: أوليسوا واحداً؟ قال: لا، عتق النسمة أن تنفرد بعقبتها، وفكّ الرقبة أن تعين في ثمنها.

فتأمل كيف رتب الكلامين واقتضى من كل واحد منها أخصّ البيانين فيما وضع له من المعنى وضمّنه من المراد.

وجمع هارون الرشيد سيويه والكسائي، فألقى سيويه على الكسائي مسألة، فقال: هل يجوز قول القائل: كاد الزنبور يكون العقرب فكأنه إياها أو كأنها إياه؟ فجوّزه الكسائي على معنى كأنه هي أو كأنها هو. وأباه سيويه، فأحضر

(١) هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٠.

(٢) الزخرف: ٣٦.

الرشيده جماعة من الأعراب الفصحاء كانوا مقيمين بالباب وسألهم عنها بحضرتها، فصوّبوا قول سيبويه ولم يجوّزوا ما قاله الكسائي. قيل: وذلك أنّ حرف «إيّا» إنّما يستعمل في موضع النصب، وهي هنا في موضع رفع فلم يجز. ومثل هذا كثير، واستقصاؤه يطول.

قلت: ومن هاهنا تهيب كثير من السلف تفسير القرآن، وتركوا القول فيه حذراً أن يزلّوا فيذهبوا عن المراد، وإن كانوا علماء باللسان فقهاء في الدين. هذا مع ما حثّ النبي (صلى الله عليه وآله) على تعلّم إعراب القرآن وطلب معاني الغريب منه، قال: اعرّبوا القرآن واتمسّوا غرائبهِ^(١).

* * *

رأينا من المناسب أن نستدرك على البستي بعض مافاته، وليس الغرض الاستيعاب، فهناك فروق ومزايا لغوية يرتفع شأن الكلام برعايتها، ولا سيّما ما جاء في القرآن من تعابير ذوات اختصاص ربما غفل عنها أهل اللسان أنفسهم لدى الاستعمال:

(العلم والمعرفة) قال الراغب: المعرفة والعرّفان إدراك الشيء بتفكّر وتدبّر لأثره، وهو أخصّ من العلم، ويضادّه الإنكار. ويقال: فلان يعرف الله، ولا يقال: يعلم الله، متعدّياً إلى مفعول واحد، لما كان معرفة البشر لله هي بتدبّر آثاره دون إدراك ذاته... ويقال: الله يعلم كذا، ولا يقال: يعرف كذا، لما كانت المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصّل به بتفكّر. وأصله من عرفت أي أصبت عَرَفه أي رائجته، أو من أصبت عَرَفه أي خدّه^(٢).

قلت: ومن هنا قيل: المعرفة مسبوقة بالجهل، والعلم قد يكون أزلياً، فلم

(١) بيان إعجاز القرآن، في ثلاث رسائل في الإعجاز: ص ٢٩-٣٤.

(٢) المفردات: ص ٣٣١.

تصح نسبة العرفان إليه تعالى ولم يأت في القرآن أيضاً. فلا يقال: عرف الله كذا، إذ لم يكن يجهره قط.

و«علم» قد يتعدى إلى مفعول واحد: «قد علم كل أناس مشربهم»^(١). «كلّ قد علم صلاته وتسبيحه»^(٢). «فعلم ما في قلوبهم»^(٣). «ولتعلمن نبأه بعد حين»^(٤). «ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم»^(٥) إلى غيرهن من آيات. فيكون بمعنى عرف في غير مانسبته إلى الله سبحانه إلا مجازاً وتشبيهاً. نعم إذا تعلق العلم بنسبة قائمة بين المسند والمسند إليه فحينذاك يقتضي مفعولين لذلك، وهو أمر تقتضيه طبيعة الحال.

وقال أبو هلال العسكري: المعرفة أخص من العلم، لأنها علم بعين الشيء مفضلاً عما سواه، والعلم يكون مجملاً ومفضلاً. فكل معرفة علم وليس كل علم معرفة، وذلك أنّ لفظ المعرفة يفيد تمييز المعلوم من غيره، ولفظ العلم لا يفيد ذلك إلا بضرب آخر من التخصيص في ذكر المعلوم. والشاهد قول أهل اللغة: إنّ العلم يتعدى إلى مفعولين، ليس لك الاقتصار على أحدهما إلا أن تكون بمعنى المعرفة، كقوله تعالى: «لا تعلمونهم الله يعلمهم»^(٦). أي لا تعرفونهم الله يعرفهم. وإنما كان كذلك لأنّ لفظ العلم مبهم، فإذا قلت: علمتُ زيداً، فذكرته باسمه الذي يعرفه به المخاطب لم يفد، فإذا قلت: قائماً، أفدت لأنك دلت بذلك على أنك علمت زيداً على صفة جاز أن لا تعلمه عليها مع علمك به في الجملة. وإذا قلت: عرفتُ زيداً، أفدت لأنه بمنزلة قولك علمته متميّزاً من غيره، فاستغنى عن قولك متميّزاً من غيره لما في لفظ المعرفة من الدلالة على ذلك. والفرق بين العلم والمعرفة إنما يتبين في الموضع الذي يكون فيه جملة غير

(٤) ص: ٨٨.

(١) البقرة: ٦٠.

(٥) التوبة: ١٠١.

(٢) النور: ٤١.

(٦) الأنفال: ٦٠.

(٣) الفتح: ١٨.

مبهمة، ألا ترى أنّ قولك : علمتُ أنّ لزيد مالاً، وقولك : عرفتُ أنّ لزيد ولداً يجريان مجرى واحداً^(١).

(العلم واليقين) قال أبو هلال: والفرق بين العلم واليقين أنّ العلم هو اعتقاد الشيء على ما هو به على سبيل الثقة، واليقين هو سكون النفس وثلج الصدر بما علم. ولهذا لا يجوز أن يوصف الله تعالى باليقين. وقيل: اليقين العلم بالشيء بعد حيرة الشك، ولذلك يجعلونه ضدّ الشك فيقولون: شكّ ويقين، وقتلما يقال: شكّ وعلم. فاليقين ما يزيل الشكّ دون غيره من أضداد العلم^(٢).

(العلم والشعور) قيل: إنّ الشعور هو أن يدرك بالمشاعر وهي الحواس، كما أنّ الإحساس هو الإدراك بالحاسة، ولهذا لا يوصف به الله. والشعور إحساس بدائي ولو كان عن حسّ عاطفة، ولهذا كان الشعر شعراً لتأثيره في الشعور وهو إحساس النفس وإثارة عاطفتها.

(العلم والفطنة) الفطنة هي التنبيه على المعنى، وضدّها الغفلة. والفطنة ابتداء المعرفة من وجه غامض، فكل فطنة علم وليس كل علم فطنة، فلا يقال: الإنسان فطن بأنّ السماء فوقه، لأنه لا غموض فيه.

(العلم والفهم) الفهم هو العلم بمعاني الكلام خاصّة. ولا يوصف به الله، لأنه عالم بكلّ شيء على ما هو به من غير سبب فيما لم يزل.

(العلم والفقه) الفقه هو العلم بمقتضى الكلام على تأمله، ولهذا لا يقال: إنّ الله يفقه لأنه لا يوصف بالتأمل.

(العلم والإدراك) الإدراك لا يتعلّق إلا بوجود، والعلم أعم، وهو طريق من طرق العلم، وموقوف على أشياء مخصوصة، كما قاله العسكري.

(١) الفروق اللغوية: ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) المصدر: ص ٦٣.

(العلم والحس) الحس أول العلم «فلما أحس عيسى منهم الكفر»^(١) أي علمه في أول وهلة.

(العلم والبصيرة) البصيرة هي تكامل العلم والمعرفة بالشيء فلا يوصف به الله إلا على سبيل التجوّز، إذ لا يتكامل علمه تعالى وهو الكامل على الإطلاق.

(العلم والدراية) الدراية بمعنى الفهم الدقيق، فهو علم يشتمل على المعلوم من جميع وجوهه. وذلك أنّ الفعالة وضعت للاشتغال، كالعصابة والعمامة والقلادة.

(العلم والاعتقاد) الاعتقاد هو الجزم بالشيء جزماً قاطعاً، كأنه عقد عليه بعلمه تشبيهاً بعقد الحبل والخيط، فالعالم بالشيء على ما هو به كالعائد المحكم لما عقده. ولا يوصف به الله لأنّ علمه تعالى غنيّ عن العقد عليه بشدّ العلم.

(العلم والحفظ) الحفظ هو العلم بالمسموعات على وجه الضبط عليه دون الفرار عن الذهن، ولهذا لا يوصف به الله بهذا المعنى.

(العلم والشهود) الشهود علم بوجود الأشياء من غير واسطة، فهو أخصّ من العلم.

(العلم والذكر) الذكر وإن كان ضرباً من العلم فإنّه لا يستمى ذكراً إلا إذا وقع بعد النسيان وأكثر ما يكون في العلوم الضرورية ولا يوصف به الله. قال علي بن عيسى: الذكر يضاد السهو، والعلم يضاد الجهل، وقد يجمع الذكر للشيء والجهل به من وجه واحد.

(العلم والخبر) الخبر - بضمّ الخاء المعجمة - هو العلم بكنهه المعلومات على حقائقها، ففيه معنى زائد على العلم. والاسم خابر، وخير مبالغة مثل عليم

(١) آل عمران: ٥٢.

وقدير. قال كعب الأشقري:

وما جاءنا من نحو أرضك خابر ولا جاهل إلا يذمك يا عمرو
(العلم والرسخ) الرسخ هو أن يعلم الشيء بدلائل كثيرة أو بضرورة
لا يمكن إزالتها، وأصله الثبات على أصل يتعلق به. وإذا علم الشيء بدليل لم
يقبل إن ذلك رسخ.

(العلم والعقل) العقل هو العلم الأول الذي يزجر عن القبائح، وكل من
كان زاجره أقوى كان أعقل، وهو من قولك: عقل البعير، إذا شدّه فنعه من أن
يثور، لهذا لا يوصف الله تعالى به.

(العقل والأرب) الأرب وفور العقل من قولهم: عظم مؤرب، إذا كان
عليه لحم كثير وافر. وقده أريب، وهو المعلنى، وذلك أنه يأخذ النصيب المؤرب
أي الوافر.

(العقل واللب) اللب يفيد أنه من خالص صفات الموصوف به، والعقل
يفيد أنه يحصر معلومات الموصوف به فهو مفارق له من هذا الوجه. ولباب
الشيء ولبه خالصة. ولما لم يجوز أن يوصف الله تعالى بمعانٍ بعضها أخلص من
بعض لم يجوز أن يوصف باللب.

(العقل والنهى) النهى هي النهاية في المعارف وهي جمع واحدتها النّهية،
ويجوز أن يقال: إنها تفيد أن الموصوف بها يصلح أن ينتهي إلى رأيه. وجمع النهى
أنه وأنها.

(العقل والحجى) الحجى هو ثبات العقل من قولهم: تحجى بالمكان، إذا
أقام به.

(العقل والذهن) الذهن هو حسن الفهم نقيض سوء الفهم، وهو عبارة عن
وجود الحفظ لما يتعلمه الإنسان، ولا يوصف به الله لأنه لا يوصف بالتعلم.
(الظن والحسبان) الظن ضرب من الاعتقاد، وقد يكون حسان ليس

باعتقاد. قال أبو هلال: أصل الحسيان من الحساب تقول: أحسبه بالظنّ قدمات، كما تقول: أعدّه قد مات.

(السهو والنسيان) قال أبو هلال: النسيان إنما يكون عمّا كان، والسهو عمّا لم يكن. تقول: نسيت ما عرفتّه، ولا تقول: سهوت عنه. وإنما تقول: سهوت عن السجود في الصلاة، فتجعل السهو بدلاً عن السجود الذي لم يكن. (السهو والغفلة) قال: الغفلة تكون عمّا يكون، والسهو يكون عمّا لا يكون. تقول: غفلت عن هذا الشيء حتى كان، ولا تقول: سهوت عنه حتى كان. لأنك إذا سهوت عنه لم يكن، ويجوز أن تغفل عنه ويكون. والغفلة قد تكون عن فعل الغير، ولا يجوز أن يسهى عن فعل الغير. (الشكّ والريبة) الارتياح شكّ مع تهمة، يجوز أن تشكّ في أمطار السماء، ولا يجوز أن ترتاب فيه.

قال أبو هلال: الفرق بين (الحُبّ والودّ) أنّ الحُبّ فيما يوجبه ميل الطباع والحكمة جميعاً، والودّ من جهة ميل الطباع فقط. ألا ترى أنك تقول أحبّ فلاناً وأودّه، وتقول: أحبّ الصلاة ولا تقول أودّ الصلاة.

والفرق بين (الإرادة والمشئّة) أنّ الإرادة تكون لما يتراخى وقته ولما لا يتراخى، والمشئّة لما لم يتراخ وقته.

والفرق بين (المشيئة والعزم) أنّ العزم إرادة يقطع بها المريد رويته في الإقدام على الفعل أو الإحجام عنه، ويختصّ بإرادة المريد لفعل نفسه لأنه لا يجوز أن يعزم على فعل غيره.

والفرق بين (القصد والإرادة) أنّ القصد مختصّ بفعل نفسه والإرادة غير مختصة. والقصد أيضاً إرادة الفعل في حال إيجاده فقط. فلا تصحّ أن تقول: قصدتُ أن أزورك غداً.

والفرق بين (القصد والنحو) أنَّ النحو قصد الشيء من وجه واحد.
والفرق بين (الهمم والإرادة) أنَّ الهمم آخر العزيمة.
وبين (الهمم والقصد) أنه قد يهَمُّ الإنسان بالأمر قبل القصد إليه.
والفرق بين (الغضب والسخط) أنَّ السخط لا يكون إلا من الكبير على الصغير والغضب أعم.

والفرق بين (السخاء والجود) أنَّ السخاء هو أن يلين الإنسان عند السؤال ويسهل مهره للطالب، من قولهم: سخوت النار أسخوها سخواً، إذا ألينتها. وسخوت الأديم لينته، وأرض سخاوية لينتة. ولهذا لا يوصف به الله تعالى. والجود كثرة العطاء من غير سؤال من قولك: جادت السماء، إذا أمطرت مطراً غزيراً. والفرس الجواد الكثير الإعطاء للجري. والله تعالى جواد لكثرة عطائه فيما تقتضيه الحكمة.

والفرق بين (الكرم والجود) أنَّ الكرم صفة نفسية شريفة تبعث على إفاضة الخير وتنبئ عن علو همة. ومن ثم فهو من أفضل النعوت. وهو منشأ صفتي الجود والسخاء معاً.

والفرق بين (الرحمن والرحيم) أنَّ الرحمن أشد مبالغة لأنه أشد عدولاً، وإذا كان العدول على المبالغة كلما كان أشد عدولاً كان أشد مبالغة.

قلت: هذه إشارة إلى القاعدة المعروفة: زيادة المباني تدل على زيادة المعاني، وستتكلّم عنها.

والفرق بين (الضرّ-بالضم-، والضرّ-بالفتح-) أنَّ الأول أبلغ لأن به عدولاً من الفتح.

والفرق بين (القسط والعدل) أنَّ القسط هو العدل الذي يبين، ومنه سمي المكيال قسطاً والميزان قسطاً. وقد يكون من العدل ما يخفى.

وبين (القيمة والثمن) أنَّ القيمة ما تتساوى مع الثمن، والثمن أعم.

وبين (العقاب والعذاب) أنّ العقاب ينبىء عن استحقاق والعذاب أعمّ.
والفرق بين (سوف والسين) أنّ سوف إطماع كقولهم: سوفته، أي
أطمعته، ولا كذلك السين.
إلى غير ذلك من فوارق ذكرهنّ في ثلاثين باباً على الترتيب.

النسج يختلف أسماؤه باختلاف المنسوج، يقال: نسج الثوب، ورمل
الحصير، وسق الخوص، وظفر الشعر، وقتل الحبل، وجدل السير، ومسد الجلد،
وحاك الكلام على الاستعارة.

وهكذا تختلف أسماء الخياطة، يقال: خاط الثوب، وخرز الخفّ، وخصف
النعل، وكشب القربة، وسرد الدرع، وحاص عين البازي^(١).

وخروج الماء من أشياء مختلفة تختلف أسماؤه، من السحاب: سح. ومن
الينبوع: نبع. ومن الحجر: انبجس. ومن النهر: فاض. ومن السقف: وكف.
ومن القربة: سرب. ومن الإناء: رشح. ومن العين: انسكب. ومن المذاكير:
نطف. ومن الجرح: ثع^(٢).

وللماء في حالاته المختلفة أسماء، فإن كان دائماً لا ينقطع ولا ينزح في عين أو
بئر فهو: عدّ. وإذا كان كثيراً إذا حرّك منه جانب لم يضطرب جانبه الآخر
فهو: كثر. فإذا كان كثيراً عذباً فهو: غدق. فإذا كان مغرقاً فهو: غمر. وإذا
كان تحت الأرض فهو: غور. فإذا كان جارياً فهو: غيل. فإذا كان على ظهر
الأرض يسقى بغير آلة فهو: سيح. فإذا كان ظاهراً جارياً فهو: معين وسنم. وإن
كان جارياً بين الشجر فهو: غلل. وإن كان مستنقعاً فهو: ثغب. فإذا نبط من
قعر البئر فهو: نبط. فإذا غادر السيل منه قطعة فهو: غدير. فإذا كان إلى

(٢) سرّ العربية: ص ٢٧٩.

(١) سرّ العربية: ص ٢٤٣.

الكعبين أو انصاف السوق فهو: ضحضاح. فاذا كان قريب القعر فهو: ضحل.
 فاذا كان قليلاً فهو: ضهل. فاذا كان أقلّ منه فهو: وشل وتمد. فاذا كان
 خالصاً فهو: قُراح. فاذا وقعت فيه الأقمشة فهو: سدم. فاذا خاضته الدواب
 فهو: كدر. فاذا كان متغيراً فهو: سجس. فاذا كان منتناً فهو: آجن، فاذا كان
 غير صالح للشرب من نتنه فهو: آسن. فاذا كان بارداً منتناً فهو: غساق. فاذا
 كان حارّاً فهو: سخن. فاذا كان شديد الحرارة فهو: حيم. فاذا كان مسخناً
 فهو: موغر. فاذا كان بين الحارّ والبارد فهو: فاتر. فاذا كان بارداً فهو: قار، ثم
 خصر، ثم شيم، ثم شنان. فاذا كان جامداً فهو: قارس. فاذا كان سائلاً فهو:
 سرب. فاذا كان طرياً فهو: غريض. فاذا كان ملحاً فهو: زعاق. فإن اشتدت
 ملوحته فهو: حراق. فاذا كان مرّاً فهو: قعاع. فاذا اجتمعت فيه الملوحة والمرارة
 فهو: أجاج. فاذا كان قد يشربه الناس على مافيه فهو: شرب. وإذا كان بحيث
 يشربه الدواب ولا يشربه الناس إلا عند الضرورة فهو: شروب. فاذا كان عذباً
 فهو: فرات. فإن زادت عذوبته فهو: نُقاخ. فاذا كان زاكياً في الماشية فهو:
 نير. فاذا كان سهلاً سائغاً متسلسلاً في الحلق من طيبه فهو: سلسل وسلسال.
 فاذا كان يمسّ الغلة فيشفئها فهو: مسوس. فاذا جمع الصفا والعذوبة والبرد فهو:
 زلال. فاذا كثر عليه الناس حتى نزحوه بشفاهم فهو: مشفوه، ثم مثمود، ثم
 مضاف، ثم ممكول، ثم مجموم، ثم منقوص^(١).

هذه خمس وخمسون اسماً للماء في حالاته المختلفة تدلّك على سعة مافي هذه
 اللغة من تنوع تعابيرها وتفنّن أساليبها في الأداء والبيان، ونظائرها هذا كثير في
 كثير لا يمكن عدّها ولا يستطيع حصرها، فكيف الإحاطة بأطراف اللغة
 والإمساك على شواردها في إطار محدود؟!

وللسيف أيضاً كسائر ألفاظ العرب أسامٍ عديدة حسب حالات مختلفة ملحوظة فيه، فإذا كان عريضاً فهو: صفيحة. وإذا كان لطيفاً فهو: قضيب. وإذا كان صقيلاً فهو: خشيب، وهو أيضاً الذي بدىء طبعه ولم يحكم عمله. فإذا كان رقيقاً فهو: مهو. فإذا كان فيه حزوز مطمئنة فهو: مفقر، ومنه ذو الفقار. فإذا كان قطاعاً فهو: مقصل ومخضل ومخذم وجُراز وعُضب وحُسام وقاضب وهُدام. فإذا كان يمرّ في العظام فهو: مصمّم. فإذا كان يصيب المفاصل فهو: مطبّق. وإذا كان ماضياً في الضريبة فهو: رسوب. وإذا كان صارماً لا ينثني فهو صمصامة، فإذا كان في منته أثر فهو: مأثور. فإذا أطال عليه الدهر فتكسّر حذّه فهو: قَصِم. فإذا كانت شفرته حديداً ذكراً ومنته أنثى فهو: مذكّر، والعرب تزعم أن ذلك من عمل الجنّ. فإذا كان نافذاً ماضياً فهو: اصليت. فإذا كان له بريق فهو: ابريق. فإذا كان قد سوي وطبع بالهند فهو: مهنّد وهندي. وإذا كان معمولاً بالمشارف - وهي قرى من أرض العرب تدنو الريف - فهو: مشرفي. فإذا كان في وسط السوط فهو: مغول. فإذا كان قصيراً يشتمل عليه الرجل فيغطيه بثوبه فهو: مشمل. فإذا كان قليلاً لا يميضي فهو: كهان ودوان. فإذا امتن في قطع الشجر فهو: معضد. فإذا امتن في قطع العظام فهو: معضاد^(١).

فهذه ثلاثون اسماً للسيف تداولتها العرب بألسنتها كلّاً في موضعه الخاص يعرفه الألمعي الصميم.

وإليك مقتطفاً من كتاب «الألفاظ الكتابية» لعبد الرحمان بن عيسى الهمداني (المتوفى سنة ٣٢٠هـ) الذي قال صاحب بن عباد بشأن كتابه هذا: لو

(١) سرّ العربية للثعالبي: ص ٢٥٠ - ٢٥١.

أدركت مصنفه لأمرت بقطع يده. فسئل عن السبب، فقال: جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة، فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأذنين تعب الدروس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة.

قال: يقال في الحرب -عندما برز الفريقان للقتال-: تقاربت الفئتان، وبدأ الفئتان، وتراءى الفريقان، وتشام الحزبان، وتشامت الفئتان، وتدانى الفريقان، وتصافت الفئتان، وتساير الفريقان، وتصاقب الحزبان، وتدانى الطائفتان، وتصافق الجمعان، ومنه قوله تعالى: «فلما تراءا الجمعان»^(١).

ويقال: ضعضع الله أركان أعدائه، وزلزل أقدامهم، ونخب قلوبهم، وهزم أفئدتهم، ورعب قلوبهم، وأطاش سهامهم، وأطار قلوبهم، وأرعد فرائضهم، وأسكن الرعب جوانحهم، وقذف الرعب في صدورهم، وصرف وجوههم، وملا قلوبهم وصدورهم رهبة وخشية وهيبة، وولوا مدبرين، ومنحوا الأولياء أكتافهم، وطأمن الله أقدامهم، وانصرفوا وقد أضلّ الله سعيهم وخيب آمالهم، وكذب ظنونهم، وكذب أحاديثهم على أنفسهم، وردّهم بغیظهم على أعقابهم لايلوي آخرهم على أولهم.

ويقال: كبا زند العدو اذا ولّى أمره، وصلد وأصلد، وأفل نجمه، وذهبت ريحه، وطفئت جمرته، وأخلقت جدّته، وانكسرت شوكته، وكلّ حدّه، وفلّ حدّه، وتعنس جدّه، وانقطع نظامه، وتضعضع ركنه، وفّت عضده، وذللّ عزّه، وسهلت منعته، ورقّ جانبه، ولانت عريكته.

ويقال: هذا أرّد لعاديته، وأحصد لشوكته، وأقع لكلبه، وأكبي لزندته، وأكسر لغربه، وأفلّ لحدّه، وأسكن لفوره، وأطفأ لجمره، وأكدى لمحافره، وأثنى لغربه، وأصلد لمعوله، وأكفّ لشؤبوبة^(٢).

زيادة المباني تستدعي زيادة المعاني:

قاعدة كلية مطردة تدعمها حكمة الوضع، على ماسلف في كلام أبي هلال العسكري، إذ ليست الأوضاع سوى دلائل وإشارات إلى المعاني والمرادات، ولولا اختصاص كل لفظة - في مادتها وهيأتها - بمعنى من المعاني، فلا تتعداه إلى غيره كما لا يدلّ عليه غيرها، لانتفت فائدة الوضع، وعاد محذور الإبهام والترديد - كما في الاشتراك - أو نقض حكمته - كما في المترادفات - بعد الاستغناء عن الوضع الثاني بالوضع الأول، وهو عبث ولغو.

وعليه فكل تصريف في الكلمة أو تغيير في حركتها فإنما هو للدلالة على معنى جديد لم يكن فيما قبل، فثل «ضَرَ» و«أضَرَ» لا بد أن يختلف معناهما، كما هو كذلك، فالأول للدلالة على إيقاع الضرر به سواء قصده أم لم يقصده، والثاني إيقاعه عن عمد وقصد. يقال: ضَرَّه، وهو بمعنى ضَدَّ نفعه. وأضَرَّه: جلب عليه الضرر، كمن حاول تمهيد أسباب مؤاتية للإضرار به. كما في «ضَرَ» و«ضَارَّ» أيضاً من الفرق، فالأول إضراره بالفعل، والثاني محاولة إضراره سواء تمكّن من الإيقاع به أم لم يتمكّن. كما في «خدع» و«خادع» في قوله تعالى: «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ»^(١)، أي يحاولون خداعه تعالى والمؤمنين لكنهم فاشلون في هذه المحاولة، سوى أنهم يخدعون بالفعل أنفسهم وينخدعون بتصورهم أنهم خدعوا الله ورسوله.

فقوله (صلى الله عليه وآله): «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام» في حديث سمرة بن جندب^(٢)، المراد به: أن الإسلام لا يدع مجالاً لأحد في أن يضرّ غيره أو أن يحاول الإضرار به، كما في شأن سمرة حاول الإضرار بالأنصاري، حيث

(١) البقرة: ٩.

(٢) سفينة البحار: ج ١ ص ٦٥٤ مادة «سمر».

امتنع أن يستأذن عليه في الدخول أو يبيع عذقه أو مبادلتها بما ضمنه له رسول الله (صلى الله عليه وآله) فأبى إلا الدخول بلاذن. ومن ثم أمر النبي (صلى الله عليه وآله) بقلع عذقه ورميه في وجهه، وقال له: «أنت رجل مضار!» أي الذي يحاول ويعمد إلى الإضرار بغيره.

وقال الزمخشري: وفي الرحمن مبالغة مالميس في الرحيم. ثم استشهد بقولهم: «إنّ الزيادة في البناء لزيادة المعاني». ونقل عن الزجاج قوله في الغضبان: هو الممتلئ غضباً. قال: ومما طنّ على اذني من ملح العرب أنهم يستمون مركباً من مراكبهم بالشقدف، وهو مركب خفيف ليس في ثقل محامل العراق. فقلت - في طريق الطائف لرجل منهم -: ما اسم هذا المحمل؟ - أردت المحمل العراقي - فقال: أليس ذاك اسمه الشقدف؟ قلت: بلى. فقال: هذا الشقنداف... فزاد في بناء الاسم لزيادة المستى^(١).

الاشتراك والترادف في اللغة:

الاشتراك: وضع اللفظ بإزاء معنيين أو أكثر لا جامع بينهما، وهو الاشتراك اللفظي، في مقابل الاشتراك المعنوي، وهو وضع اللفظ بإزاء معنى واحد جامع بين صنوف من المتبائنات والمتغايرات كلفظ الحيوان الموضوع لصاحب الحياة النامية ذات الحركة الإرادية، الشامل لمثل الانسان وغيره من أنواع الحيوان. وهذا من المشترك المعنوي الخارج من موضوع بحثنا الآن، لأنه من اللفظ الواحد الموضوع لمعنى واحد، فلا اشتراك حقيقة، وإنما هو في الاطلاقات وكثرة المصاديق المتنوعة.

أما المشترك اللفظي فهو اللفظ الموضوع لمعانٍ مختلفة في أوضاع متعدّدة،

(١) الكشف: ج ١ ص ٦.

كلفظ العين الموضوعه للنقد المسكوك باعتبارنض المال وأصله وحقيقته، وللناظره، وللنابعه، وللجاسوس، وللريئه... .

وهذا على خلاف حكمة قانون الوضع، حسبما تقدم من أنه للدلالة على المعنى المراد وتمييزه عما عداه تمييزاً مطلقاً، كما في الرموز والاشارات ذوات العهد الخارجي، إذ لولا الاختصاص والتمييز المطلق لم تعدلها فائدة، ولعاد محذور الإبهام والإجمال في دلالة الكلام. أما الاعتماد على القرينة فهو من الدلالة العقلية، ولا تمس جانب الوضع في شيء.

ولعل الاشتراك إنما جاء في اللغات من جراء تعدد الواضعين وتباعده ما بينهم من آفاق واختلاف أسباب الحاجة إلى الوضع حسب تطور العادات والأعراف المتداولة عند كل قوم. فلما تقاربت الأعراف وتوحدت اللغات، ولا سيما بعد ظهور الإسلام وسلطان لغة القرآن، وجدوا أنفسهم تجاه أمر واقع -وهي الأوضاع المتفاوتة الموجبة لاشتراك بعض الألفاظ- امراً لا محيص عنه.

أما الترادف فهو توارد لفظين أو أكثر على معنى واحد، عكس الاشتراك، كلفظ الإنسان والبشر، والبعير والابل، والشاة والغنم، والضرغام والضيغم والغضنفر والليث والاسد، والصمصام والصارم والسيف والحسام والمهند والمشرقي... إلى غير ذلك وهو كثير في اللغة.

وهو أيضاً على خلاف حكمة قانون الوضع، لو أخذ بإطلاقه وعلى ظاهره الأولي، لأن الإشارة تكفيها الواحدة، فتقع الأخرى والتالية عبثاً ولغواً، كما تقدم بيانه... وقد عالج القوم هذا الجانب في عناية ودقة، فوجدوا أن لا ترادف في واقع الأمر، وإنما هي حالات وصفات تعتور الشيء فتختلف أسماؤه ونوعته. وهكذا وجدوا أكثر المشتركات أنها باعتبار أحوال وأوصاف ملحوظة في المسمى وهي الموضوع له بالذات وليس ذات الشيء نفسه. فهو بالاشتراك المعنوي أشبه من كونه مشتركاً لفظياً. هكذا عالج القوم أمر وقوع الاشتراك

والترادف في اللغة على خلاف الأصل.

وإليك بعض التبيين من هذا الجانب الخطير:

لا اشتراك مع رعاية الجامع:

أكثر ما يظن كونه من المشترك اللفظي (من تعدّد الوضع) لا تعدّد في وضعه، وإنما هو وضع واحد، وكان سائر موارد استعماله بالعناية والمجاز وإن كان قد غلب استعماله حتى صار حقيقة ثانية بغلبة الاستعمال، وهو من الوضع التعيّن لا التعيّن حسب المصطلح، نظير العَلَم بالغلبة على ما هو معروف.

وهكذا أوضاع تعيّن (حاصلة بغلبة الاستعمال) شائع في اللغة من غير أن يستلزم المحذور المذكور، لأنه من قبيل التوسّع في الوضع الأول بتقديره وضعاً للأعم من الحقيقة الذاتية، فيكون استعماله في كل من المعنيين من قبيل استعمال اللفظ الموضوع للعام في آحاد مصاديقه المتنوعة، وهو من الاشتراك المعنوي الذي لا محذور فيه أصلاً.

فلفظ «العين» لم يوضع لمعانٍ متعدّدة في وضعه الابتدائي، وإنما الموضوع له أولاً هي الناظرة وكان الباقي فرعاً عليها. قال ابن فارس - في معجم مقاييس اللغة -: العين والياء والنون أصل واحد صحيح يدلّ على عضويه يُبصر ويُنظر، ثم يشتق منه. والأصل في جميعه ما ذكرنا.

قال: وفي المثل «صنعتُ ذاك عمد عين» إذا تعمّدت، والأصل فيه العين الناظرة، أي أنه صنع ذلك بعين كل من رآه. ومن الباب العين الذي تبعته يتجسّس الخبر، كأنه شيء ترى به ما يغيب عنك. ومنه العين الجارية النابعة من عيون الماء، وإنما سمّيت عيناً تشبيهاً لها بالعين الناظرة لصفائها ومائها. ويقال: عانت الصخرة، إذا كان بها صدع يخرج منه الماء، ويقال: حفر فأعين وأعان

قال: ومن الباب العين للسحاب الآتي من ناحية القبلة (الشمال) وهذا مشبّه بمشبهه، لأنه شبه بعين الماء التي شُبّهت بعين الإنسان. وعين الشمس أيضاً مشبّه بعين الإنسان. ومن الباب أعيان القوم أي أشرافهم، وهم قياس ما ذكرنا، كأنهم عيونهم التي بها ينظرون.

قال: ومن الباب العين للمال العتيد الحاضر، يقال: هو عين غير دين أي هو مال حاضر تراه العيون. وعين الشيء نفسه، تقول: خذ درهمك بعينه^(١)، كأنه معاين مشهود تشهده العيون بلا تبدل ولا اختلاف.

وأما القرء المشترك بين الطهر والحيض - على ما هو المشتهر بين الفقهاء - فقد أنكره أهل اللغة. قال ابن الأثير: وهو من الأضداد يقع على الطهر وإليه ذهب الشافعي وأهل الحجاز، وعلى الحيض وإليه ذهب أبو حنيفة وأهل العراق. والأصل فيه الوقت المعلوم، فلذلك وقع على الضدين، لأن لكل منهما وقتاً.

قال ابن فارس: القاف والراء والحرف المعتل أصل صحيح يدل على جمع واجتماع، من ذلك القرية لاجتماع الناس فيها. ويقولون: قرئت الماء في المقرأة: جمعته، وذلك الماء المجموع قري. والمقرأة: الجفنة، لاجتماع الضيف عليها أو لما جمع فيها من الطعام.

قال: ومن الباب القرو، وهو كالمعصرة. والقرو: حوض ممدود عند الحوض الكبير ترده الإبل. ومن الباب القرو، وهو كل شيء على طريقة واحدة، تقول: رأيت القوم على قرو واحد. ومن الباب القري: الظهر، لأنه مجتمع العظام.

قال: وإذا همز هذا الباب كان هو والأول سواء. ومنه القرآن. وأما أقرأت المرأة (بمعنى حاضت) فيقال: إنها من هذا الباب أيضاً، وذكروا أنها تكون كذا في حال طهرها، كأنها جمعت دمها في جوفها فلم ترخه.

قالوا: والقرء وقت، يكون للطهر مرة وللحيض أخرى. قال: وجملة هذه الكلمة مشكلة^(١).

قلت: لعلّه من القرو بمعنى الاستواء على طريقة واحدة، كما جاء في كلامه. وهو المعبر عنه بالعادة المعروفة عند النساء، يعتورهنّ الطمث كل شهر عادة مستقرة، نظير أقرأء الشعر بمعنى أوزانه وأطواره، كما جاء في حديث إسلام أبي ذر: لقد وضعت قوله على أقرأء الشعر فلا يلتئم على لسان أحد^(٢).
ومنه قول الشاعر:

إذا ما السماء لم تغم ثم اخلفت قروء الثريا أن يكون لها قطر
أي مواقع طلوعها وهو وقت رتيب.
وقوله (صلى الله عليه وآله): «تدع الصلاة أيام أقرأئها» أيضاً شاهد على هذا المعنى.

نعم قالت عائشة: أو تدرّون ما الأقرأء؟ الأقرأء الأطهار^(٣). وهي أول من أبدت هذا الرأي وأغرست، وسار من خلفها لفيّف من فقهاء الحجاز. وقد صدرت روايات من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في هذا الجوّ السائد. غير أنّ هناك روايات أخرى صدرت بعيدة عن الضغط الحاكم، وفسّرت الأقرأء بثلاث حيض. روى الشيخ باسناده الصحيح عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: «عدّة التي تحيض ويستقيم حيضها ثلاثة قروء وهي ثلاث حيض»^(٤).

وعليه فلم يثبت اشتراك هذه اللفظة بين الطهر والحيض، كما زعمه

(١) معجم المقاييس: ج ٥ ص ٧٩.

(٢) نهاية ابن الاثير: ج ٤ ص ٣١.

(٣) موطأ مالك بشرح التنوير: ج ٢ ص ٩٦.

(٤) الوسائل: ج ١٥ ص ٤٢٥ رقم ٧.

أناس!

هذا، وقد حاول الراغب الإصفهاني الجمع بين الأقوال، فزعم أن القرء اسمٌ للدخول في الحيض. قال: والقرء في الحقيقة اسم للدخول في الحيض عن طهر، ولما كان اسماً جامعاً للأمرين - الطهر والحيض - المتعقب له أطلق على كل واحد منهما... وليس القرء اسماً للطهر مجرداً ولا للحيض مجرداً، بدلالة أن الطاهر التي لم تر أثر الدم لا يقال لها ذات قرء، وكذا الحائض التي استمر بها الدم... وقول أهل اللغة: إن القرء من قرأ أي جمع، فإنهم اعتبروا الجمع بين زمن الطهر وزمن الحيض حسبما ذكرتُ لاجتماع الدم في الرحم^(١). ولم يأت بشاهد من اللغة على اختياره الغريب، فهو اجتهد مجرد، كما هي عادته في غير موضع. والصحيح الذي تدعمه شواهد اللغة هو ما ذكرنا.

لا ترادف مع ملاحظة الفوارق:

قد عرفت الخمسين اسماً للماء كانت تطلق عليه باعتبار تناوب حالاته، والتي كانت في الحقيقة أوصافاً له باعتبار تلك الحالات عارضة عروض الصفة للموصوف. وهكذا سائر المترادفات، فإن غالبيتها أوصاف ونعوت وليست في الحقيقة أسماء.

فإن الأسد - وهو الاسم الحقيقي له - إنما يقال له: الضيغم، باعتبار أنه يملأ فمه عند العض على فريسته. مأخوذ من ضغم إذا عض من غير نهش وملأ فمه ممّا أهوى إليه. قال ابن منظور: الضغم العض الشديد، ومنه سمي الأسد ضيغماً.

والضرغام هو البطل الفحل المقدام في معركة القتال، وفي حديث قس:

(١) المفردات: ص ٤٠٢.

والأسد الضرغام، هو الضاريء الشديد المقدام من الاسود.
والغضنفر: الجافي الغليظ المتغضن، وأذن غضنفرة: غليظة كثيرة الشعر.
قال أبو عبيدة: أذن غضنفرة وهي التي غلظت وكثر لحمها. ومنه سمي الأسد
غضنفرأ لغلظة خلقه وتغضنه. والتغضن هو تشني وجنات الوجه وتشنجه، ومنه
تغضن الشعر وهو يتجده. ورجل ذوغضون إذا كان في جبهته تكسر وتشنج.
والهزبر: الصلب الشديد. يقال: ناقة هزبرة أي صلبة. ورجل هزبر أي
حديد وثاب، ومن ذلك سمي الأسد هزبرأ.

والعبوس: الذي قطب ما بين عينيه. ويوم عبوس: شديد. والعنيسي من
أسماء الأسد أخذ من العبوس وهو قطوب الوجه.

والليث: الشدة والقوة، ورجل مليث: شديد العارضة وقيل شديد قوي.
وفي الحديث: هو أليث أصحابه أي أشدهم وأجلدهم. وبه سمي الأسد ليثأ.

(في ترتيب سنّ الغلام) عن أبي منصور عن أبي عمرو عن أبي العباس عن
ثعلب عن ابن الأعرابي:

يقال للصبي إذا ولد: رضيع وطفل، ثم فطيم، ثم دارج، ثم حفر، ثم يافع،
ثم شرخ، ثم مطبخ ثم كوكب...
وأيضاً عنهم:

مادام في الرحم فهو: جنين. فاذا ولد فهو: وليد. وما لم يستم سبعة أيام
فهو: صديغ، لأنه لا يشتد صدغه إلى تمام السبعة. ثم إذا قطع عنه اللبن فهو:
فطيم. ثم إذا غلظ وذهبت عنه ترارة الرضاع أي بضاضته فهو جحوش... عن
الأصمعي، وأنشد للهلذلي:

قتلنا مخلصاً وابني حراق و آخر جحوشا فوق الفطيم
قال الأزهري: كأنه مأخوذ من الجحش ولد الحمار.

ثم إذا دبّ ونمافهو: دارج. وإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو: خماسي. وإذا سقطت رواضعه فهو: مشغور، (عن أبي زيد). وإذا انبتت أسنانه بعد السقوط فهو: متغر (بالتاء والثاء عن أبي عمرو). فإذا كاد يجاوز العشر سنين أو جاوزها فهو: مترعرع وناشئ. وإذا كاد يبلغ الحلم أو بلغه فهو: يافع، ومراهق. فإذا احتلم واجتمعت قوته فهو: حزور (واسمه في جميع هذه الأحوال الأخيرة غلام).

فإذا اخضرّ شاربه وأخذ عذاره يسيل فهو: فتى، وشارخ. فإذا اجتمعت لحيته وبلغ غاية شبابه فهو: مجتمع. وهو ما بين الثلاثين إلى الأربعين: شاب، ثم هو كهل إلى أن يستوفى الستين.

(في الشيخوخة والكبر) يقال: شاب الرجل ثم شبط ثم شاخ ثم كبر ثم توجه ثم دلف ثم مَجّ ثم هوج ثم ثَلَب... ثم الموت. ويقال: عثا الشيخ وعسا، ثم تسعسع وتقععوس، ثم هرم وخرف، ثم أفند واهتر، ثم لعق اصبعه وضحا ظلّه إذا مات.

وإذا شاخ الرجل وعلت سنّه فهو: قحروقحب (قهب خل). فإذا ولّى وساء عليه أثر الكبر فهو: يفن ويزدح. فإذا زاد ضعفه ونقص عقله فهو: جلهاب ومهتر.

(في ترتيب سنّ المرأة) هي طفلة ما دامت صغيرة. ثم وليدة إذا تحركت. ثم كاعب إذا كعب ثديها. ثم ناهد إذا زاد نهد ثديها. ثم معصر إذا أدركت. ثم عانس إذا ارتفعت عن حدّ الإعصار. ثم خُود إذا توسّطت الشباب. ثم مسلف إذا جاوزت الأربعين. ثم نصف، ثم شهلة وكهلة إذا مسّت الكبر. ثم شهيرة إذا عجزت. ثم حيزبون إذا علّت سنّها. ثم قلعم ولطلّط إذا انحنى قدها وسقطت أسنانها.

(في أولاد أنواع الحيوان) ولد كل بشر: ابن وابنة. وولد كل سبع: جرو.

وولد كل وحشية طلا. وولد كل طائر: فرخ... هذا بحسب الاسم العام.
 وأما الاسم الخاص، فولد الفيل: دغفل. وولد الناقة: حوار. وولد
 الفرس: مهر. وولد الحمار جحش. وولد البقرة: عجل. وولد الشاة: حمل.
 وولد العنز: جدي. وولد الأسد: شبل. وولد الظبي: خشف. وولد
 الأروية^(١): وعل وغفر. وولد الضبع: فُرْعُل. وولد الدب: دَيْسَم. وولد
 الخنزير: خِنْوَص. وولد الثعلب: هُجْرَس. وولد الكلب: جرو. وولد الفأرة:
 درص. وولد الضب: حِشْل. وولد القرد: قِشَّة. وولد الأرنب: خِرْتَق. وولد
 الببر: خنصيص. وولد الحية: حِرْبَش. وولد الدجاجة: فُرُوج. وولد النعام:
 رأل...

(في ترتيب سنّ البعير) ولد الناقة - ساعة تضعه أمّه -: سليل، ثمّ سقّب،
 وحوار.

وإذا استكمل سنة وفصل عن أمّه فهو: فصيل.

وإذا كان في السنة الثانية فهو: ابن مخاض. وفي السنة الثالثة فهو: ابن
 لبون. وفي الرابعة، واستحقّ أن يحمل عليه، فهو: حِقّ. وإذا كان في الخامسة
 فهو: جَدَع. وفي السادسة وألّقى ثنيته فهو: ثنيّ. وفي السابعة وألّقى رباعيته فهو:
 رباع. وفي الثامنة فهو: سديس. وفي التاسعة وفطر نابه فهو: بازل. وفي العاشرة
 فهو: مُخْلِف، ثمّ مخلف عام وعامين فصاعداً. فإذا كان يهرم وفيه بقية فهو:
 عَوْد. فإذا ارتفع عن ذلك فهو: قحّر. فإذا انكسرت أنيابه فهو: ثلب. فإذا
 ارتفع عن ذلك فهو: ماحّ، لأنّه يميّج ريقه ولا يستطيع أن يحبسه من الكبر. فإذا
 استحکم هرمه فهو: كُحْكُح. عن أبي عمرو والأصمعي^(٢).

(١) الأروية: ضأن الجبل.

(٢) سرّ العربية: ص ١١٠ - ١١٤.

شواهد من القرآن

دقائق ونكات رائعة

تلك كانت نبذة من فوارق اللغة، وقبضة يسيرة من مزايا جمّة غفيرة، حظي بها لسان العرب في القريض والخطاب، وكانت بها بلاغة البلغاء فائقة، وفصاحة الفصحاء رائعة، وامتاز كلام على كلام، وقصيدة على اختها، دلالة على سعة الاطلاع بمزايا اللغة، ومبلغ الإحاطة بفوارق الأوضاع. وقد امتاز القرآن في هذا الجانب بمافاق سائر الكلام، وأعجز العرب أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وإليك رشفة من ذلك البحر الخِصَم، ورشحة من ذلك الوابل الغزير.

تقديم السمع على البصر:

ومن دقيق تعبيره، أنك تجد القرآن يذكر السمع مقدّماً على البصر في عديد من الآيات^(١) «وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون»^(٢).

(١) في أكثر من خمسة وعشرين موضعاً: البقرة: ٧ و ٢٠. النساء: ٥٨ و ١٣٨. الأنعام: ٤٦. يونس: ٣١. هود: ٢٠. النحل: ٧٨ و ١٠٨. الإسراء: ١ و ٣٦. طه: ٤٦. الحج: ٦١ و ٧٥. المؤمنون: ٢٣. لقمان: ٢٨. السجدة: ٩. غافر: ٢٠ و ٥٦. فصلت: ٢٠ و ٢٢. الشورى: ١١. الأحقاف: ٢٦. المجادلة: ٥٨. الملك: ٢٣. الإنسان: ٢.

(٢) النحل: ٧٨.

وهي مسألة يعرف سرّها الآن علماء التشريح (الفسيولوجيا) ويدركون أنّ جهاز السمع أرق وأعقد وأدقّ وأرهف من جهاز الابصار. ويمتاز عليه بإدراك المجرّدات كالموسيقى، وإدراك التداخل مثل حلول عدة نغمات داخل بعضها بعضاً، مع القدرة على تمييز كل نغمة على انفراد، كما تميّز الأم صوت بكاء ابنها من بين زحام هائل من أصوات متداخلة. يتمّ هذا في لحظة زمن... أمّا العين فهي تتوه في زحام التفاصيل ولا تعثر على ضالّتها. يتوه الابن عن عين أمّه في الزحام ولا يتوه عن سمعها. والعلم يمدّنا الآن بألف دليل على تفوّق معجزة السمع على معجزة البصر. ولم يكن هذا العلم موجوداً أيام نزول القرآن «سُرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق»^(١). وهذا تحدّ بمستقبل الأيام سوف يُصادف على آيات مازالت تُقرأ وهي غيوب محجّبة.

إنّ الانضباط والإحكام في كل لفظة وفي كل حرف، لا تتقدّم كلمة على كلمة إلّا بسبب، ولا تتأخّر كلمة عن كلمة إلّا بسبب، فها هذا الإصرار على تقدّم السمع على البصر في تعبير القرآن؟ إنه تكرار متعمّد برغم أنّ النظرة العامية إلى الأمور تنظر إلى البصر بإجلال أكثر^(٢).

آيتا السرقة والزنا:

وهو حينما يذكر السرقة نراه يورد السارق مقدّماً على السارقة «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما»^(٣). أما في الزنا فنراه يذكر الزانية مقدّمة على الزاني «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة»^(٤). والحكمة واضحة،

(١) فضلت: ٥٣.

(٢) محاولة لفهم عصري: ص ٢٥١.

(٣) المائدة: ٣٨.

(٤) النور: ٢.

فالمرأة في الزنا هي البادئة وهي التي تدعو الرجل بزینتها وتبرجها، أما في السرقة فهي أقل جرأة من الرجل.
إننا إذاً أمام كلمات مصفوفة بإحكام ودقة وانضباط «كتاب أحکمت آیاته ثم فصلت من لدن حکیم خیر»^(١).

ليس كمثل شيء:

ومن دقيق تعبيره: قوله تعالى: «ليس كمثل شيء»^(٢).

زعموا زيادة الكاف هنا، فراراً من المحال العقلي، إذ لو كانت باقية على أصلها للزم التسليم بثبوت المثل!

وحاول بعضهم توجيه عدم الزيادة، بأنه من الدلالة على المطلوب بلازم الكلام، حيث نفي مثل المثل يستلزم نفي المثل. إذ لو كان له مثل لكان لمثله أيضاً مثل، وهو الله تعالى، تحقيقاً لقضية التماثل.

فهو نفي للمثل بهذه الطريقة الملتوية، نظير قولهم: أنت وابن أخت خالتك. يعدّ نوعاً من التعمية في الكلام شبيهاً بالألغاز... الأمر الذي تأباه طبيعة الجدة في تعابير القرآن.

ولكن لتوجيه هذا الكلام تأويل مشهور:

لوقيل: «ليس مثله شيء» كان المنفي هو المماثل له تماماً وفي جميع أوصافه ونعوته وخصوصياته الكلية والجزئية، أي ليس على شاكلته التامة شيء. وهذا يوهم أن عسى قد يوجد من يكون على بعض أوصافه، وفي رتبة تالية من المماثلة التامة، لأنّ هذا المعنى لم يقع تحت النفي.

(١) هود: ١.

(٢) الشورى: ١١.

وعليه فكان موضع الكاف هنا، نفيًا للمماثلة وما يشبه المماثلة أو يدنو منها بعض الشيء، فليس هناك شيء يشبه أن يكون مماثلاً له تعالى، فضلاً عن أن يكون مثلاً له على الحقيقة. وهذا من باب التنبيه بالأدنى دليلاً على الأعلى، على حدّ قوله تعالى: «ولا تقل لهما أف»^(١).

وتأويل آخر أدق: وهو أنّ الآية لا ترمي نفي الشبيه له تعالى فحسب، إذ كان يكفي لذلك أن يقول: «ليس كالله شيء» أو «ليس مثله شيء». بل ترمي وراء ذلك دعم النفي بما يصلح دليلاً على الدعوى والإلفات إلى وجه حجة هذا الكلام وطريق برهانه العقلي.

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي نقيصة عن انسان، فقلت: «فلان لا يكذب» أو «لا يبخل» كان كلامك هذا مجرد دعوى لا دليل عليها. أما إذا زدت كلمة المثل وقلت: «مثل فلان لا يكذب» أو «لا يبخل» فكأنك دعمت كلامك بحجة وبرهان، إذ مَنْ كان على صفاته وشيمه الكريمة لا يكون كذلك، لأنّ وجود هذه الصفات والنعوت ممّا تمنع عن الاستسفال إلى رذائل الأخلاق.

وهذا منهج حكيم وضع عليه أسلوب كلامه تعالى، وأنّ مثله تعالى - ذا الكبرياء والعظمة - لا يمكن أن يكون له شبيه، وأنّ الوجود لا يتسع لاثنين من جنسه^(٢).

فجيء بأحد لفظي التشبيه ركناً في الدعوى، وبالأخر دعامة لها وبرهاناً عليها. وهذا من جميل الكلام، وبديع البيان، ومن الوجيز الوافي. قال الزمخشري: قالوا: مثلك لا يبخل، فنفوا البخل عن مثله، وهم يريدون

(١) الاسراء: ٣٣.

(٢) النبأ العظيم: ص ١٢٨.

نفيه عن ذاته، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية، لأنهم اذا نفوه عمن يسد مسدّه وعمن هو على أخصّ أوصافه فقد نفوه عنه، وهذا أبلغ من قولك: أنت لا تبخل.

ومنه قولهم: «قد أيفعت لذاته»^(١) و«بلغت أترابه»^(٢). وفي الحديث: «ألا وفيهم الطيب الطاهر لذاته». وهذا ما تعطيه الكناية من الفائدة^(٣).

وقال ابن الأثير: ومن لطيف هذا الموضع وحسنه ما يأتي بلفظة «مثل»، كقول الرجل اذا نفى عن نفسه القبيح: «مثلي لا يفعل هذا» أي أنا لأفعله. لأنّه اذا نفاه عمن يماثله فقد نفاه عن نفسه لامحالة، إذ هو بنفي ذلك عنه أجدر. وسبب ورود هذه اللفظة في هذا الموضع أنه يجعل من جماعة هذه أوصافهم وتثبيتاً للأمر وتوكيداً. ولو كان وحده لقلق منه موضعه ولم يرس فيه قدمه^(٤).

قال الاستاذ دّراز: واعلم أنّ البرهان الذي ترشد إليه الآية - على هذا الوجه -^(٥) برهان طريف في إثبات الصانع لانعلم أحداً من علماء الكلام حام حوله، فكل براهينهم في الوجدانية قائمة على إبطال التعدّد بإبطال لوازمه وآثاره العملية، حسباً أرشد إليه قوله تعالى: «لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا»^(٦).

أما آية الشورى المذكورة فإنّها ناظرة إلى معنى وراء ذلك، ينقض فرض التعدّد من أساسه ويقرّر استحالة الذاتية في نفسه بقطع النظر عن تلك الآثار، فكأننا بها تقول لنا:

(١) أيفع الغلام: ترعرع وناهز البلوغ، فهو يافع. واللذ: القرن والخصم.

(٢) الأتراب: جمع ترب بمعنى المتوافق في السن.

(٣) تفسير الكشاف: ج ٤ ص ٢١٣.

(٤) المثل السائر: ج ٣ ص ٦١ ذكره في باب الإرداف في الكناية.

(٥) أي إرداف اللفظ بحجته في أوجز كلام.

(٦) الأنبياء: ٢٢.

إن حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التي تقبل التعدد والاشتراك والتماثل في مفهومها، كلاً، فإن الذي يقبل ذلك فإنها هو الكمال الإضافي الناقص، أما الكمال التام المطلق - الذي هو معنى الإلهية - فإن حقيقته تأبى على العقل أن يقبل فيها المشابهة والاثنية، لأنك مهما حققت معنى الإلهية حققت تقدماً على كل شيء وإنشاء لكل شيء: «فاطر السماوات والأرض»^(١). وحققت سلطاناً على كل شيء وعلوً فوق كل شيء: «له مقاليد السماوات والأرض»^(٢). فلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان في هذه الصفات لتناقضت إذ تجعل كل واحد منها سابقاً ومسبقاً، ومُنشئاً ومنشأً، ومستعلياً ومستعلًى عليه، أو لأحلت الكمال المطلق إلى كمال مقيد فيها، إذ تجعل كل واحد منها بالإضافة إلى صاحبه ليس سابقاً ولا مستعلياً، فأتى يكون كل منها آلهاً، وللإله المثل الأعلى!

فكم أفادتنا هذه الكاف من وجوه المعاني كلها كافٍ شافٍ، وهذا من دقة الميزان الذي وضع عليه النظم الحكيم في القرآن الكريم^(٣).

آية القصاص:

كانت العرب تعرف ما لهذه اللفظة «القصاص» من مفهوم خاص: (قَتْلُ من عَدَى على غيره فقتله بغير حق). وكانت تعرف ما لهذه العقوبة (مقابلة المعتدي بمثل ما اعتدى) من أثر بالغ في ضمان الحياة العامة. لكنها عندما عمدت إلى وضع قانون يحّد من جريمة القتل، ويضمن للناس

(١) الأنعام: ١٤، يوسف: ١٠١، إبراهيم: ١٠، فاطر: ١، الزمر: ٤٦، الشورى: ١١.

(٢) الزمر: ٦٣.

(٣) النبأ العظيم: ص ١٣٠.

حياتهم، وليكون رادعاً لمن أراد الإجرام - فأزمنت بكليتها على وضع عبارة موجزة وافية بهذا المقصود الجلل وأجمعت آراؤهم على عقد الجملة التالية: «القتل أنفى للقتل» - غفلت عن لفظة «القصاص» واستعملت كلمة «القتل» مكانها، ذهولاً عن أنها لا تفي بتمام المقصود، وهم بصدد الإيفاء والايجاز.

ذلك أن الذي يحّد من الاجرام على النفوس ويحقن دماء الأبرياء هو فرض عقوبة القصاص، وهو قتل خاص، وليس مطلق القتل بالذي يؤثر في منعه، بل ربما أوجب قتلات اذا لم يكن قصاصاً.

ومع الإحاطة بهذه المزايا في لفظ «القصاص» جاء قوله تعالى: «ولكم في القصاص حياة»^(١) تعبيراً تاماً وافياً بالمقصود تمام الوفاء. بل وفيها زيادة مزايا شرحها أرباب الأدب والتفسير.

قال سيّدنا الطبطبائي - طاب ثراه -: إنّ هذه الآية - على اختصارها وإيجازها، وقلة حروفها، وسلاسة لفظها، وصفاء تركيبها - هي من أبلغ التعابير وأرقى الكلمات. فهي جامعة بين قوة الاستدلال وجمال المعنى ولطفه، ورقة الدلالة وظهور المدلول.

وقد كان للبلغاء قبلها كلمات وتعابير في وضع قانون القصاص، كانت تعجبهم بلاغتها وجزالة اسلوها، كقولهم: «قتل البعض إحياء للجميع». وقولهم: «أكثروا القتل ليقلّ القتل» وأعجب من الجميع عندهم قولهم: «القتل أنفى للقتل».

غير أن الآية أنست الجميع، ونفت الكل، «ولكم في القصاص حياة» فهي أقلّ حروفاً وأسهل تلفظاً. وفيها تعريف القصاص وتنكير الحياة، دلالة

على أنّ الهدف الأقصى أوسع من أمر القصاص وأعظم شأنًا، وهي الحياة، حياة الإنسان الكريمة.

واشتغالها على بيان النتيجة وعلى بيان الحقيقة، وأنّ القصاص هو المؤدي إلى الحياة، دون مطلق القتل، وغير ذلك ممّا تشتمل عليه من فوائد ولطائف...^(١).

هذا بالإضافة إلى ما للتعبير القرآن من محسّنات بديعية باهرة، ليست في ذلك التعبير العربي.

قال ابن الأثير: من الإيجاز ما يسمّى الإيجاز بالقصر، وهو الذي لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها، وفي عدتها، بل يستحيل ذلك. وهو أعلى طبقات الإيجاز مكاناً وأعوزها إمكاناً، وإذا وجد في كلام بعض البلغاء فإنما يوجد شاذّاً نادراً. والقرآن الكريم ملآن منه^(٢).

فإن ذلك ماورد من قوله تعالى: «ولكم في القصاص حياة». فإنّ قوله تعالى: «القصاص حياة» لا يمكن التعبير عنه إلّا بألفاظ كثيرة، لأنّ معناه أنّه إذا قتل القاتل امتنع غيره عن القتل، وكذلك إذا أيقن القاتل أن سوف يدفع حياته ثمناً لحياة من يقتل، تردّد في ارتكاب القتل وربما أمسك عنه، فكان في ذلك حياة للناس.

ولا يلتفت إلى ماورد عن العرب من قولهم: «القتل أنفى للقتل». فإنّ من لا يعلم يظنّ أن هذا على وزن الآية، وليس كذلك، بل بينهما فرق من ثلاثة أوجه:

الأول: أنّ «القصاص حياة» لفظتان، و«القتل انفى للقتل» ثلاثة

(١) تفسير الميزان: ج ١ ص ٤٤٢.

(٢) المثل السائر: ج ٢ ص ٣٤٨ وص ٣٥٢ - ٣٥٣.

ألفاظ.

الثاني: أن في قولهم «القتل أنفى للقتل» تكريراً ليس في الآية.
الثالث: أنه ليس كل قتل نافياً للقتل، إلا إذا كان على حكم القصاص.
قال: وقد صاغ أبو تمام هذا المعنى الوارد عن العرب في بيت من شعره، فقال:

وأخافكم كي تُغمدوا أسيافكم أن الدم المعتَر يحرسه الدم^(١)
فقوله: «إن الدم المعتَر يحرسه الدم» أجمل اسلوباً وأحسن أداءً من قولة العرب.

وقال أبو هلال العسكري: والإيجاز، القِصَر والحذف، فالقِصَر تقليل الألفاظ وتكثير المعاني وهو قول الله عز وجل: «ولكم في القصاص حياة». ويتبين فضل هذا الكلام إذا قرنته بما جاء عن العرب في معناه، وهو قولهم: «القتل أنفى للقتل» فصار لفظ القرآن فوق هذا القول، لزيادته عليه في الفائدة، وهو إبانة العدل لذكر القصاص، وذكر العوض المرغوب فيه لذكر الحياة واستدعاء الرغبة والرغبة لحكم الله به، وإيجازه في العبارة، فإن الذي هو نظير قولهم «القتل أنفى للقتل» إنما هو «القصاص حياة» وهذا أقل حروفاً من ذلك، ولبعده من الكلفة بالتكرير، ولفظ القرآن برئ من ذلك. وبحسن التأليف، وشدة التلاؤم المدرك بالحس، لأن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة^(٢).

وقال جلال الدين السيوطي: وقد فضلت الآية على قولة العرب بعشرين وجهاً أو أكثر، وإن كان لا تشبيه بين كلام الخالق وكلام المخلوق، وإنما العلماء

(١) ديوان أبي تمام: ص ٢٧٤. والمعتَر: المضطرب لخوف الخطر.

(٢) انظر الصناعتين: ص ١٧٥. هامش المثل السائر: ج ٢ ص ٣٥٢ - ٣٥٣.

يقدمون أفهامهم فيما يظهر لهم من ذلك ، كما قال ابن الأثير. نذكر منها:
 ١ - في الآية إيجاز قصر، من غير حاجة إلى تقدير. أما قولتهم فبحاجة إلى تقدير «من» لمكان أفعل التفضيل. وبذلك جاء الإبهام في قولتهم، لأنه يُسأل: من أي شيء؟ فإن قدر العموم فلعله غير مطرد بالنسبة إلى جميع الموارد وجميع أفراد الناس.

٢ - ثم الذي ينفي القتل ويوجب الحياة هي شريعة القصاص، وهو قتل بإزاء قتل خاص دون مطلق القتل، إذ ربّ قتلة أوجبت قتلات، كما في حرب البسوس طالت أربعين سنة.

٣ - في الآية طباق، جمعاً بين ضدّين: القصاص - وفيه إشعار بقتل - والحياة. وأيضاً فيها بداعة، الضدّ أوجب ضده. ولا سيّما في تعريف القصاص وتنكير الحياة، وفيه غرابة فائقة.

٤ - قال الزمخشري: ومن إصابة محزّ البلاغة، بتعريف القصاص وتنكير الحياة، لأنّ المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم - الذي هو شريعة القصاص - حياة عظيمة. وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة. وكم قتل مهلهل بأخيه كليب، حتّى كاد يُفني بكر بن وائل. ولقد كانوا يقتلون بالمقتول غير قاتله. وهذه العادة جارية بين العرب حتّى الآن^(١). فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر. ففي شرع القصاص - وهو قتل القاتل المعتدي - حياة أية حياة^(٢).

٥ - وأما قولة العرب، ففيها تناقض ظاهر، إذ الشيء لا ينفي نفسه، فكيف القتل ينفي القتل؟ وأيضاً فيها تكرار، وتقدير، وتهويل بسبب تكرار لفظ القتل المؤذن بالوحشة.

(١) ونحن في مطلع القرن الخامس عشر للهجرة.

(٢) راجع الكشف: ج ١ ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

أما الآية فاستبدلت من لفظ «القتل» الموحش بلفظ «القصاص» الموجب للتشقي والانشراح. ثم عقبها بلفظ «الحياة» التي تبتهل إليها النفوس وتحتفل بها.

٦ - وأيضاً ففي لفظ القصاص إيذان بالعدل، حيث مساواة نفس المقتول بالقاتل، الأمر الذي لا يدلّ عليه لفظ القتل المطلق.

٧ - والآية بنيت على الإثبات، وقولتهم على النفي. والكلام المثبت أوفى من النافي مهما كان المعنى واحداً.

٨ - ثم إشكال في ظاهر قولتهم، ببناء أفعل التفضيل من فعل عدمي الذي لا تفاضل فيه ظاهراً، والآية سالمة منه.

٩ - أيضاً فإنّ التفاضل يقتضي المشاركة في القدر الجامع، بخلاف الآية التي حصرت نفي القتل في القصاص لا في غيره على الإطلاق، فكانت أبلغ في الوفاء بالمقصود.

١٠ - الآية مشتملة على حروف متلائمة متناسقة، تتحلّق صُعُداً، ثم تهوي نُزْلاً ثم تعود فتتصاعد إلى ما لانهاية «في القصاص حياة».

قالوا: لتلاؤم القاف مع الصاد، كلاهما من حروف الاستعلاء. أما القاف مع التاء فلا تلاؤم بينهما، لأنّ التاء من المنخفض. وكذا الخروج من الصاد إلى حاء الحياة أمكن من الخروج من اللام إلى الهمز، لبُعد طرف اللسان عن أقصى الحلق.

وأيضاً ففي النطق بالصاد والحاء والتاء متتالية ظرافة وحسن، ولا كذلك في تكرار النطق بالقاف والتاء.

١١ - هذا فضلاً عن توالي حركات متناسبة في الآية، بما يَسّر النطق بها في سهولة، وربما في جرس صوتي بديع.

أما قولتهم فيتعقب فيها كل حركة بسكون، وذلك مستكره، ويوجب عسر

النطق بها، إذ الحركات -وهي انطلاقات اللسان- تنقطع بالسكنات المتتالية، الموجبة للضجر ووعورة الكلام. نظير ما إذا تحركت الدابة أدنى حركة فجثت، ثم تحركت فجثت، وهكذا لا يبين انطلاقتها ولا تتمكن من حركتها على إرادتها، لأنها كالمقيّدة.

١٢ - إنَّ في افتتاح الآية بـ «لكم» مزيد عناية بحياة الإنسان، وإنَّ في شريعة القصاص حكمة بالغة ترجع فائدتها إلى النفع العام، فهي مصلحة عامة روعيت في شرع القصاص، وليست مصلحة خاصة ترجع إلى شرح صدور أولياء المقتول المفجوعين فحسب.

وغير ذلك ممَّا ذكره نقدة الكلام، لازالت مساعيهم مشكورة^(١).

أرض هامدة وأرض خاشعة:

تعبيران وردا على الأرض الميتة فقدت حياتها، لأنَّ السماء ضنَّت بمائها فلم تُمطر عليها... فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّت وربت وأنبتت من كلِّ زوج بهيج!

فقد جاء التعبير الأول في سورة الحج: «يا أيُّها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنَّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجلٍ مسمًى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزَّت وربت وأنبتت من كلِّ زوج بهيج»^(٢).

(١) راجع معترك الاقران لجلال الدين السيوطي: ج ١ ص ٣٠٠-٣٠٣.

(٢) الحج: ٥.

وجاء التعبير الثاني في سورة فصلت: «ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون. فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون. ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموق إنه على كل شيء قدير»^(١).

أما لماذا هذا الاختلاف في التعبير في المقامين؟

الجو في السياق الأول جَوَّبعث ونشور وحشر أموات، فيتناسب معه تصوير الأرض «هامدة» لا حياة فيها ولا حركة ولا انتفاضة. يقال: همدت النار أي خمدت واطفئت وهدأت حرارتها وسكن لهيبها. وهدم الثوب: إذا بلي وتقطع من طول البلى.

لكن الجو في السياق الثاني جَوَّعبادة وضراعة وخشوع وابتهال إلى الله تعالى، فناسبه تصوير الأرض «خاشعة» خشوع الذل والاستكان. يقال: خشعت الأرض إذا يبست ولم تُمطر.

ونكتة أخرى: لم تجيء «اهتزت وربت» هنا للغرض الذي جاءتا من أجله هناك. إنها هنا تُخيلان حركة حاصلة عن خشوع، حركة تضاهي حركة العباد في عباداتهم، ومن ثم لم تكن الأرض لتبقى وحدها خاشعة ساكنة، فاهتزت لتشارك العابدين في حركاتهم التعبدية وفق إرادة الله في الخلق.

الحلف بالتاء:

قوله تعالى: «تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حَرَضاً»^(٢).

(١) فصلت: ٣٧ - ٣٩.

(٢) يوسف: ٨٥.

جملة ألفاظه غريبة، بعيدة عن الاستعمال العام، وقع الاختيار عليها لحكمة هي مقتضى الحال والمقام، فضلاً عن جرس اللفظة في هذا التناسب والوثام.

قال جلال الدين السيوطي: أتى بأغرب ألفاظ القَسَم، وهي التاء، فإنها أقل استعمالاً وأبعد من أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو. وبأغرب صيغ الأفعال الناقصة، فإن «تزال» أقرب إلى الأفهام، وأكثر استعمالاً من «تفتأ». وبأغرب الألفاظ الدالّة على الإشراف على الهلاك «حَرَضاً». فاقتضى حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة، توخياً لحسن الجوار، ورغبة في ائتلاف المعاني مع الألفاظ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع، وتتناسب في النظم، فضلاً عن تناسب الغريب في التعبير مع الغريب من حالة نبي الله يعقوب (عليه السلام)^(١).

دقائق ونكات:

ذكر جلال الدين السيوطي عن البارزي أنه قال - في أوّل كتابه «أنوار التحصيل في أسرار التنزيل» -: اعلم أنّ المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض، وكذلك كل واحد من جزئي الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر... ولا بدّ من استحضار معاني الجمل، أو استحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها...

واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال... وذلك عتيد حاصل في علم الله تعالى. فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصح. وإن كان مشتملاً على الفصيح والأفصح، والمليح والأملح...

ولذلك أمثلة:

(١) معترك الاقران: ج ١ ص ٣٨٩.

منها: قوله تعالى: «وجنى الجنتين دان»^(١). لو قال مكانه: «وثمر الجنتين قريب» لم يقم مقامه من جهة الجناس بين «الجنى» و«الجنتين». ومن جهة أن الثمر لا يُشعر بمصيره إلى حال يُجنى فيها. ومن جهة مؤاخاة الفواصل^(٢).

وتتلخص ميزات الآية في وجوه أربعة:

أولاً: أن الثمر لفظ عام، لا يدلّ على بلوغه أو ان الاقتراف، على خلاف لفظ «الجنى» الذي هو الثمر الناضج الغضّ الطريّ اليانع، فكان هذا الأخير أنسب.

ثانياً: المشاكلة والتجانس اللفظي بين «جنى» والشرط الأول من «الجنتين» بالجيم والنون.

ثالثاً: كذلك التجانس بين «دان» والشرط الأخير من «الجنتين» بالمدّ والنون، مع مقارنة مخرج الدال والتاء.

رابعاً: مراعاة الفاصلة.

الأمر الذي حصلت به تلك السلاسة والعذوبة في التعبير والأداء، ولا توجد في العبارة الأخرى المرادفة لها في المعنى، كما لا يخفى.

قال: ومنها قوله تعالى: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب»^(٣)، أحسن من التعبير بـ«تقرأ»، لثقله بالهمزة.

ومنها: «لاريب فيه»^(٤)، أحسن من «لاشكّ فيه»، لثقل الإدغام. ولهذا

(١) سورة الرحمن: ٥٤.

(٢) الاتقان: ج ٤ ص ٢٢.

(٣) العنكبوت: ٤٨.

(٤) البقرة: ٢.

كثر ذكر الريب^(١).

ومنها: «ولا تهنوا»^(٢)، أحسن من «ولا تضعفوا»، لحقته، و«وهنَّ العظم مَيَّ»^(٣)، أحسن من «ضعف»، لأنَّ الفتحة أخف من الضمة.

ومنها: «آمن»^(٤) أخف من «صدق». ولذا كان ذكره أكثر من ذكر التصديق. و«أثرك الله»^(٥) أخف من «فضلك». و«آتى»^(٦) أخف من «أعطى». و«أنذر»^(٧) أخف من «خوف». و«خير لكم»^(٨) أخف من «أفضل لكم».

والمصدر في نحو «هذا خلقُ الله»^(٩) و«يؤمنون بالغيب»^(١٠) أخف من «مخلوق» و«الغائب». و«تنكح»^(١١) أخف من «تتزوج»، لأنَّ «تفعل» - مخففاً - أخف من «تفعل» - مشدداً - ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر.

قال: ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ «الرحمة» و«الغضب» و«الرضا» و«الحب» و«المقت» في أوصاف الله تعالى، مع أنه لا يوصف بها

(١) على أنَّ الريب إنما يكون فيما تكون دواعي الشبهة فيه متوقفة. أمَّا الشك فيكون فيه عدم الاعتقاد.

الأمر الذي صَحَّ معه نفي الريب عن الكتاب دون الشك.

(٢) آل عمران: ١٣٩.

(٣) مريم: ٤.

(٤) البقرة: ٦٢.

(٥) يوسف: ٩١.

(٦) البقرة: ١٧٧.

(٧) الأحقاف: ٢١.

(٨) البقرة: ١٨٤.

(٩) لقمان: ١١.

(١٠) البقرة: ٣.

(١١) البقرة: ٢٣٠.

حقيقة. لأنه لو غير عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام.
 كأن يقال: يعامله معاملة المحب، والمأقت... فالمجاز في مثل هذا أفضل من الحقيقة، لحقته واختصاره، وابتناؤه على التشبيه البليغ.
 فإن قوله تعالى: «فلما آسفونا انتقمنا منهم»^(١) أحسن من «فلما عاملونا معاملة المغضب» أو «فلما أتوا إلينا بما يأتيه المغضب»^(٢).

سورة الكوثر:

وللزخشري بيان لطيف عن دقائق هذه السورة المباركة وبدائع نكتها على قصرها ووجازتها - في رسالة مفردة نوردها في خاتمة البحث - وقد لخصها وجمع ظرائفها وطرائفها العلامة الطبرسي في تفسيره (جوامع الجامع) كما يلي:
 انظر في نظم هذه السورة الأنيق وترتيبه الرشيق، مع قصرها ووجازتها، وتبصر كيف ضمها الله النكت البديعة:

- ١ - حيث بنى الفعل في أولها على المبتدأ، ليدل على الخصوصية.
- ٢ - وجمع ضمير المتكلم، ليأذن بكبريائه وعظمته.
- ٣ - وصدر الجملة بحرف التأكيد، الجاري مجرى القسم.
- ٤ - وأتى بالكوثر، المحذوف الموصوف، ليكون أدل على الشياخ، والتناول على طريق الاتساع.
- ٥ - وعقب ذلك بفاء التعقيب، ليكون القيام بالشكر الأوفر مسبباً عن الإنعام بالعطاء الأكثر.
- ٦ - وقوله: «لربك» تعريض بدين من تعرض له بالقول المؤذي، من ابن

(١) الزخرف: ٥٥.

(٢) الاتقان: ج ٤ ص ٢٣.

- وائل وأشباهه، ممّن كان عبادته ونحره لغير الله.
- ٧ - وأشار بهاتين العبادتين الى نوعي العبادات البدنية، التي كانت الصلاة إمامها، والمالية التي كان نحر البدن سنامها.
- ٨ - وحذف اللام الأخرى^(١)، إذ دلّت عليها الأولى، ولمراعاة حقّ التسجيع الذي هو من جملة نظمهِ البديع.
- ٩ - وأتى بكاف الخطاب على طريقة الالتفات، إظهاراً لعلوّ شأنه، وليعلم بذلك أنّ من حقّ العبادة أن يُقصد بها وجه الله خالصاً.
- ١٠ - ثم قال: «إِنَّ شَانُكَ» فعَلّل ما أمره، بالإقبال على شأنه وقلة الاحتفال بشأنه، على سبيل الاستيناف، الذي هو جنس من التعليل رائع.
- ١١ - وإنما ذكره بصفته لا باسمه، ليتناول كل من أتى بمثل حاله.
- ١٢ - وعرف الخبر، ليتّم له البتر.
- ١٣ - وأقحم الفصل، لبيان أنه المعين لهذا النقص والعيب.
- ١٤ - وذلك كلّه، مع علوّ مطلعها وتمام مقطعها، وكونها مشحونة بالنكت الجليلة، مكتنزة بالمحاسن غير القليلة، ممّا يدلّ على أنه كلام ربّ العالمين، الباهر لكلام المتكلمين.
- فسبحان من لو لم ينزل إلّا هذه السورة الواحدة الموجزة لكفى بها آية معجزة، ولو همّ الثقلان أن يأتوا بمثلها لشاب الغراب، وساب الماء كالسراب، قبل أن يأتوا به.
- ١٥ - وفيها أيضاً دلالة على أنها معجزة وآية بيّنة من وجه آخر، وهو: أنه إخبار بالغيب، من حيث إنه أخبر عمّا جرى على السنة أعدائه، فكان كما أخبر، ووافق الخبر المُخبر في إعطائه الكوثر، إذ علّت كلمته، وانتشرت في

(١) أي لم يقل: وانحر لربك.

العالم ذريته، وانبت أمر شائنه الأبر، وانقطع ذنبه وعقبه كما ذكر^(١).

دعوة زكريا ربه:

هناك وقع دعاء زكريا ربه - فيما حكى الله سبحانه -: «قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً»^(٢) موقع إعجاب وإكبار علماء المعاني والبيان، بهرتهم لطافة صنعه وإناقة رصفه، مشتغلاً على مزايا ومحاسن جمّة لا يحويها سائر الكلام. وقد تعرّض لها صاحب «الطراز» وعدّد محاسنها درجة درجة حتى بلغ العشرة عدد الكمال. وقدم لذلك مقدّمة قال فيها:

اعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزاً لكونه دالّاً على تلك المحاسن والمزايا التي لم يختصّ بها غيره من سائر الكلام، ولا يجوز أن تكون راجعة إلى الدلالات الوضعية، سواء كانت باعتبار دلالتها على معانيها الوضعية، أو مجردة عنها، وقد ذهب إلى ذلك أقوام، وهو فاسد لأمرين، أما (أولاً) فلأنّ الكلمة الواحدة قد تكون فصيحة إذا وقعت في محلّ، وغير فصيحة إذا وقعت في محلّ آخر، فلو كان الأمر: في الفصاحة والبلاغة راجعاً إلى مجرد الألفاظ الوضعية لَمَا اختلف ذلك بحسب اختلاف المواضع، وأمّا (ثانياً) فلأنّ الاستعارة والتشبيه والتمثيل والكناية من أعظم قواعد الفصاحة وأبلغها. وإنّما كانت كذلك باعتبار دلالتها على المعاني لا باعتبار ألفاظها. فصارت الدلالة على وجهين:

الوجه الأول: دلالة وضعية، وهذه لا تعلق لها بالبلاغة والفصاحة كما مهّدنا طريقه.

وثانيها: الدلالة المعنوية، ودلالاتها إمّا بالتضمّن أو بالالتزام، وهما عقليّان

(١) تفسير جوامع الجامع: ص ٥٥٤.

(٢) مريم: ٤.

من جهة أنَّ حاصلهما هو انتقالُ الذهن من مفهوم اللفظ إلى ما يلازمه، ثم تلك الملازمة إما أن تكون دلالة على جزء المفهوم، أو تكون دلالة على معنى يصاحب المفهوم، فالأول هو الدلالة التضمنية، والثاني هو الدلالة الخارجية، وهما جميعاً من اللوازم، ثم إنَّ تلك اللوازم تارة تكون قريبة، وتارة تكون بعيدة، فمن أجل ذلك صحَّ تأدية المعاني بطرق كثيرة، بعضها أكمل من بعض، وتارة تزيد، ومرة تنقص، فلأجل هذا اتَّسع نطاق البلاغة وعظم شأنه، وارتفع قدره وعلا أمره، فربما علا قدرُ الكلام في بلاغته حتى صار معجزاً لارتبة فوقه، وربما نزل الكلام حتى صار ليس بينه وبين نعيق البهائم إلا مزية التأليف والتركيب، وربما كان متوسطاً بين الرتبتين، وقد يُوصف اللفظ بالجودة، لكونه متمكناً في أسلَّات الألسنة غير ناب عن مدارجها، ولا قَلِق على سطح اللسان، جيِّداً سبكه صحيحاً طابعه، وأنه في حقِّ معناه من غير زيادة عليه ولا نقصان عنه، وقد يذمونه بنقائض هذه الصفات بأنه مُعَقَّد جُرْزٌ، وأنه لِيَتَعَقِدَهُ اسْتَهْلَكَ المعنى، يمشي اللسانُ اذا نطق به كأنه مُقَيَّدٌ، وَحَشِيٌّ، نافرٌ، نازلُ القدر، طويلُ الذبول من غير فائدة، ولا معنى تحته، وقد يصفون المعنى بالجودة بأنه قريبٌ جزلٌ، يسبقُ الى الأذهان قبل أن يسبق إلى الآذان، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك، حتى كأنه يدخل إلى الأذن بلا إذن، وقد يذمونه بكونه ركيكاً نازل القدر، بعيداً عن العقول، وهُلْمٌ جَرًّا إلى سائر ما ذكرناه من جهة المعنى على جهة المناقضة، والقرآنُ كلُّه من أوله إلى آخره حاصلٌ على هذه المزايا، موجودة فيه على أكمل شيء وأتمه، فلله دُرُّه من كتاب اشتمل على علوم الحكمة وضمَّ جوامع الخطاب، وأودع مالم يُودع غيره من الكتب المنزلة من حقائق الاجمال ودقائق الأسرار المفصلة.

وبعد ذلك خاض محاسن الآية مستخرجاً لآليها قائلاً:

وإذا أردت أن تكحل بصرك بمرود التخييل، والاطلاع على لطائف

الإجمال والتفصيل، فأتل قصة زكريّا (عليه السلام) وقف عندها وقفة باحث وهي قوله تعالى «قال ربّ إني وهنّ العظم مَنيّ واشتعلّ الرأسُ شيباً» فإنك تجد كل جملة منها بل كل كلمة من كلماتها تحتوي على لطائف، وليس في أي القرآن المجيد حرف إلّا وتحتته سرٌ ومصلحةٌ فضلاً عمّا وراء ذلك، والكلام في تقرير تلك اللطائف الإجمالية وما يتلوها من الأسرار التفصيلية مقررٌ في معرفة حدّ الكلام وأصله، وأنّ كلّ مرتبة من مراتب الإجمال متروكة في الآية بمرتبة أخرى مفصلة، حتّى تتصل بما عليه نظم الآية وسياقها، وجملة ما نورده من ذلك درجات عشر، كل واحدة منها على حظّ من الإجمال، بعدها درجة أخرى على حظّ من التفصيل، حتّى تكون الخاتمة هو ما اشتمل عليه سياقها المنظوم على أحسن نظام، وصار واقعاً في تميم بلاغتها أحسن تمام.

(الدرجة الاولى) نداء الخفية، فإنّه دالٌّ على ضعف الحال وخطاب المسكنة والذلّ حتّى لا يستطيع حراكاً، وهو من لوازم الشيخوخة والهزال، ولما فيه من التصاغر للجلال، والعظمة بخفض المصوب في مقام الكبرياء وعظم القدرة، فهذه الجملة مذكورة كما قرّرناه، وهي مُناسبة لحاله، ولهذا صدّرها في أول قصته لما فيها من ملائمة الحال وهضم النفس واستصغارها. وافتتاحها بذكر العبودية يؤكّد ما ذكرناه ويؤيّد.

(الدرجة الثانية) كأنه قال: يارب إنه قد دنا عُمرِي، وانقضت أيام شبابي، فإنّ انقضاء العُمر دالٌّ على الضعف والشيخوخة لاحتمال، لأنّ انقضاء الأيام والليالي هو الموصول إلى الفناء والضعف وشيب الرأس، ثم إنّ هذه الجملة صارت متروكة لتؤخّر مزيد التقرير إلى ما هو أكثر تفصيلاً منها ممّا يكون بعدها.

(الدرجة الثالثة) كأنه قال: قد شِخْتُ فإن الشيخوخة دالّة على ضعف البدن وشيب الرأس، لأنها هي السبب في ذلك لاحتمال.

(الدرجة الرابعة) كأنه قال: وَهَنْتُ عِظَامُ بَدَنِي، جعله كناية عن ضعف حاله، ورقة جسمه، ثم تركت هذه الجملة إلى جملة أخرى أكثر تفصيلاً منها.
(الدرجة الخامسة) كأنه قال: أنا وَهَنْتُ عِظَامُ بَدَنِي، فأعطيت مبالغة، لما قدّم المبتدأ ببناء الكلام عليه، كما ترى.

(الدرجة السادسة) كأنه قال: إِنِّي وَهَنْتُ الْعِظَامُ مِنْ بَدَنِي، فأضاف إلى نفسه تقريراً مؤكداً (بِإِنِّ) للأمر، واختصاصها بحاله، ثم تركت هذه الجملة بجملة غيرها.

(الدرجة السابعة) كأنه قال: إِنِّي وَهَنْتُ الْعِظَامُ مِنِّي، فترك ذكر البدن، وجمع العظام، إرادة لقصد شمول الوهن للعظام ودخوله فيها.
(الدرجة الثامنة) ترك جمع العظام إلى أفراد العظم، واكتفى بإفراده فقال: «إِنِّي وَهَنْتُ الْعِظَامُ مِنِّي».

(الدرجة التاسعة) تَرَكَ الْحَقِيقَةَ، وهي قوله: أَشِيبُ، أو شاب رأسي، لما علم أن المجاز أحسن من الحقيقة، وأكثر دخولاً في البلاغة منها، ثم تركت هذه الجملة بجملة أخرى غيرها.

(الدرجة العاشرة) أنه عدل عن المجاز إلى الاستعارة في قوله «واشتعلَ الرأسُ شَيْباً» وهي من محاسن المجاز، ومن مُثمرات البلاغة، وبلاغتها قد ظهرت من جهات ثلاث:

الجهة الأولى: إسنادُ الاشتعال إلى الرأس لإفادة شمول الاشتعال بجميع الرأس، بخلاف ما لو قال: اشتعل شيب رأسي، فإنه لا يُؤدِّي هذا المعنى بحال، فد «اشتعل رأسي» وَزَانُ: اشتعلت النار في بيتي، و «اشتعلَ رأسي شَيْباً» وَزَانُ: اشتعل بيتي ناراً.

الجهة الثانية: الإجمال والتفصيلُ في نصب التمين، فإنك إذا نصبت (شَيْباً) كان المعنى مخالفاً لما إذا رفعته، فقلت: اشتعل شيبُ رأسي، لما في النصب من

المبالغة دون غيره.

الجهة الثالثة: تنكير قوله «شيياً» لإفادة المبالغة، ثم إنه ترك لفظ (متي) في قوله «واشتعل الرأس شيياً» اتكالا على قوله «وَهْنُ الْعِظْمِ مَتِي» ثم إنه أتى به في الأول بياناً للحال وإرادة للاختصاص بحاله في إضافته الى نفسه. ثم عطف الجملة الثانية على الجملة الأولى بلفظ الماضي، لما بينهما من التقارب والملاءمة.

فانظر إلى هذا السياق المثمر المورق، وجودة هذا الرصف المعجب المونق، كيف ترك جملة إلى جملة، إرادة للإجمال بعده التفصيل، من أجل إثارة البلاغة حتى انتهى إلى خلاصها، ودهن لبّها ومصاصها، وهو جوهر الآية ونظامها بأوجز عبارة وأخصرها، وأظهر بلاغة وأبهرها.

واعلم أنّ الذي فتق أكمّام هذه اللطائف حتى تفتّحت أزرار أزهارها، وتعانقت أغصانها، وتأنقت أفنانها، وتناسبت محاسن آثارها، هو مقدمة الآية وديباجتها، فإنه لما افتتح الكلام في هذه القصّة البديعة بالاختصار العجيب، بأن طرح حرف النداء من قوله «رَبِّ» وياء النفس من المضاف، أشعر أولها بالغرض، فلأجل تأسيس الكلام على الاختصار عقّبه بالاختصار والإجمال، واكتفى بذكر هاتين الجملتين عمّا وراءهما من تلك المراتب العشر التي نبهنا عليها والحمد لله^(١).

أعجب آية باهرة:

قوله تعالى: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَوُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^(٢).

(١) الطراز: ج ٣ ص ٤١٦ - ٤٢٠.

(٢) هود: ٤٤.

قد مرّت عليك قصّة النضر من فصحاء قريش أزمعوا ليعارضوا القرآن، فعكفوا على لطيف الغذاء من لباب البرّ وسلاف الخمر ولحوم الضأن والخلوة، حتى بلغوا مجهودهم، فاذا فوجئوا بنزول هذه الآية، فطووا ما أزمعوا ويشسوا ممّا طمعوا فيه، وعلموا أنه لا يشبه كلام مخلوق^(١).

الأمر الذي دعا بعلماء الأدب والبيان أن يجعلوا هذه الآية بالذات موضع دراستهم والبحث عن مزاياها الخارقة، فخاضوا عباها واستخرجوا لبابها في عرض عريض.

ومتن أجاد في هذا الباب هو الإمام أبو يعقوب السكاكي في كتابه «مفتاح العلوم». فبعد أن تكلم عن شأن البلاغة وعجيب أمره، وأنه ممّا يدرك ولا يوصف - كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، والملاحة يهر حسن منظرها ولا يستطاع نعتها... وأضاف أنّ مدرك (الإعجاز) هو الذوق ليس إلّا، وطول خدمة علمي المعاني والبيان... ذكر شاهداً على ذلك متمثلاً بالآية الكريمة، ومعرّجاً على تعداد مزاياها ومفارقاتها عن سائر الكلام، قال:

وإذ قد وقفت على البلاغة وعثرت على الفصاحة المعنوية واللفظية، فأنا أذكر - على سبيل الانموذج - آية أكشف لك فيها عن وجوه البلاغة والفصاحتين، ماعسى يسترها عنك. ثم إن ساعدك الذوق أدركت منها ما قد أدرك من تحدّوا بها، وهي قوله - علت كلمته -: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

قال: والنظر في هذه الآية من أربع جهات: من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعاني - وهما مرجعا البلاغة - ومن جهة الفصاحة المعنوية، ومن جهة

(١) العملة لابن رشيق: ج ١ ص ٢١١، وراجع الجزء الرابع من التمهيد: ص ٢٠٢.

الفصاحة اللفظية:

١ - أمّا النظر فيها من جهة (علم البيان) وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول:

إنه - عزّ سلطانه - لما أراد أن يبين معنى «أردنا أن نردّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتدّ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغاض، وأن نقضي أمر نوح - وهو انجاز ما كنا وعدنا من إغراق قومه - فقضي، وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت، وابقينا الظلمة غرقى» بنى الكلام على تشبيه المراد بالمأمور الذي لا يتأتى منه - لكمال هيئته - العصيان، وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكوّن المقصود، تصويراً لاقتداره العظيم، وأنّ السماوات والأرض وهذه الأجرام العظام تابعة لإرادته، إيجاداً وإعداماً، ولمشيئته فيها تغييراً وتبديلاً، كأنها عقلاء مميّزون قد عرفوه حقّ معرفته، وأحاطوا علماً بوجود الانقياد لأمره والإذعان لحكمه، وتحتّم بذل المجهود عليهم في تحصيل مراده، وتصوروا مزيد اقتداره، فعظمت مهابته في نفوسهم، وضربت سرادقها في أفنية ضمائرهم. فكما يلوح لهم إشارته كان المشار إليه مقدّماً، وكما يرد عليهم أمره كان المأمور به متمّماً، لا تلقى لإشارته بغير الإمضاء والانقياد، ولا لأمره بغير الإذعان والامتثال.

ثم بنى على تشبيه هذا نظم الكلام، فقال - جلّ وعلا - : «قيل» على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل، وجعل قرينة المجاز الخطاب للجماة، وهو «يا أرض» و «ياسماء»، ثم قال - كما ترى - «يا أرض... ويا سماء» مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور.

ثم استعار لغوور الماء في الأرض «البلع» الذي هو أعمال الجاذبة في المطعوم، للشبه بينها وهو الذهاب إلى مقرّ خفي.

ثم استعار «الماء» للغذاء استعارة بالكنائية، تشبيهاً له بالغذاء، لتقوي

الأرض بالماء في الإنبات للزروع والأشجار، تقوي الآكل للطعام. وجعل قرينة الاستعارة لفظه «ابلي» لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء. ثم أمر- على سبيل الاستعارة للشبه المقدم ذكره- وخاطب في الأمر ترشيحاً لاستعارة النداء. ثم قال: «ماءك» بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز، تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض باتصال الملك بالمالك. واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح.

ثم اختار لاحتباس المطر «الإقلاع» الذي هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينها في عدم ما كان. ثم أمر على سبيل الاستعارة وخاطب في الأمر قائلاً «أقلي» مثل ما تقدم في «ابلي».

ثم قال: «وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بُعداً...» فلم يصرح بمن غاض الماء، ولا بمن قضى الأمر، وسوى السفينة، وقال بُعداً، كما لم يصرح بقائل «يا أرض» و«ياساء» في صدر الآية، سلوكاً في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية.

إن تلك الأمور العظام لا تتأق إلى من ذي قدرة يكتنه قهار لا يغالب. فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره- جلّت عظمته- قائل «يا أرض وياساء» ولا غائض مثل ما غاض، ولا قاضي مثل ذلك الأمر الهائل. أو أن تكون تسوية السفينة وإقرارها بتسوية غيره وإقراره.

ثم ختم الكلام بالتعريض، تنبيهاً لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل، ظلماً لأنفسهم لا غير، ختم إظهار إمكان السخط، ولجهة استحقاقهم إتياء، وأن قيمة الطوفان^(١) وتلك الصورة الهائلة ما كانت إلا لظلمهم.

(١) القيمة- بالكسر- النوع من قام، أي بذلك النوع الهائل من قيام الطوفان.

٢ - وأما النظر فيها من حيث (علم المعاني) - وهو النظر في فائدة كل كلمة منها، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها - فذلك أنه اختير «يا» دون سائر أخواتها، لكونها أكثر في الاستعمال وأنها دالة على بُعد المنادى، الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وإبداء شأن العزة والجبروت، وهو تباعد المنادى، المؤذن بالتهاون به، ولم يقل «يا أرض» بالكسر، لإمداد التهاون. ولم يقل «يا أيها الأرض» لقصد الاختصار، مع الاحتراز عما في «أيها» من تكلف التنبيه غير المناسب بالمقام.

واختير لفظ «الأرض» دون سائر أسمائها، لكونه أخف وأدور.
واختير لفظ «السماء» لمثل ما تقدم في الأرض، مع قصد المطابقة.
واختير لفظ «ابلي» على «ابتلي» لكونه أخصر، ولجيء حفظ التجانس بينه وبين «أقلي» أوفر.

وقيل «ماءك» بالإفراد دون الجمع، لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأبى عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت، وهو الوجه في إفراد «الأرض والسماء».

وإنما لم يقل «ابلي» بدون المفعول، أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد، من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء بأسره، نظراً إلى مقام ورود الأمر، الذي هو مقام عظمة وكبرياء.

ثم إذ بين المراد، اختصر الكلام مع «أقلي» احترازاً عن الحشو المستغنى عنه، وهو الوجه في أن لم يقل «قيل يا أرض ابلي ماءك فبلعت، وياسماء أقلي فأقلعت».

واختير «غيض» على «غيض» المشدد، لكونه أخصر.
وقيل «الماء» دون أن يقال «ماء طوفان السماء». وكذا «الأمر» دون أن يقال «أمر نوح» وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحاً من إهلاك قومه، لقصد

الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك .

ولم يقل «سَوِّيت على الجودي» بمعنى أَقَرَّتْ على نحو «قِيلَ» و«غِيضُ» و«قُضِيَ» في البناء للمفعول، اعتباراً لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله «وهي تجري بهم في موج» مع قصد الاختصار في اللفظ.

ثم قيل «بُعْدُاً للقوم» دون أن يقال «ليبُعْدُ القوم» طلباً للتأكيد مع الاختصار، وهو نزول «بُعْدُاً» منزلة «ليبُعْدُوا بُعْدُاً» مع فائدة أخرى، وهي استعمال اللام مع «بُعْدُاً» الدالّة على معنى أَنَّ البُعْدَ حقّ لهم.

ثم اطلق الظلم ليتناول كل نوع حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم، لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرسل.

هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلم.

وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل فذاك أنه قد قَدِّمَ النداء على الأمر، فقيل «يَا أَرْضُ ابْلَعِي» و«يَا سَمَاءُ أَقْلَعِي» دون أن يقال «ابْلَعِي يَا أَرْضُ» و«أَقْلَعِي يَا سَمَاءُ» جرياً على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة، من تقديم التنبيه، ليتمكّن الأمر الوارد عقبيه في نفس المنادى، قصداً بذلك لمعنى الترشيح.

ثم قَدِّمَ أمر الأرض على أمر السماء وابتدىء به لابتداء الطوفان منها ونزولها لذلك في القصة منزلة الأصل، والأصل بالتقديم أولى.

ثم أتبعها قوله «وغيض الماء» لا تصاله بقصة الماء وأخذه بججزتها. ألا ترى أصل الكلام (قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ - فبَلَعَتْ مَاءَهَا - وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي - عن إرسال الماء فأقْلَعْتَ عن إرساله - وغيض الماء - النازل من السماء فغاض -).

ثم أتبعه ما هو المقصود من القصة، وهو قوله «وَقُضِيَ الأمر» أي أنجز الموعد من إهلاك الكفرة، وإنجاء نوح ومن معه في السفينة. ثم أتبعه حديث السفينة، وهو قوله «واستوت على الجودي». ثم ختمت القصة بما ختمت.

هذا كله نظري في الآية من جانبي البلاغة.

٣ - وأما النظر فيها من جانب (الفصاحة المعنوية) فهي - كما ترى - نظم للمعاني لطيف، وتأدية لها ملخصة مبينة، لا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد، ولا التواء يشيك الطريق الى المرتاد. بل اذا جرّبت نفسك عند استماعها وجدت ألفاظها تسابق معانيها، ومعانيها تسابق ألفاظها. فما من لفظة في تركيب الآية ونظمها تسبق إلى إذكك إلا ومعناها أسبق إلى قلبك.

٤ - وأما النظر فيها من جانب (الفصاحة اللفظية) فالألفاظها - على ما ترى - عربية مستعملة، جارية على قوانين اللغة، سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة على العذبات، سليسة على الإسلاسات، كل منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنسيم في الرقة.

قال: والله درّشأن التنزيل، لا يتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر، ولا تظنن الآية مقصورة على ما ذكرت، فلعلّ ما تركت أكثر ممّا ذكرت، لأنّ المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي (المعاني والبيان) وأن لا علم في باب التفسير - بعد علم الأصول - أقرأ منها على المرء لمراد الله تعالى من كلامه، ولا أعون على تعاطي تأويل مشتبهاته، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه. هو الذي يوفي كلام رب العزة من البلاغة حقّه، ويصون له في مظانّ التأويل ماءه ووروقه^(١).

(١) مفتاح العلوم: ص ١٩٦ - ١٩٩.

وللأمير يحيى بن حمزة العلوي أيضاً بيان لطيف عن أسرار هذه الآية، وعن مزاياها البلاغية، على أسلوبه الفني البديع، ذكر محاسنها وروائعها بمجملتها أولاً، وعقبها بذكر التفاصيل في مباحث خمسة.

أما الاجمال فقد أوردناه عقيب كلامه عن الأوجه الأربعة الراجعة إلى الفصاحة اللفظية من البيان. وإليك الآن تفصيله، قال:

والإحاطة لمعانيها على جهة التفصيل ممّا لا تقدر عليه القوى البشرية، ولكننا نرمز إلى ما يحضرنا من لطائفها، ونشير من ذلك إلى مباحث خمسة:

البحث الأول:

بالإضافة الى موقعها من علم البيان. اعلم أنّ علم البيان من عوارض الألفاظ، ومورده المجاز على أنواعه، ومعناه إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه والنقصان، فعلى قدر إغراق المجاز وحسنه يزيّد المعنى وضوحاً، وعلى قدر نزوله وبُعده ينتقص المعنى، فالنظر في هذه الآية من جهة ما اشتملت عليه من الأنواع المجازية كالاستعارة والتشبيه والكناية، فنقول:

إنّ الله عزّ سلطانه لما أراد أن يُظهر فائدة الخطاب اللغوي - وهو أنّنا نريد أن نردّ ما انفجر من الأرض الى بطنها فارتدّ، وأن نقطع طوفان الماء فانقطع، وأن نُغيض الماء النازل من السماء فغاضَ، وأن نقضي أمر نوح وهو إنجازه ما كنّا وعدنا من إغراق قومه فقُضيَ، وأن تَقَرَّ السفينةُ على الجودي فاستقرّت، وأن نُلقي الظلمة غرق، وأن نُبعدهم عن رحمتنا بالعقوبة، فلما أراد الله تعالى أن يودّي هذه المعاني اللغوية على أساليب العلوم البيانية، باستعماله المجازات فيها، وترك العبارات اللغوية جانباً - فلا جرم ساق الكلام على أحسن سياق بتشبيه المراد منه هذه الأمور بالمأمور الذي لا يتأتى منه التأخير عمّا أُريد منه، لكمال الأمر وجلال هيئته ونُفوذ سلطانه، وشبه تكوين المراد بالأمر الحتم النافذ في

تكوين المقصود، إرادة لتصوير اقتداره الباهر، وتقريراً لاستيلاء سلطانه القاهر، وأنّ السماوات والأرضين على ما شتملا عليه من هذه الأجرام العظيمة والأتساعات الممتدة تابعة لإرادته في الإيجاد والإعدام، ومُنقادة لمشيئته في التغيير والتبديل، وأغرق في التشبيه، بأن جعلهم كأنهم عُقلاء مميّزون، قد عَرَفوه حقَّ معرفته، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره والإذعان لحكمه، فحتموا على أنفسهم بذلّ المجهود في مطابقة أمره وتحصيل مُرادِهِ، لما وقع في أنفسهم من مزيد اقتداره، وتصوّروا في ذات عقولهم كُنَّة عَظَمَتِهِ.

فعند ذلك عَظُمَت المهابَةُ له في نفوسهم، واستقرّت حقيقة الخوف من سطوته في قلوبهم، فَضُرِبَتْ سُرادِقَاتُ المهابَةِ والخوفِ في أَقْذِئَتِهِمْ، فَأَلْقَتْ أَثْقَالَهَا فِي سَاحَاتِ ضَمَائِرِهِمْ علماً بما تستحقّه من جلال الإلهية، وتحقّقاً لما يختصّ من سمات الربوبية، تخفّف على رؤوسهم راياتُ المحامد بتحقيق معرفته، وتُعَقِّدُ عليهم أَلَوِيَّةُ المهابَةِ والخشية من خشيته، فلا مَطْمَعُ لَهُمْ فِي خِلافِ مُرَادِهِ، وَلَا تَشَوُّقُ لَهُمْ إِلَى تَأَخُّرٍ عَنْ مَقْصُودِهِ، وَكَلَّمَا لَاحَ لَهُمْ وَمِيضٌ مِنْ بَرَقِ إِشَارَتِهِ كَانَ الْمَشَارَ إِلَيْهِ مَقْدَمًا، وَكَلَّمَا تَوَهَّمُوا وَرُودَ أَمْرِهِ كَانَ ذَلِكَ الْأَمْرُ بِسُرْعَةِ الْإِمْتِثَالِ مَكْمَلًا مُتَمَمًّا، فَلَا يَتَلَقَّوْنَ إِشَارَاتِهِ بِغَيْرِ الْإِمْتِثَالِ، وَلَا يُقَابِلُونَ أَوَامِرَهُ بِغَيْرِ الْإِنْقِيَادِ، فَسَبْحَانِ مَنْ شَمِلَتْ قُدْرَتُهُ جَمِيعَ الْمُمْكِنَاتِ تَكْوِينًا وَإِيجَادًا، وَأَحَاطَ بِكُلِّ الْمَعْلُومَاتِ إِحْكَامًا وَإِتْقَانًا، فَهَذَا تَقْرِيرُ نَظْمِ الْكَلَامِ وَتَأْلِيفِهِ.

ثمّ إِنَّا نَعْطِفُ عَلَى بَيَانِ رَوَابِطِ الْمَجَازِ وَعِلَاقَتِهِ فِي الْآيَةِ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلِ «قِيلَ» عَلَى جِهَةِ الْمَجَازِ عَنِ الْإِرَادَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ حَذَفَ الْفَاعِلَ وَجَعَلَهُ فِي طَيِّ الْفِعْلِ، إِهْمَامًا وَإِعْظَامًا لِحَالِهِ عَنِ الذِّكْرِ عِنْدَ عُرُوضِ أَمْرِ هَذِهِ الْمَكُونَاتِ عَلَى جِهَةِ الدُّلِّ وَالتَّسْخِيرِ، ثُمَّ جَعَلَ قَرِينَةَ الْمَجَازِ مَخَاطِبَتَهُ لِلْجَمَادَاتِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ» «يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي» عَلَى جِهَةِ التَّشْبِيهِ لِمَا جُعِلَا بِمَنْزِلَةِ مَنْ عَقَلَ الْأَمْرَ وَفَهُمَ عِظَمُ الْإِسْتِيْلَاءِ، ثُمَّ اسْتَعَارَ لِفُورِ الْمَاءِ فِي الْأَرْضِ اسْمَ

البلع الذي يُطلق على القوّة الجاذبة للمطعموم، لانعقاد الشبه بينهما، وهو الإذهاب إلى مقرّ خفيّ، ثم استعار الماء للغذاء على جهة الكناية، تشبيهاً له بالغذاء، لأنّ الأرض لما كانت تتقوى بالماء في الإنبات للزرع والأشجار والثمار، تقوى الآكل بالطعام، وجعل القرينة الدالة على الاستعارة في لفظ «ابلي» هو كونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء.

ثمّ إنه وجه الخطاب لها بالأمر على جهة الاستعارة لما ذكرناه من التنبيه المتقدم، حيث نزلها منزلة العقلاء الذين تسربلوا سراويل المهابة، وتلفّعوا بأردية التذلل منقادين في حكمة القهر عليهم بثؤس الاستكانة، وضرع الاستسلام والذلة، وخاطب بالأمر ترشيحاً للاستعارة في النداء.

ثم قال «ماءك» مضيفاً الماء إلى الأرض على جهة الاستعارة، لما لها به من الاختصاص، وجعل الإضافة باللام تشبيهاً للأرض بالمالك، حيث كانت متصرفة فيه بالابتلاع والذهاب فيه وانتفاعها به.

ثمّ إنه قدّم الأرض على السماء لأوجه خمسة: أمّا (أولاً) فلما للخلق من الانتفاع بالأرض بالاستقرار وكونها بساطاً لهم. وأمّا (ثانياً) فلأنها لما كانت مقرّاً للسفينة التي تكون بها النجاة لمن ركبها. وأمّا (ثالثاً) فلأنها لما كانت مقرّاً لمائها وماء السماء، وحيث يكون اجتماعها كانت أحقّ بالتقديم. وأمّا (رابعاً) فلأن الغرض هلاكهم في الأرض لأجل ما حصل من العصيان والمخالفة فيها. وأمّا (خامساً) فلأنّ البداية بالغرق كانت من جهة الأرض، ولهذا قال تعالى: «فإذا جاء أمرنا وفارّ التنّور» فكان أول نبوع الماء من الأرض، فلأجل هذه الأمور كانت مقدّمة في الخطاب.

ثمّ إنه تعالى أقبل على خطاب السماء بمثل ما خاطب به الأرض، لما كان الماء النازل منها هو السبب في الإهلاك بالغرق، فلأجل ذلك عطف خطابها على خطاب الأرض فقال «وياسماء أقلعي» وما ذكرناه في نداء الأرض

وخطاها من الاستعارة فهو حاصلٌ في خطاب السماء، وإنما اختار لاحتباس المطراسم الإقلاع الذي هو ترك الفعل من جهة الفاعل، فإنه يقال في حال من استمر من جهته فعلٌ من الأفعال ثم تركه: أقلع عنه، لأنّ إنزال المطر لما كان صادراً منها على سبيل الاستمرار ثم رُفِعَ كأنها أُلْقِعت عن فعله، وإنما ذكر متعلّق فعل الأرض بقوله «ابلعي ماءك» ولم يذكر متعلّق فعل السماء فلم يقل: وياسماء أُلْقِعي عن صبّ مائك، من جهة أنّ الأرض لَمَّا كان لها اعتمادٌ في بلع الماء فلاجل هذا ذكر متعلّق فعلها، بخلاف السماء فإنه لا عمَل لها هناك إلّا ترك الصبّ والكفّ، فلاجل ذلك لم يكن حاجةً إلى ذكر متعلّقها، وإنما وجه أمر الأرض بالفعل المتعدّي ووجه أمر السماء بالفعل اللازم من جهة تصرّف الأرض في الماء بصيرورته في بطنها بخلاف السماء، فإنّ الغرض بقوله «اقلعي» أي كوني ذات إقلاع، وكفّ عن الصبّ لا غير، ولذا يقال: ابتلعتُ الخُبْزَ، وأُلْقِعت السماء، اذا صارت ذات إقلاع في سحابها.

ثم قال بعد ذلك: «وغيضَ الماء وقُضِيَ الأمرُ واستوت على الجوديّ وقيل بُعِداً» فأتى بهذه الجملة الخبرية عقب تلك الأوامر على جهة الإيهام لفاعلها، إعلماً بأنّ مثل هذه الأمور العظيمة والخطوب الهائلة لا تصدر إلّا من ذي قدرة، لا تكتنهُ العقول ولا تنالُهُ الأفهام، وتعريفاً بأنّ الوهم لا يذهب إلى أنّ غيره قائل: يا أرض ابلعي وياسماء أُلْقِعي، ولا يغيض الماء، ولا يُقْضَى الأمرُ في هلاكهم، ولا تستوي السفينة على الجودي، ولا يبعدهم عن الرحمة باستحقاق العقوبة إلّا هو، فلا جرّم أبهم ذكره من أجل ذلك.

ثم إنه ختم الكلام على جهة التعريض بقوله «وقيل بُعِداً للقوم الظالمين» تنبيهاً على أنّ ذلك إنما كان من أجل ظلمهم لأنفسهم بتكذيب الرسل وإعراضهم عما جاؤوا به من الحجج الظاهرة، والأعلام النيرة، وأنّ من كان على مثل حالهم فإنّ الهلاك واقع به لا محالة من غيرهم ممّن بعدهم، وفيه وعيدٌ

لقريش ومن حذا حذوهم في تكذيب الرسول صلى الله عليه [وآله] وسلّم (إيّاك أعني فاسمعي يا جارة) وإنما كرّر قوله «وقيل بُعداً» ولم يكرّره في خطاب السماء فيقول (وقيل يا أرض وقيل ياسماء) من جهة أنّ السماء من جنس الأرض في مقصود الأمر منها، وهو إزالة الماء عنها، فاكثفي بإظهاره في إحداها وحذفه من الأخرى، بخلاف قوله «بُعداً» فإنه مصدر وجّه على جهة الدعاء، ليس مجانساً لما سبق، فلهذا كرّر القول فيه إعلماً بأنه من جملة القول، واهتماماً بالدعاء عليهم بالإبعاد عن الرحمة باستحقاق العقوبة السرمديّة، أعاذنا الله منها برحمته. فهذه جملة ما يتعلق بالآية من العلوم البيانية، وتحتها أسرارٌ أوسع ممّا ذكرناه.

البحث الثاني:

بالإضافة إلى موقعها من علم المعاني. اعلم أنّ منزلة المعنى من اللفظ هي منزلة الروح من الجسد، فكلُّ لفظ لا معنى له فهو بمنزلة جسد لا روح فيه. ومفهوم علم المعاني هو إدراك خواصّ مفردات الكلم بالتقديم والتأخير وفهم مركّباتها، ونعني بقولنا «إدراكُ خواصّ المفردات في التقديم والتأخير» ما يفهم من قولنا: زيد منطلق، ومنطلقٌ زيد، ومن الكرام زيدٌ، وزيدٌ من الكرام. وبقولنا «وفهم مركّباتها» هو ما في قولك: زيدٌ قائمٌ، وإنّ زيداً لقائمٌ فكلُّ واحد من هذه الصور يفيد معنى غير ما يفيد الآخر من أجل التركيب، وهكذا القول في جميع التراكيب، فإنها دالة على معانٍ بديعة، ومرشدة إلى أسرار عجيبة. فإذا عرفت هذا فالنظر في هذه الآية - من جهة علوم المعاني - إمّا أن يكون نظراً في مفرداتها، وتقديم ما يقدم منها وتأخير ما يؤخر، وإمّا أن يكون نظراً في تركيب جملها، فهذان نظران نتصدّى للنظر فيهما.

النظر الأول:

في مفرداتها وتقديم بعضها على بعض. إنما اختير لفظ «يا» من بين سائر أحرف النداء من جهة أنها كثيرة الدور في الاستعمال، وأنها موضوعة للدلالة على بُعد المُنَادِى، والبُعد هنا يجب أن يكون معنوياً، لأنَّ البُعد الحسِّيَّ على الله تعالى محالٌّ، من جهة استحالة الجهة على ذاته، وذلك أنَّ المعنويَّ يكون من جهات خمس:

أولها: أنه تعالى لما كان مختصاً بعدم الأولية في ذاته سابقاً على وجود الممكنات سبقاً أولاً بلا نهاية، وأنَّ الأرض من جملة الممكنات التي لها بداية، ولا شكَّ أنَّ كلَّ ما كان لا أول له، فهو في غاية البُعد عمّا له أول.

وثانيها: من جهة عدم التناهي في ذاته تعالى من كلِّ وجه، بخلاف الأرض، فإنها متناهية في ذاتها من كلِّ وجه، وليس يخفى ما بين التناهي وعدم التناهي من البُعد العظيم.

وثالثها: اختصاصُ ذاته بالعظمة والكبرياء، واختصاص الأرض بنقيضها من التسخير والقهر.

ورابعها: اختصاصُ ذاته بالاستغناء من كلِّ وجه في ذاته وصفاته، بخلاف الأرض، فإنها مفتقرة في ذاتها من كلِّ وجه إلى فاعل ومدبّر، ومن كان مستغنياً في ذاته وصفاته فإنه في غاية البُعد المعنويَّ عمّا يكون مفتقراً في ذاته وصفاته إلى غيره.

وخامسها: أنه نداء من اختصَّ بكمال العزّة لمن هو في غاية الذلّة، كما ينادي السيّد عبده.

فلما كانت الأرض مختصة بما ذكرناه من البُعد من هذه الأوجه لاجرم كان نداؤها مختصاً بـ«يا» من بين صيغ النداء، وإنما قال «يا أرض» ولم يقل

(يا أرضي) إيثاراً لتحقيرها، لأنه لو أضافها إلى نفسه لكان قد أقام لها وزناً عنده بإضافتها إليه، لأنّ المضاف أبداً يكتسي من المضاف إليه شرفاً وتخصيصاً وتعريفاً، ولم يقل (يا أيتها الأرض) إيثاراً للاختصار وعملاً على الإيجاز وتحزّزاً عن الإيقاظ بما يظهر من لفظ التنبيه الذي لا يليق بمقام الخطاب الإلهي، لاستحالته فيه.

واختير لفظ الأرض لأمرين، أمّا أولاً فلاّن المدحوة والمبسوطة والمهاد وغير ذلك ممّا يستعمل في الأرض صفات زائدة تابعة للفظ الأرض. وأمّا ثانياً فلاّن لفظ الأرض أخفّ وأكثر دوراً واستعمالاً ممّا ذكرناه، فلهذا وجب إيثاره على غيره من أسمائها.

واختير لفظ «ابلعي» ولم يقل (ابتلعي) لأمرين، أمّا أولاً فلاّن «ابلعي» أخفّ وزناً وأسهل على اللسان من (ابتلعي). وأمّا ثانياً فلاّن في الابتلاع نوع اعتماد في الفعل وتصرف فيه يؤذن بالمشقة، بخلاف قوله «ابلعي» فإنه دالّ على السهولة، فيكون فيه دلالة على باهر القدرة، حيث أمرت بالبلع لهذا الأمر الهائل من الماء، بحيث لا يمكن تصوّره على أسهل حالة.

وإنما اختير إفراؤ الماء دون جمعه لأمرين، أمّا أولاً فلاّن في الجمع نوع تكثير، فلا يليق ذكره بمقام الكبرياء وإظهار العظمة. وأمّا ثانياً فلاّن في الإفراؤ نوع تحقير وذلّة، وهو لائق بمقام القهر والاستيلاء في الملكة، وهذا هو الوجه في إفراؤ السماء والأرض، وإنما ذكر مفعول «ابلعي» لأنه لو اقتصر على ذكر البلع لدخل فيه ما ليس مراداً من بلع الجبال والبحار، وأنواع الأشجار والسفينة ومن فيها، نظراً إلى عموم الأمر الذي لا يخالف ولا يُردّ عن مجراه، لأنّ المقام مقام عظمة وكبرياء، وقول ابن عباس في قوله تعالى «قلنا يانارُ كوني برداً وسلاماً على إبراهيم» إنه لو لم يقل «وسلاماً» لم ينتفع بالنار، لشدة بردها، يشير به إلى ما ذكرناه من مضا الأمر ونفوذه.

وإنما لم يُظهر ذكر المسبب عند ذكر سببه - فيقول «يا أرض ابلعي» فبلعت «ويا سماء اقلعي» فأقلعت - لأمرين أما أولاً فليَمّا في ذلك من الاختصار العجيب والايجاز البليغ، فاكتمى بذكر السبب عن ذكر سببه، وهذا كثير في القرآن كقوله تعالى «فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت» لأنّ المعنى فضرِب فانفجرت. وأما ثانياً فلما فيه من الإشارة إلى باهر القدرة في سرعة الإجابة، ووقوع الامتثال، وحصول المأمور من غير مخالفة هناك، فترك ذكره اتكالاً على ما ذكرناه، وأنه كائن لا محالة لا يمكن تأخره.

واختير بناء «غيض» لما لم يُسمّ فاعله على (غِيَضَ) بتشديد الياء مبنياً للفاعل لأمرين: أما أولاً فن أجل الإيجاز لطرح الفاعل والاختصار فيه. وأما ثانياً فن أجل الاستحقرار عن تعريض ذكر الله تعالى على أحقر المقدورات بالإضافة إلى جلاله، والمقام مقام الكبرياء والعظمة.

وإنما اختير لفظ «الماء» ولم يقل الطوفان ولا المطر إثارة للاختصار، ولما فيه من الإشارة باللام التي للعهد، كأنه قال: وغيض الماء الذي أمرنا الأرض والسماء بابقاعه، بياناً لحاله وإيضاحاً لأمره، وأنه الذي وقع الإهلاك به لقوم نوح، فيعظم الامتنان على مَنْ بقي في السفينة بإزالته.

وإنما قال «الأمر» في قوله تعالى: «وَقُضِيَ الْأَمْرُ» ولم يقل وَقُضِيَ أَمْرُ نوح، أَوْ قُضِيَ الهلاك، أَوْ قُضِيَ الإغراق لأمرين: أما أولاً فلأجل إثارة الاختصار وتعويلاً على الإيجاز. وأما ثانياً فلأنّ وقوع ما وقع إنما كان من أجل العناية بنوح في إغراق قومه وإظهار الانتصار له، فجاء باللام العهدية إشارة إلى ذلك، مع ما تضمّن من الفخامة في معرض الامتنان على نوح بالانتقام من قومه بما كذبوه.

وإنما اختير «واستوت على الجودي» ولم يقل: سُوِّيت كما قال: وغيض، وَقُضِيَ، على البناء للمفعول لأمرين: أما أولاً فن أجل ثقل الفعل بالتضعيف عند بنائه لما لم يُسمّ فاعله، فلهذا أُوثر الأخف. وأما ثانياً فلأنّ الأكثر في

الاستعمال إضافة الأفعال إلى هذه الآيات، فيقال: هبّت الریح، ومطرت السحابة، واستوت السفينة على الماء، قال تعالى «وهي تجري بهم في موج» فأضاف الجري إليها فلأجل ذلك اختير إضافة الاستواء إليها.

وإنما اختير (بُعْدًا) ولم يقل: لیبعدوا لأمرين: أمّا أولاً فلأنّ في المصدر نوع تأكيد لا يؤدیه الفعل لو نُطق به. وأمّا ثانياً فلأنه لو وجّهه بالفعل كان مقيداً بالزمان، وهو إذا كان موجّهاً بالمصدر كان مطلقاً من غير زمان، فلهذا كان أبلغ من ذكر الفعل.

وإنما عرّف (القوم) باللام إشارة إلى أنهم هم المخصوصون بهذه الأنواع من التنكيل دون غيرهم.

وإنما أتى بلام الجر ولم يقل: فبُعْدًا من القوم، لما فيها من الاختصاص المشعرة به اللام دون (من) فانها غير مؤدّية لهذا المعنى.

وإنما أطلق صفة الظلم، ولم يقل الظالمين لأنفسهم تنبيهاً على شمول ظلمهم من جميع الوجوه، وفيه تنبيه على فظاعة شأنهم وسوء اختيارهم لأنفسهم فيما كان فيهم من تكذيب الرسل، وفيه شرح لصدر الرسول بالانتصار له على من كذّبه، والتأسي بالصبر، ووعيد لمن كذّبه بالنصفة والانتقام منه.

النظر الثاني:

في تأليف الجمل وذكر بعضها عقيب بعض. تقديم بعض الجمل على بعض ليس خالياً عن فائدة وسرّ، وإنما قدّم النداء على الأمر فقال: «يا أرض ابلعي... ويا سماء اقلعي» ولم يقل عكس ذلك: ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء، لأمرين، أمّا أولاً فلما في ذلك من الملاطفة والمبالغة في تحصيل المراد، لأنّ كلّ من ناديته فإنّ نفسه تنزع وله توقّف إلى الإجابة وتطلّع إلى ما يرد من الدعاء من أمر أو نهي، فلا تزال النفس تنزع لتعلم ما هو المطلوب، فمن أجل ذلك قدّم

الدعاء على الأمر لما فيه من الشوق والتوقان للنفوس. وأما ثانياً فجرباً على ما أُلِّفَ من الإيقاظ والتنبيه، لأنَّ كل من طالب أمراً من الأمور من غيره فلا بد من إيقاظه وتنبيهه عليه، ليكون مستعداً للامتنال له، فلاجل ذلك قدّم النداء على الأمر على جهة الإيقاظ والتنبيه ممّا يطلب من المأمورات.

ثم إنه قدّم نداء الأرض على نداء السماء لما ذكرناه من العناية بأمر الأرض من تلك الأوجه الخمسة، وقد ذكرناها فأغنى عن تكريرها، ولكونها صارت أصلاً لما يردُّ من هذه الأمور الهائلة من الاغراق والاستواء للسفينة، وإخراج من كان فيها إلى الأرض.

ثم إنه عزَّ سلطانها أردفها بقوله «وغيض الماء» لا تصاله بقصة الأرض، وأخذه بحُجَزَتِها، فلاجل ذلك أتبعه بها، لَمَّا في ذلك من حسن الانتظام، ورونق الرصف، ألا ترى أنَّ أصل الكلام: وقيل يا أرض ابلعي ماءك، فبلعت ماءها، ويا سماء أقلعي عن إرسال ماءك، فأقلعت عن صبه، فلا جَرَمَ حسنُ أن يقال: وغيض الماء النازل من السماء والنابع من الأرض.

ثم إنه جلَّ وتقدَّس أتبعه بما هو المهمُّ المقصود من القصة، وهو قوله تعالى «وَقُضِيَ الْأَمْرُ» والمعني به أنه أنجز الموعد من إهلاك الكفار، ونجاة نوح ومن معه في السفينة، وإخراجهم إلى الأرض، لَمَّا أراد منهم من العبادة وعمارتها، والتنازل فيها.

ثم إنه تعالى أتبعه بحديث السفينة وذكرها، وهو قوله تعالى إعلاماً لهم بما يُريد من الامور التابعة للمصلحة.

ثم إنه تعالى ختم القصة بالدعاء عليهم بالإبعاد، فلَمَّا كانت القصة من أولها دالة على العذاب العظيم من الإهلاك بالغرق، حَتَّمَهَا بما يجانسها من سوء العاقبة بالإبعاد والطرْد، كما هو موضوع في أساليب التنزيل من حسن الفواتح والخواتم.

البحث الثالث:

في بيان موقعها من الفصاحة اللفظية. اعلم أنَّ الفصاحة من عوارض الكلم اللفظية، وهي خلاصة علم البيان وصفوة جوهره، ويوصفُّ بها المفرد والمركَّب، وهي أخصُّ من البلاغة، ولهذا يقال: كلُّ بليغ من الكلام فصيحٌ وليس كلُّ فصيح بليغاً. ولا يكون الكلام فصيحاً إلا إذا كان مختصاً بصفات ثلاث:

الأولى منها: أن يكون خالصاً من تنافر الأحرف في تأليف اللفظة ونظامها، فيسلم من مثل قولنا (عُجِّق) وعن مثل قولك (هعنع) فإنَّ ما هذا حاله بجانب لفصاحة بمعزل عن أساليبها، ولهذا عيب على امرئ القيس قوله (غذائره مُستشزرات إلى العُلَى) لَمَّا في (مستشزرات) من التنافر المورث للثقل والبشاعة.

الثانية: أن يكون مجتنباً عن الغرابة والعُجْهانية، فما هذا حاله يكون عارياً عن الفصاحة، وهذا كقولك في الخمر إنها (الزُرْحُون) وإنها (القرْقَف) فيُعَدُّ هذا من وحشي الكلام وغريبه، فما أَيْفَ كان أدخل في الفصاحة.

الثالثة: أن يكون موافقاً للأقيسة الإعرابية، فلا يخالفها في تصريف ولا إعراب، فيجب إعلال الكلمة على القوانين الجارية في علم الإعراب فلا يقال في (قَامَ) قَوْمٌ، ولا في (قَائِمٌ) قَوْمٌ، وإن كان أصلاً، ولا يقال (الحمدُ لله العليُّ الأجلُّ) وإن كان هو الأصل، بل يجب إجزاء ذلك على الإعلال والإدغام، وإلا كان خارجاً عن الفصيح من الكلام، وقد قرَّنا شرح هذه القاعدة في أول الكتاب فأغنى عن الإعادة، فإذا تمهدت هذه القاعدة، فإنك إذا تحققت الألفاظ الواردة في هذه الآية وجدتها سالمة عن التنافر في بنائها، عربية مألوفة جارية على الأقيسة المطردة في الإعراب والتصريف، بعيدة عن الغرابة، سليمة

عن البُنجَهَانِيَّة، تُشَبِّه العسلَ في الحلاوة، والماء في الرقة والسلاسة، وكالنسيم في السهولة، لا تَنبوعن قبولها الأذهان، ولا تَمُجُّها الآذان.

البحث الرابع:

في بيان موقعها من الفصاحة المعنوية. اعلم أنَّ الفصاحة المعنوية هي غاية علم المعاني، والفصاحة المعنوية المرادُ بها البلاغة، وهي من عوارض المعاني، وهي متضمنة للفصاحة اللفظية، ولهذا فإنَّ الكلام البليغ لا يكون بليغاً إلا مع إحرازه للفصاحة، فهي في الحقيقة راجعة إلى المعنى واللفظ جميعاً، ولها طرفان: أعلى، وهو ما يبلغ به الكلام حدَّ الإعجاز، وأدنى، وهو الذي يُقدَّرُ فيه أنه إذا أزيل عن نظامه الذي أُلِفَ عليه التحقَّ بالكلام الركيك، فلم تخف عليك غَثائته، وبين هذين الطرفين مزايا ومراتب ودرجات متفاوتة.

فإذا عرفت هذا وفكرت في نظام هذه الآية، وجدتها قد أُلِّفَت على أتم تأليف، وأُذيت على أعجب نظام، ملخصةً معانيها، مرصوفةً مبانيها، لا يعثر اللسان في ألفاظها، ولا يغمض على الفكر طلبُ المراد منها، فإذا خرقت قراطيس الأسماع وجدتها تُسابق معانيها ألفاظها، وألفاظها معانيها، لا تحتاج لوضوحها إلى ترجمان، ولا يملُّ سامعها وإن تكررت في كل ساعة وأوان، فهذا ماسنح لي في هذه الآية من علوم الفصاحة، والبلاغة، والعلوم المعنوية، والعلوم البيانية.

البحث الخامس:

في بيان موقعها من علم البديع. اعلم أنَّ البديع لقبٌ في هذه الصناعة تعرّف به وجوه تحسين الكلام بعد إحرازه لمعاني البلاغة وأنواع الفصاحة، ووضوح دلالاته، وجودة مطابقتها، ثم إنه على رشاقتها ضربان: لفظي، ومعنوي.

فالضرب الأول يتعلق بالأمر اللفظية، وهذا نحو التجنيس، وهو أن تكون الألفاظ متشابهة في الأعجاز والأوزان وغير ذلك، وقد يقع في المتواطىء كقوله تعالى «ويوم تقوم الساعة يُقيسُ المجرمون ما لبثوا غير ساعة» وقد يكون في المشترك كقولهم: ماملأ الراحة من استوطن الراحة، ومنه التسجيع، وهذا كقوله تعالى «مالكُم لا ترجونَ لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً» وأكثر القرآن وارداً على جهة التسجيع، ومنه ردُّ العجز على الصدر كقوله تعالى «وتخشى الناسَ والله أحقُّ أن تخشاهُ» ومنه الموازنة كقوله تعالى «ونارقُ مصفوفةً وزرابى مبثوثة» ومنه القلب كقوله تعالى «كلُّ في فلكٍ» وقوله تعالى «وربكُ فكبرُ» إلى غير ذلك ممَّا يتعلَّق بأحوال الألفاظ كما ترى.

والضرب الثاني ما يتعلق بالأمر المعنوية، وهو أكثر دَوْرًا وأعظم إعجاباً في البلاغة، وهذا نحو الطباق، وهو ذكر النقيضين كقوله تعالى «يُحيى ويميتُ» وقوله «وهو الذي جعلَ لكم الليلَ والنهارَ» وقوله تعالى «وجعل الظلمات والنورَ» والطباق كثير الاستعمال في كتاب الله تعالى، ومنه اللف والنشر كقوله تعالى «ومن رحمته جعلَ لكم الليلَ والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله» إلى غير ذلك من أنواع البديع وضروبه، وقد أتينا على جميع أنواعه كلها، وأوردنا لها شواهد وأمثلة. فأغنى عن التكرير والإعادة في ذلك.

دقيقة:

اعلم أنَّ هذه الأنواع الثلاثة - أعني علم المعاني والبيان وعلم البديع - مآخذها مختلفة، وكلُّ واحد منها على حظٍّ من علم البلاغة والفصاحة، ولنضرب لها مثلاً يكون دالاً عليها ومبيناً لموقع كلِّ واحد منها، وهو أن تكون حَبَّاتٌ من ذهب ودُرَرٌ ولآلئٌ ويواقيت، وغير ذلك من أنواع الأحجار النفيسة، ثم إنها أُلِفَّتْ تأليفاً بديعاً، بأن خُلِطَ بعضها ببعض وركبت تركيباً

أنيقاً، ثم بعد ذلك التأليف، تارةً تُجعلُ تاجاً على الرأس، ومرةً طوقاً في العنق، ومرةً بمنزلة القُرط في الأذن. فالألفاظ الرائقة بمنزلة الدَّرر والالآء، وهو علم المعاني، وتأليفها وضمُّ بعضها إلى بعض، هو علم البيان؛ ثم وضعها في المواضع اللائقة بها عند تأليفها وتركيبها، هو علم البديع. فوضعُ التاج على الرأس بعد إحكام تأليفه هو وضعُ له في موضعه، ولو وُضع في اليد أو الرجل لم يكن موضعاً له، وهكذا الكلام بعد إحكام تأليفه يُقصد به مواضعه اللائقة به، وما ذكرناه من المثال هو أقرب ما يكون في هذه العلوم الثلاثة وتمييز مواقعها.

فإذا عرفت هذا فاعلم أنَّ الآية قد اشتملت من علم البديع على أجناس ثلاثة.

الجنس الأول منها: الجنسُ اللاحقُ، وهو أن تتفق الكلمتان في جميع حروفهما إلّا في حرفين لا تقارب بينهما، وهذا هو قوله تعالى «وقيل يا أرضُ ابلعي ماءك وياسماء أقلعي» فقوله ابلعي وأقلعي، جناسٌ لاحق، لا يختلفان إلّا في القاف والباء، وهما غير متقاربين، وكقولك سعيدٌ بعيدٌ، وعابدٌ عاتبٌ، فهذا كلّه يقال له جناسٌ لاحق.

الجنس الثاني: الطباق المعنوي، وهو قوله «أقلعي وابلعي» لأنَّ المعنى في بلع الأرض إنما هو إدخاله في جوفها، وإقلاع السماء هو إخراجها عنها. وهذا تطبيق من جهة المعنى، من جهة أنَّ الإدخال والإخراج ضدان، وهذا كقوله تعالى «أشداء على الكفار رُحماء بينهم» لأنَّ الرحمة هي لينُ القلوب وتعطفها، وهو ضدُّ الشدة.

الجنس الثالث: الاستطراد، وهو توسيط كلام أجنبي بين كلامين متمثلين، وهذا قوله تعالى «بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» فإنه وسّطه بين قصة نوح وإغراق قومه وحالة السفينة، ثم رجع إلى حال القوم، وما هذا حاله فإنه يكون من الاستطراد الحسن وأعجب شأن التنزيل، فما أغزر أسرارهِ، وأكثر عجائبهِ،

ولله دُرُّ مغاصاته المُخرجة بخلاص عِقيانه، والمُبرزة بحصباء دُرره ومرجانه.
 فهذا ما أردنا ذكره من عجائب ما شتملت عليه علوم هذه الآية، وبتمامه
 يتم الكلام على المزايا الراجعة إلى ألفاظ القرآن الكريم، وقد أطلنا فيه التقرير
 بعض الإطالة، أحوج إلى ذلك الكلام في هذه الآية التي ذكرناها^(١).

نكت وظرف

فيما تكرر من آيات الذكر الحكيم

غير خفي أن ما يذكره تعالى حكاية عن أمم سالفين إنما هو نقل بالمعنى، ولا سيما فيما يحكيه من أقوالهم ومحاجاتهم، حيث كانت بلغة غير عربية، ونقل المعنى في سعة من اللفظ حيث يشاء وحيث يتناسب مع مقصوده من الكلام، ينقله تارة طوراً وأخرى طوراً آخر، وقد ينقل بعضه ويترك البعض، حسب ما يراه من مناسبة المقام. ومن ثم فهو في فسحة من النقل والحكاية.

قال الاسكافي: إن ما أخبر الله به من قصة موسى وبني إسرائيل وسائر الأنبياء لم يقصد به حكاية الألفاظ بأعيانها، وإنما قصد اقتصاص معانيها. وكيف لا يكون كذلك واللغة التي خوطبوا بها غير العربية، فحكاية اللفظ إذا زائلة، وتبقى حكاية المعنى. ومن قصد حكاية المعنى كان مختيراً بأي لفظ أراد، وكيف شاء من تقديم وتأخير بحرف لا يدل على الترتيب كالواو. وعلى هذا يقاس نظائره في القرآن^(١).

* * *

وللكرماني^(٢) تصنيف لطيف في بيان ما لكل موضع من الآيات المكررة

(١) درة التنزيل: ص ١٧، هامش أسرار التكرار: ص ٢٨.

(٢) هو العلامة الأديب محمود بن حمزة بن نصر الكرماني. قال ياقوت: كان حدود سنة خمسمائة ونوفي

بعدها.

نكتة ظريفة، استقصى فيها جميع ما في القرآن من التكرار. قال -في مقدمته-: هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات (المتماثلات) التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو إبدال حرف مكان حرف أو غير ذلك مما يوجب اختلافاً بينها... وأبين السبب في تكرارها والفائدة في إعادتها؛ والحكمة في تخصيص آية بشيء دون أخرى...

نقتطف من أزهاره مايلي:

١ - قوله تعالى في سورة البقرة: «اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً»^(١) بالواو. وفي سورة الأعراف: «فكلاً»^(٢) بالفاء.

لأن «اسكن» في سورة البقرة يراد به الإقامة بالمكان، وذلك يستدعي زماناً ممتداً، فلم يصلح إلا بالواو، لأن المعنى: إجمع بين الإقامة فيها والأكل من ثمارها. ولو كانت بالفاء لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة، لأن الفاء للترتيب والتعقيب.

والذي في سورة الأعراف بمعنى اتخاذ السكنى لأنه يقابل خطاب إبليس بالأمر بالخروج «أخرج منها مذموماً»^(٣). فكان خطاب آدم «اسكن أنت وزوجك» بمعنى اتخاذها مسكناً. واتخاذ السكنى آتياً لا يستدعي زماناً ممتداً، فكانت الفاء أولى، أي كلا منها عقيب اتخاذها مسكناً. ولا يمكن الجمع بين اتخاذ والأكل، بل يقع الأكل عقيب اتخاذ^(٤).

(١) البقرة: ٣٥.

(٢) الأعراف: ١٩.

(٣) الأعراف: ١٨.

(٤) أسرار التكرار: ص ٢٥-٢٦ رقم ١١.

٢ - ونظير ذلك أيضاً قوله في سورة البقرة: «وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم»^(١) بالفاء. وفي سورة الأعراف: «وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم»^(٢) بالواو. لأن الأكل لا يكون إلا بعد الدخول. ولكنه يجتمع مع السكون بمعنى الإقامة في المسكن^(٣).

٣ - وزيد «رغداً» في البقرة (٣٥ و ٥٨). ولم يرد في الأعراف (١٩) و (١٦١). لأن الآيتين في البقرة بدئتا بقوله: «قلنا»، فناسب التعظيم زيادة تشريف وتكريم، ومن ثم كانت زيادة «رغداً».

أما في الأعراف فبدئت الآية (١٩) بقوله: «قال» مفرداً. والآية (١٦١) بقوله: «وإذ قيل» من غير تشريف.

٤ - وجاء في سورة الأنعام «نحن نرزقكم وإياهم»^(٤). وفي سورة الإسراء «نحن نرزقهم وإياكم»^(٥)، لأن في الأنعام: «من إملاق» بكم. وفي الإسراء: «خشية إملاق» يقع بهم^(٦).

أي كان قتل الأولاد في سورة الأنعام مستنداً إلى فقر ومسكنة كان قد أقدم بهم فعلاً. أما في سورة الإسراء فكان مستنداً إلى خوف المجاعة والفقر قد يعرضهم بسبب الأولاد.

٥ - وجاء في سورة التوبة - خطاباً مع المنافقين -: «وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون»^(٧). ثم في آية أخرى - خطاباً مع المؤمنين ممن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً -: «فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون»^(٨). لأن المنافقين لا يطلع على ضمائرهم إلا الله وما أخبر به رسوله، كما في

(٥) الإسراء: ٣١.

(١) البقرة: ٥٨.

(٦) أسرار التكرار: ص ٧٥ رقم ١١٥.

(٢) الأعراف: ١٦١.

(٧) التوبة: ٩٤.

(٣) أسرار التكرار: ص ٢٨ رقم ١٧.

(٨) التوبة: ١٠٥.

(٤) الأنعام: ١٥١.

قوله: «قد نبأنا الله من أخباركم»^(١).

أما المؤمنون فطاعتهم وأعمالهم ظاهرة مكشوفة يراها سائر المؤمنين أيضاً. وجاء بشأن المنافقين «ثم تردون»، وبشأن المؤمنين «وستردون»، لأنَّ الأولى وعيد، فهو عطف على الأول. وأما الثانية فهو وعد، فبناه على «فسيرى الله»^(٢).

٦ - قوله تعالى في سورة الكهف: «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمارفهم إلا مراءً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً»^(٣).

قالوا: لِمَ زيدت الواو في «وثامنهم»؟

قال بعض النحويين: السبعة نهاية العدد، ولهذا كثر ذكرها في القرآن والأخبار، والثمانية تجري مجرى استئناف كلام، ومن هنا لقبه جماعة من المفسرين بواو الثمانية.

واستدلوا بقوله تعالى: «التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين»^(٤)، فقد جيء بالواو عندما زيدت الأوصاف على السبعة.

وبقوله تعالى: «مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً»^(٥)، فلما بلغ الثامن جيء بالواو.

وبقوله تعالى: «وفتحت أبوابها»^(٦) لأنَّ أبواب الجنة ثمانية^(٧).

(١) التوبة: ٩٤. (٥) التحريم: ٥.

(٢) أسرار التكرار: ص ١٠٠ رقم ١٧٨. (٦) الزمر: ٧٣.

(٣) الكهف: ٢٢. (٧) أسرار التكرار: ص ١٣٢ رقم ٢٨٣.

(٤) التوبة: ١١٢.

وهذا الوجه لم يرتضه المصنف، ومن ثم ردّ عليه بقوله: ولكل واحد من هذه الآيات وجوه ذكرتها في موضعها.

أما الآية في سورة التوبة فلم يذكر لها شيئاً.

والآية في سورة التحريم قال فيها: ثم ختم بالواو، فقال «وأبكاراً» لأنه استحالة العطف على ثيِّبات فعطفها على أول الكلام. ويحسن الوقف على «ثيِّبات» لما استحالة عطف «أبكاراً» عليها. وقول من قال إنها واو الثمانية بعيد^(١).

وذكر في آية الزمر أنها واو الحال^(٢)، أي وقد فتحت بتقديره «قد».

وفي قوله تعالى من سورة القلم «ولا تُطع كلّ حَلّافٍ مهين». هَمَزُ مِشَاءٍ بنميم. منّاع للخير معتدٍ أثيم. عُثِلُّ بعد ذلك زيم^(٣) قال: أوصاف تسعة، ولم يدخل بينها واو العطف ولا بعد السابع، فدلّ على ضعف القول بواو الثمانية^(٤).

قلت: هذا على تقدير أن يكون «حَلّاف» وصفاً أولاً، في حين أنه الموصوف، والأوصاف إنما تبتدىء من «مهين»

وعليه فالأوصاف ثمانية وقد فصل بين الثامن وما قبله بقوله «بعد ذلك» الذي هو بمنزلة الواو هنا.

٧ - قوله في سورة الكهف: «لقد جئت شيئاً إمرأً»^(٥). وفي آية أخرى «لقد جئت شيئاً نُكراً»^(٦).

(١) أسرار التكرار: ص ٢٠٦ رقم ٥٢٦.

(٢) المصدر: ص ١٨٦ رقم ٤٤٥.

(٣) القلم: ١٠ - ١٣.

(٤) أسرار التكرار: ص ٢٠٧ رقم ٥٣٠.

(٥) الكهف: ٧١.

(٦) الكهف: ٧٤.

لأنّ الإمر هو الأمر العَجَب، والعَجَب كل أمر خالف المألوف سواء أكان خيراً أم شراً.

وأما النكر فهو الأمر المنكر الذي يستقبّحه العقل.

والآية الأولى جاءت بشأن خرق السفينة، بما لا يستلزم غرقها وإهلاك أهلها... فلعلّ في ذلك سرّاً وحكمة، لكنه خلاف المألوف، فأثار العجب.

والآية الثانية جاءت بشأن قتل الغلام، وهو طفل لا يعقل شيئاً ولم يرتكب إثماً، فهو بظاهره قتل نفس محترمة، وهو الأمر المنكر الذي يستقبّحه العقل^(١).

٨ - قوله: «ألم أقل إنك»^(٢). لكنه بعد ذلك قال: «ألم أقل لك إنك»^(٣) زيادة في الإنكار عليه بزيادة توجيه الخطاب والعتاب إليه.

٩ - قوله: «فأردت أن أعيها»^(٤) - أولاً -.

وقوله: «فأردنا أن يبدلها ربّها خيراً منه»^(٥) - ثانياً -.

وقوله: «فأراد ربّك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما»^(٦) - ثالثاً -.

ففي الأول نسب ما ظاهره الإفساد إلى نفسه، تنزيهاً لمقام قدسه تعالى عن نسبة الإفساد إليه.

وفي الثاني خليط من الإفساد والإنعام، ومن ثمّ نسبه إلى نفسه مع غيره وهو الله تعالى.

لكن الثالث كان محض إنعام، ومن ثمّ نسبه إلى الله خالصاً.

كل ذلك من أدب الكلام، فتفهّم^(٧).

١٠ - قوله تعالى في سورة الرحمن: «والسما رفعها ووضع الميزان. ألا تظفوا

(١) أسرار التكرار: ص ١٣٤ رقم ٢٨٧.

(٥) الكهف: ٨١.

(٦) الكهف: ٨٢.

(٢) الكهف: ٧٢.

(٧) أسرار التكرار: ص ١٣٤ رقم ٢٨٩.

(٣) الكهف: ٧٥.

(٤) الكهف: ٧٩.

في الميزان. وأقيموا الوزن بالقِسط ولا تخسروا الميزان»^(١).
كرّر لفظ الميزان ثلاث مرات مع قرب الفاصلة، وكان حقه حسب الظاهر
الإضمار بعد ذكره أولاً.

قيل: لأنه في كل موضع بمعنى غير معناه الآخر، فوجب الإظهار ليكون كل
واحد مستقلاً بالإفادة، وإلا لاحتاج إلى الاستخدام.
فالميزان الأول هو النظام الكوني الحاكم على كل موجودات العالم. والثاني
هو نظام الشريعة الحاكم على أفعال العباد وتصرفاتهم. والثالث هي آلة الوزن
المعروفة^(٢).

١١ - قوله تعالى: «فبأي آلاء ربكما تكذبان» كرّرت إحدى وثلاثين مرة:
ثمانية منها ذكرت عقيب آيات فيها تعداد عجائب الخلق وبدائع الصنع،
والمبدأ والمعاد.

وسبعة منها عقيب آيات العقاب والنار وشدائد نقمته تعالى.
ثم ثمانية منها عقيب وصف الجنات ونعيمها.
وثمانية أخرى بعدها للجنّتين وما حوتها عليه من نعم كبار^(٣)، رزقنا الله
التنعم بنعمها الجسام العظام.

أما التذكير بالآلاء عقيب ذكر العقاب والنار فلأنه أيضاً من النعم التي
أنعم الله بها على الانسان، لأنّ تكوين الشخصية المعتدلة ذو عاملين أساسيين،
عامل الخوف وعامل الرجاء، فكما أنّ الوعد يؤثّر في تربية النفس ترغيباً في
الثواب، كذلك الوعيد مؤثّر في التربية ترهيباً عن العقاب. فكلاهما من الآلاء
والنعم الإلهية لهذا الانسان في سبيل تربيته.

(١) الرحمن: ٧ - ٩.

(٢) أسرار التكرار: ص ١٩٨.

(٣) المصدر: ص ١٩٨.

قال الطبرسي: فأما الوجه لتكرار هذه الآية في هذه السورة فإنما هو التقرير بالنعيم المعدودة والتأكيد في التذكير بها كلها. فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها قرر عليها ووبّخ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره: أما أحسنت إليك حين أطلقت لك مالاً، أما أحسنت إليك حين ملكتك عقاراً، أما أحسنت إليك حين بنيت لك داراً... فيحسن فيه التكرار لاختلاف ما يقرره.

قال: ومثله كثير في كلام العرب وأشعارهم. ثم جعل ينشد أبياتاً قالها مهلهل بن ربيعة^(١) يرثي أخاه كليباً، وقصيدة ليلى الأخيلية ترثي توبة بن الحمير، وأبياتاً للحارث بن عبّاد. قال: وفي أمثال هذا كثرة.

قال: وهذا هو الجواب بعينه بشأن التكرار في سورة المرسلات، قوله تعالى: «ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين»... عشر مرّات^(٢).

١٢ - قوله: «ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين» مكرّر عشر مرّات في سورة المرسلات. إذ من عادة العرب التكرار والإطناب، كما في عادتهم الاقتصار والإيجاز. ولأنّ بسط الكلام في الترغيب والترهيب أدعى إلى إدراك البغية من الإيجاز^(٣).

١٣ - التكرار في سورة «الكافرون»^(٤).

قيل: هذا التكرار اختصار في الكلام وهو إيجاز، لأنّ الله نفى عن نبيّه عبادة الأصنام فيما مضى والحال وفيما يأتي. ونفى عن الكفار - وهم رهط من قريش مخصوصون، لأنّ اللام للعهد الخارجي - عبادة الله في الأزمنة الثلاثة أيضاً. فكان من حقّ الكلام أن يأتي بست فقرات تدلّ على هذه الأمور الستة.

(١) هو خال امرئ القيس، قيل: هو أول من قصّد القصائد.

(٢) راجع مجمع البيان: ج ٩ ص ١٩٩.

(٣) أسرار التكرار: ص ٢١٣.

(٤) المصدر: ص ٢٢٦.

لكنه اختصر في العبارة المذكورة الموجزة.

قوله تعالى: «لا أعبد ما تعبدون» نفي في الحال وما يأتي. أي لا أعبد اليوم ولا بعد اليوم ما تعبدون اليوم.
«ولا أنتم عابدون ما أعبد» كذلك ... أي لا تعبدون اليوم ولا بعد اليوم ما أعبد اليوم.

«ولا أنا عابد ما عبدتم» نفي في الماضي وتعليل لما تقدمه. لأن اسم الفاعل يصلح للأزمنة الثلاثة. أي لم أعبد ما عبدتم قبل اليوم، فكيف ترجون عبادتي اليوم لما عبدتم وتعبدونه؟!

«ولا أنتم عابدون ما أعبد» أي ولا أنتم عبدتم ما أعبد اليوم.
وبذلك افرق المعنى في الآية. تلك للنفي في الحال والآتي، وهذه للنفي في الماضي^(١).

وقال الفراء - في وجه التكرار -: إن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب كلامهم ومحاوراتهم. ومن عاداتهم تكرير الكلام للتأكيد والإفهام، فيقول المجيب: بلى، بلى. ويقول الممتنع: لا، لا.
قال: ومثله قوله تعالى: «كلّا سوف تعلمون. ثم كلّا سوف تعلمون»^(٢).
وأنشد:

وكائن وكم عندي لهم من صنعة	أيادي ثنوها عليّ وأوجبوا
وأيضاً:	
كم نعم كانت لكم	كم كم وكم
وقال آخر:	

(١) راجع الكشف للزمخشري.

(٢) التكاثر: ٤٣.

نecق الغراب ببين ليلي غدوةً كم كم وكم بفراق ليلي ينecق
وأيضاً:

هلا سألت جموع كنده يوم ولوا أين أيننا
وقوله:

أردتُ لنفسي بعض الأمور فأولى لنفسي أولى لها
قال: وهذا أولى المواضع بالتأكيد، لأنّ الكافرين أبدأوا في ذلك وأعادوا.
فكرّر سبحانه ليؤكد إياهم وحسم أطماعهم بالتكرير^(١).

هل في القرآن لفظة غريبة؟

قال قوم: إنا اذا تلونا القرآن وتأملناه وجدنا معظم كلامه مبنياً ومؤلفاً من ألفاظ قريبة ودارجة في مخاطبات العرب ومستعملة في محاوراتهم، وحظّ الغريب المشكل منه بالإضافة إلى الكثير من واضحه قليل، وعدد الفقر والغرر من ألفاظه بالقياس إلى مبادله ومراسيله عدد يسير، الأمر الذي لا يشبه شيئاً من كلام البلغاء الأقحاح من خطباء مصاقع وشعراء مفلّقين، كان ملء كلامهم الدرر والغرر والغريب الشارد.

لكن الغرابة على وجهين - كما ذكره أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي في كتابه «معالم السنن» قال: الغريب من الكلام إنما هو الغامض البعيد من الفهم، كما أنّ الغريب من الناس إنما هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل. والغريب من الكلام يقال به على وجهين:

أحدهما: أن يراد به أنه بعيد المعنى غامضه لا يتناولوه الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر. والوجه الآخر: أن يراد به كلام من بُعدت به الدار من شواذ قبائل العرب، فاذا وقعت إلينا الكلمة من لغاتهم استغرنا^(١).
والغريب في القرآن إنما هو من النوع الثاني، ومن ثمّ لم يُخلّ بفصاحته،

(١) هامش غريب القرآن للطريحي، المقدمة: هـ.

والقرآن لم يستعمل إلا ما تعارف استعماله عند العرب وتداولوه فيما بينهم، ولكن في طبقة أعلى وأرفع من حدّ الابتذال العامي، فلا استعمل الوحشي الغريب ولا العامي السخيف المرتذل^(١). على حدّ تعبير عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة^(٢).

قال التفتازاني: والغرابة كون الكلمة وحشية، غير ظاهرة المعنى، ولا مأنوسة الاستعمال، فنه ما يحتاج في معرفته إلى أن ينقر ويبحث عنه في كتب اللغة المبسوطه، كتكأ كأتّم وافرنقوا في قول عيسى بن عمر النحوي، هاجت به مرةً وسقط من حماره فوثب إليه قوم يعصرون إبهامه ويؤذّنون في أذنه، فأفلت من أيديهم وقال:

«مالكم تكأ كأتّم عليّ كما تتكأ كأون على ذي جنة، افرنقوا عني!». فجعل الناس ينظرون إليه ويقول بعضهم لبعض: دعوه فإنّ شيطانه يتكلّم بالهندية!^(٣)

قال: ومنه ما يحتاج إلى أن يخرج له وجه بعيد، نحو مسرّج في قول العجاج: ومقلة وحاجباً مزججاً وفاحماً ومرسناً مسرجاً^(٤)

(١) كقول العامة: ايش، بمعنى أي شيء. وانفسد بمعنى فسد.

(٢) قال الجرجاني: وربما استسخف اللفظ بأمر يرجع إلى المعنى دون مجرد اللفظ، كما يحكى من قول عبيد الله بن زياد لمّادهش: «افتحوا لي سبي»! وذلك أنّ الفتح خلاف الإغلاق، فحقّه أن يتناول شيئاً هو في حكم المغلق المسدود، وليس السيف بمسدود. وأقصى أحواله أن يكون في الغمد بمنزلة الثوب في العكم (كالعدل: نمط تجعل المرأة فيه ذخيرتها. وبمعنى الجوالق) والدرهم في الكيس والمتاع في الصندوق. والفتح في هذا الجنس يتعدى أبداً إلى الوعاء المسدود على الشيء الحاوي له، لا إلى ما فيه. فلا يقال: افتح الثوب (أسرار البلاغة: ص ٣-٤).

(٣) المطول طبعة اسلامبول: ص ١٨. وراجع الفائق للزغشيري: ج ٢ ص ٢٤١. نسب الجاحظ ذلك إلى أبي علقمة، حدّث به ذلك في بعض طرقات البصرة.

والمعنى: مالكم اجتمعتم عليّ كما تجتمعون على مجنون، تفرّقوا عني.

(٤) المقلة: حدقة العين. والمزجج كمعظم: المدقّق المرقّق. والفاحم: الشعر الأسود. والمرس كـمجلس:

لم يعلم أنه مأخوذ من السيف السريجي في الدقة والاستواء، أو من السراج في البريق واللمعان.

قال: والوحشي قسمان، غريب حسن وغريب قبيح، فالغريب الحسن هو الذي لا يُعاب استعماله على العرب لأنه لم يكن وحشياً عندهم، وذلك مثل شرنبث واشمخرَ واقطر^(١) وهي في النظم أحسن منه في النثر. ومنه غريب القرآن والحديث.

والغريب القبيح يُعاب استعماله مطلقاً (حتى على العرب) ويسمى الوحشي الغليظ، وهو أن يكون مع كونه غريب الاستعمال ثقيلًا على السمع كرهياً على الذوق، ويسمى المتوَعَّر أيضاً. وذلك مثل جحيش واطلخَم الأمر وجفخت^(٢) وأمثال ذلك^(٣).

والخلاصة: القرآن كما يترفع عن الاسترسال العامي المرتذل، كذلك يتعد عن استعمال غرائب الألفاظ المتوَعَّرة بمعنى وحشياً غير مأنوسة الاستعمال ولا مألوفة في متعارف أهل اللسان المترفعين.

قال الخطابي: ليست الغرابة ممَّا اشترطت في حدود البلاغة، وإنما يكثر وحشي الغريب في كلام الأوحاش من الناس والأجلاف من جفاة العرب، الذين يذهبون مذاهب (العهجية)^(٤) ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخيّر

موضع الرسن من أنف الناقة، شاع استعماله في مطلق أنف الانسان.

(١) الشرنبث كضنفر: الغليظ الكفّين والرجلين. واشمخرَ: طال. واقطرَ: اشتدّ.

(٢) والجحيش: المنعزل عن الناس بمعنى الفريد. واطلخَم الأمر: اشتبك واشتبه، مأخوذ من الطلخوم بمعنى الماء الآجن. وجفخت: تكبّرت.

(٣) المطول: طبعة اسلامبول ص ١٨.

(٤) العنج لغة في العمهج بمعنى الابل الضخم الطويل. والعنهجية: كناية عن سلوك طرائق وعرة بعيدة المدى، إما تعسفاً أو تفنتناً لالغرض معقول.

له، وليس ذلك معدوداً في النوع الأفضل من أنواعه، وإنما المختار منه النمط الأقصد الذي جاء به القرآن، وهو الذي جمع البلاغة والفخامة إلى العذوبة والسهولة.

قال: وقد يُعَدُّ من ألفاظ الغريب في نعوت الطويل^(١) نحو من ستين لفظة أكثرها بشع شنع، كالعشتق والعشتق والعنطنط، والشوقب والشوذب والسلهب، والقوق والقاق، والطوط والطاق... فاصطلح أهل البلاغة على نبذها وترك استعمالها في مرسل الكلام، واستعملوا الطويل، وهذا يدلّك على أنّ البلاغة لا تعباً بالغربة ولا تعمل بها شيئاً^(٢).

وبعد، فالذي جاء منه في القرآن الشيء الكثير، هو الغريب العذب والوحش السائع، الذي أصبح بفضل استعماله ألوفاً، وصار من بعد اصطیاده خلوباً. دون البعيد الركيك والمتوغّر النفور، الذي لم يأت منه في القرآن شيء. ممّا جاء في كلام أمثال ذاك النحوي المتكلّف عيسى بن عمر.

والسبب في ازدحام غرائب الألفاظ وعرائس الكلمات في القرآن هو ارتفاع سبكه عن مستوى العامة الهابط، واعتلاء أسلوبه عن متناول الأجلاف المبتذل.

القرآن اختصّ بإحاطته على عوالي الكلمات الفُصحى، وغوالي العبارات العليا، لا إعواز في بيانه ولا عجز ولا قصور، الأمر الذي ينبئك عن علم شامل بأوضاع اللغة وكرائم الألفاظ، دليلاً على أنه من ربّ العالمين المحيط بكل شيء. هذا أولاً.

(١) أي كل ذلك ينعت به الطويل بمختلف أطواره، كالعشتق يوصف به الطويل الذي ليس بضخم ولا مثقل. والعشتق: التّار الظريف الحسن الجسم. والشوذب: الطويل الحسن الخلق... وهكذا.

(٢) بيان إعجاز القرآن: ص ٣٧.

وثانياً: احتواؤه لما في لغات القبائل من عرائس الغرائب، كانت معهودة في أقطار اختصت بوضعها، ومعروفة في أمصار توحدت في استعمالها، ومن ثمّ كانت غريبة في سائر البقاع والبلدان.

وقد استعمل القرآن كل هذه اللغات، فتعارفت القبائل بلغات بعضها من بعض، وبذلك توحدت اللغة، وخلصت من التشّت والافتراق، وهذا من فضل القرآن على اللغة العربية.

فقد أخذ القرآن من لغات القبائل العربية المشهورة:

١ - اردشنوءة	٢ - الأشعريون	٣ - أنمار	٤ - أوس
٥ - بنوحنيفة	٦ - بنوعامر	٧ - تغلب	٨ - تميم
٩ - ثقيف	١٠ - جذام	١١ - جرهم	١٢ - حير
١٣ - خثعم	١٤ - خزاعة	١٥ - سعدالعشيرة	١٦ - سليم
١٧ - طي	١٨ - عذرة	١٩ - غسان	٢٠ - قريش
٢١ - قيس	٢٢ - كنانة	٢٣ - كندة	٢٤ - لحم
٢٥ - مزينة	٢٦ - هذيل	٢٧ - همدان	٢٨ - هوازن
- ومن أهل البلاد المتحصّرة:

١ - الحجاز	٢ - حضرموت	٣ - سبأ	٤ - عمان
٥ - مدين	٦ - اليمامة	٧ - اليمن	

ومن لغات الأمم المجاورة للعرب ذوات الشأن:

١ - الأحباش	٢ - الفرس	٣ - الروم	٤ - القبط
٥ - الأنباط	٦ - السريان	٧ - العبرانيون	٨ - البربر

وإليك تفصيل هذا الإجمال حسب ترتيب السور:

فمن سورة البقرة:

«السفهاء»: الجهلاء. «خاسئين»: صاغرين. «شطر»: تلقاء. بلغة كنانة.

«رغداً»: خصباً. «رجزاً»: عذاباً. «سفة»: خسر. «ينسق»: يصيح. بلغة طي.

«اشترؤا» باعوا. «العنت»: الاثم. «عزموا»: حققوا. «صلداً»: نقيًا. بلغة هذيل.

«باؤوا»: استوجبوا. «شقاق»: ضلال. «الخير»: المال. بلغة جرهم. «أمانى»: أباطيل. «وسط»: عول. «جنفاً»: تعمداً للجنف. بلغة قریش.

«بغيا»: حسدا. لغة تميم.

«الشية»: الوضع. «العضل»: الحبس. لغة ازدشنوءة.

«الصاعقه»: الموتة. لغة عمان.

«الطور»: الجبل. وافقت لغة السريان.

«رفث»: جماع. لغة مذحج.

«أفيضوا»: انفروا. لغة خزاعة.

ومن آل عمران:

«حصوراً»: لاجاجة له الى النساء. «خلاق»: نصيب. «فورهم»:

وجوههم. «تهنوا»: تضعفوا. لغة كنانة.

«دأب»: أشباه. لغة جرهم.

«سيداً»: حكيمًا. «تَفْشَلًا»: تَجْبُنًا. لغة حمير.

«رَبَّانِيَّينَ»: علماء. وافقت لغة السريان.
 «إِصْرِي»: عهدي. لغة النبط.
 «آنَاءَ»: ساعات. لغة هذيل.
 «خِبَالاً»: غيّاً. لغة عمان.
 «رَبِّيُونِ»: رجال. لغة حضرموت.
 «قَرَحَ» بالفتح: لغة الحجاز، وبالضم: لغة تميم.

ومن سورة النساء:

«نِحْلَةً»: فريضة. لغة قيس بن عيلان.
 «تَعُولُوا»: تميّلوا. لغة جرهم.
 «سَبِيلًا»: مخرجاً. «السفاح»: الزنا. «موالي»: عصابة. «السلم»: الصلح. «الكلالة»: لا ولد له ولا والد. «أَنْ تَضَلُّوا»: كراهة أَنْ تَضَلُّوا. لغة قريش.

«أَفْضَى»: جامع. لغة خزاعة.
 «تَمِيلُوا»: تخطّوا. لغة سبأ.
 «كَفَلَ»: نصيب. وافقت لغة النبط.
 «حَصَرْتُ»: ضاقت. لغة اليمامة.
 «مَرَاغِمًا»: منفسحاً. لغة هذيل.
 «يَفْتَنُكُمْ»: يضلّكم. لغة هوازن.
 «تَغْلُوا»: تزيدوا. لغة مزينة.

ومن سورة المائدة:

«الْعُقُودَ»: العهود. لغة بني حنيفة.

«مُحْمَصَة»: جماعة. «لا تأس»: لا تحزن. «عر»: اطلع. لغة قریش.
 «حرج»: ضيق. لغة قيس بن عيلان.
 «ملوكاً»: أحراراً. لغة هذيل وكنانة.
 «فأفرق»: فاقض. لغة مِدين.

ومن سورة الأنعام:

«مدراراً»: متتابعاً. لغة هذيل.
 «نفقاً»: سرياً. لغة عمان.
 «مبلسون»: آيسون. لغة كنانة.
 «يصدفون»: يعرضون. لغة قریش.
 «قُبلاً»: عياناً. لغة تميم.
 «إملاق»: جوع. لغة لحم.

ومن سورة الأعراف:

«حرج»: شك. «يتطهرون»: يتنزهون. «آسى»: أحزن. «ثقلت»: خفيت. «حفيّاً»: عالماً. لغة قریش.
 «طفقا»: عمداً. «بئس»: شديد. لغة غسان.
 «سفاهة»: جنون. لغة حمير.
 «يغنوا»: يتمتعوا. لغة جرهم.
 «هَٰذِنَا»: بُنَا. وافقت لغة العبرانية.
 «وما مَسَّنِي السَّوْءُ»: الجنون. لغة هذيل.
 «اجتبيتها»: أثبتها. لغة ثقيف.

ومن سورة الأنفال:

«رجز الشيطان»: تخويفه. «ليثبتوك»: ليخرجوك. «مكاء»: صفيراً.
«تصديّة»: تصفيقاً. «يركمه»: يجمعه. لغة قریش.
«فرقناً»: مخرجاً. «حرّض»: حضّ. لغة هذيل.
«أساطير»: كلام الأولين. «فشرّد بهم»: نكل. «لا تحسبن» بفتح السين.
لغة جرهم.
«نكص»: رجع. لغة سليم.

ومن سورة براءة:

«غير معجزى الله»: غير سابقين. لغة كنانة.
«ولا ذمة»: ولا قرابة. لغة قریش.
«وليجة»: بطانة. «عيلة»: فاقة. «انفروا»: اغزوا. «السائحون»:
الصائمون. لغة هذيل.
«يبشّروهم» بالتخفيف لغة كنانة. والتشديد لغة تميم.

ومن سورة يونس:

«زِيلنا»: ميّزنا. لغة حمير.
«يعزّب»: يغيب. لغة كنانة.
«غمّة»: شبهة. «ببدنك»: بدرعك. لغة هذيل.

ومن سورة هود:

«إلى أمة معدودة»: سنين. لغة اردشنووة.

«اراذلنا»: سفلتنا. «عصيب»: شديد. لغة جرهم.

«فلا تبتئس»: لا تحزن. لغة كندة.

«غيض الماء»: نقص. وافقت لغة الأحباش.

«مرجواً»: حقيراً. لغة حمير.

«حنيد»: مشوي. «تتيب»: تخسير. لغة قريش.

«أواه منيب»: يعني الدعاء إلى الله. وافقت النبطية.

«سيء بهم»: كرههم. لغة غسان.

«سجّيل». وافقت لغة الفرس.

«الحليم الرشيد»: ضدّ الأحق السفيه. لغة مديّن.

«لا تركنوا»: لا تميلوا. لغة كنانة.

ومن سورة يوسف:

«خاسرون»: مضيعون. لغة قيس بن عيلان.

«هيت لك»: تهيأت لك. وافقت النبطية.

«متكئاً»: أترجا. وافقت القبط.

«أعصر خمرأً»: عنباً. لغة عمان.

«واذكر بعد أمة»: بعد نسيان. لغة تميم وقيس.

«السقاية»: الاناء. لغة حمير.

ومن سورة الرعد:

«أفلم يبأس»: يعلم. لغة هوازن.

«ظاهر من القول»: كذب. لغة مذحج.

ومن سورة ابراهيم:

«دار البوار»: دار الهلاك . لغة عمان .

«افئدة من الناس»: ركبناً منهم . «مقنعي رؤوسهم»: ناكسي رؤوسهم . لغة قريش .

ومن سورة الحجر:

«من حمأ مسنون»: طين منتن . لغة حمير .

«دابرهؤلاء مقطوع»: مستأصل . لغة جرهم .

«للمتوسمين»: المتفرسين . لغة قريش .

ومن سورة النحل:

«تسيمون»: ترعون . لغة خثعم .

«ظل وجهه»: صار . لغة هذيل .

«حفدة»: بنات . لغة سعد العشيرة .

«كلّ على مولاة»: عيال . «قانتاً»: إماماً مقتدى به . لغة قريش .

«سراييل تقيكم الحرّ»: القمّص . لغة تميم .

«سراييل تقيكم بأسكم»: الدروع . لغة كنانة .

ومن سورة الإسراء:

«ولتعلنن»: تقهرُون . «جاسوا»: تخلّلوا . لغة جذام .

«طائره»: عمله . لغة أنمار .

«دمرنا»: أهلكنا . لغة حضرموت .

«المبذرين»: المسرفين. «شاكلته»: ناحيته. لغة هذيل.
 «محسوراً»: منقطعاً. لغة جرهم.
 «فسينغضون»: يحركون. «مسطوراً»: مكتوباً. «إمام»: كتاب. لغة حمير.
 «لأحتكنن»: لأستأصلن. لغة الأشعرين.
 «دلوك الشمس»: زوالها. «لفيفاً»: جميعاً. لغة قريش.

ومن سورة الكهف:

«بائع نفسك»: قاتل نفسك «إمراً»: عجبياً. «نكراً»: منكراً. لغة قريش.

«الرقيم»: الكتاب. وافقت لغة الروم.
 «شططاً»: كذباً. لغة خثعم.
 «فجوة»: ناحية. «موثلاً»: ملجأً. «لأأبرح»: لأزال. لغة كنانة.
 «الوصيد»: الفناء. «حُقباً»: دهرأ. لغة مذحج.
 «رجماً بالغيب»: ظناً. «ملتحدأ»: ملجأً. «يرجو»: يخاف. لغة هذيل.
 «الاستبرق»: الديباج. وافقت لغة الفرس.
 «حسباناً»: بردأ. لغة حمير.
 «وراءهم»: أمامهم. لغة النبطية.
 «الصدفين»: الجبلين. لغة تميم.

ومن سورة مريم:

«من الكبر عتياً»: نُحولاً. لغة حمير.
 «تحتك سرياً»: جدولاً. وافقت السريانية.
 «حفيأ»: عالماً. «أيهم أشد على الرحمن عتياً»: أعظم أمراً. «وردأ»:

حفاة مشاة عطاشاً. «ركزاً»: صوتاً خفياً. لغة قريش.
«ضدّاً»: عدوّاً وخصماً. لغة كنانة.

ومن سورة طه:

«مأرب»: حاجات. لغة حمير.
«اليَمّ»: البحر. توافق القبط.
«تارةً أخرى»: مرةً أخرى. لغة الأشعرين.
«هضماً»: نقصاً. لغة هذيل.
«ذكركم»: شرفكم. «حسيسها»: جلبتها. لغة قريش.
«تتخذ لهواً»: يعني المرأة. لغة اليمن.
«فجاجاً»: طرْقاً. لغة كندة.
«حرم على قرية»:
لغة هذيل. «حرام على قرية»:
يعني أمة. لغة قريش.
«حذب ينسلون»: جانب يخرجون. لغة جرهم.

ومن سورة الحج:

«هامدة»: مغيرة. لغة هذيل.
«امنيته»: فكرته. لغة قريش.

ومن سورة المؤمنون:

«طور»:
جبل. وافقت السريانية.
«سيناء»: الحسن. توافق النبطية.
«خرجاً»: جُعلاً. لغة حمير. «خراجاً» لغة قريش.
«استكانوا»: استذلّوا. لغة قريش.

«مبلسون»: آيسون. لغة كنانة.

«اخسأوا»: اخزوا. لغة عذرة.

ومن سورة النور:

«لولا جاؤوا»: هلا جاؤوا. «لا يأتل»: لا يحلف. لغة قريش.

«الودق»: المطر. «الخلال»: السحاب. لغة جرهم.

ومن سورة الفرقان:

«قوماً بوراً»: هلكاً. لغة عمان.

«حجراً محجوراً»: حراماً محرماً. لغة قريش.

«الرّس»: البئر. لغة ازدشنوءة.

«تبرنا»: أهلكنا. لغة سبأ.

«غراماً»: بلاءً. لغة حمير.

«عبدت»: قتلت. بالنبطية.

«شرذمة قليلون»: عصابة. «بكل ريع»: بكل طريق. لغة جرهم.

من سورة النمل إلى آخر الأحزاب:

«رب أوزعني»: ألهمني. «في مرة»: في شك. لغة قريش.

«جناحك»: يدك. «الرهب»: الكم. لغة بني حنيفة.

«واقصد في مشيك»: اسرع. لغة هذيل.

«أنكرالاصوات»: أقبحها. «الصرح»: البيت. «فيطمع الذي في قلبه

مرض» يعني الزنا. لغة حمير.

«أليماً»: موجعاً. وافقت العبرانية.

«صياصيمهم»: حصونهم. لغة قيس عيلان.

ومن سورة سبأ:

«وقدّر في السرد»: يعني المسمار في الحلقة. لغة كنانة.

«القطر»: النحاس. لغة جرهم.

«منسأته»: عصاه. لغة حضرموت وأمار وخثعم.

«التناوش»: التناول. لغة قريش.

ومن سورة فاطر:

«تؤفكون»: تكذبون. «أفأك»: كذاب. لغة قريش.

ومن سورة يس:

«يس»: يا إنسان. لغة الحبشة.

«الأجداث»: القبور. لغة هذيل.

«امتازوا»: اعتزلوا. لغة قريش.

ومن سورة الصافات:

«دحوراً»: طرداً. لغة كنانة.

«واصب»: دائم. لغة قريش.

«شهاب ثاقب»: مضيء. لغة هذيل.

«متناً»: بالكسر. لغة الحجاز. وبالضم لغة تميم.

«شوباً»: مزجاً. لغة جرهم.

«أتدعون بعلاً»: رباً. لغة حمير أو ازدشنوة.

«أو يزيدون»: بل يزيدون. لغة كندة.
«إفكهم»: كذبهم. لغة قريش.

ومن سورة ص:

«ولات حين مناص»: ليس حين فرار. توافق النبطية.
«الأواب»: المطيع. لغة كنانة وهذيل وقيس عيلان.
«حيث أصاب»: حيث أراد. لغة عمان.
«سخرىاً»: بالكسر. لغة قريش، وبالضم لغة تميم.
«رجيم»: ملعون. لغة قيس عيلان.

من سورة الزمر إلى آخر سورة الجاثية:

«اشمأزت»: مالت ونفرت. لغة الأشعريين.
«حاق»: وجب. لغة قريش واليمن.
«مقاليد»: مفاتيح. لغة حمير. وافقت لغة قريش والأنباط والحبشة.
«كاظمين»: مكروبين. لغة ازدشنوة.
«واق»: مانع. لغة خثعم.
«خاشعة»: مقشعرة. لغة تميم.
«يخزصون»: يكذبون. لغة هذيل.
«تُحَبَّرُون»: تُنَعَمُونَ. لغة قيس عيلان وبني حنيفة.
«فارتقب»: فانتظر. لغة قريش.
«لا يرجون»: لا يخافون. لغة هذيل.

ومن سورة الأحقاف:

«حقّ عليهم القول»: وجب. لغة قريش.
«الأحقاف»: الرمل. لغة حضرموت وتغلب.

ومن سورة محمد (صلّى الله عليه وآله):

«وأصلح بالهم»: حالهم. لغة هذيل.
«آسن»: منتن. لغة تميم.
«يترككم أعمالكم»: ينقصكم. لغة حمير.

ومن سورتي الفتح والحجرات:

«معكوفاً»: محبوساً. لغة حمير.
«لا يلتكم»: لا ينقصكم. لغة قيس عيلان.

ومن سورة ق:

«مريج»: مستتر. لغة خثعم.
«لغوب»: إعياء. لغة حضرموت.
«بجبار»: بمسلط. لغة جرهم.

ومن سورة الذاريات:

«الإفك»: في جميع القرآن: الكذب. لغة قريش.
«الخرّاصون»: الكذابون. لغة كنانة وقيس عيلان.
«مايهجعون»: ماينامون. لغة هذيل.

«اليمّ»: البحر. وافقت النبطية.
«ذَنوباً»: نصيباً من العذاب. لغة هذيل.

ومن سورة الطور:

«المسجور»: الممتلىء. لغة بني عامر بن صعصعة.
«سَجَرَت»: جمعت. لغة خثعم.
«تمور السماء موراً»: تنشقّ شقاً. «يوم يُدْعَوْنَ»: يُدْفَعُونَ. وكذلك «يدعّ
اليتيم». لغة قريش.
«وما أَلْتَنَا مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ»: مانقصنا. لغة حمير.

ومن سورة النجم:

«ذومرّة»: ذوقوة. لغة قريش.

ومن سورة القمر:

«سحر مستمر»: دائم. «مذكر»: متفكر. لغة قريش.
«سُعْر»: جنون. لغة عمان.

ومن سورة الرحمن:

«الأنام»: الخلق. لغة جرهم.
«المرجان»: صغار اللؤلؤ. لغة أهل اليمن.

ومن سورة الواقعة:

«بَسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً»: فَتَّتَتْ. لغة كندة.

«مدينين»: محاسبين. لغة حمير. «مبعوثين»: لغة كنانة.

ومن سورتي الحديد والمجادلة:

«سور»: حائط. «أمد»: أمل. لغة هذيل.

«كَبِتُوا»: لُعِنُوا. لغة مذحج.

ومن سورة الحشر:

«وَأَيَّدَهُم»: قَوَّاهُمْ. «غَلَاءٌ»: غَشَاءٌ. لغة قريش.

«من لينة»: نخل. لغة الأوس.

«المهيمن»: الشاهد. لغة قيس عيلان.

ومن سورة الصق:

«كَبُرَ مَقْتًا»: بغضاً. «فلما زاغوا»: مالوا. لغة قريش.

ومن سورتي الجمعة والمنافقين:

«أسفاراً»: كتباً. لغة كنانة.

«قاتلهم الله»: لعنهم الله. لغة قريش.

«ينفضوا»: يذهبوا. لغة مذحج.

ومن سورة التغابن:

«زعم»: كل زعم في كتاب الله بمعنى الباطل. في لغة حمير.

ومن سورة التحريم:

«صغت قلوبكما»: مالت. لغة خثعم.

ومن سورة الملك:

«من تفاوت»: عيب. لغة هذيل.

«تكاد تميز من الغيظ»: تمزق. لغة قريش.

ومن سورة القلم:

«الخرطوم»: الأنف. لغة مذحج.

ومن سورة الحاقة:

«أعجاز نخل»: أجذاع. «أخذة رابية»: شديدة. لغة حمير.

«أرجائها»: نواحيها. لغة هذيل.

«غسلين»: شراب حارّ شديد الغليان. لغة ازدشنوءة.

ومن سورة المعارج:

«المهل»: عكر الزيت. وافقت لغة البربر.

«هلوعاً»: ضجوراً. لغة خثعم.

«مهطعين»: مسرعين. «إلى نُصب يوفضون»: عَلم يسرعون. لغة قريش.

ومن سورة نوح:

«استغشوا ثيابهم»: تغطّوا. لغة جرهم.

«أطواراً»: ألواناً. لغة هذيل.

ومن سورة الجن:

«فزادوهم رهقاً»: غيًّا. «فلا يخاف بخساً» ظلماً. لغة قريش.

ومن سورتي المزمل والمدثر:

«أخذاً ويلاً»: شديداً. لغة حمير.

«لواحة للبشر»: حراقة. لغة ازدشنوة.

«من قسورة»: من أسماء الأسد. لغة قريش.

ومن سورة القيامة:

«كلّالاً وزراً»: لاحيل ولا ملجأ. وافقت النبطية.

«والتقت الساق بالساق»: الشدة فوق الشدة. لغة قريش.

ومن سورة المرسلات:

«واذا الرسل أقتت»: جمعت. لغة كنانة.

ومن سورة النبأ إلى آخر القرآن:

«المعصرات»: السحب. لغة قريش.

«تجاجاً»: رشاشاً. لغة الأشعرين.

«بردأ ولا شرباً»: نوماً... «كأساً دهاقاً»: ملأى. لغة هذيل.

«واجفة»: خائفة. لغة همدان.

«أغطش ليلها»: أظلم. لغة أنماروهمدان.

«بأيدي سفرة»: كتبه. لغة كنانة.

«حدائق»: بساتين. لغة قریش.

«غُلباً»: ملتفة. لغة قيس عيلان.

«سجرت»: جمعت. لغة خثعم.

«عسوس»: أدبر. «ضنين» بخيل. لغة قریش.

«ظنين»: متهم. لغة هذيل.

«كتاب مرقوم»: مختوم. لغة حمير.

«فتنوا» أحرقوا. «الضريع»: الشرق. «النمارق»: الوسائد. «في كبد»:

شدة. «تردى»: هلك. «لنسفعن»: لناخذن. «لم يكن الذين كفروا»: لم يزل. لغة قریش.

«الثاقب»: المضيء. «كنود»: كفور. لغة كنانة.

«من عين آنية»: حارة. لغة مدين.

«زرابي»: الطنافس. «مسغبة»: مجاعة. لغة هذيل.

* * *

... انتهى ما أردنا نقله من رسالة «اللغات» تأليف أبي القاسم محمد بن عبدالله، على ما صرح به السيوطي في الاتقان ج ١ ص ٧ وص ١٣٤ من الطبعة القديمة. وقد وهم زاعم التصحيح أنه أبو القاسم بن سلام^(١). فلو صح لكان القاسم بن سلام.

والظاهر صحة ما أثبتته السيوطي، لأن المؤلف يروي عن شرف الدين أبي الحسن علي بن الفضل المقدسي المتوفى سنة (٦١١هـ). وابن سلام توفي سنة (٢٢٤هـ).

(١) في الطبعة الحديثة: ج ١ ص ١٩.

وطبعت الرسالة في هامش الجلالين ابتداءً من الجزء الاول ص ١٢٤ .
 وطبعت أيضاً بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، عنونها بكتاب
 «اللغات في القرآن» برواية ابن حسنون المقرئ بإسناده إلى ابن عباس .
 وتبتدئ برواية الشيخ أبي محمد إسماعيل بن عمرو بن إسماعيل بن راشد
 الحداد المقرئ (توفي سنة ٤٢٩هـ) عن أبي أحمد عبدالله بن الحسين بن حسنون
 المقرئ (توفي سنة ٣٨٦هـ) عن أبي العباس أحمد بن عبيد عن الحسين بن محمد
 عن أحمد بن محمد بن سعيد بن أبان القرشي عن أبي جعفر محمد بن أيوب
 المقرئ عن عبد الملك (ابن جريج) عن عطاء عن ابن عباس .

ولجلال الدين هنا تفاصيل عن لغات جاءت في القرآن .

٢- طرافة سبكه و غرابة اسلوبه

جاء القرآن بسبك جديد واسلوب فريد، كان غريباً على العرب، لا هو نثر كنثرهم، ولا هو شعر كشعرهم، ولا فيه شيء من هذر السجاع، ولا تكلفات الكهان، وإن كان قد جمع بين مزايا أنواع الكلام، واشتمل على خصائص أنحاء البيان، فيه طلاقة النثر واسترساله البديع، وإناقة الشعر وسلاسته الرفيع، وجزالة السجع الرصين، وهذا عجيب!

قال الإمام كاشف الغطاء: تلك صورة نظمته العجيب واسلوبه الغريب، المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم. وتدلّته دونه أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر... هكذا اعترف له أفذاذ العرب وفصحاؤهم الأولون^(١).

قال عظيم العرب وفريدها الوليد: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذي جنون، وإنّ قوله لمن كلام الله^(٢). وقال -ردّاً على من زعم أنه من الشعر-: فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار

(٢) تفسير الطبري: ج ٢٩ ص ٩٨.

(١) الدين والاسلام: ج ٢ ص ١٠٧.

متي، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة متي، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا.

ثم قال: ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنه لمشمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلَى... وفي رواية الاصابة زيادة: «وما هذا بقول بشر». وفي نسخة الغزالي: «وما يقول هذا بشر»^(١).

ولما سمع عتبة بن ربيعة - وكان سيّداً في العرب - آياً من مفتتح سورة فصلت، قرأها عليه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أتى معشر قريش، فسألوه: ما وراءك؟ قال: ورأي أنّي قد سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قطّ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة^(٢).

وهكذا أنيس بن جنادة، لما بعثه أخوه أبوذر ليستخبر من حالة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان من أشعر العرب، فلما رجع قال: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر (أي أوزانه) فما يلتئم على لسان أحد بعدي (أي غيري) أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون^(٣).

إلى غيرها من كلمات تنبّه عن رفيع شأن هذا الكلام الإلهي الخالد... وقد مرّت^(٤).

وتوضيحاً لهذا الجانب من إعجاز القرآن البياني - في سبكه واسلوبه - نقول: لا شك أنه نثر، لا كنههم، أمّا من حيث اللفظ فإنّه رُصّع على أحسن

(١) المستدرك للحاكم: ج ٢ ص ٥٠٧.

(٢) ابن هشام: ج ١ ص ٣١٤.

(٣) شرح الشفا للقاري: ج ١ ص ٣٢٠.

(٤) راجع: المدخل لدراسة الإعجاز - التمهيد: ج ٤ ص ٢٠٠ - ٢٠٣.

ترصيع، ورصفت كلماته وجمله وتراكيبه على أجمل ترصيف، فيه جمال الشعر ووقار النثر وإجادة السجع الرصين، مع قوة البيان ورشاقة التعبير، من غير أن يعتريه وهن أو ضعف، في طول كلامه وتعدد بياناته.

وهكذا من حيث المعنى، جاء بمعاني جديدة كانت مهجورة أو مطموسة، فأحياناها من جديد، وأبان من مراميها، وألقى الضوء على فلسفة الوجود وسر الحياة في المبدأ والمعاد، فجاء بعارف جليلة وتعاليم نبيلة، أنار بها درب الحياة بما أذهل القلوب وأبهر العقول وأحار ذوي الألباب.

وفي ذلك يقول العلامة محمد عبدالله دراز: أسلوب القرآن لا يعكس نعومة أهل المدن ولا خشونة أهل البادية، وزن المقاطع في القرآن أكثر مما في النثر وأقل مما في الشعر، وأن نثره ينفرد ببعض الخصائص والميزات، فالكلمات فيه مختارة، غير مبتذلة ولا مستهجنة، ولكنها رقيقة رائعة مُعَبِّرة، الجمل فيها ركبَت بشكل رائع، حتى أن أقل عدد من الكلمات يُعبّر عن أوسع المعاني وأغزرها، إن تعابيره موجزة، ولكنها مُدهشة في وضوحها، حتى أن أقل الناس حظاً من التعلّم يستطيع فهم القرآن دونما صعوبة، وهناك عمق ومرونة في القرآن مما يصلح أن يكون أساساً لمبادئ وقوانين العلوم والآداب الإسلامية ومذاهب الفقه وفلسفة الإلهيات^(١).

وفي أسلوب القرآن نجد أنه وضع لبعض الألفاظ معاني جديدة، وخاصة ما اتصل منها بالفقه الإسلامي، كما استحدث ألفاظاً جديدة وأعرض عن ألفاظ، فنع استعمال مدلولاتها وأغراضها، وخاصة وحشي اللفظ... كذلك أبطل سجع الكهان وطوابع الوثنية، وأضعف فنون الفخر والاستعلاء والهجاء، وطبع الحوار بطابع السماحة وإقامة الحجة والبحث عن

(١) الفصحى لغة القرآن - أنور الجندي: ص ٤٠.

الدليل، وأحلّ الايجاز محلّ الإسهاب، والحكمة مكان الإطالة، وترك في الأسلوب العربي الإسلامي طابعه الوسيط السمح، وأعطاه جزالةً وسلاسةً وعذوبةً ووضوحاً... ذلك أنّ القرآن رقق القلوب وأفسح للعقول مجال النظر والفكر^(١).

* * *

والآن فإليك بعض التوضيح عن قوافي الشعر وأوزانه، والكلام عن تكلفات الأسجاع القديمة، ممّا تحاشاه القرآن الكريم:

الشعر: كلام ذو وزن وتقفية، قد سبك على نظام خاص، ومتقيّد بقافية خاصة، على أنواعها الخمسة المعروفة التي ذكرها الخليل^(٢).

وهذا النظم تشرحه البحور المقيسة التي هي الأوزان الشعرية التي كانت عليها العرب، إلّا ما شذّ، وقد أنهاها الخليل بن أحمد الفراهيدي إلى خمسة عشر بجزءاً، هي:

(الطويل. المديد. البسيط. الوافر. الكامل. الهزج. الرجز. الرمل. السريع. المنسرح. الخفيف. المضارع. المقتضب. المجتث. المتقارب). ولكل بحر أصل وفروع يشرحها علم العروض^(٣).

(١) عن بحث للدكتور عبد المنعم خفاجي في جريدة الدعوة (الفصحى لغة القرآن): ص ٤٠.

(٢) وسنذكرها.

(٣) أصل الطويل: (فعلن. مفاعيلن...) أربع مرّات.

وأصل المديد: (فاعلاتن. فاعلن...) أربع مرّات.

وأصل البسيط: (مستفعلن. فاعلن...) أربع مرّات.

وأصل الوافر: (مفاعلتن...) ستّ مرّات.

وأصل الكامل: (متفاعلن...) ستّ مرّات.

قال السكاكي: وهذه الأوزان هي التي عليها مدار أشعار العرب، بحكم الاستقراء، لا تجدهم وزناً يشذ عنها اللهم إلا نادراً^(١).

والقافية -عند الخليل-: من آخر حرف في البيت، إلى أول ساكن قبله، مع المتحرك الذي قبل الساكن. مثل «تابا» في قوله: «أقلّي اللوم عاذل والعتاب». فيجب أن تجري القصيدة في جميع أبياتها على نفس المنوال.

قال السكاكي: ولابد في القافية -على رأي الخليل وقد رجّحه، لوقوفه على أنواع علوم الأدب نقلاً وتصرفاً واستخراجاً واختراعاً ورعايةً في جميع ذلك حقّ رعايته- أن تشتمل على ساكنين، فيستلزم لذلك خمسة أنواع:

أحدها: أن يكون ساكنها مجتمعين، ويسمى: (الترادف).

ثانيها: أن يكون بينهما حرف واحد متحرك، ويسمى: (المتواتر).

ثالثها: أن يكون بينهما حرفان متحركان، ويسمى: (المتدارك).

وأصل المزج: (مفاعيلن...) ستّ مرّات.

وأصل الرجز: (مستفعلن...) ستّ مرّات.

وأصل الرمل: (فاعلاتن...) ستّ مرّات.

وأصل السريع: (مستفعلن. مستفعلن. مفعولات) مرّتين.

وأصل المنسرح: (مستفعلن. مفعولات. مستفعلن) مرّتين.

وأصل الخفيف: (فاعلاتن. مُش، تفع، لن. فاعلاتن) مرّتين.

وأصل المضارع: (مفاعيلن. فاعلاتن. مفاعيلن) مرّتين.

وأصل المقتضب: (مفعولات. مستفعلن. مستفعلن) مرّتين.

وأصل المجتث: (مستفعلن. فاعلاتن. فاعلاتن) مرّتين.

وأصل المتقارب: (فعولن...) ثماني مرّات.

(١) راجع مفتاح العلوم للسكاكي (علم العروض): ص ٢٤٤ - ٢٦٧. وجامع العلوم للإمام الرازي:

ورابعها: ان يكون بينهما ثلاثة أحرف متحركات، ويسمى: (المتراكب).
وخامسها: أن يكون بينهما أربعة أحرف متحركات، ويسمى:
(المتكاوس).

ثم ذكر أن للمتترادف (١٧) موقعاً، وللمتواتر (٢١) موقعاً،
وللمتدارك (١١)، وللمتراكب (٨)، وللمتكاوس موقع واحد، فهذه (٥٨)
موقعاً لأنواع القافية الخمسة.

* * *

ثم القافية لاشتمالها على حرف الروي - (وهو: الحرف الآخر من حروف
القافية إلا ما كان تنويناً أو بدلاً من التنوين أو كان حرفاً إشباعياً مجلوباً لبيان
الحركة) - تتنوع إلى ستة أنواع:

الأول: القافية المقيدة، وهي ما كان رويها ساكناً، نحو قوله: «وقاتم
الأعماق خاوي المخترق». وحركة ما قبل الروي المقيد يسمى: (توجيهاً).

الثاني: القافية المطلقة، وهي ما كان رويها متحركاً، نحو قوله: «قفانبك
من ذكرى حبيب ومنزل». ويسمى حركة الروي: (مجرى).

الثالث: القافية المردفة، وهي ما كان قبل رويها ألف، مثل «عماداً» أو
واو أو ياء مدتين، نحو «عمود» و«عميد». أو غير مدتين، مثل «قول»
و«قيل». وتسمى كل من هذه الحروف «ردفاً»، وحركة ما قبل الردف
«حذواً».

الرابع: القافية المؤسّسة، وهي ما كان قبل رويها بحرف واحد ألف، مثل
«عامداً»، وتسمى هذه الألف «التأسيس» والفتحة قبلها «رئاً» والحرف
المتوسط بين الألف والروي «الدخيل» وحركته «إشباعاً».

الخامس: القافية المجردة: وهي ما لم يكن قبل رويها ردف ولا تأسيس.
السادس: القافية الموصولة، وهي ما كان بعد حرف رويها حرف واحد،

ويستمى «وصلأ» نحو «منزلأ». وهذا إمّا من غير خروج، كالمثال. أو مع الخروج، وهو ما اذا لحق حرف الوصل حركة إشباعية تولد منها حرف آخر. كما في نحو «منزله» بهاء من غير إشباع وهذا غير خارج. أمّا اذا لحقها إشباع نحو «منزهو». «منزلهأ». «منزلهي» فهذا خروج. فالحرف المتولد من الإشباع «خروج» وحركة هاء الوصل «نفاذ»^(١).

* * *

ثم إنّ القرآن، وإن استعمل «الروي» في فواصل آيه، لكنه لم يلتزم بشروط القافية، فكان إلى التسجيع الرصين أقرب منه إلى تقفية الشعر، ولذلك اصطالحوا على تسمية ذلك بالفاصلة فرقا بينها وبين القافية المصطلحة. كما أنه لم ينظم شيئا من جملة وتراكيبه الكلامية على أوزان الشعر وبحوره، لا في الاصول ولا في فروعها، ومن ثم فهو أبعد ما يكون شعرا «وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين»^(٢)... وكما شهد بذلك فصحاء العرب الأولون، حسبما مرّ من كلام الوليد وشهادة أنيس بن جنادة وغيرهما من الأفاضل.

* * *

قال أبو الحسن علي بن عيسى الرقائي (٢٩٦ - ٣٨٦): وأمّا نقض العادة، فإنّ العادة جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة، منها الشعر، ومنها السجع، ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث. فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق كل طريقة^(٣).

(١) مفتاح العلوم: ص ٢٧٠ - ٢٧٢.

(٢) يس: ٦٩.

(٣) النكت في الاعجاز (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): ص ١٠٢.

وقال الباقلاني: قد علمنا أنّ كلام العرب ينقسم إلى نثر، ونظم، وكلام مقفّى غير موزون، وكلام موزون غير مقفّى، ونظم ليس بمقفّى كالخطب والسجع، ونظم مقفّى موزون له رويّ - إلى أن يقول: - على أن الآية في القرآن، أنه نزل بلسان العرب وكلامهم، ومنظوم على وزن يفارق سائر أوزان كلامهم. ولو كان من بعض النظم التي يعرفونها لعلموا أنه شعراً وخطابة أو رجز أو طويل أو مزدوج، غير أنّ ناظمه قد برع وتقدم فيه... وليس يخرج الخندق في الصنعة إلى أن يؤثى بغير جنسها، وما ليس منها في شيء، وما لا يعرفه أهلها^(١).

قلت: وهذا يعني أنّ الكلام إمّا موزون متكامل الوزن، مع تعادل الأجزاء، والتزام التقفية على اصولها المقررة... فهذا هو الشعر، بأعاريضه المختلفة، وبحوره المتعددة، وأوزانه المعروفة... وهذا جنس من الكلام أو قالب لفظي معهود... وإمّا هو طليق من جميع قيود الشعر والتزاماته، لا وزن ولا تعادل بين جملة وتراكيبه، ولا تقفية ولا شبه التقفية... وهذا هو الكلام المرسل الذي لا يستهدف منشئه إلّا مجرد الإصابة والإفادة، مهما كان نمط الكلام، من غير قصد إلى تحليلته بوزن أو الالتزام بقافية... فهذا جنس آخر يقابل الجنس الأول، بينما الأول متقيد بقيود لفظية... نجد في هذا انطلاقة حراً وتحلاً من جميع القيود والالتزامات.

وهناك كلام فيه بعض الالتزامات، إمّا فيه شيء من التعادل بين تعابيره، أو تقفية غير متقيدة بروي خاص حتى نهاية الكلام... وهذا يشمل الخطب والرسائل وبعض الأسجاع من النمط العالي... والجديد في القرآن أنه لم يلتزم بشروط الشعر كاملة، ولا أرسل في بياناته إرسالاً غير متقيد بشيء إطلاقاً، ولا كان على نمط الكتب والرسائل، ولا

(١) راجع التهيد للباقلاني: ص ١٢١، والاعجاز له: ص ٩٤-٩٥.

الخطب والمقالات التي يتعاهدها أرباب القلم والبيان، ولا كان فيه تكلف سجع الكهّان وهذرهم في سرد ألفاظ وتعاير نابية عن مواضعها، غير متلائمة مع فحوى الكلام...

وليس معنى ذلك أنّ القرآن ابتعد عن جميع أساليب الكلام المعروفة عند العرب، ليكون غير مألوف بتاتاً... بل أتى بأسلوب جامع لمحاسن الكلام من غير كلفة، واتخذ طريقة في الإفادة والإيفاء، لم تشذ عن الطرائق المعهودة، غير أنه سلك من كل نوع أفضله، وأخذ من كل فضيلة أشرفها، فكانت فيه خاصية جميع أنواع الكلام، من شعر موزون، ونثر منطلق، وسجع رصين... فجاء نمطاً جامعاً لمزايا أنواع الكلام، من غير أن يكون أحدها... الأمر الذي عجز عنه الأوائل والأواخر سواء.

* * *

ومن ثم فالقرآن نمط من الكلام، بديع في سبكه وعجيب في اسلوبه، لكنه من جنس الكلام المألوف وإن كان بارعاً في نظمه وورصفه:

فإن تَفَقَّ الأنامَ وأنت منهم فإنَّ المسكَ بعضُ دم الغزال
«وهذا لسانٌ عربيٌّ مبينٌ»^(١). «قرآنا عربياً غير ذي عوج»^(٢).

إذا لم يكن القرآن قد ابتعد عن أساليب الكلام المعروفة، ولم تكن البراعة في الجمع بين مزايا الكلام ممّا يوجب خروجه عن المألوف المعهود... الأمر الذي ليس بعزيز في تمايز كلام عن كلام وتفاوت درجات البيان في الإفادة والإيفاء.

وعليه فلا موضع لقول بعضهم: لو صحَّ أنّ نقض العادة بضروب جديدة

(١) النحل: ١٠٣.

(٢) الزمر: ٢٨.

من قوالب الكلام، يمكن أن يكون واحداً من أسس إعجاز القرآن، لصح
لكتّاب المسرحيات أن يزعموا لأنفسهم شيئاً من الإعجاز. لأنها صورة من صور
الأداء الفني لم تكن معروفة أو مألوفة من قبل.

قال: الرأي عندي أنّ المخالفة في الشكل لا تقتضي لذاتها تفضلاً... ولا
يستسيغ الذوق الفني أن تفضل قطعة أدبية على قطعة أخرى، لأنّ هذه تعادلت
فيه الفقر وتلك تخلّصت من قيود الصنعة، أو أنه شعر والآخر نثر، أو أنه مسجوع
أو متعادل وغيره طليق مرسل^(١).

نعم لا موضع لهذا الإيراد، بعد أن كان التفاضل في اسلوب البيان نوعاً
من البراعة قد تبلغ مبلغ الإعجاز، كما في القرآن.

يقول الدكتور طه حسين: ولست أفهم كيف يمكن أن يتسرّب الشك إلى
عالم جادّ، في عريية القرآن، واستقامة ألفاظه وأساليبه ونظمه، على ما عرف
العرب أيام النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) من لفظ ونظم واسلوب^(٢).
تلك شهادة ضافية من أكبر رجالات الأدب الحاضر، تتسلّم براعة القرآن
في إعجازه، وإن كان لم يخرج عن المألوف عند العرب من أساليب كلامهم
المعهودة.

* * *

وسؤال آخر: إذا كان القرآن لم يجبر في اسلوبه على مجاري الشعر، وكانت
العرب تعرف ذلك، ولا تجهل مقاييس الشعر وموازينه، إذا فلماذا نسبته إلى
الشعر تارة، وإلى السحر أخرى؟

(١) كلام قتادة الدكتور عبد الرؤوف مخلوف، ردّاً على مقال الباقلاني الآنف. (الباقلاني وكتابه:

ص ١٩٤ - ١٩٩).

(٢) في الأدب الجاهلي: ص ١٤٧.

إنّ هذا لسرّ عجيب! كانت العرب تعرف أنه ليس بشعر ولا بسحر، وقد شهد بذلك كُبراءُهم وزعماءُهم في الفصاحة والبيان. غير أنهم لمسوا فيه إناقة الشعر وروعته الخلافة، ووجدوا فيه تأثير السحر ونفاذه في مسارب القلوب. فإذا لم تُدعن بأنه كلامُ الله العزيز الحميد، استكباراً وعناداً مع الحقّ الصريح «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً»^(١) لجأت إلى الافتراء وقول الزور «فإذا بعد الحقّ إلّا الضلال»^(٢).

* * *

والسجع: يطلق على طراز بلاغيّ خاصّ، تستخدم فيه فقرات قصيرة ذات كلمات مقفاة، إلّا أنه مع هذا متميّز عن الشعر بأنه غير خاضع لقافية واحدة ولا لوزن خاصّ.

ولعلّ السجع أول اسلوب مختار ارتضاه العرب قبل أن يصطنعوا البحور المقيسة.

وهذا الاسلوب من التعبير، كثيراً ما كان الكهنة يستعملونه في نبوءاتهم أيام الجاهلية... وإن كان هو الشائع أيضاً بين الخطباء وأرباب الحكم من العرب الأوائل^(٣).

واشتهر في بلاد العرب جماعة كبيرة من الكهّان والكواهن، أقدمهم شقّ وسطيح، وحكاياتها أشبه بالخرافات منها بالحقائق^(٤). ومن الكهّان الذين نبغوا

(١) التل: ١٤.

(٢) يونس: ٣٢.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ١١ ص ٢٩٥. وراجع تاريخ الآداب العربية لجرجي زيدان: ج ١ ص ٢١٠-٢١٢.

(٤) زعموا أنّ شقّاً كان شقّ إنسان (نصفه) بيد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة. وأنّ سطيحاً كان لحماً يطوى كما يطوى الثوب لاعظم فيه غير الجمجمة ووجهه في صدره. وزعموا أنّ هذين الكاهنين عاشا بضعة قرون... إلى غير ذلك من الأوهام.

قُبيل الاسلام: خناخر بن التوام الحميري، وسواد بن قارب الدوسي. وفيهم من يُعرفون بما ينسبون إليه من البلاد أو القبائل، كقولهم: كاهن قريش وكاهن اليمن وكاهن حضرموت وغيرهم.

ويقال نحو ذلك في العرّافين^(١) وأكثرهم يُنسبون إلى بلدانهم وقبائلهم، كعرّاف هذيل وعرّاف نجد، وأشهرهم عرّاف اليمامة.

وأما الكواهن من النساء فإنهنّ كثيرات، منهنّ: طريفة كاهنة اليمن، وهي أقدمهنّ. وزبراء بين الشحر وحضرموت، وسلمى الهمدانية الحميرية، وعفيرة الحميرية، وفاطمة الخثعمية بمكة، وزرقاء اليمامة... وغيرهنّ... وينسبن إلى القبيلة أو المدينة ككاهنة بني سعد، يزعمون أنها أقدم عهداً من شقّ وسطيح، وأنّها استخلفتها^(٢).

وما زالت الكهانة في العرب حتى أبطلتها الشريعة الاسلامية: «لا كهانة بعد النبوة»^(٣).

وكانت لهم لغة خاصّة تمتاز بتسجيع خصوصي يعرف بسجع الكهّان، مع تعقيد وغموض، ولعلّهم كانوا يتوخّون ذلك للتمويه على الناس بعبارات تحتل غير وجه، كما كان يفعل بعض أرباب التنجيم في عهد قريب، حتى إذا لم يصدّق تكهّنهم (وبالأحرى تخرّصهم بالغيب) جعلوا السبب قصور افهام الناس عن فهم رموز الكاهن أو المنجّم.

(١) الفرق بين الكهانة والعرافة: أنّ الاولى مختصة بالامور المستقبلية، والعرافة بالامور الماضية. وكلاهما تنبؤ واستطلاع للغيب.

(٢) السيرة الحلبية: ج ١ ص ٣٣ - ٣٤.

(٣) كشف الظنون: ج ٢ ص ١٥٢٤ - ١٥٢٥ حرف الكاف (علم الكهانة).

ومن أمثلة سجع الكهّان مايروونه عن «طريقة» كاهنة اليمن، حين خاف أهل مأرب سيلَ العرم... أنها قالت لهم:
لا تؤقّموا مكّة حتى أقول، وما علّمني ما أقول إلا الحكم المحكم ربّ جميع
الأمم من عرب وعجم.
قالوا لها: ماشأنك يا طريقة؟
قالت: خذوا البعير الشذقم فخصّبوه بالدم، تكن لكم أرض جرهم،
جيران بيته المحرم^(١).

* * *

هذا، ولم يكن السجع في الجاهلية خاصّاً بالكهّان في نبوءاتهم، بل كان شائعاً - كما ذكرنا - بين البلغاء والخطباء عندما يخاطبون أو يعظون، يجعلون حكمتهم في جمل قصار ذات تسجيع وترصيع، لتكون أوقع في النفوس وأحفظ وأبقى. كما لم يغفل القضاة منهم أن يُصدروا أحكامهم في الحقوق والجزاء في عبارات مسجوعة شبه مصراع أو مصراعين، ولعلّه أثبت وأضبط للحفظ.
وقد قيل: إنّ ضمير بن ضمرة والأقرع بن حابس وغيرهما درجوا على أن يُصدروا أحكامهم في عبارات وجمل مسجوعة عند ما كانوا يجلسون مجلس القضاء^(٢).

وقد شاع السجع بين الكتّاب والخطباء الإسلاميين شيوعاً بالغاً، بحيث لا تجد خطيباً ولا كاتباً إسلامياً حاد عن طريقة السجع في الكلام.
وهذه خطب ورسائل وكلمات الامام أمير المؤمنين عليه السّلام مزدانة بالسجع الرصين، خالي عن التكلّف البادي على أسجاع العرب التي كانت

(١) تاريخ الآداب لجرّجي زيدان: ص ٢١٢.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: ج ١١ ص ٢٩٦. وراجع البيان والتبيين للجاحظ: ج ١ ص ١١٢ س ٢٠.

تنبوعنها الأسماع.

وأحسن السجع ما درج عليه القرآن الكريم، ولا سيما في سورة القصص المكية، ذوات السجعات الرنانة الأخاذة بمجامع القلوب، وسنذكر: أن السجع زينة للكلام إذا كان على رسله ولم يتكلف فيه، وفي القرآن منه الشيء الكثير، وهو أمر لا يُنكر، لكنه ليس من النوع المتكلف فيه، وإنما هو من المذلل السهل، التابع للمعاني. والسجع إذا كان على هذا الوصف كان جميلاً، والقرآن كله جميل، ويناسبه كل وسائل الجمال^(١).

* * *

وإليك من أسجاع العرب ما يمجّه السمع، وقارن بينها وبين سجع القرآن البديع:

١ - إن امرأة من بني سهم يقال لها «الغيطلة»^(٢) كانت كاهنة في الجاهلية، جاءها صاحبها^(٣) ليلة من الليالي فانقضّ من تحتها^(٤)، ثم قال: آذر ما آذر^(٥)، يوم عقر ونحر. فقالت قريش - حين بلغها ذلك -: ما يريد؟ ثم جاءها ليلة أخرى فانقضّ من تحتها، ثم قال: شُوب، ماشُوب؟ تُصرّع فيه كعبٌ لجُئوب. فلما بلغ ذلك قريشاً قالوا: ماذا يريد؟ إن هذا لأمرٌ هو كائن! فانظروا ما هو؟ فما عرفوه حتى كانت وقعة بدر وأحد بالشعب، فعرفوا أنه الذي كان جاء به إلى صاحبتة^(٦).

(١) سنذكر ذلك عند الكلام عن فواصل الآي.

(٢) وفي نسخة ابن إسحاق «الغيطالجة». (سيرة ابن إسحاق ج ١ ص ١١٢).

(٣) أي رابطها من الجن، حسباً كانوا يزعمون.

(٤) انقضّ الطائر إذا سقط على شيء يريده.

(٥) قال السهيلي (ج ١ ص ٢٣٩): فيه رواية أخرى: «... وما يَدْر؟...» وهي أبين من هذه.

(٦) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢. وراجع سيرة ابن إسحاق: ج ١ ص ١١٢. والسهيلي: ج ١

وكعب - هنا - هو كعب بن لؤي. والذين صُرِعُوا لِجُنُوبِهِمْ ببدر وأحد
أشراف قريش، معظمهم من كعب بن لؤي. وشُعُوب جمع شِعب، وهو موضع
مصرعهم هناك .

ولا يخفى ما في هذا الكلام - على تقدير صحته - من غموض وإيهام، فضلاً
عن تكلف السجع بإقحام كلمات لا موضع لها سوى أرداف التسجيع، مثل
كلمة «لِجُنُوبٍ» أي على جنبهم، لا حاجة فيه. وهكذا كلمة «نحر» لم يثبت بها
إلا تسجيلاً لكلمة «عقر» وهكذا.

٢ - وكان لَجْنُب (بطن من اليمن)^(١) كاهن في الجاهلية. فلما أنتشر أمر
رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أتوه يستعلمونه في شأنه، واجتمعوا له في
أسفل الجبل، حتى إذا طلعت الشمس نزل عليهم، فوقف قائماً متكئاً على
قوس، فرفع رأسه إلى السماء طويلاً، ثم جعل ينزو (أي يشب وثبات) ثم قال:
أيها الناس، إن الله أكرم محمداً واصطفاه، وطهر قلبه وحشاه، ومكثه فيكم أيها
الناس قليل. ثم اشتد في جبله راجعاً من حيث جاء^(٢).

انظر إلى كلمة «وحشاه» لا موضع لها إلا من جهة تكميل السجع!

٣ - ويقال: إن سواد بن قارب كان يتكهن في الجاهلية، فأتاه صاحبه
يوماً، وذلك قبيل ظهور الاسلام بشهر أو دونه، فقال له: ألم ترالى الجن
وإيلاسها، وإياسها من دينها، ولحوقها بالقلاص وأحلاسها.

هذا من رواية محمد بن إسحاق. وروى غيره رواية أخرى فيها سياقة
حسنة وزيادة مفيدة، وذكر أن رثيه^(٣) جاء ثلاث ليالٍ متواليات، هوفها

(١) جنب: حي من اليمن وهم من مذحج. (الروض الأنف: ج ١ ص ٢٤١).

(٢) ابن هشام: ج ١ ص ٢٢٢، والروض الأنف: ج ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٣) الرثي: زعموا أنه جني يظهر لمن يراوده من بني الانسان، وهم أصحاب التنبؤ في الجاهلية، فيطلعه
على الغيب.

كلها بين النائم واليقظان، فقال: قم يا سواد، واسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل، قد بُعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من لؤي بن غالب يدعوا إلى الله وعبادته، وأنشده في كل ليلة من الثلاث الليالي ثلاثة أبيات، معناها واحد وقافيتها مختلفة. قال في الأولى:

عجبت للجنّ وتطلابها
تهوى إلى مكة تبغي الهدى
فارحل إلى الصفوة من هاشم
وقال له في الثانية:

عجبت للجنّ وإبلاسها
تهوى إلى مكة تبغي الهدى
فارحل إلى الصفوة من هاشم
وقال له في الثالثة:

عجبت للجنّ وتنفارها
تهوى إلى مكة تبغي الهدى
فارحل إلى الأتقيين من هاشم
... وذكر تمام الخبر... (٤).

٤ - يقال: إنّ حديث سواد بن قارب كان بمحضر عمر بن الخطاب، فلمّا انتهى سواد من حديثه قال عمر عند ذلك يحدث الناس: والله إنّنى لعند وثني

(١) العيس: الابل البيض يخالط بياضها سواد خفيف، وهي كرام الابل، الواحد: أعيس، والواحدة: عيساء. والقَتَب: الرجل.

(٢) أبلَس: قلّ خيرُه. تحيّر في أمره. والحَلَس: كل ما يوضع على ظهر الدابة تحت السرج أو الرجل.

(٣) التنفّار: مبالغة في النفرة. والكور: رجل البعير أو الرجل بأداته.

(٤) الروض الأنف: ج ١ ص ٢٤٣.

من أوثان الجاهلية في نقر من قريش، قد ذبح له رجل من العرب عجلاً، فنحن ننتظر قسمة ليقسم لنا منه. إذ سمعت من جوف العجل صوتاً ما سمعت صوتاً قط أنفذ منه، وذلك قبيل الاسلام بشهر أو شيعه^(١)، يقول: يا ذريح، أمر نحيح، رجل يصيح، بلسان فصيح، يقول: لا إله إلا الله^(٢).

٥ - وعن عمرو بن معد يكرب، قال: والله لقد علمت أن محمداً رسول الله قبل أن يُبعث: فليل له: وكيف ذاك؟ قال: فزعنا إلى كاهن لنا في أمر نزل بنا، فقال الكاهن: أقسم بالسما ذات الأبراج، والأرض ذات الأدرج، والريح ذات العجاج، إن هذا لأمر آج^(٣)، ولقاح ذي نتاج. قالوا: وما نتاجه؟ قال: نتاجه ظهور نبي صادق، بكتاب ناطق، وحسام فائق.

قالوا: واين يظهر، والى ماذا يدعو؟ قال: يظهر بصلاح، ويدعو إلى فلاح، ويبطل القдах، وينهى عن الراح والسفاح، وعن كل أمر قباح. قالوا: ممن هو؟ قال: من ولد الشيخ الأكرم، حافر زمزم، وعزه سمرق، وخصمه مكمد^(٤).

خبر قس بن ساعدة:

وكان قس بن ساعدة الايادي من خطباء العرب المرموقين، ومن حكمائهم

(١) شيعه: دونه بقليل.

(٢) ابن هشام: ج ١ ص ٢٢٤. قوله: يا ذريح، لعله نداء للعجل المذبوح، لقولهم: أحر ذريحي، أي شديد الحمرة، فصار وصفاً للعجل الذبيح من تلطخه بالدم.

(٣) لعله من أجيح النار، أي توهجه وتوقده. أي سوف ينتهض هذا الأمر وينتفض.

(٤) السيرة الحلبية: ج ١ ص ١٩٦. ويقال: أكمد الهم فلاناً: غمه وأمرض قلبه.

المعروفين، ولهم عنه حكايات وحكم مأثورة، حتى قيل إنه بشر بنبي موعود يهدي إلى الرشd والصلاآ، ويقال: إنه تجنب عبادة الأوثان، وكان على طريقة مرضية، لمقام حكمته ومعرفته بأصول الديانات.

وقد رروا عنه -على لسان النبي (صلّى الله عليه وآله وسلم) خطبته المشهورة بسوق عكاظ:

روى أبو جعفر الصدوق في الباب العاشر من «كمال الدين» بإسناده عن الامام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: بينا رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ذات يوم بفناء الكعبة يوم افتتح مكة، إذ اقبل إليه وفد فسلموا عليه، فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): من القوم؟ قالوا: وفد بكر بن وائل. قال: فهل عندكم علم من خبر قُتس بن ساعدة الايادي؟ قالوا: نعم يارسول الله. قال: فما فعل؟ قالوا: مات!

فقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم): الحمد لله ربّ الموت وربّ الحياة، كل نفس ذائقة الموت، كآتي أنظر إلى قُتس بن ساعدة الايادي وهو بسوق عكاظ على جمل له أحمر وهو يخطب الناس ويقول:

اجتمعوا أيها الناس، فاذا اجتمعتم فأنصتوا، فاذا أنصتتم فاسمعوا، فاذا سمعتم فَعُتُوا، فاذا وعيتم فاحفظوا، فاذا حفظتم فاصدقوا.

ألا إنه مَن عاش مات، ومن مات فات، ومن فات فليس بآت. إن في السماء خبراً، وفي الأرض عبراً. سقف مرفوع، ومهاد موضوع، ونجوم تمور، وليل يدور، وبحار ماء لا تغور.

يخلف قُتس ما هذا بلعب، وإن من وراء هذا لعجباً. مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون! أرضوا بالمقام فأقاصوا؟ أم تركوا فناموا؟

يخلف قُتس يميناً غير كاذبة، إن الله ديناً هو خير من الدين الذي أنتم

عليه...

ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): رحم الله قُصَّاءً، يُحْشَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ! قال: هل فيكم أحد يُحَسِّنُ مِنْ شَعْرِهِ شَيْئاً؟ فقال بعضهم: سمعته يقول:

من القرون لنا بصائر	في الأولين الـذاهبين
للموت ليس لها مصادر	لَمَّا رَأَيْتُ مُوَارِدًا
تمضي الأكابر والأصاغر	ورأيت قومي تحوها
ولا من الباقيين غابر	لا يرجع الماضي إليّ
حيث صار القوم صائر	أيقنت أنّي لا محالة

وبلغ من حكمة قُصٍّ بن ساعدة ومعرفته أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يسأل من يقدم عليه من أياد من حِكمه ويصغي إليه سمعه! فقد اسند الصدوق الى هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه (ابن السائب) أنّ وفداً من أياد قدموا على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فسألهم عن حِكم قُصٍّ بن ساعدة فقالوا: قال قُصٍّ:

عليهم من بقايا بزّهم خِرَقٌ ^(١)	ياناعي الموت والأموات في جدث
كما يُنَبِّه من نومائه الصّعق ^(٢)	دعهم فإنّ لهم يوماً يُصاح بهم
منها الجديد ومنها الأورق الخلق ^(٣)	منهم عراة ومنهم في ثيابهم
خَلَقُ جَدِيدٌ وَخَلَقُ بَعْدَهُمْ خُلُقُوا	حتى يعودوا بحال غير حالتهم
مطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت، وآيات في إثر آيات، وأموات	

(١) البَدَث: القبر. وإنبَز: الشياب من الكتان أو القطن.

(٢) صُعِق - مبنياً للمفعول -: غُشي عليه. والفاعل: الصّعق.

(٣) الأورق: الذي لونه لون الرماد، كناية عن البالي.

بعد أموات، ضوء وظلام، وليالٍ وأيام، وفقير وغني، وسعيد وشقي، ومُحسنٌ ومُسيء. تَبّاً لأرباب الغفلة، ليصلحن كل عامل عمله! كَلَّا بل هو الله واحد، ليس بمولود ولا والد، أعاد وأبدأ، وإليه المآب غداً.

وأما بعد، يامعشر أياد، أين ثمودٌ وعاد؟ وأين الآباء والأجداد؟ أين الحَسَن الذي لم يُشكر، والقبيح الذي لم يُنقَم؟ كَلَّا ورب الكعبة، ليعودنَّ مابداً، ولئن ذهب يومٌ ليعودنَّ يومٌ.

قال الصدوق: وكان قُسّ يَعْرِف النَّبِيَّ بِاسْمِهِ وَنَسَبِهِ، وَيُبَشِّرُ النَّاسَ بِخُرُوجِهِ، وَكَانَ يَسْتَعْمَلُ التَّقِيَّةَ وَيَأْمُرُ بِهَا فِي خِلَالِ مَا يَعْظُ بِهِ النَّاسَ.

قال -برواية أسندها-: جَمَعَ قُسٌّ وَلَدَهُ، فَقَالَ لَهُمْ:

إِنَّ الْمَعَاءَ تَكْفِيهِ الْبَقْلَةَ وَتُرْوِيهِ الْمَذْقَةَ، وَمَنْ عَيَّرَكَ شَيْئاً فَفِيهِ مِثْلُهُ، وَمَنْ ظَلَمَكَ وَجَدَ مَنْ يَظْلِمُهُ. مَتَى عَدَلْتَ عَلَى نَفْسِكَ عَدَلَ عَلَيْكَ مِنْ فَوْقَكَ. فَادَّعِ نَهَيْتَ عَنْ شَيْءٍ فَايْأُتْ بِنَفْسِكَ، وَلَا تَجْمَعْ مَا لَا تَأْكُلُ، وَلَا تَأْكُلْ مَا لَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ. وَإِذَا ادَّخَرْتَ فَلَا يَكُونَنَّ كَنْزُكَ إِلَّا فَعْلُكَ. وَكَنْ عَقْفَ الْعِيْلَةِ، مُشْتَرِكِ الْغَنَى تَسَدَّ قَوْمُكَ. وَلَا تَشَاوِرَنَّ مَشْغُولاً وَإِنْ كَانَ حَازِماً. وَلَا جَائِعاً وَإِنْ كَانَ فَهِماً. وَلَا مَذْعُوراً وَإِنْ كَانَ نَاصِحاً. وَلَا تَضَعَنَّ فِي عُنُقِكَ طَوْقاً لَا يُمْكِنُكَ نَزْعُهُ إِلَّا بِشَقِّ نَفْسِكَ. وَإِذَا خَاصَمْتَ فَاعْدِلْ، وَإِذَا قُلْتَ فَاقْتَصِدْ. وَلَا تَسْتَوْدِعَنَّ أَحَدًا دِينَكَ وَإِنْ قَرِيتَ قَرَابَتَهُ. فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ لَمْ تَزَلْ وَجِلاً، وَكَانَ الْمُسْتَوْدِعُ بِالْخِيَارِ فِي الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَكَنتَ لَهُ عَبْدًا مَابِقِيَّتٍ، فَإِنْ جَنَى عَلَيْكَ كُنْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ، وَإِنْ وَفَى كَانَ الْمَدْمُوحُ دُونَكَ. عَلَيْكَ بِالْصَّدَقَةِ، فَإِنَّهَا تَكْفُرُ الْخَطِيئَةَ.

قال الصدوق: فَكَانَ قُسٌّ لَا يَسْتَوْدِعُ دِينَهُ أَحَدًا. وَكَانَ يَتَكَلَّمُ بِمَا يَخْفَى مَعْنَاهُ عَلَى الْعَوَامِّ، وَلَا يَسْتَدْرِكُهُ إِلَّا الْخَوَاصُّ^(١).

(١) كمال الدين وتمام النعمة: ج ١ ص ١٦٦ - ١٦٩.

٣- عذوبة ألفاظه وسلاسة عباراته

قد أجمل الكلام في ذلك الجرجانيّ والسكاكيّ وغيرهما من أعلام البيان من المتقدمين، (وتقدّم بعض كلامهم). وأكمله الثّقاد من المتأخّرين المعاصرين، قالوا:

لو تدبّرت ألفاظ القرآن في نظمها لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها، ولن تجدها إلّا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي. حتى أنّ الحركة ربما كانت ثقيلة فلا تعذب ولا تساغ في نفسها، فاذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنًا عجيبًا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقًا في اللسان واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي، حتى اذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقّه، وكانت متمكّنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالحنّة والروعة.

من ذلك لفظة «التَّذرُّ» جمع نذير، فإنّ الضمّة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً، فضلاً عن جسأة هذا الحرف ونبوّه في اللسان، وخاصة اذا جاءت فاصلة للكلام.

ولكنه جاء في القرآن على العكس وانتفى من طبيعته في قوله تعالى «ولقد

أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر»^(١) فتأمل هذا التركيب، وأنعم ثم أنعم على تأمله، وتدوّق مواقع الحروف، واجر حركاتها في حسّ السمع، وتأمل مواضع القفلة في دال «لقد»، وفي الطاء من «بطشتنا» وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو «تماروا» مع الفصل بالمدّ كأنّها تثقيل، لحفّة التتابع في الفّتّحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمّة عليه مستخفاً بعد، ولكون هذه الضمّة قد أصابت موضعها، كما تكون الأحماض في الأطعمة. ثم ردّد نظرك في الراء من «تماروا» فإنها ما جاءت إلّا مساندة لراء «النذر» حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تحفو عليه، ولا تغلظ ولا تنوفيه. ثم أعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون «أنذرهم» وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في «النذر».

وما من حرف أو حركة في الآية إلّا وأنت مصيب من كل ذلك عجباً في موقعه والقصد به، حتى ماتشكّ أنّ الجهة واحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة، ليس منها إلّا ما يشبه في الرأي أن يكون قد تقدّم فيه النظر وأحكمت الروية وراضه اللسان، وليس منها إلّا متخيّر مقصود إليه من بين الكلم ومن بين الحروف ومن بين الكلمات. وأين هذا ونحوه عند تعاطيه! ومن أيّ وجه يلتبس! وعلى أيّ جهة يستطاع!

وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدّد حروف ومقاطع ممّا يكون مستثقلاً بطبيعة وضعه أو تركيبه، ولكنها بتلك الطريقة التي أومأنا إليها قد خرجت في نظمه مخرجاً سرياً، فكانت من أخصر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقاً وأخفّها تركيباً، إذ تراه قد هيأها أسباباً عجيبية من تكرار الحروف وتنوع الحركات، فلم يجبرها في نظمه إلّا وقد وجد ذلك فيها، كقوله تعالى:

«ليستخلفهم في الأرض»^(١) فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف، وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ومن نظم حركاتها، فإنَّها بذلك صارت في النطق كأنَّها أربع كلمات، إذ تنطق على أربعة مقاطع.

وقوله: «فسيكفيكم الله»^(٢) فإنَّها كلمة من تسعة أحرف. وهي ثلاثة مقاطع. وقد تكرَّرت فيها الياء والكاف، وتوسط بين الكافين هذا المدّ (في) الذي هو سرّ الفصاحة في الكلمة كلها.

واللفظة إذا كانت خماسية الأصول فهذا لم يرد منه في القرآن شيء، لأنَّه ممَّا لا وجه للعذوبة فيه، إلَّا ما كان من اسم غرَّب ولم يكن عربياً: كإبراهيم، وإسماعيل وطالوت، وجالوت، ونحوها. ولا يجيء به مع ذلك إلَّا أن يتخلَّله المدّ كما ترى، فتخرج الكلمة وكأنَّها كلمتان.

وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلَّا في موقعها من القرآن بالذات، وهي كلمة «ضيّزى» من قوله تعالى: «تلك إذاً قسمةٌ ضيّزى»^(٣). ومع ذلك فإنَّ حسنها في نظم الكلام هنا من أغرب الحسن وأعجبه، وأدرت اللغة عليها ما يصلح لهذا الموضع غيرها.

فإنَّ السورة التي هي منها - وهي سورة النجم - مفضّلة كلها على الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل. ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله مع وأدهم البنات^(٤) فقال تعالى: «ألكم الذكرو له الأُنثى. تلك إذاً قسمةٌ ضيّزى». فكانت غرابة اللفظ أشدَّ الأشياء ملائمة لغرابة

(١) النور: ٥٥.

(٢) البقرة: ١٣٧.

(٣) النجم: ٢٢. والضيّزى: الجور، أي فهي قسمة جائرة.

(٤) أي دفنن على الحياة كما كان من عادتهم.

هذه القسمة التي أنكرها عليهم، وكانت الجملة كلها كأنها تصوّر في هيئة النطق بها، الإنكار في الأولى والتهكّم في الأخرى. وكان هذا التصوير أبْلَغَ ما في البلاغة، وخاصّة في اللفظة الغريبة التي تمكّنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكّم في إنكاره من امالة اليد والرأس بهذين المدين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية.

وإن تعجب فعاجب لنظم هذه الكلمة الغريبة واثلافه على ما قبلها، إذ هي مقطعان: أحدهما مدّ ثقيل، والآخر مدّ خفيف، وقد جاءت عقب غتتين في «إذا» و«قسمة» إحداهما خفيفة حادة، والأخرى ثقيلة متفشّية، فكأنها بذلك ليست إلّا مجاورة صوتية لتقطيع موسيقي.

ثم الكلمات التي يظنّ أنها زائدة في القرآن - كما يقوله بعض النحاة - فإنّ فيه من ذلك أحرفاً، كقوله تعالى: «فما رحمة من الله لئن لهم»^(١) وقوله: «فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدّ بصيراً»^(٢).

قالوا: إنّ «ما» في الآية الأولى و«أنّ» في الثانية، زائدتان، أي في الإعراب، فيظنّ من لا بصير له أنها كذلك في النظم ويقيس عليه! مع أنّ في هذه الزيادة لوتاً من التصوير، لو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته. فإنّ المراد بالآية الأولى تصوير لين النبي (صلّى الله عليه وآله) لقومه، وأنّ ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المدّ في «ما» وصفاً لفظياً يؤكّد معنى اللين ويفخّمه، وفوق ذلك فإنّ لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منها في بلاغة السياق. ثم كان الفصل بين الباء الجارّة ومجرورها - وهو لفظ «رحمة» - ممّا يلفت النفس إلى تدبّر المعنى

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) يوسف: ٩٦.

وينبّه الفكر على قيمة الرحمة فيه. وذلك كلّه طبعي في بلاغة الآية كما ترى.
والمراد بالثانية تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف
وبين مجيئه، لبعد ما كان بين يوسف وأبيه (عليهما السّلام) وأنّ ذلك كأنه كان
منتظراً بقلق واضطراب^(١) تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره غنة هذه
النون في الكلمة الفاصلة، وهي: «أن» في قوله «أن جاء...».

وعلى هذا يجري كل ما ظنّ أنّه في القرآن مزيد، فإنّ اعتبار الزيادة فيه
وإقرارها بمعناها إنما هو نقص يحلّ القرآن عنه، وليس يقول بذلك إلّا رجل
يعتسف الكلام ويقضي فيه بغير علمه أو بعلم غيره... فما في القرآن حرف
واحد إلّا ومعه رأي يسنح في البلاغة - من جهة نظمه، أو دلالته، أو وجه
اختياره - بحيث يستحيل البتة أن يكون فيه موضع قلق أو حرف نافر أو جهة غير
محكمة أو شيء ممّا تنفذ في نقده الصنعة الانسانية من أيّ أبواب الكلام إن
وسعها منه باب.

وممّا يدلّ على أن نظم القرآن مادة فوق الصنعة ومن وراء الفكر، ولا يسعه
طوق إنسان في نظم الكلام البليغ، وكأنها صبت على الجملة صبّاً، أنك ترى
بعض الألفاظ لم يأت فيه إلّا بصيغة الجمع ولم يستعمل بصيغة الإفراد، فاذا
احتيج إلى صيغة المفرد استعمل مرادفها. كلفظة «اللب» لم ترد إلّا مجموعة
«إنّ في ذلك لذكرى لأولي الألباب». «ليذكّر أولوا الألباب» ونحوها^(٢) ولم
تجىء فيه مفردة، بل جاء مكانها «القلب»^(٣) أو «الفؤاد»^(٤).

(١) ينبه على ذلك قوله تعالى قبل ذلك عن لسان يعقوب: «إني لأجد ريح يوسف» (يوسف: ٩٤).

(٢) في ستة عشر موضعاً من القرآن جاءت اللفظة بصيغة الجمع فقط، ولم تأت إفراداً أبداً.

(٣) في تسعة عشر موضعاً إمّا مقطوعاً أو مضافاً.

(٤) في خمسة مواضع مقطوعاً ومضافاً.

وذلك لأنّ لفظ الباء شديد مجتمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللام الشديدة المسترخية، فلما لم يكن ثَمَّ فصل بين الحرفين ليتّياً معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة فتحسن اللفظة، مهما كانت حركة الإعراب فيها، نصباً أو رفعاً أو جرّاً. ولذلك أسقطها القرآن من نظمه تبةً، على سعة ما بين أوّله وآخره.

ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة، كما في لفظة «الجُب» وهي في وزنها ونطقها، لولا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة في الجيم المضمومة.

وكذلك لفظة «الكوب» استعملت فيه مجموعة ولم يأت بها مفردة، لأنّه لم يتّياً فيها ما يجعلها في النطق من الظهور والرقّة والانكشاف وحسن التناسب كلفظ «الأكواب» الذي هو جمع.

و«الارعاء» لم يستعمل القرآن لفظها إلا مجموعاً، وترك المفرد - وهو الرجا أي الجانب - لعلّة لفظه وأنه لا يسوغ في نظمه كما ترى.

وعكس ذلك لفظة «الأرض» فإنها لم ترد فيه إلا مفردة، فاذا ذكرت الساء مجموعة جيء بها مفردة في كل موضع منه، ولم يجيء «أرضون» لهذه الجسأة التي تدخل اللفظ ويختلّ بها النظم اختلالاً.

ومن الألفاظ لفظة «الآجر» وليس فيها من خفة التركيب إلا الهمزة وسائرهما نافر متقلقل. ولفظ مرادفها «القرمد» وكلاهما استعمله فصحاء العرب ولم يعرفوا غيرهما، أمّا القرآن فلم يستعملهما ولكنه أخرج معناهما بالطف عبارة وأرقها وأعذبها، وساقها في بيان مكشوف، وذلك في قوله تعالى: «وقال فرعون يا أيّها الملأ ما علمتُ لكم من إله غيري فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحاً»^(١). فعبر عن الآجر بقوله: «فأوقد لي ياهامان على

الطين» وانظر موقع هذه القلقللة التي هي في الدال من قوله «فأوقد» ومايتلوها من رقة اللام، فإنها في أثناء التلاوة ممّا لا يطاق أن يعبر عن حسنه وكأنما تنتزع النفس انتزاعاً.

وليس الإعجاز في اختراع تلك العبارة فحسب، ولكن ما ترمي إليه إعجاز آخر، فإنها تحقر من شأن فرعون وتصف ضلاله وتسفّه رأيه، إذ طمع أن يبلغ الأسباب، أسباب السماوات فيطلع إلى إله موسى^(١)، وهو لا يجد وسيلة إلى ذلك المستحيل ولو نصب الأرض سُلماً، إلّا شيئاً يصنعه هامان من الطين^(٢).

(١) إشارة إلى الآية: ٣٧ من سورة غافر.

(٢) اقتضاب عاجل من إعجاز القرآن للرافعي: ص ٢٢٨ - ٢٣٤.

٤ - تناسق نظمه وتناسب نغمه

وهو جانب خطير من إعجاز القرآن البياني، لَمَسْتَه العرب منذ أول يومها فَبَهَرَتْهم روعته وَدَهَشَتْهم رَنَّتُه، فأخضعهم للاعتراف في النهاية بأنه كلام يفوق طوع البشر وأنه كلام الله.

إنه جانب «اتساق نظمه وتناسب نغمه» وإيقاعاته الموسيقية الساطية على الأحاسيس، والآخذة بمجامع القلوب. وهذا الجمال التوقيعي للقرآن يبدو جلياً لكل من يستمع إلى آياته تُتلى عليه، حتى ولو كان من غير العرب، فكيف بالعرب أنفسهم. وأول شيء تحسّه الأذان عند سماع القرآن هو ذا نظامه الصوتي البديع، الذي قُسِّمَتْ فيه الحركاتُ والسكونات تقسيماً متنوعاً ومتوزعاً على الألحان الموسيقية الرقيقة، فينوع ويجدد نشاط السامع عند سماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط، يساعد على ترجيع الصوت به، وتهاوى النَّفَس فيه آنأً بعد آن، إلى أن يصل قَمَّتْها في الفاصلة، فيجد عندها راحته الكبرى، على ما فصله أساتذة الترتيل.

وربما استمع الإنسان إلى قصيدة، وهي تتشابه أهواؤها وتتساقق أنغامها، ولكنه لا يلبث أن يملّها، ولا سيما إذا أعيدت عليه وكرّرت بتوقيع واحد. بينما الإنسان من القرآن في لحن متنوع ونغم متجدد، ينتقل فيه بين أسباب وأوتاد

وفواصل^(١). على أوضاع مختلفة، يأخذ منها كل وتر من أوتار القلب نصيبه بسواء، فلا يعرف الإنسان على كثرة ترداده ملال أو سأم، بل لا يفتأ يطلب منه المزيد...

وأحياناً كانت العرب تعتمد إلى ما يقرب من هذا النحو من التنظيم الصوتي في أشعارها لكنها كانت تذهب مذهب الإسراف والاستهواء المملّ في الأغلب، ولا سيما عند التكرير. أما في منشور كلامها، سواء المرسل منه أو المسجوع، فلم تكن عهده فقط ولا كان يتهياها بتلك السهولة والمرونة والعذوبة التي في القرآن الكريم. بل ربما كان يقع لها في أجود منشورها عيوب تغضّ من سلاسة تركيبه، بما لا يمكن معها من إجادة ترتيله، إلّا بتعمل يبدو عليه اثر التكلف والتعسف الامر الذي كان يحطّ من شأن الكلام.

فلا عجب اذاً أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن - في خيال العرب - أنه شعر، واذا لم يكن بشعر فهو سحر. وهذا يكشف عن مدى بهر العرب وحيرتهم تجاه هذا النوع من الكلام المنضد البديع، كان له من النثر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتعته!!

قال الأستاذ دراز: ويجد الإنسان لذة بل وتعتريه نشوة اذا ما طرق سمعه جواهر حروف القرآن، خارجة من مخارجها الشحيحة، من نظم تلك الحروف ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر، وذاك يصفر، وثالث يهمس،

(١) من مصطلحات الأفنان الموسيقية: «الحرف المتحرك اذا تلاه حرف ساكن، يقال له: سبب خفيف. والحرفان المتحركان لا يتلوها ساكن: سبب ثقيل. والمتحركان يتلوها ساكن: وتند مجموع. واذا توسطها ساكن: وتند مفروق. وثلاثة أحرف متحركة: فاصلة صغيرة. وأربعة أحرف متحركة يعقبها ساكن: فاصلة كبيرة» وهكذا... (النبا العظيم: ص ٩٥).

ولعلّ القارئ النبیه يعذرنا في الاختصار على النقل هنا، بعد أن كان موضوع البحث من الفنون

الخارجة عن اختصاصنا!

ورابع يجهر، وآخر ينزلق عليه النَّفَس، وآخر يحتبس عنده النَّفَس. فترى الجمال النغمي ماثلاً بين يديك في مجموعة مختلفة ولكنها مؤتلفة لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة ولا معازلة، ولا تناكر ولا تنافر، وهكذا ترى كلاماً ليس بالبدوي الجافي ولا بالحضري الفاتر. بل هو ممزوج مؤلف من جزالة ذاك ورقة هذا، مزيجاً كأنه عصارة اللغتين وسلالة اللهجتين.

نعم من هذا الثوب القشيب يتألف جمال القرآن اللفظي، وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف، تتضمن لآلي نفيسة، وتحتضن جواهر ثمينة، فإن لم يُلْهَك جمال الغطاء عما تحته من الكنز الدفين، ولم تحجبك بهجة الستار عما وراءه من السر المصون، فَقَلَيْتَ القشرة عن لبها، وكشفت الصدفة عن درها، فنفدت من هذا النظام اللفظي إلى تلك الفخامة المعنوية، تجلّى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيت منه ما هو أبدع وأروع. تلك روح القرآن وحقيقته، وجذوة موسى التي جذبته إلى نار الشجرة في شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة، فهناك نسمة الروح القدسية: «إني أنا الله رب العالمين»^(١).

* * *

وذكر سيد قطب عن الإيقاع الموسيقي في القرآن أنه من إشعاع نظمه الخاص، وتابع لانسجام الحروف في الكلمة، ولانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة، وبذلك قد جمع القرآن بين مزايا النثر وخصائص الشعر معاً، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة، وأخذ في الوقت ذاته من خصائص الشعر الموسيقي الداخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل والتقفية التي تغني عن القوافي، فشأنه شأن النثر والنظم جميعاً.

(١) النبأ العظيم: ص ٩٤ - ٩٩، والآية ٣٠ من سورة القصص.

وحيثما تلا الإنسان القرآن أحسّ بذلك الإيقاع الداخلي في سياقه، يبرز بروزاً واضحاً في السور القصار، والفواصل السريعة، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة، يتوارى قليلاً أو كثيراً في السور الطوال، لكنه على كل حال ملحوظ دائماً في بناء النظم القرآني.

ثم أخذ في ضرب المثال، قال:

وها نحن أولاء نتلو سورة النجم مثلاً.

«والنجم إذا هوى. ماضل صاحبكم وما غوى. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. علمه شديد القوى. ذو مِرَّةٍ فاستوى. وهو بالأفق الأعلى. ثم دنا فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذب للفؤاد ما رأى. أفتمازونه على ما يترى. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سِدْرَةِ المنتهى عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. مازاغ البصر وما طغى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى. أفرأيتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذا قسمة ضيزى»^(١).

هذه فواصل متساوية في الوزن تقريباً - على نظام غير نظام الشعر العربي - متحدة في حرف التقفية تماماً، ذات إيقاع موسيقي متحد تبعاً لهذا وذلك، وتبعاً لأمر آخر لا يظهر ظهور الوزن والقافية، لأنه ينبعث من تآلف الحروف في الكلمات، وتناسق الكلمات في الجمل، ومرده إلى الحس الداخلي والإدراك الموسيقي، الذي يفرق بين إيقاع موسيقي وإيقاع، ولو اتحدت الفواصل والأوزان.

والإيقاع الموسيقي هنا متوسط الزمن تبعاً لتوسط الجملة الموسيقية في الطول، متحد تبعاً لتوحد الأسلوب الموسيقي، مسترسل الروي كجود الحديث الذي يشبه

التسلسل القصصي. وهذا كله ملحوظ. وفي بعض الفواصل يبدو ذلك جلياً مثل: «أفرايتم اللات والعزى. ومناة الثالثة الأخرى». فلو أنك قلت: أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة لاختلت القافية، ولتأثر الإيقاع. ولو قلت: أفرايتم اللات والعزى ومناة الأخرى فالوزن يختل. وكذلك في قوله: «ألكم الذكر وله الأنثى. تلك إذا قسمة ضيزى» فلو قلت: ألكم الذكر وله الأنثى تلك قسمة ضيزى لاختل الإيقاع المستقيم بكلمة «إذا».

ولا يعني هذا أن كلمة «الأخرى» أو كلمة «الثالثة» أو كلمة «إذا» زائدة لمجرد القافية أو الوزن، فهي ضرورية في السياق لنكت معنوية خاصة. وتلك ميزة فنية أخرى أن تأتي اللفظة لتؤدي معنى في السياق، وتؤدي تناسباً في الإيقاع، دون أن يطغى هذا على ذاك، أو يخضع النظم للضرورات.

ملاحظة أتران الإيقاع في الآيات والفواصل تبدو واضحة في كل موضع على نحو ما ذكرنا أو قريباً من هذه الدقة الكبرى. ودليل ذلك أن يعدل في التعبير عن الصورة القياسية للكلمة إلى صورة خاصة، أو أن يُبنى النسق على نحو يختل إذا قدمت أو أخرت فيه أو عدلت في النظم أي تعديل.

مثال الحالة الأولى حكاية قول إبراهيم:

«قال أفرايتم ما كنتم تعبدون. أنتم وآباؤكم الأقدمون. فإنهم عدو لي إلا رب العالمين. الذي خلقني فهو يهدين. والذي هو يطعمني ويسقين. وإذا مرضت فهو يشفين. والذي يُمسيئني ثم يُحسين. والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين»^(١).

فقد خطفت ياء المتكلم في «يهدين ويسقين ويشفين ويحسين» محافظة على حرف القافية مع «تعبدون، والأقدمون، والدين...». ومثله خطف الياء

الأصلية في الكلمة: نحو «والفجر. وليالي عشر. والشفع والوتر. والليل إذا يسر. هل في ذلك قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ»^(١). فياء «يسر» حُذفت قصداً للانسجام مع «الفجر، وعشر، والوتر، وحجر...».

ومثل «يوم يدعو الداع إلى شيء نُكِرَ. خُشِعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ. مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ»^(٢) فإذا أنت لم تخطف الياء في «الداع» أحسست ما يشبه الكسر في وزن الشعر.

ومثله: «ذلك ما كنا نَبِغُ فارتدّا على آثارهما قَصَصاً»^(٣) فلو مددت ياء نبغي - كما هو القياس - لاختلّ الوزن نوعاً من الاختلال.

ومثل هذا يقع عند زيادة هاء السكت على ياء الكلمة أو ياء المتكلم في مثل: «وأما من خَفَّتْ موازينه. فأَمَّهُ هاوية. وما أدراك ما هية. نار حامية»^(٤). ومثل: «فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ. فهو في عيشة راضية...»^(٥).

ومثال الحالة الثانية: ألا يكون هناك عدول عن صيغة قياسية، ومع ذلك تلحظ الموسيقى الكامنة في التركيب، والتي تختلّ لو غيّرت نظامه مثل: «ذكُرُ رحمة ربِّك عبده زكريا. إذ نادى ربّه نداءً خفياً. قال ربّ إني وهنّ العظمُ منّي واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربّ شقياً»^(٦) فلو حاولت مثلاً أن تغيّر فقط وضع كلمة «منّي» فتجعلها سابقة لكلمة «العظم»: قال ربي إني وهن مني العظم. لأحسست بما يشبه الكسر في وزن الشعر؛ ذلك أنها تتوازن مع «إني» في صدر الفقرة هكذا: «قال ربّ إني» «وهنّ العظم مني».

(٤) القارعة: ٨ - ١١.

(٥) الحاقة: ١٩ - ٢١.

(٦) مريم: ٢ - ٤.

(١) الفجر: ١ - ٥.

(٢) القمر: ٦ - ٨.

(٣) الكهف: ٦٤.

على أنّ هناك نوعاً من الموسيقى الداخلية يلحظ ولا يشرح - كما أسلفنا - وهو كامن في نسج اللفظة المفردة وتركيب الجملة الواحدة، وهو يدرك بحاسة خفية وهبة لدية.

وهكذا تبدى تلك الموسيقى الداخلية في بناء التعبير القرآني، موزونة بميزان شديد الحساسية، تميله أخف الحركات والاهتزازات، ولولم يكن شعراً، ولولم يتقيد بقيود الشعر الكثيرة، التي تحد من الحرية الكاملة في التعبير الدقيق عن القصد المطلوب^(١).

* * *

وقال الرافعي: كان العرب يتساجلون الكلام ويتقارضون الشعر، وكان أسلوب الكلام عندهم واحداً: حراً في المنطق وجزلاً في الخطاب، في فصاحة كانت تؤاتهم الفطرة وتمدّهم الطبيعة، فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة، ليس فيها إعنات ولا معاياة. ووجوه تركيبه ونسق حروفه ونظم جملة وعبارته، ما أذهلهم هيبةً وروعة، حتى أحسّوا بضعف الفطرة وتخلّف الملكة. ورأى بلغاؤهم جنساً من الكلام غير ما هم فيه، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جملة، ألحاناً نغمية رائعة، كأنها لا تلتافها وتناسقها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها، فلم يفهم هذا المعنى وكان أبين لعجزهم.

وكل الذين يدركون أسرار الموسيقى وفلسفتها النفسية يرون أن ليس في الفن العربي بجمليته شيء يعدل هذا التناسب الطبيعي في ألفاظ القرآن وأصوات حروفه. وما أحد يستطيع أن يغتمز في ذلك حرفاً واحداً. والقرآن يعلو على الموسيقى إنّه مع هذه الخاصة العجيبة ليس من الموسيقى. إنّ مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي في الأنغام الموسيقية، بسبب

تنوع الصوت مدّاً وغمّة وليناً وشدة وما يتهيأ له من حركات مختلفة، وبمقدار ما يكسبه من الحدة والارتفاع والاهتزاز مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى. فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن، لرأينا أنه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها، في هزّ الشعور واستثارة الوجد النفسي. ومن هذه الجهة تراه يغلب على طبع كل عربيّ أو عجميّ. وبذلك يؤوّل ماورد من الحثّ على تحسين الصوت عند قراءة القرآن.

وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلّا صوراً تامّة للأبعاد التي تنتهي بها جلّ الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرارات الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت، والوجه الذي يساق عليه، بما ليس وراءه من العجب مذهب. وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها. أو المدّ، وهو كذلك طبيعيّ في القرآن^(١).

وقال بعض أهل الفنّ: كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المدّ واللين وإلحاق النون، وحكمة وجودها التمكن من التطريب بذلك، كما قال سيبويه: إنهم - أي العرب - إذا ترنّموا يلحقون الألف والياء والنون، لأنهم أرادوا مدّ الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنّموا. وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع.

فإن لم تنته بواحدة من هذه - كأن انتهت بسكون حرف - كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه. وأكثر ما يكون في الجمل القصار، ولا يكون إلّا بحرف قويّ يستتبع القلقلّة أو الصغير أو نحوهما ممّا هو موصوف بضروب أخرى من النظم الموسيقي.

(١) إعجاز القرآن: ص ١٨٨ و ٢١٦.

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها طبعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس، سواء كانت تفهمه أو لا تفهمه.

فقد تألفت كلماته من حروف، لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو أقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللاً بيناً، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وفي جرس النغمة، وفي حسّ السمع وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج، وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض. ولرأيت لذلك هجنة في السمع.

قالوا: إن مرة هذا الإعجاز في القرآن بالدرجة الأولى هو ما يستثيره في القلب من إحساس غامض لمجرد أن تصطقت الحروف في السمع بهذا النمط الفريد، ذلك العزف بلا آلات وبلا قوافٍ وبلا محاور وبلا أوزان. حينما نصغي إلى ما يقوله زكريّا لربه - فيما اقتص من القرآن -: «ربّ إني وهنّ العظم منّي واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك ربّ شقيّاً»^(١).

أو نستمع إلى كلام المسيح في المهد صبيّاً: «إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً. وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً»^(٢).

أو تلك الجملة الموسيقية التي تتحدث عن خشوع الرسل: «إذا تلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجّداً وبكياً»^(٣).
أو تلك النغمة الرهيبة التي تصف اللقاء بالله يوم القيامة:

(١) مريم: ٤.

(٢) مريم: ٣٠ و ٣١.

(٣) مريم: ٥٨.

«وَعَتَّتِ الوجوهَ للحيِّ القيومِ وقد خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلماً»^(١).
 أو ذلك الإيقاع الرحماني الذي يخاطب الله به نبيه محمداً (صلى الله عليه وآله) في موسيقى عذبة تملك شغاف القلب:
 «طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلّا تذكرةً لمن يخشى. تنزيلاً ممّن خلق الأرض والسموات العُلى. الرحمنُ على العرش استوى. له ما في السموات وما في الأرض وما بينها وما تحت الثرى. وإن تجهر بالقول فإنه يعلمُ السرّ وأخفى. الله لا إله إلّا هو له الأسماء الحسنی»^(٢).
 أمّا إذا تحوّل القرآن إلى الحديث عن المجرمين وما أنزل بهم من عذاب. تحوّلت الموسيقى إلى أصوات نحاسية تصكّ الأذن وتحوّلت الكلمة إلى جلاميد صخر وكأنها رُجُم:
 «إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحسٍ مستمر. تنزعُ الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر»^(٣).
 فإذا سبّحت الملائكة طالبة من الله المغفرة للمؤمنين سالت الكلمات كأنها سبائك ذهب:
 «رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ»^(٤).
 فإذا جاء الإنذار بالساعة فإنّ الهول والشؤم يطلّ من الكلمات المتوتّرة والعبارات المشدودة:
 «وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب إذ الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاعُ»^(٥).
 ثم العتاب، وأيّ عتاب حينما لا ينفع العتاب:

(١) طه: ١١١.

(٤) غافر: ٧.

(٢) طه: ١-٨.

(٥) غافر: ١٨.

(٣) القمر: ١٩ و ٢٠.

«يا أيها الإنسان ما غرّك برّتك الكريم. الذي خلقك فسوّاك فعدّلك. في أي صورة ما شاء ركبك»^(١).

والبشرى، حينما تبشّر الملائكة مريم بميلاد المسيح:
«يا مريم إنّ الله ييسّرك بكلمةٍ منه اسمهُ المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين»^(٢).

ثمّ ذلك الصراخ في الأذن بتلك الكلمة العجيبة التي تشبه السكين:
«فاذا جاءت الصاخة. يوم يفرّ المرء من أخيه. وأمّه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرئٍ منهم يومئذٍ شأن يغنيه»^(٣).

وبعد، فهذا التشكيل والسبك والتلوين في الحروف والعبارات في معمار القرآن هونسيج وحده، بلا شبيه - من قبل أو من بعد - كل ذلك يتمّ في يسر شديد، لا يبدو فيه أثر اعتمال وافتعال واعتساف، وانما تسيل الكلمات في بساطة شديدة لتدخل القلب فتثير ذلك الإحساس الغامض بالخشوع، من قبل أن يتيقظ العقل فيحلّل ويفكّر ويتأمل، مجرد قرع الكلمة للأذن وملاستها للقلب، تثير ذلك الشيء الذي لانجد له تفسيراً.

هذه الصفة في العبارة القرآنية إلى جانب كل الصفات الأخرى مجتمعة، هي التي تجعل من القرآن ظاهرة لا تفسير لها فيما نعرف من مصادر الكلام المؤلف^(٤).

الموسيقى الباطنة للقرآن:

هناك الفرق كبير بين «الموسيقى الظاهرة» المنتشية من تقفية اللفظ

(١) الانفطار: ٦ - ٨.

(٢) آل عمران: ٤٥.

(٣) عبس: ٣٣ - ٣٧.

(٤) محاولة لفهم عصري للقرآن: ص ٢٤٥ - ٢٤٧.

وتسجيعة، ومن تشطير الكلام على أشطار متساوية، وأوزان وبحور مصطنعة. كلُّها قشور وقوالب لفظية مجردة، و(الموسيقى الباطنة) التي يبعثها جلالُ التعبير وأبهة البيان، الفائضة من صميم الكلام ومن سرِّ خلده.

إنه جمالُ اللفظ ملتثماً مع فخامة المعنى، فتآلفا فكانت وليدتهما تلك النغمة التي تهزّ المشاعر، وتلك النسمة التي تُثير الأحاسيس. ومن ثمَّ فإنها تؤثر إلى الأعماق.

وللأستاذ مصطفى محمود محاولة في بيان هذا السرِّ العجيب للمعمار القرآني، الجديد في سبكه، الفريد في أسلوبه... قائلاً:

«وهذا سرٌّ من أعمق الأسرار في التركيب القرآني، إنه ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالكلام المسجوع، وإنما هو معمار خاص من الألفاظ صُفِّت بطريقة تكشف عن الموسيقى الباطنة فيها.

وفرق كبير بين الموسيقى الباطنة والموسيقى الظاهرة. وكمثل نأخذ بيتاً لشاعر مثل عمر بن أبي ربيعة اشتهر بالموسيقى في شعره، البيت الذي ينشد فيه:

قال لي صاحبي ليعلم ما بي أتحبُّ القتل أخت الرباب
أنت تسمع وتطرب وتهتزّ على الموسيقى، ولكن الموسيقى هنا خارجية صنعها الشاعر بتشطير الكلام في أشطار متساوية ثم تقفيل كل عبارة تقفيلاً واحداً على الباء الممدودة.

الموسيقى تصل إلى اذنك من خارج العبارة وليس من داخلها. من التقفيلات (القافية) ومن البحر والوزن. أما حينما تتلو: «وَالضُّحَى. وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى»^(١) فأنت أمام شطرة واحدة، وهي بالتالي تخلو من التقفية والوزن

والتشطير، ومع ذلك فالموسيقى تقطر من كل حرف فيها، من أين؟ وكيف؟
هذه هي الموسيقى الداخلية.

الموسيقى الباطنة سرٌّ من أسرار المعمار القرآني لا يشاركه فيه أي تركيب أدبي. وكذلك حينما تقول: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»^(١).

وحينما تتلو كلمات زكريا لربه: «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيئاً»^(٢).

أو كلمة الله لموسى: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى»^(٣).

أو كلمته تعالى وهو يتوعد المجرمين: «إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرَماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى»^(٤).

كل عبارة بنيان موسيقيّ قائم بذاته تنبع فيه الموسيقى من داخل الكلمات ومن ورائها ومن بينها بطريقة محيرة لا تدري كيف تتم.

وحينما يروي القرآن حكاية موسى بذلك الأسلوب السيمفوني المذهل: «وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى. فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشِيَهُمْ. وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى»^(٥).

كلمات في غاية الرقة مثل «يَبَساً» أو لا تخاف «دركاً» بمعنى لا تخاف إدراكاً.

إن الكلمات لتذوب في يد خالقها وتصطفت وتتراص في معمار ورصف موسيقيّ فريد هونسيج وحده بين كل ما كتب بالعربية سابقاً ولاحقاً.

(١) طه: ٥.

(٢) مريم: ٤.

(٣) طه: ١٥.

(٤) طه: ٧٤.

(٥) طه: ٧٧ - ٧٩.

لا شبه بينه وبين الشعر الجاهلي، ولا بينه وبين الشعر والنثر المتأخر، ولا محاولة واحدة للتقليد حفظها لنا التاريخ برغم كثرة الأعداء الذين أرادوا الكيد للقرآن.

في كل هذا الزحام تبرز العبارة القرآنية منفردة بخصائصها تماماً، وكأنها ظاهرة بلا تبرير ولا تفسير سوى أن لها مصدراً آخر غير مانعرف.

اسمع هذا الإيقاع المنعم الجميل:

«رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ»^(١).

«فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ»^(٢).

«فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا»^(٣).

«يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ»^(٤).

«لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ»^(٥).

«وَسِعَ رِثْنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا»^(٦).

ثم هذه العبارة الجديدة في تكوينها وصياغتها، العميقة في معناها ودلالاتها على العجز عن إدراك كنه الخالق:

«عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ»^(٧).

«يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ»^(٨).

(٥) الانعام: ١٠٣.

(٦) الاعراف: ٨٩.

(٧) الرعد: ٩.

(٨) الرعد: ١٣.

(١) غافر: ١٥.

(٢) الانعام: ٩٥.

(٣) الانعام: ٩٦.

(٤) غافر: ١٩.

ثم هذا الاستطراد في وصف القدرة الإلهية:
 «وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ
 مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي
 كِتَابٍ مُبِينٍ»^(١).

ولكن الموسيقى الباطنية ليست هي كل ما انفردت به العبارة القرآنية،
 وإنما مع الموسيقى صفة أخرى هي الجلال.

وفي العبارة البسيطة المقتضبة التي روى بها الله نهاية قصة الطوفان تستطيع
 أن تلمس ذلك الشيء الهائل، الجليل في الألفاظ: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي
 مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيَضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ»^(٢).

تلك اللمسات الهائلة، كل لفظ له ثقل الجبال ووقع الرعود تنزل، فإذا
 كل شيء: صمت، سكون، هدوء، وقد كفت الطبيعة عن الغضب، ووصلت
 القصة إلى ختامها:

«وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيَضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ».
 إنك لتشعر بشيء غير بشري تماماً في هذه الألفاظ الهائلة الجليلة، المنحوتة
 من صخر صوان، وكأن كل حرف فيها جبل الألب.

لا يمكنك أن تغيّر حرفاً، أو تستبدل كلمة بأخرى، أو تؤلف جملة مكان
 جملة، تعطي نفس الإيقاع والنغم والحركة والثقل والدلالة. وحاول وجرب
 لنفسك في هذه العبارة البسيطة ذات الكلمات العشر أن تغيّر حرفاً أو تستبدل
 كلمة بكلمة.

ولهذا وقعت العبارة القرآنية على آذان عرب الجاهلية الذين عشقوا

(١) الانعام: ٥٩.

(٢) هود: ٤٤.

الفصاحة والبلاغة وقع الصاعقة.

ولم يكن مستغرياً من جاهليٍّ مثل الوليد بن المغيرة عاش ومات على كفره أن يذهل. وأن لا يستطيع أن يكتّم إعجابه بالقرآن، برغم كفره فيقول - وقد اعتبره من كلام محمد -:

والله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه.

ولمّا طلبوا منه أن يسبّه قال:

قولوا ساحر، جاء بقول يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

إنه السحر حتى على لسان العدو الذي يبحث عن كلمة يسبّه بها.

وإذا كانت العبارة القرآنية لا تقع على آذاننا اليوم موقع السحر والعجب والذهول فالسبب هو التعود والألفة والمعايشة منذ الطفولة والبلادة والإغراق في عامية مبتذلة أبعدتنا عن أصول لغتنا. ثم أسلوب الأداء الرتيب المملّ الذي نسمعه من مرتلين محترفين يكررون السورة من أولها إلى آخرها بنبرة واحدة لا يختلف فيها موقف الحزن من موقف الفرح، من موقف الوعيد، من موقف البشري، من موقف العبرة. نبرة واحدة رتيبة تموت فيها المعاني وتتسطح العبارات. وبالمثل بعض المشايخ ممن يقرأ القرآن على سبيل اللعلة دون أن ينبض شيء في قلبه. ثم المناسبات الكثيرة التي يقرأ القرآن فيها روتينياً. ثم الحياة العصرية التي تعددت فيها المشاغل وتوزّع الانتباه وتحجّر القلب وتعقدت النفوس وصدأت الأرواح.

وبرغم هذا كله فإنّ لحظة صفاء ينزع الواحد فيها نفسه من هذه البيئة اللزجة ويرتدّ فيها طفلاً بكرة وترتدّ له نفسه على شفافيتها كفيلة بأن تعيد إليه ذلك الطعم الفريد والنكهة المذهلة والإيقاع المطرب الجميل في القرآن. وكفيلة

بأن توقفه مذهولاً من جديد بعد قرابة ألف وأربعمائة سنة من نزول هذه الآيات وكأنها تنزل عليه لساعتها وتوها.

اسمع القرآن يصف العلاقة الجنسية بين رجل وامرأة بأسلوب رفيع وبكلمة رقيقة مهذبة فريدة، لا تجد لها مثيلاً ولا بديلاً في أية لغة: «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً»^(١).

هذه الكلمة «تغشاه» تغشاه رجلها.

أن يمتزج الذكر والأنثى كما يمتزج ظلان وكما يغشى الليل النهار وكما تذوب الألوان بعضها في بعض، هذا اللفظ العجيب الذي يعبر به القرآن عن التداخل الكامل بين اثنين هو ذروة في التعبير.

وألفاظ أخرى تقرأها في القرآن فترك في السمع رنيناً وأصداءً وصوراً حينما يقسم الله بالليل والنهار فيقول: «وَاللَّيْلُ إِذَا عَسْعَسَ. وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ»^(٢).

«عسعس» هذه الحروف الأربعة هي الليل مصوراً بكل ما فيه. «والصبح إذا تنفس» إن ضوء الفجر هنا مرثي ومسموع. إنك تكاد تسمع زقزقة العصفور وصيحة الديك.

فإذا كانت الآيات نذير الغضب وإعلان العقاب فإنك تسمع الألفاظ تتفجر، وترى المعمار القرآني كله له جلجلة.

اسمع ما يقول الله عن قوم عاد: «وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا فَهُمْ يَرْجِعُ صَرْصِرَ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَانَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ»^(٣).

(١) الأعراف: ١٨٩.

(٢) التكوين: ١٧ و ١٨.

(٣) الحاقة: ٦ و ٧.

إِنَّ الآيَات كُلَّهَا تصر فيها الرياح وتسمع فيها اصطفاق الخيام وأعجاز النخل الخاوي وصورة الأرض الخراب.

والصور القرآنية كلها تجدها مرسومة بهذه اللمسات السريعة والظلال المحكمة والألفاظ التي لها جرس وصوت وصورة.

ولهذه الأسباب مجتمعة كان القرآن كتاباً لا يترجم.

إنه قرآن في لغته. أما في اللغات الأخرى فهو شيء آخر غير القرآن: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا»^(١) وفي هذا تحديد فاصل.

وكيف يمكن أن تترجم آية مثل: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»^(٢).

إننا لسنا أمام معنى فقط، وإنما نحن بالدرجة الأولى أمام معمار، أمام تكوين وبناء تنبع فيه الموسيقى من داخل الكلمات، من قلبها لا من حواشها، من خصائص اللغة العربية وأسرارها وظلالها وخوافيها. ولهذا انفردت الآية القرآنية بخاصية عجيبة.

إنها تحدث الخشوع في النفس بمجرد أن تلامس الأذن وقبل أن يتأمل العقل معانيها، لأنها تركيب موسيقي يؤثر في الوجدان والقلب لتوه ومن قبل أن يبدأ العقل في العمل.

فإذا بدأ العقل يحلل ويتأمل فإنه سوف يكتشف أشياء جديدة، وسوف يزداد خشوعاً. ولكنها مرحلة ثانية، قد تحدث وقد لا تحدث، وقد تكشف لك الآية عن سرها وقد لا تكشفه، وقد تُؤتي البصيرة التي تفسر بها معاني القرآن وقد لا تُؤتي هذه البصيرة. ولكنك دائماً خاشع لأن القرآن يخاطبك أولاً كمعمار فريد من الكلام، بنيان، فورم. طراز من الرصف يبهز القلب، ألقاه عليك

(١) يوسف: ٢.

(٢) طه: ٥.

الذي خلق اللغة ويعرف سرّها، وليس أبداً محمّد النبيّ الأُمّي، الذي كان يرتجف - كما ترتجف أنت - والوحي يلقى عليه بالآية: «اقرأ باسم ربّك الَّذي خَلَق»^(١) فيرتجف ويتصبّب عرقاً ولا يعرف من أيّ سماءات يلمّ به هذا الصوت الأمر، وهو يلوذ بزوجه خديجة وهو ما يزال يرتجف فرقاً لما سمع.

وينقطع عنه الوحي سنتين بعد هذه الكلمات القليلة الأولى، ويتركه في حيرة. يذرع دروب الصحراء الملتهبة يكاد يحنّ من أمر هذا الصوت الذي نزل عليه ثم انقطع عنه.

ولو كان محمّد مؤلفاً لآلّف في هاتين السنتين كتاباً كاملاً. ولكنه لم يكن أكثر من مستمع أمين، سمع - كما تسمع أنت - تلك الكلمات ذات الموسيقى العلوية في لحظة صفاء وجلاء، فذهل - كما تذهل - وصعقت حواسّه أمام هذا التركيب الفريد المضيء. وبعد سنتين من الصمت عاد الصوت ليهتف في أذنه: «يا أيّها المدّثر. قُمْ فَأَنْذِر»^(٢)

ثم بدأت آيات القرآن تنزل متوالية^(٣).

(١) العلق: ١.

(٢) المدّثر: ١ و ٢.

(٣) محاولة لفهم عصري للقرآن ص ١٣ - ١٩.

التغني بالقرآن

«ورتل القرآن ترتيلاً»:

وإذ قد عرفت الموسيقى الباطنة للقرآن، وصياغته المنتظمة على أنغام صوتية وألحان شعرية ساحرة، فاعلم أنه قد ورد في دستور تلاوته الترغيب في تحسين الصوت ومده وترقيقه، والترجيع بقراءته ومراعاة أنغامه وألحانه، وفيما يلي قائمة نموذجية من روايات وردت بهذا الشأن:

* * *

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «لكل شيء حلية، وحلية القرآن الصوت الحسن».

وقال: «إن من أجمل الجمال الشعر الحسن، ونغمة الصوت الحسن».

وقال: «اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها، وإياكم ولحن أهل الفسوق والكبائر»^(١).

وقال: «إن حسن الصوت زينة للقرآن».

وقال: «حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً».

وقال: «زينوا القرآن بأصواتكم».

وقال الصادق (عليه السلام) في تفسير الآية: «هو أن تتمكث فيه، وتحسن

(١) الكافي الشريف: ج ٢ ص ٦١٤ - ٦١٦ رقم ٩ و ٨ و ٣.

به صوتك»^(١).

وقال أبو جعفر الباقر (عليه السلام): «ورجع بالقرآن صوتك فإن الله (عز وجل) يحب الصوت الحسن يُرجع فيه ترجيعاً»^(٢).

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «إن القرآن نزل بالحزن فاذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتابكوا. وتغنوا به، فمن لم يتغن بالقرآن فليس متناً». وقال: «ليس متناً من لم يتغن بالقرآن»^(٣).

وقال الصادق (عليه السلام): «إن القرآن نزل بالحزن فاقروا بالحزن»^(٤). قال الصدوق (رحمه الله): معنى التغني بالقرآن هو الاستغناء به لما روي أن قراءة القرآن غنى لا فقر بعده^(٥).

لكن الاعتبار بالقرائن الحاققة بالكلام دون غيرها، وهذا كلام صادر عقيب القول بأن القرآن نزل بالحزن، فكانت نتيجة مترتبة عليه... فالتناسب بين الصدر والذيل هو الملحوظ في الكلام الواحد المتصل ببعضه ببعض. ويؤكد هذا المعنى - الذي ذكرنا - ما ذكره الثقات بشأن صدور هذا الدستور من النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله).

قال ابن الأعرابي^(٦): كانت العرب تتغنى بالركباني^(٧) إذا ركبت وإذا

(١) بحار الأنوار: ج ٨٩ كتاب القرآن رقم ٢١ ص ١٩٠ - ١٩٥.

(٢) الكافي الشريف: ج ٢ ص ٦١٦ رقم ١٣.

(٣) بحار الأنوار: ج ٨٩ ص ١٩١.

(٤) الكافي الشريف: ج ٢ ص ٦١٤ رقم ٢.

(٥) معاني القرآن: ص ٢٦٤، طبع النجف الأشرف.

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن زياد الكوفي، مولى بني هاشم، أحد العالمين باللغة والمشهورين بمعرفتها: كان يحضر مجلسه خلق كثير، وكان رأساً في الكلام الغريب، وربما كان متقدماً على أبي عبيدة والأصمعي في ذلك. ولد في رجب سنة ١٥٠ وتوفي في شعبان سنة ٢٣١. (الكنى والألقاب للقمي: ج ١ ص ٢١٥).

(٧) هو نشيد بالمد والتعطيط.

جلست في الأفنية وعلى أكثر أحوالها. فلما نزل القرآن أحب النبي (صلى الله عليه وآله) أن تكون هجيراهم^(١) بالقرآن مكان التغني بالركباني^(٢).

قال الزمخشري: كانت هجيري العرب التغني بالركباني - وهو نشيد بالمد والتمطيط - إذا ركبوا الإبل وإذا انبطحوا على الأرض، وإذا قعدوا في أفنياتهم. وفي عامة أحوالهم. فأحب الرسول إن تكون قراءة القرآن هجيراهم. فقال ذلك ... يعني: ليس متا من لم يضع القرآن موضع الركباني في اللهج به والطرب عليه...^(٣).

قال الفيروزآبادي: غناه الشعر وغنى به تغنية: تغنى به.

قال الشاعر:

تَغَنَّ بِالشَّعْرِ إِمَّا كُنْتُ قَائِلَهُ إِنَّ الْغِنَاءَ بِهَذَا الشَّعْرِ مَضْمَارٌ^(٤)

قال الزبيدي: وعليه حُيِّلَ قوله (صلى الله عليه وآله): ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن يجهربه.

قال الأزهري: أخبرني عبد الملك البغوي عن الربيع عن الشافعي: أن معناه «تخزين القراءة وترقيقها»^(٥). ويشهد له الحديث الآخر: زينوا القرآن بأصواتكم.

قال: وبه قال أبو عبيد^(٦).

(١) الهجيرة: زمزمة الغناء ورتته.

(٢) نهاية ابن الأثير: ج ٣ ص ٣٩١.

(٣) الفائق: ج ٢ ص ٣٦ في (رث).

(٤) قال ابن منظور: أراد أن التغنى... فوضع الاسم موضع المصدر.

(٥) في اللسان: ج ١٥ ص ١٣٦: «تحسين القراءة وترقيقها».

(٦) تاج العروس في شرح القاموس: ج ١٠ ص ٢٧٢.

وهكذا دأب الائمة من أهل البيت (عليهم السّلام) على ترتيل القرآن ورفع الصوت به وتجويده حيث أحسن الأصوات.

روى محمد بن علي بن محبوب الأشعري في كتابه بالإسناد إلى معاوية بن عمّار، قال: قلت لأبي عبدالله (عليه السّلام): الرجل لا يرى أنه صنع شيئاً في الدعاء وفي القراءة حتى يرفع صوته؟ فقال: لا بأس، إنّ علي بن الحسين (عليه السّلام) كان أحسن الناس صوتاً بالقرآن، فكان يرفع صوته حتى يسمعه أهل الدار. وإنّ أبا جعفر (عليه السّلام) كان أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وكان اذا قام من الليل وقرأ رفع به صوته، فيمرّبه مارّ الطريق من السقّاتين وغيرهم، فيقومون فيستمعون إلى قراءته^(١).

وروي أنّ موسى بن جعفر (عليه السّلام) كان حسن الصوت حسن القراءة، وقال يوماً من الأيام: إنّ علي بن الحسين (عليه السّلام) كان يقرأ القرآن، فربّما مرّبه المارّ فصعق من حسن صوته. وإنّ الإمام لو أظهر في ذلك شيئاً لما احتمله الناس. قيل له: ألم يكن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يصلي بالناس ويرفع صوته بالقرآن؟ فقال: إنّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان يُحمّل من خلفه ما يطيقون^(٢).

كما ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عن آبائه عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال: حسّنوا القرآن بأصواتكم. فإنّ الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً. وقرأ: «يزيد في الخلق ما يشاء»^(٣).

* * *

(١) مستطرفات السرائر: ص ٤٨٤.

(٢) كتاب الاحتجاج: ج ٢ ص ١٧٠.

(٣) عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ٦٨ رقم ٢٢٢. والآية ١ من سورة فاطر.

(ملحوظة) ومما يجدر التنبيه له أن لترجييع الصوت مدخلاً في وصف الصوت بالحسن، وأن الصوت لا يكون حسناً إلا إذا تُرْجِع فيه، فيتحد حينذاك بين الأهمر بالتغني بالقرآن، وبين الأمر بقراءته بالصوت الحسن، أو قولهم (عليهم السلام): حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً... وامثاله من تعابير...

وهذا مما حققه علامة القرن الثاني عشر السيد ماجد الحسيني البحراني في رسالة أفرد بها هذا الشأن، وسننشرها في نهاية المقال، نشرأ لفضيلتي العلم والفن اللذين امتزجا مزجاً في هذه الرسالة القيّمة، فانتظر.

الغناء من الوجهة الشرعية

ويجدر بنا (الآن) البحث عن مسألة الغناء من الوجهة الشرعية. هل هو محرم ذاتاً وبعنوانه الأولي ليكون استثناء مثل التغني بالقرآن تخصيصاً في عموم الحكم؟ أم ليس الحرام سوى ما تلبس بعنوان محرم إذا كان لغواً وباطلاً أو قول زور (إشاعة فحشاء) أو من هو الحديث المضلّ عن سبيل الله؟ ورد في كثير من النصوص تفسير «قول الزور» - في الآية الكريمة^(١) - بالغناء.

ففي حديث زيد الشحام قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قوله عز وجل: «واجتنبوا قول الزور»؟ قال: قول الزور الغناء. وغيره من روايات^(٢).

والمقصود: هو تطبيق «قول الزور» الذي ورد الأمر باجتنابه في الآية

(١) الحج: ٣٠.

(٢) الوسائل: ج ١٢ ص ٢٢٥ رقم ٢ و ٩ و ٢٠ و ٢٦.

الكرهية على الغناء، وأنه أحد مصاديقه، لأنّ الزور- في اللغة- بمعنى الميل والعدول^(١) فكلّ عامل للانحراف وموجب للانصراف عن الجِدّ في الحياة، وكان ذريعة لإشاعة الفحشاء في الذين آمنوا، سواء أكان بسبب محتواه المُغري أو ملابساته المُغرية، فإنه حينذاك يدخل تحت عنوان «هو الحديث» و«اللفو» و«الباطل» وأخيراً «قول الزور»، ويصبح مصداقاً له بلارِب. أمّا إرادة كونه متّحداً معه مفهوماً- لغةً أو تعبّداً- فهذا شيء غريب عن ظاهر التعبير، ومخالف للواقع قطعاً، إذ لا اصطلاح للشرع بذلك ولا هو موافق للوضع.

* * *

يُنْبِؤُكَ بذلك تفسيرُ «الرجس من الأوثان» الوارد في الآية أيضاً بالشرنج. في حديث عبدالأعلى، قال: سألت جعفر بن محمد (عليه السّلام) عن قول الله عزّوجلّ «فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور»؟ قال: «الرجس من الأوثان» الشرنج، و«قول الزور» الغناء... قال: قلت: قول الله عزّوجلّ: «ومن الناس من يشتري هو الحديث»^(٢)؟ قال: منه الغناء^(٣). وهذا أوضح شاهد على إرادة المصداق دون الاتحاد في المفهوم. ونظيره أيضاً ما في حديث حمّاد قال: سألت الصادق (عليه السّلام) عن «قول الزور»؟ قال: منه قول الرجل للذي يُغني: أحسنت^(٤).

(١) قال ابن فارس: الزاي والواو والراء أصل واحد يدلّ على الميل والعدول. (معجم مقاييس اللغة: ج ٣ ص ٣٦).

(٢) لقمان: ٦.

(٣) الوسائل: ج ١٢ ص ٢٢٩ رقم ٢٠.

(٤) الوسائل: ج ١٢ ص ٢٢٩ رقم ٢١.

لا شك أنّ الذي يُغْتَنَى بغناء فاسد، إذا قلت له: أحسنت، فقد أغريته وأوجبت إصراره على ارتكاب الفحشاء وبيّث الفساد في الأرض. كل ذلك دليل على أنّ الغناء إنّما يحرم إذا صدقت عليه العناوين الباطلة من اللهو المُغري واللغو المُفسد وقول الزور. أمّا إذا لم يكن من ذلك - كما إذا كان وسيلة للتأثير بالمواعظ الحسنة وزرع الفضيلة والمكرّمات في النفوس المستعّة - فهذا إلى الحقّ أقرب منه إلى الباطل. وكونه داعية إلى الصلاح والرشاد أولى من كونه سبيلاً إلى الفساد.

* * *

وفي الأحاديث الصحيحة ما يدلّ على هذا التنويع في الغناء، إلى حرام وحلال، فساد وصلاح، سبيل شرّ وسبيل خير. سأل عليّ بن جعفر أخاه موسى (عليه السّلام) عن الغناء، هل يصلح في الفطر والأضحى والفرح؟ قال: لا بأس به ما لم يُعَصَّ به^(١). وقال رسول الله (صلّى الله عليه وآله): مَنْ تَغَنَّى بغناء حرام يبعث فيه على المعاصي فقد تعاطى باباً من الشرّ^(٢). فهناك غناء لا يُعصى به، ولا يبعث على المعاصي، فهو ليس بحرام ولا تعاطياً للشرور.

والنظر في أكثرية روايات الباب إنّما كان إلى مجالس الغناء المعهودة ذلك اليوم، كانت مجالس هو وفحشاء، يُرتكب فيها المحرّمات على أنحائها المُغرية إلى الفساد.

ولذلك لمّا سأل أبو بصير الامام الصادق (عليه السّلام) عن أجر المغنّية

(١) الوسائل: ج ١٢ ص ٨٥ رقم ٥.

(٢) بحار الأنوار: ج ٧٦ ص ٢٦٢ رقم ٨.

الذي تتقاضاه إزاء ما تُغْتَى في زَفِّ العرائس، قال: ليس به بأس. واشترط أن لا تكون ممّا يدخل عليها الرجال^(١).

وإذا كان الأجر على الغناء حلالاً فهو حلال، بشرط أن لا يقترن بحرام. بأن تستغنى في مجالس يختلط فيها الرجال الأجانب مع النساء، فإنه من المعاونة على الإثم والفحشاء.

وإلى ذلك ينظر قوله (عليه السلام) -لَمَّا سئل عن الغناء-: لا تدخلوا بيوتاً الله مُعرّض عن أهلها^(٢).

وقوله: الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله، وهو ممّا قال الله عزّ وجلّ: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليُضِلَّ عن سبيل الله»^(٣).

وقوله: الغناء يُورث النفاق ويُعقّب الفقر^(٤) أو: الغناء عُشُّ النفاق^(٥). أو: الغناء رُقية الزنا^(٦) أي السُّلَم إليه. ومعلوم أنه الغناء المعهود آنذاك.

ولا يخفى أن الحكم الشرعي إذا تعنون -في لسان الشريعة- بعنوان خاص فإنه يتقيّد به لا محالة، ولا يكون على إطلاقه. ذلك لأنّ تعليق الحكم على وصف مشعرٌ بعلّيته، وعليه فلا يكون الغناء بوصفه الأوّلي محرّماً إلّا إذا تعنون بهذه العناوين: إذا كان لهويّاً أو عاملاً انحرافياً أو باعشاً على المعاصي من النفاق والكذب والزنا والفحشاء وما شابه... فليس محرّماً على إطلاقه، هذا ما تقتضيه قواعد علم الأصول.

(١) الوسائل: ج ١٢ ص ٨٥ رقم ١ و٣.

(٢) الوسائل: ج ١٢ ص ٢٢٧ رقم ١٢.

(٣) المصدر: ص ٢٢٨ رقم ١٦. والآية ٦ من سورة لقمان.

(٤) المصدر: ص ٢٣٠ رقم ٢٣.

(٥) المصدر: ص ٢٢٧ رقم ١٠.

(٦) مستدرک الوسائل: ج ٢ ص ٤٥٧ رقم ١٤.

وفي حديث ابن أبي عباد - وكان مستهتراً بالسماع ويشرب النبيذ - سأل الامام الرضا (عليه السّلام) عن السماع؟ فجعله الامام (عليه السّلام) في حيز الباطل واللهو... ثم تلا قوله تعالى: «وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغَوِ مَرَّوْا كِرَامًا»^(١). لاشكّ أنّ الجواب ناظر إلى ما كان ابن أبي عباد مستهتراً به.

وهكذا في سؤال هشام بن إبراهيم العباسي - وكان من رجال الدولة المستهترين بالسماع والملاهي - عن الغناء: فقال الامام: إنّ رجلاً أتى أبا جعفر (عليه السّلام) فسأله عن الغناء، فقال: يا فلان إذا ميز الله بين الحقّ والباطل فاين يكون الغناء؟ قال: مع الباطل. فقال: قد حكمت^(٢).
فالقرائن المقامية تدلّنا على إرادة الغناء المعهود ذلك الوقت.

* * *

وأما حديث الحسن بن هارون^(٣) - كان يطيل الجلوس في بيت الخلاء ليستمتع إلى غناء المغنّيات في جيرانه - فالحرمة فيه بيّنة، إنها بسبب استماع أصوات الأجنيات. ولاسيّما تلکم الأصوات الرقيقة المهیّجة لضمائر النفوس. وقد قال تعالى: «ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض»^(٤).
ومن ثمّ نهى الامام (عليه السّلام) ووبّخه على صنيعه هذا الذي يُشبه الخيانة في أعراض الناس، مُذَكِّراً له قوله تعالى: «إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً»^(٥). قال (عليه السّلام) - مُعَقِّباً على ذلك -: السمع وما وعى، والبصر وما رآى، والفؤاد وما عقد عليه.

(١) الوسائل: ج ١٢ ص ٢٢٩ رقم ١٩، والآية ٧٢ من سورة الفرقان.

(٢) المصدر: ص ٢٢٧ رقم ١٣، والبحار: ج ٧٦ ص ٢٤٣ رقم ١٤.

(٣) المصدر: ص ٢٣١ رقم ٢٩.

(٤) الأحزاب: ٣٢.

(٥) الإسراء: ٣٦.

وأما الروايات التي جاء فيها التصريح بآلات موسيقية، وكانت دارجة ذلك العهد، فجُلِّها أو كَلَّها ضعاف الأسانيد ومجاهيل لاحجية فيها إطلاقاً.

إلفات نظر:

نُلفت النظر إلى البرهان القائل بأنّ القضايا المعللة بتعاليل عقلية أو فطرية لا تقبل أيّ استثناء مادامت العلّة سارية. وإنما هي من القضايا الآبية من التخصيص، نظراً لأنّ التعليل بمنزلة كبرى الاستدلال، والعلّة هي الحدّ الوسط، التي هي واسطة في الإثبات كما هي واسطة في الثبوت. وعليه فالموضوع في الحقيقة هو نفس العنوان الذي ذكر علّة للحكم. ولا يتخلّف الحكم عن موضوع يكون هو علّته ثبوتاً وإثباتاً لأنّ تخلّف المعلول عن علّته مستحيل.

إذاً، فتحريم الغناء بما أنه معلّل بكونه لهوّاً باطلاً فإنه يستدعي أن تكون العلّة الأصلية للتحريم هو كونه كذلك (لهوّاً باطلاً).

وعليه فكل غناء فهو لهوٌّ باطلٌ، وهذا هو السبب لتحريمه.

وحينئذٍ فلو رخص الغناء في مثل القرآن لكان ترخيصاً لأمر لهوّي وباطل في القرآن، الأمر الذي يرفضه العقل والوجدان.

على أنّ قبح الباطل فطري لا يقبل الاستثناء أبداً، وقد استقلّ العقل بقبحه. ولا سيما وكونه مما يُضِلّ عن سبيل الله.

فلو كان الغناء - بقول مطلق - معدوداً من اللهو والباطل فإنه يستدعي أن يكون في القرآن وغيره على سواء في البطلان والتقبيح بلافق.

إذاً فلا محالة من القول بأنّ الغناء قد يكون باطلاً لهوياً وقد لا يكون، فالغناء في القرآن خارج بالتخصّص لا بالتخصيص.

وبعد، فلنتساءل: إذا ميّز الله بين الطيّب من القول وخبيثه فأين يكون الغناء في القرآن، إذا كان لغرض صحيح، ولتأثير أكثر على النفوس، وأخذ أوفر بجماع القلوب؟

لا شك أنه حلية وجمال وزينة، ومعدود من الطيّبات في الرزق التي أحلّها الله للعباد «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

نعم «إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ»^(٢).

فهل التغني بالقرآن إثم وبغي وفحشاء؟ أم زينة وجمال وحلية؟! فضلاً عن كونه حكمة وهداية ووسيلة لإرشاد العباد.

نظرة إلى آراء الفقهاء:

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: والوجه في هذه الأخبار- أخبار جواز كسب المغنّيات اللاتي لا يدخل عليهنّ الرجال- الرخصة فيمن لا تتكلم بالأباطيل ولا تلعب بالملاهي من العيدان وأشباهها ولا بالقصب وغيره، بل تكون ممن تزف العروس وتتكلم عندها بإنشاد الشعر والقول البعيد من الفحش والأباطيل. فأما ما عدا هؤلاء ممن يتغنّين بسائر أنواع الملاهي، فلا يجوز عليّ حال، سواء كان في العرائس أو غيرها^(٣).

وقال المحقق الفيض- تعقيباً على هذا الكلام-: ويستفاد من كلامه أنّ

(١) الأعراف: ٣٢.

(٢) الأعراف: ٣٣.

(٣) الاستبصار: ج ٣ ص ٦٢ في آخر باب ٣٦.

تحريم الغناء إنما هو لاشتماله على أفعال محرمة، فإن لم يتضمن شيئاً من ذلك جاز، وحينئذٍ فلا وجه لتخصيص الجواز بزق العرائس، ولا سيما وقد ورد الرخصة به في غيره. إلا أن يقال إن بعض الأفعال لا يليق بذوي المروات وإن كان مباحاً.

قال: فالميزان فيه حديث: من أصغى إلى ناطق فقد عبده.

قال: وعلى هذا فلا بأس بسماع التغني بالأشعار المتضمنة ذكر الجنة والنار، والتشويق إلى دار القرار، ووصف نعم الله الملك الجبار، وذكر العبادات والترغيب في الخيرات والزهد في الفانيات ونحو ذلك، كما أشير إليه في حديث الفقيه: فَذَكَّرْتُكَ الْجَنَّةَ.

قال: وذلك لأن هذه كلها ذكر الله تعالى، وربما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. وبالجمل، لا يخفى على ذوى الحجى - بعد سماع هذه الأخبار - تمييز حق الغناء من باطله، وأن أكثر ما يتغنى به المتصوفة في محافلهم من قبيل الباطل^(١).

وقال - في موسوعته الفقهية «مفاتيح الشرائع» -: الذي يظهر من مجموع الأخبار الواردة في الغناء، ويقتضيه التوفيق بينها، اختصاص حرمة بما كان متعارفاً ذلك العهد من دخول الرجال على النساء الأجنيات والاستماع لأصواتهن، وتكلمهن بالأباطيل. وبالجمل، ما اشتمل على فعل محرّم دون ماسوى ذلك^(٢).

قال الشيخ أبو الحسن الشعراني - في هامش الوافي -: الذي يظهر لنا من تتبع كلام العرب وأهل الأدب أن الغناء اسم لمطلق الصوت إذا كان فيه مدّ

(١) الوافي: ج ٣ ص ١٠٣ ص ٣٥.

(٢) مفاتيح الشرائع: ج ٢ ص ٢١. مفتاح ٤٦٥ مع تلخيص.

وترجيع، سواء أطرب أم لا. قال الشاعر في حماسة:
 إذا هي غنّت أبهت الناس حُسنها وأطرق إجلالاً لها كلُّ حاذق
 فلا يمكن أن يقال: إنّ كل صوت كان ذا تأثير فهو محرم، ولا أنّ كل
 صوت حَسَن بتركيب نغماته - بحيث يميل إليه الطبع - حرام. لما ورد في قراءة
 السجّاد (عليه السّلام) كانت ذات تأثير بالغ. وقد أمر النبي (صلى الله عليه
 وآله) أن يُقرأ القرآن بصوت حَسَن والتغني فيه. وقد رُخص في الحداء مع أنه
 مزكّب من نغمات صوتية مؤثرة، وصدق التغني والغناء على جميع ذلك بلا
 ريب.

قال: فلا بدّ إمّا من الذهاب مذهب الشيخ في الاستبصار بحمل أخبار المنع
 على ملابساته لأعلى نفسه، أو تختصّ الحرمة بنوع منه، وهو ما يثير إلى الفحشاء
 وارتكاب الحرام، فيكون حراماً لأنه سبب للحرام. قال: وهو المنصرف إليه من
 إطلاق الروايات وعبارات الفقهاء الأقدمين^(١).

وللمحقّق المولى السبزواري استدلالٌ لطيف على اختصاص التحريم
 بالغناء الذي كان شائعاً ذلك العهد، وذلك للانصراف وعدم قرينة على إرادة
 الاطلاق، بعد عدم تمامية مقدّمات الحكمة والحال هذه. قال:

الغناء - في روايات المنع - مفرد معرّف باللام، وهو بذاته لا يدلّ على
 الشمول لغة، لأنّ العموم إنّما يثبت حيث لا قرينة على إرادة الخاصّ أو بعض
 أنواع العام، لأنّ إرادة البعض حينذاك ينافي غرض الإفادة وسياق البيان
 والحكمة، فلا بدّ من حمله على الاستغراق والشمول... وها هنا ليس الأمر
 كذلك، لأنّ الشائع في ذلك الزمان كان هو الغناء على سبيل اللهو، من
 الجوّاري المغنّيات وغيرهنّ في مجالس الفجور والخمور وغيرها، فحمل اللفظ

المفرد على تلك الأفراد الشائعة في ذلك الزمان غير بعيد^(١). وفي عدة من الأخبار إشعار بكونه هوّاً باطلاً، وصدق ذلك - في القرآن والدعوات والأذكار المقرّوة بالأصوات الطيبة، المذكّرة للآخرة والمهيّجة للأشواق إلى عالم القدس - محلّ تأمل... فإذا إن ثبت إجماع في غير الغناء على سبيل اللهو كان متّبعا، وإلا بقي حكمه على أصل الإباحة. وطريق الاحتياط واضح^(٢).

قال المحقّق النراقي: استدّلوا حرمة الغناء بالإجماع والكتاب والسنّة.

أما الإجماع فلا يدلّ على أكثر من حرمة في الجملة.

وأما الكتاب فليس فيه شيء يدلّ على ذلك سوى حرمة اللهو الحديث الذي يُجعل وسيلة للإضلال عن سبيل الله ويُتخذ هزواً.

قال: وهذا لاشكّ فيه، ولا يدلّ على حرمة غير ذلك ممّا يتّخذ لترقيق القلوب وتذكير الجنة وتهيج الشوق إلى العالم الأعلى، ليكون للقرآن والدعاء تأثير في القلوب بذلك. بل في قوله «لَهُوَ الحديث» إشعار بذلك.

وأما السنّة فعلى كثرتها هي خالية عن الدلالة على الحرمة أصلاً، إذ لا دلالة لعدم الأمن من الفجعة، وعدم إجابة الدعوة، وعدم دخول الملك، وكونه عُشّ النفاق، أو مع الباطل، ونحو ذلك، على إثبات الحرمة، لورود أمثال هذه التعابير في غالبية المكروهات، هذا مع ضعف اسناد أكثرها.

قال: فلم يبقَ دليل على الحرمة سوى قوله تعالى «واجتنبوا قول الزور» بضميمة تفسيره في الروايات بالغناء.

إلاّ أنه يعارض ذلك بماورد من تفسيره بقول «أحسنّت»... وبذلك يعرف أنه تفسير بأحد المصاديق، وأنّ المراد من «قول الزور» هو الأعمّ، أي

(١) وبذلك لا تتمّ مقدمات الحكمة، التي هي شرط لتحقيق الإطلاق.

(٢) كفاية الأحكام: ص ٨٦.

معناه اللغوي والعرفي، وهو الباطل والكذب والتهمة. ومعلوم عدم صدق شيء من ذلك على مثل القرآن والأدعية والمواعظ والمراثي وإن ضم إليه نوع ترجيع. هذا مضافاً إلى ما دلّ على أنّ الغناء قسمان: حرام وحلال، كقوله: لا بأس ما لم يُعصَ به. و: من تغنى بغناء حرام يبعث فيه على المعاصي. و: ليس به بأس، ليست بالتّي يدخل عليها الرجال...

قال: والظاهر اشتهاً هذا التقسيم في الصدر الأول، كما يظهر من كلام الطبرسي.

ثم أخذ في تأييد اختصاص الحرمة بنوع خاص من الغناء لامطلقه، وبيان موارد الاستثناء على ما فصله الفقهاء^(١).

* * *

هذا ما عرفت من كلام شيخ الطائفة ومن بعده من أعلام الفقهاء، فصلوا في المسألة، وميّزوا بين الحلال والحرام من الغناء. وأنّ إطلاق التحريم في كلمات الأكثر ناظر إلى القسم الحرام كما في الروايات.

إذاً فلم يثبت ما يدلنا على إجماع الأصحاب على التحريم بقول مطلق، ولا جاء في الكتاب والسنة ما يدلّ عليه.

هذا، ولبعض المتأخرين محاولة في معاكسة هذا الاتجاه، انظر إلى كلام السيد محمد الجواد العاملي بهذا الشأن:

قال: لا خلاف في تحريمه، سواء كان في قرآن أو دعاء أو شعر أو غيرها. حتى قام المحدث الكاشاني والفاضل الخراساني وخصّوا الحرام منه بما اشتمل على محرم من خارج كدخول الرجال والكلام بالباطل ونحوهما... واستندا في ذلك إلى أخبار تقرب من اثني عشر خبراً.

(١) مستند الشيعة: كتاب المكاسب.

قال: وهي مخالفة للكتاب وموافقة للعامة ومعارضة بخمسة وعشرين خبراً بين صريحة أو ظاهرة في التحريم المطلق^(١).

وتبعه على ذلك صاحب الجواهر. قال: بلاخلاف أجده، بل الإجماع بقسميه، والسنة متواترة فيه، بل يمكن دعوى كونه ضرورياً من المذهب^(٢).

ولا يخفى ما في هذا الاستدلال:

أولاً: لم يظهر لنا سنده في دعوى «عدم الخلاف على إطلاق التحريم» مع ما عرفت من كلام الشيخ الذي يحمل عليه إطلاق كلام الباقيين، بدليل الاستثناء، كما استظهره الفيض والنراقي وغيرهما.

ثانياً: الترجيح أو التخيير في الخبرين المتعارضين إنما يكون إذا لم يمكن الجمع الدلالي، كما هنا، نظراً لأن النهي تجاه الترخيص محمول على الكراهة، لأن المنع ظاهر في التحريم، والترخيص نص في الجواز، والنص مقدم على الظاهر.

وثالثاً: التعارض هنا بدوي، لأن الأخبار المانعة إما مطلقة أو عامة، والأخبار المجوزة متقيّدة أو مخصوصة... ولا معارضة بين العام والخاص، وكذا بين المطلق والمقيّد.

على أنه لا إطلاق مع وجود القيد لعدم تمامية مقدمات الإطلاق، كما نبّه عليه المحقق السبزواري.

ورابعاً: لو فرض عدم إمكان الجمع الدلالي فالترجيح بأكثرية العدد - مع وجود التكثر في الطرفين - غير معهود على ضوابط الأصول.

(١) مفتاح الكرامة: ج ٤ ص ٥٢.

(٢) جواهر الكلام: ج ٢٢ ص ٤٤.

وخامساً: مخالفة الكتاب لا موضوع لها هنا، بعد عدم تصريح في القرآن بذلك. ولا تكفي العمومات غيرُ النازرة إلى هذا النوع بالخصوص.

وسادساً: موافقة العامة أيضاً لا موضوع لها، لأنَّ المعروف من مذهبهم هو القول بالحرمة. فقد حكى ابن المنذر وغيره من أعلام السُّنة الاتفاق على تحريم الغناء وإبطال إجارة المغنية. راجع هامش «المحاضرات» بقلم السيد عبدالرزاق المقرّم.

وسابعاً: لا موضع لدعوى صاحب الجواهر: تواتر الروايات بالمنع أو كونه من ضرورة المذهب، إذ قد عرفت الخلاف والقول بالتفصيل من أعلام الطائفة، كما هو ظاهر إطلاق الآخرين، وكذا روايات الباب طراً.

* * *

ولسيدنا الأستاذ الامام الخوئي (دام ظلّه) محاولة للردّ على الفيض، في تفصيله المتقدّم - أنّ المحرّم من الغناء ما كان فاسداً إما من ناحية المادّة (المحتوى) أو الهيئة (لحن أهل الفسوق) أو الملابسات (مجالس الخلاعة والاستهتار). أمّا ما عدا ذلك فلا وجه لتحريمه، فهو باقٍ على أصالة الإباحة - قائلاً (دام ظلّه): إنّ هذا التفصيل في الحكم لا وجه له، نظراً لإطلاق الأدلّة. نعم هناك كلام في موضوع الغناء، وأنّ ليس كلُّ صوت رقيق حسن غناء، ولا سيّما إذا كان المحتوى هداية وارشاداً.

قال: يعتبر في الغناء أمران، الأول: أن تكون المادّة باطلة لهويّة. والثاني: أن تكون الهيئة مشتملة على المدّ والترجيع. قال: وبانتفاء أحدهما لا يصدق الغناء. فتحسين الصوت في قراءة القرآن وترقيقه، وكذا ماتعارف عند أهل الخطابة والوعظ من الإلقاء بنحو يشتمل على الترجيع، خارج عن الغناء. نعم ورد النهي عن قراءة القرآن بألحان أهل الفسوق... أعني بالهيئة المختصة

بمجالس اللهو والطرب^(١).

وقال -بصدد استثناء الغناء في المراثي-: إنه بالتخصّص لا بالتخصيص، لعدم كون المادة لهوية^(٢).

لكنها مناقشة موضوعية ترجع مآلاً إلى اختيار الفيض حرفاً بحرف. ذلك أنه لا مدخل للمادة (المحتوى) في تحقّق مفهوم الغناء وصدقه خارجاً، لأنّه نظام صوتي متقوم بأوتار وأنغام صوتية تقوم على تقاسيم وتعاريج في مخارجها ومنابعها الخاصّة، وقد تقوم بغير اللفظ من آلات موسيقية معروفة.

إذاً فاشتراط كون الغناء ذا مادة لهوية هو بنفسه اشتراط حرمة الغناء بصورة كون مادّة لهوية، كما ذكره الفيض من غير فرق.

وأوّل من زعم دخالة المادة في صدق الغناء هو الصدوق في الفقيه. قال: سأل رجل علي بن الحسين (عليه السّلام) عن شراء جارية لها صوت، فقال ما عليك لو اشتريتها فذكرت لك الجنة. يعني بقراءة القرآن والزهد والفضائل التي ليست بغناء، فأما الغناء فمحظور^(٣).

قال الفيض: الظاهر أنّ هذا التفسير من كلام الصدوق رحمه الله، ويُستفاد منه أنّ مدّ الصوت وترجيّعه بأمثال ذلك ليس بغناء أو ليس بمحظور^(٤).

قال سيّدنا الاستاذ الامام الخميني -قدّس سرّه-: وليست مادة الكلام دخيلة فيه. ولا فرق في حصوله بين أن يكون الكلام باطلاً أو حقاً، وحكمة أو

(١) محاضرات في الفقه بقلم السيد علي الشاهرودي: ص ٢٣٨.

(٢) المصدر: ص ٢٤٠.

(٣) الوسائل: ج ١٢ ص ٨٦ رقم ٢.

(٤) الوافي: ج ٣ م ١٠ ص ٣٥.

قرآنًا أو رثاءً لمظلوم. وهو واضح لا ينبغي التأمل فيه^(١) وهكذا لا تعبد في موضوع الغناء ولا اصطلاحاً خاصاً بالشرع، كي تُفرض دخالة المادة في مفهومه. ولذلك فن العجيب ما قيل من دخول الغناء تعبدًا في «قول الزور» وإن خالفه مفهومًا^(٢).

هذا، وقد حدثني من أثق به عن سيدنا الامام -قدس سره- أنه أجاز ما كان مشتملاً على محتوى صحيح، وكان لغاية بثّ الفضيلة في النفوس ونشر المعارف ومكارم الأخلاق بهذه الطريقة المؤثرة، وبشرط أن لا يتلوّث بملاسلات مُغرية ومُضلّة عن سبيل الله. ومن ثمّ فإنّ الغناء قد يحرم في منطقة دون غيرها وفي ظروف خاصة دون غيرها، نظراً لاختلاف المبادئ والغايات.

* * *

وبهذه المناسبة رأينا من الأفضل نشر رسالة قيّمة وضعها العلامة الفقيه الجامع السيد محمّد بن إبراهيم الحسيني البحراني المعروف بماجد في التحقيق عن مسألة الغناء موضوعاً وحكماً، وقد أوفى التحقيق حقّه، حيث معرفته الكاملة بأصول فنّ «الموسيقى»، وإحاطته الشاملة بمباني الشريعة فقهاً ونظراً، ومن ثمّ كانت الرسالة شافية وكافية وفي نفس الوقت جامعة لجوانب المسألة فتاً وتشريعاً. فكان من الجدير إيقاف القارئ الكريم على دلائلها ومسائلها، ولاسيما والرسالة كانت قابضة في زاوية الخمول، لولا اهتمام بعض أرباب الفضيلة من الباحثين عن كنوز أفهام الناقلين، والساعين وراء العثور على آراء جهاذة العلماء المحققين، فكان ممّن سعى في إحياء هذا التراث العلميّ القيم فضيلة الأخ النشيط الموقّ (أكبر إیراني) فاستخرجها وترجمها إلى الفارسية ليعمّ نفعها في اللغتين.

(١) المكاسب المحرمة بقلمه الشريف: ج ١ ص ٢٠٣.

(٢) المصدر: ص ٢٠٥.

وذكر المحقق الطهراني أنه شاهد منها نسخاً، وكان معاصراً أو مقارباً لعصر الميرزا إبراهيم بن غياث الدين الاصفهاني قاضي اصفهان ثم قاضي عسكر نادرشاه أفشار، وقد كتب رسالة في الرد على رسالة السيّد ماجد^(١).

(١) الذريعة: ج ٢ ص ٥٠٥ رقم ١٩٨٠.

رسالة إيقاظ النائمين وإيعاظ الجاهلين

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيد الأنبياء والمرسلين محمد خاتم النبيين وعلى آله هداة المتقين إلى يوم الدين.

أما بعد، فيقول المفتقر إلى رحمة الله الملك الغني محمد المدعو بمجاهدين إبراهيم الحسيني: هذه رسالة ألّفها في تحقيق حال الغناء إسعافاً لمسؤول بعض الأصدقاء مرتبة على مقدمة ومقصدين وخاتمة، وسمّيتها بـ«إيقاظ النائمين وإيعاظ الجاهلين».

أما المقدمة

ففي بيان مسائل من العلوم المتفرقة لتوقف البيان عليها

بحث اصولي: لا يجوز استعمال اللفظ المشترك إذا كان مفرداً في أكثر من معنى، فلا يجوز أن يقال: رأيت عيناً ويراد منه الباصرة والذهب، وذلك لأنّ المفرد بصيغته يدلّ على وحدة الموضوع له مطلقاً سواء كان نوعياً أو شخصياً، وإلاّ لم يكن بينه وبين التثنية والجمع فرق، فلو دلّ على أكثر من معنى واحد لكان دالّاً على خلاف مقتضى وضعه، وذلك محال لامتناع كون دلالة هذه على معانيها إلاّ بحسب الوضع لكونها وضعية.

وأما ما ذهب إليه بعض الفضلاء - من جوازه بطريق المجاز دون الحقيقة، وتوهم أن علاقة التجوّر ثابتة بينهما، وهي علاقة الكلّ والجزء، والكلّ عبارة عن كلّ واحد من المعاني من حيث إنه وحده، والجزء عبارة عن كلّ واحد بشرط إلغاء قيد الوحدة - ففي غاية السقوط لأنه إن أراد به أنّ اللفظ الموضوع لكلّ واحد منها وحده أنه بحسب هذا الوضع موضوع لهذا المعنى دون غيره فهو مسلم، لكن لا يلزم منه أن يكون مفهوماً دون غيره أو ما يلازمه، أعني وحدة جزء من المعنى الموضوع له. وإن أراد أنّ الواضع وضع هذا اللفظ بإزاء مجموع هذين المعنيين فهو ممنوع، والوجدان يحكم بخلافه، إذ يكفي للوضع ملاحظة الواضع معنى الموضوع له من غير تعرّض لما سواه فضلاً عن أن يجعله جزء لمفهوم اللفظ، ويلزم على هذا أن لا يكون لفظ موضوعاً لمعنى بسيط إذ كلّ معنى يكون مقيداً بهذا القيد حتى النقطة والوحدة، وأيضاً يجب أن يدلّ كلّ لفظ على معنى الوحدة دلالة تضمينية كدلالة لفظ الانسان على الحيوان فقط، حتى لفظ الواحدة على الوحدة الظاهر أنه ليس كذلك، وأيضاً من أين علم هذا القائل أنّ كلّ من وضع لفظاً بإزاء معنى اعتبره مع قيد الوحدة، وجعله موضوعاً له هذا اللفظ.

فإن قيل: أليس الواضع وضع هذا اللفظ لهذا المعنى فقط فصدق قول القائل إنه وضع لهذا المعنى المقيّد بقيد الوحدة، قلنا: يتحقق صدق وضعه لهذا المعنى فقط بعدم وضعه إياه لمعنى آخر، لا بوضعه لهذا المعنى المقيّد بقيد أن لا يكون معه آخر، وهو ظاهر.

بحث أصولي آخر: لا تعارض بين القطعيات لامتناع تعارض أدلة الكتاب والستة بعضها بالنظر إلى بعض في نفس الأمر، بل التعارض إنّما يمكن أن يتحقّق بين الظنّيات كالأخبار الآحاد بعضها بالنسبة إلى بعض، أو بينها وبين المتواترات القطعية بكلا الوجهين أو بأحدهما، وقلّما يوجد الاحتمالان الأخيران بخلاف الأول أو المتعارض بينهما كثير، وحينئذٍ إمّا يمكن التوفيق بينهما أو لا،

فإن أمكن وجب، سواء كان أحد الطرفين أرجح بأحد وجوه التراجيح المذكورة في مظانّه أولاً، وذلك لأنّ الأخبار الآحاد تفيد الظنّ، ووجوه الترجيح يفيد غلبته، وهي لايني احتمال صحة الطرف المرجوح، إذ ربما كان هذا الطرف صحيحاً، فلهذا ترى المحدثين يبذلون جُهدهم في الجمع بين النصوص المتخالفة، ويتكلّفون في بيان التوفيق غاية التكلّف، ولو لم يراع هذا الطريق يلزم طرح كثير من الامارات بمحض التعارض بين ظواهرها من غير داع يدعوه وسبب يقضيه، وإن لم يمكن التوفيق بينها يعتبر الراجح ويطرح المرجوح، وإن كانت متساوية في الجميع يعبر عنه بالتعادل.

فهذا ممّا اختلف فيه، فذهب الأكثرون إلى أنّ للمجتهد العمل بالتخيير بأيّ الطرفين شاء لثلاً يقع تضييع الامارتين رأساً، وحكم الآخرون بتساقطهما للتمسك بالبراءة الأصلية لأنّ التخيير يفضي إلى الترجيح المحال، بمعنى أنه لايمكن وقوع التخيير للمجتهد، وكون الامارتين بالنظر إليه متساويتين من غير رجحان أحدهما على الآخر. وأمّا كونها متساوين في الواقع فمما لاسبيل إلى العلم به بل نعلم عدم تساويهما في الواقع إذ نعلم بالضرورة عدم التناقض بين أقوال النبي صلى الله عليه وآله والائمة المعصومين (عليهم السّلام) بحسب الواقع، وهذا قول سديد ورأي متين.

بحث فلسفي: كما أنّ لأنواع مدركات البصر أحكاماً متباينة وآثاراً متخالفة - بعضها يوجب السرور والانبساط كما في رؤية الألوان التي تسر الناظرين والأزهار والأوراد والرياحين، وبعضها يورث الرحم والانعطاف كما في رؤية سقيم متروّب، وبعضها يورث البكاء كما في رؤية قتيل مصلوب، وبعضها يورث الإغماء كما في تلقي عدوّ قاهر وسبع مفترس دفعة، وبعضها يهيج الشهوات كالنظر إلى المرأة الحسناء، وبعضها يورث الضحك كروية حركات أصحاب السحر والمجون، وبعضها يورث الانزعاج عن زخارف الدنيا والشوق

إلى نعيم العقبي كما في رؤية الزاهدين وعبادة الخاضعين، قس عليها سائر ما لم يذكر. كذلك مدركات السمع من النغمات لها أحكام متباينة وآثار متخالفة بعضها يوجب السرور والانبساط، وبعضها يورث الضحك، وبعضها يورث البكاء، وبعضها يهيج الشهوات ويزين السيئات، وبعضها يورث الانزجار عن عالم الحس، وبعضها يورث الغشي والإغماء. وآثار هذه أكثر من آثار مدركات البصر ليكون مادتها ألطف من مادة مدركات البصر وأقرب إلى البرزخ بين العالمين. وبالجملة لها آثار غريبة وتأثيرات عجبية، حتى أن الحدائق من أطباء اليونان كانوا يعالجون الأمراض المخوفة كالقلق وأمثاله بالنغمات والألحان، وللموسيقين في بيان خواصها وتأثيراتها مصنفات.



علم الموسيقى:

وموضوع علم الموسيقى هو الصوت المعروض للمناسبات العددية من حيث إنه معروض للمناسبات العددية، أو الأعداد الموجودة في العادة أعني الصوت والمآل واحد، فيبحث فيه عن كيفية مناسبات اللحن واتفاقها وكيفية تأليفها واختلافها. وبالجملة يبحث فيه عن كيفية الاتفاق والاختلاف. ويتنوا أن تحقق الأعداد المذكورة، إنها يتحقق بالتراجع، فإن كان الصوت على استقامة من غير ترجيع يكون واحداً، فإذا رجع بترجيع واحد صار اثنين، وإذا رجع بترجيعين صار ثلاثة، وهكذا كالحركة فإنها مادامت على استقامتها تكون واحدة، وإذا انعطفت أو رجعت فيه تصير متعددة. ويتنوا فيه أن النغمات إذا كانت متناسبة تكون حسنة، وإن كانت مختلفة كانت قبيحة، وأما إذا ما لم تكن مشتملة على المناسبة أو المخالفة لم تتصف بالحسن والقبح، بل تتصف بأمر

آخر كالحذّة ومقابلها، ومن أراد زيادة الاطلاع فليطالع مصنفاتهم^(١) ولا ينبئك مثل خبير.

وإنما مقصودنا في هذه الرسالة التنبيه على أن حسن الصوت إنما يتحقق بمناسبة عددية فيه، وهي موقوفة على تحقق التراجع، وهذا أمر ظاهر على من له أدنى تأمل في حال الأصوات، فإنه يجد أن الصوت المستقيم من غير ترجيع لا يتّصف بشيء من الحسن والقبح، وبالجملة مدارهما بالمناسبة والمخالفة العدديتين.

ملحوظة: وإنما كانت المناسبة المذكورة سبباً للحسن والبهاء إذ بها تتحقق جهة الوحدة بين الأمور الكثيرة المتغيرة المتباينة، وهذه ممّا يحسنها ويزينها وبها يرجع تعديل فضائل الصفات، ولها شأن عظيم وتترتب عليها آثار شريفة وأما أنه لم كانت جهة الوحدة بينها سبباً للحسن والبهاء فهو من أسرار يكشفها العلم الألمي، وليس هذا المقام موضع بيانه.

وبالجملة، جهة الوحدة بين الكثيرين المعبر عنها بالمناسبة والموافقة والمؤالفة أو مايجري مجراها يؤدي إلى الحسن والجمال وليس سبب الحسن الصوري إلاّ التناسب بين الأعضاء وتوافقها، وحسن الصلابة إلاّ الموافقة في جميع الأحوال وهذا سرّحت الشارع على المواظبة على الجمعة والجماعات إذ بها يتحقق الائتلاف بين أفراد النوع المقتضي لحسن المعاش وحفظ التمدن على أحسن وجه، وبهذا يظهر سرّما ورد في الخبر من أن الغيبة أشدّ من الزنا لأنّ الأولى تؤدّي إلى الفرقة المنهية عنها، والثاني إلى الألفة المنهية عنها، والألفة خير من الفرقة وإن كان الزنا باعتبارات أخر أشدّ نكالا وأعظم وبالا منها لأدائه إلى

(١) راجع مثلاً: بهجة الروح: ص ٣١ - ٣٢، وجامع الألقان: ص ١٢، وكلاهما لصفي الدين. ومفتاح الطب لأبي الفرج: ص ٥٦ - ٥٧، وكامل الصناعة لعلي بن عباس: ج ١ ص ١٢ فابعد.

افتراقات وشرور كثيرة. ويرشدك إلى حسن المناسبة وبهاؤها:
 أنّ حكاية الصور القبيحة والأصوات الكرهية ممّا تميل إليها الطباع وتلتذّ
 بها وإن كانت تتنفّر عن المحكيّ عنها، وهذا سرّ جعل الله أعضاء الأطراف
 اثنين اثنين، كالحاجبين والعينين، وتوحيد التي وقعت في البين لئلا يكون أحد
 الطرفين في كمال المباعدة مع الطرف الآخر المؤدية إلى قبح الخلقة، ولهذا يبذل
 البناؤون جهدهم في بناء الدار على موافقة أطرافها ويعبّرون عنها في عرفهم
 بالقرنية، ولو قصدنا لتبيين هذا المطلب لطال بنا الكلام، وإنما غرضنا التنبيه
 على أنّ حسن الصوت لا يتحقّق إلّا بتحقيق جهة الوحدة بين أجزائها، ولا
 تتحقّق الأجزاء إلّا بالترجيع، وقد ذكرنا شرطاً من هذا الإيضاح والتبيين، وهو
 واضح بحمد الله تعالى، وبدلّ عليه حديث أبي بصير فإنه صريح في أنّ الصوت
 الحسن ترجيع مطرب، وسيأتي ذكره.

وأما الظاهرّيون من المتفكّهة والمقتصرون على تعلّم الفروع وجدوا في
 الأخبار الحضّ على قراءة القرآن بالصوت الحسن وذمّ قراءته بالغناء، ووجدوا
 أحاديثاً في ذمّ الغناء وزعموا أنّ الغناء المنهيّ عنه بالمعنى اللغوي، وهو يشتمل
 على ترجيع الصوت. فزعموا أنّ كل صوت مترجع مطرب حرام، فلا بدّ أن
 يكون الصوت الحسن خالياً عن الترجيع، وتخيّروا في أمره ولم يهتدوا إليه
 سبيلاً، وهذا ظنّ فاسد كما عرفت وستعرف. ولذا إذا سئلوا عن شرح اسم
 الصوت الحسن يتبلبلون في بيانه، فتارةً يقرأون آية من القرآن ويقولون هذا
 الصوت الحسن بعد اللتيا والتي ولم يعرفوا أنّ شرح الاسم يفيد مفهوماً كلياً
 وصوتهم هذا أمر شخصي وعيني وبينها بون بعيد، وتارةً يقولون ما يستحسنه
 الطباع من غير ترجيع وقد عرفت أنّ الصوت الخالي عن الترجيع لا يتّصف
 بالحسن، وتارةً يدّعون البداة في أمره ولم يعلموا أنّ البداة والنظر ممّا يتعلّق
 بالمعاني وشرح الاسم ممّا يتعلّق بالألفاظ.

بحث لغوي: الغناء لغة تطريب الصوت والطرب الفرح والحزن أو سببها، فهو من لغة الأصداد نصّ عليه في القاموس، وخصّصه بعضهم بالفرح واستضعفه فيه، وقال بعض الفضلاء: ومن العامة من فسّره بتحسين الصوت، ويظهر ذلك من بعض عبارات أهل اللغة (انتهى).

وفسّر بنفس الترجيع المطرب وهو ما في القاموس واحد بالمال، ويلزمها مانقله بعض الفضلاء لأنّ الصوت المطرب بكلا معنييه لا ينفكّ عن الحسن وهو لا ينفكّ عن الترجيع لما عرفت في المسألة الفلسفية، فكل صوت مرجع مطرب يكون غناءً بحسب اللغة، وجميع النغمات والألحان التي يبحث عنها في علم الموسيقى غناءً بحسب اللغة، لصدق الحّد اللغوي عليها، سواء كانت من الملهيات أولاً، وسواء كانت مختصة بطائفة دون أخرى، وسواء كانت ممّا يتغنّى به في الأعراس أو في التّعزية، فإنّ جميعها غناءً لغوي. وبعض الفقهاء فسّره بالصوت المرجع مطلقاً، وحاول تصويره بترقيم ألفات هكذا آ. آ. آ. ثمّ تشعّب منه آراء سخيّة وأقوال رذيلة لا يليق بذوي المروّات التّعريض لذكرها، والشجرة تنبئ عن الثمرة، فاضبط وثبّت عسى أن تنفعك هذه المسألة في المقصود.

تبصرة:

كان الشائع في زمن الجاهلية وبعد ظهور الاسلام تعليم الجوّاري بالألحان والنغمات الملهية التي تزينها التصديّة وضرب الدفوف والعيدان والبرباط والجرب، وكانوا يضعون عليها جزية معيّنة، وكان شغلهم من الصباح إلى الرواح التّغنيّ بالأصوات واستعمال آلات اللهو لجذب الفسّاق إلى أنفسهم وتحصيل ما قرّروا عليهم سادتهم وإن كانت أكثرهم كارهات، وكان هذا الأمر الشنيع من أعظم مكاسبهم، وقد حدّره الله تعالى عنه بعد ظهور الاسلام بقوله

عزّ من قائل: «وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْتَ تَحَصُّنًا»^(١) وكان من زينة مجالسهم تغني القينات وضريرن العيدان.

وبلغ هذا الأمر الشنيع في زمن دولة ملوك بني أمية وبني العباس حد الإفراط لتوغلهم في تحصيلها وشدة حرصهم على استماع أصواتها، وتابعهم الرعايا في سلوكهم - والناس على دين ملوكهم، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقليل ما هم - وبلغت قيمتهن ثلاث آلاف دينار وأكثر، كما تشهد به التواريخ، وهي صارت ما يتغنى بالملهيات بعضها إلى حد لم يبلغ إلى ذلك الحد مهرة الرجال في هذا الفن، كما روي عن إسماعيل بن الجاعم وهو من فحول أرباب التغني بالملهيات من التراكيب المعروفة في زماننا هذا بالتصاتيغ، وكان أستاذاً ماهراً في ضروب آلات اللهوجيعة، وكان له اختراعات وتصنيفات، كلّ واحدة منها في ضمن خصوص بعض الأشعار دون الآخر أنه لما قدر عليه رزقه ارتحل من مكة قاصداً حضرة الرشيد في بغداد، فلما ورد المدينة استمع من جارية مارة قدامه لم يسمع مثله قط، فالتمس منها التعلّم فأبت، فأعطاه ثلاث دراهم وتعلّم منها. فلما ورد بغداد وأدرك حضرة الرشيد وتغنى بما تعلّم منها أعطاه ألف دينار والتمس منه الإعادة، فلما تغنى به ثانياً أعطاه أيضاً ألف دينار، ثم قال له: تغنّ بما أحسنست، فتغنى طول الليل بالتركيبات والأصوات المخترعة له ولغيره، فلم يعطه شيئاً! فقال له الرشيد: آخر الليل قد أتعبت كثيراً فإن لم يكن عليك شاقاً تغنّ بالصوت الأول، فتغنى به فأعطاه أيضاً ألف دينار^(٢).

وكذا نقل عن صدقة المكنّى بأبي مسكين أنه تعلّم من جارية سوداء بالمدينة

(١) النور: ٣٣.

(٢) راجع الأغاني: ج ٦ ص ٣١٨ طبع دار إحياء التراث العربي - بيروت.

صوتاً بأربعة دوانق من فضة، فلمّا تَغَنَّى به عند الرشيد ابتَهَج غاية الابتهاج وأعطاه خمسة آلاف دينار.

وأمثال هذه الأخبار أكثر من أن تُحصى.

وبالجملة، شيوع التغني بالملهيات من الأصوات بلغ حدّاً حتى صار إطلاق الغناء على هذا الفرد حقيقة عرفية، وهذا يظهر لمن تتبّع التواريخ والسير. فالمراد من الغناء في الأحاديث التي وردت في ذمّه إنما هو الغناء العرفي - أعني الأصوات الملهمية التي يزينها ضرب آلات اللهو والتصديّة والرقص -. والمراد منه في الأحاديث التي وردت في إباحته ومدحه إنما هو الغناء بالمعنى اللغوي، ونبيّته حقّ التبيين في أثناء ذكر الأحاديث، خصوصاً حديث ابن سنان بحيث يرتضيه العاقل المنصف ويقبله الجاهل المتعنّت لظهور شأنه وسطوح برهانه إن شاء الله العزيز.

المقصد الأوّل

في ذكر الأحاديث الواردة في باب الغناء

وتحقيق ما هو المراد

منها: مارواه علي بن جعفر عن أخيه قال: سألته عن الغناء هل يصلح في الفطر والاضحى والفرح؟ قال: لا بأس به ما لم يعص به^(١).

وفي الكافي عن أبي بصير قال: قلت لأبي جعفر (عليه السّلام): إذا قرأت القرآن فرفعت صوتي جاءني الشيطان فقال: إنما تراني بهذا أهلك والناس، قال: يا أبا محمد اقرأ قراءة ما بين القراءتين تسمع أهلك ورجع بالقرآن صوتك

(١) قرب الاسناد: ص ١٢١، والوسائل: ج ١٢ ص ٨٥ باب ١٥ من أبواب ما يكتسب به حديث ٥.

فإن الله عز وجل يحب الصوت الحسن يرجع به ترجيعاً^(١).

أقول: هذا صريح في استحباب التغني بالقرآن بالمعنى اللغوي، وتصريح بأن الصوت الحسن يشتمل على الترجيع، والصوت المشتمل على حسن الترجيع مطرب بالضرورة، فيكون الصوت الحسن غناء بالمعنى اللغوي، إذ لا معنى له إلا الصوت المرجع المطرب فهو عليه السلام أمر بالتغني بالقرآن. وليت شعري أن المحرمين كيف يسوغون لأنفسهم طرح أمثال هذا الحديث! وأتي ضرورة دعهم إليه مع أنه نص على صحة أكثرها بل بلغت حد التواتر بالمعنى! وكيف غفلوا عن تفرع الصوت الحسن على الترجيع! بل عن تحليل الترجيع بكون الصوت الحسن محبوباً لله تعالى في قوله (عليه السلام) حيث قال: «ورجع بالقرآن صوتك فإن الله عز وجل يحب الصوت الحسن يرجع به ترجيعاً» فحكموا بأن الصوت الحسن صوت خال عن الترجيع، فانتحله كل خلف عن سلف ولا يتدبرون في هذا الحديث وأمثاله فيتفوهون بما يشتهون ويتقولون على الله ورسوله وهم لا يشعرون. وبالجمل قد ثبت بالدليل العقلي والنقلي أن الصوت الحسن صوت مرجع مطرب وكل صوت كذلك فهو غناء لصدق حده عليه في حاق ماهيته وصرف هويته.

وفيه عنه عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: قال النبي (صلى الله عليه وآله): إن من أجل الجمال الشعر الحسن ونغمة الصوت الحسن^(٢).

وفيه عن ابن سنان عن أبي عبدالله قال: قال النبي (صلى الله عليه وآله): لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن^(٣).

وفيه عن أبي عبدالله عن النبي (صلى الله عليه وآله): لم يعط امتي أقل من

(١) الكافي: ج ٢ ص ٦١٦ حديث ١٣.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ٦١٥ حديث ٨.

(٣) الكافي: ج ٢ ص ٦١٥ حديث ٩.

ثلاث: الجمال والصوت الحسن والحفظ^(١).

وفيه عن أبي عبدالله (عليه السلام): ما بعث الله عز وجل نبياً إلا حسن الصوت^(٢).

أقول: والسرف فيه أن حسن الصوت تابع لاعتدال المزاج كما برهن في موضعه، ومزاج الأنبياء من أعدل الأمزجة.

وفيه عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: كان علي بن الحسين (عليه السلام) أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وكان السقاؤون يَمْرُون فيقفون ببابه يستمعون قراءته، وكان أبو جعفر (عليه السلام) أحسن الناس صوتاً^(٣).

وفيه عن علي بن محمد النوفلي عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: ذكرت الصوت فقال: إن علي بن الحسين (عليهما السلام) كان يقرأ القرآن فربما مر به المار فضعق من حسن صوته وإنّ الامام لو أظهر من ذلك شيئاً لما احتمله الناس من حسنه، قلت: ولم يكن رسول الله (صلى الله عليه وآله) يصلي بالناس ويرفع صوته بالقرآن؟ فقال: إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان يحمل الناس من خلفه ما يطيقونه^(٤).

أقول: انظروا معاشر العقلاء إلى هذه الأحاديث المفيدة لتأكيد استحباب قراءة القرآن بالصوت الحسن، ثم انظروا إلى وصف فرط حسن صوت الامام من وقوف السقّائين وضعق المارة وإسماع رسول الله (صلى الله عليه وآله) من خلفه بقدر طاقتهم لا ما في قدرته لئلا يهلكوا من فرط حسنه، ثم تأملوا بعين الإنصاف وتجنّبوا عن التعصّب والاعتساف أنه هل يمكن أن يكون صوتاً بالغاً

(١) الكافي: ج ٢ ص ٦١٥ حديث ٧.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ٦١٦ حديث ١٠.

(٣) الكافي: ج ٢ ص ٦١٦ حديث ١١.

(٤) الكافي: ج ٢ ص ٦١٥ حديث ٤.

في الحسن والبهاء حدّاً يصعق السامعين وهو على استقامته من غير ترجيع؟ وإلا فلم يكن حال محاورته وتكلمه (عليه السّلام) كذلك، وهل يمكن أن يدّعي أحد أنّ تكلمه (عليه السّلام) كان مصعقاً؟ وهل ورد خبر أنه (عليه السّلام) كان يتكلم بالصوت الحسن؟ وما ذلك إلا لأنّ التكلم يكون على الاستقامة والقراءة على الترجيع، وإلا فما الفرق؟ فقد ثبت أنّ الرسول والائمة (عليهم السّلام) كادوا يقرأون القرآن بالصوت الحسن المترجّع، فلننظر أنّ حدّ الغناء اللغوي هل يصدق على هذه القراءة أم لا؟

فنقول - تأكيداً لما سبق وتنبيهاً لمن غفل - : هو كما مرّ مراراً عبارة عن الصوت المترجّع المطرب، وقراءتهم (عليهم السّلام) يصدق عليها أنها صوت، وهو ظاهر، وكذا أنها مترجّع لما عرفت، ولا شكّ في كونها مطرباً بأحد المعنيين: إلّذاذ بعضهم عند سماعها فيقف كالسقّائين، وصعق بعض الآخر كالمرّة فيصدق على قراءتهم الغناء بالمعنى اللغوي - أعني الصوت المترجّع المطرب - وأما الغناء بمعنى العرف الطارئ بمعنى الألحان والنغمات الملّية المهيّجة للشهوات المزيّنة للسيّئات التي يزينها التصديّة وضربة الدفوف وتتصدّأها القينات لجذب الفسّاق من الرجال إلى أنفسهم فلا يجوز التّعني بها مطلقاً، فضلاً عن تعني القرآن بها، ونهي رسول الله (صلّى الله عليه وآله) والائمة المعصومين (عليهم السّلام) مختصّ بهذا النحو من القراءة وهذا النوع من الغناء، وهو الذي صار إطلاق الغناء عليه حقيقة عرفية^(١). ولينصف النصف أنّ قراءة القرآن بالألحان الملّية المعروفة بالتصانيف في زماننا المقوية بضرب الدفوف والرقص

(١) إطلاق الغناء على مجموع العارض والمعرض هاهنا وفي المواضع الأخر مع أنه نفس العارض فقط كما حقق في المسألة اللغوية إنّما هو بضرب من التسامح وتبعاً لمستعمليه فيها مع أنه غير محلّ بالمقصود (المؤلف).

المزينة بسائر آلات اللهو المهيّجة للشهوات وبالمقام المسمّى بالرهاوي المورث للحزن والبكاء هل هما سيّان؟ حاشا وكلاً، أين الثريا من الثرى وأين الأرض من السماء، بل هذا عذب فرات سائح شرابه، وهذا ملح أجاج.

يدلّ على ذلك ماروي في الكافي عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله (عليه السّلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها، وإياكم ولحون أهل الفسق وأهل الكبائر، فإنه سيجيء من بعدي أقوام يرجعون القرآن ترجيع الغناء والنوح والرهبانية، لا يجوز تراقيهم، قلوبهم مقلوبة وقلوب من يعجبهم شأنهم^(١).

أقول: هذا الحديث ممّا رواه العامة أيضاً عن حذيفة بن اليمان عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) مع اختلاف في بعض الألفاظ فإنهم بدّلوا أهل الكبائر بأهل الكتابين والمقلوبة بالمفتونة، واتفق على صحته الفريقان. وهذا نصّ صريح على ما ادّعيناه من صيرورة الغناء حقيقة عرفية في هذا الفرد الأخص، ونهيمهم (عليهم السّلام) مختصّ بهذا دون غيره ونقول تأكيداً وتوضيحاً: نحن معاشر القائلين بالتفصيل في أمر الغناء ندّعي أنّ الغناء المنهيّ عنه هو الأصوات الملهية التي تتصدى القينات وفساق الرجال ويزينها ضرب الدفوف والعيدان لكثرة إطلاق الغناء على هذا الفرد الأخصّ صارت حقيقة عرفية فيه، وأنتم أيّها المنكرون تزعمون أنّ الغناء المنهيّ عنه هو الغناء بالمعنى اللغوي أعني الصوت المرجّع المطرب أو نفس ترجيعه المطرب مطلقاً، وهذا حديث ابن سنان يصدّق ما ادّعيناه ويكذبكم.

أمّا (أولاً) فلاّنه (صلى الله عليه وآله) أمر بقراءة القرآن بألحان العرب وأصواتها، فلا يخلو إمّا أن يكون مراده من الألحان الصوت من غير ترجيع مطلقاً

(١) الكافي: ج ٢ ص ٦١٤ حديث ٣، مجمع البيان: ج ١ ص ١٦ في ذكر الفرق السابع.

أو صوت مشتمل على ترجيع خاصّ لاسبيل إلى الأول. أمّا أولاً: فلأنّ اللحن هاهنا لغة عبارة عن تطريب الصوت وترجيّعه على ما ذكره ابن الأثير في نهايته. وقال في القاموس: لحن في قراءته طرب فيها، ولا معنى للغناء اللغوي إلّا هذا فهما مترادفان بحسب اللغة، فلا يكون اللحن صوتاً على الاستقامة.

وأما ثانياً: فلأنّ الأصوات المستقيمة مشتركة بين العرب والعجم غير مختصة بطائفة دون طائفة أخرى، ألا ترى أنه لا يجوز أن يقال: نادى زيد ابنه بنداء العرب وعمرو بنداء العجم لكون النداء على استقامته مشتركاً بين جميع الطوائف، ويجوز أن يقال: زيد قرأ القرآن بلحن العرب وعمرو بلحن العجم، وهو واضح، فتعيّن الثاني، فيكون الحان العرب الأصوات المترجّعة.

وأما كونها مطربة فلما مرّ في بيان تحديده في الوجه الأول من أنه والغناء اللغوي مترادفان بيّنا في الأحاديث السابقة أنّ الصوت الحسن مطرب بالضرورة، فيكون لحن العرب فرداً من أفراد مطلق الغناء، فتدبروا.

أما (ثانياً) فلأنه (صلى الله عليه وآله) نهى عن ترجيع القرآن ترجيع الغناء، فلم يكن ترجيع الغناء أخصّ من مطلق الترجيع لكان (صلى الله عليه وآله) يقتصر على قوله يرجعون القرآن ولم يذكر ترجيع الغناء لعدم الفائدة فيه. وبعبارة أخرى: ترجيع الغناء وقع مفعول مطلق مضاف والمفعول المطلق المضاف أو الموصوف أخصّ من مصدر فعله كقولك: سرت سير البريد وضربت ضرباً شديداً، فثبت أنّ مراده (صلى الله عليه وآله) من الغناء هو العرفيّ الأخصّ من اللغويّ، لأنه لو كان مراده منه هو اللغويّ لكان يقتصر على قوله: يرجعون القرآن ولم يذكر ترجيع الغناء لاستلزامه كون الشيء أخصّ من نفسه كما عرفت.

فإن قيل: الترجيع أعمّ من ترجيع الغناء لكونه مطرباً، قلنا: نعم، ولكن ظاهر أنّ القارئ يبذل جهده في تناسب الألحان لا في اختلافها لئلا يكون

صوته كرهها قبيحاً، فتعيّن أن يكون مراده (صلى الله عليه وآله) الترجيع المطرب.

وأما (ثالثاً) فلأنّ النوح والرهبانية عطفاً على الغناء، وتقديره: يرجعون القرآن ترجيع الغناء وترجيع النوح وترجيع الرهبانية. فعلم أنّ ترجيع الغناء أخصّ مطلقاً من مطلق الترجيع المطرب الشامل للجميع - أعني الغناء اللغوي - لكون كل منها مطرباً. فتعيّن أن يكون الغناء المنهي عنه هو الغناء العرفي الأخصّ من الغناء اللغوي.

لا يقال: يجوز أن يكون هذا من قبل عطف الخاصّ على العامّ، لأنّا نقول: الأصل في المتعاطفات أن تكون متباينات، نعم يرتكب خلافه نادراً، لكن لا مطلقاً، بل إذا كان فرط اهتمام بشأن الخاصّ كعطف جبرئيل وميكائيل على الملائكة، وظاهر أنّ الاهتمام بشأن إخراج ترجيع النوح ليس بأشدّ منه بشأن إخراج ترجيع الأصوات الملهمية المفرحة التي يزينها ضرب الدفوف والتصديّة وأمثالها، فلو كان الأمر كذلك لكان يجب أن يعطف هذا عليه. فتعيّن أن يكون مستعملاً في معناه العرفي - أعني لحون أهل الفسق التي يزينها ضرب الدفوف والتصديّة والرقص وآلات اللهو - وذلك ظاهر ويدلّ على ذلك ما روي في المجمع عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه يقول: إنّ القرآن نزل بالحزن فاذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا، وتغنّوا به، فمن لم يتغنّ بالقرآن فليس منّا^(١).

أقول: وهذا صريح في الأمر بالتغنّي بالقرآن، لا بالغناء العرفي لورود النهي عنه بل الغناء اللغوي، لكن لا أيّ فرد منه بل الفرد الذي يورث البكاء والحزن بقرينة (مابعده وقبله) وقد عرفت في المقدمة الفلسفية أنّ من أنواع الغناء

(١) مجمع البيان: ج ١ ص ١٦ في ذكر الفن السابع.

ما يورث البكاء والحزن.

وقال الشيخ بعد ذكر هذا الحديث: وتَأَوَّل بعضهم: تَغَنُّوا به بمعنى استغنوا به، وأكثر العلماء على أنه تحزينه وترثيته.

أقول: الطبع السليم والذهن المستقيم يأبى عن هذا التأويل البعيد غاية الإباء، خصوصاً، صدر الحديث وهو هذا يعني -: انك حسن الصوت بالقرآن؟ قلت: نعم والحمد لله - والخلط بين العرف الطارئ واللغة حمَّله على هذا التأويل. وفيه وفي التهذيبين عن أبي بصير عن أبي عبدالله (عليه السلام): أجزر المغنّية التي تزفّ العرائس ليس به بأس، ليست بالتي يدخل عليها الرجال^(١).

وفيه وفي التهذيبين عنه قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن كسب المغنّيات، فقال: التي يدخل عليها الرجال حرام، والتي تُدعى إلى الأعراس ليس به بأس، وهو قول الله عزّ وجلّ «وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢).

أقول: هذان الحديثان مصرّحان بمنابتّها عليه في «التبصرة» من حال فساق العرب وشغل فتياتهم بالأصوات الملهية لجذب الفساق إلى أنفسهم، وأنّ الغناء المحرّم هذا النحو من الغناء، وغيره من الغناء ليس بمحرّم، فلا تكوننّ من الغافلين.

وفيه وفي التهذيبين عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال: المغنّية التي تزفّ العرائس لا بأس بكسبها^(٣).

(١) الكافي: ج ٥ ص ١٢٠ حديث ٣ من كتاب المعيشة، التهذيب: ج ٦ ص ٣٥٧ حديث ١٤٣ من كتاب المكاسب، الاستبصار: ج ٣ ص ٦٢ باب ٣٦ حديث ٥.

(٢) الكافي: ج ٥ ص ١١٩ حديث ١ من كتاب المعيشة، التهذيب: ج ٦ ص ٣٥٨ حديث ١٤٥ من كتاب المكاسب، الاستبصار: ج ٣ ص ٦٢ باب ٣٦ حديث ٧.

(٣) الكافي: ج ٥ ص ١٢٠ حديث ٢ من كتاب المعيشة، التهذيب: ج ٦ ص ٣٥٧ حديث ١٤٤ من كتاب المكاسب، الاستبصار: ج ٣ ص ٦٢ باب ٣٦ حديث ٦.

أقول: الحكم بحلّة كسب المغنّية هاهنا وحرمة في الأحاديث الأخر إنّما بحلّة ما يترتب على أحدهما وحرمة ما يترتب على الآخر، ويظهر منها أنّ الغناء من حيث هو هو ليس بمحرام استماعاً وكسباً كما لا يخفى.

وفي الفقيه سأل رجل علي بن الحسين عن شراء جارية لها صوت فقال: ما عليك لو اشتريتها فذكرتك الجنة.

قال الفقيه: يعني بقراءة القرآن والزهد والفضائل التي ليست بغناء، وأمّا الغناء فمحظور^(١).

وكلامه هذا يشعر بأنّ الغناء عنده عبارة عن سماع الباطل كما ذكرنا قبل من تفسير العامة هذا.

وأقول: هذه هي الأخبار الدالة على جواز التغنّي بالمعنى اللغوي وتحسين الصوت بالقرآن وفي الأعراس وفي غيرها، وأمّا المانعون منها مطلقاً فهم المحرّمون ما أحلّ الله، وستعرف حقيقة حالهم وسوء مآلهم بعون الله تعالى، ولنذكر الأحاديث التي تدلّ على حرمة الغناء التي صارت حقيقة في الأصوات الملهية التي كانت شغل المغنّيات لجذب الفساق تقريراً وتوضيحاً لما ادّعيناه.

منها ما أورده في الكافي وفي التهذيب عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سأله رجل عن بيع الجوّاري المغنّيات، فقال: «شراؤهنّ وبيعهنّ حرام، وتعليمهنّ كفر، واستماعهنّ نفاق»^(٢).

وفيه عن أبي عبد الله (عليه السلام) يقول: المغنّية ملعونة وملعون من أكل كسبها^(٣).

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٦٠ حديث ٥٠٩٧ من كتاب الحدود.

(٢) الكافي: ج ٥ ص ١٢٠ حديث ٥ من كتاب المعيشة، التهذيب: ج ٦ ص ٣٥٦ حديث ١٣٩ من كتاب

المكاسب، الاستبصار: ج ٣ ص ٦١ باب ٣٦ حديث ١.

(٣) الكافي: ج ٥ ص ١٢٠ حديث ٦ من كتاب المعيشة.

أقول: هذان الحديثان يدلان صريحاً على أنّ المراد بالمغنيّة مانبتهاك على حقيقة حالها في «التبصرة» وخصوصاً ما في الحديث الأخير من التصريح على حرمة أكل ما اكتسبن.

وفيه عن إبراهيم بن أبي البلاد قال: أوصى إسحاق بن عمر عند وفاته بجوارله مغنيّات أن يبيعهنّ ونحمل ثمنهنّ إلى أبي الحسن (عليه السّلام)، قال إبراهيم: فبعت الجوّاري بثلثمائة ألف درهم وحملت الثمن إليه فقلت له: إنّ مولئ لك يقال له إسحاق بن عمر قد أوصى عند موته ببيع جوارله مغنيّات وحمل الثمن إليك وقد بعتهنّ وهذا الثمن ثلثمائة ألف درهم، فقال: لا حاجة لي فيه، إنّ هذا سحت، وتعليمهنّ كفر، والاستماع منهنّ نفاق، وثمرتهنّ سحت^(١). وفيه عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله (عليه السّلام) عن قول الله عزّ وجلّ «فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور» قال: هو الغناء^(٢).

وفي خبر آخر فسره به وسائر الأقوال الملهمية^(٣).

وفيه عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السّلام) قال: سمعته يقول: الغناء ممّا وعد الله عزّ وجلّ عليه النار وتلا هذه الآية «وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ»^(٤).

وفيه عن مهران بن محمّد عن أبي عبد الله (عليه السّلام) قال: سمعته يقول: الغناء ممّا قال الله «وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ»^(٥).

(١) الكافي: ج ٥ ص ١٢٠ حديث ٧ من كتاب المعيشة.

(٢) الكافي: ج ٦ ص ٤٣١ حديث ١ من كتاب الأشربة.

(٣) مجمع البيان: ج ٧ ص ٨٢.

(٤) الكافي: ج ٦ ص ٤٣١ حديث ٤ من كتاب الأشربة.

(٥) الكافي: ج ٦ ص ٤٣١ حديث ٥ من كتاب الأشربة.

أقول: هذه الأحاديث تدلّ صريحاً على أنّ المراد من الغناء هو الأصوات الملهية. ونصّ على ما ادّعيناه من صيرورته حقيقة عرفية فيه. وأيّ دلالة أصرح على ذلك من حمل هو الحديث على الغناء! بل يفهم من هذه الأحاديث أنّ الغناء هو التغني بالكلمات الملهية لأنّ الصوت من حيث إنه صوت لا يستمى حديثاً، إذ الحديث هو الكلام الخبري، فكلّ صوت مطرب مشتمل على هو الحديث فهو غناء حينئذٍ، وأمّا الأصوات المطربة المشتملة على كلمات حقة فليست بغناء، أو لا يرى أنّ نغمات الأوتار لا يسمى هو الحديث وقول الزور؟ وأنّ الأحاديث الواردة في ذمّ استماعها لا يعلّل بها، وهل يمكن أن تتصف الكلمات الحقة من القرآن والأحاديث بسبب الترجيع هو الحديث وقول الزور؟ وأي عقل يجوّز أن يصير القرآن الذي هو أحسن (وأصدق) حديثاً بسببه قولاً زوراً وكذباً صراحاً وأن تتقلّب الآيات القرآنية الإنشائية بتطريب الصوت المترجّع بها إلى الحقيقة الخبرية وصارت أحاديث ملهية وأقوالاً كاذبة؟ أعاذنا الله وإياهم من سوء الفهم وقلة التدبّر فإنه بئس القرين.

فظهر حقّ الظهور ممّا ذكرنا وقرّرنا مراراً أنّ مرادهم (عليهم السّلام) من الغناء الذي نهوا عنه هو الأصوات الملهية التي يتصوّت بها الفساق، ولما كانت هذه في ضمن الكلمات الملهية - كما هو شائع في زماننا هذا إذ لا تخلو الأزمنة عنهم وعن مقتضى طباعهم - عبّروا (عليهم السّلام) عنه بلهو الحديث وقول الزور، بل يمكن أن يستدلّ بهذه الأحاديث على أنّ المراد بالغناء المذموم الأصوات المطربة في ضمن الكلمات الملهية، كما ذهب إليه بعض الأفاضل والعجب كل العجب من أقوام ينتحلون فهم الحديث لأنفسهم ويدّعون صرف أعمارهم في تتبعها كيف غفلوا عن هذه التصريحات وحكموا بجرمة مطلق السماع وكيف اجتروا على مخالفة النصوص الصراح. نعم «مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ

نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ»^(١).

المقصد الثاني

في تنميط القول في تحقيق الحق من طريق آخر

وهو بناء الكلام مع المنكرين المحرمين على أن الغناء في جميع الأحاديث الواردة مستعمل في معناه البلغوي تنزلاً ومماشاةً معهم.

فنقول وبالله التوفيق: الغناء كما حققته في المسألة اللغوية من الألفاظ المشتركة واستعمل في الأحاديث المذكورة مفرداً ولا يمكن أن يكون مستعملاً في كلا معنييه في استعمال واحد لما عرفت في المسألة الأولى الأصولية، فوجب أن يكون مستعملاً في أحد معنييه، فالغناء المنهَى عنه في الأحاديث المذكورة يجب أن يكون مستعملاً في كلِّ حديث في معنى واحد، وكذا مبدأ اشتقاق الفعل والاسم في الأحاديث التي تدلّ على إباحته واستحبابه، فحينئذٍ لا يخلو إمّا أن يكون الغناء المنهَى عنه مستعملاً في الصوت المرجع المطرب بمعنى الفرح، والغناء المرغوب فيه في المطرب بمعنى الحزن، كما سيظهر من سياق وصف المنهَى عنه باللهو والباطل والمرغوب فيه بالحزن وكونه مذكراً للجنة، فلا تناقض ولا تعارض بين الطرفين على هذا التقدير إذ يفيد أحدهما أن هذا النوع من الغناء حرام والآخر يفيد أن ذلك النوع منه مباح ومرغوب فيه، فبم يتمسك هؤلاء إلى تحريم مطلقة؟!!

وإن قالوا: إنّ الغناء بأحد معنييه فقط مستعمل في كلا الطرفين -نعني الغناء بمعنى الصوت المرجع المفرح مثلاً مستعمل في كلا الطرفين أو بمعنى الحزن مستعمل فيهما- فمع بطلان هذه الدعوى وامتناع إثباته نقول: كلا الطرفين

مشمئلاً على صحاح الأخبار، وتعدل الامارات يوجب التساقط كما عرفت
في المسألة الأخرى الأصولية، والتمسك بالبراءة يقرر الغناء على الإباحة
الأصلية، فعليكم أن تحكموا بإباحته مطلقاً، فلم حكمتم بتحريمه كذلك؟!

وأما أن يقولوا: لاندري في أي معنى من معنييه استعمل فيها، فنقول
حينئذٍ: يجب الجمع والتوفيق بين الطرفين لإطراح أحدهما والتمسك بالآخر كما
عرفت، فبِمَ تمسكتم في طرح الأحاديث الدالة على الجواز والاستحباب
وصححتم الطرف الآخر الدال على الحرمة وحكمتم بتحريمه مطلقاً؟!

وإن قالوا: نتمسك بمقتضى الاحتياط، نقول: الاحتياط يقتضي أن تكفوا
الناس عن ألسنتكم عند قراءة القرآن والكلمات الحقة من الأذان وغيره من
الأصوات الحسنة المذكرة للجنة ولا تنهوهم عنها لئلا تكونوا في زمرة الناهين عن
المعروف الآمرين بالمنكر حتى يتبين لكم الحق، فإن الاحتياط إنما يكون في
حق من لا يكون على يقين في أمر محتاط فيه، وأما إذا كان على يقين في حقه
فلا معنى للاحتياط فيه، فلعل هذا الذي تنهون عنه يكون معروفاً بحسب الواقع،
فتكونون ناهين عن المعروف وأنتم لا تشعرون، غاية الأمر أن تتوقفوا في أمره
حتى يتبين لكم حقيقته أو بطلانه، فلا تنهوا الناس عنه حتى يظهر لكم حقيقة
الأمر فيه. بل نقول: صراحة الأخبار الواردة في الطرفين لا يبقى اشتباهاً في هذا
الأمر، فإن كنتم في شك في أمرها فاسألوا أهل الذكر حتى تعلموا ما هو الحق.

وكيف يمكن أن يقبل منكم أنكم محتاطون وأكثركم يمنع التغني في
الأعراس مع ورود النص على شرعيته هناك، وبعاضده العقل أيضاً، من جملته
حدوث ميل العزاب إلى النكاح المرغب فيه المؤدي إلى حفظ النوع والنسب
والتجنب عن السفاح والعطب.

وأما ما جوزه بعض الفقهاء فيها فقط فهو تخصيص من غير مخصص لورود
الأحاديث في شرعيته في غيرها أيضاً، ولو فرضنا عدم النص على شرعيته في

غيرها لا يتجبه التخصيص المذكور لأن خصوص السبب لا يختص بالمسبب^(١) ولو تمسك بالوقوف على موضع النص والاقتصار عليه.

قلنا: الوقوف والاقتصار إنما يجوز إذا كان المنصوص عليه مخالفاً لأصل من الأصول، وقد عرفت خلافه. وبالجمل، أمثال هذه الجسارات تشريع محض وتحريم لما أصله الله. ونبيينا (صلى الله عليه وآله) مع جلالة شأنه وكونه سيد الرسل وحبيب إله العالمين، لما حرم على نفسه ما حرم لما جرى بينه وبين بعض أزواجه شدد الله عليه النكير بقوله عز من قائل «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ» الآية^(٢) فكيف يكون معاملته مع من حرم على غيره ما أحل الله له متقولاً عليه تعالى، وقد قال عز من قائل «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ»^(٣) فإذا كانت معاملته تعالى مع نبيه المعلى على هذا التقدير هكذا فما ظنك بمعاملته مع غيره. وهذا ابن طاووس مع علوقه في سائر العلوم لاسيما العلوم النقلية لما تدبر في هذه الآية سلك مسلك الاحتياط واجتناب عن التصنيف في علم الفقه لئلا يكون من المتقولين على الله، والمحتاط يحتاط هكذا، لا من لا يأمن من شر لسانه المؤمنون والمؤمنات بإسناد ارتكاب المحرمات إليهم، عصمنا الله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جريّ وجدير.

خاتمة

لما أصل المخالفون في زمن دولة بني العباس القياس والأخذ بالآراء

(١) في هذه العبارة إيماء لطيف لا يخفى على متتبعي علم المعاني (المؤلف).

(٢) التحريم: ١.

(٣) الحاقّة: ٤٤ - ٤٧.

والشيء الذي سَمَّوه بالاستحسان - الذي لم يقدر أحد منهم إلى زماننا هذا على شرح اسمه كمحرّمي الغناء بالمعنى اللغويّ العاجزين عن شرح اسم الصوت الحسن كما عرفت، وقالوا إن الاستحسان للطافة معناه لا تحمله العبارة كما ذكره الأبهري في شرحه على المختصر العضدي وغيره في غيره، وهذه الجهات تشّتت آراؤهم واضطربت أهواؤهم حتى أنّ أباحنيقة فسر الفراش في قوله (صلى الله عليه وآله) «الولد للفراش وللعاهر الحجر»^(١) بالعقد الصحيح وحكم بإلحاق النسب بين أولاد الزوجة التي تلدها بعد العقد والزوج وإن لم يكن قد دخل بها، وحكم بنفوذ حكم الحاكم ظاهراً وباطناً، فحكم بتحريم الزوجة على الزوج بمجرد حكم الحاكم بثبوت التطليق بشهادة شاهدي زور وأمثالهما من الترهات والجزافات وكثر الخلاف بين تلامذته - تحيّر^(٢) الرشيد في أمر هؤلاء واتمس من الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) أن يكتب له كلاماً موجزاً له أصول وفروع، فكتب (عليه السلام): أنّ أمور الأديان أمران: أمر لا اختلاف فيه بين الأمة وهو ضرورة في الدين لا يقبل الشك، وأمر يحتمل الشك والإنكار، فمن ادّعى شيئاً من هذا القسم فعليه أن يحتجّ عليه بكتاب مجمع على تأويله أو سنة من النبي (صلى الله عليه وآله) لا اختلاف فيها أو قياس تعرف العقول عدله، ولا يسع من استوضح تلك الحجة ردها ووجب عليه قبولها والإقرار والديانة بها، فمن ادّعى شيئاً من هذا الأمر ولم يكن له شيء من هذه الحجج الثلاث، ولا يسع خاصة الأمة وعاقبتها الشك فيه والإنكار له، وهذان الأمران من أمر التوحيد فادونه وأرش الخدش فما فوقه، فهذا المعروض الذي يُعرض عليه أمر الدين، فما ثبت لك برهانه اصطفيته وما غمض عليه

(١) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٦٠٤ باب ٩ من أبواب اللعان حديث ٣، مسند أحمد بن حنبل: ج ٦

ص ١٢٩، سنن أبي داود: ج ٢ كتاب الطلاق ح ٢٢٧٣.

(٢) جواب لقوله: «لما أضلّ المخالفون في زمن...».

صوابه نفيته (انتهى) ^(١).

أقول: هذا قانون كلي أعطانا (عليه السلام) فلنعرض الغناء اللغوي عليه ليعرف حاله، فنقول: لاشك أن حرمة ليست من ضروريات الدين، وإلا لم يختلف فيه أحد، لاسيما فحول العلماء الذين حازوا قصب السبق في مضامير الأفكار، وفازوا لوصل بنات معاني الأبيكار، وبلغوا في المعقول والمنقول درجة الاجتهاد، وانتشر صيت فضلهم في الأقطار والأصقاع، وهل يمكن لمن له أدنى تمييز وعقل دخل في زمرة المكلفين أن يجوز أن يكون أمر من ضروريات الدين مخفياً على أمثال هؤلاء الأعلام المتبحرين في جميع العلوم ومبيناً لمن قرأ ألفية الشهيد وبرحاً من المختصر النافع وشرائع الإسلام وإلا فليجوز غلبة الذباب على العقاب، وليقبل دعوى الرجحان على المحيط من السراب، فبقي أن يكون ما احتمل الشك والاحتمال، فنطلب منكم الدليل على حرمة.

أما الدليل النقلى فحاله ما ذكرنا ويثناه لكم متعين عليكم أن تستدلوا عليه بدليل عقلي، وأكثركم يامعشر المنكرين مستنكفون على الدليل العقلي ومستهزون لمن طالب شيئاً به، وهذا أيضاً تهافت آخر ومعارضة أخرى مع الله ورسوله وخلفائه (عليهم السلام)، وليس هذا الموضع مقام بيان فساد وقد رفع مؤونه عنا صاحب الاحتجاج بتصنيفه هذا الكتاب لبيان بطلان هذا المسلك وأنشدكم بالله هل تجد عقولكم محذوراً في استماع صوت محزن مبلّك حامل لكلمات مذكرة للآخرة ونعيمها مبعدة عن ارتكاب الملذات الحسية الدنية، بحيث إذا استمعه المغمور في الشهوات الدنية الخسيسة المسجون في سجن استدراك اللذات الطبيعية البهيمية فانزعج من مقامه وانقلع من مكانه وتندم مما كان عليه، خائفاً من شدة وطئته وألم عذابه، فتمللمل السليم وبكى

(١) تحف العقول: ص ٤٠٧ مع اختزال وتلخيص.

بكاء الحزين قائلاً: يا أسفي على ما قرطت في جنب الله، ظاهراً من صفحات وجهه وفتلات لسانه وكثرة التوبة وفرط اضطرابه أنه يقول بلسان الحال: «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ»^(١) فَإِنْ ادَّعَيْتُمْ فِيهِ مَحْذُوراً عَقِلياً فَاتَّبُوا بِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَإِلَّا كَفُّوا الْمُؤْمِنِينَ عَنِ أَلْسِنَتِكُمْ لئَلَّا تَكُونُوا مِنَ الْخَاطِئِينَ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ»^(٢) هذا آخر ما أردنا إيراده والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً^(٣).

(١) الأعراف: ٢٣.

(٢) الأحزاب: ٧٠ و ٧١.

(٣) وفي نهاية النسخة جاءت هذه العبارة: قد اتفق الفراغ من كتابة هذه الرسالة الشريفة من النسخة التي بلغت نظر استاذنا المؤلف أدام الله مجده وعلينا ظله العالي في بلدة المؤمنين كاشان حفظها الله من حوادث الدوران في يوم الثلاثاء الحادي عشر من شهر ربيع الثاني من سنة ١١٥١.

٥- تجسيد معانيه في أجراس حروفه

تناسب أجراس حروفه مع صدى معانيه:

من عجيب نظمه وبديع اسلوبه، ذاك تناسب أجراس حروف كلماته المختارة، مع وقع معانيه في النفوس، وكأنما اللفظ والمعنى يتواكبان ويتسابقان في السطو على الأسماع ومشاعر القلوب معاً، ذاك على السمع وهذا على الفؤاد في التثام ووثام. فإن كان تكريراً فلفظاً أنيق، أو تشريعاً فتعبيراً رقيق. وإن تهديداً فكلمة غليظة، أو تهويلاً فلفظة شديدة... وهكذا تتجسد معاني القرآن في قوالب ألفاظه وتنبولور في أجراس حروفه.

ألفاظ وتعايير أم قوامع من حديد؟

هو عندما يهدد أو يندد أو يخبر عن وقع عذاب أليم - فيما سلف بأقوام ظالمين - تراه يصك الآذان بألفاظ ذوات أصوات نحاسية مزعجة، قد تحولت الكلم إلى جلاميد صخر أو قوامع من حديد، وكأنها رُجُم وصواعق ورعود.

عندما تقرأ «والذين كفروا لهم نارٌ جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كلَّ كفور. وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غيرَ الذي كنا نعمل»^(١) يُخيل إليك جرس اللفظة غلظ

الصراخ المختلط المتجاوب من كل جانب، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، كما تُلقي إليك ظلّ الإهمال لهذا الاضطراخ الذي لا يجد من يهتمّ بشأنه أو يلبّيه. وتلمح من وراء ذلك كلّ صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون.

وحين يستقلّ لفظ واحد بهذه الصُّور كلّها، ويدلّك اللفظ عليه قبل دلالة المعنى، يكون ذلك فتاً من التناسق البديع^(١).

* وعندما تستمع إلى قوله تعالى: «مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ^(٢) أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ»^(٣). وكأنّك تحسّ بسمعك صوت هذه الريح العاتية، ولها صرير وصراخ وقعقة وهياج، تُنسف وتُدمر كل شيء، فتصوّر وقع عذاب شديد ألمّ بقوم ظالمين...
* وهكذا عندما تُتلى عليك «إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ. تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ»^(٤) أو «وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ»^(٥) تجد وقع العذاب وشدّته من مضض هذه اللفظة عند اصطكاكها مع صماخ أذنك، واللفظة مضاعفة بجرسها دلالة على مضاعفة العذاب.

* وعند ما تقرأ «فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ. يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتُهُ وَبَنِيهِ - إِلَى قَوْلِهِ - وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ»^(٦) تجد وقع هذا الصراخ المدهش الذي يذيب القلوب وتذهل

(١) التصوير الفني: ص ٧٢.

(٢) صاد حرف مستعل ومصمت ذو صفير. وراء حرف مجهور مندلّ ذو تكرير.

(٣) آل عمران: ١١٧.

(٤) القمر: ١٩ و ٢٠.

(٥) الحاقة: ٦.

النفوس.

قال ابن عباس: (الصاخّة) صيحة القيامة، سمّيت بذلك لأنّ صرختها تصنّع الآذان، أي تدكّها دكّاً عنيفاً تكاد تصمّها. وهكذا اللفظة دلّت عليه برنتها المرعدة ذات وقع صوتيّ عنيف، وكأنّك تشهد الموقف، وقد فاجأك صرخته.

* ونظيرتها «فإذا جاءت الطامة الكبرى»^(١). والطامة: اسم للدهية الكبرى لا يُستطاع دفعها، وهكذا كانت وقعة القيامة تفاجئ بأهوالها ومكابدها، ممّا تذهل وتذيب القلوب، واللفظة دلّت عليه برنتها... قال سيد قطب: ومن الأوصاف التي اشتقها القرآن لיום القيامة: «الصاخّة» و«الطامة» والصاخّة لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها، وشقّه للهواء شقّاً، حتى يصل إلى الأذن صاخّاً ملحاً. والطامة لفظة ذات دويّ وطنين، تخيل إليك أنها تطمّ وتعمّ، كالطوفان يغمر كل شيء ويطويه^(٢).

«كلّا إذا دكّت الأرض دكّاً دكّاً» ويتلو الآية: «وجاء ربّك والملك صفّاً صفّاً. وجيء يومئذٍ بجهنّم يومئذٍ يتذكّر الإنسان وأنّى له الذكرى»^(٣)... وكأنّه عرض عسكري - الذي تشترك فيه جهنّم - بموسيقاه العسكرية المنتظمة الدقات، المنبعثة من البناء اللفظي الشديد الأسر^(٤) وكأنّها قرعات قعاعات. «ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً»^(٥). ما أهول هذه الكلمة في هذا

(١) النازعات: ٣٤.

(٢) التصوير الفني: ص ٧٣.

(٣) الفجر: ٢٢ و٢٣.

(٤) الأسر: القبض على شيء (التصوير ص ٧٦).

(٥) الإنسان: ٧.

الموضع، وما أوقع جرسها المدوي المخوف، المتناسب مع أهوال يوم القيامة، المتطائرها كالبركان الثائر المتقاذف شرارته، لا يسلم منها قريب ولا بعيد.

* وزاده رعباً وهولاً تكراره بوجه آخر كان أخوف: «إنا نخافُ من ربِّنا يوماً عبوساً قطيراً»^(١). كأنه الضيغم الضاري عبس في وجه فريسته عبوساً شديداً، ولعلّه من طول جوعه وضمور بطنه، فكان أشدَّ رعباً -وهو سبع جائع يقصدك لاعن هودة- من بركان، لا قصد له ولا عزم. والتخلص منه ممكن، لأنه لا يتبعك.

* وتقرأ: «وإنَّ منكم لَمَن لَّيْبِطُنْ»^(٢) فترتسم صورة التبطئة في جرس العبارة كلّها، وفي جرس «لَّيْبِطُنْ» خاصّة. وإن اللسان ليكاد يتعثّر، وهو يتخبّط فيها حتى يصل ببطء إلى نهايتها.

* وتتلو حكاية قول هود: «أرأيتم إن كنتُ على بينةٍ من ربِّي وآتاني رحمةً من عنده فَعَمَيْتَ عليكم أنزل مُكْمُوها وأنتم لها كارهون»^(٣). فتحسَّ أنَّ كلمة «أنزل مُكْمُوها» تصوّر جوّ الإكراه، بإدماج كلّ هذه الضمائر في النطق، وشدَّ بعضها إلى بعض، كما يدمج الكارهون مع مايكرهون، ويشدّون إليه وهم منه نافرون.

قال سيد قطب: وهكذا يبدو لَوْنٌ من التناسق -تناسق جرس اللفظ مع نوعية المعنى- أعلى من البلاغة الظاهرية، وأرفع من الفصاحة اللفظية، اللتين يحسبهما بعض الباحثين في القرآن أعظم مزايا القرآن^(٤).

(١) الإنسان: ١٠.

(٢) النساء: ٧٢.

(٣) هود: ٢٨.

(٤) التصوير الفني: ص ٧٢.

* انظر إلى هذا التشبيه البديع: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ»^(١) اللفظ يصور السقوط المرير «خر من السماء» صوت تقطع الأنفاس وجبها في البلعوم من هول هذا السقوط المفاجيء. ثم ماذا بعد؟ «تَخْطَفُهُ الطَّيْرُ» لفوره فيقع فريستها «أو تهوي به الريح في مكانٍ سَحِيقٍ» متقطع الأشلاء، فلا يهتدي إليه أحد. هكذا وبهذه السرعة الخاطفة يطوى مسرح حياة المشرك بالله، وبهذه الخاتمة الأليمة^(٢).

«عُتِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ»^(٣) هذه الكلمة «عتلّ» في مادتها وهياتها (ع: مجهورة مستعلية. تاء: مهموسة شديدة. ل: مجهورة مندلقة) بضمّتين متعاقبتين وتشديد اللام الأخيرة، تمثّل الغلظة الجافية والانهماك في الشهوات وملاذ الحياة السفلى، قبل أن تدلّ عليه الكلمة من المعنى الوضعي اللغوي: الأكل، الجافي، الغليظ.

تلك لفظة دلّت أجراسها على معناها قبل أن تدلّ أوضاعها. ومن ثم فقد تعقبها ما يناسبها «زَينِمٌ»: اللئيم، الدعيّ، الذي لا يبالي بما قال ولا بما قيل فيه. * «وَمَا هُوَ بِمُزَخَّرٍ مِنْ الْعَذَابِ»^(٤) دلّت لفظة الزخزحة على تلك الحركة التدرّجية قبل المعنى.

«فَكُبْكِبُوا فِيهَا»^(٥) كأنّ جرس اللفظة أدلّ على تعاقب الكبو في النار، هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون.

(١) الحج: ٣١.

(٢) التصوير الفني: ص ١٠٣.

(٣) القلم: ١٣.

(٤) البقرة: ٩٦.

(٥) الشعراء: ٩٤.

قال سيد قطب: وحقيقة أنَّ وضع هاتين اللفظتين اللغوي هو الذي يمنحهما هذه الصور وليس هو استعمال القرآن الخاصَّ لهما، كما هو الشأن في الكلمات الماضية، التي اشتقتها خاصة أو استعملها أول مرة، ولكن اختيارها في مكانها بحسب بلاشك في بلاغة التعبير.

* «إِلَّا حَمِيماً وَغَسَاقاً»^(١) انظر إلى هذا التعبير الذي ملؤه الامتهان والاحتقار بشأن الطاغين وتصغير جانبهم والإزراء بحالتهم الفظيعة. إنَّ جهنم كانت ترصدهم فتتلقَّاهم في شَرِّ مآب، ويلبثون فيه أحقاباً، لا يذوقون فيها برذاً ولا شرباً، نعم «إِلَّا حَمِيماً» ماءً ساخناً يشوى الخلق ويزيد في التهاب البطن. «وَغَسَاقاً» ما يغسق، أي ينصب من بدن الحريق، من قيح وصديد، تلك الانصبابة التي تكاد تتقطع من أعضائه المشوَّية تقطعاً. تلك كؤوس الشراب تُقدَّم إلى أولئك الطواغيت، في مثل ذلك الحرِّ القاطع.

شراب نتن قدر، مدَّت إليه أعناقهم ليشربوه، رغم استفظاعه واستقذاره. فياله من فظاعة ومسكنة وتعاسة.

انظر إلى جرس اللفظة «غَسَاقاً» إنها تصوِّر حالة التهوُّع التي تعترى الشارين التَّعَسَاء يكاد يخنقهم ألْمُ شوكة.

«ليس لهم طعامٌ إِلَّا من ضريع»^(٢) وما أدراك ما الضريع؟! إنه طعام «لا يسمن ولا يغني من جوع» لا يسدُّ جوعه ولا يمنع نهماً، سوى مضغة مضيئة يلوّكها الآكل في تلوّ وإرهاق، وتعب ونصب وضمور بطن، يلحقها ضراعة وتعاسة ومسكنة مزرية. قال الراغب: هونبات أحمر متنّ الريح، يلفظه البحر. فاذا اقتاتاه الإبل أضنته تخمته وأثقلته وخامته. قلت: واللفظة بجرسها المرهق

(١) النبأ: ٣٥.

(٢) الغاشية: ٦.

الثقيل^(١) دلت على ضراعة حالة آكله قبل دلالة المعنى الوضعي .
«ولا طعام إلا من غسلين»^(٢) وما أدراك ما الغسلين؟ هي غسالة أقدار
الأبدان، ومن ثم فهي حشالة قبيح وصديد تسيل من قروح أبدان أهل النار
وجروحها. وفي تركيب اللفظة ما ينبىء عن هذا الاستقذار، يمجّها السمع ويتنفّر
منها الطبع.

صفات الحروف

وهذه المناسبة لابد من إلمامة إلى صفات حروف الهجاء ومعتمد أصواتها
الخارجة من الفم. وإليك ما ذكره ابن الحاجب في الشافية:

مخارج الحروف:

مخارج الحروف ستة عشر:

- ١ - فللهمة والهاء والألف، أقصى الحلق.
- ٢ - وللعين والحاء، وسطه.
- ٣ - وللغين والحاء، ادناه.
- ٤ - وللقالف، أقصى اللسان وما فوقه من الحنك .
- ٥ - وللکاف، منها ما يليها.
- ٦ - وللجيم والشين والياء، وسط اللسان وما فوقه من الحنك .
- ٧ - وللضاد، أول إحدى حافتيه وما يليها من الأضراس.

(١) ضاد حرف إجهار رخو مطبق، ومستعل مصمت. وراء حرف إجهار رخو منخفض، ومنذلق متكرر.

ياء حرف لين منخفض. عين منفتح مستعل.

(٢) الحاقة: ٣٦.

- ٨ - ولّام ، مادون طرف اللسان إلى منتهاه وما فوق ذلك .
- ٩ - وللراء ، منها مايليها .
- ١٠ - وللنون ، منها مايليها . والنون أقرب إلى رأس اللسان من الراء .
- ١١ - وللطاء والذال والتاء ، طرف اللسان وأصول الثنايا .
- ١٢ - وللصاد والزاي والسين ، طرف اللسان والثنايا .
- ١٣ - وللطاء والذال والتاء ، طرف اللسان وطرف الثنايا .
- ١٤ - وللفاء باطن الشفة السفلى وطرف الثنايا العليا .
- ١٥ - وللباء والميم والواو ، مابين الشفتين .
- ١٦ - ومخرج المتفرع واضح ، كما يلي :

الحروف المتفرعة:

والحرف المتفرع هو الحرف الذي أشرب صوتاً من غيره، والفصيح ثمانية:
١-٣- همزة بين بين، وهي ثلاثة: مابين الهمزة والألف، ومابينها وبين الواو، ومابينها وبين الياء. فانهإن كانت ساكنة تبدل بحرف حركة ما قبلها، كرأس ويبر وسوت.

وكما في قوله تعالى: «إلى الهداتنا». أصله: «إلى الهدى اثنتا».

وفي قوله: «الذيتمن». أصله: «الذي أوتمن».

وقوله: «ويقولون لي». أصله: «ويقولوا ائذن لي».

قال المحقق الاسترابادي: والهمزة لما كانت أدخل الحروف في الحلق ولها نبرة^(١) كرهة تجري مجرى التهوع^(٢)، ثقلت بذلك على لسان المتلفظ بها، فخففها

(١) النبرة: ارتفاع الصوت في زخمة وكررة بما يجتجه السمع. قال الشاعر:

فأكاد أن يُغشى عليَّ سروراً

إني لأسمعُ نبرة من قولها

(٢) التهوع: تكلف الراء.

قوم، وهم أكثر أهل الحجاز ولا سيما قريش. روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: نزل القرآن بلسان قريش، وليسوا بأصحاب نبر. ولولا أنّ جبرائيل عليه السلام نزل بالهمزة على النبي (صلى الله عليه وآله) ماهزنا، وحققها غيرهم. والتحقيق هو الأصل كسائر الحروف، والتخفيف استحسان^(١).

وإن كانت متحركة وكان قبلها ساكن، واو أو ياء زائدتان لغير الإلحاق، قلبت إليها وأدغمت فيها، كخطية ومقروّة وأفيس، أصله: افيس، تصغير افؤس، جمع فاس.

وإن كان ألفاً، فبين بين هو المشهور.

وإن كان حرفاً صحيحاً أو معتلاً غير ذلك، نقلت حركتها إليه وحذفت، نحو «مسلة» في «مسألة». و«خب» في «خبء» و«شي» في «شيء». و«حوبة» في «حوبة» و«أبويوب» في «أبويوب»^(٢).

* * *

٤- والنون الحفّية، نحو «عنك».

٥- وألف الإمالة. ويسمّيها سبويه ألف الترخيم، لأنّه تليين الصوت.

٦- ولام التفخيم، وهي التي تلي الصاد أو الضاد أو الطاء، إذا كانت هذه الحروف مفتوحة أو ساكنة، كالصلاة ويصلون، فإنّ بعضهم يفخمها. وكذا لام «الله» إذا كان قبلها ضمة أو فتحة.

وزاد سبويه ألف التفخيم، ذكرها في الحروف المستحسنة، وهي الألف التي ينحى بها نحو الواو، كالصلوة والزكوة والحياة، وهي لغة أهل الحجاز وزعموا أنّ كتبهم لهذه الكلمات بالواو كان على هذه اللغة^(٣).

٥ - والصاد كالزاي، بأن ينحى بالصاد نحو الزاي. قال الاسترابادي: وضورع بالصاد الزاي إذا تحركت الصاد وبعدها دال، أَشَمَّ الصاد صوت الزاي^(١).

٦ - والشين كالجيم. ذكرها سيبويه في الحروف المستحسنة، وذكر الجيم التي كالشين في المستهجنة. قال الاسترابادي: وكلتاها شيء واحد. لكنه إنما استحسن الشين المشربة صوت الجيم لأنه إنما يفعل ذلك بها إذا كانت الشين ساكنة قبل الدال. والدال مجهورة شديدة، والشين مهموسة رخوة، تنافي جوهر الدال، ولا سيما إذا كانت ساكنة. لأنَّ الحركة تخرج الحرف عن جوهره فتشرب الشين صوت الجيم التي هي مجهورة شديدة كالـدال، لتناسب الصوت فلا جرم استحسن.

وإنما استهجن الجيم التي كالشين لأنها إنما يفعل ذلك بها إذا سكنت وبعدها دال أو تاء، نحو اجتمعوا وأجدر. وليس بين الجيم والدال، ولا بينهما وبين التاء تباين، بل شديدتان، لكن الطبع ربما يميل لاجتماع الشديتين إلى السلاسة واللين، فيشرب الجيم ما يقاربه في المخرج، وهو الشين. فالفرار من المتنافيين مستحسن، والفرار من المثلين مستهجن. فصار الحرف الواحد مستحسنًا في موضع، ومستهجنًا في موضع آخر، بحسب موقعه^(٢).

* * *

قال ابن الحاجب: وأما الصاد كالسين، والطاء كالتاء، والفاء كالباء، والصاد الضعيفة، والكاف كالجيم، فستهجنة. وأما الجيم كالـكاف، والجيم كالـشين، فلا يتحقق.

(١) شرح الشافية: ج ٣ ص ٢٣٢.

(٢) المصدر: ص ٢٥٥.

قال الاسترابادي: وقرب بعضهم الصاد من السين لكونها من مخرج واحد كما في صبغ وسبع، والطاء التي كالتاء كما في سلطان وسلطان تكون في كلام عجم أهل المشرق كثيراً، لأن الطاء في أصل لغتهم معدومة، فاذا نطقوا بها تكلفوا ما ليس في لغتهم، فنطقوا بشيء بين الطاء والتاء.

وقال السيرافي: الفاء كالباء كثيرة في لغة العجم، وهي على ضربين: أحدهما لفظ الباء أغلب عليه من الفاء، والآخر لفظ الفاء أغلب عليه من الباء، وقد جعلنا حرفين من حروفهم سوى الباء والفاء المخلصين. قال: وأظن أن العرب إنما أخذوا ذلك من العجم لمخالطتهم إياهم.

قال: والضاد الضعيفة إنها لغة قوم ليس في لغتهم ضاد، فاذا احتاجوا إلى التكلم بها في العربية اعتضلت عليهم، وربما أخرجوها ظاء، وربما تكلفوا إخراجها من مخرج الضاد فلم يتأت لهم فخرجت بين الضاد والطاء.

قال الاسترابادي: والكاف كالجيم نحو جافر في كافر، وكذا الجيم التي كالكاف، يقولون في جمل: كمل، وفي رجل: ركل. وهي فاشية في أهل البحرين، وهما جميعاً شيء واحد، إلا أن أصل أحدهما الجيم وأصل الآخر الكاف.

قال: ومن المتفرعة القاف بين القاف والكاف. قال السيرافي: هو مثل الكاف التي كالجيم، والجيم كالكاف. ومنها أيضاً الجيم التي كالزاي، والشين التي كالزاي، كما في أجدر وأشدق.

ومنها الياء كالواو في قيل وبيع - بالإشمام - والواو كالياء في مذعور وابن نور، على ما هو مذكور في باب الإمالة^(١).

(١) شرح الشافية: ج ٣ ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

سمات الحروف

وتنقسم إلى مجهورة ومهموسة، وإلى شديدة ورخوة وما بينهما، وإلى مطبقة ومنفتحة، وإلى مستعلية ومنخفضة، وإلى مندلقة ومصمتة، وإلى حروف القلقلة والصغير واللينه والمنحرف والمكرّر والهاوي والمهتوت. وإليك شرح هذه الأقسام:

المجهورة والمهموسة:

المجهورة: ما ينحصر جري النفس مع تحرّكه. وسمّيت مجهورة لأنّه لا بدّ في بيانها وإخراجها من جهراً، ولا يتهيأ النطق بها إلّا كذلك. ويجمعها حروف (ظَلَّ قَوْرِيض اذ غَزَا جند مطيع)^(١). والمهموسة: بخلافها، فإنّه يتهيأ لك أن تنطق بها وتُسَمَّع منك خفياً كما يمكنك أن تجهرها. والجهر: رفع الصوت، والهمس: إخفاؤه وإتّما يكون الحرف مجهوراً لأنك تشعب الاعتماد في موضعه، فمن إشباع الاعتماد يُحصل ارتفاع الصوت، ومن ضعف الاعتماد يحصل الهمس والإخفاء. ويجمع حروف الهمس قولهم: (ستشحثك خَصَفَه)^(٢) بالوقف على الهاء.

الشديدة والرخوة:

الشديدة: ما ينحصر جري صوته عند إسكانه في مخرجه فلا يجري. أي إذا أسكنته ونطقت به لم يجز الصوت. وحروفها (أجذك قطبت).

(١) القَو: المكان الخالي. والريض: الخطيرة.

(٢) الشحث كالشخذ: التكدّي. وخصفة: اسم امرأة أوقيلة.

والرخوة: ما يجري الصوت عند النطق بها إذا أسكنتها.
والفرق بين الشديدة والمجهورة: أنَّ الشديدة لا يجري الصوت عند النطق بها، بل إنك تسمع به في آنٍ ثم ينقطع، والمجهورة لا اعتبار فيها بعدم جري الصوت، بل الاعتبار فيها بعدم جري النفس عند التصويت بها.
وما بين الشدة والرخوة: ما لا يتم له الانحصار ولا الجري. ويجمعها حروف (لِمْ يَرَوْعْنَا).
ومثال الثلاثة: الحَجَّ والطشَّ والخلَّ، موقوفات عليها، فالجيم شديدة، والشين رخوة، واللام بين بين.

المطبقة والمنفتحة:

المطبقة: ما ينطبق على مخرجه الحنك، أي ينطبق الحنك على اللسان عند النطق بها، وهي الصاد والضاد والطاء والظاء، لأنَّك ترفع اللسان إلى الحنك فيصير كالمطبق على اللسان، فتكون الحروف التي تخرج بينها مطبقاً عليها.
والمنفتحة: بخلافها، لأنَّه يفتح ما بين اللسان والحنك عند النطق بها.

المستعلية والمنخفضة:

المستعلية: ما يرتفع بسببها اللسان، وهي الحروف المطبقة مضافاً إليها الخاء والغين - المعجمتان - والقاف.
والمنخفضة: بخلافها، أي ينخفض معه اللسان ولا يرتفع، وهي ما عداها.

المندلقة والمصمتة:

الذلاقة: الفصاحة والسلاسة في الكلام. وحروف الذلاقة هي أخف الحروف، ويجمعها (مرينفل).

والمصمتة: بخلافها، ولذلك لا توجد في كلمة رباعية أو خماسية إلا شاذاً، لثقلها.

حروف القلقة:

ما ينضم إلى الشدة فيها ضغط في الوقف. ويجمعها (قط طبع). وإنما سميت بذلك لأنها يصحبها ضغط اللسان في مخرجها في الوقف مع شدة الصوت المتصعد من الصدر. وهذا الضغط التام يمنع خروج ذلك الصوت، فإذا أردت بيانها احتجت إلى قلقة اللسان وتحريكه عن موضعه حتى يخرج صوتها فيسمع.

حروف الصفر:

ما يصفر بها، وهي: الصاد والزاي والسين.

حروف اللينة:

هي حروف اللين: الواو والياء والألف.

والمنحرف: حرف اللام، لأن اللسان ينحرف به.

والمكرّر: الراء، لتعثر اللسان به، ولذلك كانت حركته كحركتين.

والهاوي: الألف، لاتساع هواء الصوت به.

والمهتوت: التاء، لخفائها، لأن اهتت سرد الكلام على سرعة، فهو حرف

خفيف لا يصعب التكلم به على سرعة. وقيل: المهتوت هو الهاء.

وهو قول الخليل، قال: لولا هتة في الهاء لأشبهت الحاء. قال النظام الحسن

ابن محمد النيسابوري: ونعني بالهتة العصرة التي فيها دون الحاء. وقال أبو الفتح:

ومن الحروف المهتوت وهو الهاء، لما فيها من الضعف والحقاء^(١).

قائمة صفات الحروف

١	أ	مجهورة	شديدة	منخفضة	منفتحة	مصمتة
٢	ب	مجهورة	شديدة	منخفضة	منفتحة	منذقة قلقلة
٣	ت	مهموسة	شديدة	منخفضة	منفتحة	مصمتة
٤	ث	مهموسة	رخوة	منخفضة	منفتحة	مصمتة
٥	ج	مجهورة	شديدة	منخفضة	منفتحة	منذقة قلقلة
٦	ح	مهموسة	رخوة	منخفضة	منفتحة	مصمتة
٧	خ	مهموسة	رخوة	مستعلية	منفتحة	مصمتة
٨	د	مجهورة	شديدة	منخفضة	منفتحة	منذقة قلقلة
٩	ذ	مجهورة	رخوة	منخفضة	منفتحة	مصمتة
١٠	ر	مجهورة	رخوة	منخفضة	منفتحة	منذقة مكررة
١١	ز	مجهورة	رخوة	منخفضة	منفتحة	مصمتة صغير
١٢	س	مهموسة	رخوة	منخفضة	منفتحة	مصمتة صغير
١٣	ش	مهموسة	رخوة	منخفضة	منفتحة	مصمتة
١٤	ص	مهموسة	رخوة	مستعلية	مطبقة	مصمتة صغير
١٥	ض	مجهورة	رخوة	مستعلية	مطبقة	مصمتة
١٦	ط	مجهورة	شديدة	مستعلية	مطبقة	منذقة قلقلة
١٧	ظ	مجهورة	رخوة	مستعلية	مطبقة	مصمتة

(١) شرح الشافية للنظام النيسابوري: في مبحث الادغام. وراجع أيضاً شرح رضي الدين الاسترابادي:

١٨	ع	مجهورة	رخوة	منخفضة	منفتحة	مصمتة
١٩	غ	مجهورة	رخوة	مستعالية	منفتحة	مصمتة
٢٠	ف	مهموسة	رخوة	منفتحة	منخفضة	منذاقة
٢١	ق	مجهورة	شديدة	منفتحة	مستعالية	مصمتة قلقله
٢٢	ك	مهموسة	شديدة	منفتحة	منخفضة	مصمتة
٢٣	ل	مجهورة	رخوة	منفتحة	منخفضة	منذاقة منحرفة
٢٤	م	مجهورة	رخوة	منفتحة	منخفضة	منذاقة
٢٥	ن	مجهورة	رخوة	منفتحة	منخفضة	منذاقة
٢٦	و	مجهورة	رخوة	منفتحة	منخفضة	مصمتة لين
٢٧	هـ	مهموسة	رخوة	منفتحة	منخفضة	مصمتة
٢٨	ي	مجهورة	رخوة	منفتحة	منخفضة	مصمتة لين

٦- تلاؤم فرائده وتآلف خرائده

الترابط والتناسق المعنوي:

لا شك أن حسن الكلام إنما هو بالتناسب القائم بين أجزائه، من مفتتح لطيف وختام منيف ومقاصد شريفة احتضنها الكلام الواحد. وهكذا كان التناسب بين آيات الذكر الحكيم أنيقاً، والترابط بين جملة وتراكيبه وثيقاً. وهذا التناسب والترابط بين أجزاء كلامه تعالى قد يلحظ في ذات آية واحدة من صدر وذيل هي فاصلتها، أو في آيات جمعها مناسبة واحدة هي التي استدعت نزولهن دفعة واحدة في مجموعة آيات يختلف عددهن، خمساً أو عَشراً أو أقلّ أو أكثر.

وقد يلحظ في مجموعة آيات سورة كاملة، باعتبارها مجموعة واحدة ذات هدف واحد أو أهداف متضامة بعضها إلى بعضها، هي التي شكّلت الهيكل العظمي للسورة، ذات العدد الخاص من الآيات، فاذا ما اكتمل الهدف وتمّ المقصود اكتملت السورة وتمّت أعداد آياتها، الأمر الذي يرتبط مع الهدف المقصود. ومن ثمّ يختلف عدد آيات السور من قصار وطوال.

وهناك مناسبة زعموها قائمة بين خاتمة كل سورة وفتحة السورة التالية لها وقد تكلفها البعض بغير طائل. ولننظر في كل هذه المناسبات:

تناسب الآيات مع بعضها

كان القرآن نزل نجوماً، وفي فترات لمناسبات قد يختلف بعضها عن بعض. وكانت كل مجموعة من الآيات تنزل لمناسبة تخصها، تستدعي وجود رابط بينها بالذات، وهو الذي يشكل سياق الآية في مصطلحهم.

والمناسبة القائمة بين كل مجموعة من الآيات ممّا لا يكاد يخفى، حتى ولو كانت هي مناسبة التضاد، كما أفاده الإمام الزركشي في عدّة من السور جاء فيها ذلك... قال:

وعادة القرآن إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعداً، ليكون ذلك باعثاً على العمل، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه، ليعلم عظم الأمر والناهي. قال: وتأمل سور البقرة والنساء والمائدة وأمثالها تجده كذلك^(١). هذا ما ظهر وجه التناسب فيه.

لكن قد يخفى وجه التناسب، فتقع الحاجة إلى تأمل وتدقيق للوقوف على الجهة الرابطة، لأنّه كلام الحكيم، وقد تحدّى به، فلا بدّ أنه عن حكمة بالغة. * من ذلك قوله تعالى: «يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحجّ وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها»^(٢). فقد يقال: أيّ رابط بين

(٢) البقرة: ١٨٩.

(١) البرهان: ج ١ ص ٤٠.

أحكام الأهلّة وبين حكم إتيان البيوت من ظهورها؟

قيل: إنّه من باب الاستطراد - وهو الانتقال من مقصد إلى آخر لأدنى مناسبة يراه المتكلّم أولى بالقصد - وكأنّه جعل مبدأ كلامه ذريعة لهذا الانتقال، ولكن بلطف وبراعة، وهو من بديع البيان^(١).

قال الزمخشري: لما ذكر أنها مواقيت للحج عمّد إلى التعرّض لمسألة كانت أهمّ بالعلاج، وهي عادة جاهلية كانت بدعة رذيلة، كان أحدهم إذا أحرم لا يدخل حائطاً ولا داراً ولا فسطاطاً، فإن كان من أهل المدرنقب في مؤخرة بيته فيدخل ويخرج منه. وإن كان من أهل الوبر جعل خلف خبائه مدخله ومخرجه، ولم يدخلوا من الباب... بدعة جاهلية مقيّنة لامبرّرها... فلما وقع سؤالهم عن الأهلّة - وهي مواقيت للناس في شؤون حياتهم، وللحج بالذات، ولم يكن كبير فائدة في مثل هذا السؤال - استغلّه تعالى فرصة مناسبة للتعرّض إلى موضوع أهم، كان الأجدر هو السؤال عنه، بغية تركه... على عكس ما كانوا يرونه برّاً، وهو عملٌ تافهٌ مستقبح^(٢).

* وقوله تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» وعقبه بقوله: «وآتينا موسى الكتاب»^(٣). فقد يقال: أيّ رابط بين حادث الإسراء وإتيان موسى الكتاب والتعرّض لحياة بني إسرائيل؟!؟

وهو أيضاً من الاستطراد البديع. كان المقصود الأقصى تذكير بني إسرائيل

(١) قال الأمير العلوي: عليه أكثر القرآن. (الطراز: ج ٣ ص ١٤).

(٢) الكشف: ج ١ ص ٢٣٤ نقلاً بالمعنى.

(٣) الإسراء: ١ و ٢.

بسوء تصرفاتهم في الحياة، وهم في أشرف بقاع الأرض، وفي متناولهم أفضل وسائل الهداية. فبدأ بالكلام عن الإسراء من مكة المكرمة إلى القدس الشريف، وبذلك ناسب الكلام عن هتك هذا الحرم المقدس على يد أبنائه والذين فضلوا بالتشرف فيه، تأنيباً وليتذكروا. وهو من حسن المدخل ولطف المستهل من أروع البديع.

* وقوله تعالى: «لا تحرك به لسانك لتعجل به»^(١). إذ لا تناسب لها ظاهراً مع سياق السورة الواردة في أحوال القيامة وأهوالها. قال جلال الدين السيوطي: وجه مناسبتها لأول السورة وآخرها عسر جداً^(٢). وفي تفسير الرازي وجوه لبيان التناسب. وقد تعسف فيها، وهت قدماء الإمامية أنهم قالوا بأن القرآن قد غُيِّرَ وبُذِلَ وزيد فيه ونقص عنه، والآية من ذلك^(٣).

لكن نزول القرآن منجماً وفي فترات متلاحقة يدفع الإشكال برأسه. ولا موجب لارتكاب التأويل، ولا سيما مع هذا التعسف الباهت الذي ارتكبه شيخ المتشككين.

* وقوله تعالى: «وإن خِفْتُمْ أن لا تُقْسِطُوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء»^(٤). لكن لما كانت الآية السابقة عليها حديثاً عن إيتاء اليتامى أموالهم،

(١) القيامة: ١٧.

(٢) الاتقان: ج ٣ ص ٣٢٨.

(٣) التفسير الكبير: ج ٣٠ ص ٢٢٢.

(٤) النساء: ٣.

والنهي عن تبدل الخبيث بالطيب، وأن لا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً، فربما كان المتكفلون لأمر اليتامى يتحرجون التصرف في أموالهم خشية اختلاطه بأموال أنفسهم فيكون حيفاً لمال اليتيم أحياناً. فكانت قضية الاحتياط في الدين التجنب عن مقارنة أموال اليتامى رأساً. الأمر الذي كان يوجب اختلالاً بشأن اليتامى فلا يتكفلهم المؤمنون الصالحون.

هذا الى جنب وفرة اليتيم في ظل الحروب التي شتتها خصوم الاسلام طول التاريخ. فكان تكفل أمر اليتيم ضرورة إيمانية. اذاً فما المخرج من هذا المأزق؟! والآية نزلت لتري وجهاً من وجوه المخلص.

ولأجل هذا التحرج جاء السؤال التالي: «ويسألونك عن اليتامى»^(١). فكان الجواب: «قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم». أي هذا واجب فرض، وكل أحد يمكنه المواظبة على ترك الحرام. وأخيراً فلو تعنتم لأخذناكم بتكليف أشق وأعنت. اذاً فاسترسلوا في أمركم وشاركوهم في أموالهم كما تشاركون سائر إخوانكم، مع المواظبة على غبطة مصلحة الشريك. فهذا هو خير يعود عليكم نفعه أيضاً.

وأما إذا كانت اليتامى نسوة، فطريق المخلص بشأن مخالطة أموالهم أسهل، «ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن»^(٢).

ففي الآية السابقة ترخيص لنكاحهن «فانكحوا ما طاب لكم من النساء - أي يتامى النساء اللاتي تحت كفالتكم - مثنى وثلاث ورباع»^(٣) والآية بعد

(١) البقرة: ٢٢٠.

(٢) النساء: ١٢٧.

(٣) النساء: ٣.

ذلك تستطرد في شؤون شتى، كما هو دأب القرآن. وعلى أية حال، فالتزويج بهنّ هي إحدى طرق التخلص من مأزق التحرج في مال اليتيم، إذ المرأة تغضّ طرفها عن المداقة في مالها المختلط مع مال زوجها المرافق لها الكافل لشؤونها.

وهذا خامس الوجوه التي ذكرها الطبرسي في توجيه مناسبة الآية^(١) وهو أحسن الوجوه، وأكثر انسجاماً مع سياق الآية، والله العالم.

* * *

* وقوله تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لِمَا يُحييكم واعلموا أنّ الله يحولُ بين المرء وقلبه»^(٢).

قيل: ماهي المناسبة القريبة بين الأمر باستجابة الرسول فيما اذا دعاهم إلى الحياة والتهديد بالحيلولة بين المرء وقلبه؟

وقد أخذت الأشاعرة - وفي مقدمتهم شيخ المتشكّكين الإمام الرازي^(٣) - من هذه الآية - نظراً إلى الدليل - دليلاً على القول بالجبر بأنّ الله هو الذي يجعل المؤمن مؤمناً والكافر كافراً «يُضِلّ من يشاء ويهدي من يشاء»^(٤).

وذهب عنهم أنّ الدعوة في صدر الآية دليل على الاختيار. وحاشا القرآن أن يتناقض كلامه في آية واحدة.

وحاول العلماء تفسير الآية بوجوه أدقّ وأوفى، منها: أنّ في القلب نقطة تحولات مفاجئة، قد يتحوّل الإنسان من حالة إلى أخرى في مصادفة مباغتة، فينقلب الشقي سعيداً أو السعيد شقيّاً، لمواجهة غير مترقبة عارضت مسيرته التي

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ٦.

(٢) الأنفال: ٢٤.

(٣) التفسير الكبير: ج ١٥ ص ١٤٧ - ١٤٨ و ١٨١ - ١٨٢.

(٤) النحل: ٩٣، فاطر: ٨.

كان عليها، زاعماً عكوفه عليها مدة حياته، ولكن رغم مزعومه أخذ في التراجع والانعطاف إلى خلاف مسيره.

وهذا، لِيَخْلُقِ الخوف والرجاء، وطرده اليأس والغرور.

وهذا من أعظم التربية للنفوس البشرية، فلا يأخذها القنوط واليأس إن هي أسرفت في التمرّد والعصيان، ولا يسطو عليها العُجب والاغترار إن هي بلغت مدارج الكمال.

ومنها: أنّ الإسلام دعوة إلى الحياة العُليا والسعادة القصوى. كما أنّ في رفضها والتمرّد عن تعاليمها إمارة للقلوب، وبذلك تموت معالم الانسانية في النفوس وتذهب كرامتها أدراج الرياح، وإذا بهذا الانسان دابةً، فبدلاً من أن يمشي على أربع، يمشي على رجلين لأكثر من ذلك، وفي ذلك هبوط من قمة الشموخ إلى حضيض الهمجية والابتذال.

«ولوشئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه»^(١).

«ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنسأهم أنفسهم»^(٢).

ووجوه أخر ذكرناها في فصل التشابهات من الآيات^(٣).

قال سيّد قطب: من ألوان التناقض الفتي هو ذلك التسلسل المعنوي بين الأغراض في سياق الآيات، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض. وبعضهم يتمحل لهذا التناقض تمحلاً لضرورة له، حتى ليصل إلى حدّ التكلف ليس القرآن بحاجة إلى شيء منه^(٤).

وقال الاستاذ دراز: إنّ هذه النقطة غفل عنها جميع المستشرقين، فضلاً عن

(١) الأعراف: ١٧٦.

(٢) الحشر: ١٩.

(٣) راجع التهيد في علوم القرآن: ج ٣ ص ٢٣٩ - ٢٥٢ تحت رقم ٨٠ الطبعة الثانية.

(٤) التصوير الفتي في القرآن لسيد قطب: ص ٦٩.

بعض علماء المسلمين. فعند ما لاحظ بعضهم بنظرته السطحية عدم توافر التجانس والربط الطبيعي بين المواد التي تتناولها السور لم ير القرآن إلا أشتاتاً من الأفكار المتنوعة، عُولجت بطريقة غير منظّمة، بينما رأى الآخر أن علّة هذا التشيت المزعوم ترجع إلى الحاجة لتخفيف الملل الناتج من رتابة الاسلوب. وهناك فريق آخر لم يرفي الوحدة الأدبية لكل سورة - وما لا يستحيل نقله في أية ترجمة - إلا نوعاً من التعويض لهذا النقص الجوهري في وحدة المعنى. وفريق آخر يضمّ غالبية المستشرقين، رأى أن هذا العيب يرجع إلى الصحابة الذين جمعوا القرآن، وقاموا بهذا الخلط عندما جمعوا أجزاءه ورتّبوها على شكل سور. قال: إنّ هذه التفسيرات لا تبدو صالحة للأخذ بها، إذ من المتفق عليه أن السور كانت بالشكل الذي نقرأها به اليوم، وبتركيبها الحالي، منذ حياة الرسول (صلى الله عليه وآله).

قال: ولقد اتضح أن هناك تخطيطاً واضحاً ومحدّداً للسورة، يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة، ولا جدال في أن طريقة القرآن هذه ليس لها مثيل على الإطلاق في أيّ كتاب في الأدب أو في أيّ مجال آخر، يمكن أن يكون قد تمّ تأليفه على هذا النحو. وإذا كانت السور القرآنية من نتاج ظروف النزول تكون وحدتها المنطقية والأدبية معجزة المعجزات^(١).

(١) المدخل إلى القرآن الكريم (أهداف كل سورة: عبدالله محمود شحاته: ص ٥ - ٦).

التناسب القائم في كل سورة بالذات

الوحدة الموضوعية:

ومما يسترعي الانتباه ما تشتمل عليه كل سورة من أهداف خاصة تستهدفها لغرض الإيفاء بها وأداء ما فيها من رسالة بالذات. الأمر الذي يوجه مصير انتخابها في كيفية لحن الأداء وفي كمية عدد الآيات. ينبك بذلك اختلاف السور في عدد الآي، قليلها وكثيرها، فما لم تستوف الهدف لم تكتمل السورة، قصرت أم طالت. وهكذا اختلاف لهجاتها من شديدة فعتدلة وإلى ليّنة خفيفة. فلا بد من حكمة مقتضية لهذا التنوع في العدد واللحن، لأنه من صنع عليم حكيم.

هذا مضافاً إلى ما لكل سورة من حسن مطلع ولطف ختام، فلا بد أن تحتضن مقاصد هي متلازمة مع هذا البدء والختام، وبذلك يتم حسن الائتلاف والانسجام.

ومن ثم فن الضرورة - بمقتضى الحكمة - أن تشتمل كل سورة على نظام خاص يستوعب تمام السورة من مفتتحها حتى نهاية المطاف، وهذا هو الذي اصطالحوا عليه من الوحدة الموضوعية التي تحتضنها كل سورة بذاتها.

ولسيد قطب محاولة موفقة - إلى حد ما - في سبيل الإحاطة بما تشتمل عليه كل سورة من أهداف. يقدم فكرة عامة عن السورة بين يدي تفسيرها، وبياناً

إجمالياً عن مقاصد السورة قبل الورود في التفصيل، ممّا يدلّ على تسلسل طبيعي في كل سورة تنتقل خلاله من غرض إلى غرض حتى تنتهي إلى تمام المقصود، تناسقاً معنوياً رتيباً، تنبّه له المتأخرون في كل سورة بالذات. ولم يزل العمل مستمراً في البلوغ إلى هذا الهدف البلاغي البديع في جميع السور، لكن يجب الترتيب دون التسرع، ونحن في بداية المرحلة، فلا يكون هناك تكلف أو تمحّل لضرورة إليه.

وقال الاستاذ المدني: إنّ في كل سورة من سور القرآن الكريم روحاً تسري في آياتها، وتسيطر على مبادئها وأحكامها وتوجيهاتها واسلوبها. قال: ومن الواضح أنّ سور القرآن - مع كون كل واحدة منها ذات طابع خاص، وروح تسرى في نواحيها - لا يمكن أن تعدّ فصولاً أو أبواباً مقسّمة منسّقة على نمط التأليف التي يؤلّفها الناس. ومن أراد أن يفهمها على ذلك أو أن يفسرها على ذلك فإنه يكون متكلفاً مشتتاً، محاولاً أن يخرج بالقرآن عن اسلوبه الخاص، الذي هو التنقل والمراوحة والتجول، وبثّ العظة في تضاعيف القول، والوقوف عند العبرة لتجليتها، والتوجّه إلى مغزاها، وانتهاز الفرصة أينما واثت، لدعم العقيدة السليمة والمبادئ القويمة.

إنّ هناك فرقاً بين من يحاول أن يفعل ذلك، ومن يحاول أن يجعل القارئ يلمح الروح الساري والبيئة المعنوية الخاصة التي تجول فيها السورة دون أن يخرج التنزيل الحكيم عن سنّته واسلوبه الذي انفرد به، وكان من أهمّ نواحي الإعجاز فيه... وهذه الطريقة في الدراسة القرآنية أجدى على الناس من تتبّع الآيات آية بعد آية، فإنّ ذلك لا يعطي المنظر العام، ولا يساعد على تصوّر عظمة الصورة مجتمعة الملامح، منضّمة التقاسيم، كاملة الوضع^(١).

(١) محمد عمّاد المدني: المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء: ص ٥ - ٧ (الأهداف: ص ٧).

وبعد فإليك نماذج من محاولات بُذلت للحصول على تلك الوحدات الموضوعية التي تشتمل عليها كل سورة لذاتها بحيث كادت تقرب من نظم التأليف من ديباجة ومقاصد وخاتمة في تبويب رتيب، حصولاً على قدر الجهد المبذول، والله من وراء القصد.

سورة الفاتحة: مايشتمل عليه هذه السورة القصيرة من نظم وترتيب طبيعي، هو من أبدع النظم التي تصوّر موقف العبد تجاه ربه الكريم، في ضراعة وخشوع، مسترحماً مبتهلاً إتياء تعالى أن يهديه سواء السبيل وينعم عليه بأفضل نعمه وآلائه، في اسلوب جميل وسبك طريف.

إنّ هذه السورة المباركة انتظمت من ثلاثة مقاطع، كل مقطع مرحلة هي مقدّمة للمرحلة التالية في تدرّج رتيب، ويتمثّل خلالها أدب العبد المائل بين يدي مولاه. تلك مراحل يجتازها في إناقة يريد مسألته. يمجّده أولاً، ثم ينقطع إليه كمال الانقطاع، وأخيراً يعرض حاجته في اسلوب لطيف: ينتقل من الغيبة إلى الخطاب، وكأنه كان في حجاب عن وجه سيّده المتفّصل عليه بالإنعام، ثم مثل بين يديه وحُظي بالحضور.

قالوا^(١): إنّ العبد إذا افتتح حمد مولاه الحقيقي بالحمد - عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله: «الحمد لله» الدالّ على اختصاصه بالحمد، وأنه حقيق به - وجد من نفسه لامحالة محرّكاً للإقبال عليه. فاذا انتقل على نحو الافتتاح الى قوله: «رب العالمين» - الدالّ على أنه مالك للعالمين، لا يخرج منهم شيء عن ملكوته وربوبيته - قوى ذلك المحرّك. ثم انتقل إلى قوله «الرحمن الرحيم» الدالّ على أنه منعم بأنواع النعم جلائلها ودقائقها، تضاعفت قوّة ذلك المحرّك. ثم اذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العظام، وهي قوله: «مالك يوم

(١) الزمخشري في الكشاف: ج ١ ص ١٤.

الدين» الدالة على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء، تناهت قوّته، وأوجب الإقبال عليه، وخطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمّات: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ». وهذا كمال الانقطاع بيديه العبد لدى مولاه، يمهّد بها أسباب الشفاعة، فيردفها مع عرض حاجته، بُغية قضائها ونجاحها، والتوفيق يرافقه لا محالة.

وسورة البقرة - وهي أولى سورة نزلت بالمدينة، واكتملت لعدة سنوات، ونزلت خلالها سور وآيات - تراها على طولها، منتظمة على اسلوب رتيب: مقدّمة لا بدّ منها، ثم دعوة، وأخيراً تشريع^(١).

أمّا المقدّمة ففي بيان طوائف الناس ومواقفهم تجاه الدعوة، إمّا متعهد يخضع للحقّ الصريح، أو معاند يجحد بآيات الله، أو منافق يراوغ مراوغة الكلاب. أمّا الشكّ فلا مجال له بعد وضوح الحقّ ووفور دلائله. وقد نفاه القرآن الكريم «ذلك الكتاب لا ريب فيه».

وقد أعلن الدعوة بتوجيه نداء عامّ إلى كافة الناس «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ»^(٢) ودعمها بدلائل وبراهين نيّرة، مستشهداً بسابق حياة الانسان منذ بدء الخلقة، وتصرفاته الغاشمة في الحياة، ولا سيّما حياة إسرائيل السوداء المليئة بالمخازي والآثام. وهي الأُمّة الوحيدة التي تعرفها العرب ولهم معها نسب قريب.

ثمّ يأتي دور التشريع^(٣) ويتقدّمة الحديث عن الكعبة وتشريفها، وبيان النسخ والإنساء في الشرائع. فيبتدئ بتحويل القبلة^(٤) وتشريع الحجّ والجهاد

(١) المقدمة في (٢٠) آية. والدعوة في قريب من (١٢٤) آية. والتشريع (١٤٢).

(٢) البقرة: ٢١.

(٣) من الآية رقم ١٢٥.

(٤) الآية رقم ١٤٤.

والقتال في سبيل الله، والصوم والزكاة والاعتكاف، والنكاح والطلاق والعدد، والمحيض والرضاع والأيمان، والوصية والدين والربا، والتجارة الحاضرة، وبذلك تنتهي السورة.

هذه الصبغة العامة للسورة، وفي ضمنها الاستطراق إلى عدة مواضع بالمناسبة، كما هي طريقة القرآن في جمعه لشتات الأمور.

وفي ختام السورة^(١) جاء الحديث عن ملكوت السماوات والأرض، وعلمه تعالى بما في الصدور فيحاسب العباد عليه، وعن إيمان الرسول بما أنزل إليه، والمؤمنون على أثره، وأن لا تكليف بغير المستطاع، ولا بد من الاستغفار على الخطايا وطلب فضله تعالى ورحمته في نهاية المطاف.

والمناسبة ظاهرة بعد ذلك التفصيل عن دلائل الدعوة ومعالم التشريع. وقد جهد الإمام الرازي في بيان النظم القائم بين هذه الآيات الثلاث بالذات وما سبقتها من دلائل التوحيد وتشريع الأحكام، وذكر في ذلك وجوهاً لأبأس بها نسبياً، وعقبها بقوله:

ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أنني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف، غير منتبهين لهذه الأمور. ثم تمثل بقول الشاعر:

والنجم تستصغر الأبصار رؤيته والذنب للطرف لا للنجم في الصغر^(٢)

(١) الآيات رقم ٢٨٤ و ٢٨٥ و ٢٨٦.

(٢) التفسير الكبير ج ٧ ص ١٢٧.

والآيتان الأخيرتان منها قوله تعالى: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ
وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لِطَائِفَةٍ لَنَا بِهِ
وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» (١).

انظر كيف تناسق البدء والختام، وكيف تجمعت مواضع السورة
وأهدافها، ملخصة في آخريان، ليتأكد أولها بآخرها بهذا الشكل البديع.

* * *

ولعلنا في مجال آتٍ نعرض سوراً أخرى تكشف لنا وجه التناسب القائم
فيها في عدد آياتها الخاص ولحنها الخاص إن شاء الله تعالى. ولا تزال المحاولات
دائرة في هذا الكشف بوجه عام، نسأل الله التوفيق والتسديد.

تناسب فواصل الآي

قال الأستاذ أبو الحسن علي بن عيسى الرقاني (توفي سنة ٣٨٦): الفواصل حروف متشاكلة في مقاطع الآيات، توجب حسن إفهام المعاني. والفواصل في القرآن جمال وبلاغة، لأنها تتبع المعاني وتزيدها حكمةً وبهاءً كما تكسوها رونقاً ورؤاءً. على خلاف أسجاع الكُتّهان، إنها عيب وعيّ وفضول في الكلام، لأنّ المعاني في الأسجاع هي التي تكون تابعة وليست بالمقصودة، ومن ثمّ فهو من قلب الحكمة في باب الدلالات - حسب ما يأتي^(١) - أمّا فواصل القرآن فكلّها بلاغة وحكمة وإناقة، لأنها طريق إلى إفهام المعاني والإجادة في المباني. وقد بلغ القرآن فيها حدّ الإعجاز فوق الإعجاب.

قال الامام بدر الدين الزركشي: من المواضع التي يُتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام، وهي كلمات وحروف متشاكلة في اللفظ، فلا بدّ أن تكون متناسبة مع المعنى تمام المناسبة، وإلاّ لتفكّك الكلام وخرج بعضه عن بعض. وفواصل القرآن العظيم لا تخرج عن ذلك، لكنّ منه ما يظهر، ومنه ما يستخرج بالتأمل لليب^(٢).

(٢) البرهان: ج ١ ص ٧٨.

(١) سننقل كلامه في السجع. راجع النكت في الإعجاز: ص ٩٧.

والفواصل في القرآن - على ماحققه الاستاذ أبو محمد عبد العظيم بن عبد الواحد المعروف بابن أبي الاصبع (توفي سنة ٦٥٤) - على أربعة وجوه:

- ١ - التمكن، وهو أن يمهد قبلها تمهيداً تأتي به الفاصلة ممكّنة في موضعها.
- ٢ - والتصدير، وهو أن يتقدّم من لفظها في صدر الكلام، ويسمى ردّ العجز على الصدر.
- ٣ - والتوشيح، وهو أن يكون سوق الكلام بحيث يستدعي الانتهاء إلى تلك الخاتمة.

٤ - والايفال، وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة زائدة على أصل المعنى^(١). وإليك شرح هذه الوجوه مع بيان أمثلتها:

١ - التمكن:

هو: أن يُمهد قبل نهاية الآية تمهيداً تأتي الفاصلة معها متمكّنة في موضعها، مستقرّة في قرارها، مطمئنة في محلّها، غير نافرة ولا قلقة، متعلّقاً معناها بمعنى الكلام كله تعلقاً تامّاً، بحيث لو طرحت لا اختلّ المعنى واضطرب المقصود من الكلام، وتشوّش على الفهم، وبحيث لو سكّت الناطق عنها لكمله السامع بطبعه السليم^(٢).

(١) معترك الاقران: ج ١ ص ٣٩.

(٢) حكي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: «فإن زلّتم من بعد ما جاء تكم البيّنات فاعلموا أن الله غفور رحيم» - ولم يكن قرأ القرآن - فقال: إن هذا ليس بكلام الله، لأنّ الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل، لأنّه إغراء عليه (معترك الاقران: ج ١ ص ٤٠) وصحيح الآية «فاعلموا أن الله عزيز حكيم» البقرة: ٢٠٩.

قال الامام بدر الدين الزركشي: وهذا الباب يُطلّعك على سرّ عظيم من أسرار القرآن الكريم، فاشدّد يدك به^(١).

* ومن أمثلته قوله تعالى: «وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً»^(٢).

ولا يخفى وجه المناسبة التامة.

* وقوله تعالى: «أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إنّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون. أولم يروا أنّا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُز فنُخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يُبصرون»^(٣).

لما كانت الآية الأولى تذكرة وعبرة بما أصاب القرون الأولى، ولا عبرة بأحوال الماضين لولا الاستماع إلى قصصهم، فختمت بما يناسبه «يسمعون».

أمّا الآية الثانية فكان الاعتبار فيها بأمر مشهود منظور، فناسب الختم بالابصار. وقوله تعالى: «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير»^(٤).

الشيء إذا بلغ في اللطافة غايتها قصرت الأبصار عن دركه. فناسب قوله: «وهو اللطيف» قوله: «لا تدركه الأبصار». والعالم بالشيء إذا بلغ كنهه وأحاط به علماً كان خبيراً به، فناسب قوله: «الخبير» قوله: «وهو يدرك الأبصار»، جمعاً محليّ باللام، وهو يفيد العموم الدالّ على إحاطته تعالى. ومناسبة أشد: أنّ قوله: «وهو اللطيف الخبير» برهان على عدم إمكان إدراكه بالأبصار وأنه هو الذي يحيط بالأبصار، فكان كدعوى مقرونة بشاهد

(١) البرهان: ج ١ ص ٧٩.

(٢) الأحزاب: ٢٥.

(٣) السجدة: ٢٦ و ٢٧.

(٤) الأنعام: ١٠٣.

دليل.

* وقوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوُوفٌ رَحِيمٌ»^(١).

ختم الآية الأولى بقوله: «لطيفٌ خبيرٌ»، لأنَّ «لطف» هنا من «اللطف» بمعنى الرفق والرأفة، بخلافه هناك، كان من «اللطافة» بمعنى الدقة ضد الضخامة والكشافة، فلما كان الكلام في إنزال الماء من السماء وإنبات الأرض... وهو السبب الأول لإمكان المعيشة على الأرض، فناسبه الإشارة بجانب لطفه تعالى بعباده، إلى جنب علمه المحيط بمواضع فقرهم وحوادثهم في الحياة.

وختم الثانية بقوله: «لهوَ الغنيّ الحميد» تنبيهاً على أنه تعالى في غنى عن ملك السماوات والأرض وأنه يَجْلُ شأنه ويعزّ جانبه من أن يعتزّ بملك، ولو كان المملوك عوالم الملكوت فهو أعزّ شأنًا وأرفع جانباً من الاعتزاز بهكذا أمور، هي صغيرة في جنب عظمة ذاته تعالى وفخامة جانبه المرتفع إليه كلُّ ثناء ومحمدة في عالم الوجود.

وختم الثالثة بقوله: «لَرَوُوفٌ رحيمٌ» لأنّه ذكر جعل الأرض وما فيها، والبحر وما عليها في خدمة الانسان. وأمسك بقذائف السماء أن تهدم الحياة على الأرض... فهذا كله ناشىء عن رأفته تعالى بعباده ورحمته عليهم.

* وقوله تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بُضِيَاءٍ أَفْلا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ
النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفْلا
تُبْصِرُونَ»^(١).

خَتَمَتِ الْآيَةُ الْأُولَى بِقَوْلِهِ: «أَفْلا تَسْمَعُونَ» لِأَنَّهُ الْمُنَاسِبُ لَذِكْرِ اللَّيْلِ
السَّرْمَدِ، وَهِيَ الظُّلْمَةُ الْمَطْبُوقَةُ، لِامُوضَعِ فِيهَا لِحَسِّ الْبَصَرِ، سَوَى حَسِّ السَّمْعِ
يَسْمَعُ حَسِيسَهَا.

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَّةُ، فَكَانَ الْكَلَامُ فِيهَا عَنِ النَّهَارِ السَّرْمَدِ، فَنَاسَبَهُ الْإِبْصَارُ.
قَالَ الزَّرْكَشِيُّ: وَهَذَا مِنْ دَقِيقِ الْمُنَاسَبَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ.

* وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ
وَمَا يَبْتَثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ
السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ»^(٢).

خَتَمَتِ الْآيَةُ الْأُولَى بِقَوْلِهِ: «لِلْمُؤْمِنِينَ». وَالثَّانِيَّةُ «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ». وَالثَّلَاثَةُ
«لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» لِأَنَّ الْعَوَالِمَ كُلَّهَا هِيَ دَلِيلُ الصَّنْعِ الْبَاعِثُ عَلَى الْإِيمَانِ. أَمَّا
التَّدَبُّرُ فِي تَفَاصِيلِ الْخَلْقِ الدَّالَّةُ عَلَى التَّدْبِيرِ فَهُوَ دَلِيلُ النِّظَمِ الْمَوْجِبُ لِلْإِقَانِ.
وَأَخِيرًا فَإِنَّ الَّذِي يَدْعُو لِلإِيمَانِ وَالْيَقِينِ بِسَبَبِ التَّدَبُّرِ فِي آيَاتِهِ تَعَالَى وَالتَّفَكُّرِ فِي
خَلْقِهِ هُوَ شَرَفُ الْعَقْلِ، الْمَوْجُودِ الْمَفْضَّلُ فِي كَيَانِ الْإِنْسَانِ.

* وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً
فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ
عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

(١) القصص: ٧١ و ٧٢.

(٢) الجاثية: ٣ - ٥.

الخالقين»^(١).

فسياق الآية بهذا النظم البديع، وتسلسل الخلقة بهذا النمط الرتيب، ليقضى بختمها بهكذا تحميد وتحسين عجيب. فقد روي أنّ بعض الصحابة -يقال: إنه معاذ بن جبل- حين نزلت الآية، بادر إلى تحسينها والإعجاب بها، فنطق بهذه الخاتمة قبل نزولها. فضحك رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقال لمعاذ: بها خُتِمت^(٢).

٢ - التصدير:

هو أن تكون الفاصلة مذكورة بمادتها في صدر الآية، ويسمى أيضاً: ردّ العجز على الصدر. وهو من حسن البديع، إذ يرتبط صدر الكلام مع ذيله بوشائج من التلاحم والوئام. قال ابن رشيق: وهذا يُكسب الكلام أثبة، ويكسوه رونقاً ودباجة، ويزيده مائية وطلاوة^(٣).

من ذلك قوله تعالى: «وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ»^(٤). وقوله: «وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»^(٥). «لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى»^(٦).

وقد يكون التشاكل لفظياً بحتاً، وهو من لطف البديع، كقوله تعالى: «قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ»^(٧)، أي من الناقين.

-
(١) المؤمنون: ١٢ - ١٤.	(٥) الأنعام: ١٠.
(٢) معترك الاقراّن: ج ١ ص ٤٠.	(٦) طه: ٦١.
(٣) العمدة: ج ٢ ص ٣.	(٧) الشعراء: ١٦٨.
(٤) آل عمران: ٨.	

٣ - التوشيح:

هو أن يكون سَوَق الكلام بحيث يستدعي بطبعه الانتهاء إلى تلك الخاتمة، حتى لو سكت المتكلم عن النطق بها لترتّب بها المستمعون. وهو قريب من التسهيم في اصطلاحهم^(١): أن يكون الكلام ممّا يرشد إلى عجزه. ولذا قيل: الفاصلة تُعلم قبل ذكرها. قال الزركشي: وسمّاه ابن وكيع (هو القاضي أبوبكر محمد بن خلف توفي سنة ٣٠٦) «المطيع» لأنّ صدره مطمع في عجزه^(٢). وهذا من بديع البيان وعجيبه، فمن ذلك ما تقدّم من قوله تعالى: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»^(٣).

وقوله تعالى: «وَأَيُّ لَهِمَّ اللَّيْلِ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ»^(٤).
وقوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»^(٥).

٤ - الإيغال:

وهو باب عظيم الشأن من أبواب البديع، هو عبارة عن ختم الكلام بما يفيد نكتة يتمّ المعنى بدونها. مأخوذ من أوغل في البلاد: إذا ذهب وبالع وابتعد فيها^(٦) وهو بمنزلة التأكيد المبالغ فيه.

(١) ابن أبي الاصبع، بديع القرآن: ص ١٠٠.

(٢) البرهان للزركشي: ج ١ ص ٩٥.

(٣) المؤمنون: ١٤.

(٤) يس: ٣٧.

(٥) الزلزلة: ٦ - ٨.

(٦) أنوار الربيع: ج ٥ ص ٣٣٣.

* كقوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ»^(١). فقد تمّ الكلام عند قوله: «فَمَا رَبِّحَتْ تِجَارَتُهُمْ» لكنه أوغل في تفضيع حالتهم، وأفاد زيادة المبالغة في ضلالتهم، حيث كان عدم الاسترباح مستنداً إلى عدم اهتدائهم إلى طرق التجارة، ومن ثم استبدلوا بالخير شراً وبالصلاح فساداً.

* وقوله تعالى: «قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ»^(٢). حيث قد تمّ المعنى بدون «وَهُمْ مهتدون» إذ الرسل مهتدون لا محالة. لكنه إيغالاً أفاد زيادة الحثّ على الاتّباع والترغيب في الرسل. وأنّ متابعتهم لا تستدعي خسراناً أبداً.

* وقوله تعالى: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ»^(٣). قال الزركشي: قد تمّ الكلام بدون قوله: «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»، غير أنّ رعاية الفواصل أفادت زيادة معنى، هو: أنّ أهل اليقين هم الذين يُدركون محاسن أحكامه تعالى، إذ لا يحجب أبصارهم ستارُ الجاهلية والعناد.

* وقوله تعالى: «وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ»^(٤). فقد تمّ المقصود بدون «إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ» لولا أنّه أفاد المبالغة في عدم إمكان الإسماع، لأنّ الأصمّ إذا ولّى مدبراً كان أبلغ في تغافله وإعراضه عن الانصياع للدعوة.

فواصل خفي وجه تناسبها:

* من ذلك قوله تعالى: «قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ

(١) البقرة: ١٦.

(٢) يس: ٢٠ و ٢١.

(٣) المائدة: ٥٠.

(٤) النمل: ٨٠.

آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ»^(١).

وربما خفي وجه مناسبة وصف نبيّهم بالحلم والرشد - وهي الكياسة ووفور العقل - مع استنكارهم عليه: كيف تمنعهم صلاته ودعاؤه من اتباع سيرة آبائهم، وأن يتصرفوا في أموالهم ما يشاؤون؟! فلا تتناسب - ظاهراً - هذه الخاتمة مع مقصودهم في ذلك المقال الاستنكاري!

لكن المشكلة تنحلّ إذا ما عرفنا أنّ مقامهم ذاك إنما قالوه على وجه السخرية والهزء. قال الزمخشري: وأرادوا بقولهم: «إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» نسبته إلى غاية السفه والعيّ فعكسوا ليهتكّموا به، كما يتهكّم بالشحيح الذي لا يبضّ حجره^(٢). فيقال له: لو أبصرك حاتم لسجد لك! وقيل: معناه إنك للمتواصف في قومك بالحلم والرشد، يعنون: أنّ ما تأمر به لا يطابق حالك وما شُهرت به^(٣).

الحلم: التؤدة والاناة، ضدّ الطيش. والرشد: البصيرة في تدبير المعاش والقدرة على التصرف في الأموال وفق الأصول. فالعنى: إن كنت ذا حلم فكيف تمنعنا عن السير على منهج الآباء، وهو مقتضى العقل أن لا يعدل الإنسان عمّا جرّبه الأسلاف؟! وإن كنت رشيداً في عقلك فكيف تمنعنا عن التصرف في أموالنا حسب إرادتنا، والناس مسلّطون على أموالهم، يتصرفون فيها ما يشاؤون، وهي قاعدة عقلانية توافقت عليها العقلاء؟! * وقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»^(٤).

(١) هود: ٨٧.

(٢) يقال في المثل: ما يبضّ حجره أي ماتنذى، من بضّ الماء بضياً: اذا سال.

(٣) الكشف: ج ٢ ص ٤٢٠.

(٤) البقرة: ٢٩.

وقوله: «قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ يَلْعَنُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(١).

ففي بادئ النظر كان المتناسب ختم آية البقرة بالقدر، لأنها حديث عن الخلق، وختم آية آل عمران بالعلم، لأنها حديث عن علمه بما في الصدور. لكن الحديث هناك كان عن الخلق والتدبير لآته تعالى قال: «خلق لكم» أي في مصالحكم حسب حاجاتكم وتأمين معاشكم، فناسبه الختم بالعلم بشؤون الخليقة والإحاطة بمصالحهم.

أما في آية آل عمران فكان السياق سياق وعيد وتحذير، والنهي عن اتخاذ الكافرين أولياء «وَيُحَدِّثُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرَ». فناسبه الختم بالقدر، وإن الله على كل شيء عليم ومنه جزاء المعتدي - قدير.

* وقوله تعالى: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا»^(٢). فلا تناسب ظاهراً بين تسبيح الأشياء والختم بالحلم والمغفرة.

لكن السياق كان عرضاً مسهباً عن سيئات أعمال كانت تقوم به عرب الجاهلية «كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا»^(٣). فلغرض تحريضهم على التوبة عنها والرجوع إلى شريعة الله المقدسة عقبها بالحديث عن تسبيح ما في هذا الكون، فليكونوا كغيرهم من سائر الخلائق. فناسبه الختم بالحلم عما فعلوه في حينه، والغفران عما ارتكبوه إذا رجعوا وأتابوا.

نكت وظرف:

قال الإمام بدر الدين الزركشي: من بديع هذا النوع اختلاف الفاصلتين في

(٣) الإسراء: ٣٨.

(٢) الإسراء: ٤٤.

(١) آل عمران: ٢٩.

موضعين أو أكثر، والآية واحدة مكررة، لنكتة لطيفة.

* من ذلك قوله تعالى: «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظَلُومٌ كَفَّارٌ»^(١).

وقوله: «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفورٌ رحيمٌ»^(٢).

والسؤال هو: ما الحكمة في تخصيص آية النحل بوصف المُنعم، وآية إبراهيم بوصف المُنعم عليه؟

والجواب: إن السياق في سورة النحل في وصف الله تعالى وبيان عظمتة ودلائل فيضه، فيبدأ بخلق السماوات والأرض، ثم خلق الإنسان والأنعام والدواب، وإنزال المطر وإنبات الزرع، وتسخير الليل والنهار، وما أودع الله في بطون الأرض والبحار والجبال، «وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ»^(٣) فينتهي إلى قوله «أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ»^(٤) ويعقبها بقوله: «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفورٌ رحيمٌ».

والآية في سورة إبراهيم سبقت لبيان وصف الإنسان وجوهره وتمرده عن الصراط، فيبدأ بالويل للكافرين من عذاب شديد «الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا»^(٥) ثم يذكر تصرف الإنسان تجاه دعوة الأنبياء «وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ. أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ، وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ»^(٦). «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي

(٤) النحل: ١٧.

(٥) إبراهيم: ٣.

(٦) إبراهيم: ٩ و ٨.

(١) إبراهيم: ٣٤.

(٢) النحل: ١٨.

(٣) النحل: ١٦.

مَلَّتْنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ»^(١) إلى أن ينتهى إلى قوله: «أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ»^(٢) وهكذا كلما جَلَّتْ نِعْمُهُ وَعَظُمَتْ آلاؤُهُ عَلَى هَذَا الْإِنْسَانِ ازداد جَوْحًا وَتَمَرَّدًا وَعَصِيَانًا. «وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ»^(٣).

وأما اختصاص وصف الرحمة والغفران هناك بالذكر من بين الصفات فلمقابلة الظلم والكفران من الإنسان هنا. فَإِنَّ رَحْمَتَهُ تَعَالَى أَوْسَعُ مِنْ سَخَطِهِ: «يَا مَنْ وَسَّعَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ». «وَرَحْمَتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ»^(٤). وهكذا كلما تَمَادَى الْإِنْسَانُ فِي ظُلْمِهِ وَعَتَوَهُ فَإِنَّ أَبْوَابَ التَّوْبَةِ مَفْتُوحَةٌ، وَالطَّرِيقُ إِلَى غُفْرَانِهِ تَعَالَى مُشْرَعَةٌ: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ»^(٥).

* ونظيره قوله تعالى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ»^(٦).

وقوله سبحانه: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»^(٧).

أما الختام في فصلت فعلى الأصل، لآتة تعالى لا يضيع عمل عامل «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»^(٨).

(٥) الزمر: ٥٣ و ٥٤.

(٦) الجاثية: ١٥.

(٧) فصلت: ٤٦.

(٨) الزلزلة: ٧ و ٨.

(١) إبراهيم: ١٣.

(٢) إبراهيم: ٢٨.

(٣) إبراهيم: ٣٤.

(٤) الأعراف: ١٥٦.

أما الجاثية - وإن كان مآل المعنى إلى ذلك أيضاً - فإن المناسبة في مثل هذا التعبير كان لأجل سبقها بقوله: «قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»^(١) فناسب الحديث عن القيامة.

* وقوله تعالى في سورة المائدة: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» كررها ثلاث مرات^(٢)، وختم الأولى بقوله: «فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ». والثانية: «هُمُ الظَّالِمُونَ». والثالثة: «هُمُ الْفَاسِقُونَ».

أما الآية الأولى فوردها أصول العقيدة ودلائل التوحيد، والاهتداء إلى الدين القيم، وطريقة الأنبياء المستقيمة، فمن خالفها وأخذ طريقاً غيرها فقد كفر بآيات الله ودلائل بيّناته: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ - أَي لَمْ يَسِرْ عَلَى هُدًى دِينَهُ، وَنَبَذَ دَلَائِلَ آيَاتِهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ - فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ».

والآية الثانية كان موردّها القضاء بالحق «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ»^(٣). «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ»^(٤).

قال تعالى: «وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ تَنْفَسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ

(١) الجاثية: ١٤.

(٢) المائدة: ٤٤ و ٤٥ و ٤٧.

(٣) المائدة: ٤٩.

(٤) النساء: ١٠٥.

كفارة له ومن لم يحكم - أي لم يقض - بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون»، لأنه تعدى حدود الله «ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه»^(١).

والآية الثالثة، موردها العمل بشريعة الله والأخذ بوظائفه المقررة في الدين، ومعلوم أن التخلّف عن الوظائف العملية الدينية (الأحكام التكليفية - الإلزامية وغير الإلزامية - من عبادات ومعاملات وانتظامات) موجب للفسق، ومرتكبه فاسق خارج عن إطار الحدود المضروبة دون شريعة الله.

وقد أطلق الفسق على كل عمل وقع على غير نهج الشرع: «وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق»^(٢). «ولا تأكلوا ممّا لم يُذكَر اسمُ الله عليه وإنه لفسق»^(٣). «إلا أن يكون ميتة أو ذماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهلٌ لغير الله به»^(٤).

وجاء في آية الدين - وهي أطول آية في كتاب الله - أن من خالف أحكامه المقررة فإنه مرتكب فسقاً «وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله»^(٥). وفي آية الحج «فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج»^(٦).

قال تعالى: «وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوراة وآتيناهُ الإنجيلَ فيه هُدىً ونُورٌ ومُصدّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التوراة وَهُدًى ومَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ. وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ - أي فليعمل أتباع المسيح بما في الإنجيل من هدى وموعظة وارشاد - ومن لم يحكم - أي لم يعمل - بما أنزل الله - من هدى وموعظة - فأولئك هم الفاسقون»^(٧).

وعن ابن عباس: من حجد حكم الله كفر، ومن لم يحكم به وهو مقرّ فهو

(٥) البقرة: ٢٨٢.

(٦) البقرة: ١٩٧.

(٧) المائدة: ٤٦ و ٤٧.

(١) الطلاق: ١.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) الأنعام: ١٢١.

(٤) الأنعام: ١٤٥.

ظالم فاسق^(١). وعن بعضهم: الأول في الجاحد، والأخيران في المقرّ التارك^(٢). وهذا يتوافق مع ما فصلناه نظراً لأنّ القاضي بغير ما أنزل الله، والعامل على خلاف ما أنزل الله، كلاهما ظالم وفاسق، لأنّه ترك العمل بالشريعة مع إقراره بها.

* وقوله تعالى - في سورة الأنعام -: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ...» وجعل يعدّد المحرّمات، وختمها بقوله: «ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»... ثم ذكر بقية المحرّمات وختمها بقوله: «ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»... وأخيراً ختمت الآية بقوله: «ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»^(٣).

قال جلال الدين السيوطي: لأنّ الوصايا التي في الآية الأولى إنما يحمل على تركها عدم العقل الغالب على الهوى، لأنّه الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل الأولاد خشية الاملاق، ومقاربة الفواحش مطلقاً، وقتل النفس المحترمة. وأمّا الثانية فلتعلّقها بالحقوق المالية والعدل في الكلام، والوفاء بالعهد، فمن أحبّ أن يوفى له فليف به عليه، فناسبه التذكّر والتنبيه. والثالثة كانت أمراً باتّباع الصراط السويّ في الحياة، فناسبه التقوى والاجتناب عن التنكّب في الطريق.

* ونظيره قوله تعالى - في سورة الأنعام أيضاً -: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْجُحُومَ...» وختمها بقوله: «قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ». وختم تاليتها

(١) الكشف: ج ١ ص ٦٣٨.

(٢) التفسير الكبير: ج ١٢ ص ١٠.

(٣) الأنعام: ١٥١ - ١٥٣.

بقوله: «قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ». وختم الثالثة بقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»^(١).

وذلك لأنَّ حساب النجوم والاهتداء بها يختص بالعلماء، وإنشاء الخلائق من نفس واحدة يحتاج إلى فكر وفهم أدق. أما ذكر النعم الظاهرة فباعث إلى الايمان بصورة عامة^(٢).

(١) الأنعام: ٩٧ - ٩٩.

(٢) معترك الاقران: ج ١ ص ٤٢ - ٤٣.

ضابط الفواصل

لمعرفة الفواصل ورؤوس الآي شأن خطير، وليس من جهة الوقوف على المقاطع أو العلم بعدد آي السور فحسب، وإنما هي مهمة المفسر، يجب عليه معرفة مدخل الكلام ومخارجه، ومدى رابطة كل كلامين اقتربنا في خطاب أو أردفا في ثبت كتاب.

الأمر الذي يمسّ قرائن الكلام المكتنفة بدلائل البيان، فلا يعذر جهله لمن أراد فهمه.

هذا فضلاً عمّا لمعرفة الفصل من الوصل في الكلام من شرف وفضل، وربما كانت الأهمّ من أركان البلاغة في البيان، حتى قال التفتازاني: حصر بعضهم البلاغة على معرفة الفصل والوصل^(١) وقال في موضع آخر: إنّه معظم أبواب علم المعاني^(٢).

قال السكاكي: وإنها لحكّ البلاغة، ومنتقد البصيرة، ومضمار النُّظار، ومتفاضل الأنظار، ومعيار قدر الفهم، ومسبار غور الخاطر، ومنجم صوابه وخطائه، ومعجم جلائه وصدائه. وهي التي إذا طبّقت فيها المفصل شهدوا لك

(١) المطول في تعريف البلاغة: ص ٢٦.

(٢) المطول في باب الفصل والوصل: ص ٢٦٨.

من البلاغة بالقدر المعلى، وأن لك في إبداع وشيها اليد الطولى. وهذا فصل له فضل احتياج إلى تقرير وافٍ وتحرير شافٍ^(١).

وبعد، فهل هو توقيف وتوظيف؟ أم قياس واعتبار؟ والصحيح: أنه كلا الأمرين، والأصل هو التوقيف، ويلحق المحتمل من غير المنصوص بالمنصوص قياساً واعتباراً.

قال الامام بدر الدين الزركشي: فاصلة الآية كقرينة السجعة في النثر، وقافية البيت في النظم. وتزيد عليها أن مائعة عيباً هناك لا يُعَدَّ عيباً هنا، في مثل اختلاف الحذو والإشباع والتوجيه^(٢) كما يأتي أن الايطاء والتضمين^(٣) ليسا بعيب هنا^(٤).

قال: فهذا كله ليس بعيب في الفاصلة، فقد جاز الانتقال فيها، وكذا في القرينة وقافية الأرجوزة من نوع إلى آخر، بخلاف قافية القصيد. ومن ثم ترى «لعلهم يرجعون» مع «واسعٌ عليم»^(٥) و«لا تُخلفُ الميعاد»

(١) مفتاح العلوم: (الفن الرابع) ص ١١٩.

(٢) إنها من عيوب القافية، وتندرج تحت ما اصطلاحوا على تسميته بالسناد، وهو اختلاف ما قبل الروي. فسناد الحذو: اختلاف حركة الحرف الذي قبل الروي المطلق. وسناد التوجيه اختلاف حركة الحرف الذي قبل الروي المقيّد. وسناد الإشباع: اختلاف حركة الدخيل. المقصود من القافية المقيّدة ما كان رويها ساكناً. ومن المطلقة ما كان متحركاً. (مفتاح العلوم: ص ٢٧١).

(٣) الايطاء: إعادة الكلمة التي فيها الروي بلفظها ومعناها في القصيد. والتضمين: تعلق آخر البيت بأول البيت الذي يليه تعلقاً معنوياً. وهذان في القرآن كثير وسيأتي الكلام فيها في نهاية الفصل ص ٢٨٤.

(٤) راجع مفتاح العلوم للسكاكي: (علم القافية) ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٥) آل عمران: ٧٢ و ٧٣.

مع «حُسنُ الثَّواب»^(١) و«الطارق» مع «النجمُ الثَّاقِب»^(٢).

والأصل في الفاصلة والقرينة المتجرّدة^(٣) في الآية والسجعة، المساواة^(٤).
ومن ثم أجمع العادّون على ترك عدّة «ويأتِ بآخرين» آية، من قوله تعالى:
«إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بآخرينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا»^(٥).
لأنّ الرويَّ على الألف.

وهكذا «وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ» من قوله: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ
يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ
فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا»^(٦) لنفس السبب.

وقوله: «كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ» في: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ
كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا
تَخْوِيفًا»^(٧).

وقوله: «لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ» في: «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ
وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا»^(٨).

(١) آل عمران: ١٩٤ و ١٩٥.

(٢) الطارق: ٢ و ٣.

(٣) المراد بالقافية المجردة ما لم يكن قبل رويها ردف ولا تأسيس. والردف ما كان قبل رويها ألف مثل عماد، أو واو مثل عمود، أو ياء مثل عميد. وتسمى كل من هذه الحروف ردفًا، وحركة ما قبل الـ ردف حذوًا. والتأسيس ما كان قبل الروي حرف واحد مسبق بألف مثل عامد. فاذا لم يكن شيء من ذلك فالقافية مجردة. (مفتاح العلوم: ص ٢٧١).

(٤) المراد من المساواة هو التماثل في حرف الروي.

(٥) النساء: ١٣٣.

(٦) النساء: ١٧٢.

(٧) الإسراء: ٥٩.

(٨) مريم: ٩٧.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» في: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا»^(١).

وقوله: «مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» في: «رُسُلًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا»^(٢).

وقوله: «أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» في: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا»^(٣). كل ذلك حيث لم يشاكل طرفيه.

* * *

وقد لا تعدّ، مع كونها مناسبة، كقوله: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ» في: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ»^(٤). وذلك للتعلّق بما بعدها.

وكذا قوله: «أَفُحْكُمَ الْجَاهِلِيَةَ يَبِغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»^(٥).

وقوله: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ»^(٦).

وقوله: «وَرُسُلًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ» في: «وَعُلِّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ. وَرُسُلًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ

(٤) آل عمران: ٨٣.

(٥) المائدة: ٥٠.

(٦) البقرة: ١٠.

(١) طه: ١١٣.

(٢) الطلاق: ١١.

(٣) الطلاق: ١٢.

لَكُمْ - إلى قوله: - إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»^(١). لتعلقه بتاليه.

وهكذا قوله: «والطور»، و«الرحمن»، و«الحاقة»، و«القارعة»، و«والعصر». حملاً على قوله: «والفجر»، و«الضحى». فنظراً لتعلقها بتاليها لم يصح عدّها آية، وأمّا المناسبة فتستدعي العدّ.

قال الزمخشري: الآيات علم توقفي لا مجال للقياس فيه، ولذلك عدّوا «الم» آية حيث وقعت، و«المص». ولم يعدّوا «المر» و«الر». وعدّوا «حم» آية في سورها، و«طه» و«يس». ولم يعدّوا «طس». وعدّوا «طسم». وعدّوا «حم. عسق» آيتين. و«كهيعص» آية. ولم يعدّوا «ق» و«ن» و«ص». قال: هذا مذهب الكوفيين. وأمّا غيرهم فلم يعدّوا شيئاً منها آية^(٢).

ذكر الشيخ أبو جعفر الطوسي - قدس سره: - أنّ جميع أي القرآن في البصري ستة آلاف ومائتان وأربع آيات. وفي الكوفي ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية. وفي المدني الأوّل ستة آلاف ومائتان وسبع عشرة آية. وفي المدني الأخير ستة آلاف ومائتان وأربع عشرة آية^(٣). وفي الإتيان بيان مسهب لعدّ آيات السور واحدة واحدة، فراجع إن أردت التفصيل^(٤).

(١) آل عمران: ٤٨ و ٤٩.

(٢) الكشف: ج ١ ص ٣١.

(٣) تفسير التبيان: ج ١٠ ص ٤٣٨.

(٤) الإتيان: ج ١ ص ١٩٠ - ١٩٥.

هل في القرآن سجع؟

بعد أن عرفت مواضع الفواصل من آيات الذكر الحكيم، وأقسامها الأربعة على ما فصلها علماء البيان، نلّفت نظرك إلى ناحية أخرى هي مسألة السجع، هل في القرآن منه شيء؟ وأول من تكلم في ذلك وأنكر وجوده في القرآن، وأنه يترفع عن مبتذلات أهل التكلف في الكلام، هو الأستاذ أبو الحسن علي بن عيسى الرّماني، وتقدّم بعض كلامه^(١)، قال:

الفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أنّ الفواصل تابعة للمعاني، وأمّا الأسجاع فالمعاني تابعة لها، وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة. إذ كان الغرض من حكمة الوضع إنما هو الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة، فإذا كانت المشاكلة وصلة إليه فهو بلاغة، وأمّا إذا كانت المشاكلة الكلامية هي المقصودة بالذات، والمعاني مغفول عنها إلاّ عرضاً فهو عيب ولكنة، لأنّه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة. ومثله مثل من رصع تاجاً ثمّ ألبسه إنساناً دميماً^(٢) أو نظم قلادة درّ و يواقيت ثمّ ألبسها كلباً عقوراً. وقبح ذلك وعيبه بين لمن له أدنى فهم.

(٢) قبيح السيرة والصورة.

(١) في ص ٢٥٢ من هذا الجزء.

فمن ذلك ما يحكى عن بعض الكهّان: والأرض والسماء، والغراب الواقعة بنقعاء، لقد نفر المجد إلى العشاء.

ومنه ما يحكى عن مسيلمة الكذاب: يا ضفدع نقي كم تنقن، لا الماء تكدرين، ولا النهر تفارقين.

فهذا أغث كلام يكون وأسخفه، وقد بيّنا علته، وهو تكلف المعاني من أجله، وجعلها تابعة له من غير أن يبالي المتكلم بها ما كانت! وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة - على ماسبق بيانه - لأنّها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدلّ بها عليها.

وإنما أخذ السجع في الكلام من سجع الحمامة، وذلك أنه ليس فيه إلّا الأصوات المتشاكلة مع إغفاء المعاني، كما ليس في سجع الحمامة إلّا الأصوات المتشاكلة - الهدير^(١) - وهكذا المعنى في السجع، إذا تُكَلّف له من غير وجه الحاجة إليه ذاتاً، أو ملاحظة الفائدة فيه، لم يعتد به، ولم تخرج الكلمات بذلك عن كونها غير ذوات مفهوم، فصارت بمنزلة هدير الحمام، ليس فيه سوى ترجيع أصوات متشاكلة^(٢).

ووافقه القاضي أبو بكر محمّد بن الطيب الباقلاني (توفي سنة ٤٠٣) تأييداً لمذهب أبي الحسن الأشعري (توفي سنة ٣٣٤) في نفي السجع من القرآن^(٣). قال: ذهب أصحابنا (الأشاعرة) كلهم إلى نفي السجع من القرآن، وذكره أبو الحسن الأشعري في غير موضع من كتبه.

(١) يقال: هدر الحمام إذا قرقر وكرّر صوته في حنجرتة.

(٢) النكت في إعجاز القرآن: ص ٩٧ - ٩٨.

(٣) هو عنوان الباب الذي عقده الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن (هامش الاتقان: ج ١ ص ٨٥).

ولكن ذهب كثير من أصحاب الرأي والنظر إلى إثبات السجع في القرآن، قالوا: إنَّ ذلك ممَّا يبيِّن به فضل الكلام - إن وقع موقعه من غير تكلف أو اعتساف وكان المتكلم خبيراً بموقعه - وأنه من المقاييس التي يتفاضل بها الكلام في الفصاحة والبيان، نظير التجنيس والترصيع واللف والنشر والالتفات وسائر أنواع البديع.

هذا فضلاً عن وقوعه في القرآن بالفعل، والوقوع خير شاهد على الإمكان بالاتفاق. من ذلك قوله تعالى: «بربِّ هارون وموسى»^(١) ولا سبب لتقديم اسم المفضول على الفاضل هنا إلا مراعاة الفواصل، وهي على الألف المقصورة. ومن ثمَّ لمَّا كانت الفواصل في سورة الشعراء على النون، تأخَّر لفظ هارون «ربِّ موسى وهارون»^(٢).

قال الباقلاني: وهذا الذي ذكره غير صحيح، لأنَّ القرآن لو كان سجعاً لكان على أسلوب كلامهم، فلم يصحَّ وقوع الإعجاز به، لأنَّه ممَّا ألفه الكُهان وكانوا قادرين على الإتيان بمثله. وأمَّا الذي قدَّروه سجعاً فإنَّه ليس منه وإنَّما هو تفتن في التعبير، كما هو دأب القرآن، يقصُّ القصص في مواضع مع اختلاف التعابير.

واسهب في الردِّ والنقض على احتمال وجود السجع في القرآن^(٣). ولعلَّه خروج عن منهج التفاهم في المسائل النظرية. لأنَّ القائل به لا يدعي من فواصل الآيات كلَّها أسجاعاً، وإنَّما يرى الوجود ولو في بعض المقاطع المتقاربة، من غير أن يكون المعنى تابعاً، وإنَّما مثله مثل سائر الفواصل أو القوافي الشعرية

(١) طه: ٧٠.

(٢) الشعراء: ٤٨.

(٣) بهامش الاتقان: ج ١ ص ٨٥ - ١٠١.

المؤاتية على سبيل التمكين والترصيف، لا أنه المقصود بالذات وماسواه مغفول عنه، كما حسبه الباقلاني ومن قبله الرماني.

وللأمير أبي محمد عبدالله بن محمد، ابن سنان الحفاجي (توفي سنة ٤٦٦) ردة لطيف على الرماني والباقلاني، وخصّ الأول بالذكر في كتابه «سرّ الفصاحة» إليك نصّه:

قال: وأما قول الرماني -إن السجع عيب، والفواصل على الإطلاق بلاغة- فغلط. فإنه إن أراد بالسجع مايتبع المعنى، وكأنه غير مقصود بالذات، فذلك بلاغة بلاشك. كذلك الفواصل بلافرق. وإن كان يريد بالسجع ماتقع المعاني تابعة له ويكون من المتكلف به فذلك عيب، وكذلك الفواصل إذا تكلف بها^(١).

قال: وأظنّ أنّ الذي دعاهم إلى تسمية مقاطع الآيات في القرآن بالفواصل، ولم يسمّوا ماتماثلت حروف أواخره سجعاً، هي رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف الذي يلحق بالماثور من كلام الكهنة وغيرهم، فلم يرقهم نعت القرآن بما ينعت به كلام غيره ولا سيّما مثل كلام الكهنة المبتذلين. وهذا الغرض يعود إلى مجرّد التسمية، وهو غرض قريب لا بأس به، إلّا أنّ

(١) قال العلامة جبار الله محمود بن عمر الزمخشري (توفي سنة ٥٢٨): لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها، إلّا مع بقاء المعاني على سدادها، على النهج الذي يقتضيه حسن النظم والتثامه كما لا يحسن تخيّر الألفاظ الموفقة في السمع السلسة على اللسان إلّا مع مجيئها منقادة للمعاني الصحيحة المنتظمة. فأما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده، غير منظور فيه إلى مؤداه على بال، فليس من البلاغة في فتيل أو نقير.

ومع ذلك يكون قوله: «وبالآخرة هم يوقنون» وقوله: «ومما رزقناهم ينفقون» لا يتأتى فيه ترك رعاية التناسب في العطف بين الجمل الفعلية إثارة للفاصلة، لأنّ ذلك أمر لفظي لا طائل تحته. وإنما عدل إلى هذا لقصد الاختصاص (نقلًا عن كشافه القديم. البرهان للزركشي: ج ١ ص ٧٢).

الحقيقة هي غير ذلك، وهي كما ذكرناه، ولا يتغير الواقع عما هو عليه لمجرد كراهة تسميته باسمه. والتحرير أن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفواصل. توجد في بعضها وليست في جميعها.

فإن قيل: إذا كان السجع محموداً - على ما ذكرت من الشرط - فهلاً ورد القرآن كله مسجوعاً؟ وما الوجه في ورود بعضه مسجوعاً وبعضه غير مسجوع؟ قلنا: القرآن نزل بلغة العرب وعلى عُرفهم وعاداتهم، وكان الفصيح منهم لا يكون كلامه كله مسجوعاً لما فيه من امارات التكلف والاستكراه والتصنع، لاسيما فيما يطول من الكلام. فلم يرد القرآن كله مسجوعاً جرياً منه على عُرفهم في الطبقة العالية من كلامهم، ولم يخل من السجع لأنه يحسن في بعض الكلام على الصفة التي قدمناها. فهذا هو السبب في ورود بعضه كذلك وبعضه بخلافه^(١).

* * *

وقال أبو الحسن حازم بن محمد القرطبي (توفي سنة ٦٨٤) - كان شيخ البلاغة والأدب وأوحد زمانه في النظم والنثر واللغة والعروض والبيان - في كتابه «منهاج البلغاء»: للناس في الكلام المنشور من جهة تقطيعه إلى مقادير تتقارب في الكمية، وتتناسب مقاطعها على ضرب منها، أو بالثقل من ضرب واقع في ضربين أو أكثر، إلى ضرب آخر مزدوج، في كل ضرب ضرب منها أو يزيد على الازدواج. ومن جهة ما يكون غير مقطع، إلى مقادير تناسب أطرافها، وتقارب ما بينها في كمية الألفاظ والحروف، ثلاثة مذاهب:

منهم: من يكره تقطيع الكلام إلى مقادير متناسبة الأطراف، غير متقاربة في الطول والقصر لما فيه من التكلف، إلا ما يقع به الإلمام في النادر من كلام.

(١) سّر الفصاحة لابن سنان: ص ١٦٦ فابعده، والبرهان ج ١ ص ٥٧.

والثاني: أنّ التناسب الواقع بإفراغ الكلام في قوالب التقفية وتحليتها
بمناسبات المقاطع أكيد جداً.

والثالث - وهو الوسط -: أنّ السجع لما كان زينة للكلام لكنه قد يدعو إلى
التكلف فرئي أن لا يستعمل في الكلام، وإن لا يخلى الكلام بالجملة منه
أيضاً... ولكن يقبل من الخاطر فيه ما اجتلبه عفواً، بخلاف التكلف. قال:
وهذا - أي ترجيحه في الجملة - رأي أبي الفرج قدامة بن جعفر صاحب كتاب
«نقد الشعر» (توفي سنة ٣٣٧).

قال: وكيف يُعاب السجع على الإطلاق، وإنما نزل القرآن على أساليب
الفصيح من كلام العرب، فوردت الفواصل فيه بإزاء ورود الأسجاع في كلام
العرب. وإنما لم يحىء على أسلوب واحد لأنه لا يحسن في الكلام جميعاً أن يكون
مستمراً على نمط واحد، لما فيه من التكلف، ولما في الطبع من الملل عليه. ولأنّ
الافتتان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد. فلهذا
وردت بعض آي القرآن متماثلة المقاطع، وبعضها غير متماثل^(١).

* * *

قلت: والسجع هي مقاطع الكلام المبنية على الوقف في فواصل متقاربة.
وفي القرآن منه الشيء الكثير، وهو أمر لا ينكر، لكنه ليس من النوع المتكلف
فيه، وإنما هو من المذلل السهل التابع للمعاني والسجع إذا كان على هذا
الوصف كان جميلاً، والقرآن كله جميل، ويناسبه كل وسائل الجمال.

أنحاء الفواصل

لمقاطع الكلام - سواء الفواصل والأسجاع - أنحاء عند أهل البديع:

(١) البرهان للزركشي: ج ١ ص ٥٩ - ٦٠.

المتوازي، والمطرّف، والمتوازن، والمرصع، والمتماثل، والمتقارب. قال الامام بدرالدين: وأشرفها المتوازي^(١).

١ - فالتوازي: ماتوافقت الفاصلتان أو الأكثر في الوزن وفي حروف السجع معاً، كقوله تعالى: «فِيهَا سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ»^(٢). وقوله: «وَالْتَوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ»^(٣).

٢ - والمطرّف: ماتوافقتا في حروف السجع لا في الوزن، كقوله تعالى: «مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا»^(٤).

٣ - والمتوازن: ماتوافقتا في الوزن دون حروف السجع، كقوله تعالى: «وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزُرَابِيٌّ مَبْثُوثَةٌ»^(٥). وقوله: «وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسَبِّحِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»^(٦). وقوله: «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا. يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ»^(٧). وقوله: «كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى نَزَاعَةً لِلنَّشْوَى. تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى. وَجَمَعَ فَأَوْعَى»^(٨).

٤ - والمرصع: ماتوافقتا وزناً وفي حروف السجع، مع توافق الكلمات نظماً وتأليفاً، كقوله تعالى: «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ»^(٩). وقوله: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ»^(١٠).

قالوا: وسورة الواقعة من نوع الترصيع، وفي أواخرها نوع موازنة أيضاً.

٥ - المتماثل: ماتوافقتا في الوزن والسجع والتوازن والتأليف وعدد الكلمات جميعاً، كقوله تعالى: «وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَّسَ. وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ»^(١١).

(١) البرهان: ج ١ ص ٧٥.	(٦) الصفات: ١١٧ و ١١٨.
(٢) الغاشية: ١٣ و ١٤.	(٧) المعارج: ٦ - ٩.
(٣) آل عمران: ٤٨ و ٤٩.	(٨) المعارج: ١٥ - ١٨.
(٤) نوح: ١٣ و ١٤.	(٩) الغاشية: ٢٥ و ٢٦.
(٥) الغاشية: ١٥ و ١٦.	(١٠) الانفطار: ١٣ و ١٤.
	(١١) التكويز: ١٧ و ١٨.

وقوله: «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ»^(١). وقوله: «وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»^(٢) والمثال الأخير فيه شبه تماثل، لاختلاف حرف السجع، وإن تقارباً.

٦ - والمتقارب: ما توافقتا سجعاً بالحروف المتقاربة في جميع الأقسام الخمسة المذكورة، كالمثال الأخير، وكقوله تعالى: «ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيد. بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيب»^(٣). والعمدة: أن تأتي الفاصلة طوعاً سهلاً وتابعاً للمعنى، دون أن تكون متكلفة يتبعها المعنى. والأول هو المحمود الدال على الثقافة وحسن البيان. ولم يرد في القرآن إلا ذلك، لعلوه في الفصاحة، كما قال الامام بدر الدين^(٤).

٧ - ونوع آخر سمّاه ابن أبي الاصبع «توأماً» وهو: أن يبني الكلام على فاصلتين، كلّ منهما يصلح أن يكون مقطوعاً، كقوله تعالى: «لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً»^(٥). فالآية تنتهي بقوله «علماً». لكن قوله «قدير» في أثناء الآية أيضاً صالح للوقف عليه لولا عدم تمام المعنى عنده. وهكذا قوله تعالى: «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ»^(٦). وقوله: «لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُور»^(٧).

(١) الضحى: ٩ و ١٠.

(٢) الصافات: ١١٧ و ١١٨.

(٣) ق: ١ و ٢.

(٤) البرهان: ج ١ ص ٧٢.

(٥) الطلاق: ١٢.

(٦) البقرة: ١٠.

(٧) الأنفال: ٤٤. والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن ذكر بعضها الزركشي في البرهان: ج ١ ص ٩٩.

٨ - ونوع أسمى وأرفع وأدلّ على قدرة المتكلّم في تسخير الكلام والأخذ بزمامه، وهو «لزوم ما لا يلزم» - في مصطلحهم - : أن يلتزم الشاعر في شعره أو الناثر في نثره حرفاً أو حرفين فصاعداً قبل الروي^(١)، بشرط عدم الكلفة والاعنات.

مثال التزام حرف: «فأما اليتيم فلا تقهر. وأما السائل فلا تنهر»^(٢) التزم الهاء قبل الراء، التي هي حرف الروي. ومثله: «ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك»^(٣) الراء قبل الكاف. «فلا أقسم بالخنس. الجوار الكنس»^(٤). «والليل وما وسق. والقمر إذا اتسق»^(٥).

ومثال التزام حرفين قبل الروي، قوله تعالى: «والطور. وكتاب مسطور»^(٦) «ما أنت بنعمة ربك بمجنون. وإنّ لك لأجراً غير ممّنون»^(٧). ومثال التزام ثلاثة أحرف: «إنّ الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون. وإخوانهم يمدّونهم في الغي ثمّ لا يقصرون»^(٨).

قالوا: وأحسن السجع ماتساوت قرائنه شبيهة بأوزان الشعر، كقوله تعالى: «(في سدرٍ مخضود. وطلحٍ منضود. وظلٍّ ممدود»^(٩). ثمّ ما طالت قرينته الثانية، كقوله: «والنجم إذا هوى. ما ضلّ صاحبكم وما غوى»^(١٠) أو الثالثة، كقوله: «خذوه فغلّوه. ثمّ الجحيم صلّوه. ثمّ في سلسلة ذرّعها سبعون ذراعاً

(١) هو حرف الفاصلة الأخير.

(٢) الضحى: ٩ و ١٠.

(٣) الشرح: ١ و ٢.

(٤) التكوين: ١٥ و ١٦.

(٥) الانشقاق: ١٧ و ١٨.

(٦) الطور: ١ و ٢.

(٧) القلم: ٢ و ٣.

(٨) الأعراف: ٢٠١ و ٢٠٢.

(٩) الواقعة: ٢٨ - ٣٠.

(١٠) النجم: ١ و ٢.

فَاسْلُكُوهُ»^(١).

وهو إما قصير كقوله تعالى: «وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا. فَالْعَاصِفَاتُ عَصْفًا»^(٢).
أو طويل كقوله: «إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا
لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. وَإِذْ
يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيِّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا
كَانَ مَفْعُولًا إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ»^(٣).
أو متوسط كقوله: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا
وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ»^(٤).

وقد كثر في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون. قالوا:
وحكمة ذلك هو التمكن من سجع الفاصلة مع حصول التطريب بذلك. ذكر
سيبويه - في باب وجوه القوافي في الإنشاد -: أمّا إذا تَرَنَّمُوا فَإِنَّهُمْ يُلْحَقُونَ الْأَلْفَ
وَالْيَاءَ وَالْوَاوَ، مَا يَنْوَنُ وَمَا لَا يَنْوَنُ، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا مَدَّ الصَّوْتِ.

مثال الألف قول جرير:

أَقْلَى اللَّوْمِ عَاذِلَ وَالْعَتَابَا
وقولي إن أصبت فقد أصابا
ومثال الياء قوله:

أَيَّاهُ^(٥) مَنْزَلْنَا بَنَعْفَ سَوِيْقَةٍ
كانت مباركة من الايامي^(٦)
ومثال الواو قوله:

مَتَى كَانَ الْخِيَامُ بِذِي طُلُوحٍ
هَذَا فِي غَيْرِ الْمَنَوْنِ. وَأَمَّا فِي الْمَنَوْنِ - بِتَقْلِيْبِ التَّنْوِينِ حَرْفًا مُتَجَانِسًا لِحَرَكَتِهِ -
سُقِيَتِ الْغَيْثُ أَيُّهَا الْخِيَامُ

(١) الحاقة: ٣٠ - ٣٢.

(٤) القمر: ١ و ٢.

(٢) المرسلات: ١ و ٢.

(٥) أيّاه بمعنى هيات.

(٣) الانفال: ٤٣ و ٤٤.

(٦) البرهان: ج ١ ص ٧٨.

فالأمثلة كثيرة وواضحة.

قال: وإنما ألحقوا هذه المدة في حروف الروي لأن الشعر - وكذا ما كان على نسقه من النثر - وُضع للغناء والترنم، فألحقوا كل حرف الذي حركته منه. فإذا أنشدوا ولم يترنموا فأهل الحجاز يدعون هذه القوافي على حالها في الترنم ليفرقوا بينه وبين الكلام الذي لم يوضع للغناء. وناس من بني تميم يبدلون مكان المدة النون^(١).

بنى الفواصل على الوقف لأنها أسجاع مُدَلَّلة للمعاني في القرآن، وليست كأسجاع الكُهان. ولهذا شاع مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس، وكذا المفتوح والمنصوب غير المنون. ومنه قوله تعالى: «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ» مع تقديم قوله: «عَذَابٌ وَأَصِيبٌ»^(٢). وقوله: «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قُدْرَ. وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَذُشِرَ»^(٣). وقوله: «وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ» وقوله: «وَنُثِشَ فِي السَّحَابِ الثِّقَالُ»^(٤). وقد يقال باشتراط توافق حركات القوافي المقيّدة «الساكنة وقفاً» إذا أطلقت، وكذا في السجع المبني على سكون الإعجاز. قال الزركشي: والصواب أن ذلك ليس بشرط، ولا يُعدّ عيباً لا في القوافي ولا في الأسجاع. فأن لا يكون عيباً في الفواصل أولى^(٥).

(١) كتاب سيبويه: ج ٢ ص ٣٥٧ - ٣٥٦ بتصرف واختصار.

(٢) الصافات: ٩ - ١١.

(٣) القمر: ١١ - ١٣.

(٤) الرعد: ١١ و ١٢.

(٥) البرهان: ج ١ ص ٧١.

كثّر في الفواصل التضمين والإيطاء، لأنّهما ليسا بعيين في النثر وإن كانا عيين في النظم. فالتضمين أن يكون ما بعد الفاصلة متعلقاً بها، كقوله تعالى: «وَأَنْتُمْ لَتَمُوتُنَّ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ»^(١) والإيطاء تكرر الفاصلة بلفظها، كقوله تعالى: «هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا». وختم بذلك الآيتين بعدها أيضاً^(٢).

مناسبة الفواصل كفة راجحة

لا شك أن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطرد كفة راجحة وأمر متأكد عليه، نظراً لتأثيره في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه في النفس التأثير البالغ. ومن ثمّ فاذا تزاوجت مراعاته مع مراعاة قواعد اللغة - إذا كانت لفظية بجثة لاطائل تحتها - فإنّه يترجح عليها، كما هو في الشعر والسجع وغيرهما من كل كلام رتيب. وقد سبق ذلك في كلام العلامة الزمخشري نقلاً عن كشافه القديم^(٣).

وفيما يلي عرض نموذجي لمواضع جاء فيها إيثار الفاصلة على متعارف اللغة:

١ - زيادة حروف المد واللين في الروي، على ما تقدّم في كلام سيبويه.

ومنه قوله تعالى: «وَتَقَطُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا»^(٤) لأنّ مقاطع الفواصل في هذه السورة ألفات منقلبة عن تنوين في الوقف، فزيد هنا ألف على النون لتساوى المقاطع.

وقوله: «فَأَضْلُوا السَّبِيلَا»^(٥). و«أَطَعْنَا الرَّسُولَا»^(٦).

(٤) الأحزاب: ١٠.

(١) الصافات: ١٣٨.

(٥) الأحزاب: ٦٧.

(٢) الإسراء: ٩٣ - ٩٥.

(٦) الأحزاب: ٦٦.

(٣) البرهان للزركشي: ج ١ ص ٧٢ وتقدّم في ص ٢٧٦.

ومنه قوله: «كَانَتْ قَوَارِيرًا»^(١).

٢ - لحاق النون، في مثل قوله تعالى: «وَطُورِ سِينِينَ»^(٢). وهو طور سيناء، كما في قوله «وَشَجَرَةٍ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سِينَاءَ»^(٣) لأنّ الفاصلة في سورة التين على النون.

ومثل قوله تعالى: «لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ»^(٤) كرّر «لعلّ» مراعاة لفواصل الآي، إذ لو جاء على الأصل لقال: «لعلّي أرجع إلى الناس فيعلموا» بحذف النون على الجواب.

قيل: وكذا قوله تعالى: «وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»^(٥) لأنّ الشمس والقمر والليل والنهار ليسوا عقلاء، لكن جاء الجمع المصحح مراعاة لفاصلة النون. وقوله: «رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ»^(٦).

وأيضاً منه «وَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ»^(٧) لأنّ السياق يقتضي: «وفريقاً قتلتم».

٣ - حذف حرف، في مثل قوله: «وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ»^(٨). والأصل «يسري». وكذا قوله: «الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ»^(٩) و«يَوْمَ التَّنَادِ»^(١٠).

٤ - تقديم ما أصله التأخير، كقوله تعالى: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ».

٥ - تأخير ما أصله التقديم كقوله تعالى: «فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى»^(١١) لأنّ الضمير يعود على «موسى» وهو فاعل «أوجس».

(٧) البقرة: ٨٧.

(٨) الفجر: ٤.

(٩) الرعد: ٩.

(١٠) غافر: ٣٢.

(١١) طه: ٦٧.

(١) الدهر: ١٥.

(٢) التين: ٢.

(٣) المؤمنون: ٢٠.

(٤) يوسف: ٤٦.

(٥) يس: ٤٠.

(٦) يوسف: ٤.

٦ - إفراد ما أصله الجمع لولا مراعاة الفاصلة، كقوله تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ»^(١) قال الفراء: الأصل «الأنهار»، وإنما وُحِدَ لأنه رأس آية، فقابل بالتوحيد رؤوس الآي.

وقوله تعالى: «وَمَا كُنْثٌ مَّتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا»^(٢) قال ابن سيدة: أي أعضاداً، وإنما أفرد ليعدل رؤوس الآي بالإفراد.

ومنه إفراد ما يقتضي التثنية، كقوله تعالى: «فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى»^(٣) بدليل قوله في موضع آخر: «فَأَخْرِجْهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ»^(٤). وقوله: «فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ»^(٥).

وقوله تعالى: «وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا»^(٦)، مع قوله: «وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً»^(٧).

٧ - جمع ما أصله الإفراد، كقوله تعالى: «لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ»^(٨) أي ولا خِلة، بدليل قوله: «يَوْمَ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ»^(٩) فجاء الجمع هنا لمراعاة الفاصلة من القسم المتقارب.

٨ - تثنية ما أصله الإفراد، كقوله: «وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ»^(١٠) لأنَّ الفاصلة على الألف والنون. قال الفراء: وقد يكون في العربية: جنّة تشتيها العرب في أشعارها، وذلك أنَّ الشعر له قواف يقيمها الزيادة والنقصان،

(١) القمر: ٥٤.

(٢) الكهف: ٥١.

(٣) طه: ١١٧.

(٤) البقرة: ٣٦.

(٥) البقرة: ٣٥.

(٦) الفرقان: ٧٤.

(٧) الأنبياء: ٧٣.

(٨) إبراهيم: ٣١.

(٩) البقرة: ٢٥٤.

(١٠) الرحمن: ٤٦.

فيحتمل ما لا يحتمله الكلام، واستشهد من كلامهم، فراجع^(١).
وأنكر ابن قتيبة ذلك، وأنه ممّا وعد الله جنتين فكيف نجعلهما واحدة، ولا سيما مع قوله تعالى: «ذَوَاتَا أَفْتَانٍ». ٩ - إثبات هاء السكت، كقوله: «مَا أَغْنِي عَنِّي مَالِيهِ. هَلِكْ عَنِّي سُلْطَانِيهِ»^(٢).

١٠ - ايثارتذكير الجنس على تأنيثه في موضع، وبالعكس في موضع آخر، كقوله: «أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ»^(٣). وقوله: «أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ»^(٤) ونظير هذين قوله: «وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٍّ»^(٥). وقوله: «لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا»^(٦).

(١) معاني القرآن: ج ٣ ص ١١٨، والبرهان: ج ١ ص ٦٤.

(٢) الحاقة: ٢٨ و ٢٩.

(٣) القمر: ٢٠.

(٤) الحاقة: ٧.

(٥) القمر: ٥٣.

(٦) الكهف: ٤٩.

فواتح السور وخواتيمها

لا شك أنّ أدب الكلام إنّما هو بمطالعه ومقاطعه، والناطق المفوّه من أجاد الورود في مقصوده والتخلّص عنه. وهو من أركان شرط البلاغة التي بها تعرف مقدرة المتكلّم البليغ في حسن التوفية ولطف التعبير.

ذكر ابن الأثير للكتابة شرائط وأركاناً، أمّا الشرائط فكثيرة - أودعها ضمن تأليفه «المثل السائر» - وأمّا الأركان التي لا بدّ من إيداعها في كل كتاب بلاغي ذي شأن فخمسة، أحدها - وهو الركن الأول - أن يكون مطلع الكتاب عليه جدّة ورشاقة، فإنّ الكاتب من أجاد المطلع والمقطع. أو يكون مبنياً على مقصد الكتاب^(١). قال: ولهذا باب يسمى باب «المبادئ والافتتاحات» والركن الآخر - وهو الثالث - أن يكون خروج الكاتب من معنى إلى معنى برابطة لتكون رقاب المعاني آخذة بعضها ببعض، ولا تكون إلّا مقتضبة. ولذلك باب

(١) ويسمى ذلك «براعة الاستهلال». وذكره ابن الأثير في النوع الثاني والعشرين، في (المبادئ والافتتاحات: ج ٣ ص ٩٦) قال: وحقيقة هذا النوع أن يجعل مطلع الكلام دالّاً على ذات المقصود منه والجهة التي يريد بها المتكلّم بكلامه.

وذكره ابن معصوم بعنوان: «حُسن الابتداء وبراعة الاستهلال» في (أنوار الربيع: ج ١

يسمى باب «التخلص والاقتضاب»^(١).

قال أهل البيان: من البلاغة حسن الابتداء، ويسمى «براعة المطلع». وهو أن يتأنق المتكلم في أول كلامه، ويأتي بأعذب الألفاظ وأجزها وأرقها وأسلسها وأحسنها نظماً وسبكاً، وأصحها مبنئ، وأوضحها معني، وأخلاها من الحشو، والركة والتعقيد، والتقديم والتأخير الملبس والذي لا يناسب.

قالوا: وقد أتت جميع فواتح السور من القرآن المجيد على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها، كالتحميدات وحروف الهجاء والنداء وغير ذلك^(٢).

قال ابن الأثير: وحقيقة هذا الركن البلاغي أن يجعل مطلع الكلام دالاً على المعنى المقصود منه، إن كان فتحاً ففتحاً، وإن كان هناءً فهناءً، أو عزاءً فعزاءً، وكذلك في سائر المعاني.

قال: وهذا يرجع إلى أدب النفس لا إلى أدب الدرس. ولهذا عيب على كثير من الشعراء والخطباء، زلتهم في هذا المقام^(٣).

قال: وإنما خُصت الابتداءات بالاختيار لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده توقرت الدواعي على استماعه.

(١) ذكره ابن الأثير في النوع الثالث والعشرين (ج ٣ ص ١٢١) قال: أما التخلص فهو أن يأخذ المتكلم في معنى من المعاني، فبينما هوفيه إذ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأول سبباً إليه، فيكون بعضه أخذاً برقاب بعض، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر. بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفرافاً. وأما الاقتضاب فهو أن يقطع كلامه ويستأنف كلاماً آخر، ولا يكون بينهما علاقة في ظاهر الأمر. وهو مذهب من مذاهب العرب فيه طرافة وظرافة. وسنأتي على كل من القسمين في مبحث «حسن الخاتمة» إن شاء الله.

(٢) قاله ابن معصوم في أنوار الريح: ج ١ ص ٣٤.

(٣) راجع ما ذكره من معاييب الشعراء القدماء والمحدثين في هذا الباب. وكذلك ما أخذه ابن معصوم على مطلع قصيدة امرئ القيس. وقد ذكرنا شطراً منه فيما سبق في حقل المقارنات.

قال: ويكفيك من هذا الباب الابتداءات الواردة في القرآن الكريم، كالتحميدات المفتتح بها أوائل السور (منها المسبّحات). وكذلك الابتداءات بالنداء في مثل قوله «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ»^(١). فَإِنَّ عموم الخطاب ينتم عن رعاية وعناية بالغة بشأن المخاطبين جميعاً. ولا سيما جاء تعقيبه برّب الجميع الذي أفاض عليهم نعمة الوجود ومنّهم الحياة وأنشأهم من أصل واحد، لا ميز بينهم في أصل ولا نسب. فما أبرعه من خطاب جلل فخّم، يسترعي انتباه عامة الخلائق في هذا الشمول والعموم.

وكذلك قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنْ زلزلة الساعة شيء عظيم»^(٢) فَإِنَّ هذا الابتداء المقترن بالتنبيه على خطورة أمر الانتهاء ممّا يسترعي الانتباه ويوقظ السامعين للإصغاء إليه بكل وجودهم.

قال: وكذلك الابتداءات بالحروف المقطّعة في مثل قوله: «طس» و «حم» و «الم» و «ق» و «ن» وغيرهنّ ممّا يبعث على الاستماع إليه، لأنّه يقرع السمع شيء غريب، ليس بمثله عادة، فيكون سبباً للتطّلع نحوه والإصغاء إليه.

ثمّ أخذ في بيان ما استقبح من ابتداءات أقوال الشعراء^(٣).

المبادئ والافتتاحات

في كلام الله تعالى

ولنبداً بفاتحة الكتاب، وهي أمّ الكتاب، وعدل القرآن، وقد استهلّ المصحف الشريف بها، لاحتوائها على أمّهات مقاصد القرآن الكريم وأصول

(٣) المثل السائر: ج ٣ ص ٩٨.

(٢) الحج: ١.

(١) النساء: ١.

براجحه في الدعاء إلى الله والانقطاع إليه. ومن ثمَّ غُذِلَت بالقرآن العظيم: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ»^(١).

إنها اشتملت على أصول المعارف الخمسة:

١ - عرفان ذاته المقدسة وصفاته الجمال والجلال، لأنه الحقيق بالحمد كله، الكافل لتربية عوالم الغيب والشهود، ذوالرحمة الواسعة، والعناية البالغة بعباده المؤمنين: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ».

٢ - العقيدة بيوم الحساب، وأنه إليه تعالى المنتهى، وبيده أزمة الأمور، كلُّ إليه راجعون «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ».

٣ - وأن لا معبود سواه، ولا ملجأ إلا إليه، هي روح العبادة وخلوص العبودية: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

٤ - ثمَّ الايمان برسالة الله إلى الخلق أجمعين، وأنَّ الأنبياء (عليهم السَّلام) هم الطرق إلى الله والوسائل لديه، فعرفان طريقته هو عرفان الحق والمنتهى إلى الحق: «إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ».

٥ - وأخيراً، فإنَّ العناية بأحوال الأمم عِبْرَةٌ للمعتبرين، فيجتنب طرائقهم الاستغوائية المنتهية إلى الضلال وغضب الرحمن: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ».

قال ابن معصوم: فقد نَبَّه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن، وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة، والمقاطع المستحسنة، وأنواع البلاغة.

وهكذا أوَّل ما أنزل من القرآن:

قال: وكذلك أول سورة اقرأ (خمس آيات من أولها) فإنها مشتملة على نظير

ما اشتملت عليه الفاتحة من براعة الاستهلال، لكونها أول ما أنزل من القرآن، فإن فيها الأمر بالقراءة، والبدء فيها باسم الله، وفيه الإشارة إلى علم الأحكام، وفيها ما يتعلق بتوحيد الله وإثبات ذاته وصفاته، من صفة ذات، وصفة فعل، وفي هذا إشارة إلى أصول الدين، وفيها ما يتعلق بالإخبار من قوله «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» ولهذا قيل: إنها جديرة أن تسمى (عنوان القرآن) لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله^(١).

فواتح السور:

افتتحت خمس سور من القرآن بقوله تعالى: «الحمد لله...»:

١ - سورة الفاتحة «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ...».

٢ - سورة الأنعام «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ...».

٣ - سورة الكهف «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ...».

٤ - سورة سبأ «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...».

٥ - سورة فاطر «الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...».

كان الحمد والثناء لله - جلّ جلاله - في سورة الفاتحة عامّاً وعلى جميع نعمه وآلائه تعالى وأنه رب العالمين وأنه الرحمن الرحيم وأنه مالك يوم الدين. فكان على جماع صفاته تعالى ونعوته في الآخرة والأولى.

أما الحمد - في باقي السور - فكان على جانب من جوانب عظمته تعالى وعلى شطر خطير من نعمه وآلائه، وإن كان الجميع خطيراً.

ففي سورة الأنعام على خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور.

وفي سورة الكهف على إنزال الكتاب.
 وفي سورة سبأ على ملكه السماوات والأرض.
 وفي سورة فاطر على فطرهما وخلقهما.
 قال الجويني: لأنّ الفاتحة أمّ الكتاب ومطلعه، فناسب الإتيان بأبلغ الصفات وأعمّ النعوت وأشمل الثناء^(١).

نعم كانت البداية بحمده تعالى وكذا بتسبيحه جلّ ثناؤه هي إثارة لعواطف الانسان نحو مطلع الخير، وتوجيه له إلى مبدأ الفيوض، الذي منه الوجود ومنه الحياة ومنه البركات. وهذا هو الجلال والعظمة والبهاء، تكلّل به الكلام في بدء طلوعه، وتجلّل به البيان من مشرق بزوغه. فما أحسنه في مفتتح المقال، وأجمله في وصف الكمال.

والسور المُسَبَّحات سبع أو تزيد إلى تسع لوجعلنا التبارك تسبيحاً كما هو الراجح:

- ١ - سورة الإسراء «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ...».
- ٢ - سورة الفرقان «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ...».
- ٣ - سورة الحديد «سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...».
- ٤ - سورة الحشر «سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...».
- ٥ - سورة الصّٰف «سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...».
- ٦ - سورة الجمعة «يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...».
- ٧ - سورة التغابن «يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...».
- ٨ - سورة الملك «تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ...».

(١) ربيع الانوار لابن معصوم ج ١ ص ٥٥.

٩- سورة الأعلى «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى...».

والمفتحة بالحروف المقطعات تسع وعشرون سورة، ويجدر بالذكر أن في غالبيتها كان تعقيب هذه الحروف بذكر الكتاب وإكبار شأنه وبيان عظيم قدره، وهي ثلاث وعشرون سورة:

١- البقرة «الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ...».

٢- الأعراف «المص. كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ

مِنْهُ...».

٣- يونس «الرَّيْلِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ...».

٤- هود «الرَّكِتَابُ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ...».

٥- يوسف «الرَّيْلِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ...».

٦- الرعد «المرَّيْلِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

الْحَقُّ...».

٧- إبراهيم «الرَّكِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى

النُّورِ...».

٨- الحجر «الرَّيْلِكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ...».

٩- الشعراء «طسم. يَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ...».

١٠- النمل «طس تلك آياتُ القرآن وكتابٌ مُبِينٌ...».

١١- القصص «طسم. يَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ...».

١٢- لقمان «الم. يَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ...».

١٣- السجدة «الم. تنزيلُ الكتاب لا رَيْبَ فِيهِ...».

١٤- يس «يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ...».

١٥- ص «ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ...».

- ١٦ - غافر «حم. تنزيلُ الكتابِ مِن الله العزيزِ العليم...».
- ١٧ - فصلت «حم. تنزيلُ مِن الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...».
- ١٨ - الشورى «حم. عَسَق. كَذَلِكَ يُوحَى إِلَيْكَ...».
- ١٩ - الزخرف «حم. والكتابِ المُبين...».
- ٢٠ - الدخان «حم. والكتابِ المُبين...».
- ٢١ - الجاثية «حم. تنزيلُ الكتابِ مِن الله العزيزِ الحكيم...».
- ٢٢ - الأحقاف «حم. تنزيلُ الكتابِ مِن الله العزيزِ الحكيم...».
- ٢٣ - ق «ق والقرآن المجيد...».
- والسنة الباقية تعقبت بذكر جلائل آياته تعالى وعظيم قدرته وإحاطته:
- ٢٤ - آل عمران «الم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم...».
- ٢٥ - مريم «كهيعص. ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا...».
- ٢٦ - طه «طه. ما أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى...».
- ٢٧ - العنكبوت «الم. أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ...».
- ٢٨ - الروم «الم. غُلِبَتِ الرُّومُ...».
- ٢٩ - القلم «ن والقلم وما يسطرون...».
- وستكلم عن الحروف المقطعة واختلاف الأقوال فيها في فصل قادم إن شاء الله.

والبدءُ بالخطاب المشافه إكبار بشأن المخاطبين وإجلال لهم، ويبعث على إصغائهم له والاستماع إلى كلامه، احتراماً متقابلاً، اقتضاءً لأدب المحاورة في الكلام. وكان الخطاب بهذا العموم ممّا ينبىء عن نبأ عظيم يريد المتكلم إلقاءه على مسامع الحاضرين في عناية ورعاية بالغتين، ومن ثمّ يسترعي انتباههم:

إمّا بتوجيه الخطاب إلى عامة المكلفين (الناس كافة) على تعاقب الدهور،
ففي مفتتح سورتين:

١ - سورة النساء «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...».

٢ - سورة الحج «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ...».

أو خطاباً مع الذين آمنوا (كافة من آمن في الأرض) أو سيولد مؤمناً على مدى الأحقاب، وهنّ ثلاث سور:

١ - سورة المائدة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ...».

٢ - سورة الحجرات «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...».

٣ - سورة الممتحنة «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...».

أو خطاباً مع النبيّ (صلى الله عليه وآله) خاصّة، إما بسمته أو بصيفته، وهنّ خمس سور - لو اعتبرنا من حروف (طه) و (يس) أيضاً حروف مقطعات كما هو الأرجح -:

١ - الأحزاب «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ...».

٢ - الطلاق «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ...».

٣ - التحريم «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ...».

٤ - المزمل «يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ...».

٥ - المدثر «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ...».

أو هو خطاب بغير حرف نداء، إما مبدوءة بـ «قل» وهنّ خمس سور:

١ - سورة الجنّ «قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ...».

٢ - سورة الكافرون «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ...».

٣ - سورة الإخلاص «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ...».

٤ - سورة الفلق «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ...».

٥ - سورة الناس «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ...».

أو بغيره من سائر أنحاء الخطاب، في أربع عشرة سورة:

١ - الأنفال «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ...».

٢ - الفتح «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا...».

٣ - المجادلة «قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ...».

٤ - المنافقون «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ...».

٥ - الحاقة «الْحَاقَّةُ. مَا الْحَاقَّةُ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ...».

٦ - الطارق «وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ...».

٧ - الغاشية «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ...».

٨ - الانشراح «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ...».

٩ - العلق «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...».

١٠ - القارعة «الْقَارِعَةُ. مَا الْقَارِعَةُ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ...».

١١ - الفيل «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ...».

١٢ - الماعون «أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ...».

١٣ - الكوثر «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ...».

١٤ - النصر «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ...».

والسور الباقيات إما مفتوحة بالقسم الخطير تفخيماً بشأن الكلام، أو

بالتهديد المرير تهويلاً بشدة الموقف وصلابته.

وكانت سور (يس) و (الزخرف) و (الدخان) و (ق) و (القلم) مبتدآت بالقسم، وتقدمن. وكذا سورة الطارق. على ما عرفت، والباقي ست عشرة سورة:

- ١ - الصافات «والصافات صفاً...».
- ٢ - الذاريات «والذاريات ذرواً...».
- ٣ - الطور «والطور. وكتاب مسطور...».
- ٤ - النجم «والنجم إذا هوى...».
- ٥ - القيامة «لا أقسم بيوم القيامة...».
- ٦ - المرسلات «والمرسلات غرماً...».
- ٧ - النازعات «والنازعات غرقاً...».
- ٨ - البروج «والسما ذات البروج...».
- ٩ - الفجر «والفجر. وليالٍ عشر...».
- ١٠ - البلد «لا أقسم بهذا البلد...».
- ١١ - الشمس «والشمس وضحاها...».
- ١٢ - الليل «والليل إذا يغشى...».
- ١٣ - الضحى «والضحى. والليل إذا سجى...».
- ١٤ - التين «والتين والزيتون...».
- ١٥ - العاديات «والعاديات ضبحاً...».
- ١٦ - العصر «والعصر. إن الإنسان لفي خسر...».

والمبدؤة بالتهديد المهول تسع عشرة سورة:

- ١ - سورة براءة «براءة من الله ورسوله...».
- ٢ - سورة النحل «أتى أمر الله فلا تستعجلوه...».

- ٣ - سورة الأنبياء «اقترب للناس حسابهم...».
- ٤ - سورة محمد «الذين كفروا وصّدوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم...».
- ٥ - سورة القمر «اقتربت الساعة وانشق القمر...».
- ٦ - سورة الواقعة «إذا وقعت الواقعة. ليس يوقعتها كاذبة...».
- ٧ - سورة المعارج «سأل سائل بعذاب واقع. للحكافرين ليس له دافع...».
- ٨ - سورة الدهر «هل أتى على الإنسان حين من الدهر...».
- ٩ - سورة النبأ «عم يتساءلون. عن النبأ العظيم...».
- ١٠ - سورة عبس «عبس وتولى. أن جاءه الأعمى...».
- ١١ - سورة التكوير «إذا الشمس كورت...».
- ١٢ - سورة الانفطار «إذا السماء انفطرت...».
- ١٣ - سورة المطففين «ويل للمطففين...».
- ١٤ - سورة الانشقاق «إذا السماء انشقت...».
- ١٥ - سورة البينة «لم يكن الذين كفروا... مُنفكين...».
- ١٦ - سورة الزلزال «إذا زلزلت الأرض زلزالها...».
- ١٧ - سورة التكاثر «ألهاكم التكاثر...».
- ١٨ - سورة الهُمزة «ويل لكل هُمزة لُمزة...».
- ١٩ - سورة تبت «تبت يدا أبي لهب...».

* * *

والبقية الباقية سبع سور افتتحت بسوى ماتقدم، لكنها على نفس النمط، إما إكبار بشأن الايمان، أو إشادة بموضع القرآن، أو تفخيم بمواقف الأنبياء العظام، أو تقريع لمن عاند ولج في رفض دعوة الإسلام، وهن:

١ - سورة المؤمنون «قد أفلح المؤمنون...».

- ٢ - سورة النور «سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا...».
- ٣ - سورة الزمر «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ...».
- ٤ - سورة الرحمن «الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ...».
- ٥ - سورة نوح «إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ...».
- ٦ - سورة القدر «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...».
- ٧ - سورة الإيلاف «لِإِيْلَافٍ قَرِشٍ. إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ...».

تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ:

نقل الزركشي عن أبي شامة شهاب الدين المقدسي (توفي سنة ٦٦٥) في مفتتحات السور أنها على عشرة أنواع:

١ - الافتتاح بالثناء عليه تعالى، إما تمجيداً أو تنزيهاً، في أربع عشرة سورة. سبعة تمجيد، هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، والفرقان، والمثلث. وسبعة تنزيه، وهي: الإسراء، والحديد، والحشر، والصف، والأعلى، والجمعة، والتغابن.

٢ - الحروف المقطعات في تسع وعشرين سورة، على ما سبق تفصيله.

٣ - حرف النداء، إما خطاباً للناس، أو المؤمنين، أو النبي خاصة. والمجموع عشر سور، وقد سبقت.

٤ - القسم، في خمس عشرة سورة إن لم نعد «لَأَقْسِمُ» يمناً، وإلا فهي سبع عشرة، وقد سبق ذلك.

٥ - الدعاء في ثلاث سور: المطففين، والهزّمة، وتبت.

٦ - الأمر في ست سور: الجن، والعلق، والكافرون، والتوحيد، والمعوذتان.

٧ - الاستفهام في ست سور: الدهر، والنبأ، والغاشية، والانشراح،

والفيل، والدين.

٨ - الشرط في سبع سور: الواقعة، والمنافقون، والتكوير، والانفطار، والانشقاق، والزلزال، والنصر.

٩ - التعليل في «الإيلاف».

١٠ - الخبر المحض في ثلاث وعشرين سورة، وهي السور الباقية^(١).

حسن الختام: في خواتيم السور

قال ابن أبي الاصبع: يجب على المتكلم أن يختم كلامه بأحسن خاتمة، فإنها آخر ما يبقى في الأسماع، ولأنها ربما حفظت من دون سائر الكلام في غالب الأحوال، فيجب أن يجتهد في رشاقتها ونضجها وحلاوتها وجزالتها^(٢).

وقال غيره: ينبغي أن يكون آخر الكلام الذي يقف عليه الخطيب أو المترسل أو الشاعر مستعذباً حسناً، وأحسنه ما أذن بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى للنفس تشوّف إلى ما وراءه.

قال ابن معصوم: وهذا رابع المواضع التي نصّ ائمة البلاغة على التأنق فيه، لأنه آخر ما يقرع السمع ويرتسم في النفس، وربما حفظ لقرب العهدة، فإن كان مختاراً حسناً تلقاه السمع واستلذه، ولربما جبر ما وقع فيما سبق من التقصير، كالطعام الشهّي يُتناول بعد الأطعمة التفهة. فإن كان بخلاف ذلك كان على العكس، حتى ربما أنسى المحاسن قبله^(٣).

وقد اتفقت كلمة أعلام البيان على أنّ خواتيم السور كلها كفواتحها في غاية

(١) البرهان: ج ١ ص ١٦٤ - ١٨١. الاتقان: ج ٣ ص ٣١٦ - ٣١٩. معترك الاقرا: ج ١ ص ٧٩ -

(٢) بديع القرآن: ص ٣٤٣.

(٣) انوار الربيع: ج ٦ ص ٣٢٤.

الجودة ونهاية الكمال. إذ اختتمت على أحسن وجوه البلاغة وأفضل أنحاء البراعة، ما بين أدعية خالصة، وتحميد وتهليل وتسبيح، أو إنجاز لما اقتضته السورة من تفصيل، مما يناسب الاختتام، والإيذان للسامع بختم المقال وتوفيه المرام، فلا يبقى معه تشوف إلى إدامته وتكميل أو إتمام^(١).

* * *

قال ابن معصوم: خواتيم السور كفواتحها واردة على أحسن وجوه البلاغة وأكملها مما يناسب الاختتام، كتلخيص جملة المطلوب ثم تفصيلها بأوجز بيان في خاتمة سورة الفاتحة. إذ المطلوب الأعلى من هداية الأنام هو الإيمان بالله وأتباع طريقة مصونة عن الزيغ والانحراف مما يوجب سخطه تعالى والنتية في وادي الضلال. فهذا قد لخص أولاً في قوله: «إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» ثم فُصِّل: «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ». يعني أنهم جمعوا بين النعم المطلقة، وهي: نعمة الإيمان، ونعمة السلامة عن غضب الرحمن، ونعمة التجنب عن أسباب الضلال، التي هي المعاصي وتجاوز الحدود.

وهكذا ختمت سورة البقرة بالدعاء والاستغفار والابتهال إلى الله في طلب النصر والتوفيق، وهو من أجل الخواتيم وأفضلها.

قال: وتأمل سائر خواتيم السور تجدّها كذلك في غاية الجودة ونهاية اللطافة. هذه خاتمة سورة إبراهيم عليه السلام هي من أوضح ما أذن بالختام، وهو قوله تعالى: «هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ».

وهكذا خاتمة الحجر بقوله تعالى: «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ» فإنها

(١) راجع معترك الاقرا: ج ١ ص ٧٥.

في غاية البراعة.

ومثلها خاتمة الزمر بقوله سبحانه: «وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وأما خاتمة الصافات فإنها العَلَم في براعة الختام، حتى صارت يُختم بها كل كلام - دارين أرباب الفضيلة وأصحاب البيان - وهو قوله تعالى: «سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(١).

* * *

ولابن أبي الاصبع عرض لطيف عن براعة خواتيم السور، يذكرها سورة سورة حتى نهاية الكتاب العزيز، ويشير إلى ما في كل خاتمة من جودة تعبير وحسن أداء إشارات إجمالية عابرة، إذ لا يسعه المجال للتفصيل والایفاء. ومن ثم قد يبدو عليه أثر التكلف أو التعسف لولا جانب اختصاره. أما التعمق فيقضي بالتحسين والإكبار، فإنه - رحمه الله - أفاد وأشاد، وفتح باباً كان لم يستطرقه أحد قبله، وأتى بما فوق المراد وأجاد.

قال - مبتدئاً -: وجميع خواتيم السور الفرقانية في غاية الحسن ونهاية الكمال، لأنها بين أدعية ووصايا، وتحميد وتهليل، ومواعظ ومواعيد، إلى غير ذلك من الخواتيم التي لا يبقى للنفوس بعدها تشوف إلى ما يقال.

ثم ذكر الخواتيم على الترتيب، وأخيراً قال: هذه خواتيم السور الفرقانية على الإجمال، ولو ذهبنا إلى ذكر تفاصيل ما انطوت عليه من المحاسن والفنون، وما يبرهن عن تمكينها ورشاقة مقاطعها، وانتهاء البلاغة إلى كل مقطع منها، لاحتجت في ذلك إلى تدوين كتاب بذاته^(٢).

(٢) بديع القرآن: ص ٣٤٦ - ٣٥٣.

(١) أنوار الربيع: ج ٦ ص ٣٢٥ بتصرف وتلخيص.

قلت: والمُراجع اللبيب يجد صدق مقاله إذا أمعن التدبّر في دلائله. وفي كلام الشريف صدر الدين ابن معصوم المدني -أنفاً- مقتبسات من تلك الإشارات.

الحروف المقطّعة

في أوائل السور

وردت في مفتتح تسع وعشرين سورة حروف مقطّعات هي نصف حروف الهجاء، إمّا مفردة أو منضّمة من غير تركيب، وهي: «الم. المص. المر. الر. طس. طسم. حم. حمسق. كهيعص. طه. يس. ص. ن. ق.» ومجموع هذه الحروف ثمانية وسبعون حرفاً، وهي بحذف المكرّرات تصبح أربعة عشر حرفاً: (أ. ح. ر. س. ص. ط. ع. ق. ك. ل. م. ن. هـ. ي).

قال الزمخشري: إذا تأملت ما أورده الله في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف حروف المعجم أربعة عشر سواء... في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم.

ثمّ إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف. بيان ذلك: إن فيها من (المهموسة) نصفها: الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء. ومن (المجهورة) نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والعين، والطاء، والقاف، والياء، والنون. ومن (الشديدة) نصفها: الألف، والكاف، والطاء، والقاف. ومن (الرخوة) نصفها: اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون. ومن (المطبقة) نصفها: الصاد، والطاء. ومن (المنفتحة) نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والقاف، والياء،

والنون. ومن (المستعلية) نصفها: القاف، والصاد، والطاء. ومن (المنخفضة) نصفها: الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والسين، والحاء، والنون. ومن حروف (القلقلة) نصفها: القاف، والطاء^(١).

ثم إذا استقرت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمدكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته.

قال: وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته. فكأن الله عز اسمه عدّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما ذكرت، من التبكيث لهم وإلزام الحجة إياهم.

قال: وقد اختلفت أعداد هذه الحروف، فوردت (ص، ق، ن) حرفاً واحداً. و(طه، طس، يس، حم) على حرفين. و(الم، الر، طسم) على ثلاثة أحرف. و(المص، المر) على أربعة أحرف. و(كهيعص، جمعسق) على خمسة أحرف. كل ذلك على عادة افتتان العرب في أساليب كلامهم، ولم تزد أبنية كلماتهم على ذلك^(٢).

قيل: إنما جاءت الحروف المقطعة على نصف حروف المعجم تنبيهاً على أن

(١) بقي عليه حروف (الصفير) وهي ثلاثة: السين، والصاد، والزاي. فذكر منها اثنان: السين، والصاد. لأن النصف - في العادة - في العدد الفرد يجب تكميل كسره. وكذلك من حروف (اللينه) اثنان: الألف، والياء، كذلك. و(المكرّر) وهو الراء. و(الهاوي) وهو الألف. و(المنحرف) وهو اللام، وقد ذكرها.

وأما حروف (الذلاقة والمصمتة) قال أحمد: فالصحيح أن لا يعدّ صنفين، حتى أن الزمخشري في (المفصل: ص ٣٩٥) أبعد في تمييزهما. (هامش الكشف: ج ١ ص ٢٩).

(٢) الكشف: ج ١ ص ٢٩ - ٣١ مع اختزال.

من زعم أنَّ القرآن ليس بآية فليأخذ الشطر الباقي ويركّب عليه ألفاظاً ليعارض بها القرآن. نقله الزركشي عن القاضي أبي بكر. ثم قال: وهذه الأحرف تختلف من حيث مواضعها، فلم تقع الكاف والنون إلا مرة واحدة، والعين والياء والهاء والقاف مرتين، والصاد ثلاث مرّات، والطاء أربعاً، والسين خمساً، والراء ستاً، والحاء سبعاً، والألف واللام ثلاث عشرة، والميم سبع عشرة.

قال الامام بدرالدين الزركشي: وقد جمع هذه الأحرف الأربع عشرة قولك: «نصّ حكيمٌ قاطعٌ له سرّ». وقولك: «صراط عليّ حقٌ نُمسيكه». قال: وتأمل السور المفتحة بحرف واحد، فإن أكثر كلماتها مبنية على ذلك، كالقاف في سورة «ق»، ففيها ذكر الخلق، وتكرار القول، والقرب، والتلقّي، والرقيب، والسابق، والقرين، والالقاء، والتقدّم، والمتّقين، والقلب، والقرن، والتنقيب، والقتل، وتشقق الأرض، وبسوق النخل، والرزق، والقوم، وما شاكل، وفي ذلك سرّ مكنون. وسرّ آخر: أنَّ المعاني الواردة في السورة كلها تناسب لما في حرف القاف، من الشدّة والجهر والقلقلة والانفتاح.

وهكذا سورة «ص» اشتملت على عدة خصومات جاءت في السورة. فأولها خصومة الكفار مع النبي، ثم اختصاص الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصاص الملائكة في العلم، ثم تخاصم ابليس. وكذلك سورة القلم، فواصلها على النون واشتمالها على كلمات نونية كثيرة.

قال: وكذا السور المفتحة بحرفين أو أكثر، فإن له رابطاً مع كلمات السورة بالذات.

هذا من جهة اللفظ، ولعلّ في طيّها أسراراً عظيمة يعلمها الربّانيون^(١).

قال جلال الدين السيوطي: إنّ كلّ سورة بدئت بحرف من هذه الحروف فإنّ أكثر كلماتها وحروفها مماثل له، فحقّ لكلّ سورة منها أن لا يناسبها غير الوارد فيها. فلو وضع «ق» موضع «ن» لم يمكن. وسورة «ق» بدئت به لما تكرّر فيها من الكلمات بلفظ القاف. وهكذا قد تكرّرت الراء في سورة يونس، من الكلام الواقع فيها إلى مائتي كلمة أو أكثر، فلهذا افتتحت بالراء، وسورة الأعراف زيد فيها «ص» على «الم» لنفس السبب^(٢).

الحروف المقطّعة

في مختلف الآراء

اختلفت الأنظار عن الحروف المقطّعة في أوائل السور، وربما بلغت عشرين قولاً أو تزيد، حسباً أحصاه الإمام الرازي في تفسيره الكبير. سوى أنّ الاتجاهات الرئيسية التي سلكتها تلكم الأقوال تعتمد على المباني الثلاثة التالية:

- ١ - اعتقاد أنها من المتشابه المجهول تماماً، علم مستور، وسرّ محبوب، استأثر الله به. فقد حُكي عن الشعبي - هو أبو عمرو عامر بن شراحيل، التابعيّ الشهير، توفي سنة ١٠٤ - أنّه قال: نؤمن بظواهرها ونكل العلم فيها إلى الله^(٣).
- وقد أنكر أهل الكلام هذا الاعتقاد لو أُريد به الجهل المطلق، حتى على

(١) البرهان: ج ١ ص ١٦٧ - ١٦٩.

(٢) معترك الاقوان: ج ١ ص ٧١.

(٣) البرهان: ج ١ ص ١٧٣.

مثل رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسائر أمناء الوحي. إذ كيف يرد في الكتاب المبين مايكاد يخفى على الخافقين. وقد قال تعالى: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ»^(١).

وإن أريد به الحجب عن العامة واختصاص علمه بأولياء الله الْمُخْلِصِينَ فهذا مرده إلى القول التالي:

* * *

٢ - أنها الرموز بين الله ورسوله، لا يمسّه إلّا المطهرون، الأمناء على وحيه. قال أرباب القلوب: التخاطب بالحروف المفردة ستة الأحياء في سنن المحاب، فهو سرّ الحبيب مع الحبيب، بحيث لا يطلع عليه الرقيب: بين المحبتين سرّ ليس يُفشيهِ قول ولا قلم للخلق يحكيهِ وقد روى السيد رضي الدين ابن طاووس (توفي سنة ٦٦٤) عن «حقائق التفسير» لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي (توفي سنة ٤١٢) عن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: الم، رمز وإشارة بينه تعالى وبين حبيبه محمد (صلى الله عليه وآله) أراد أن لا يطلع عليه سواهما، أخرجه بحروف بَعْدَهُ عن درك الأغيار، وظهر السرّ بينهما لا غير^(٢).

قال الحجة البلاغي: ولا غرو أن يكون في القرآن ما هو محاورة رمزية بأسرار خاصة، مع الرسول (صلى الله عليه وآله) وأمناء الوحي، (عليهم السلام)^(٣).

قال ابن بابويه أبو جعفر الصدوق (توفي سنة ٣٨١): والعلّة الأخرى في إنزال أوائل هذه السور بالحروف المقطعة ليخصّ بمعرفتها أهل العصمة

(١) ص: ٢٩.

(٢) سعد السعود: ص ٢١٧ (ط نجف). وفي البحار: ج ٨٩ ص ٣٨٤ (ط بيروت).

(٣) آلاء الرحمن: ج ١ ص ٦٤.

والطهارة، فيقيمون بها الدلائل، ويظهرون بها المعاجز. ولو عمّ الله تعالى بمعرفتها جميع الناس لكان في ذلك ضدّ الحكمة وفساد التدبير^(١). وهذا هو اختيار جلّ أهل النظر في التفسير.

وفي كلام العرب شواهد على الرمز بالحروف، وليس بالأمر الغريب. قال الشاعر^(٢):

قلنا لها: قفي لنا، قالت: قاف لا تحسبي إننا نسينا الإيجاف
فقد أرادت بقولها: قاف «قد وقفت» فأشارت إليه رمزاً بإظهار حرف
القاف كناية عن تمام الكلمة. وكذا رمزوا عن النحاس بحرف «ص»، وعن
النقد بحرف «ع»، وعن السحاب بحرف «غ». وهكذا سمّوا بالحروف
أشياء، منها جبل قاف، والحوث نوثاً. وقد يسمّون الإعلام بها أيضاً، كما سمّوا
والدا حارثة «لام» فقالوا: حارثة بن لام.

ومتّما يشهد لذلك أيضاً نقصهم الكلمة حروفاً ليكون الباقي دلالة عليه،
كما في الترخيم، في مثل «ياحار» بحذف «الشاء». و«يامال» بحذف
«الكاف»: وكقول راجزهم^(٣).

ماللظلم عال كيف لا، يا ينقد عنه جلده إذا، يا
وأراد بالياء ياء المضارعة، رمزاً إلى قوله: يفعل. أي «لايفعل» و«إذا
يفعل».

وقال الآخر:

(١) كمال الدين وتمام النعمة (تحقيق الغفاري): ج ٢ ص ٦٤٠. وفي البحار: ج ٨٩ ص ٣٨١.

(٢) في تفسير الخازن نسبة إلى الراجز.

هو الأغلب بن عمرو العجلي من الشعراء المخضرمين المعترين. مات في وقعة نهاوند في جملة من توجه من الكوفة مع سعد سنة ٢١. وهو أول من رجز الأراجيز الطوال. ومن ثم سمي بالراجز.

بالخير خيراً «ت» وإن شراً «فا» ولا أريد الشرّ إلا أن «تا»
فالتاء إشارة إلى قول «تشاء» وبالفاء فاء الجزاء. والمعنى:
بالخير خيراً تشاء وإن شراً فشرّاً ولا أريد الشرّ إلا أن تشاء
قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (توفي سنة ٣١٠): والشواهد على
ذلك كثيرة يطول باستيعابها الكتاب^(١).

ما قيل في حلّ تلك الرموز:

قيل: إنها بحساب الأبعد^(٢). وأول من تنبّه لذلك يهود المدينة، على حياته
(صلّى الله عليه وآله) وذلك لما نزلت السورة الكبرى «البقرة» بالمدينة
مفتتحة بقوله تعالى: «الم» جاءت جماعة من أحبارهم - قيل: هم حيي بن
أخطب وأبوياسر بن أخطب ونفر آخرون - إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله)
فقالوا: ما علمنا نبياً أخبر أُمته بمدة ملكهم بأقلّ ممّا أخبرتهم به. وهي إحدى
وسبعون سنة، على حروف «الم». فولّى (صلّى الله عليه وآله) عليّاً مخاطبهم،
فقال لهم علي (عليه السّلام): فما تصنعون بـ «المص»؟ فقالوا: مائة وإحدى
وستون^(٣).

قال: فما تصنعون بقوله: «الر»؟ فقالوا: مائتان وإحدى وثلاثون^(٤). ثمّ
قال لهم: فما تصنعون بـ «الم»؟ قالوا: مائتان وإحدى وسبعون.
فقال (عليه السّلام): فواحدة من هذه له أو جميعها؟ فاختلط كلامهم.

(١) جوامع البيان: ج ١ ص ٧٠.

(٢) بفرض الواحد العددي هي السنة، لتكون الألف - في مثل «الم» - رمزاً إلى سنة واحدة، واللام
ثلاثون سنة، والميم أربعون، والمجموع: واحد وسبعون عاماً.

(٣) صاد: ٩٠.

(٤) راء: ٢٠٠.

وقالوا - أخيراً -: بل يجمع له كلها، وذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة^(١). ثم يرجع الملك إلينا، نحن اليهود.

فقال (عليه السلام): أكتب من كتب الله نطق بهذا أم آراؤكم دلتكم عليه؟ قالوا: آراؤنا دلت عليه، ودليل صوابه أن هذا حساب الجمل.

فقال (عليه السلام): كيف دلّ على ما تزعمون من مدّة ملك هذه الأمة، وليس في حساب الجمل دليل على ما اقترحتم بلا بيان؟ أرايتم إن قيل لكم: إن هذا العدد يدلّ على لعنكم بحسابها. أو غير ذلك، فإذا تقولون؟ وعند ذلك سقط ما في أيديهم، وباؤوا بغضب من الله ورسوله^(٢).

انظر إلى دقّة تعبير الامام (عليه السلام) في ردّه على اليهود، لم يقرّهم في أصل المبنى ولا في الفرع الذي ينوّه على ذلك الأصل.

وقيل: إنها رموز إلى أسمائه تعالى وصفاته الجلال والجمال. فالألف - في قوله «الم» - رمز عن اسم الجلالة «الله»، واللام عن «اللطيف»، والميم عن «المجيد». أو كناية عن «آلائه» و«لطفه» و«مجده». أو اختصار عن قوله «أنا الله العليم»... وما شاكل ذلك من التأويلات التي هي أشبه بالتخرّصات.

وقال محي الدين ابن عربي (توفي سنة ٦٣٨) - في مفتاح سورة البقرة -:

(١) وهي مجموعة: ٧١ + ١٦١ + ٢٣١ + ٢٧١ = ٧٣٤. وكان في الحديث سقط صحّحناه على الدر المنثور: ج ١ ص ٢٣.

(٢) ملخص من تفسير القمي: ص ٢١٠، ومعاني الأخبار للصدوق: ص ١٩ - ٢٦، وبحار الأنوار: ج ٨٩ ص ٣٧٤ - ٣٨٠. وهكذا تجد مقتطفات منه في سائر التفاسير، النيسابوري بهامش الطبري: ج ١ ص ١٢١ - ١٢٢، والطبري: ج ١ ص ٧١، والتفسير الكبير: ج ٢ ص ٧. والدر المنثور: ج ١ ص ٢٣.

أشار بهذه الحروف الثلاثة إلى كل الوجود من حيث هو كل، لأنّ «أ» إشارة إلى ذات الذي هو أول الوجود، و«ل» إلى العقل الفعّال المسمّى جبرئيل، وهو أوسط الوجود الذي يستفيض من المبدأ ويُفيض إلى المنتهى، و«م» إلى محمّد الذي هو آخر الوجود، تمّ به دائرته وتتصل بأولها^(١).

* * *

٣ - أنها مجرد أسماء حروف وأصوات هجاء، لا تحمل في طيّها معنى ولا تحتوي على سرّ مكنون. وليست ما وراء عبّادان قرية! سوى أنّ إيراد هذه الأحرف بهذا النمط وفي ذلك المقطع من الزمان يهدف إلى غرض وحكمة بالغة، وإن كانت لا تعدو اعتبارات لفظية محضة.

وهذا نظير ما مرّ عن الزمخشري في بيان حكمة ذلك، وقوله أخيراً: فسبحان الذي دقّت في كل شيء حكمته.

وكذا قول بعضهم: إنّ لهكذا أصوات في بدء التلاوة كان تأثير بالغ في انتباه السامعين لينصتوا إلى قراءة الذكر الحكيم. حيث كانت العرب إذا سمعوا القرآن يُتلى قالوا: «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه»^(٢).

وهكذا القول بأنها أقسام. أقسم الله بها كما أقسم بأشياء كالفجر والضحى والتين والزيتون. فقد أقسم بأسماء الحروف الهجائية، لأنها الأصل في كل كلام والأساس لكل بيان في أية لغة من اللغات.

* * *

قال سيّدنا الطباطبائي - رحمه الله -: إذا تدبّرت السور المفتحة بحروف مشتركة من هذه الحروف المقطّعة - مثل: الميمات، والراءات، والطواسين،

(١) تفسيره المختصر: ج ١ ص ١٣.

(٢) فضلت: ٢٦.

والحواميم. وجدتها متشابهة المضامين ومتناسبة السياقات. ويمكن أن يُحدّس أنّ بين هذه الحروف وبين مضامين تلك السور ارتباطاً خاصاً. مثلاً سورة الأعراف صُدرت بقوله «المص» فكأنها جامعة بين مضامين الميمات وسورة ص. وكذلك سورة الرعد المصدّرة بقوله «المر» كأنها جامعة في مضمونها بين الميمات والراءات... وهكذا.

ويستفاد من ذلك: أنّ هذه الحروف رموز بين الله سبحانه ورسوله (صلّى الله عليه وآله) خفية عتاً، لنعلم منها سوى هذا المقدار من الارتباط. ولعلّ المتدبريتين له أزيد من ذلك.

وربما يشير إلى هذا المعنى ماروي عن أمير المومنين (عليه السّلام) قوله: «لكلّ كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التّهجي»^(١).

* * *

الرأي المختار:

والرأي المختار هو القول بأنها إشارات رمزية إلى أسرار بين الله ورسوله، لم يهتد إليها سوى المأمونون على وحيه. ولو كان يمكن الاطلاع عليها لغيرهم لم تكن حاجة إلى الرمزيها من أول الأمر.

نعم لا يبعد اشتغالها على حِكَم غريبة وفوائد عجيبة تزيد في فخامة موضعها من مفتتح السور، ولا سيّما بهذا النظم المتفنّن في تنوّعه البديع.

ولعلّ ما أشار إليه الزمخشري، وجاء في كلام الزركشي، واحتملته قرينة سيّدنا الطباطبائي، فيما سلف... لعلّه شذرات من تلك الحِكَم والفوائد المودعة إلى جنب ماحوته تلك الحروف من أسرار عظام.

(١) تفسير الميزان: ج ١٨ ص ٦ سورة الشورى.

الأمر الذي ينبئك عن جانب خطير من إعجاز الكتاب، يتجلى ويزدهر يوماً فيوماً، كلما تأمل المتأملون في آياته الكريمة، وتدبرها ذووا الألباب على مدى الأحقاب.

الإعجاز الحسابي في فواتح السور استخدام العقل الالكتروني للكشف على الأحرف المقطعة

استخدم عالم كيمياء مصري يعيش في أمريكا العقول الالكترونية في محاولة لتفسير معنى بعض الحروف الأبجدية التي تسبق بعض سور القرآن الكريم.

هكذا نجد العنوان مسجلاً على صفحات مجلة «آخر ساعة» المصرية لعددتها (١٩٩٦ - ٢٤ يناير ١٩٧٣ - ٢٠ ذوالحجة ١٣٩٢).

وهذا العالم هو الدكتور «رشاد خليفة» الذي قام بتسجيل نتائج أبحاثه في مكتبة الكونغرس الأمريكي تحت رقم (٢٧٣٨٦) وبتاريخ ١١ أبريل (١٩٧٢). وهي كانت نتيجة أتعابه خلال ثلاث سنوات، وهو لم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره.

يقول: إن نصف عدد الحروف الأبجدية يدخل في تركيب فواتح السور، وهي الحروف النورانية الأربعة عشر، افتتحت بها تسعة وعشرون سورة ضعفاً. ولا بد بين هذه الحروف وهذه السور بالذات من رابطة ذاتية، ولعلها تكشف عن جانب من وجه إعجاز القرآن!

ومع الاستعداد لاستخدام العقل الالكتروني بدأ عملية إحصاء مثيرة للأحرف الأبجدية في كل سورة من سور القرآن الكريم.

كان عليه أن يقوم بإحصائها حرفاً حرفاً، واستغرقت هذه العملية الاختصاصية أكثر من سنتين كاملتين^(١). وبعدها أخذ في تغذية العقل الالكتروني بملايين الأرقام التي تجمّعت لديه، وكان يجري حساب النسبة المئوية لكل حرف من حروف هذه السور بالذات، حساباً متوسطاً لعدد كل حرف... ثم بدأ العقل الالكتروني على مدى سنة كاملة بعمل مجموعة من العمليات الحسابية، تكشف لأول مرة في تاريخ الدين الإسلامي عن حقائق مذهلة:

مثلاً: إنّ العقل الالكتروني قد كشف على أنّ حرف (ق) موجود بأعلى نسبة في سورة (الفلق)، وإنّ نسبته بين جميع الأحرف الأبجدية التي تضمّها هذه السورة هي: (٦/٧٠٠٪). وبمعنى آخر أنّ (٦/٧٠٠٪) من الأحرف الأبجدية في سورة (الفلق) هي حرف القاف.

وتلي سورة الفلق سورة (القيامة)، وفيها حرف القاف بنسبة (٣/٩٠٧٪). ثمّ تليها مباشرة سورة (الشمس) (٣/٩٠٦٪).

وكما قام العقل الالكتروني بحساب النسبة المئوية لحرف القاف في جميع السور القرآنية، قام أيضاً بحساب نسبة بقية الأحرف النورانية الأربعة عشر.

ولكن ماذا تعني نتائج هذه العمليات الحسابية التي قام بها العقل الالكتروني؟ إنّهُ استطاع بواسطته أن يحدّد القيمة الحسابية، ومركز كل حرف من الحروف الأبجدية التي جاءت في فواتح سور القرآن الكريم. وبدراسة القيمة الحسابية لهذه الأحرف، استطاع أن يسجّل الكثير من الملاحظات التي يمكن أن

(١) إنّ العمليات الحسابية التي قام بها العقل الالكتروني (الكامبيوتر) بهذا الشأن تُقدّر بحوالي (٦٣) كتليون عملية حسابية. أي (٦٣) وعلى يمينه (٢٧) صفراً: ٢٧×١٠^{٦٣} . وهذا الرقم يتعدّى جميع طاقات العقول الالكترونية الموجودة في العالم أو التي يمكن أن توجد مستقبلاً.

تكون مفتاح الشفرة للكشف عن التفسير الصحيح لهذه الحروف.
وإليك من تلك الملاحظات:

* إن حرف (ق) مثلاً يظهر متفوقاً حسابياً في سورة (ق)، أي أن نسبته في هذه السورة إلى بقية الحروف الأبجدية الأخرى أعلى منها عن نسبته في جميع سور القرآن الكريم الأخرى.

وهذا لا يعني إلا شيئاً واحداً، وهو أن الله سبحانه وتعالى -وقد أنزل القرآن على رسوله على مدى عشرين سنة- كان ثابتاً في علمه، بحيث أحكمت آيات القرآن وكلماته، بل حروفه أيضاً، وقد شاء الله أن تكون هذه السورة التي تحمل رقم (٥٠) في المصحف الشريف هي التي تحتوي على أعلى نسبة لحرف القاف بين مختلف سور القرآن الكريم، وشاءت إرادته أيضاً أن تبدأ هذه السورة بحرف (القاف) كالفاتحة للسورة، وأن يطلق عليها اسم سورة (ق).

* إن حرف (ص) متفوق حسابياً في سورة (ص) تماماً، كما هو الحال بالنسبة لحرف القاف في سورة (ق).

* لوحظ أن تحليل نتائج حسابات العقل الالكتروني أن حرف (ن) متفوق حسابياً في سورة (القلم) -وهي كما قال تعالى: «ن والقلم وما يسطرون»- على جميع سور القرآن الكريم فيماعداء سورة واحدة هي سورة (الحجر). أي أن هذه السورة هي الوحيدة التي تتفوق على سورة (القلم) في عدد الحرف الأبجدي (ن) فيها.

إلا أنه لوحظ في نفس الوقت أن هذه السورة هي إحدى السور ذات الفواتح بالأحرف (الر). وقد اتضح بضم سورة (الحجر) إلى أخواتها الأربع (يونس وهود ويوسف وإبراهيم). أي أننا لو تعاملنا مع هذه السور الخمس، وكأنها سورة واحدة... فأننا نكشف أن سورة (القلم) تتفوق حسابياً على متوسط هذه السور الخمس وكأنها سورة واحدة.

* ولوحظ أيضاً بالنسبة لفواتح السور التي تتكون من حرفين أن حرفي (ط + هـ) مثلاً متفوقاً حسابياً في سورة (طه) على غيرها من سور القرآن الكريم. والثابت أن حسابات العقل الالكتروني قد توقفت قليلاً أمام الحرفين (حم) وتبدأ بهما سبع سور، هي سور (غافر والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف). فقد لوحظ أن التفوق الحسابي لهذين الحرفين يغطي جميع السور المكية، وليس السور المدنية.

وبمعنى آخر: يشترط لملاحظة هذا التفوق الحسابي أن تضم السور المتشابهة في فواتحها على بعضها، وعلى أن تعامل وكأنها سورة واحدة.

* ولوحظ كذلك التفوق الحسابي للحرفين (ي + س) في سورة (يس) يغطي جميع سور القرآن الكريم التي نزلت في الوحي قبل سورة (يس) وليست السور التي نزلت بعدها.

* ويوجد في القرآن الكريم ست سور تبدأ بحروف (أ + ل + م) ومن هذه السور أربع منها مكيات، وهي: (العنكبوت والروم ولقمان والسجدة). وسورتان مدينتان هما: (البقرة وآل عمران).

وقد لوحظ أن التفوق الحسابي للحروف الثلاثة لا يتواجد اذا قُورنت كل سورة منها على حدة مع باقي سور القرآن الكريم.

ولكن هذا التفوق يتواجد في حالة ضم السور الأربع المكية مع بعضها ومعاملتها كأنها سورة واحدة.

أما بالنسبة للسورتين المدينتين فإننا نلاحظ أن تفوقهما الحسابي في عدد الحروف (أ + ل + م) يغطي جميع سور القرآن الكريم، وذلك بعد أخذ متوسطهما وكأنها سورة واحدة متصلة.

* أما بالنسبة للحروف الثلاثة (ال) فإن هذه الحروف توجد كفاتحة لخمس سور مكية هي: (يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر). وهذه السور

الخمس تحمل أرقام (١٠ و ١١ و ١٢ و ١٤ و ١٥) في ترتيبها بالمصحف الشريف، بينما ترتيبها طبقاً لنزول الوحي كما هو معروف (٥١ و ٥٢ و ٥٣ و ٧٢ و ٥٤).

وقد لوحظ أنّ التفوق الحسابي لهذه السور بالنسبة للحروف (١ + ل + ر) لا يتواجد إلا إذا ضممنّا سورة (يونس) على سورة (هود) على سورة (يوسف) على سورة (الحجر) واعتبرناها كأنّها سورة واحدة متصلة، ثمّ ضمّ متوسطها إلى سورة (إبراهيم).

وبمعنى آخر: يلاحظ أن ظاهرة التفوق الحسابي للحروف (١ + ل + ر) تتطلب ضمّ السور الأربع التي نزلت متتابعة في الوحي برقم (٥١ و ٥٢ و ٥٣ و ٥٤) على الرغم من أنّ ترتيبها في المصحف لم يكن متتابعاً. وهذا على عكس ما كانت تتطلبه ظاهرة التفوق في السور المبدوءة بحروف (١ + ل + م)، فإنّها كانت تتطلب ضمّ السور المتتابعة في المصحف، وهي: (العنكبوت والروم ولقمان والسجدة) واعتبارها سورة واحدة، على الرغم من أنّ نزولها في الوحي لم يكن متتابعاً.

* والأحرف (المص) تبدأ بها سورة واحدة، وهي (الأعراف) وهي مكّية، وتتفوق فيها نسبة تواجد هذه الأحرف على بقية سور القرآن الكريم.

* هكذا تكلم عن الأحرف الأربعة (المر) في مفتتح سورة (الرعد). وعن الأحرف الخمسة (جمعق) في مفتتح سورة (الشورى). و (كهيعص) في سورة (مريم)، في شيء من التعقيد والالتواء والتكلف نظير ما مرّ.

* ومما ذكره بهذا الصدد أيضاً أنّ مجموع عدد حروف سورة الناس تتكون من (٩٩) حرفاً، وهو نفس عدد أسماء الله الحسنى. وهي السورة الوحيدة في القرآن التي يتواجد فيها هذا العدد الخاص، ولأمر ما وقعت خاتمة الكتاب.

* ملاحظة: إنّ نتيجة العمليات الحسابية التي قام بها العقل الالكتروني أثبتت أنّ ظاهرة التفوق الحسابي المذكور تؤكد الرسم العثماني الموجود، وإنّ أيّ

تغيير في رسم المصحف أو في هجاء كلماته يمكن أن يحدث ارتباطات كثيرة في عمليات الإعجاز الحسابي للقرآن الكريم.

مثلاً فيما لو رسمت (الزكاة) بدلاً من (الزكوة)، و (الصلاة) بدلاً من (الصلوة)، و (الحياة) من (الحيوة) أو (البصطة) بدل (البسطة) فإن الميزان المذكور يحصل فيه نوع اختلال بين، يجب ملاحظته بدقة.

وخلاصة القول: إن العمليات الحسابية التي قام بها العقل الإلكتروني قد أثبتت أن القرآن الكريم قد وضع للناس طبقاً لحساب غاية في الدقة والتعقيد، بحيث يستحيل أن يكون من صنع البشر، وأن القرآن «كتابٌ أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» صدق الله العظيم.

وقد أسيء الظنّ أخيراً بهذا الدكتور الكاشف للإعجاز الحسابي في القرآن الكريم، ولعلّه لمبالغات قام بها في عملياته الاكتشافية، وربما إعجابه بنفسه في قيامه بهذا العمل الخطير.

جاء في الجريدة الاسبوعية (أخبار العالم الاسلامي) التي تصدر عن إدارة الصحافة والنشر برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة (الاثنين ٢٤ جمادى الاولى ١٤٠٩هـ - الموافق ٢ يناير ١٩٨٩م، لسنها الثالثة والعشرين، العدد ١١٠٣) مايلي:

حذّر الدكتور عبدالله عمر نصيف، الأمين العام للرابطة من استمرار افتراءات الدجال المدعو (رشاد خليفة) القاطن بولاية (اديزونا) الأمريكية في نشر أفكاره وادعاءاته الباطلة، مثل إنكاره الستة النبوية، واختراعه نظرية (١٩) في القرآن الكريم، وادعائه مؤخراً بأنه نبيّ! الأمر الذي يسترعي الانتباه لخطورة الجماعة القاديانية.

الإعجاز العددي للقرآن الكريم

وهذه المناسبة لابد أن نتعرض لمحاولة أخرى قام بها الأستاذ عبدالرزاق نوفل، في حلقات دراسية أصدرها باسم «الإعجاز العددي للقرآن الكريم» في ثلاثة أجزاء. وقد عثر فيها على تماثل عددي وتكرار رقمي، أو تناسب وتوازن في بعض الموضوعات التي عرضت في القرآن، جاءت متعادلة في الأرقام والأعداد. وهذا من عجيب أمر القرآن وغريب شأنه. «وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ»^(١) «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا»^(٢).

* من ذلك أن لفظة «الدنيا» تكررت في القرآن ١١٥ مرة. وكذا لفظة «الآخرة» بنفس العدد ١١٥ مرة^(٣).

* ولفظ البصر والبصيرة ومشتقاتها، قد تكرر ١٤٨ مرة، وكذا لفظ القلب والفؤاد ومشتقاتها أيضاً ١٤٨ مرة^(٤).

* ولفظ «الرحيم» قد تكرر في القرآن ١١٤ مرة، عدد سور القرآن^(٥).

* وعدد أصحاب النار الموكلين بها ١٩ (المدثر: ٣٠)، وعدد حروف البسملة أيضاً ١٩ حرفاً^(٦).

* وقد تكررت لفظ «الصلاة» في القرآن ٩٩ مرة، عدد أسماء الله الحسنى^(٧).

* وتكرر لفظ «إبليس» ١١ مرة، وكذا الاستعاذة منه أيضاً ١١ مرة^(٨).

(٦) ج ١ ص ١٨٨.

(١) الحجر: ١٩.

(٧) ج ١ ص ١٨٩.

(٢) الأحزاب: ٣٨.

(٨) ج ٢ ص ١٥.

(٣) ج ١ ص ١٥.

(٤) ج ١ ص ٣٩.

(٥) ج ١ ص ١٨٢ - ١٨٣.

- * وورد لفظ «العقل» ومشتقاته ٤٩ مرة، وكذا «النور» ومشتقاته^(١).
- * وقد تكرر لفظ «فرعون» ٧٤ مرة، وهويتساوى مع مجموع عدد لفظ «السلطان» ٣٧ ولفظ «الابتلاء» ٣٧، ليدلّ أنّ فرعون هو مجمع السلطان والابتلاء^(٢).
- * ويتساوى تكرار لفظي «الهُدى» و«الرحمة» كل واحد ٧٩ مرة^(٣).
- * ويتكرر لفظ «يوم» في القرآن ٣٦٥ مرة، وهي عدد أيام السنة^(٤).
- * ويتكرر لفظ «شهر» ١٢ مرة، وهي عدد شهور السنة^(٥).
- * وتكرر لفظ «يوم» جمعاً ٢٧ مرة، ومثنى ٣ مرات، فهذه ثلاثون عدد أيام الشهر^(٦).
- * ولفظ الحساب قد تكرر ٢٩ مرة، وهويتساوى مع عدد تكرار لفظ العدل ١٤ مرة والقسط ١٥ مرة^(٧).
- * والجزاء تكرر ١١٧ مرة، والمغفرة ضعفها ٢٣٤ مرة^(٨).
- وأخيراً قال: إن الإعجاز العددي للقرآن الكريم هو الوجه الذي لا بدّ أن ندعوه إليه، إنه الدليل على الوحي وصدق الرسالة، وإنه الأسلوب الجميل بلغة العصر، فنحن في جيل الأرقام وعصر العدّ والإحصاء. فسبحان من هذا وحيه، وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى^(٩) محمّد وآله الطاهرين.

(٢) ج ٢ ص ١٥٨.

(٤) ج ٣ ص ١٦٩.

(٦) ج ٣ ص ١٧٠.

(٨) ج ٣ ص ١٧١.

(١) ج ٢ ص ١٣١.

(٣) ج ٢ ص ١٦.

(٥) ج ٣ ص ١٦٨.

(٧) ج ٣ ص ١٧١.

(٩) ج ٣ ص ١٧٤.

تناسب السور

الثابت من ضرورة الربط والتناسب المعنوي هو ما بين آيات نزلن معاً، أو القائم على أكتاف السورة، وهي الوحدة الموضوعية الجامعة بين أهدافها ومقاصدها، كما أسلفنا.

أما التناسب بين السور بعضها مع بعض - حسب ترتيبها الراهن في المصحف الشريف - فلا ضرورة تدعو إليه، وإن تكلفه أناس. إذ هذا النظم السورّي القائم شيء صنعه أصحاب الجمع بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله) وليس مستنداً إلى وحي السماء. حسباً قدّمنا.

فمن التكلّف الباهت محاولة اختلاق التناسب بين خواتيم السور ومفتتحات السور التالية لها، لأنه التزام بما لا يلزم، فضلاً عن كونه تعسفاً في الرأي والاختيار.

وأول من استنكر زعم التناسب بين السور - فيما نعلم - هو سلطان العلماء الشيخ عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام (توفي سنة ٦٦٠) قال: المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متّحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر. قال: ومن ربط ذلك فهو متكلّف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصاب عنه حسن

الحديث فضلاً عن أحسنه، فإنَّ القرآن نزل في نيِّف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتَّى ربط بعضه ببعض، إذ لا يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض، مع اختلاف العلل والأسباب، كتصرف الملوك والحكَّام والمفتين وتصرف الانسان نفسه بأمر متوافقة ومتخالفة ومتضادة. وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض، مع اختلافها في نفسها واختلاف أوقاتها.

وعاكسه الشيخ وليّ الله محمَّد بن أحمد الملوّي المنفلوطي، قائلاً: وقد وَهَم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنَّها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً، فالمصحف كالصُّحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون، مرتبة سورة كلها وآياته بالتوقيف^(١).

قال الإمام بدر الدين الزركشي: وهذا الذي ذكره الشيخ وليّ الله مبني على أنَّ ترتيب السور توقيفي. ثم رجَّح ذلك وأخذ في بيان التناسب فيما بين عديد من السور. قال: وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها. ثم هو يخفي تارة ويظهر أخرى، كافتتاح سورة الأنعام بالحمد، فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء كما قال تعالى: «وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٢).

وكافتتاح سورة فاطر بالحمد أيضاً، فإنه مناسب لختام ما قبلها «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَائِهِمْ مِنْ قَبْلُ»^(٣)، كما قال تعالى: «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٤).

(١) البرهان: ج ١ ص ٣٧، والإتقان: ج ٣ ص ٣٢٣ (ط ٢). ونظم الدرر للبقاعي: ج ١ ص ٨.

(٤) الأنعام: ٤٥.

(٣) سبأ: ٥٤.

(٢) الزمر: ٧٥.

وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح، فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به.

وكافتتاح سورة البقرة بقوله: «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ»^(١) إشارة إلى قوله: «إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»^(٢) في سورة الحمد، كأنهم لما سألو الهداية، قيل لهم: ذلك هو الكتاب.

وتأمل ارتباط سورة «إيلاف قريش» بسورة الفيل، حتى قال الأخفش: اتصاها بها من باب قوله: «فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا»^(٣). ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها (سورة الماعون). لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأموار أربعة: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة. فذكر هنا في مقابلة البخل: «الكوثر». وفي مقابلة ترك الصلاة «فصل». وفي مقابلة الرياء «لربك» وفي مقابلة منع الماعون «وانحر». فاعتبر هذه المناسبة العجيبة.

وكذلك مناسبة فاتحة سورة الإسراء بالتسبيح، وسورة الكهف قبلها بالتحميد، لأن التسبيح حيث جاء مقدّم على التحميد، يقال: سبحان الله والحمد لله^(٤).

هذا كلامه المتكلف فيه تكلفاً ظاهراً، ومع ذلك فهو من خير ما قيل في هذا الشأن. أمّا من تأخر عنه كجلال الدين السيوطي وزميله برهان الدين البقاعي وأضرابهما فقد زادوا تمحلاً في تكلف وأتوا بغرائب الكلام. هذا جلال الدين السيوطي (٨٤٩ - ٩١١) - مع سعة باعه وكثرة اطلاعه

(١) البقرة: ٢.

(٢) الفاتحة: ٦.

(٣) القصص: ٨.

(٤) البرهان: ج ١ ص ٣٨ - ٣٩.

نراه قد هبط في هذا الاختيار إلى حد بعيد، يختار أولاً فيما زعم ما قاله البيهقي: إن ترتيب كل السور توقيفي وقع بأمر من الرسول (صلى الله عليه وآله) سوى سورتي الأنفال وبراءة، فإن ترتيبهما -حسباً زعم- من صنع عثمان بن عفان. قال: وقد استقرّ التوقيف في العرصة الأخيرة -التي عرض القرآن فيها على رسول الله- على القراءات العثمانية!؟

ثم يعتمد ما ذكره بعضهم: أن لترتيب وضع السور في المصحف أسراراً دقيقة وأسباباً حكيمة تطلع على أنه توقيفي صادر من حكيم:

الأول: بحسب الحروف المقطعة في أوائلها، كما في توالي السور الحواميم السبع: (حم المؤمن، حم السجدة، حم الشورى، حم الزخرف، حم الدخان، حم الجاثية، حم الأحقاف). وتوالي المبدؤات بـ«الر» وهي ست سور: «الر يونس، الرهود، الر يوسف، المر الرعد، الر إبراهيم، الر الحجر».

الثاني: لموافقة آخر السورة لأول ما بعدها، كآخر الحمد في المعنى مع أول البقرة.

الثالث: الوزن في اللفظة، كآخر سورة «تبت» وهي قافية الدال «مسد» مع أول سورة التوحيد «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» قافية الدال أيضاً!!

الرابع: لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى، كالضحى والانشراح! قلت: ولعلّ أذهاننا كلّت عن فهم هذه الأسرار التي نقلها عن بعضهم وأعجبته!!

وعلى أية حال فإنه يعترض على نفسه باختلاف ما بين مصاحف الأصحاب، كمصحف ابن مسعود مع مصحف أبي بن كعب، ولو كان توقيفاً لما وقع بينها اختلاف، كما لم يقع اختلاف في ترتيب الآيات ضمن السور! ثم يتهج بما من الله عليه بالإلهام بجواب نفيس، وهو: أن القرآن وقع فيه نسخ كثير حتى لسور كاملة، فلا عجب أن يكون الترتيب العثماني هو الذي

استقرّ في العرضة الأخيرة، ولم يبلغ ذلك كبار الصحابة وحفاظ القرآن أمثال
عبدالله بن مسعود وأبي بن كعب!! (ياله من زعم فاسد ورأي كاسد).

وأخيراً يأخذ في شرح التناسب القائم بين السور في ترتيبها الحاضر، سورة
سورة من الفاتحة حتى نهاية القرآن - وأكثره تكلف وتمحّل وسفاسف فارغة -
فمّا قاله بهذا الشأن: إنّ سورة الحمد تضمّنت الإقرار بالربوبية. وسورة البقرة
تضمّنت قواعد الدين. وآل عمران مكتملة لمقصودها. فالبقرة بمنزلة إقامة
الدليل، وآل عمران بمنزل الجواب عن الشبهات. وأمّا سورة النساء فتضمّنت
أحكام الأسباب (الروابط) التي بين الناس. وأمّا سورة المائدة فسورة العقود.
ونقل عن الخوئي^(١): إنّ أوائل سورة البقرة مناسبة لأواخر سورة الحمد.

قال: فقد ظهر لي بحمد الله وجوهاً من هذه المناسبات، منها: إنّ القاعدة
التي استقرّ بها القرآن: أنّ كل سورة لاحقة هي تفصيل لإجمال ما وقع في السورة
قبلها، وشرح له وإطناّب لإيجازه. وقد استقرّ معي ذلك في غالب السور طویلها
وقصيرها!

وهكذا يستمرّ في معجماته مكرراً قوله: ظهر لي ظهر لي، إلى حدّ الإسراف
المملّ الخارج عن النهج السويّ، والله العاصم^(٢).

* * *

وهذا معاصره المتقدّم عليه، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي (توفي
سنة ٨٨٥) وضع تفسيره المطنّب على نفس الأساس، لبيان ما بين الآيات كلها
والسور من التناسب والربط المزعوم، وأسماء «نظم الدرر في تناسب الآيات
والسور» وأسهب فيه وأتى في تكلفاته بما يفوق الإسراف!

(١) بضم الخاء وفتح الواو وتشديد الياء المكسورة نسبة إلى (خوي) من أعمال آذربيجان، هو محمد بن
أحمد أبو عبدالله شهاب الدين قاضي دمشق (توفي سنة ٦٩٣).

(٢) راجع كتابه (تناسق الدرر في تناسب السور) طبع باسم (أسرار ترتيب القرآن).

مثلاً يزعم في همزة الاستعاذة أنها إشارة إلى ابتداء الخلق، والميم في آخرها من الرحيم إشارة إلى المعاد. أما البسملة فكلها إشارة إلى المعاد لابتدائها بحرف شفوي (باء) وختمها بالميم من الرحيم. قال : ولما افتتح التعوذ بالهمزة - إشارة إلى ابتداء الخلق - وختم بالميم - إيماء إلى المعاد - جُعِلَت البسملة كلها للمعاد، لابتدائها بحرف شفوي^(١).

هكذا وبهذا الأسلوب!! يفتح كلامه في بيان وجه التناسب بين الآيات والسور!!

ومن مزاعمه أيضاً قوله بالتناسب الدوري بين السور، بمعنى أن آخر سورة من القرآن أيضاً تتناسب مع الفاتحة، لو وصل القارئ ختم القرآن بالشروع فيه. وهكذا تتناسب السور في ترتيبها بلا وقفة ولا انتهاء، فكأنها حلقة مفرغة يدور فيها القارئ في تلاوته، لا بدء ولا ختم. قال : وبه يتضح أنه لا وقف تام في كتاب الله، ولا على آخر سورة الناس، بل هي متصلة - مع كونها آخر القرآن - بالفاتحة التي هي أوله، كاتصالها (أي سورة الناس) بما قبلها، بل أشد. وذكر في وجه الأشدية : أنه كما يتناسب التعوذ مع الشروع في القراءة كذلك تتناسب المعوذتان مع الفاتحة. قال : ومن هنا تعرف مناسبة المعوذتين بالفاتحة^(٢).

هكذا وبهذه العقلية الهزيلة يسترسل في توهماته بشأن تناسب السور والآيات سورة سورة، وآية آية حتى نهاية القرآن.

تلك أمة قد دخلت لها ما تخرّصت بالغيب، ولكن مالنا واتّباع طريقتهم

(١) نظم الدرر: ج ١ ص ٢٢.

(٢) المصدر: ص ١٥.

العمياء تقليدياً ومن غير تحقيق وإمعان؟! هذا الإمام الطبرسي أبو علي الفضل ابن الحسن (توفي سنة ٥٤٨هـ) صاحب التفسير القيم «مجمع البيان» نراه يتبع خطوات أشياخ أمثال البقاعي، فيذكر مناسبات السور سورة سورة، ويرتكب في ذلك تكلفات بعيدة لامبرر لها ولا ضرورة تدعو إليه.

مثلاً يذكر في تناسب سورة الأعراف مع الأنعام: لَمَّا خَتَمْتَ سُورَةَ الْأَنْعَامِ بِالرَّحْمَةِ «إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» افتتحت هذه السورة «الأعراف» بإنزال الكتاب «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ...» لأن فيه معالم الدين وهي رحمة للعالمين!

وقال في سورة الرعد: لَمَّا خَتَمْتَ سُورَةَ يُوسُفَ بِذِكْرِ قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ...» افتتحت هذه السورة (الرعد) بآتها جميعاً آيات الكتاب «المرتلَك آياتُ الْكِتَابِ...»!

وفي سورة الحجر: لَمَّا خَتَمْتَ سُورَةَ إِبْرَاهِيمَ بِأَنَّ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ افْتَتَحَتْ هَذِهِ السُّورَةُ (الحجر) بذكر القرآن «الرَّيْلَكِ آياتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ»! هكذا، وبهذا الأسلوب يحاول ربط خواتيم السور بفواتح السور بعدها.

والشيء الغريب الذي يبدو من كلامه زعم كون الترتيب الحاضر هو ترتيب النزول، لأنه يقول: لَمَّا خَتَمَ اللَّهُ سُورَةَ كَذَا بِكَذَا، افْتَتَحَ السُّورَةَ بَعْدَهَا بِكَذَا!

الأمر الذي يخالف إجماع الأمة على أنه ترتيب يخالف ترتيب النزول قطعاً. وقد تعرّض هو أيضاً لترتيب النزول وفق المشهور، فلماذا غفل عنه عند اختلاق التناسبات؟!

ولم نجد من رافقه في مسلكه هذا في تناسب السور من علماء ومحققين سوى بعض من رافقه الأفكار السلفية اذا ما خلّيت بثوب قشيب. فقد زعم الأستاذ

«شريعتي» أن الترتيب الحاضر في المصحف الشريف بين سورة هوشيء صنعه الرسول (صلّى الله عليه وآله) قال: ونحن نعتقد أن الترتيب القائم بهذه الصورة الحاضرة هو فعله تعالى^(١). وزعم أن الرسول (صلّى الله عليه وآله) هو الذي كان يعين موضع السورة قبل وبعد آية سورة. وعدّ من أدلته على ذلك هو ذلك التناسب والترابط الذي بين خاتمة كل سورة وفاتحة تاليتها، الأمر الذي يشتمل على أسرار ورموز لا يمكن الإحاطة بها سوى علّام الغيوب. قال: وقد صنّف كلّ من برهان الدين البقاعي، وجلال الدين السيوطي، كتاباً بهذا الشأن، كشفّا عن كثير من أسرار هذا التناسب السّوري، ولا يزال تقدّم الزمان يكشف عن حكم وأسرار جديدة ممّا يدلّ على أن البشرية كانت قاصرة عن إمكان القيام بهذه المهمة الخطيرة، المشتملة على أسرار وحكم تنبئك عن صنع عليم حكيم، وهو وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم^(٢).

وبالفعل نراه اكتشف أسراراً جديدة أودعها في تفسيره الحديث «نوين»^(٣) من ذلك قوله -بشأن سورة الناس-: ليس في القرآن سورة هي أمس بموضعها الخاص من هذه السورة بالذات، صورة ومعنى. أمّا الصورة فلسلاستها على اللسان ولا سيّما على الناشئين. وأمّا المعنى فلأنه كما ينبغي الاستعاذة بالله من شرّ الشيطان عند تلاوة القرآن والأخذ بأدابه الكريمة -طلباً للتوفيق في التعلّم- كذلك ينبغي الاستعاذة بالله من وساوسه بعد الفراغ من القراءة لأجل التوفيق على العمل به^(٤).

(١) تفسير «نوين»: ص ٤٢٧.

(٢) المصدر: ص ١٩ - ٢٠.

(٣) «نوين»: كلمة فارسية ترجمتها «الجديد».

(٤) المصدر: ص ٤٢٧.

قلت: ولماذا لم توضع المعوذتان في فاتحة الكتاب؟ أولا أقل من وضع إحداهما في البدء والأخرى في الختم!؟ وهل ورد في الشريعة استحباب الاستعاذة بعد الفراغ من قراءة القرآن؟ فياترى كيف ابتدعه الأستاذ شريعتي؟! وتخرّصات هذا القبيل كثيرة في كلامه زعمهنّ اكتشافات!

٧ - حُسن تشبيهه وجمال تصويره

التشبيه تصوير فني يرسم المعنى في الخيال متجسداً في قالب المثال، خالفاً عليه ثوب الجمال. ويزداد بهاء كلما كان أوفى بتحقيق الغرض المقصود من الكلام. وما أن دقّ ولطف في التعبير والايفاء إلا ازداد حُسنًا وكمالاً. وهكذا ذهب القرآن في تشبيهاته مذهب الایفاء وحسن الأداء، الأمر الذي زلّت فيه أقدام كبار الأدباء كلما حاولوا الإكثار منه عاثوا وماثوا وتعتّرت عليهم الإجادة وحسن الإفادة، عكس القرآن، فقد أكثر منه، واحكم صلبه، وخاض عبابه واستخرج لبابه، فأفاد وأجاد، وأبدع وأعجب، وأحار ذوي الألباب.

قال ابن الأثير: التشبيه يجمع صفات ثلاثاً: المبالغة، والبيان، والایجاز. أمّا المبالغة فلأنّه يجعل ما ليس بالقويّ بمثابة القويّ. وأمّا فضيلة البيان فلأنّ الغرض المقصود من قولنا «زيد أسد» أن يتبيّن حال زيد في اتّصافه بشهامة النفس، وقوة البطش، وجرأة الإقدام، وغير ذلك مما يجري مجراه. إلّا أنّا لم نجد شيئاً ندلّ به عليه سوى أن جعلناه شبيهاً بالأسد حيث كانت هذه الصفات مختصة به، فصار ما قصدناه من هذا القول أكشف وأبين من أن نقول: زيد شهم، شجاع، قويّ البطش، جريء الجنان، وأشبه ذلك، لما قد عُرف وعُهد من اجتماع هذه الصفات في المشبه به. فقد أدّى التشبيه كلّ هذه المعاني

بأوجز بيان ممكن، فجمع إلى فضيلة البيان فضيلة الإيجاز والمبالغة والايفاء.
قال: إلا أنه من بين أنواع علم البيان مستوعر المذهب، وهو مقتل من
مقاتل البلاغة، لأنّ حمل الشيء على الشيء بالمماثلة، إمّا صورة أو في خفايا
المعنى، ممّا يعزّ صوابه وتعسر الإجادة فيه، وقلّما أكثر منه أحد إلاّ عثر، وخاض
في عبابه إلاّ غرق. فكم من أدباء وبلغاء أكثروا منه إلاّ زلّوا، وخاضوا لجنبه
إلاّ عاثوا وماثوا، كما فعل ابن المعتزّ من أدباء العراق، وابن وكيع من أدباء
مصر، إنّهما أكثرا من ذلك، فلا جرّم أنّهما أتيا بالغثّ البارد الذي لا يثبت على
محكّ الصواب^(١).

والتشبيه الذي نبحت عنه لا يخصّ ما كان تشبيهاً بالتصريح، وإنّما يعمّ
التشبيه المضمّر في أنواع الاستعارة والتثليل وغيرهما ممّا هو محطّ بلاغة الكلام.

والغرض من التشبيه لا يحصر في عدّ، حسبما يأتي في كلام الجرجاني، وإنّما
فائدته العامة هي: أنك اذا شبّهت شيئاً بآخر فإنّما تقصد إلى تخيل صورة في
النفس تشبه صورة المشبّه به المعروفة عند السامع، فيرغب فيه أو ينفّر عنه،
حسبما أوتي المشبّه به من حظّ الحسن أو القبح في النفوس. وهذا يوجب رفعة
شأن المشبّه أو وضعته، تحسينه أو تقبيحه، على درجة قوة أداة التصوير في مقام
التشبيه. الأمر الذي يرتبط وقدرة المتكلّم في حسن الأداء والإجادة في البيان.
قال السكاكي: والغرض من التشبيه يعود في الأغلب إلى المشبّه، إمّا
ليبان إمكانه، كقول أبي الطيب:

فإنّ تفقّ الأنام وأنت منهم فإنّ المسك بعض دم الغزال
فإنّه لمّا أراد تفضيل المدحوح على سائر الناس، مع أنّه من جنسهم، فقد

أوهم أنه من نوع أشرف، فكان كالممتنع، ومن ثم حاول بيان إمكانه بالتشبيه المذكور.

وقد يكون لبيان حاله بوصف خاص، كما وصف تعالى الهلال بعد خروجه من المحاق، بتشبيهه بالعُرجون «وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ»^(١).

أو لبيان المقدار في شدته وخفته، كما جاء في وصف قلوب أهل الغي والعناد «فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً»^(٢).

أو لتقرير حالة المشبه في الفضاغة وفضح الحال، أو في الكرامة وشرف المآل، وهذا من أهم أنواع التشبيه وأفضله. وهو: أن يعتمد المتكلم إلى ذكر خصوصيات مشهودة في المشبه به في جميع أبعادها وجزئياتها القابلة للتصوير، ليقاس عليها حالة المشبه السيئة أو الحسنة، فتبدو كالمحسوس المسوس باليد والمشاهد بالعيان، وهذا من أكثر التشبيه في القرآن، وسنذكر أمثلتها. فهذه أنواع أربعة من التشبيه البليغ، ذكرهن السكاكي^(٣).

قال التفتازاني: يجب في النوع الأول أن يكون المشبه به في وجه الشبه أشهر، ليصح القياس عليه وجعله دليلاً على الإمكان. وفي النوع الثاني أن يكون وجه الشبه فيه أبين. وكذا في النوع الثالث. أما النوع الرابع: فيجب أن يكون الوجه فيه أتم وهوبه أشهر، لأن النفس إلى الأتم الأشهر أميل، فكان التشبيه به لزيادة التقرير وقوة البيان أجدر^(٤).

* * *

(١) يس: ٣٩.

(٢) البقرة: ٧٤.

(٣) مفتاح العلوم: ص ١٦٢.

(٤) المطول: ص ٣٣٢.

وقد ذكروا من أغراض التشبيه: تحسين حال المشبه وتزيينه، أو تهجينه وتقبيحه، أو التنفير منه أو الاستعطاف عليه، أو الاستطراف، ونحو ذلك مما فصله أئمة البيان.

فن التشبيه لغرض التزيين ما وصف به الشاعر عشيقته السوداء، يشبهه سوادها بسواد المسك المستحسن، كلما ازداد سواده ازدادت مرغوبيته، قال:
يقولون ليلى سودة حبشية ولولا سواد المسك ما كان غاليا
ومن التشبيه للتهجين تشبيه وجه مجذربسلحة يابسة قد نقرتها الديكة، وهو غاية في تشويه صورته والتهجين بشأنه.

وهكذا قولهم بشأن عادم الصفات الكريمة وهو يفتخر بمكارم الآباء:
«العنّين يفتخر بذكر أبيه» وهو من ألدع أنحاء التهجين.
ومن الاستطراف -وهو إبداء الشيء طريفاً وبديعاً عديم النظير- قول أبي العتاهية يصف ورد البنفسج في زهوه وجماله:

ولا زودية تزهو بزرقها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار في أطراف كبريت
وقول الآخر -هو الصنوبري- يصف الشقائق الحمر في تصونها وتصعدها:
وكأن محمر الشقيق اذا تصوّب أو تصعد أعلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد
وهو من طريف التشبيه الذي يكسوفن التصوير حلّة الحركة والحياة،
فيزداد بهاءً وجمالاً!

اعترف أهل البيان بأن تشبيهات القرآن أمتن التشبيهات الواقعة في فصيح الكلام، وأجمعهنّ لمحاسن البديع، وأوفاهنّ بدقائق التصوير.
مثل ابن الأثير لتشبيه المفرد بالمفرد بقوله تعالى: «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاساً»^(١)

فإنه شبه الليل باللباس، وذلك أنه يستر الناس بعضهم عن بعض، من أراد هرباً من عدو، أو ثباتاً لعدو، أو إخفاء مالا يحبّ الاطلاع عليه من أمره.

قال: وهذا من التشبيهات التي لم يأت بها إلا القرآن الكريم، فإن تشبيه الليل باللباس ممّا احتفى به دون غيره من الكلام المنشور والمنظوم.

وكذلك قوله تعالى: «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ»^(١) فشبه المرأة باللباس للرجل، وشبه الرجل باللباس للمرأة^(٢).

وهذا من لطيف التشبيه، كما أنّ اللباس زينة للمرء وساتر لعورته وحافظ له عن التعرّض للأخطار، كذلك زوج المرء يزينه ويستر عوراته ويقيه من مزلق الأذناس. فما أجل هذا التشبيه وأدقه من تعبير؟!

قال: ومن محاسن التشبيه قوله تعالى: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ»^(٣). وهذا يكاد ينقله تناسبه عن درجة المجاز إلى الحقيقة. والحرث هو الأرض التي تحرث للزرع، وكذلك الرحم يزدرع فيه الولد ازدراعاً كما يزدرع البذر في الأرض.

ومن هذا الأسلوب قوله تعالى: «وَأَيُّ لَهِمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ»^(٤) فشبه تبرّء الليل من النهار بانسلاخ الجلد عن الجسم المسلوخ. وذلك أنّه لما كانت هواذي الصبح^(٥) عند طلوعه ملتحمة باعجاز الليل أجرى عليها اسم السلخ. وكان ذلك أولى من أن لوقيل «يخرج» لأنّ السلخ أدلّ على الالتحام من الإخراج، وهذا تشبيه في غاية المناسبة.

وكذلك ورد قوله تعالى: «وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً»^(٦) فشبه انتشار الشيب باشتعال النار. ولما كان الشيب يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير لونه الأول كان بمنزلة النار التي تشتعل في الجسم وتسري فيه،

(٤) يس: ٣٧.

(٥) الهواذي: المقادم.

(٦) مريم: ٤.

(١) البقرة: ١٨٧.

(٢) المثل السائر: ج ٢ ص ١٣٣.

(٣) البقرة: ٢٢٣.

حتى يحيله إلى غير حاله الأولي.

وأحسن من هذا أن يقال: إنه شبه انتشار الشيب باشتعال النار في سرعة التهابه، وتعدّر تلافيه، وفي عظم الألم في القلب به، وأنه لم يبق بعده إلا الخمود! فهذه أوصاف أربعة جامعة بين المشبه والمشبه به، وذلك في الغاية القصوى من التناسب والتلاؤم^(١).

وقيل من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشيء بما هو أفخم وأروع منه، ومن هنا غلط بعض الكتّاب من أهل مصر في ذكر حصن من حصون الجبال مشبهاً له، فقال: «هامة، عليها من الغمامة عمامة، وأتملة خضبها الأصيل، فكان الهلال منها قلامة».

قال ابن الأثير، وهذا الكاتب حفظ شيئاً وغابت عنه أشياء!! فإنه أخطأ في قوله «أتملة» وأتى مقدار للأتملة بالنسبة إلى تشبيه حصن على رأس جبل؟ وأصاب في المناسبة بين ذكر الأتملة والقلامة، وتشبيهها بالهلال. فإن قيل: إن هذا الكاتب تأسّى فيما ذكر بكلام الله تعالى حيث قال: «الله نور السماوات والأرض مثل نُورهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ»^(٢)، فمثل نوره بطاقة فيها ذبالة^(٣).

وقال الله تعالى: «وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ»^(٤) فمثل الهلال بأصل عذق النخلة.

فالجواب عن ذلك أني أقول: أمّا تمثيل نور الله تعالى بمشكاة فيها مصباح، فإنّ هذا مثال ضربه للنبي (صلى الله عليه وآله). ويدلّ عليه أنه قال: «يوقد

(١) المثل السائر: ج ٢ ص ١٣٣ - ١٣٥.

(٢) النور: ٣٥.

(٣) الطاقة: سقيفة لها طوق هلالي. والذبالة: الفتيلة.

(٤) يس: ٣٩.

من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية». وإذا نظرت إلى هذا الموضع وجدته تشبيها لطيفاً عجيباً، وذلك أنَّ قلب النبي (صلى الله عليه وآله) وما أُلقي فيه من النور، وما هو عليه من الصفة الشَّافَة، كالزجاجة التي كأنها كوكب بصفائها واضاءتها.

وأما الشجرة المباركة التي لا شرقية ولا غربية، فإنها عبارة عن ذات النبي (صلى الله عليه وآله) لأنَّه من أرض الحجاز التي لا تميل إلى الشرق ولا إلى الغرب.

وأما زيت هذه الزجاجة، فإنه مضيء من غير أن تمسّه نار، والمراد بذلك أنَّ فطرته فطرة صافية من الأكدار، منيرة من قبل مصافحة الأنوار. فهذا هو المراد بالتشبيه الذي ورد في هذه الآية.

وأما الآية الأخرى فإنَّه شبّه الهلال فيها بالعرجون القديم، وذلك في هيئة نحوله واستدارته، لا في مقداره، فإنَّ مقدار الهلال عظيم، ولا نسبة للعرجون إليه، لكنه في مرأى النظر كالعرجون هيئةً لا مقداراً.

وأما هذا الكاتب فإنَّ تشبيهه ليس على هذا النسق، لأنَّه شبّه فيه صورة الحصن بأتملة في المقدار لا في الهيئة والشكل.

وهذا غير حسن ولا مناسب، وإنما ألقاه فيه أنَّه قصد الهلال والقلامه مع ذكر الأتملة فأخطأ من جهة، وأصاب من جهة، لكن خطأ غطى على صوابه^(١).

أنواع التشبيه:

١ - إمّا تشبيه معنئ بمعنى، كما في تشبيه الصفات والأحوال، كقولنا: زيد

(١) المثل السائر: ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٨.

كالأسد، وهو من التشبيه المتعارف.

٢ - أو تشبيه صورة بصورة، كما في تشبيه منظر مشهود بآخر مثله في الحسن والجمال، قال تعالى: «وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطُّرُفِ عَيْنٌ. كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ»^(١).

٣ - أو تشبيه معنى بصورة، فيما إذا أريد تجسيد معنى ذهني أو تجسيم حالة نفسية تصويراً فنياً مخلعاً عليه ثوب الحركة والحياة. وهذا من أبلغ أنواع التشبيه وأروعها، ويسمى عندهم بالتمثيل، وقد أكثر منه القرآن الكريم، حيث وفّاه بمقاصده العلية في خطابه وبيانه ودعوته إلى الحق الصريح، وستوافيك أمثلة منه بارعة، تغنيك دليلاً على أن (التصوير الفتني) كانت هي الأداة المفضلة في أسلوب القرآن.

من ذلك قوله تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ. أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ»^(٢) وسيأتي شرح الآيتين.

٤ - أو تشبيه صورة بمعنى، وكان أطف الأنواع، لأنه نقل صورة مشهودة إلى الخيال آخذاً طريقه إلى الأوهام، فإن أجيد في ذلك كان بديعاً، وينبئك عن دقة وفهارة، وهو فن من فنون التخيل.

ومثل له ابن الأثير بقول أبي تمام:

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا فتك الصبابة بالمحب المغمرم

(١) الصافات: ٤٨ و ٤٩.

(٢) النور: ٣٩ و ٤٠.

حيث شبه فتكه بالمال وبالعدا - وذلك صورة مرثية - بفتك الصبابة وهو فتك معنوي^(١) وفتك المال كناية عن بذله وتفريقه بين المحاويج. والصبابة: الشوق ورقة الهوى.

ومثاله من القرآن قوله تعالى: «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ»^(٢) فقد شبه فوران الماء وخروجه عن حد الاعتدال، بحالة التكبر والاستعلاء الذي يجعل الانسان عاتياً وخارجاً على القوانين والحدود والأعراف. فالطغيان - وهو التكبر والاستعلاء من غير حق - أمر معنوي، وقد شبه به فوران الماء وهو أمر محسوس.

وهكذا قوله تعالى: «وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ»^(٣). والعنو - وهو التكبر - من الأمور المعقولة، استعير هنا للريح، وهي محسوسة. والجامع بينهما - في كلتا الآيتين - هو الإضرار الخارج عن حد العادة^(٤).

تعبير بلفظ أم إفاضة بحياة؟

ميزة قرآنية أخرى جاءت في تعابيره المفيضة بالحياة. وتلك طريقته الفنية في تصويره لمباهج هذا الكون، لا تمس ريشة تعبيره جامداً إلا نبض بالحياة، ولا يصيب قلم تحبيره هامداً إلا انتفض بالتحرك والهباج، كأنما العالم كله في لوحة تصاويره، أحياء غير أموات، والمظاهر كلها حركات لا هدوء ولا خمول. هكذا يفعل القرآن في منطق الساحر، ويصور من عالم الوجود في بيانه الباهر. كل شيء حي، وكل شيء دائم في الحركة مُستَوٍ في طريقه نحو الكمال. تلك

(١) المثل السائر: ج ٢ ص ١٣٠.

(٢) الحاقة: ١١.

(٣) الحاقة: ٦.

(٤) الطراز للامير العلوي: ج ٣، ص ٣٣٩.

قدرته الفنية في بيانه وفي إبداعه في فنون التصوير، يخلع عليها الحركة والحياة. ولم يعهد للعرب نظيره، وقد حاز قصب السبق في مضماره.

* هذا هو الفجر ينبثق في مطلعته، لكنه في القرآن: «والصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ»^(١). هذا هو الجديد في تعبير القرآن: الصبح حيّ يتنفس، أنفاسه الإشعاع والنور والضياء، وإفاضته الحركة والحياة، حركة تدبّ معها كل حيّ عند الصباح. قال سيد قطب: وتكاد اللغة العربية بكل مآثوراتها التعبيرية لا تحتوي نظيراً لهذا التعبير عن الصبح^(٢) وتكاد روية الفجر تشعر القلب المفتوح أنه بالفعل يتنفس، لأنّ الصبح إذا أقبل أقبل بإقباله روح ونسيم، كالمحتصر إذا زال غمّه يتنفس الصعداء، وقد كلّ اللسان عن النطق بها. نعم يتنفس الصبح تنفس الأحياء ويصعد بأنفاسه، هي أنواره نحو آفاق السماء.

* وهذا هو الليل له عسعة أي حركة إلى الوراء لها صوت «والليل إذا عَسَسَ»^(٣) أي أدبر وأخذ في التراجع إلى الوراء، كأنه يأخذ في الانهزام والتراجع إلى الخلف أمام هجمة أضواء النهار. انظر إلى هذين المقطعين «عس، عس» من كلمة «عسّس» كيف يوحيان بحركة حشيثة ومنظمة، لها حسيّس، وكأنه من أثر اصطكاك أرجلها الثقيلة مع الحسائك المتبيسة ولاسيما في مثل ظلام الليل.

* ومثله «وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ»^(٤) وكأنّ الليل يولي مدبراً منهزماً تجاه أسفار الصباح. ودقيقة أخرى: الفرق بين «إذ» في التعبيرين، وهو توقيت دبور الليل بوقت أسفار الصباح، وهكذا الليل لا يطبق النظر إلى وجه

(١) التكويز: ١٨.

(٢) في ظلال القرآن: ج ٨ ص ٤٨٢.

(٣) التكويز: ١٧.

(٤) الملائكة: ٣٣ - ٣٤.

الصباح عند أسفاره.

* وهكذا الليل يسري («وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَّ»^(١)) ... يقال: سري يسري إذا سارَ في الليل، وهو أفضل المسير أيام القمَر، ترافقه نفحة ونسيم. لكن في تعبير القرآن كأنَّ الليل هو الساري، وهو آن من آتات الزمان، يتخذ مسيره في هدوء وهينة واتِّئاد، وكأنه ساهر يجول في ظلام، أو مسافر يختار السري لرحلته هذه في الفضاء. ياله من إناقة في التعبير، ورقة ولطف، أضف إليه جمال تناسقه ونغمه مع «وَالْفَجْرِ. وليالٍ عشر. وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ».

* وكذلك الليل يطلب النّهار طلباً حثيثاً «يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً»^(٢) وكأنها فرسا سباق يتعاقبان، لكن الليل سائر خلف النهار وفي أثره سيراً حثيثاً سريعاً لا وقفة فيه ولا فتور. وهل يطلبه ليفتك به والنهار شارد أمامه يخشى فتكه؟! حتى إذا ما وقعت حبال الليل عليه حصره وأحاطه، وإذا الدنيا كلّها ظلام.

* والجدار بنية جامدة كالجلمود، لكنه في تعبير القرآن صاحب حسّ وإرادة وعقل، لأنه يريد أن ينقضّ «فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ»^(٣).

* والجبال، وهي على الأرض يُسار بها مع الأرض، لكنّها في تعبير القرآن هي التي تجتاز الفضاء وتمرّمر السحاب، رغم أنّك تحسبها جامدة أي واقفة لاحتراك فيها: «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسُبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ»^(٤).

* والسماءات والأرض تحسبها جوامد، لكنها تنطق وتسبح في منطق القرآن: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ»^(٥).

(٤) النمل: ٨٨.

(٥) الإسراء: ٤٤.

(١) الفجر: ٤.

(٢) الأعراف: ٥٤.

(٣) الكهف: ٧٧.

* والرعد، صوت البرق يحصل من خرق في طبقات الجو، لكن له دمدمة وزمزمة وتسبيح «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ»^(١).

* وهكذا الجبال يرافقن الأنبياء في الحمد والتسبيح «وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ»^(٢) «إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ»^(٣).

* بل وكان لها^(٤) عقل واختيار، ومن ثم فإنها تقع تحت تكليف واختار «فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ»^(٥).

* وفوق ذلك فإن لها حقّ الرفض أو القبول فيما اذا عرضت عليها مشاقّ التكاليف «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا»^(٦).

* وهذه جهنم تتكلم وتنطق عن نعمها وجشعها، وفوق ذلك فهي ترى وتدعو من أدبر وتولى، فتغيظ عليهم وتكاد تتميز من الغيظ، ولها زفير وشهيق.

«يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ...»^(٧).

«إِنَّهَا لَظَى. نَزَاعَةً لِلشَّوَى. تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى...»^(٨).

«إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا...»^(٩).

«إِذَا أَلْقَوْا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ. تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ»^(١٠).

* وهذه الشمس وهذا القمر كوكبان، الشمس تشغل مركزية المنظومة

وهي تجري لمستقرّها، وتجبر معها أبناءها وبناتها، وهم يدورون حولها. والقمر يدور حول الأرض التي هي بدورها تدور حول الشمس. لكنها بظاهر المشاهدة

(١) الرعد: ١٣.

(٦) الأحزاب: ٧٢.

(٢) الأنبياء: ٧٩.

(٧) ق: ٣٠.

(٣) ص: ١٨.

(٨) المعارج: ١٥ - ١٧.

(٤) أي للسموات والأرض.

(٩) الفرقان: ١٢.

(٥) فصلت: ١١.

(١٠) الملك: ٧ و ٨.

الحسية يدوران حول الأرض عند رؤية العين المجردة، كأنها يتلاحقان. كما أن الليل والنهار يتسابقان على سطح الأرض، هذا من طرف وهذا من جانب، لكن «لا الشمسُ يَنْبَغِي لها أن تُدركَ القَمَرُ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»^(١) كأن عرصه الفضاء ساحة المسابقة، والسباق هم: الشمس والقمر والليل والنهار. فساحة الكون كله عرصه السباق، والفضاء جميعه تسابق وتنافس وحركة وحياة... «صُنِعَ اللهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ»^(٢).

* * *

* وأعجب من ذلك أنه يصوّر من حالة الغضب -وهي صفة نفسانية- إنساناً صاحب شعور وإدراك رقيق، قد يشور ويفور غيظه ثم يهدأ ويسكن غضبه. وقد جاء في التعبير القرآني عن هذا الثوران بإلقاء الوسوس والإغراء بالأخطار، وعن ذاك الهدوء بالسكوت والإمساك عن الكلام.

قال الزمخشري -عند تفسير قوله تعالى: «وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ»^(٣):- كأن الغضب كان يغريه على فعل مافعل، ويقول له: قل لقومك كذا، وألق بالألواح، وجرّ برأس أخيك إليك. هكذا كان يهمس في أذنه ويلقي في روعه، فكأن موسى يفعل مايفعل بإغرائه وتحريضه. حتى إذا ماسكت الغضب عن الكلام وأمسك بلسانه ترك موسى وشأنه وقطع الإغراء.

قال: ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك، ولأنه من قبيل شعب البلاغة. وإلا فإلى لقراءة معاوية بن قرة: «وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ» لاتجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة وطرفاً من تلك الروعة^(٤).

(٣) الأعراف: ١٥٤.

(٤) الكشف: ج ٢ ص ١٦٣.

(١) يس: ٤٠.

(٢) النحل: ٨٨.

التصوير الفني في القرآن

التصوير-وهو تجسيد المعاني- هي الأداة المفضّلة في اسلوب القرآن. فهو يعبر بالصورة المتمثلة عن معنى ذهني أو حالة نفسية، أو عن حوادث غابرة أو مشاهد آتية، أو عن نموذج إنساني وعرائره وتصرفاته في هذه الحياة. فكأنّها هي صورة شاخصة، وهيئة مشهودة. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة ويفيض عليها الحركة. فإذا ما أضاف إليها الحُوار فقد استوت لها كل عناصر التجسيد. فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث فيشرفهم عليها، حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات... وحتى ينسى المستمع أنّ هذا كلامٌ يُتلى أو مثلٌ يُضرب، وإنّما يتخيّل أنه حاضر المشهد برأى منه ومسمع، ومن ثمّ ترتسم في نفسه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من مشاهدة المنظر، المتساوقة مع الحوادث. نعم إنها الحياة هنا، وليست حكاية حياة. فإذا كانت الألفاظ -وهي كلمات جامدة وتعابير هامدة، وليست بألوان تصوير وأرياش تحبير- هي التي تصوّر من المعنى الذهني نموذجاً إنسانياً، ومن الحادث المروي أو الحالة النفسية لوحة مشهودة أو منظرًا مشهوداً، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في تعبير القرآن^(١).

(١) سيد قطب في تصويره الفني: ص ٢٩، له بقية كلام هنا رائعة سوف ننقلها.

قال السيد رشيد رضا: وهذا النوع من التشبيه - وهو إبراز المعاني في صورة التمثيل - نادر فذّ بديع، ويقلّ في كلام البلغاء، لكنه كثير وافر في القرآن العزيز^(١).

وقلّما يوجد في سائر الكلام تشبيه غير معيب. وقد عقد ابن الأثير باباً ذكر فيه معاييب التشبيه الواقع في كلام البلغاء، لقصورهم عن الإحاطة بجوانب فن التصوير. هذا أبو تمام - الشاعر المفلّق - يريد أن يصف السخاء فيجسّده في صورة ذي حياة، فيجعل له روثاً وفرثاً ممّا تأباه طبيعة السخاء المترفع عن الأدناس. قال في قصيدة يمدح بها أباسعيد كرمه وجوده:

وتقاسم الناس السخاء مجزّأً وذهبت أنت برأسه وسنامه

وتركت للناس الالهاب وما بقى من فرثه وعروقه وعظامه

قال ابن الأثير: والقبح الفاحش في البيت الثاني، وكل هذا التعسف في التشبيه البعيد دندنة^(٢) حول معنى ليس بطائل، فإنّ غرضه أن يقول: ذهب بالأعلى وترك للناس الأدنى. أو أذهبت بالجيّد وتركت للناس الرديّ^(٣).

نعم إنّه صور من السخاء حيواناً له رأس وسنام. وهذا لا عيب فيه، إنّما العيب في جعل الالهاب والفرث - وهو السرجين داخل الكرش - له، الأمر الذي تتجافاه سجية السخاء التي هي مكرمة خالصة.

فوائد التمثيل:

والتجسيد الفتّي يسمّى عندهم بالتمثيل، وكان من أروع أنواع التشبيه، ذو

(١) هامش أسرار البلاغة: ص ٩٢.

(٢) الدندنة: طنين الذباب.

(٣) المثل السائر: ج ٢ ص ١٥٤.

فوائد وحكم شتى ذكرها أرباب البيان:

قال الشيخ عبدالقاهر الجرجاني: اتفق العقلاء على أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورة التمثيل، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستنارها من أقاصي الأفئدة صباية وكلفاً، وقسر الطباع على أن تعطيها محبةً وشغفاً. ثم جعل يُعَدِّد فوائده في أنواع الكلام، مدحاً أو ذمّاً، حجاجاً أو فخاراً أو اعتذاراً، أو وعظاً وإرشاداً، ونحو ذلك. قال:

فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم، وأنبّل في النفوس وأعظم، وأهزّ للعطف، وأسرع للألف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعته للمادح، وأقضى له بغرّ المواهب والمناثع، وأسير على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر.

* ومثاله في القرآن قوله تعالى - في وصف المؤمنين الذين ثبتوا على الإيمان والجهاد في سبيله صفّاً كأنهم بنيانٌ مرصوص - : «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ»^(١).

فقد شبه صلابة الإيمان بزرع نَمَى فَقَوِيَ، فخرج فرخه من قوته وخصوبته، فاشتد واستغلظ الزرع، وضخمت ساقه وامتلاّت، فاستوى وازدهر. الأمر الذي يبعث على الابتهاج والإعجاب من جهة، وإغاظة الكفار من جهة أخرى.

• وقوله تعالى: «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا»^(١).

قال الزمخشري: يجوز أن يكون تمثيلاً، لاستظهاره به وثوقه بحمايته، بامتسكك المتدلى من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه. فقد شبهت عرى الدين بوشائج وثيقة تربط الأمة بعضها ببعض، فكأن الشريعة المقدسة حبل ممدود على طرف مهواة سحيقة، والأمة المتماسكة مستوثقون بعراها استيثاقاً يأمن جانبهم من أخطار السقوط وينجيهم من مهاوي الضلال.

• وقوله تعالى: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ»^(٢) شبه الهدى بالنور، والضلال بالظلمات، والاهتداء بحالة الخروج من الظلمات إلى النور.

• وقوله تعالى: «وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلَّةِ مِنَ الرَّحْمَةِ»^(٣) شبه الأولاد بأفراخ الطير تستدل لدى والديها تستطعمهما وتسترحمهما، ودليلاً على ذلك تبسط أجنحتها على الأرض خفضاً وذلاً، وهي من المبالغة في التشبيه وتصوير حالة الذل في موضع ينبغي الذل فيه بمكان.

• وقوله تعالى: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ»^(٤) لو اعتبرنا التشبيه في جملة «فاصدع» فقد شبهت شوكة المشركين وهيبتهم بصرح زجاجي، وشبهت الدعوة بمصادمة هذا الصرح، وشبه التأثير البليغ بالصدع، وهو الأثر البين في الزجاج المصدومة.

وهذا من تشبيه عدة أشياء بأشياء مع إفاضة الحركة والفعل والانفعال.

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) البقرة: ٢٥٧.

(٣) الإسراء: ٢٤.

(٤) الحجر: ٩٤.

فقد شبه النبي (صلى الله عليه وآله) في إبلاغ دعوته للمشركون بمن يرمي بقذائفه إلى قلاع مبنية من زجاجات سريعة التكسر والانهار.

قال: وإن كان ذمّاً كان مسّه أوجع وميسه الذع، ووقعه أشدّ وحده أحد، كما جاء في قوله تعالى - في تصوير حالة من أوتي الهداية فرفضها لغية وانسلخ منها -: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ»^(١) إنه من التمثيل الرائع وفي نفس الوقت لاذع، إنه يمثل مشهد إنسان يؤتبه الله آياته ويخلع عليه من فضله ويعطيه الفرصة للاكتمال والارتفاع... ولكن، ها هوذا ينسلخ من هذا كله انسلاخاً، كمن ينسلخ عن أديم جلده بجهد ومشقة، ويتجرّد من الغطاء الواقي والدرع الحامي، وهبط من الأفق العالي إلى سافل الأرض، فيصبح غرضاً للشيطان، لاوقاية ولا حمى، وإذا هو ألعبه أو كرة قدم تتقاذفه الأقدار، لا إرادة له ولا اختيار، فشله كمثّل كلب هراش لا صاحب له، ويلهث^(٢) من غير هدف. ويتضرّع من غير أن يجد من يشفق عليه.

وهكذا جاء تصويره لمن حمّل ثقل الحق ولا يهتدي به بالحمار يحمل أسفاراً، هي أفضل ودائع الانسان، يثّن بثقلها ولا يعي شرف محتواها: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً»^(٣).

فقد كلّفوا حمل أمانة الله في الأرض، لكن القلوب الحيّة الواعية هي التي تطيق عبء هذه الأمانة، وقد افتقدوا هؤلاء فلم يصلحوا لحملها ومرافقتها.

(١) الأعراف: ١٧٦.

(٢) اللّهُت: دلع اللسان عطشاً أو تعباً.

(٣) الجمعة: ٥.

وإن كان حجاجاً كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبيانه أبهر. قال تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ»^(١).

وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»^(٢).

قال ابن معصوم - في قوله تعالى: «يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرَهُتُمُوهُ»^(٣) -: إنه من التمثيل اللطيف، مثل الاغتيا بأكْل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر عليه حتى جعله لحم الأخ وجعله مَيْتاً، وجعل ما هو في غاية الكراهة موصولاً بأخيه. ففيه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة المعنى الذي وردت لأجله:

أما تمثيل الاغتيا بأكْل لحم المغتاب فشديد المناسبة جدّاً، لأنه ذكر مثالب الناس وتمزيق أعراضهم.

وأما قوله «لحم أخيه» فلما في الاغتيا بأكْل الكراهة، وقد اتفق العقل والشرع على استكراهه.

وأما قوله «ميتاً» فلاجل أنّ المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحسّ بها^(٤).

قال: وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد، وشرفه أجَد، ولسانه أَلَد، قال

(١) العنكبوت: ٤١.

(٢) البقرة: ٢٦٤.

(٣) الحجرات: ١٢.

(٤) أنوار الربيع: ج ٣ ص ١٧٩.

تعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»^(١).

وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسخائم أسل، ولغرب الغضب أفل، وفي عقد العقود أنفث، وعلى حسن الرجوع أبعث^(٢).

وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلى الغياية^(٣) ويبصر الغاية، ويبرىء العليل ويشفي الغليل.

قال تعالى - في وصف نعيم الدنيا وزواها -: «اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَتُهُمْ وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاتُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مَصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً»^(٤).

وقال تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ. يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ»^(٥).

وقال تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ

(١) الزمر: ٦٧.

(٢) يقال: خلّبه أي أصاب خلبه أي قلبه وسلبه إياه وفتنه. والسخائم: الضغائن. وسلّها: نزعها. وغرب السيف: حدّه. وفلّه: ثلمه. والنفث: النفخ مع التفل.

(٣) الغياية - بياثين -: كل ما يغطي الانسان من فوق رأسه.

(٤) الحديد: ٢٠.

(٥) إبراهيم: ٢٤ - ٢٧.

ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِرَبِّ الْأَلْبَابِ»^(١).

قال الجرجاني: وهكذا في سائر فنون الكلام وضروبه ومختلف أبوابه وشعوبه^(٢).

أنحاء من التصوير الفتي في القرآن

قد اسبقنا الإشارة إلى أنحاء التصوير الفتي الواقع في القرآن الحكيم، من تجسيد المعاني، أو تجسيم الصفات والأحوال، أو ترسيم النماذج الانسانية في غرائزه وتصرفاته، أو تشخيص الحوادث الجارية، أو تمثيل، أو تخيل... وما إلى ذلك من تصوير السمات والشؤون والذوات.

وقد استوفى «سيد قطب» الكلام حولها، وضرب أمثالها، وشرحها شرحاً وافياً^(٣) نفتطف منه مايلي:

تجسيد المعاني الذهنية:

في القرآن كثير من تمثيلات هي تبرز المعاني الذهنية بصور مجسدة حسية، قصداً إلى تفتيح حال وتشنيع مآل، أو لتقريب المطلوب إلى مسرح القبول.

* مثلاً، يريد أن يبين أنّ الذين كفروا لن ينالوا الفوز لديه تعالى، ولن يدخلوا الجنة إطلاقاً، وأنه من الأمر المستحيل. هذه هي المعاني الذهنية، لها تعابير كهذه، ولكن اسلوب التصوير يعرضها كالتالي:

(١) الزمر: ٢١.

(٢) أسرار البلاغة: ص ٩٢-٩٦.

(٣) راجع التصوير الفتي في القرآن: ص ٣٠-٦٧.

«إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ»^(١).

يدعك هذا التصوير ترسم بخيالك صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لؤلؤج الحبل الغليظ في سم الخياط - ويختار من أسماء الحبل اسم «الجمل» خاصة في هذا المقام تأكيداً لتصوير الغلظة وضخامة حجم الوالج في سم الخياط. ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ماشاء له التأثر، ليستقر في النهاية معنى الفوز ومعنى الاستحالة في أعماق النفس، وقد ورد إليها من طريق العين والحس تخيلاً.

* ويريد أن يبين أن الله سيضيع أعمال الذين كفروا كأن لم تكن قبل شيئاً، وستضيع إلى غير عودة فلا يملكون لها رداً، فيقدم هذا المعنى مصوراً في قوله: «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً»^(٢).

ويدعك تتخيل صورة الهباء المنثور، فتعطيك معنى أوضح وأكد للضياع الحاسم المؤكد.

* أو يرسم هذه الصورة المطولة بعض الشيء لهذا المعنى نفسه: «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ»^(٣).

فتزيد الصورة حركةً وحياةً بحركة الريح في يوم عاصف، تذرو الرماد وتذهب به بدداً إلى حيث لا يتجمع أبداً.

* ويريد أن يبين للناس أن الصدقة التي تُبدل رياءً والتي يتبعها المن

(١) الأعراف: ٤٠.

(٢) الفرقان: ٢٣.

(٣) إبراهيم: ١٨.

والأذى لا تثمر شيئاً ولا تبقى، فينقل إليهم هذا المعنى المجرد في صورة حسية متخيلة على النحو التالي:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا»^(١).

وידعهم يتملّون^(٢) هيئة الحجر الصلب المستوي، غظته طبقة خفيفة من التراب فظتت فيه الخصبوبة، فاذا وابل من المطري صيبه، وبدلاً من أن يهيه للخصب والتماء - كما هي شيمة الأرض تجودها السماء - أذابه - كما هو المنظور - يتركه صلدًا، وتذهب تلك الطبقة الخفيفة التي كانت تستره، وتُخيل فيه الخير والخصوبة.

ثم يمضي في التصوير لإبراز المعنى المقابل لمعنى الرباء:

«وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ»^(٣).

فهنا الوجه الثاني للصورة، والصفحة المقابلة للصفحة الأولى. فهذه الصدقات التي تنفق ابتغاء مرضاة الله هي في هذه المرة كالجنة، لا كحفنة من تراب، وإذا كانت حفنة التراب هناك على وجه صفوان فالجنة هنا فوق ربوة، وهكذا هو الوابل مشتركاً بين الحالتين، ولكته في الحالة الأولى يحو ويمحق، وفي الحالة الثانية يُربي ويخصب. ولو أن هذا الوابل لم يصبها فإن فيها من الخصب والاستعداد للإنبات ما يجعل القليل من المطر يهزها ويحييها: «فإن لم

(١) البقرة: ٢٦٤، والصلد: النقي.

(٢) تمل الشيء: تأمله وقلبه لينظر فيه.

(٣) البقرة: ٢٦٥.

يُصِبَهَا وَابِلٌ فَظَلُّ». .

* ثم يعود إلى ذلك المعنى مرة أخرى فيقول:

«مَثَلٌ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ»^(١).

فيرسم صورة الحرث تأخذه الريح فيها برد يضرب الزرع والثمار فيهلكها، فلا ينال صاحب الحرث منه ما كان يرجو بعد الجهد فيه، كالذي ينفق ماله وهو كافر، ويرجو الخير فيما أنفق، فيذهب الكفر بما كان يرجوه.

ولا يفوتنا ما في جرس كلمة «صِرٌّ» من تصوير لدلولها، وكأنما هو قدائف صغيرة تنطلق على الحرث فتهلكه.

* ويريد أن يبرز معنى: أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ يَسْتَجِيبُ لِمَن يَدْعُوهُ، وينيله ما يرجوه، وَأَنَّ الْآلِهَةَ الَّتِي يَدْعُونَهَا مَعَ اللَّهِ لَا تَمْلِكُ لَهُمْ شَيْئاً، وَلَا تَنْيِلُهُمْ خَيْراً وَلَوْ كَانَ الْخَيْرُ قَرِيباً، فيرسم لهذا المعنى هذه الصورة العجيبة:

«لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كُفَّيْهِ إِلَى السَّمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ»^(٢).

وهي صورة تلخ على الحس والوجدان، وتجذب إليها الالتفات، فلا يستطيع أن يتحول إلا بجهد ومشقة، وهي من أعجب الصور التي تستطيع أن ترسمها الألفاظ: شخص حيّ شاخص، باسط كفَّيه إلى السماء، والماء منه قريب، يريد أن يبلغه فاه، ولكنه لا يستطيع. هكذا تخيب آمال الذين كفروا، وتضيع أعمالهم، لتبقى عليهم حسرات.

(١) آل عمران: ١١٧.

(٢) الرعد: ١٤.

* وبيّن أنّ الآلهة الذين يعبدون من دون الله، لا يسمعون ولا يجيبون، لأنهم لا يعون ولا يتبينون، وأنّ دعاء عبّادهم لهم عبث لا طائل وراءه، فيختار صورة تبين هذا المعنى، وتجسم هذه الحالة:

«وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»^(١).

هكذا ينعق الكفار بما لا يسمع، وينادون ما لا يفهم، فلا يصل إليه من أصواتهم إلّا دعاء مبهم ونداء لا يفهم. فهؤلاء الآلهة لا يميزون بين الأصوات ولا يفهمون مراميها. وهذا مثل، ولكنه صورة شاخصة. صورة جماعة يدعون آلهة تصل إليها أصواتهم مبهمّة، فلا تفهم ممّا وراءها شيئاً، وفيها تتجلى غفلة الداعين وعبث دعوتهم، بجانب غفلة المدعوّين واستحالة إجابتهم.

* ويريد أن يجسم ضعف هؤلاء الآلهة، أو الأولياء من دون الله عامّة، ووهن الملجأ الذي يلجأ إليه عبّادهم حين يحتمون بحمايتهم، فيرسم لهذا كله صورة مزدوجة:

«مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»^(٢).

فهم عناكب ضئيلة واهنة، تأوى من جمى هؤلاء الآلهة أو الأولياء إلى بيت كبيوت العنكبوت أوهن وأضال، «وإنّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» ولكنهم لا يعلمون حتى هذه البديهة المنظورة، فهم يضيفون إلى الضعف والوهن الجهل والغفلة، حتى ليعجزون عن إدراك البديهي المنظور.

* ويريد أن يبيّن أنّ الذي يشرك بالله لا منبت له ولا جذور، ولا بقاء له

(١) البقرة: ١٧١.

(٢) العنكبوت: ٤١.

ولا استقرار. فيمثل لهذا المعنى بصورة سريعة الخطوات عنيفة الحركات:
 «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي
 مَكَانٍ سَحِيقٍ»^(١).

هكذا في ومضة يختر من السماء من حيث لا يدري أحد، فلا يستقر على
 الأرض لحظة، إن الطير لتخطفه. أو أن الريح لتهوي به، وتهوي به في مكان
 سحيق، حيث لا يدري أحد كذلك، وذلك هو المقصود.

* ويريد أن يثبت معنى الحرمان والإهمال في الآخرة لهؤلاء الذين أعطاهم
 الله الكتاب من قبل الاسلام فأهملوه، وعاهداهم على الايمان فعاهدوه ثم
 أخلفوه، ابتغاء نفع مادي قليل، شأن من لاعهد له، ولا احترام لكلمته، فيرسم
 لهذا الإهمال المعنوي صورة حسية:

«إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي
 الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ»^(٢).

فيوضح معنى الإهمال لا بالفاظ الإهمال، ولكن برسم الحركات الدالة
 عليه: لا كلام، ولا نظر، ولا تزكية، وإنما عذاب أليم.

تصوير الحالات النفسية:

تعتبر الإنسان حالات نفسية، تتباه على أثر انفعالات هي بدورها متأثرة
 من محيطه وتنطبع في نفسه لتشكّل شخصيته، وماهي سوى انعكاسات وردود
 فعل حاصلة في نفسه، إن رقيقاً أو عنيفاً، حسب قوة نفسه أو ضعفها عند مجابهة

(١) الحج: ٣١.

(٢) آل عمران: ٧٧.

مشاكل الحياة. الأمر الذي يؤثر في تكيف حياته وفي تصرفاته والاتجاه الذي يختاره في مسيرته. بل وإنّ تلك الصفات والغرائز المنطبعة في نفسه هي التي تتجلى على أعماله وتصرفاته، وتعيّن اتجاهه في مصير الحياة، بل وهي التي تسيّره وتجذبه إلى مسرح تجسّدات نفسياته وغرائزه جذباً «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ»^(١) أي على وفق طبيعته وغريزته الحاصلة في نفسه على أثر انطباعاته. وكل إناء بالذي فيه ينضح.

وأولى حالة نفسية تعترض سبيل الإنسان هي حالة الشكّ والترديد، الناشئة من الجهل بالحقائق التي يواجهها في الحياة. ثم هو أسير مشتهياته وملذّاته، إن ظفر بها فرح وطرب، وإن خاب حزن واغتم. وهكذا إن نازعه منازع غضب واحتدّ، وغير ذلك من حالات تعتور الإنسان ولا يمكن أن يخلو منها إنسان.

وقد أبدع القرآن في تصوير هذه الحالات النفسية للإنسان، وأتى بالإعجاب.

* مثلاً، يريد أن يبرز الحيرة التي تنتاب من يشرك بعد توحيد، ومن يتوزّع قلبه بين الإله الواحد والآلهة المتعدّدين، ويتفرّق إحساسه بين الهدى والضلال، فيرسم هذه الصورة المحسّة المتخلية:

«قُلْ أُنَدِّعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا»^(٢).

فتبرز صورة هذا المخلوق التعيس الذي استهوته الشياطين في الأرض (ولفظ

(١) الإسراء: ٨٤.

(٢) الأنعام: ٧١.

الاستهواء لفظ مصوّر لدلوله) وباليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه، فتكون له راحة ذي القصد الموحد ولو كان في طريق الضلال، ولكن هناك من الجانب الآخر له إخوان يدعونه إلى الهدى، وينادونه: «أئتنا». وهوين هذا الاستهواء وهذا الدعاء (حيران) موزّع القلب، لا يدري أي الفريقين يجيب، ولا أي الطريقين يسلك، فهو قائم هناك شاخص متلفت.

* ويريد أن يكشف عن حال أولئك الذين يهتء الله لهم المعرفة، فيفرون منها كأن لم تهتأ لهم أبداً، ثم يعيشون بعد ذلك هابطين، تطاردهم أنفسهم وأهواؤهم، بما علموا وبما جهلوا، فلا هم استراحوا بالغفلة ولا هم استراحوا بالمعرفة، فيرسم لهم هذه الهيئة:

«وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرَكهُ يَلْهَثَ»^(١).

وفي الصورة تحقير وتقدير- يحقق الغرض الديني- ولكنها من الوجهة الفتية صورة شاخصة فيها الحركة الدائبة، وهي صورة معهودة، فهي في تثبيت المعنى المراد بها أشد وأقوى. وهكذا يلتقي الغرض الديني بالغرض الفتى، كالشأن في جميع الصور التي يرسمها القرآن.

* ويريد أن يوضح حالة تزعزع العقيدة، حيث لا يستقر الإنسان على يقين، ولا يحتمل ما يصادفه من الشدائد بقلب راسخ، ولا يجعل عقيدته في معزل عن ملابس حياته، بعيدة عن ميزان الريح والخسارة، فيرسم لهذا التزعزع صورة تهتز وترنح، توشك على الانهيار:

«وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ

أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(١).

إنَّ الخيال ليكاد يجسِّم هذا «الحرف» الذي يعبد الله عليه هذا البعض من الناس، وإنه ليكاد يتخيَّل الاضطراب الحسِّي في وقفهم، وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب، وإنَّ هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأوضح ممَّا يؤديَّة وصف التزعزع، لأنها تنطبع في الحس، وتتصل منه بالنفس.

* وممَّا هو بسبيل من ذلك في غرض آخر غير هذا الغرض، تلك الصورة التي رسمها للمسلمين قبل أن يسلموا، يوم كانوا معرضين لجهنم بما هم فيه من الكفر، فقال:

«وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا»^(٢).

هكذا: «كُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»، موشكين على الوقوع، تكاد أقدامكم تزلّ فتهوون. ولسنا هنا بصدد بيان دقّة التشبيه وصدقه، إنما نحن بصدد هذه الصورة القلقة المتحرّكة الموشكة في الخيال على الزوال. ولو استطاعت ريشة مصوّر بالألوان أن تبرز هذه الحركة المتخيَّلة في صورة صامته لكانت براعة تحسب في عالم التصوير والمصوِّر يملك الريشة واللوحة والألوان، وهنا ألفاظ فحسب يصوِّر بها القرآن.

ثمَّ ننظر إلى جمال التعبير من زاوية أُخرى: إذ يرسم هذه الصورة، ثمَّ يجعل هذه الحفرة من النار، ويجعلهم على شفا منها، فيطوي الحياة الدنيا كلها - وهي الفاصل بينهم وبين النار - ويجعلهم - وهم بعدُ أحياء، وهم بعدُ في الدنيا - واقفين

(١) الحج: ١١.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

هذه الوقفة، على شفا حفرة من النار، حينما كانوا من الكفار.

* وشبهة بهذه الصورة صورة أخرى، لمن يقيم بنيانه على غير التقوى:

«أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(١).

فهنا قد أكمل الحركة الأخيرة التي كانت متوقعة هناك : «فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ» وبذلك طوى الحياة الدنيا كلها، دون أن يذكر ولو كلمة «ثُمَّ» في موضع «الفاء» «فانهار» لأنّ هذا المدى الطويل قصير قصير، حتى لا ضرورة لهذا «التراخي» القصير. وهذا فنّ من جمال العرض الذي أبدع فيه القرآن.

ترسيم النموذج الإنساني:

قد أسبقنا أن شخصية كلّ إنسان هي تبلور صفاته وغرائزه وانطباعاته عن حياته الخاصة في إطار محيطه وجوّ عيشته. فهو إنّما يتّجه حيث توجهه فطرته وغريزته. ولترسيم نماذج من هكذا إنسان هو أسير غرائزه واستهوائاته، روائع من التصوير الفتى في القرآن. كالذي سبق في قولنا: وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ... وأمثلة أخرى نزيد عليها:

* يُرِيدُ أَنْ يَشَخَّصَ حَالَةَ الْعِنَادِ السَّخِيفِ، وَالْمُكَابَرَةِ الْعَمِيَاءِ، الَّتِي لَا يُجَدِّي مَعَهَا حُجَّةً وَلَا بَرَهَانَ، فَيَبْرِزُ «نَمُودَجاً إِنْسَانِيّاً» فِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ: «وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ»^(٢).

أو يقول: «وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ

(١) التوبة: ١٠٩.

(٢) الحجر: ١٥ و ١٤.

كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ»^(١).

* ويريد أن يبين أن الإنسان لا يعرف ربه إلا في ساعة الضيق، حتى إذا جاءه الفرج نسى الله الذي فرّج عنه. ولكنه لا يقولها في مثل هذا النسق الذهني، إنما يرسم صورة حافلة بالحركة المتجددة والمشاهد المتتابعة، ويرسم في خلالها «نموذجاً إنسانياً» كثير التكرار في بني الانسان:

«هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَهُمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَكِن نَجَّيْنَا مِنْ هَذِهِ لِنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَتَجَاهُ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ»^(٢).

وهكذا تحيا الصورة وتتحرك، وتموج وتضطرب، وترتفع الأنفاس مع تماوج السفينة وتنخفض، ثم تؤدي في النهاية ذلك المعنى المراد أبلغ اداءً وأوفاه. * ويريد أن يبرز حالة «نموذج» من الناس، ظاهرهم يغري وباطنهم يؤذي، فيرسم لهم صورة كما يأتي:

«وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ»^(٣).

فيستعيز من الوصف الحركة والتصرف، ويبرز المفارقة بين الظاهر والباطن في نسق من الصور المتحركة في النفس والخيال. * وفريق من الناس ضعيف العقيدة، ضعيف العزيمة، مستور الحال،

(١) الأنعام: ٧.

(٢) يونس: ٢٢ و ٢٣.

(٣) البقرة: ٢٠٤ و ٢٠٥.

لا يتبين ضعفه في فترة الرخاء، فإذا جدّ الجدّ وجاء الشدّ ظهر هذا الضعف على أتمّه. هؤلاء يصوّروهم نموذجاً واضحاً في هذه الكلمات:

«وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ»^(١).

ومنظر المغشي عليه من الموت معهود، فما هو إلا أن يذكر التعبير، حتى تبرز صورتهم في الضمير، مصحوبة بالسخرية والتحقير.

* وقد يبرز هذا «النموذج» في حادثة مروية، فيتجاوز الحادثة الخاصة ويخلد نموذجاً عاماً:

«أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدَ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا: وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ»^(٢).

وفي هذا المثال يزيد على الضعف، تلك اللجاجة في أيام السلم، وإظهار الشجاعة والاستبسال، ثم الخور والجبن، عندما تحين ساعة النضال.

وليست هذه حادثة تقع مرة وتمضي، ولكنه نموذج مكرّر في بني الانسان، لا يتقيّد بالزمان والمكان.

تشخيص الحوادث الواقعة:

القصص في القرآن كثيرة، وحديثه عن حوادث غابرة أو آتية أيضاً كثير،

(١) محمّد: ٢٠.

(٢) البقرة: ٢٤٦.

ولا شك أنه كتاب عظة وحكمة، وفي نقل الحوادث وأخبار الماضين عبرة، والحديث عن سوء المصير أو حسن الخاتمة مدعاة إلى الصلاح وتربية التقوى في النفوس. في كل ذلك لا يختلف القرآن عن غيره من كتب الإرشاد والهداية العامة سوى أن القرآن عندما يسرد قضايا سالفة أو يخبر عن أحوال مستقبلية فإنه يرسمها بصورة تجسيد حاضر، وكأنها لوحة أو مشهد منظور، يتجاذب إليها نفوس النظارة ويرونها كشاهد عيان. ومن ثم فتنتاب نفوس المستمعين من حالات وجد ورغبة أو رهب ووحشة كما تنتاب نفوس النظارة الحاضري المشهد، سواء بسواء.

* ها هوذا يتحدث عن «الهزيمة» فيرسم لها مشهداً كاملاً تبرز فيه الحركات الظاهرة والانفعالات المضمرة، وتلتقي فيه الصورة الحسية بالصورة النفسية، وكأنما الحادث معروف من جديد، دون أن يغفل منه قليل أو كثير:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا. إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا. هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا. وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا. وَإِذْ قَالَتِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا»^(١).

فأية حركة نفسية أو حسية من حركات الهزيمة، وأية سمة ظاهرة أو مضمرة من سمات الموقف، لم يبرزها هذا الشريط الدقيق المتحرك، المساوق في حركته لحركة الموقف كله؟

هؤلاء هم الأعداء يأتون المؤمنين من كل مكان، وهذه هي الأبصار زائغة والنفوس ضائعة، وهؤلاء هم المؤمنون يزلزلون زلزالاً شديداً، وهؤلاء هم المنافقون ينبعثون بالفتنة والتخذيل يقولون: «مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا» ويقولون لأهل المدينة: ارجعوا إلى بيوتكم فهي في خطر، وهؤلاء هم جماعة من ضعاف القلوب يقولون: إِنَّ بَيوتَنَا مَكشُوفَةٌ، وليست في حقيقتها كذلك «إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا».

وهكذا لا تفلت في الموقف حركة ولا سمة إلا وهي مسجلة ظاهرة، كأنها شاخصة حاضرة. تلك حادثة وقعت بالفعل، ولكن صورتها ترسم «الهيمنة» مطلقة من كل ملابسة، وما يزيد عليها أو ينقص منها إلا جزئيات في الوقائع! أما الصورة النفسية فخالدة تتكرر في كل زمان، حيثما التقى جمعان، وتعرض أحدهما للخذلان.

* وقريب من هذه الصورة صورة أخرى للهيمنة أيضاً، وهي كذلك صورة باقية، لاحادثة مفردة، وذلك حيث يقول:

«وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ^(١) بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمُ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. إِذْ تَصْعِدُونَ وَلَا تُلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيِّ لَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ

(١) تستأصلونهم بالقتل.

كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا»^(١).

ليخيل إلينا أننا نشهد المنظر هذه اللحظة بكل من فيه وكل مافيه.

أمثال مضروبة أم اشخاص مشهودة؟

«وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»^(٢) لكنّها أمثال حيّة يشهدها النظارة وتصيخ أسماعهم إلى أصواتها وضوضائها، وكأنهم في خضمّ المعركة يجولون بها أو يُبصرون بها عن جنب وهم لا يشعرون.

* ها نحن أولاء أمام أصحاب الجنة -جنة الدنيا لا جنة الآخرة- وها هم أولاء يبيتون في شأنها أمراً. لقد كان للفقراء حظّ من ثمر هذه الجنة، ولكن الورثة يخلون بها، إنهم يريدون أن يستأثروا بها وحدهم، وأن يحرموا أولئك المساكين حظهم. فلننظر كيف يصنعون:

«إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُمُنَّهَا مُصْبِحِينَ. وَلَا يَسْتَنُّونَ»^(٣).

لقد قرأهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر، دون أن يستنوا منه شيئاً للمساكين. فلندعهم على قرارهم، ولننظر ماذا يقع الآن في بهمة الليل، حيث يختفون هم، ويخلو منهم المسرح، فماذا يرى النظارة؟ هناك مفاجأة تتمّ خلسة، وحركة خفيفة كحركة الأشباح في الظلام «فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ»^(٤) وهم لا يشعرون.

والآن ها هم أولاء يتصايحون مبكرين، وهم لا يدرون ماذا أصاب جنّتهم

(١) آل عمران: ١٥٢ - ١٥٤.

(٢) إبراهيم: ٢٥.

(٣) القلم: ١٧ و ١٨.

(٤) كالمقطوعة الثمار.

في الظلام: «فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ. أَنْ اِغْدُوا عَلَى حَرِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ. فَانْظَلُّوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ. أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ».

ليمسك النُّظارة ألسنتهم فلا ينبهوا أصحاب الجنة إلى ما أصاب جنتهم، وليكتموا ضحكات السخرية التي تكاد تنبعث منهم، وهم يشاهدون أصحاب الجنة المخدوعين، يتنادون متخافتين خشية أن يدخلها عليهم مسكين، ليكتموا ضحكات السخرية، بل ليطلقوها، فهذا هي ذي السخرية العظمى: «وَعَدُوا عَلَى حَرِّ^(١) قَادِرِينَ» أجل، إنهم لقادرون الآن على المنع والحرمان، حرمان أنفسهم على الأقل.

وها هم أولاء يفاجأون بماذا؟ فليضحك النُّظارة كما يشاءون: «فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَصَّالُونَ» ماهذه جنتنا الموقرة بالثمار، فقد ظللنا إليها الطريق، فلتتأكدوا يا جماعة «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» وهذا هو الخير اليقين.

والآن وقد سقط في أيديهم: «قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ» إي والله، هلا سَبَّحتم الله واتَّقيتموه؟ «قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» الآن وبعد فوات الأوان.

وكما يتنصل كل شريك من التبعة عندما تسوء العاقبة، ويتوجه باللوم إلى الآخرين، ها هم أولاء كذلك يصنعون: «فَاقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ».

ثم ها هم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعاً بالخطيئة، عسى أن يفيدهم الاعترافُ الغفران، ويعوضهم من الجنة الضائعة جنة أخرى: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ».

والآن فإلى صاحب جنة أخرى، بل صاحب جنتين أكبر من الأولى. إن له

(١) منع وحرمان.

لقصة مع صاحب له، ليس من ذوي الجنان، ولكن من ذوي الايمان. وكلاهما «نموذج إنساني» لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الشري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى، التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تذهله القوة ولا الجاه. وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره:

«وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكْلَهَا وَلَمْ تُظْلَمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا. وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ»^(١).

وهذا ترسم صورة الجنتين مكتملة في ازدهار وفخامة. وهذا هو المشهد الأول. فلننظر المشهد الثاني:

«فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا».

ويبدو أنه قال قولته هذه وهما في الطريق إلى الجنتين، أو وهما على الباب،

إذ جاء بعده:

«وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا».

فها هو ذا في أوج زهوه وبطره، وتعاليه وازدهائه. فاذا ترى يكون أثر هذا كله في نفس صاحبه الفقير، الذي لاجئة له ولا مال، ولا عصبية له ولا نفر؟ إن صاحبه لمؤمن، فما تشعره كل هذه المظاهر بالهوان، وما تنسيه عزّة ربه الديان، وما تغفله عن واجبه الصحيح، في ردّ صاحبه البطر، إلى جادة الطريق، ولو استدعى ذلك أن يجبهه بالتقريع، وأن يذكره بمنشئه الصغير من

التراب المهين: «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا. لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا. وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلًا مِنْكَ مَا لِيَ وَلَدًا. فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا. أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا».

وهنا ينتهي هذا المشهد بين الصاحبين: أحدهما منتفش كالديك، ازدهاه مافي جنته من ازدهار. والآخر موقن بالله، مستعز بالايمان، يذكر صاحبه ويؤثبه، ويبصره بما كان يجب أن يصنع إذ رأى جنته. ويبدو أن صاحبه لم يستمع إليه - وهذا طبيعي في هذا الموقف - فهو يقسو عليه قسوة الغاصب لدينه، ويدعو على جنته أن يرسل الله عليها الصواعق، فتصبح جرداء ملساء، تزل فيها القدم وتزلق، أو أن يصبح مائها غائراً لا يستطيع أن يطلبه، فضلاً عن أن يستخرجه. ثم يفترق الصاحبان وهما متغاضبان. فلننظر بعد ماذا يكون؟!

«وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا». لقد استجاب الله دعوة الرجل المؤمن المتحدي بلا ضرورة. فلنشهد صاحبنا شاخصاً يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها، ولدعه يندم «يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا» ولنسدل الستار على منظر الدمار والاستغفار.

ألوان من التخيل الحسي:

لون من ألوان «التخيل» يمكن أن نسميه «التشخيص» يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانية. هذه الحياة - التي قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية - تشمل المواد والظواهر والانفعالات، وتهب هذه الأشياء كلها عواطف آدمية، وخلجات إنسانية، تشارك بها الآدميين

وتأخذ منهم وتعطي، وتتبدى لهم في شتّى الملابس، وتجعلهم يحسّون الحياة في كل شيء تقع عليه العين، أو يتلبّس به الحسّ، فيأمنون بهذا الوجود أو يرهّبونه، في توقّز وحساسية وإرهاق.

* هذا هو الصبح يتنفس: «وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ»^(١) فيخيّل إليك هذه الحياة الوديفة الهادئة التي تنفرج عنها ثنآياه وهو يتنفس، فتتنفس معه الحياة، ويدبّ النشاط في الأحياء، على وجه الأرض والسماء.

* وهذا هو الليل يسرع في طلب النهار، فلا يستطيع له دركاً: «يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا»^(٢). ويدور الخيال مع هذه الدورة الدائبة، التي لانهاية لها ولا ابتداء.

أو هذا هو الليل يسري: «وَاللَّيْلُ إِذَا يَسْرَى»^(٣) فتحسّ سريانه في هذا الكون العريض، وتأنس بهذا الساري على هيئة واتّاد.

* وهاتان هما الأرض والسماء عاقلتين، يوجّه إليهما الخطاب، فتسرعان بالجواب: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ»^(٤) والخيال شاخص إلى الأرض والسماء، تدعيان وتحييان الدعاء.

* وهذه هي الشمس والقمر والليل والنهار في سباق دائم ولكن: «لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ»^(٥)، إنه لسباق جبّار، لايني أو يفتر في ليل أو نهار.

* وهذه هي الأرض «هامدة» مرة و«خاشعة» مرة، ينزل عليها الماء

(٤) فصلت: ١١.

(٥) يس: ٤٠.

(١) التكوين: ١٨.

(٢) الأعراف: ٥٤.

(٣) الفجر: ٤.

فَتَهْتَزُّوْنَهَا:

«وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ»^(١).

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ»^(٢).

وهكذا تستحيل الأرض الجامدة كائناً حياً بلمسة واحدة في لفظة واحدة.

* وهذه جهنم، جهنم النعمة المتغيطة التي لايفلت منها أحد، ولا تشبع بأحد، جهنم التي تدعو من كانوا يُدْعَوْنَ إلى الهدى ويُدْبِرُونَ، وهم لدعوها على الرغم منهم يُجيبون. جهنم التي ترى المجرمين من بعيد فتتغيظ وتنفور:

«يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ»^(٣).

«إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا»^(٤).

«إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ. تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ»^(٥).

«إِنَّهَا لَطِيْ. نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى. تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى. وَجَمَعَ فَأَوْعَى»^(٦).

* وهذا هو الظل الذي يلجأ إليه المجرمون: «وَضَلَّ مِنْ يُحْمُومٍ. لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ»^(٧) ففي نفسه كزازة وضيق، لا يحسن استقبالهم، ولا يهتس لهم هشاشة

(١) الحج: ٥.

(٢) فصلت: ٣٩.

(٣) ق: ٣٠.

(٤) الفرقان: ١٢.

(٥) الملك: ٧ و ٨.

(٦) المعارج: ١٥ - ١٨.

(٧) الواقعة: ٤٣ و ٤٤.

الكرم، فهو ليس فقط «لابارد» ولكن كذلك «ولا كرم».

* وهذه هي الرياح لواقع: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ»^(١) بما تحمل من ماء.

ولكن التعبير عنها أكسبها حياة حيوانية، تلقح وتنتج.

* وهذا هو الغضب، أو هذا هو الروح، أو هذه هي البشرية، تهيج وتسكن، وتوحي وتسكت، وتجيء وتذهب:

«وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضُّ أَخَذَ الْأَلْوَحَ»^(٢).

«فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ»^(٣).

* * *

* ولون من ألوان «التخيل» يتمثل في تلك الصور المتحركة التي يعبرها عن حالة من الحالات أو معنى من المعاني.

فصورة الذي يعبد الله على حرف «فإن أصابته خيرٌ اطمأنَّ به وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه»^(٤).

وصورة المسلمين قبل أن يسلموا، وهم «عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»^(٥).

وصورة الذي «أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ قَانِهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»^(٦) كلها صور تخيل للحس حركة متوقعة في كل لحظة، وتتم هذه الحركة في الصورة الأخيرة.

وقريب من هذه الصور في التخيل ولوج «الجمال في سم الخياط»^(٧)، الموعد المضروب لدخول الكافرين الجنة بعد عمر طويل. فالخيال يظل عاكفاً على تمثل هذه الحركة العجيبة، التي لا تتم ولا تقف ماتابعها الخيال.

(١) الحجر: ٢٢.

(٢) الأعراف: ١٥٤.

(٣) هود: ٧٤.

(٤) الحج: ١١.

(٥) آل عمران: ١٠٣.

(٦) التوبة: ١٠٩.

(٧) الأعراف: ٤٠.

والصورة التي تخيلها الآية: «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا»^(١).

فالخيال يظلّ يتصوّر تلك الحركة الدائبة: حركة الامتداد بماء البحر لكتابة كلمات الله، في غير ماتوقّف ولا انتهاء إلا أن ينتهي البحر بالنفاد.

وشبيه بهذه الصور ما تخيله للحسّ هذه الآية: «فَمَنْ زُحِرَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ»^(٢) والآية: «وَمَا هُوَ بِمُزَحْزَحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ»^(٣) فلفظة الزحزحة ذاتها تخيل حركتها المعهودة. وهذه الحركة تخيل الموقف على شفا النار، ماثلاً للخيال والأبصار.

* * *

* ولون من ألوان «التخييل» يتمثّل في الحركة المتخيّلة التي تلقيناها في النفس بعض التعبيرات مثل: «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً»^(٤) فتخيّل صورة الهباء المنثور التي هي صورة حسية لإضاعة الأعمال، وقد تقدّم ذلك. والآن تلفتنا فيها لفظة «وقدّمنا» أنها تخيل للحسّ حركة القدوم التي سبقت نثر العمل كالهباء. وهذا التخييل يتوارى بكل تأكيد لو قيل: وجعلنا عملهم هباءً منثوراً. حيث كانت تنفرد حركة النثر وصورة الهباء دون الحركة التي تسبقها حركة القدوم.

ومثلها: «قُلْ أُنَادِعُكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا»^(٥). فكلمات «نُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا» تخيل حركة حسية للارتداد في موضع الارتداد المعنوي، وتمنح الصورة حياةً محسوسة.

(٤) الفرقان: ٢٣.

(٥) الأنعام: ٧١.

(١) الكهف: ١٠٩.

(٢) آل عمران: ١٨٥.

(٣) البقرة: ٩٦.

ومن هذا القبيل: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»^(١) في موضع: لا تطيعوا الشيطان. فَإِنَّ كَلِمَتِي: «تَتَّبِعُوا»، و«خطوات» تختلان حركة خاصة، هي حركة الشيطان يخطو والناس ورائه يتبعون خطواته. وهي صورة حين تجسّم هكذا تبدو عجيبة من الآدميين، وبينهم وبين الشيطان الذي يسرون ورائه، ما أخرج أباهم من الجنة!

وكذلك: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ»^(٢) باختلاف يسير، هو أَنَّ الشيطان في هذه المرة هو الذي تبع هذا الضال ولازمه ليغويه: «فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ».

ومن هذا الوادي: «وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ»^(٣) فحركة الاقتفاء تنهياً للذهن، ويتمثلها الخيال بالجسم والأقدام، لابتجّرد الذهن والجنان.

* * *

* ولون من ألوان «التخيل» يتمثل في تلك الحركات السريعة المتتابعة التي عرضنا منها مثلاً في الفصل السابق، صورة الذي يُشرك بالله «فَكَانَ خَرّاً مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ»^(٤).

وشبيهة بها في سرعتها وتعدّد مناظرها تلك الحركة المتخيّلة في قوله: «مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ»^(٥).

وتلك صورة عجيبة، فمن يشس من نصرة الله لنبيه، وضاق صدره، وبلغ حنقه على هذه الحال مبلغاً لا يطيقه، فليحاول أن يغيّر من هذه الحال ما استطاع، مادام لا يصبر، ولا ينتظر وعد الله بالنصر. ليمدد إلى السماء بحبل

(١) الحج: ٣١.

(١) البقرة: ١٦٨.

(٥) الحج: ١٥.

(٢) الأعراف: ١٧٥.

(٣) الإسراء: ٣٦.

يتعلق به ليصعد عليه، فإذا لم يجده هذا فليقطع هذا الحبل الممدود. ثم لينظر: هل أفلح تدبيره هذا في اذهاب ما يغيبه؟ لينظر، إن كان قد بقي فيه شيء ينظر، بعد قطع حبله الممدود، وبعد السقطة التي يترقبها الخيال.

ومن هذا القبيل - مع شيء من التحوير والتلطيف يناسب المخاطب هنا، وهو النبي (صلى الله عليه وآله) وقد عزّ عليه إعراض المشركين، وتمنى لو يستطيع هدايتهم للحق، وإتيانهم بالمعجزة التي يطلبون: «وَأِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ»^(١).

* ولون من «التخييل» يتمثل في الحركة الممنوحة لما من شأنه السكون كقوله: «وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا»^(٢) فحركة الاشتعال هنا تخيّل للشيب في الرأس حركة كحركة اشتعال النار في الهشيم، فيها حياة وجمال، كما أسلفنا.

تجسيم الأعمال وتجسيد المعنويات:

وأما «التجسيم» فقد وردت له أمثلة كثيرة في فصل «التصوير الفتي» كذلك. ومنه كل التشبيهات التي جيء بها لإحالة المعاني والحالات صوراً وهيئات، نذكر منها: «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ»^(٣). و«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ»^(٤). و«مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ

(٣) إبراهيم: ١٨.

(٤) البقرة: ٢٦٤.

(١) الأنعام: ٣٥.

(٢) مريم: ٤.

وَتَثْبِيثًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ»^(١)... الخ.
ومن هذا النوع: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ. تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ. وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ»^(٢).

ولكن الذي نعنيه هنا بالتجسيم ليس هو التشبيه بمحسوس، فهذا كثير معتاد، إنما نعني لوناً جديداً هو تجسيم المعنويات وتجسيدها، لا على وجه التشبيه والتمثيل، بل على وجه التصيير والتحويل.

* يقول: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّلَوْ أَنْ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا»^(٣). «وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا»^(٤). أو «وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ»^(٥) فيجعل كأن هذا العمل المعنوي مادة محسوسة، تحضر (على وجه التجسيم) أو تحضر هي (على وجه التشخيص) أو توجد عند الله كأنها وديعة تسلم هنا فتتسلم هناك .
وقريب من هذا تجسيم الذنوب كأنها أحوال (تُحمل على الظهور زيادة في التجسيم): «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ»^(٦). «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»^(٧).

ومن تجسيم المعنويات أمثال: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»^(٨) فالتقوى زاد. أو صبغة الله «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً»^(٩) فدين الله صبغة معلمة. أو

(٦) الأنعام: ٣١.

(١) البقرة: ٢٦٥.

(٧) الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧.

(٢) إبراهيم: ٢٤ - ٢٦.

(٨) البقرة: ١٩٧.

(٣) آل عمران: ٣٠.

(٩) البقرة: ١٣٨.

(٤) الكهف: ٤٩.

(٥) البقرة: ١١٠.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً»^(١) فالسلم ممّا يدخل فيه. أو «وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ»^(٢) فالإثم ممّا له ظاهر وباطن... إلى آخر هذا النحو من الاستعارات.

* ويحدث عن حالة نفسية معنوية هي حالة التضايق والضجر والخرج، فيجسّمها كحركة جثمانية: «وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ»^(٣). فالأرض تضيق عليهم، ونفوسهم تضيق بهم كما تضيق الأرض، ويستحيل الضيق المعنوي في هذا التصوير ضيقاً حسيّاً أوضح وأوقع، وتجنّس حالة هؤلاء الذين تخلفوا عن الغزو مع الرسول، فأحسّوا بهذا الضيق الخانق، وندموا على تخلفهم ذلك الندم المخرج، حتى لا يجدون لهم ملجأً ولا مفرّاً، ولا يطيقون راحةً إلى أن قبل الله توبتهم^(٤).

ومثله: «وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَازِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ»^(٥) فالقلوب كأنّها تفارق مواضعها وتبلغ الحناجر حقاً من شدة الضيق.

ومنه: «فَقُلُوا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينُذٍ تَنْظُرُونَ»^(٦) كأنّها الروح شيء مجسّم، يبلغ الخلقوم في حركة محسوسة.

ومنه: «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ

(١) البقرة: ٢٠٨.

(٢) الأنعام: ١٢٠.

(٣) التوبة: ١١٨.

(٤) الثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع.

(٥) غافر: ١٨.

(٦) الواقعة: ٨٣ و٨٤.

صُدُّورُهُمْ أَنْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ» ^(١) أي ضاقت صدورهم من الحيرة والخرج بين أن يقاتلوكم انتصاراً لقومهم، أو يقاتلوا قومهم انتصاراً لكم.

* ويصف حالة عقلية أو معنوية، وهي حالة عدم الاستفادة مما يسمعه بعضهم من الهدى، وكأنهم لم يسمعوا به، أو يتصلوا اتصالاً ما، فيجعل كأننا هناك حواجز مادية تفصل بينهم وبينه، مثل: «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ» ^(٢). أو «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ^(٣) أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا» ^(٤). أو «أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» ^(٥). أو «إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ» ^(٦). أو «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً» ^(٧). أو «الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي» ^(٨).

وكلها تجسم هذه الحواجز المعنوية، كأننا هي موانع حسية، لأنها في هذه الصورة أوقع وأظهر.

وقد يكون الوصف حسيّاً بطبيعته، فيختار عن الوصف هيئة تجسمه، كقوله: «يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» ^(٩) في مكان يأتيهم من كل جانب، أو يحيط بهم. لأنَّ هيئة الغشيان من فوق ومن تحت أدخل في الحسية من الوصف بالإحاطة. ومثله «إِذْ جَاءُواكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ

(٦) يس: ٨ و ٩.

(١) النساء: ٩٠.

(٧) البقرة: ٧.

(٢) الشعراء: ٢١٢.

(٨) الكهف: ١٠١.

(٣) أغطية. والوقر: الصم وأصله الثقل.

(٩) العنكبوت: ٥٥.

(٤) الأنعام: ٢٥.

(٥) محمد: ٢٤.

أَسْفَلَ مِنْكُمْ»^(١) و«وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ»^(٢).

ومن هذا النوع: «كَأَنَّمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا»^(٣) فهذا السواد الذي أصاب وجوههم ليس لوناً ولا صبغة، وإنما هو قطعة من الليل المظلم غشت وجوههم.

ومن «التجسيم» وصف المعنوي بمحسوس، كوصف العذاب بأنه غليظ «وَمَنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ»^(٤) واليوم بأنه ثقیل: «وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا»^(٥).

فيتنقل العذاب من معنى مجرد إلى شيء ذي غلظ وسمك. وينتقل اليوم من زمن لا يمتسك إلى شيء ذي كثافة ووزن.

وضرب الأمثلة على المعنوي بمحسوس، كقوله: «مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ»^(٦) لبيان أنّ القلب الانساني لا يتسع لتجاهين. ومثل: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضْتُ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا»^(٧) لبيان العبث في نقض العهد بعد المعاهدة. ومثل: «وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا»^(٨) لتفطيع الغيبة، حتّى لكأنما يأكل الأخ لحم أخيه الميت. وقد مرّ الكلام عن وجه هذا التشبيه.

ثم لما كان هذا التجسيم خطة عامة، صور الحساب في الآخرة كما لو كان وزناً مجسماً للحسنات والسيئات: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٩).

(٦) الأحزاب: ٤.

(١) الأحزاب: ١٠.

(٧) طاقات حلّ فتلها. سورة النحل: ٩٢.

(٢) المائدة: ٦٦.

(٨) الحجرات: ١٢.

(٣) يونس: ٢٧.

(٩) الأنبياء: ٤٧.

(٤) إبراهيم: ١٧.

(٥) الإنسان: ٢٧.

«فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ... وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ»^(١). «وَأِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا»^(٢). «وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا»^(٣). «وَلَا يَظْلَمُونَ نَقِيرًا»^(٤). وكل ذلك تمثيلاً مع تجسيم الميزان.

وكثيراً ما يجتمع التخيل والتجسيم في المثال الواحد في القرآن، فيصوّر المعنوي المجرد جسماً محسوساً، ويخيّل حركة لهذا الجسم أو حوله من إشعاع التعبير. وفي الأمثلة السابقة نماذج من هذا، وإليك أمثلة جديدة، وفي القرآن وفرة منها:

* من ذلك: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ»^(٥) «وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ»^(٦) «وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٧). «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ»^(٨). «وَأَخْفَضَ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ»^(٩).

فكأنها الحقّ قذيفة خاطفة تصيب الباطل فتزهقه. وكأنما الرعب قذيفة سريعة تنفذ في القلوب لفورها. وكأنما العداوة والبغضاء مادة ثقيلة، تلقى بينهم، فتبقى إلى يوم القيامة. وكأنما السكينة مادة مثبته تنزل على رسول الله وعلى المؤمنين. وكأنما للذلّ جناح يخفض من الرحمة بالوالدين.

وفي كل مثال من هذه يجتمع التجسيم - بإحالة المعنى جسماً - مع التخيل بحركة هذا الجسم المفروضة.

(١) الأحراب: ٢٦.

(١) القارعة: ٨.

(٢) المائدة: ٦٤.

(٢) الأنبياء: ٤٧.

(٣) التوبة: ٢٦.

(٣) الإسراء: ٧١.

(٤) الإسراء: ٢٤.

(٤) النساء: ١٢٤.

(٥) الأنبياء: ١٨.

* ومن ذلك: «بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ»^(١) و«أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا»^(٢) فبعد أن تصبح الخطيئة شيئاً مادياً تتحرك حركة الإحاطة. وبعد أن تصبح الفتنة لجةً يتحركون هم بالسقوط فيها.

* ومنه: «وَلَا تُلْسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ»^(٣). «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ»^(٤). ففي المثال الأول يصبح الحقّ والباطل مادّتين تسترّاحدهما بالأخرى. وفي المثال الثاني يصبح ما أمر به مادة يشقّ بها ويصدع، دلالة على القوة والنفاذ.

* ومنه: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ»^(٥). «فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا»^(٦). ففي المثال الأول يستحيل الهدى والضلال نوراً وظلمة، ثم تبدأ عملية الإخراج المتخيلة. وفي المثال الثاني يصبح الايمان عروة، ثم تبدأ الحركة المتخيلة في الاستمساك بها. فتؤدّي هذه الصور المجسّمة المتحركة إلى تمثّل أوضح وأرسخ للمعنى الخيالي المجرد.

بهذه الطريقة المفضّلة في التعبير عن المعاني المجردة سار الأسلوب القرآني في أخصّ شأن يوجب فيه التجريد المطلق والتنزيه الكامل، فقال: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ»^(٧). «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»^(٨). «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ»^(٩). «ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ»^(١٠). «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ»^(١١). «وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٌ

(١) البقرة: ٨١. (٧) الفتح: ١٠.

(٢) التوبة: ٤٩. (٨) هود: ٧.

(٣) البقرة: ٤٢. (٩) البقرة: ٢٥٥.

(٤) الحجر: ٩٤. (١٠) الأعراف: ٥٤.

(٥) البقرة: ٢٥٧. (١١) فصلت: ١١.

(٦) البقرة: ٢٥٦.

بِيَمِينِهِ»^(١). «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى»^(٢). «وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ»^(٣). «وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا»^(٤). «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ»^(٥). «إِنِّي مُتَوَقِّعٌ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ»^(٦)... الخ.

وثار ماثار من الجدل حول هذه التعابير التي بظاهرها متشابهة، وذلك حينما أصبح الجدل حول مسائل التوحيد وأصول الشريعة صناعة، والكلام حول هكذا مسائل زينة، على ما أسلفنا الكلام حول التشابهات في القرآن... وإن هي إلا جارية على نسق متبع في التعبير ومتعارف في المحاورة، وهي ترمي إلى توضيح المعاني المجردة وتبسيطها، وتجري على سنن مطرد من أنواع التشبيه والاستعارة والكناية أو مجاز الحذف، ونحو ذلك مما اصطلاح أهل البيان على هذه التسميات^(٧)، وما هي إلا تعابير عن واقع العرف والاستعمال الدارج، لا تختلف فيه ولا عوج، وقد اتخذ القرآن - كغيره - وسيلة للتعبير عن مقاصده ومراميه، وهو سنن التخيل الحسي في كل عمل من أعمال التصوير.

ولكن اتباع هذه السنن في هذا الموضع بالذات، واسلوبه الخاص في اتباع هذه الطريقة المتعارفة. **فإن الله على أن هذه الطريقة في القرآن أساسية** وهي أدواته المفضلة في فن التصوير. كما أن التصوير هي القاعدة الأولى في التعبير، على ما عرفت. **للدلالة**

(١) الزمر: ٦٧.

(٢) الأنفال: ١٧.

(٣) البقرة: ٢٤٥.

(٤) الفجر: ٢٢.

(٥) المائدة: ٦٤.

(٦) آل عمران: ٥٥.

(٧) وسنوافيك تفصيلها.

٨- جودة استعارته وروعة تخيله

قد أكثر القرآن من أنواع الاستعارة وأجاد في فنونها^(١) وكان لابد منه وهو أخذ في توسع المعاني توسع الآفاق، في حين تضايق الألفاظ عن الإيفاء بمقاصد القرآن، لوقّدت بمعانيها الموضوعة لها المحدودة النطاق.

جاء القرآن بمعانٍ جديدة على العرب، لم تكن تعهدها، ولا وضعت ألفاظها إلا لمعانٍ قريبة، حسب حاجاتها في الحياة البسيطة البدائية القصيرة المدى. أمّا التعرّض لشؤون الحياة العليا المترامية الأبعاد فكان غريباً على العرب الأوائل المتوغّلة في الجاهلية الأولى.

ومن ثم لجأ القرآن في إفادة معانيه والإشادة بمبانيه إلى أحضان الاستعارة والكناية والمجاز، ذوات النطاق الواسع، حسب إبداع المتكلّم في تصرفه بها، وقدرته على الإحاطة عليها في تصريف المباني والإفادة بما يرومه من المعاني. وقد أبدع القرآن في الاستفادة بها وتصريفها حيثما شاء من المقاصد والأهداف، ولم يعهد له نظير في مثل هذه القدرة على مثل هذا التصرف الواسع الأكناف، الأمر الذي أبهروا وأعجب وأقى بالإعجاز.

(١) وقد كان الفصل السابق معرضاً خصباً لأنواع الاستعارة وفنونها، حيث الكلام عن فنون التشبيه وأنواعه. والاستعارة بأشكالها نوع من التشبيه ومتوقفة عليه.

وإليك إلمامة بجوانب من هذه الظاهرة القرآنية:

تعريف الاستعارة:

قال عبد القاهر: الاستعارة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً، وتدلّ الشواهد على اختصاصه به، فيكون استعماله في غيره نقلاً إليه نقلاً غير لازم، فيشبه أن تكون عارية^(١).

وقال السكاكي: هو أن تنوي التشبيه، ولا تصرّح به، فتذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الآخر، مدّعيّاً دخول المشبّه في جنس المشبّه به، بدلالة ما تذكر له من خصائص المشبّه به. فلوقلت: في الدار أسد، وأنت تريد به إنساناً شجاعاً، كأنك أدعيت أنه من جنس الأسود فأثبتت له خاصية من خصائص الأسد وهي الشجاعة. وهذا فيما ذكر المشبّه به وأريد المشبّه. وأمّا العكس فكقولك: انشبت المنية أظفارها بفلان، وأنت تريد بالمنية السبع، فقد شبّهتها به وأفردتها بالذكر، وادعيت لها السبعية وإنكار أن تكون شيئاً غير السبع، ومن ثمّ أثبت لها الأظفار وهي من خصائص السبع^(٢).

وعليه فالاستعارة - بأنواعها الكثيرة - مبتنية على التشبيه، لكن مضمراً في النفس غير مصرّح به، سوى أنك تذكر أحد طرفي التشبيه مقتصرّاً عليه، وإنما تردفه بخصوصية من خصوصيات طرفه الآخر المطوي ذكره، دليلاً على التشبيه.

فالاستعارة نوع من المجاز كانت علاقتها المجوّزة هي المشابهة، وتفقّ عليه بما فيها من المبالغة وكونها الحقيقة الادّعائية، على ما فرضه السكاكي. وكذلك

(١) أسرار البلاغة: ص ٢٢.

(٢) مفتاح العلوم: ص ١٧٤.

يفوق التشبيه في جعل المشبه من جنس المشبه به، وذلك بترك التصريح بالتشبيه، فيوهم كونه أحد أفرادهِ ومتساوياً معه في كمال الصفة، دون التشبيه المستدعي كون المشبه به أتم وأكمل.

ثم إن ذكر المشبه وترك المشبه به فهو من الاستعارة التخيلية، وهو من أبداع أنواعها. وإن كان العكس فهي المتعارفة، وتنقسم إلى تجريدية وترشيحية، على ما يأتي من ذكر الأقسام.

وليعلم أن الاستعارة - على ما ذهب إليه السكاكي وهو المختار - من المجاز العقلي، وليس مجازاً في الكلمة، وذلك لأنه تصرف في أمر عقلي، على ما سبق في تعريفه لها، أنه من التوسع في مفهوم المشبه به وزعم دخول المشبه في جنسه. فليس من استعمال لفظة في غير موضعها^(١) فهي حقيقة ادعائية، وهو من لطيف التصرف في معاني الكلام، ويؤيده قولهم: في الاستعارة مبالغة ليست في غيرها من أنواع التشبيه.

وفرة الاستعارة في القرآن:

تقدم أن التوفر من الاستعارة في القرآن كان أمراً لا بد منه، بعد تضايق الألفاظ الموضوعية عن إمكان الإيفاء بمقاصده العلية، والإفادة بجل مطالبه الرفيعة. لكن رأي ابن الأثير في ذلك يختلف عن رأي ابن رشيق. بينما الأول يرى قلة الاستعارة في القرآن، بل وفي سائر الكلام من فصيح الخطب والأشعار، نظراً منه إلى أن طي المستعار له لا يتيسر في كل كلام، على خلاف التشبيه الذي هو كثير وسهل...^(٢) إذاً بابن رشيق يعاكسه في الرأي، ويرى

(١) التفتازاني في المطول: باب الحقيقة والمجاز ص ٣٥٤.

(٢) المثل السائر: ج ٢ ص ٩٧.

أنَّ الاستعارة في القرآن كثيرة ومتوفرة، ومما يزيد في جماله وهائه. والسبب في هذا الاختلاف يرجع إلى مازعمه ابن الأثير، من كون «التوسّع في الكلام» - الذي هو نوع من الاستعارة - مجازاً مرسلأ وليس استعارة! والتوسّع، اصطلاح منه، يطلقه على مايسمونه «الترشيح» وهو نوع من الاستعارة المبتنية على تناسي التشبيه، وهو من أبلغ أنواعها، واعترف هو بأنه كثير في القرآن.

منها قوله تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ»^(١). زعم أنه توسّع في الكلام مجازاً مرسلأ، لأنه نسب القول إلى السماء والأرض^(٢) في حين أنه تشبيه مطوي، شبه السماء والأرض بمن يعقل وينطق، فلذلك نسب إليهما القول. وهو من سمات «العاقل الناطق» المشبه به.

قال الزمخشري: وهو من المجاز الذي يسمّى التمثيل، ويجوز أن يكون تخيلاً، وبنى الأمر فيه على أنه تعالى كلّم السماء والأرض، والغرض تصوير أثر قدرته تعالى في المقدورات لا غير^(٣).

والتمثيل ضربٌ من الاستعارة المصرّح بها، وهو من تشبيه مركّب بمركّب، مطويّ ذكر المشبه. والتخييل من الاستعارة، المكتئى عنها الملازمة للترشيح... وسيأتي شرح هذه المصطلحات.

* * *

وسبب آخر أقوى ذهب بههم ابن الأثير لينكر وفرة الاستعارة في القرآن، وهو أنه خلط بين «التشبيه المضمّر في النفس» و«التشبيه المضمّر الأداة». في

(١) فصلت: ١١.

(٢) المثل السائر: ج ٢ ص ٨١.

(٣) الكشف: ج ٤ ص ١٨٩.

حين أن الأول هو أساس الاستعارة بجميع أقسامها، تخيلاً وترشياً وغيرهما -حسباً يأتي- وأما الثاني فهو من التشبيه الصريح، كما لا يخفى، وهذا من أكبر خطائهم في هذا الباب.

واليك بعض كلامه بهذا الشأن، قال:
 والتشبيه ينقسم قسمين: مظهراً ومضمراً. وفي المضمرة إشكال تقدير أداة التشبيه فيه في بعض المواضع، وهو ينقسم أقساماً خمسة:
 فالأول: يقع موقع المبتدأ والخبر مفردين، كقولنا: زيد أسد. والتقدير: كأسد.

والثاني: يقع موقع المبتدأ والخبر، والخبر جملة مركبة من مضاف ومضاف إليه، كقول النبي (صلى الله عليه وآله): «الكأمة جُدري الأرض» أي الكأمة كالجُدري للأرض.

والثالث: أن يقعاً جملتين، كقوله (صلى الله عليه وآله): «وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائِدُ ألسنتهم» كأنه قال: كلام الألسنة كحصائد المناجل.

قال: وهذا القسم لا يكون المشبه به مذكوراً، بل تذكر صفته، ألا ترى أن المنجل لم يذكرها هنا، وإنما ذكرت صفته وهي الحصد.

قلت: من هاهنا ذهب وهمه إلى غير وجهه، لأن هذا من التشبيه المضمرة في النفس، شبهت الألسنة الحداد بمنجل الحصاد تشبيهاً مضمراً في النفس، ثم ذكرت إحدى صفات المشبه به، وهو الحصد، مضافة إلى الألسنة، دليلاً على ذلك التشبيه. وهو من الاستعارة التخيلية (المكتنى عنها) -في مصطلحهم- وكان ذكر صفة الحصاد ترشياً، لأنه قرّن مع المشبه ما يلائم المشبه به.

أو أنه (صلى الله عليه وآله) شبه فضول الكلام بحصائد يحصدها الزارع بمنجله، فيكون ذلك مبلغ انتفاعه في النهاية إن شراً حصد أو خيراً. وهذا من

الاستعارة المصرّح بها (لأنّه ذكر المشبّه به وطوى ذكر المشبّه) ثم قرنه بما يلائم المشبّه، وهو اللسان، فكان تجريداً أيضاً.

وعلى آية حال فهذا من بليغ الكلام وبيدعه، إمّا استعارة تخيلية وترشيح، أو مصرّح بها وتجريد. وليس من التشبيه المضمّر الأداة، كما زعمه ابن الأثير.

قال: والرابع: يرد على وجه الفعل والفاعل، كما في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ»^(١).

قال: وتقدير أداة التشبيه في هذا الموضع أن يقال: هم في إيمانهم كالمتبوّئي داراً، أي أنهم قد اتخذوا الإيمان مسكناً يسكنونه، يصف بذلك تمكّنهم منه. قال: وهذا القسم الرابع والقسم الخامس الآتي هما أشكل الأقسام في تقدير أداة التشبيه، فإنّهما لا يتفطن لهما أنّها تشبيه.

لكنّ الآية - على خلاف مازعمه - استعارة ومن ألطف أنواعها بأن جعل الايمان بالله من أأمن المواطن يأوي إليه المؤمن بسلام.

قال الشريف الرضي: وهذه الآية استعارة، لأنّ تبوّء الدار هو استيطانها والتمكّن فيها، ولا يصحّ حمل ذلك على حقيقته في الإيمان، فلا بدّ إذن من حمله على المجاز والاتّساع، فيكون المعنى أنّهم استقرّوا في الإيمان كاستقرارهم في الأوطان. وهذا من صميم البلاغة ولباب الفصاحة، وقد زاد اللفظ المستعار هاهنا معنى الكلام رونقاً، ألا ترى كم بين قولنا: استقرّوا في الإيمان، وبين قولنا: تبوّأوا الإيمان. وأنا أقول أبداً: إنّ الألفاظ خدم للمعاني لأنها تعمل في تحسين معارضها وتنميق مطالعها^(٢).

(١) الحشر: ٩.

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ص ٢٤٤.

وقال الزمخشري: أي وجعلوا الإيمان مستقراً ومتوطناً لتمكّنهم منه واستقامتهم عليه، كما جعلوا المدينة كذلك^(١).

وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس، وقد طوى ذكر المشبه به، فكانت استعارة بالكناية، وكان ذكر التبوّء ترشيحاً. وفضل «التبوّء» على «الاستقرار» هي إفادة كمال السعي في طلب البيئة، فضلاً عن رنة جرسه في هذا الموضع بالذات.

واحتمل ابن أبي الاصبع كون الآية من الاختصار في الایجاز، ليكون التقدير: «تبوّأوا الدار وأخلصوا الإيمان» كما قال الشاعر: علفتها تبنّاً وماءً بارداً. أي: وسقيتها ماءً^(٢).

قال: والخامس: يرد على وجه المثل المضروب، كقول الفرزدق يهجو جريراً:

ماضراً تغلب وائل أهجوتها أم بليت حيث تناطح البحران
فإنه شبه هجاء جرير لبني تغلب ببوله في مجمع البحرين، فكما أنّ البول في مجمع البحرين لا يؤثر شيئاً، فكذلك هجاءه لهؤلاء القوم. وهذا البيت من الأبيات التي أقرّها الناس بالحسن.

قال: وهذا الموضع يشكل على كثير من علماء البيان، ويخلطونه بالاستعارة. على ما جاء في قول البحتري في التعزية بولد:

تعزّ فإنّ السيف يمضي وإن وهت حائله عنه وخلاه قائمه
زعم أنّ هذا ليس من التشبيه، وأنما هو استعارة، لأنّ المستعار له مطوّي

(١) الكشف: ج ٤ ص ٥٠٤.

(٢) بدیع القرآن: ص ١٨٢.

الذكر، وهو المعزى، لأنه قال: تعرّفانك كالسيف الذي يمضي وإن وهت حمائله وخلاه قائمة^(١).

وقد تقدّم أن التمثيل ضرب من الاستعارة، وهو من تشبيه مركّب بمركّب مطوّي ذكر المشبّه. نظير قولهم: «أراك تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى» يضرب مثلاً لمن يتردّد في أمر يقدر فيه أو يمسك، فقد شبّهت حالة تردّده بمن قدّم رجلاً وأخّر أخرى، فهي استعارة، لأنّ المشبّه مطوّي الذكر.

* * *

وأما ابن رشيق فيرى كثرة الاستعارة في القرآن بأنواعها، ممّا يزيد رونقاً وجمالاً، لا يوجد في غيره. منها قوله تعالى: «إِنَّمَا طَغَى الْمَاءُ حَمَلَتَنَا كُمْ فِي الْجَارِيَةِ»^(٢) فإنّها إمّا استعارة تبعية في قوله «طغى»، استعير الطغيان، وهو الخروج عن حدّ الاعتدال، لفورة الماء وثورته. أو ترشيح، باعتبار تشبيه الماء الفائز الذي يسطو على كلّ شيء، بعاصٍ متمردٍ عاتٍ لا يلوى على شيء، وقد أضمر هذا التشبيه، وطوى ذكر المشبّه به، فكان ذكر الطغيان ترشيحاً، لأنّه من خواصّ المشبّه به.

وكذا قوله تعالى: «وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ»^(٣) شبّهت ثورة غضب موسى (عليه السّلام) بغوغاء إنسان وضوضائه. فكان هدوؤه سكوتاً. أي فلما هدأت ثورة غضبه (عليه السّلام) وهذا من الاستعارة المكتنى عنها مع الترشيح. وقوله تعالى: «سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ. تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ»^(٤) فقد شبّه هيب جهنم بثورة إنسان غائظ. قال الزّمخشرى: تشبيهاً لحسيسها المنكر

(١) المثل السائر: ج ٢ ص ١١٦ - ١٢١.

(٢) الحاقة: ١١.

(٣) الاعراف: ١٥٤.

(٤) الملك: ٧ - ٨.

الفظيع بالشهيق. وهي تفور، تغلى بهم غليان الرجل بما حواه. وجعلت كالمغتاطة عليهم لشدة غليانها. يقال: فلان يتميز غيظاً ويتقصف غضباً^(١) أي يتقطع فتطير منه شقة إلى الأرض وشقة إلى السماء. وهذا غاية في وصف الغضب بالإفراط^(٢).

وقوله تعالى: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»^(٣). شَبَّهَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ بِأَهْلِ التَّمْيِزِ وَالْعَقْلِ، بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهَا بِالْخُطَابِ، وَالتَّوْجِيهِ إِلَيْهَا بِالْأَمْرِ وَالتَّكْلِيفِ. وَاسْتَعِيرَ غُورَ الْمَاءِ بِالْإِبْتِلَاعِ، كَأَنَّ الْأَرْضَ تَبْتَلَعُ مَاءَهَا، وَالسَّمَاءُ تَقْتَلَعُ أَدْرَارَهَا. وَالبَّعُّ عِبَارَةٌ عَنِ النِّشْفِ، وَالْإِقْلَاعُ: الْإِمْسَاكُ.

قال الزمخشري: نداء الأرض والسماء بما ينادى به العاقل المميز على لفظ التخصيص، والإقبال عليها بالخطاب من بين سائر المخلوقات، ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التميز والعقل، من الدلالة على الاقتدار العظيم، وأن السماء والأرض وما بينهما من الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء، غير ممتنعة عليه. كأنها عقلاء مميزون، قد عرفوا عظمتهم وجلالته وقدرته، وتبينوا تحتم طاعته، فهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له، والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث، فكما يرد عليهم أمره، كان المأمور به مفعولاً، لاجس فيه ولا إبطاء.

ومجيء إخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء،

(١) التقصيف: صوت الرعد.

(٢) العمد: ج ١ ص ٢٧٥ باب ٣٧.

(٣) هود: ٤٤.

وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر وتكوين قاهر، وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره: يا أرض ابلي وبإسماء أقلعي. ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره، ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره.

ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية، ورّقصوا لها رؤوسهم، لالتجانس الكلمتين «ابلي» و«أقلعي». وذلك وإن كان من محاسن الكلام، لكنه كغير الملتفت إليه بإزاء سائر المحاسن التي هي اللب وماعداها قشور^(١).

الاستعارة أفضل أنواع المجاز:

قال ابن رشيق: الاستعارة هي أفضل أنواع المجاز وأول أبواب البديع، وليس في حلّ الشعر أعجب منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها^(٢).

وهي من التوسّع في الكلام والتفتّن فيه، مفيضاً عليه ملامح الإدلال والاستدلال، بمافيه من التشبيه والتخييل وروعة التمثيل.

وفي الاستعارة نوع من المبالغة القريبة فيها أناقة ولطف، يقرب المعنى وتوضحه بمافيه من التشبيه والتمثيل، وتكسوه جمالاً وروعة بمافيه من التصوير والتخييل. فكان الاستعارة في الكلام أناقة في التصوير، وإجادة في التعبير.

وقد حصر الشيخ عبدالقاهر الجرجاني أسرار البلاغة ودلائل إعجاز البيان في فنون التشبيه والتمثيل وأنواع الاستعارة^(٣).

(١) تفسير الكشف: ج ٢ ص ٣٩٨.

(٢) العمدة: ج ١ ص ٢٦٨ باب ٣٧.

(٣) فقد وضع كتابه «أسرار البلاغة» في ضروب التشبيه وأنواع الاستعارات فحسب.

قال: قد أجمع الجميع على أنَّ الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأنَّ للاستعارة مزية وفضلاً، وأنَّ المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة. قال: وأمَّا الاستعارة فسبب ماترى لها من المزية والفضامة أنك إذا قلت: رأيت أسداً، كنت قد تلطفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة، حتى جعلتها كالشيء الذي يجب له الثبوت والحصول، وكالأمر الذي نصب له دليل يقطع بوجوده. وذلك أنه إذا كان أسداً فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة، وكالمستحيل أو الممتنع أن يعزى عنها. وإذا صرحت بالتشبيه فقلت: رأيت رجلاً كالأسد كنت قد أثبتتها إثبات الشيء يترجح بين أن يكون وبين أن لا يكون، ولم يكن من حديث الوجوب في شيء.

قال: وحكم التمثيل والاستعارة سواء، فإنك إذا قلت: أراك تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى، فأوجبت له الصورة التي يقطع معها بالتحير والتردد، كان أبلغ للاحالة من أن تجري على الظاهر، فتقول: قد جعلت تتردد في أمرك. فأنت كمن يقول: اخرج ولا أخرج، فيقدّم رجلاً ويؤخر أخرى^(١).

* * *

قال جلال الدين السيوطي: التشبيه من أعلى أنواع البلاغة وأشرفها. واتفق البلغاء على أنَّ الاستعارة أبلغ منه، لأنَّ الاستعارة مجاز والتشبيه حقيقة، والمجاز أبلغ. فإذاً الاستعارة أعلى مراتب الفصاحة. وكذا الكناية أبلغ من التصريح، والاستعارة أبلغ من الكناية، لأنها كالجامعة بين كناية واستعارة.

وأبلغ أنواع الاستعارة، التمثيلية، كما يؤخذ من الكشاف. ويليها المكنية، صرح به الطيبي، لاشتغالها على المجاز العقلي. والترشيحية أبلغ من المجردة

(١) دلائل الإعجاز: ص ٤٨ و ٥٠.

والمطلقة. والتخيلية أبلغ من التحقيقية.

والمراد بالأبلغة إفادة زيادة تأكيد ومبالغة في كمال التشبيه^(١).

قلت: وجماع السرّ في فخامة الاستعارة ابتناؤها على التشبيه المطوي، ففيها من كمال التشبيه أوفاهها، مع زيادة: تناسي التشبيه، فكأنه الحقيقة بعينها، ولا سيّما المرشحة، على ما يأتي. وهذا من المبالغة في التشبيه ما لا يكاد يخفى لطفها ودقّتها وظرافة حسنها وجمالها البديع، إن وقعت موقعها، كما شرطه ابن رشيق^(٢).

وسنزيدك بياناً عند ذكر أنواعها، وما لكلّ نوع من فضيلة وشرف.

الاستعارة المفيدة:

نوع عبدالقاهر الاستعارة إلى ما فيه فائدة وما لافائدة فيه. وعنى بغير المفيدة: ما لا يكون الغرض منه سوى التنوّق في التعبير والتوسّع في الأداء. وهذا بأن ينقص من قدر الكلام أشبه من أن يزيده حسناً، ومن ثمّ يقبح استعماله على الأديب الأريب.

قال: وموضع هذا الذي لا يفيد نقله، حيث يكون اختصاص بما وضع له من طريق أريد به التوسّع في أوضاع اللغة والتنوّق في مزاعة دقائق من الفروق في المعاني المدلول عليها، كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان، نحو: وضع الشفة للإنسان، والمشفر للبعير، والجحفلة للفرس. وما شاكل ذلك من فروق ربما وجدت في غير لغة العرب أيضاً.

فإذا استعمل الشاعر شيئاً منها في غير الجنس الذي وضع له فقد استعاره

(١) معترك الاقراّن: ج ١ ص ٢٨٤.

(٢) تقدم كلامه. العملة: ج ١ ص ٢٦٨.

منه ونقله عن أصله وجازبه موضعه. وبذلك قد فاتته لطف الخصوصية الملحوظة عند الوضع.

كقول العجاج: «وفاحماً ومرسناً مسرجاً»^(١) أراد بالمرسن أنف الممدوح، وهو في الأصل اسم لأنف الحيوان، لأنه موضع الرسن. لكنّه تغافل عن هذه الخصوصية المناسبة لأصل الوضع، وتوهمه اسماً لمطلق الأنف المشترك، واستعاره لأنف الممدوح، تنوّحاً وتوسّعاً في الكلام. ولا يخفى مدى ابتعاد هذه الاستعارة عن الظرافة واللفظ، إن لم تكن قريبة من الوهن والقباحة.

وقال آخر، يصف إبلاً:

تسمع للماء كصوت المسحل بين وريدها وبين الجحفل^(٢)
فاستعار الجحفل لشقّة البعير، وهو موضوع لشقّة الفرس من غير فائدة لذلك.

وقال آخر: والحشو^(٣) من حقانها كالحنظل فأجرى الحقان على صغار الابل، وهو موضوع لصغار النعام.

وقال آخر:

فبتنا جلوساً لدى مهرنا ننزع من شفّتيه الصفارا^(٤)
فاستعمل الشفة في الفرس، وهي موضوعة للانسان.

فهذا النوع من الاستعارة لا يفيد شيئاً سوى استعمال لفظة مكان أخرى تفتناً في العبارة، من قبيل الألفاظ المترادفة، في حين عدم الترادف. بل الاستعارة هاهنا بأن تنقص الكلام جزء من الفائدة أشبه. لأن معنى الاستعارة

(١) صدره: «ومقلّة وحاجباً مزججاً». المقلّة: العين. والمزجج: المدقّق المطوّل.

(٢) المسحل: آلة السحل أي النحت كالنمبرد.

(٣) الحشو: صغار الابل.

(٤) الصفار: القراد. وما بقي في أصول أسنان الدابة من تبن ونحوه.

نفي الاشتراك ، وهو يناقض نفي الخصوصية عند النقل. إذ مع ملاحظة الخصوصية في المستعار منه لا يصح نقله إلى المستعار له، فلولا تَلَحُّظ الخصوصية ونَفَيْتِهَا تصحيحاً للنقل أصبح اللفظ مشتركاً بين الموضعين، ولا استعارة في المشتركات^(١).

* * *

وجعل ابن الأثير التوسع في الكلام على ضربين:
أحدهما: يرد على وجه الإضافة، فيما لا تناسب بين المضاف والمضاف إليه، واستعماله قبيح، لأنه يلتحق بالتشبيه المضمّر الأداة، وإذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين المشبّه والمشبّه به كان ذلك قبيحاً. ولا يستعمل هذا الضرب من التوسع إلا جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة أو ساهٍ غافلٌ يذهب به خاطره إلى استعمال ما لا يجوز ولا يحسن، كقول أبي نؤاس:

بَحَّ صوت المال ممّا منك يشكو ويصيح
فقلوه: «بَحَّ صوت المال» من الكلام النازل بالمرّة. ومراده من ذلك أنّ المال يتظلم من إهانتك إياه بالتمزيق (التفريق)، فالمعنى حسن، والتعبير عنه قبيح:
وقوله أيضاً:

ما لرجل المال أمست تشكي منك الكلالا؟
فإضافة الرجل إلى المال أقبح من إضافة الصوت.
ومن هذا الضرب قول أبي تمام:
وكم أحرزت منكم على قبح قدها صروف النوى من مرهف حسن القدّ^(٢)

(١) راجع أسرار البلاغة: ص ٢٣.

(٢) المرهف: الدقيق الحسن الهندام. والقدّ: القوام. ويروى: صروف الردى، وهو بمعناه.

فإضافة القَدِّ إلى النوى من التشبيه البعيد البعيد. وإنما أوقعه فيه المماثلة بين القَدِّ والقَدِّ.

وكذلك ورد قوله:

بلوناك أما كعبُ عرضك في العلا فَعَال، وأما خذُ مالك أسفل
فقوله: «كعبُ عرضك» و «خذُ مالك» ممّا يستقبح ويستنكر. ومراده
أنَّ عرضك مصون ومالك مبتذل، إلّا أنه عبّر عنه أقبح تعبير.

وأما الضرب الآخر من التوسّع، فإنّه يرد على غير وجه الإضافة، وهو حَسَنٌ
لا عيب فيه. وهو سبب صالح، إذ التوسّع في الكلام أمرٌ مطلوب.
وقد ورد في القرآن الكريم، كقوله تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ
دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ»^(١).
فنسبة القول إلى السماء والأرض من باب التوسّع، لأنّها جماد، والنطق إنّما
هو للانسان لا للجماد، ولا مشاركة هاهنا بين المنقول والمنقول إليه.
وكذلك قوله تعالى: «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا
مُنْظَرِينَ»^{(٢)(٣)}.

قال عبدالقاهر: وأما المفيد من الاستعارة فهو الذي يترتب عليه فائدة
وغرض من الأغراض لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل، وذلك الغرض هو
التشبيه على أنحائه الكثيرة. ومثاله: قولنا: رأيت أسداً، وأنت تعني رجلاً
شجاعاً. وبحراً، تريد رجلاً جواداً. وبدراً، تريد إنساناً مضياً الوجه مهلاًلاً.

(١) فصلت: ١١.

(٢) الدخان: ٢٩.

(٣) المثل السائر: ج ٢ ص ٧٩ - ٨١.

وتقول: سللت سيفاً على العدو، تريد رجلاً ماضياً في نصرتك، أو رأياً نافذاً. وما شاكل ذلك، فقد استعرت اسم الأسد للرجل، ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة وإيقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه وشدته، وسائر المعاني المركوزة في طبيعته، ممّا يعود إلى الجرأة والبسالة، وهكذا في غيره من الأمثلة.

قال: والاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب دون الأول، وهي أمد ميداناً، وأشدّ افتناناً، وأكثر جريئاً، وأعجب حسناً وإحساناً، وأوسع سعة، وأبعد غوراً، وأذهب نجداً في الصناعة وغوراً، من أن تجمع شعبها وشعوبها، وتحصر فنونها وضروبها. نعم وأسحر سحراً، وأملأ بكلّ ما يملأ صدرأ، ويمتّع عقلاً، ويؤنس نفساً، ويوفر أنساً، وأهدى إلى أن تهدي إليك عذارى قد تُخَيّر لها الجمال، وغني بها الكمال.

ومن الفضيلة الجامعة فيها: أنها تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً، وتوجب له بعد الفضل فضلاً. وأنتك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد، حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كلّ واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، وخلاصة موموقة^(١).

ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها: أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدّة من الدرر، وتجنّي من الغصن الواحد أنواعاً من الثمر.

وإذا تأملت أقسام الصنعة التي بها يكون الكلام في حدّ البلاغة، ومعها يستحقّ وصف البراعة، وجدتها تفتقر إلى أن تعيرها حلاها^(٢) وتقتصر عن أن

(١) الخلاصة: الجذب بلطائف الكلام. الوق: التودّد.

(٢) أي حلي الاستعارة، وهكذا سائر الضمائر في الجمل التالية.

تنازعها مداها. وصادفتها^(١) نجوماً هي بدرها، وروضاً هي زهرها، وعرائس ما لم تعرّها حليها فهي عواطل، وكواعب ما لم تحسّنها فليس لها في الحسن حظ كامل. فانك لترى بها الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبيّنة، والمعاني الخفية بادية جلية!

وإذا نظرت في أمر المقاييس وجدتها ولا ناصر لها أعزّ منها، ولا رونق لها ما لم تزنها، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تكنها^(٢). إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل، كأنها قد جسّمت حتى رأتها العيون. وإن شئت لطفّت الأوصاف الجسمانية، حتى تعود روحانية لا تنالها إلّا الظنون.

وهذه إشارات وتلويحات في بدائعها، وإنّما ينجلي الغرض منها ويبين اذا تكلم على التفصيل وأفرد كل فنّ بالتمثيل^(٣).

الاستعارة في مدارج البلاغة:

قال عبدالقاهر: إنّ الاستعارة - كما علمت - تعتمد التشبيه أبداً، وطرقه تختلف، فكلّما كان التشبيه أدقّ وأعمق كانت الاستعارة أرق وأرقى. وهي ترتقي من الضعف إلى القوّة ثم بما يزيد في ارتقائها.

فأول هذه الضروب أن يكون وجه الشبه موجوداً في كلا الطرفين، لكن مع خصائص ومزايا ومراتب في الفضيلة أو الكمال، فتستعير لفظ الأفضل لما هو دونه. ومثاله: استعارة الطيران لغير ذي جناح، مراداً به السرعة. كما جاء في

(١) عطف على «وجدتها» حيث كان جواباً للشرط.

(٢) أي إذا لم تكن على وجه الاستعارة.

(٣) أسرار البلاغة: ص ٣٣.

الحديث، «خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، كلما سمع هيعة طار إليها» والهيعة: صوت الفرع. فشبه سرعة الحركة بطيران الطير، واستعير لها لفظه.

وكذا انقضاض الكواكب للفرس إذا أسرع في حركته من علو. والسباحة له إذا عدا عدواً شبيهاً بحالة السباحة في لين وسلاسة، ومعلوم أن الطيران والانقضاض والسباحة والعدو كلها جنس واحد من حيث الحركة، إلا أنهم نظروا إلى خصائص الأشياء في حركتها، فأفردوا كل حركة في نوعها باسم، وإذا وجدوا في بعض الأحوال شبيهاً من حركة غير جنسه استعاروا له العبارة من ذلك الجنس.

ومن هذا الضرب قوله تعالى: «وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ»^(١)، أي وفرقناهم. والمزريق تفريق بين قطع الثوب، فاستعير لمطلق التفريق. ومثله أيضاً قوله تعالى: «وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا»^(٢). أي فرقناهم فيها، تشبيهاً بتقطيع الثوب وتفريق أجزائه^(٣).

ومنه عند السكاكي قوله تعالى: «وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا»^(٤) شبه الشيب بشواظ النار، في توقده وإنارته. وشبه انتشاره وانبساطه في الشعر باشتعال النار، فأخرج مخرج الاستعارة. قال الزمخشري: ومن ثم فصّحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة^(٥).

* * *

(١) سبأ: ١٩.

(٢) الأعراف: ١٦٨.

(٣) أسرار البلاغة: ص ٤١ - ٤٤.

(٤) مريم: ٤.

(٥) الكشف: ج ٣ ص ٤، ومفتاح العلوم: ص ١٨٣.

وضربُ ثانٍ يشبه هذا الضرب، غير أنَّ الشبه في صفة هي موجودة في كل من المستعار منه والمستعار له على حقيقتها، سوى أنها في المستعار منه أكمل وأجلى، كما في قولك: رأيت شمساً تريد إنساناً يتהלَّل وجهه كرائعة الشمس. وهكذا قولك: رأيت أسداً، تريد رجلاً متصفاً بالشجاعة كالأسد المعروف بها. فرونق الوجه الحسن في حسِّ البصر مجانس لتلاؤ ضوء الأجسام النيرة. وكذا حقيقة الشجاعة التي عمودها انتفاء المخافة عن القلب، فلا يخامره وهنٌ على الاقدام ولا خوف من العدو. الأمر الذي يشترك فيه الانسان الشجاع والأسد اشتراكاً في الحقيقة.

* * *

وضربُ ثالث، وهو الصميم الخالص من الاستعارة، وحده أن يكون الشبه مأخوذاً من الصور العقلية، كاستعارة النور للبيان والحجة الكاشفة عن الحق، المزيلة للشك، النافية للريب. كما في قوله تعالى: «وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ»^(١) وكاستعارة الصراط المستقيم للدين. إذ ليس بين النور - وهو من صفة الجسم وهو محسوس - وبين الحجة - وهو كلام - تناسب في حقيقتيهما، إلا أنَّ القلب إذا وردت عليه الحجة صار في حالة شبيهة بحال البصر إذا صادف النور. وهو شبه ليس على جنس، ولا على طبيعة وغريزة، ولا هيئة وصورة تدخل في الخلقة، وإنما هو صورة عقلية.

قال: وهذا الضرب هو المنزلة التي تبلغ الاستعارة عندها غاية شرفها، ويتسع لها المجال كيف شاءت في تفتنِّها وتصرفها. وها هنا تخلص لطيفة روحانية، فلا يبصرها إلا ذوو الأذهان الصافية، والعقول النافذة، والطباع السليمة، والنفوس المستعده لأن تعي الحكمة، وتعرف فصل الخطاب.

ولها هاهنا أساليب كثيرة، ومسالك دقيقة مختلفة. إلا أن لها أصولاً كما يلي:

أحدها: أن يؤخذ الشبه من المشاهدات والمدركات بالحواس للمعاني المعقولة.

ثانيها: أن يؤخذ الشبه من المحسوس لمثله، إلا أن الشبه عقلي.

ثالثها: أن يؤخذ الشبه من المعقول للمعقول.

مثال الأول ما ذكرناه من استعارة النور للحجة والبيان^(١).

ومثال الثاني قوله تعالى: «وَأَيُّ لَيْلٍ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ»^(٢). السلخ من كشط الجلد لكشف الضوء عن مكان الليل. وهما حسيان، والجامع ما يتصور من ترتب أمر على آخر، وحصول أثر عقيب عمل، وهذا الترتب عقلي.

وسلخ النهار من الليل، باعتبار أن الظلمة هي الأصل، والنهار عارض. فبذهاب النهار الذي هو كغشاء على الليل يبدو الليل «فإذا هم مظلّمون».

ومثال الثالث قوله تعالى: «مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقِدًا»^(٣). فقد استعير الرقاد للموت والجامع عدم الحراك، والجميع عقلي^(٤).

أنواع الاستعارة:

تتنوع الاستعارة - نظراً لحالة التشبيه الملحوظة فيها - إلى أنواع قد تختلف رُوءاءً وهاءً ووفاءً بأداء المرام... وقد اختار القرآن أجملهن وأروعهن فيما يختار،

(١) أسرار البلاغة: ص ٥٠.

(٢) يس: ٣٧.

(٣) يس: ٥٢.

(٤) المطول: ص ٣٦٩ - ٣٧٠.

وبذلك فاق سائر الكلام، وهي تنقسم إلى عدّة تقسيمات، منها تقسيمها:

- ١ - إلى وفاقية وعنادية ومتفرعاتها.
 - ٢ - وإلى عامية وخاصية ومتصرفاتها.
 - ٣ - وإلى أصلية وتبعية ومستتبعاتها من روائع وبدائع.
 - ٤ - وإلى تجريدية وترشيحية وآثارها المترتبة.
 - ٥ - وإلى مكنتى عنها وتخيلية ومستلزماتها الفنية البديعة.
 - ٦ - وأخيراً تمثيلية في المركبات، وهي أبلغهنّ وأفضلهنّ.
- وفيما يلي عرض موجز عن هذه الأنواع:

١ - وفاقية وعنادية:

الاستعارة الوفاقية، هي: ما أمكن اجتماع طرفيها، كما في استعارة الحياة للعلم أو الهداية، والموت لضدهما، في نحو قوله تعالى: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ»^(١).

والعنادية: ما لا يمكن اجتماعهما. وتنفّر عليها الاستعارة التهكمية وكذا التلميحية، فها استُعير لفظ الضدّ لضدّه إلّا تهكماً أو تمليحاً، ومنه قوله تعالى: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»^(٢).

٢ - عامية وخاصية:

تنقسم الاستعارة إلى عامية مبتذلة، ممّا يكون الجامع (الشبه) ظاهراً معروفاً، يعرفه كل أحد من غير حاجة إلى دقة نظر أو براعة في فكر. كما في

(١) الأنعام: ١٢٢.

(٢) آل عمران: ٢١.

استعارة الأسد للرجل الشجاع أو الحاتم للجواد.

وهذا النوع من الاستعارة لاشأن لها عند البلغاء، اللهم إلا إذا حصل فيها تصرف أخرجها عن الابتدال. كما في قول الشاعر: «وسالت بأعناق المطى الأباطح»^(١) فاستعار السيلان للسير الحثيث في سرعة مع سلاسة ولين، وهذا أمر معروف، لكنه أغرب في إسناد الفعل إلى الوادي وأدخل الأعناق في السير، فقد سالت بالأعناق الأباطح، دليلاً على مزدهجها وتداوم حركتها، حيث السرعة أو البطء في سير الإبل إنما تظهر في أعناقها.

وأجمل منه قوله تعالى: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ الْكَذَلِكِ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ»^(٢) فقد استعير الماء الذي فيه الحياة للشريعة النازلة من السماء، وفيها سعادة الحياة. وشبّهت مختلف استعدادات الناس ومختلف مستوياتهم بمختلف متعرجات الأودية وأغوارها وأبعادها. فتسيل في كلِّ بقدرها وحسب طاقتها.

والماء في بدء نزوله من السماء صافٍ ضافٍ، لكنه في سيره في منعطفات المسيل ومتعرجاته يحتمل معه أوساخاً وأقذاراً تطفو على وجه الماء زبدًا رابيًا، متراكماً ومتراكباً بعضه على بعض. هي ظلمات الشكوك والجهالات، وهي التي تقع مطمح أهل القصور في النظر، والهبوط في المستوى. وهكذا أنواع المعادن والجواهر تذاب وتذهب أدراجها. ويعلوها رغاف، غير

(١) صدره: اخذنا بأطراف الأحاديث بيننا... والمطلع: قوله:

ومسح بالأركان من هوامسح

ولما قضينا من منى كل حاجة

(راجع المطول: ص ٣٦٨).

(٢) الرعد: ١٧.

أنّ ماينفع الناس من رسوبات المسيل وصفايا المصوغ هو الذي يبقى ويستمرّ في حياتهم، وأما الزبد والرغاف فيذهب جفاءً وهباءً. فهنا عدّة استعارات وتشبيهات متداخلة ومترابطة بعضها مع بعض، وبذلك اكتست حلّة قشبية من الجمال.

أما الخاصية الغربية فهي ترتفع عن المستوى العام ولا يبلغ شأوها إلّا ذوو الأذهان المتوقّدة والأفهام المرهفة الرقيقة. ولها شواهد كثيرة في القرآن: قال تعالى -حكاية عن زكريا (عليه السّلام)-: «رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا»^(١). جاءت التكنية عن حلول مشيب عارض وعروض هرم بالغ، بتعبيرين، هما من أرقّ التعابير وأدقّها في هذا المجال: أولاً: كتنى عن الشيب البالغ بوهن العظم، وهو يلزم ضعف الشيب، فذكر العلّة الباطنة دليلاً على المعلول الظاهر، فقد وضع يده على السبب الأول الموجب لاستيلاء الضعف على مشاعره وجوارحه، الآذن بالرحيل، وهي كناية أبلغ من التصريح.

وثانياً: كتنى عن هرمه وكبر سنّه بتجلّل المشيب رأسه أجمع، لكنه استعار لذلك استعارة فائقة.

استعار لتهلّل البياض المتجلّل به شيب الرأس، وهيج النار، وهي استعارة غريبة لم تعرفه العامة ولم يسبق لها نظير في كلام العرب.

إنّ لبياض الشيب تشعشعاً بالنور لدى النظر إليه، شأن كل بياض يعكس بالنور المشعّ عليه، فيندفق النور من حوله، كما يفيض الماء من جوانب الإناء، وكما يلتهب شواظ النار عند توقّد الاشتعال. وهكذا ينبسط ضياء المشيب كما

ينبسط وهج النار.

إنه تشبيه، فما أحلاه من تشبيه واستعارة، فما أجملها من استعارة! إنها غاية في الوفاء وآية في الأداء، ويزيدها بهاءً ووفاءً بكمال المقصود إسناد الاشتعال إلى الرأس، وإخراج الشيب مميّزاً، دون إضافته إلى الرأس، إذ لو قال: واشتعل شيب الرأس، لم يفهم منه تجلّل الرأس كلّ شيباً وإنارة، ليكون دليلاً على بلوغ هرمه، فضلاً عن إشعاره بموضع الشبه للاستعارة، فجاءت كاملة على طريقة التجريد أيضاً، حسب البيان الآتي.

* * *

قال الشيخ عبدالقاهر-بصدد بيان شرف النظم في الكلام:- ومن دقيق ذلك وخفيّه أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: «اشتعل الرأس شيباً» لم يزدوا فيه على ذكر الاستعارة ولم ينسبوا الشرف إلّا إليها، ولم يروا للمزية موجباً سواها.

هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرّد الاستعارة. ولكن لأن يسلك بالكلام طريق مايسند الفعل فيه إلى الشيء، وهو لما هو من سببه، وذلك أنّنا نعلم أنّ «اشتعل» للشيب في المعنى، وإن كان هو للرأس في اللفظ. فلو غيرته وأسندته إلى الشيب وأضفت الشيب إلى الرأس ليكون على حقيقته، وقلت «اشتعل شيب الرأس» أو «الشيب في الرأس»، فهل تجد ذلك الحسن، وتلك الفخامة؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها في الآية؟

والسبب في ذلك أنّ نظم الآية يفيد، مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو الأصل، معنى آخر هو الشمول والشيوع وأخذه في نواحيه، وأنه قد استقرّبه وعمّ جملة، حتى لم يبق من السواد شيء. وهذا المعنى لا يكون إذا قيل: اشتعل شيب

الرأس، أو الشيب في الرأس. بل لا يوجب اللفظ حينئذٍ أكثر من ظهوره فيه في الجملة.

ووزان هذا، أن تقول «اشتعل البيت ناراً» أو تقول «اشتعل النار في البيت». فكم بينهما من فرق؟

قال: ونظير هذا التنزيل قوله عز وجل: «وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا»^(١). التفجير للعيون في المعنى، وأوقع على الأرض في اللفظ، كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس، وقد حصل بذلك من معنى الشمول هاهنا مثل ماهناك. وذلك أنه أفاد أن الأرض قد صارت كلها عيوناً، وأن الماء يفور من كل جوانبها، أما لو قلنا: «فَجَّرْنَا عِيُونَ الْأَرْضِ» أو «العيون في الأرض» لزال هذا المعنى وزالت هذه الروعة في المبالغة القريبة^(٢).

* * *

ونظيره في الروعة قوله تعالى -يصف العلاقة الجنسية بأرفع أسلوب وبكلمة رقيقة مهذبة فريدة لا تجد لها مثيلاً ولا بديلاً-: «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ»^(٣).

إنها استعارة من أبدع الاستعارات وأرفعها تعبيراً عن أمر يقبح التصريح به، كلمة رقيقة مهذبة، لم تعرفها العرب من ذي قبل، فجاءت طريفة في نوعها وظريفة في أسلوبها^(٤).

فقد استعير التغمشي كناية عن عمل جنسي، يشبع غريزة فطرية، ويحول

(١) القمر: ١٢.

(٢) دلائل الإعجاز: ص ٦٩ - ٧٠.

(٣) الأعراف: ١٨٩.

(٤) راجع محاولة الاستاد مصطفى محمود، ص ١٧.

دون الملع إلى الفحشاء، فيوجب عفافاً وسترأً كريماً يغطي مطالب الجسد في جَوْنِزِيهِ طاهر. وهذا هو الإحصان واللباس الساتر دون كشف العورات. «هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ»^(١). فالرجل عندما يقوم بعملية جنسية فإنه يغشي زوجه بثوب فضفاض من العفاف الشامل، ويغطيها بلباس التقوى حافظاً لها وساتراً عليها، برفقٍ ولطفٍ كريم. فما أرقه من تعبير وأروعه من اسلوب!

٣ - أصلية وتبعية:

إذا كانت الاستعارة في أسماء الأجناس - سواء في الذوات كالأسد للشجاع والحمار للبليد، أم في المعاني كالقتل للضرب المرهق والسحق لإبطال أمر أو إنكاره - وكذا في أسماء الاعلام - إذا كانت بتأويل أسماء الأجناس، بأن كانت لها جهة وصفية معروفة، كحاتم للجواد ومادثر للبخيل أو اللئيم - كانت الاستعارة في مثل ذلك كله أصلية، نظراً لأن الاستعارة وقعت في نفس الاسم.

وأما في الأفعال والمشتقات وكذا الحروف فإن الاستعارة فيها تبعية. قال التفتازاني: وإنما كانت تبعية لأن الاستعارة تعتمد على التشبيه، والتشبيه يقتضي كون المشبه موصوفاً بوجه الشبه أو مشاركاً للمشبه به في وجه الشبه، وإنما يصلح للموصوفية الحقائق، أي الأمور المتقررة الثابتة^(٢).

فالتشبيه في الفعل والمشتق إنما هو في مصدرهما، وفي الحرف فيما تعلق به معناه. قال صاحب المفتاح: المراد بمتعلقات معاني الحروف ما يعبر بها عنها عند

(١) البقرة: ١٨٧.

(٢) المطول: ص ٣٧٢.

تفسير معانيها، مثل قولنا: «من» معناها ابتداء الغاية. و«في» معناها الظرفية. و«كي» معناها الغرض. فهذه ليست معاني الحروف، وإلا لم تكن حروفاً، لأنّ الاسمية والحرفية إنما هي باعتبار المعنى، وإنما هي متعلقات لمعانيها، أي إذا أفادت هذه الحروف معاني فإنّ تلك المعاني ترجع إلى هذه بنوع استلزام^(١). والاستعارة الرائعة هي التي تكون تبعية، فيها دقة وارتفاع وروعة، وهي التي تجدها موفورة في القرآن الكريم. ومَرّت عليك بعض أمثلتها، وسنزيد.

٤ - تجريد وترشيح:

قال السكاكي: اعلم أنّ الاستعارة في نحو «عندي أسد» إذا لم تعقب بصفات أو تفرّيع كلام لا تكون مجردة ولا مرشّحة. وإنما يلحقها التجريد أو الترشيح إذا عقت بذلك.

ثم إنّ الضابط هناك أصل واحد، وهو: أنه متى عقت الاستعارة بصفات ملائمة للمستعار له، أو تفرّيع كلام ملائم له، سمّيت مجردة. ومتى عقت بصفات^(٢)، أو تفرّيع كلام ملائم للمستعار منه، سمّيت مرشّحة.

مثالها في التجريد أن تقول: ساورت أسداً شاكي السلاح طويل القناة صقيل العضب^(٣)، وجاورت بحراً ما أكثر علومه وما أجمعه للحقائق وما أوقفه على الدقائق.

ومثالها في الترشيح أن تقول: ساورت أسداً هصوراً عظيم اللبتين وافي البرائن منكر الزئير^(٤)، وجاورت بحراً زاخراً يتلاطم أمواجه ولا يغيض فيضه

(١) المطول: ص ٣٧٤، وراجع مفتاح العلوم للسكاكي: ص ١٨٠.

(٢) قال: واعني بالصفات الوصف المعنوي كيف كان لا الصفات النحوية. المفتاح ص ١٨٢.

(٣) العضب: السيف القاطع.

(٤) المصّر: الكسر، والأسد هصوراً لأنه يهصر فريسته، والزئير: صوت الأسد.

ولا يدرك قعره.

قالوا: والترشيح أبلغ من التجريد وغيره، لأنّ مبناه على تناسي التشبيه وادّعاء أنّ المستعار له عين المستعار منه لا أنه مشبه به. وهو تحقيق في مبالغة التشبيه وتأکید وتزيين لها، كما قاله التفتازاني^(١).

قال السكاكي: ومبنى الترشيح على تناسي التشبيه وصرف النفس عن توهمه حتى تبالي أن تبني على علو القدر وسمو المنزلة، بناءك على العلو المكاني، كما فعل أبو تمام إذ قال:

ويصعد حتى يظنّ الجهول .
وقال ابن الرومي بشأن نوبخت:

أعلم الناس بالنجوم بنونو بخت علماً لم يأتهم بالحساب
بل بأن يشاهدوا السماء سموّاً بترقّ في المكرمات الصعاب
مبلغ لم يكن ليبلغه الطاء لبّ إلا بتلكم الأسباب
وتلزم المستعار له ما يلزم المستعار منه من التعجّب وغيره ممّا لا يليق إلا
بالمستعار منه، كما قال الشاعر:

لا تعجبوا من بلى غلالته قد زرّازراره على القممر
أوما ترى هؤلاء، كيف نبذوا أمر التشبيه وراء ظهورهم، وكيف نسوا
حديث الاستعارة، كأن لم تخطر منهم على بال، ولا رأوها ولا في طيف خيال.
وإذا كانوا مع التشبيه والاعتراف بالأصل يسوّغون أن لا يبنوا إلا على
الفرع، كما في قولهم:

هي الشمس مسكنها في السماء فعزّ الفؤاد عزاءً جميلاً
فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولاً

فهم إلى تسويغ ذلك مع جحد الأصل في الاستعارة أقرب^(١).
ومن الاستعارة المجردة قوله تعالى: «فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
وَالْخَوْفِ»^(٢). استعير اللباس لما يبدو على الجوع والخوف من الضر والبؤس،
ورثاة الحياة وانتقاع اللون وما شابه ذلك، وكانت استعارة اللباس بالنظر إلى
شمول حالة الذل والمسكنة لهم، لتكون الاستعارة ذات فائدة معنوية بديعة، لا
لمجرد التوسعة في الكلام.

قال التفزازي: وإنما لم يقل: «طعم الجوع...» وإن لاعم الاذاقة، فهو
مفوت لما يفيد لفظ اللباس من بيان أن الجوع والخوف عم أثرهما جميع البدن
عموم الملابس^(٣).

ثم اقترنت هذه الاستعارة بما يلائم المستعار له، فقال: «فَأَذَاقَهَا»، ولم يقل:
«فكساها» - حتى يكون ترشيحاً وهو أبلغ من التجريد - لأن الإدراك بالذوق
يستلزم الإدراك باللمس، دون العكس، وفي الإذاقة إشعار بشدة الإصابة
والتألم. وهذا هو السر في العدول من الترشيح إلى التجريد.

ومن الترشيح قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا
رَبِحَتْ تَجَارَتُهُمْ»^(٤) استعير الاشتراء لمطلق الاستبدال والاختيار، ثم فرع عليها
ما يلائم الاشتراء من الربح والتجارة.

٥ - تكنية وتخيل:

قد يضمم التشبيه في النفس، فلا يذكر سوى المشبه، على خلاف سائر

(١) مفتاح العلوم: ص ١٨٣.

(٢) النحل: ١١٢.

(٣) الطول: ص ٣٧٨.

(٤) البقرة: ١٦.

الاستعارات المذكور فيها المشبه به، لكن مع الاقتران بشيء من خصائص المشبه به دليلاً على التشبيه. فتقول: رأيت رجلاً، وأنت قد توهمته سبعاً، فتلحق به قولك: يفترس أقرانه، فتذكر الافتراس دليلاً على ذلك التشبيه المتوهم.

وقد اصطالحوا على تسمية ذلك التشبيه المضمر بالاستعارة المكتنى عنها، وتسمية ما يقترن معها من خصائص المشبه به دليلاً على التشبيه بالاستعارة التخيلية. ومن ثم كانت الاستعارتان متلازمتين.

وعدوا هذا النوع من الاستعارة (التكنية والتخييل) من أبدع أنواع الاستعارات روعةً وجمالاً، حيث موضع ذلك التصور النفسي البديع. وكلما كان ما تصوّره الوهم أوفى بواقعية الأمر وأبلغ كانت الاستعارة أبهى وأجل.

قال السكاكي: الاستعارة بالكناية أن تذكر المشبه وتضيف إليه شيئاً من لوازم المشبه به على سبيل الاستعارة التخيلية. فتقول: محالب المنية نشبت بفلان، طاوياً لذكر المشبه به، فقد شبّهت المنية بالسبع في اغتيال النفوس وانتزاع أرواحها بالقهر والغلبة، من غير تفرقة بين نفاع وضرار، ولا رقة لرحوم ولا بقية على ذي فضيلة، تشبيهاً بليغاً حتى كأنها سبع من السباع، فيأخذ الوهم في تصويرها في صورة السبع واختراع ما يلزم صورته ويتم بها مشاكلته من أعضاء وجوارح، وعلى الخصوص ما يكون قوام اغتيال السبع للنفوس بها، وتمازج افتراس الفرائس بها، من الأنياب والمحالب، ثم تطلق على مخترعات وهمك أسامي من المتحقق، لتفيض عليها تلك الصورة الوهمية.

وهكذا إذا شبّهت الحال في دلالتها على أمر بإنسان يتكلم، فيعمل الوهم في الاختراع للحال ما يكون قوام التكلم به، وهو تصوير صورة اللسان، ثم تطلق عليه اسم اللسان المتحقق وتضيفه إلى الحال، قائلاً: لسان الحال ناطق بكذا. أو أن تشبه ولاية أمر صادفتها واقعة تحت مشيئة امرئ، وتابعة لرأيه

يتصرف فيها كيف يشاء، بالناقة المنقادة التابعة لمستتبعها كيف أراد، فتثبت لها في الوهم ما هو قوام ظهور انقياد الناقة به، وهو صورة الزمام، فتطلق عليها اسم الزمام المتحقق، قائلاً: زمام الحكم بيد فلان. قال: وقد ظهر أنّ الاستعارة بالكناية لا تنفك عن الاستعارة التخيلية أبداً^(١).

٦ - الاستعارة التمثيلية:

قال جلال الدين السيوطي^(٢): التشبيه من أعلى أنواع البلاغة وأشرفها. واتفق البلغاء على أنّ الاستعارة أبلغ من التشبيه، فالاستعارة أعلى مراتب الفصاحة. وكذا الكناية أبلغ من التصريح، والاستعارة أبلغ من الكناية. فقد تصدرت الاستعارة أعلى مراتب بلاغة البيان وأفصحها. وأبلغ أنواع الاستعارة هي التمثيلية، لأنها تنفث في التشبيه روح الحقيقة، وتفضي عليها الحركة والحياة. فيتناسى التشبيه، وكأنّ الحقيقة بذاتها ظهرت وأبدت معالمها...

والاستعارة التمثيلية هي من إيجاز المركّب، وحقيقتها: أن تشبه إحدى الصورتين المنتزعتين من متعدّد بالأخرى، ثم تتخيّل أنّ الصورة المشبه بها عين الصورة المشبهة، فتطلق تلك على هذه إطلاقاً بالاستعارة. كما يقال لمن يتردّد في أمر: أراك تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى. فقد شبه صورة تردّده النفسي في الإقدام والإمساك بمن قام ليذهب فتردّد في الذهاب، فتارةً يتقدّم وأخرى ينصرف فيتأخّر^(٣).

(١) مفتاح العلوم: ص ١٧٨-١٧٩.

(٢) معترك الاقتران: ج ١ ص ٢٨٢.

(٣) المطول: ص ٣٧٩.

فهذا أبلغ تشبيه في تصوير حالته النفسية المضطربة، لا يستطيع الجزم والبت فيما يريد.

وهذا النوع من الاستعارة بل التمثيل في القرآن كثير، وقد تقدم كثير من أمثلتها في حقل التصوير الفني في القرآن.

٩- لطيف كنايةه وظريف تعريضه

الكناية بمعنى السرّ، تقول: كنيت الشيء إذا سترته. ومنه الكنية، لستر اسمه تفخيماً لمقامه.

قال السكاكي: هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل منه إلى ملزومه^(١).

قال ابن الأثير: الكناية إذا وردت تجاذبها جانباً حقيقة ومجازاً، وجاز حملها على الجانبين معاً. ألا ترى أنّ اللمس في قوله تعالى: «أولاًمستّم النساء»^(٢) كناية عن الجماع، يجوز حمله على الحقيقة وعلى المجاز. وكلّ منهما يصحّ به المعنى ولا يختلّ. لأنّ اللمس خارجاً لازم الجماع لا محالة.

والفرق بينها وبين التعريض: أنّ التعريض هو اللفظ الدالّ على الشيء من طريق المفهوم وإن لم يكن من لوازمه. كما إذا قلت لمن تتوقع صلته: والله إني محتاج. فإنه تعريض بالطلب، وليس موضوعاً له لاحقيقة ولا مجازاً. بخلاف دلالة اللمس على الجماع دلالة باللازم على الملزوم. ومن ثمّ كان التعريض أخفى من الكناية، وأبرع منها إذا وقع موقعه، لأنّ دلالة الكناية لفظية (دلالة

(١) مفتاح العلوم: ص ١٨٩.

(٢) النساء: ٤٣، المائدة: ٦.

الإشارة) ودلالة التعريض عقلية، يجب أن يتنبه لها العقل، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي. وإنما سمي تعريضاً لأنّ المعنى منه يفهم من غرضه أي من جانبه، وغرض كل شيء جانبه^(١).

* * *

وللناس في الفرق بين الكناية والتعريض عبارات متقاربة:
فقال الزمخشري: الكناية ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له. والتعريض أن يذكر شيئاً يدلّ به على شيء لم يذكره.
وقال ابن الأثير: الكناية مادلّ على معنى يجوز حمله على الحقيقة والمجاز بوصف جامع بينهما. والتعريض: اللفظ الدالّ على معنى لا من جهة الوضع الحقيقي أو المجازي، كقول من يتوقع صلة: والله إني لمحتاج، فانه تعريض بالطلب، مع أنه لم يوضع له لاحقاً ولا مجازاً، وإنما فهم من غرض اللفظ، أي جانبه.

وقال السبكي في كتاب «الإغريض في الفرق بين الكناية والتعريض»: الكناية لفظ استعمل في معناه مراداً منه لازم المعنى، فهو بحسب استعمال اللفظ في المعنى حقيقة، والتجاوز في إرادة إفادة ما لم يوضع له، وقد لا يراد منها المعنى، بل يعبر بالملزوم عن اللازم، وهي حينئذٍ مجاز.
ومن أمثله: «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا»^(٢) فانه لم يقصد إفادة ذلك، لأنّه معلوم، بل إفادة لازمه، وهو أنهم يردونها ويمجدون حرّها إن لم يجاهدوا.

وأما التعريض فهو لفظ استعمل في معناه للتلويع بغيره، نحو: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا»^(٣) نسب الفعل إلى كبر الأصنام المتخذة آلهة، كأنه غضب أن

(١) المثل السائر: ج ٣ ص ٥٢ و ٥٦.

(٢) التوبة: ٨١.

(٣) الأنبياء: ٦٣.

تعبد الصغار معه، تلويحاً لعابيدها بأنّها لا تصلح أن تكون آلهة، لما يعلمون - إذا نظروا بعقولهم - من عجز كبيرها عن ذلك الفعل، والإله لا يكون عاجزاً، فهو حقيقة أبداً.

وقال السكاكي: التعريض ماسيق لأجل موصوف غير مذكور، ومنه أن يخاطب واحد ويراد غيره. وسمي به لأنّه أميل الكلام إلى جانب مشاراً به إلى آخر، يقال: نظر إليه يعرض وجهه، أي جانبه^(١).

* * *

قال الطيّبي: وذلك يفعل إمّا لتنويه جانب الموصوف، ومنه: «وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ»^(٢) أي محمّد (صلّى الله عليه وآله وسلّم) إعلاءً لقدره، أي أنّه العلّم الذي لا يشتهيه. وإمّا للتلفظ به واحترازاً عن المحاشنة، نحو: «وَمَا لِيَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي»^(٣) أي ومالككم لا تعبدون، بدليل قوله: «وَالِيهِ تُرْجَعُونَ». وكذا قوله: «أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً»^(٤) ووجه حسنه إسماع من يقصد خطابه الحقّ على وجه يمنع غضبه، إذ لم يصرّح بنسبته للباطل، والإعانة على قبوله، إذ لم يرد له إلّا ما أراد لنفسه.

وإمّا لاستدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، ومنه: «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ»^(٥) خوطب النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) وأريد غيره، لاستحالة الشرك عليه شرعاً.

وإمّا للذمّ، نحو: «إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ»^(٦)، فإنّه تعريض بذمّ الكفار،

(١) معترك الاقران: ج ١ ص ٢٩٢.

(٢) البقرة: ٢٥٣.

(٣) يس: ٢٢.

(٤) يس: ٢٣.

(٥) الزمر: ٦٥.

(٦) الرعد: ١٩ والزمر: ٩.

وإنهم في حكم البهائم الذين لا يتذكرون.
 وأما للإهانة والتوبيخ، نحو: «وَإِذَا الْمَوْؤَدَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ»^(١)،
 فإن سؤالها لإهانة قاتلها وتوبيخه.
 قال السبكي: التعريض قسمان:
 قسم يراد به معناه الحقيقي، ويشار به إلى المعنى الآخر المقصود كما تقدم.
 وقسم لا يراد، بل يُضرب مثلاً للمعنى الذي هو مقصود التعريض، كقول
 إبراهيم: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا»^{(٢)(٣)}.

وقد جعل السكاكي التعريض قسماً من الكناية، إذ جعلها تعريضاً وتلويحاً
 ورمزاً وإيماءً وإشارة. قال: متى كانت الكناية عرضية، كقولك: المؤمن لا يؤذي
 أخاه المسلم، تعريضاً بمن يتصدى لايذاء المؤمنين بأنه ليس بمؤمن، فهذه كان
 إطلاق اسم التعريض عليها مناسباً.
 وإذا لم تكن الكناية عرضية نظر، فإن كانت مسافة بينها وبين المكتى عنه
 مسافة متباعدة لتوسط لوازم كثيرة كما في «كثير الرماد» وأشباهه كان إطلاق
 اسم التلويح عليها مناسباً، لأن التلويح هو أن تشير إلى غيرك عن بُعد.
 وإن كانت ذات مسافة قريبة بقلّة اللوازم لكن مع نوع خفاء مثل قولهم
 «عريض القفا» و«عريض الوسادة» كان إطلاق اسم الرمز عليها مناسباً.
 لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الحفية.
 وإن كانت لاخفاء فيها كان إطلاق اسم الإيماء والإشارة عليها مناسباً^(٤).

(١) التكوين: ٨ و ٩.

(٢) الأنبياء: ٦٣.

(٣) معترك الاقربان: ج ١ ص ٢٩٣.

(٤) مفتاح العلوم: ص ١٩٠ و ١٩٤.

ومن لطيف الكناية وحسنها ما يأتي بلفظة «مثل» في قولك «مثلك لا يخل» حيث نفيت عنه القبيح بأحسن وجه. لأنه إذا نفاه عمن يماثله فقد نفاه عنه لامحالة، إذ هو بنى ذلك عنه أجدر، وإلا لم يكونا متماثلين. وعليه ورد قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»^(١) وإن كان الله سبحانه لا مثل له، لكنه كناية عن نفي مشابهته لشيء بأبلغ وجه. لأن مثله تعالى -فرضاً- إذا لم يكن له مثل فهو تعالى أولى بأن لا يكون له نظير.

* * *

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: «أَيُّحَبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ»^(٢). فإنه كتى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ولم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتاً، ثم جعل ماهو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة. قال ابن الأثير: فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله.

أما جعل الغيبة كأكل لحوم الناس فهو شديد المناسبة جداً، لأنها ذكر مثالب المغتاب والوقوع في عرضه، بل والخط من كرامته بما يهدم شخصيته وإيجاب النفرة منه. الأمر الذي يستدعي إبعاده عن الحياة العامة، ولا سيما الحياة العملية المبتنية على تبادل الثقة بين أفراد الجامعة، فلا يعتمد عليه إنسان ولا يثق به غيره بعد حصول هذه النفرة بينه وبين سائر الناس. كل ذلك مغبة فضحه بين الناس بسبب إبداء معايبه الخفية بالاغتياب، فكان كعضو أشل هيكل الجامعة الانسانية، وكان موته وشله حينذاك سواء. إذاً فالذي يفعله المغتاب يشبه تماماً بمن قتل أخاه (العضو الفعال الآخر للجامعة) واقتات على

(١) الشورى: ١١.

(٢) الحجرات: ١٢.

لحمه ميتاً. فما أشد كراهته؟ فهذا مثله.

فالغيبية إذا شاعت فإنما هي قتل النفوس وتمزيق أعراضهم وهدم شخصياتهم. فما أبشعها وأشنعها من صنيع مكروه ومرفوض لدى العقلاء!!

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية العجيبة تجدها من أبدع الكنايات وأعجبها وأدقها تعبيراً ووفاءً بمقصود الكلام.

وكذلك قوله تعالى: «وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَافُوهَا»^(١). قال ابن الأثير: والأرض التي لم يطأوها كناية عن مناحج النساء، وهو من حسن الكناية ونادرها.

وقوله تعالى: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ»^(٢).

قال الزمخشري: هذا مثل ضرب به الله للحق وأهله والباطل وحزبه، فكثي بالماء عن العلم، وبالأودية عن القلوب، وبالزبد عن الضلال.

إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية، كلٌّ بقدرها، وهو بطبيعة جريه وسيلانه يلم في طريقه غشاء، فيطفو على وجهه صورة زبد، هي الشكوك الحاصلة من تضارب الآراء وحجاج الخصوم. حتى ليحجب الماء أي الحقيقة في بعض الأحيان. وقد يكون هذا الزبد نافث رابٍ منتفخ، ليدو فخيماً في شكله وظاهر صورته، ولكنه في حقيقته غشاء. أمّا الماء من تحته فهو سارِبٌ ساكنٌ

(١) الأحزاب: ٢٧.

(٢) الرعد: ١٧.

هادئ، لكنه الماء الحامل للخير والحياة، وسرعان ما تنصع حقيقته الصافية، وينقشع عن وجهه غبار الأوهام. كذلك يتصور في المعادن والفلزات التي تذاب لتصاغ منها الحلي أو الأواني والآلات النافعة للحياة، فإنها عند الذوبان يطفو عليها الخبث وقد يحجب وجه الفلز الأصيل، ولكنه بعد خبث يذهب جفاء، ويبقى الفلز نقياً خالصاً نافعاً في الحياة.

وذلك ممثّل الحقّ مجلّله غبار الباطل أحياناً، لكنه لا يلبث أن ينصدع فتتجلّى الحقيقة ناصعة بيضاء لامعة. «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ» ومن ثمّ عقبه بقوله: «وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ»^(١) تصف ألسنتكم الكذب من تشكيك وأوهام وخرافات^(٢).

حكمة الكناية وفوائدها

للكناية فوائد وحكم ذكرها أرباب البيان، ولخصها جلال الدين السيوطي في ستة وجوه:

أحدها: التنبيه على عظم القدرة، نحو: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ»^(٣) كناية عن آدم (عليه السلام) فإن إخراج الذرّ الكثير من أصل واحد دليل على عظمة الصانع تعالى وقدرته الخارقة. فلو كان صرّح باسمه (عليه السلام) لكانت إشادة بشأنه بالذات.

ثانيها: ترك اللفظ إلى ما هو أجل، نحو: «إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ

(١) الأنبياء: ١٨.

(٢) الكشف: ج ٢ ص ٥٢٣، المثل السائر: ج ٣ ص ٦٣، في ظلال القرآن: ج ٥ ص ٨٥.

(٣) الأعراف: ١٨٩.

نَعَجَةً وَلَيَّ نَعَجَةً وَاحِدَةً»^(١). فكنتي بالنعجة عن المرأة كعادة العرب في ذلك ، لأن ترك التصريح بذكر المرأة أجل منه ، ولهذا لم تذكر في القرآن امرأة باسمها إلا مريم. قال السهيلي: وإنما ذكرت «مريم» باسمها على خلاف عادة الفصحاء لنكتة، وهي أن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في ملأ، ولا يتذلون أسماءهن، بل يكتنون عن الزوجة بالفرس والعيال ونحو ذلك ، فإذا ذكروا الإماء لم يكتنوا عنهن ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر، فلمّا قالت النصارى في مريم ما قالوا صرح الله باسمها، ولو لم يكن تأكيداً للعبودية التي هي صفة لها وتأكيداً لأنّ عيسى لا أب له وإلاّ لنسب إليه.

ثالثها: أن يكون في التصريح ممّا يستقبح ذكره، ككناية الله عن الجماع بالملامسة والمباشرة والافضاء والرفث والدخول والسرّي قوله: «وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا»^(٢). والغشيان في قوله: «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا»^(٣).

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: المباشرة الجماع، ولكن الله يكتني. وأخرج عنه، قال: إنّ الله كريم يكتني ما شاء، وإنّ الرفث هو الجماع. وكنتي عن طلبه بالمرادة في قوله: «وَرَأَوْنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ»^(٤). وعنه أو عن المعانقة باللباس في قوله: «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ»^(٥) وبالحرث في قوله: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ»^(٦).

وكتني عن البول ونحوه بالغائط في قوله «أَوْجَاءُ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ»^(٧)، وأصله المكان المطمئن من الأرض.

(١) البقرة: ١٨٧.

(١) ص: ٢٣.

(٢) البقرة: ٢٢٣.

(٢) البقرة: ٢٣٥.

(٣) المائدة: ٦.

(٣) الأعراف: ١٨٩.

(٤) يوسف: ٢٣.

وكتى عن قضاء الحاجة بأكل الطعام في قوله في مريم وابنها: «كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ»^(١).

وكتى عن الأستاذ بالأدبار في قوله: «يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ»^(٢).
أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في هذه الآية قال: يعني أستاذهم، ولكن الله يكتي ما شاء.

وأورد على ذلك التصريح بالفرج في قوله: «وَالَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا»^(٣).

وقوله: «الَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا»^(٤).
وأجيب بأن المراد به فرج القميص، والتعبير به من لطيف الكنايات وأحسنها، أي لم يعلق ثوبها ربة، فهي طاهرة الثوب، كما يقال: نقي الثوب، وعفيف الذيل - كناية عن العفة، ومنه: «وَتِيَابَكَ فَطَهَّرَ»^(٥). وكيف يظن أن نفخ جبريل وقع في فرجها، وإنما نفخ في جيب درعها. ونظيره أيضا «وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِمَا مَنْ يَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ»^(٦).

قال الفراء: والفرج هاهنا: جيب درعها، ودُكر أن جبرائيل (عليه السلام) نفخ في جيها. وكل ما كان في الدرع من خرق أو غيره يقع عليه اسم الفرغ. قال الله تعالى: «وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ»^(٧) يعني السماء من فطور ولا صدوع^(٨).

(١) المائدة: ٧٥.

(٢) ق: ٦.

(٣) معاني القرآن: ج ٣ ص ١٦٩.

(٤) الأنفال: ٥٠.

(٥) الأنبياء: ٩١.

(٦) التحريم: ١٢.

(٧) المدثر: ٤.

وقال في موضع آخر: ذكر المفسرون أنه جيب درعها، ومنه نُفخ فيها^(١) ودرع المرأة قيصها. وهكذا قال السيد شبر والطبرسي وغيرهما من أعلام المفسرين^(٢).

قال الراغب: الفرج والفرجة: الشق بين الشيئين كفرجة الحائط. والفرج: ما بين الرجلين. وكنى به عن السوء، وكثر استعماله حتى صار كالصريح فيه.

قلت: وإطلاق الفرج على الجيب باعتبار أنه الشق الواقع بين جانبي الدرع، إطلاق على أصله، وكنى به عن السوء، سواء أكانت من الرجال أم من النساء، كما في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ»^(٣). «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ... وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ»^(٤). «وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ»^(٥).

وحفظ الفرج كناية عن التحفظ على طهارته وأن لا يتدنّث باقتراب قذارة أو يتلوّث بارتكاب حرام، كناية بليغة عن التعفّف واجتناب الفحشاء. وعليه فحَصانة الفرج كناية عن طهارة الذيل، الذي هو بدوره كناية عن التعفّف، ومن ثمّ فهي كناية عن كناية نظير المجاز عن المجاز. فتدبر، فانه لطيف.

* * *

(١) معاني القرآن: ج ٢ ص ٢١٠.

(٢) مجمع البيان: ج ٧ ص ٦٢ وج ١٠ ص ٣١٩، تفسير شبر: ص ٣٢١ وص ٥٢٤.

(٣) المؤمنون: ٥، الماعز: ٢٩.

(٤) النور: ٣٠ و ٣١.

(٥) الأحزاب: ٣٥.

رابعها: قصد المبالغة والبلاغة، نحو قوله تعالى: «أَوْمَن يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ»^(١). كُنِيَ عن النساء بأنهن ينشأن في الترفه والتزين والشواغل عن النظر في الأمور ودقيق المعاني. ولو أتى بلفظ النساء لم يشعر بذلك، والمراد نفي ذلك عن الملائكة. وقوله: «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ»^(٢) كناية عن سعة جوده وكرمه جداً.

خامسها: قصد الاختصار، كالكناية عن ألفاظ متعددة بلفظ «فعل»، نحو: «لَبَسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»^(٣). «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَكِنْ تَفْعَلُوا»^(٤) أي فإن لم تأتوا بسورة من مثله.

سادسها: التنبيه على مصيره، نحو قوله تعالى: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ»^(٥) أي جهنمي مصيره إلى اللهب. وقوله: «حَمَالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ» أي نعامه، مصيرها إلى أن تكون حطباً لجهنم في جيدها غلّ.

قال بدر الدين ابن مالك في المصباح^(٦): إنما يعدل عن الصريح إلى الكناية لنكتة، كالإيضاح أو بيان حال الموصوف، أو مقدار حاله، أو القصد إلى المدح أو الذم، أو الاختصار، أو الستر، أو الصيانة، أو التعمية، أو الألغاز، أو التعبير عن الصعب بالسهل، أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن.

(١) الزخرف: ١٨. (٢) المائدة: ٦٤. (٣) المائدة: ٧٩.

(٤) البقرة: ٢٤. (٥) السد: ١.

(٦) المصباح في تلخيص المفتاح لمحمد بن عبدالله بن مالك الملقب بابن الناظم أحد أئمة النحو والمعاني والبدیع، توفي سنة ٦٨٦ (طبقات الشافعية: ٥ - ٤١).

واستنبط الزمخشري نوعاً من الكناية غريباً، وهو أن تعتمد إلى جملة معناها على خلاف الظاهر، فتأخذ الخلاصة من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة والمجاز، فتعبر بها عن المقصود، كما تقول في نحو: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»^(١). إنه كناية عن الملك، فإنَّ الاستواء على السرير لا يكون إلّا مع الملك، فجعل كناية عنه. وكذا قوله: «وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتِ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ»^(٢) كناية عن عظمته وجلاله من غير ذهاب بالقبض واليمين إلى جهتي الحقيقة والمجاز^(٣).

قال - عند الكلام عن آية طه -: لَمَّا كَانَ الاسْتِواءُ عَلَى الْعَرْشِ - وهو سرير الملك - مِمَّا يَرْدِفُ الْمَلِكَ جَعَلُوهُ كِنَايَةً عَنِ الْمَلِكِ، فَقَالُوا: اسْتَوَى فُلَانٌ عَلَى الْعَرْشِ، يَرِيدُونَ: مَلِكٌ، وَإِنْ لَمْ يَقْعُدْ عَلَى السَّرِيرِ الْبَتَّةَ. وَقَالُوا أَيْضاً لَشَهْرَتِهِ فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى وَمَسَاوَاتِهِ «مَلِكٌ» فِي مَوْذَاهُ، وَإِنْ كَانَ أَشْرَحَ وَأَبْسَطَ وَأَدَلَّ عَلَى صُورَةِ الْأَمْرِ.

قال: ونحوه قولك: يد فلان مبسوط، ويد فلان مغلولة، بمعنى أنه جواد أو بخيل، لافرق بين العبارتين إلّا فيما قلتُ، حتى أنّ من لم يبسط يده قطّ بالنوال أو لم تكن له يد رأساً قيل فيه: يده مبسوط، لمسواته عندهم مع قولهم: هو جواد... ومنه قوله عز وجل: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدُّ اللَّهُ مَغْلُولَةً»^(٤) أي هو بخيل. «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ»^(٥) أي هو جواد... من غير تصوّر يد ولا غلّ ولا بسط.

قال: والتفسير بالنعمة، والتحمل للتثنية، من ضيق العطن، والمسافرة عن علم البيان مسيرة أعوام^(٦).

(٤) و (٥) المائدة: ٦٤.

(١) طه: ٥.

(٦) الكشف: ج ٣ ص ٥٢.

(٢) الزمر: ٦٧.

(٣) الاتقان: ج ٣ ص ١٤٥ - ١٤٦.

وقال عن آية الزمر: والغرض من هذا الكلام - إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه - تصوير عظمته والتوقيف على كنهه جلاله لا غير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمن إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز.

قال: وزبدة الآية وخلاصتها هي الدلالة على القدرة الباهرة، وأنّ الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنفها الأوهام هيئة عليه، هواناً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه، إلّا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخيل.

قال: ولا ترى باباً في علم البيان أدقّ ولا أرقّ ولا ألطف من هذا الباب، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء، فإنّ أكثره وعلّيته ^(١) تخييلات، قد زلت فيها الأقدام قديماً. وما أتى الزالون إلّا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقيب، حتى يعلموا أنّ في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدروه حقّ قدره، لما خفي عليهم أنّ العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه. إذ لا يحلّ عقدها الموربة ولا يفكّ قيودها المكربة إلّا هو. وكم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسم الخسف بالتأويلات الغثّة والوجوه الرثّة، لأنّ من تأوّل ليس من هذا العلم في غير ولا نفي، ولا يعرف قبلاً منه من دبر ^(٢).

ومن أنواع البديع التي تشبه الكناية: الارادف، وهو أن يريد المتكلّم معنى فلا يعبر عنه بلفظه الموضوع له، ولا بدلالة الإشارة، بل بلفظ يرادفه، كقوله تعالى: «وقضي الأمر» ^(٣). والأصل: وهلك من قضى الله هلاكه، ونجا من

(١) أي معظمه.

(٢) الكشف: ج ٤ ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٣) البقرة: ٢١٠.

قضى الله نجاته. وعدل عن لفظ ذلك إلى الارداد، لما فيه من الایجاز والتنبیه على أن هلاك الهالك ونجاة الناجي كان بأمر آمر مطاع، وقضاء من لا یرد قضاؤه، والأمر يستلزم أمراً، فقضاؤه يدلّ على قدرة الأمر به وقهره، وأنّ الخوف من عقابه ورجاء ثوابه یحضّان على طاعة الأمر، ولا یحصل ذلك كله من اللفظ الخاص.

وكذا قوله: «استوت على الجودي»^(١). حقيقة ذلك: جلست، فعدل عن اللفظ الخاص بالمعنى إلى مرادفه، لما في الاستواء من الإشعار بجلوس متمكّن لا زیغ فيه ولا ميل، وهذا لا یحصل من لفظ الجلوس.

وكذا قوله: «فیهنّ قاصرات الطرف»^(٢)، أي عفيفات، وعدل عنه للدلالة على أنّهن مع العفة لا تطمح أعینهنّ إلى غير أزواجهنّ، ولا يشتهينّ غیرهم. ولا یؤخذ ذلك من لفظ العفة. قال بعضهم: والفرق بين الكناية والارداد أنّ الكناية انتقال من لازم إلى ملزوم، والارداد من مذکور إلى متروک.

ومن أمثله أيضاً: «لیجزی الذین أسأؤوا بما عملوا ویجزی الذین أحسنوا بالحسنى»^(٣) عدل في الجملة الأولى عن قوله «بالسوء» مع أنّ فيه مطابقة كالجملة الثانية إلى «بما عملوا» تأدّباً أن یضاف السوء إلى الله تعالى^(٤).

(١) هود: ٤٤.

(٢) الرحمن: ٥٦.

(٣) النجم: ٣١.

(٤) معترك الاقران: ج ١ ص ٢٨٧ - ٢٩١.

١٠ - طرائف وظرائف

(من روائع بدائع كلام الله المجيد)

هناك الكثير من لطائف البدائع، ترفع من شأن الكلام وتعظم من قدره، وليست مجرد تحسين لفظ أو تحبير عبارة. بل هي من عمود البلاغة وأسس الفصاحة ومن براءة البيان. وقد ملئ القرآن من باقات زهورها وطاقات بدورها، وهي إلى الازدياد كلما أمعن النظر ودقق الفكر، أقرب منها إلى الانتهاء. وكان ينبغي التنبيه لطرائفها والتطلع على ظرائفها، تميماً لفوائد سبقت وتكميلاً لفرائد سلفت، كانت لا يحصى عددها ولا ينتهي أمدها. فلهذه درة من عظيم كلام وفخيم بيان، وإليك منها نماذج:

الالتفات أو التفنن في أسلوب الخطاب

أم هو

كروفر ونحوال، ومداورة بعنان الكلام

بل هي

فروسة العربية وشجاعة البيان

قال ابن الأثير: هو خلاصة علم البيان التي حولها يُدَنَّدُنْ، وإليها تستند البلاغة، وعنها يُعْتَنَعُنْ. وحقيقته مأخوذة من التفات الانسان يمينه ويسره، فهو

يُقبل بوجهه إلى جهة تارة، وإلى جهة أخرى تارة أخرى. ويسمى أيضاً «شجاعة العربية» لأنّ الشجاعة هي الإقدام. وذلك أنّ الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورّد ما لا يتورّده غيره. وكذلك الالتفات في الكلام، فإنّ اللّغة العربية - على وفرة تفانيها وسعة مفاهيمها - تحتمل هذا التجوال ما لا تحتمله غيرها من سائر اللغات^(١).

قال السكاكي: والعرب يستكثرون من الالتفات، ويرون الكلام إن انتقل من اسلوب إلى اسلوب كان أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية لنشاطه، وأملأ باستدرار إصغائه. قال: وأجدر بهم في هذا الصنيع، أفتراهم يحسنون قرى الاضياف بتلوين الطعام، وهم أبدان وأشباح، ولا يحسنون قرى النفوس والأرواح بتنويع الكلام؟! والكلام كلّما ازداد طراوة كان أشهى غذاءً للروح وأطيب قرئاً للقلوب.

قال: وهذا الوجه - وهو تطرية نشاط السامع - هو فائدته العامة. وقد يختصّ مواقع بلطائف معانٍ، قلّما تتضح إلّا لأفراد بلغائهم أو للحذاق المهرة في هذا الفنّ والعلماء النحارير. ومتى اختصّ موقعه بشيء من اللطائف والظرائف كساه فضل بهاء ورونق ورواء، وأورث السامع زيادة هزة ونشاط، ووجد عنده من القبول أرفع منزلة ومحل، إن كان ممّن يسمع ويعقل، وقليل ما هم، أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون؟!

قال: ولأمر ما وقع التباين الخارج عن الحدّ بين مفسّر لكلام ربّ العزة ومفسّر، وبين غواصٍ في بحر فوائده وغواصٍ.

وكل التفات وارد في القرآن الكريم، متى صرت من سامعيه، عرّفك ماموقعه. وإذا أحببت أن تصير من سامعيه فأصخّ ثمّ، ليُتلى عليك:

(١) المثل السائر: ج ٢ ص ١٧٠.

قوله تعالى: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

أليس إذا أخذت في تعديد نعم المولى - جلّت آلاؤه - مستحضراً لتفاصيلها أحسست من نفسك بحالة كأنها تطالبك بالإقبال على منعمك، وتزين لك ذلك، ولا تزال تتزايد مادمت في تعديد نعمه، حتى تحملك من حيث لا تدري على أن تجدك وأنت معه في الكلام تثني عليه وتدعوله وتقول: بأيّ لسان أشكر صنائعك الروائع، وبأيّة عبارة أحصر عوارفك الذوارف^(١)، وما جرى هذا المجرى...

وإذا وعيت ما قصصته عليك وتأملت الالتفات في «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» - بعد تلاوتك لما قبله «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ» - على الوجه الذي يجب، وهو التأمل القلبي، علمت ماموقعه، وكيف أصاب المحزّ^(٢) وطبق مفصل البلاغة، لكونه منبهاً على أنّ العبد المُنعم عليه بتلك النعم العظام إذا قدّر أنه مائل بين يدي مولاه، من حقه إذا أخذ في القراءة أن تكون قراءته على وجه يجد معها من نفسه شبه محرّك إلى الإقبال على من يحمده، صائر في أثناء القراءة إلى حالة شبيهة بإيجاب ذلك عند ختم الصفات، مستدعية انطباقها على المنزل على ما هو عليه، وإلا لم يكن قارئاً.

والوجه: هو إذا افتتح التحميد أن يكون افتتاحه عن قلب حاضر ونفس ذاكرة، يعقل فيمّ هو؟ وعند من هو؟ فإذا انتقل من التحميد إلى الصفات، أن يكون انتقاله محذوفاً به حذو الافتتاح، فإنه متى افتتح على الوجه الذي عرفت، مُجرباً على لسانه «الْحَمْدُ لِلَّهِ»، أفلا يجد محرّكاً للإقبال على من يحمده، من معبود عظيم الشأن، حقيق بالثناء والشكر، مستحقّ للعباد؟

(١) العوارف: جمع العارفة بمعنى المعروف. والذوارف: جمع الذارفة، من الذرف بمعنى الانصباب.

(٢) المحزّ: القطع. والمحزّ: موضع الذبح.

ثم إذا انتقل على نحو الافتتاح إلى قوله: «رب العالمين» واصفاً له بكونه رباً مالكاً للخلق، لا يخرج شيء من ملكوته وربوبيته، أفترى ذلك المحرك لا يقوى؟

ثم إذا قال: «الرحمن الرحيم» فوصفه بما ينبئ عن كونه منعماً على الخلق بأنواع النعم، جلالها ودقائقها، مصيباً إياهم بكل معروف، أفلا تتضاعف قوة ذلك المحرك عند هذا؟

ثم إذا آل الأمر إلى خاتمة هذه الصفات، وهي «مالك يوم الدين» المنادية على كونه مالكاً للأمر كله في العاقبة يوم الحشر للشواب والعقاب، فما ظنك بذلك المحرك، أيسع ذهنك أن لا يصير إلى حد يوجب عليك الإقبال على مولى، شأن نفسك معه منذ افتتحت التحميد ما تصوّرت، فتستطيع أن لا تقول: «إيتاك، يامن هذه صفاته، نعبد ونستعين، لا غيرك» فلا ينطبق على المنزل على ما هو عليه؟

وأخيراً قال: واعلم أن لطائف الاعتبارات المرفوعة لك في هذا الفن، من تلك المطامح النازحة من مقامك لا تثبتها حق إثباتها، ما لم تتمر بصيرتك في الاستشراف لما هنالك أطياء المجهود، ولم تختلف في السعي للبحث عنها وراءك كل حدّ معهود... وعلماء هذه الطبقة النازحة بأنواع البصائر، المخصوصون بالعناية الإلهية الممدّلون بما أوتوا من الحكمة وفصل الخطاب.

على أن كلام رب العزة - وهو قرآنه الكريم وفرقانه العظيم - لم يكتس تلك الطلاوة، ولا استودع تلك الحلاوة، وما أغدقت أسافله، ولا أثمرت أعاليه، وما كان بحيث يعلو ولا يعلى، إلا لانصبابه في تلك القواليب، ولوروده على تلك الأساليب^(١).

(١) مفتاح العلوم (آخر الفن الثاني من علم المعاني) ص ٩٥ - ٩٨.

وقيل -زيادة على مامر-: إنّ من لطائفه التنبيه على أنّ مبتدأ الخلق الغيبة عنه سبحانه، وقصورهم عن محاضراته ومحاطبته، وقيام حجاب العظمة عليهم، فاذا عرفوه بما هو أهله وتوسّلوا للقرب بالثناء عليه، وأقروا له بالمحمد، وتعبّدوا له بما يليق بهم، تقرّباً إلى ساحة قدسه الكريم، فعند ذلك تأهّلوا لمحاطبته ومناجاته عن حضور، فقالوا: إياك نعبد، وإياك نستعين^(١).

حذّ الالتفات وفائدته:

هو عند الجمهور: التعبير عنه بطريق من الطرق الثلاثة (التكلم والخطاب والغيبة) بعد التعبير عنه بطريق آخر منها. وعمّته السكاكي إلى كل تعبير وقع فيما حقّه التعبير بغيره، حسب ظاهر السياق. كالتعبير بالماضي في موضع كان حقّه الاستقبال أو الحال. أو وضع المضمّر موضع المظهر أو العكس. ونحو ذلك ممّا يتحوّل وجه الكلام فجأة على خلاف السياق^(٢).

وفائدته العامة هي تطرية نشاط السامع وصيانته عن الملل والسآمة، لما جبلت النفوس على حبّ الانتقال وتصريف الأحوال، فتملّ من الاستمرار على منوال واحد من وجه الكلام... هذه هي فائدته العامة السارية في جميع مواردّه. وتختصّ مواضعه، كلّ بنكتة وظرفة زائدة، يخلو بها البيان وتهشّ إليها النفوس وتستلذّها.

قال الزمخشري: وذلك على عادة افتنان العرب في كلامهم وتصرفهم فيه. ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه، من إجراءاته على أسلوب واحد. وقد تختصّ

(١) معترك الاقتران: ج ١ ص ٣٨٢.

(٢) أنوار الربيع: ج ١ ص ٣٦٢. والمثل السائر لابن الاثير ج ٢ ص ١٧١.

مواقعه بفوائد^(١).

وتنظر ابن الأثير في هذا التبرير، قال: لأنّ الانتقال في الكلام إذا كان لأجل تطرية نشاط السامع فإنّ ذلك يدلّ على أنه يميل من اسلوبه فيضطرّ إلى الانتقال إلى غيره ليجد نشاطاً للاستماع. وهذا قدح في الكلام لا وصف له، إذ لو كان حسناً لمامل. على أن هذا لو سلّم لكان في مُطَنَّب مطوّل، لا في مثل الالتفاتات الواقعة في تعابير موجزة وآيات قصيرة من الذكر الحكيم.

فلعلّ المقصود: هو مجرد الانتقال من اسلوب إلى اسلوب، ليكون نفس هذا هو المطلوب لا الانتقال إلى الأحسن. الأمر الذي ليس يذهب على مثل الزمخشري العارف بفنون الفصاحة والبلاغة.

قال: والوجه عندي أنّ الانتقال لا يكون إلّا لفائدة اقتضته، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال، وهي لا تحدّ بحدّ، ولا تضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها، ليقاس عليها غيرها. فإنّا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب. ثم رأينا ذلك بعينه - وهو ضدّ الأول - قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة. فعلمنا أنّ الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود، وذلك المعنى يتشعب شعباً كثيرة لا تنحصر، وإنما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه^(٢). ثم جعل يوضح حقيقة ما في هذا الباب بضرب الأمثلة التالية:

فأمّا الرجوع من الغيبة إلى الخطاب فكقوله تعالى - في سورة الفاتحة -:

(١) تفسير الكشاف: ج ١ ص ١٤.

(٢) المثل السائر: ج ٢ ص ١٧٣.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ. إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ».

هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب. ومما يختص به هذا الكلام من الفوائد قوله: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» بعد قوله: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». فإنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب لأن الحمد ذون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبد! فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر، فقال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ»، ولم يقل: الحمد لك. ولما صار إلى العبادة - التي هي أقصى الطاعات - قال: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» فخطب بالعبادة إصراحاً بها، وتقرّباً منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدود منها.

وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة، فقال: «صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» فأصرح موضع التقرب من الله بذكر نعيمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب، فأسند النعمة إليه لفظاً، وزوى عنه لفظ الغضب تحنناً ولطفاً.

فانظر إلى هذا الموضع وتناسب هذه المعاني الشريفة التي الأقدام لا تكاد تطأها، والأفهام مع قرها صافحة عنها. وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب لتعظيم شأن المخاطب.

ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة لتلك العلة بعينها، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضاً، لأن مخاطبة المولى تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لمخاطبه، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لمخاطبه.

فينبغي أن يكون صاحب هذا الفن من الفصاحة والبلاغة عالماً بوضع أنواعه في مواضعها على اشتباهها.

ومن هذا الضرب قوله تعالى: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا»^(١).

وإنما قيل: «لَقَدْ جِئْتُمْ» وهو خطاب للحاضر، بعد قوله: «وقالوا...» وهو خطاب للغائب، لفائدة لطيفة، وهي زيادة التسجيل عليهم بالجرأة على الله سبحانه، والتعرض لسخطه، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه، كأنه يخاطب قوماً حاضرين بين يديه صاغرين منكراً عليهم وموبخاً لهم.

* * *

ومن هذا الباب قوله تعالى: «أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ»^(٢). فبدأ بالغيبة «أَلَمْ يَرَوْا...» وختم بالخطاب «نُمَكِّنْ لَهُمْ». قيل: لنكتة هي: حث السامع وبعثه على الاستماع. حيث أقبل المتكلم عليه، وأعطاه فضل عناية وتخصيص بالمواجهة. ومنه أيضاً قوله تعالى: «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا. إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً»^(٣). فهو تشریف لمقامهم بالحضور لديه، وتفخيم لشأنهم.

ومنه: «إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ»^(٤). وهذا الالتفات هنا كان لأجل تخصيص الحكم بشخصه (صلى الله عليه وآله)، فلا يعم المسلمين، فيما لوتوهم متوهم أن ذكره كان للتمثيل لا للتخصيص.

وهذا نظير ما قالوه بشأن آية الإسراء^(٥) من أن الوجه في العدول من الغيبة

(١) سورة مريم: ٨٨ و ٨٩. والإد: الأمر المنكر المثير للجلبة، من قولهم: أدت الناقة إذا رجعت حينها ترجيعاً شديداً. والأديد: الجلبة.

(٢) الأنعام: ٦.

(٣) الانسان: ٢١ و ٢٢.

(٤) الأحزاب: ٥٠.

(٥) قوله: «سبحان الذي أسرى بعبده - إلى قوله - لثرتة...» انتقالاً من الغيبة إلى التكلم عن النفس.

إلى خطاب النفس كان لتخصيص القدرة، وأنه غير مستطاع لغيره تعالى، وهكذا هنا، إرادة لتخصيص هذا الحكم بالنبي (صلى الله عليه وآله) دون غيره.

ومما جاء من الالتفات مراراً على قصر متنه وتقارب طرفيه قوله تعالى: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

فقال أولاً: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى» بلفظ الواحد، ثم قال: «الَّذِي بَارَكْنَا» بلفظ الجمع، ثم قال: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» وهو خطاب غائب. ولو جاء الكلام على مساق الأول لكان: سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ليريه من آياته إنه هو السميع البصير. وهذا جميعه يكون معطوفاً على «أسرى»، فلما خولف بين المعطوف والمعطوف عليه في الانتقال من صيغة إلى صيغة كان ذلك اتساعاً وتفتناً في أساليب الكلام، ولمقصود آخر معنوي هو أعلى وأبلغ.

وقد أسهب ابن الأثير الكلام هنا وأبدع وأجاد، فلنتتبع مقاله:

قال: وسأذكر ماسنح لي في هذه الآية الكريمة:

لما بدأ الكلام بـ «سبحان» ردفه بقوله: «الذي أسرى» إذ لا يجوز أن يقال: الذي أسرينا. فلما جاء بلفظ الواحد - والله تعالى أعظم العظماء، وهو أولى بخطاب العظيم في نفسه الذي هو بلفظ الجمع - استدرك الأول بالثاني، فقال: «باركنا». ثم قال: «إِنَّهُ هُوَ» عطفاً على «أسرى»، وذلك موضع متوسط الصفة، لأن السمع والبصر صفتان يشاركه فيها غيره، وتلك حال متوسطة، فخرج بهما عن خطاب العظيم في نفسه إلى خطاب غائب..

فانظر إلى هذه الالتفاتات المترادفة في هذه الآية الواحدة، التي جاءت

لمعانٍ اختصت بها، يعرفها من يعرفها، ويجهلها من يجهلها^(١).

ومما ينخرط في هذا السلك، الرجوع من خطاب الغيبة إلى خطاب النفس، كقوله تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ»^(٢).

والفائدة في هذا العدول: أنَّ طائفة من الناس غير المتشرعين كانوا يعتقدون أنَّ النجوم ليست في سماء الدنيا، وأنها ليست حفظاً ورجوماً. فلما صار الكلام إلى هنا عدل إلى خطاب النفس لأنه مهم من المهمات، فناسبه التعزيز بالاستناد إلى النفس - وهو القادر الحكيم - ومن ثم عاد إلى الوصف بالعمة والعلم توكيداً.

وأيضاً مما ينخرط في هذا السلك العدول من خطاب النفس إلى خطاب الجماعة، كقوله تعالى: «وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»^(٣). وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويدارهم، لأنَّ ذلك أدخل في إحماض النصيح، حيث لا يريد لهم إلّا ما يريد لنفسه. فقد وضع «وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ...» مكان: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم. بدليل «وإليه ترجعون». ولولا ذلك لقال: وإليه أرجع. وقد ساق الكلام ذلك المساق البديع إلى أن قال: «إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونَ»^(٤).

(٣) يس: ٢٢.

(٤) يس: ٢٥.

(١) المثل السائر: ج ٢ ص ١٧٦.

(٢) فصلت: ١٢.

فانظر أيها المتأمل إلى هذه الثُكت الدقيقة التي تمرّ عليها في آيات الذكر الحكيم، وأنت تظنّ أنك فهمت فحواها، واستنبطت مغزاها.

وعلى هذا الأسلوب يجري الحكم في الرجوع من خطاب النفس إلى خطاب الواحد، كقوله تعالى: «حَم. وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ. أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»^(١).

وفائدة العدول في قوله «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» هو تخصيص النبي (صلى الله عليه وآله) بالذكر، وأنه المقصود بالذات من هذا النزول.

قال^(٢): وإذا تأملت مطاوي القرآن الكريم وجدت فيه من هذا وأمثاله الشيء الكثير. وإنما اقتصرنا على هذه الأمثلة المختصرة ليقاس عليها ما يجري على أسلوبها، فيتدبر المتدبرون.

وأما الرجوع من الخطاب إلى الغيبة، فكقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَأَن نُّجِّيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَثْنَاكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»^(٣).

انظر إلى هذا الكرّ والفرّ، والاستطراد والرجوع، والمداورة العجيبة في الكلام. فقد بدأ الحديث بخطاب الجمع، وعاد إلى الغيبة في فصل طويل،

(١) الدخان: ١-٦.

(٢) ابن الأثير في المثل السائر: ج ٢ ص ١٧٨.

(٣) يونس: ٢٢ و ٢٣.

ورجع أخيراً إلى مابداً به أولاً، ولكن في صورة أعم وأشمل، فكأنما الناس جميعاً هم الحضور المخاطبون بهذا الكلام العام.

قال ابن الأثير: إنما صرف الكلام هاهنا من الخطاب إلى الغيبة بهذا الشكل البديع لفائدة كبرى، هي: أنه ذكر لغيرهم حالهم، ليعجبهم منها كالمخبر لهم، ويستدعي منهم الإنكار عليهم. ولوقال: حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم... الخ، وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة. وليس ذلك بخاف على نقدة الكلام^(١).

ومما ينحو هذا النحو قوله تعالى: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون. وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ» ويستمر الحديث عنهم بخطاب الغيبة، وينتهي إلى قوله: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ»^(٢).

الأصل في «تقطَّعوا» تقطعتم، إلا أنه صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريقة الالتفات، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى قوم آخرين، ويقبح عندهم ما فعلوه، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً! وذلك تمثيل لحالة اختلافهم في الدين، وتبذيرهم في معرفة الصلاح من الفساد، ثم توعدهم أخيراً بأن المرجع إليه، وسوف يجازيهم على أعمالهم، وهو شديد العقاب.

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ

(١) المثل السائر: ج ٢ ص ١٨١.

(٢) الأنبياء: ٩٢ - ٩٨.

تَهْتَدُونَ»^(١).

فإنه إنما قال: «فَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ...» ولم يقل: «فَامِنُوا بِاللَّهِ وَبِي...» لكي يمكن إجراء الصفات عليه، تنبيهاً على أن الذي يجب اتباعه هو هذا الانسان المتصف بهكذا صفات تؤهله للإمامة وحمل رسالة الله إلى الناس... إظهاراً للنصفة، وبعداً من تهمة التعصب للنفس... فقرر أولاً في صدر الآية أنه رسول الله إلى الناس.

ثم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة لغرضين، الأول: إمكان إجراء تلك الصفات عليه. الثاني: الخروج من تهمة حب الذات، لئلا يكون بمن يجز النار إلى قرصه. وهذا من لطيف البيان في المداراة مع العامة.

ونوع آخر من الالتفات، ما يكون الانتقال فيه من الفعل المستقبل أو الماضي إلى فعل الأمر، وهذا يدخل في الحد الذي ذكره السكاكي: كل تغيير وقع على خلاف مقتضى السياق إذا كان لنكتة بيانية.

قال ابن الأثير: وهذا القسم كالذي قبله في أنه ليس العدول فيه من صيغة إلى أخرى طلباً للتوسع ولجود التفتن في أساليب الكلام فقط، بل لأمر وراء ذلك، وسراً كامناً خلفه. فقد يقصد ذلك تعظيماً لشأن من أجرى عليه الفعل المستقبل وتفخيماً لأمره، وبالصّد من ذلك في من أجرى عليه فعل الأمر.

فمما جاء منه قوله تعالى: «قَالُوا يَا هُوَذَا مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنْ شِئْتُ اللَّهُ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ»^(٢).

لم يقل: أشهد الله وأشهدكم، وإنما عدل إلى صيغة الأمر، تهاوناً بهم، فلا يتوازنوا مع الله في شهادة صدق على البراءة.

ومنه العدول عن الماضي إلى الاستقبال أو العكس، كقوله تعالى: «وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فُسُقْتَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ»^(١). فقوله: «تثير» مسبوق وملحق بالفعل الماضي، اهتماماً بشأنه، إرادة لاستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة، وهي حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الرياح للسحب. وهكذا يفعل بكل أمر فيه ميزة واختصاص، كحال تُسْتَغْرَب أو تُهْمُ المخاطب أو غير ذلك.

قال ابن الأثير: العدول عن صيغة إلى أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، ولا يتوخاه إلا العارف برموز الفصاحة وأسرار البلاغة. وليس يوجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكل ضروب علم البيان وأدقها فهماً وأغمضها طريقاً^(٢).

ونظير الآية قوله: «فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتُخَفِّفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ»^(٣) فهو لاستحضار صورة خطف الطير إياه أو هويّ الرياح به. وللآية تصوير فتيّ رائع تكلّمنا عنه.

وقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ»^(٤) لم يقل: وصدّوا... لأن كفرهم كان سابقاً، وإنما المتجدّد هو الصدّ عن سبيل الله، ولا يزال مستمراً.

ومثلها قوله: «أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً»^(٥). لأن

(٤) الحج: ٢٥.

(٥) الحج: ٦٣.

(١) فاطر: ٩.

(٢) المثل السائر: ج ٢ ص ١٨٤.

(٣) الحج: ٣١.

نزول المطر ينقطع أما الاخضرار فيبقى مدة.

وقد عكس ذلك في قوله: «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ»^(١) فالعدول إلى الماضي للدلالة على التحقق وأنه كائن لا محالة. ومثلها قوله: «وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَا هُمْ فَلَمْ نَعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا»^(٢).

ويجري هذا المجرى الإخبار عن المستقبل باسم المفعول، كما في قوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ»^(٣).

لأن اسم المفعول يتضمن معنى الفعل الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة. فإنه إنما أثر اسم المفعول الذي هو «مَجْمُوعٌ» على الفعل المستقبل الذي هو «يُجْمَعُ» لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه الموصوف بهذه الصفة. قال ابن الأثير: وان شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى: «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ»^(٤) فإنك تعثر على صحة ما قلت^(٥).

* * *

ونوع آخر من الالتفات، هو أشبه بباب «الاستطراد» بأن يشرع المتكلم في نوع من الكلام ويستمر عليه، ثم يخرج إلى غيره، وأخيراً يعود إلى ما كان عليه. فلنسميه «مداورة الكلام»، وهو من لطيف التفتن في التعبير، كمن يطارد صيداً فيعتقه له آخر فيطرده، ثم يرجع إلى الأسبق وهكذا. وقد ذكره بعضهم باسم «الاعتراض» و«الاستدراك». وعلى أية حال فإنه من تداخل الفنون الجميلة وجمع أنحاء الجمال.

(١) النمل: ٨٧.

(٢) الكهف: ٤٧.

(٣) هود: ١٠٣.

(٤) التغابن: ٩.

(٥) المثل السائر: ج ٢ ص ١٩١.

ومثّلوا له بقوله تعالى: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ»^(١).
 فقوله: «وَلَنْ تَفْعَلُوا» استدراكٌ جميل، وتأسيسٌ لطيف، وتبكيّةٌ قاطع،
 فلله دَرّة من التفات بديع.

قال قدامة بن جعفر الكاتب^(٢): أراد تعالى أن يضمن آية التحذير ضرباً
 آخر من الإعجاز بأخباره عن عجز مطبق عن إمكان معارضته مع الأبد، ليكون
 جريان هذا الخبر الصادق على لسان نبيّه، حتى إذا وقع كان علماً على صدقه،
 فردّ المكذّبين، وثبّت المؤمنين، فقال: «ولن تفعلوا» قبل أن يتم الكلام الأول.
 وكان يمكنه تأخير هذه الجملة... لكن لهذا التقديم تأثير بليغ في النظم، يجعل له
 في القلوب من الجلالة والتفخيم والرونق ما لا يعبر عنه. ولا يعرف لذلك سبب
 ظاهر إلا وقوع تجنيس الازدواج بقوله: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا» نظير قوله:
 «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ»^(٣). لكنه في المعنى كان لهذا التقديم سبب
 أقوى، هي زيادة علم من أعلام النبوة، كانت مراعاته أولى على الموعظة بقوله:
 «فَاتَّقُوا النَّارَ»^(٤).

ونظيره قوله تعالى: «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ
 وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ»^(٥).
 فقوله: «وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ» جملة معترضة أفادت تذكيراً بملزمة
 التقوى التي هي خير لباس الصلاح، ثم يعود الكلام إلى ما قبله.
 قال قدامة بن جعفر: لَمَّا امتنّ سبحانه على البشر بما أنزل عليهم من

(١) البقرة: ٢٤.

(٢) توفي سنة ٣٣٧ كان يضرب به المثل في البلاغة.

(٣) البقرة: ١٩٤.

(٤) بديع القرآن: ص ٤٣.

(٥) الأعراف: ٢٦.

اللباس وسهل عليهم أمره - في سياق قصة أبيهم آدم عليه السّلام - أراد تذكيرهم بملازمة لباس التقوى. وكان يمكنه التأخير، لكن ليحصل نوع مناسبة مع صدر الكلام، حيث مجيء ذكر اللباس. وهو من محاسن البديع، كما في قول الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبّة وقيصا

ففيه «المشاكلّة» و«التجنيس» بكلا قسميه «جناس المزاوجة» و«جناس المناسبة» على ماشرحه القوم^(١).

* * *

قال ابن أبي الاصبغ: وجاء في الكتاب العزيز من الالتفات قسم غريب جداً - لم أظفر في سائر الكلام له بمثال، هدايني الله إلى العثور عليه - وهو: أن يقدم المتكلم في كلامه حديثاً عن أمرين يتعاقبان، ثم يخبر عن الأول منها بشيء، وينصرف عنه إلى الإخبار عن الثاني، ثم يعود إلى الإخبار عن الأول، كقوله تعالى: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ. وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ». انصرف عن الإخبار عن الانسان إلى الإخبار عن ربه تعالى، ثم انصرف عنه وأخبر عن الانسان ثانياً «وإِنَّهُ لَحُبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ»^(٢) قال: وهذا يحسن أن يسمى «التفات الضمائر»^(٣).

قلت: هذا من مداورة الكلام ورّد العجز على الصدر أيضاً، الأمر الذي يحصل به بين أطراف الكلام ملاءمة وتلاحم وائتلاف، وهو من لطيف الكلام.

والآية إنما تصلح مثلاً لذلك، بناءً على عود الضمير في «إِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ

(١) بديع القرآن: ص ٣٧ و ٤٤، وراجع المطول للتفتازاني: ص ٤٢٢.

(٢) العاديات: ٦ - ٨.

(٣) بديع القرآن مع تصرف: ص ٤٥. وصحّحناه على معترك الأقران: ج ١ ص ٣٨٣.

لَشَهِيد» على «رَبِّه» وهو أحد القولين^(١).

ذكر التنوخي^(٢) وغيره: أن من الالتفات نقل الخطاب من الواحد إلى الاثنين أو الجمع والعكس، كقوله تعالى: «قَالُوا أَجِئْنَا لَتُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبَرَاءُ فِي الْأَرْضِ»^(٣). ولا شك أن الخطاب كان مع موسى (عليه السَّلام) ولكن هارون كان عضده ووزيره فكان المتهم في الاستحواذ على سلطة البلاد - في نظرهم - هما معاً.

وقوله: «فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى»^(٤). وقد مرَّ أن العدول إلى الأفراد كان لأجل مراعاة الفاصلة أولاً. وثانياً لأنَّ الذي يقع في المشقة من الزوجين هو الزوج بالذات.

وقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً»^(٥) كان المخاطب والمسؤول الأول بهذا التكليف هو موسى وهارون (عليهما السَّلام) غير أن الذي يجب عليه استقبال البيوت في الصلاة هم بنو إسرائيل كافة. ومن ثمَّ هذا العدول.

وأمثال هذه الدقائق - في كتاب الله العزيز الحميد - كثير، وإنما يبلغها العارفون من أهل النظر والتحقيق، وقليل ما هم.

(١) راجع الكشف: ج ٤ ص ٧٨٨.

(٢) هو القاضي أبو القاسم علي بن محمَّد الانطاكي (٢٧٨ - ٣٤٢) كان من أعيان فضلاء عصره عظيماً واسع الأدب حسن الفصاحة، وكانوا يعدُّونه ربحانة الندماء وتاريخ الظرفاء.

(٣) يونس: ٧٨.

(٤) طه: ١١٧.

(٥) يونس: ٨٧.

إيجاز وإفاء

أم براعة في بلاغة البيان؟

الإيجاز: هو حذف فضول الألفاظ مع الإيفاء بكمال المقصود. وهو نوع من الكلام شريف، لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة، وسُبَّاق ميادين الفصاحة، ممَّن سبق إلى غايتها وما صلَّى، وضرب في أعلى درجاتها بالقدح المعلن. وذلك لعلو شأنه ورفيع مقامه، بل ولتعدُّر إمكانه على غير أهله.

والبليغ كل البليغ من أوجز في كلامه فأوفى، واختصر في مقاله فأفاد. الأمر الذي يصعب على غير النبلاء من أرياب الفصاحة والبيان. وقد كان للقرآن منه الحظُّ الأوفر والقسط الأكبر بما أثار الإعجاب وأطار بعقول ذوي الألباب.

قال ابن الأثير: والنظر في هذا الباب إلى المعاني بالذات لا إلى الألفاظ، ولست أعني بذلك أن تُهمَل الألفاظ، بحيث تُعرَى عن أوصافها الحسنة، بل أعني أنَّ مدار النظر في هذا النوع إنما يختصُّ بالمعاني، فربَّ لفظ قليل يدلُّ على معنى كثير، وربَّ لفظ كثير يدلُّ على معنى قليل.

ومثال هذا كالجوهرة الواحدة إلى الدراهم الكثيرة، فن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها، ومن ينظر إلى شرف المعاني يؤثر الجوهرة لنفاستها. ولهذا سمَّى النبيَّ (صلَّى الله عليه وآله) سورة الفاتحة «أُمُّ الكتاب». وإذا نظرنا إلى مجموعها وجدناه يسيراً، لا يتناسب أن تكون «أُمًّا» لمثل سورة

«البقرة» أو «آل عمران» من السور الطوال، فعلمنا أنّ ذلك لأمر يرجع إلى معانيها.

وهذه المناسبة أفاد بيان أقسام معاني القرآن بما يشتمل عليه سُورُهُ وآيَاتُهُ من أنحاء ستة، ثلاثة منها أصول، وثلاثة فروع موفّرة أكثرها في الفاتحة. أمّا الأصول، فأحدها: التعريف بالمدعوّ إليه بما اشتمل على ذكر صفاته ونعوته. وثانيها: التعريف بالصرّاط المستقيم الذي يجب سلوكه إلى الله تعالى. وثالثها: تعريف الحال بعد اللقاء في نهاية المطاف.

وأما الفروع، فأحدها: التعريف بأحوال كل من المجيبين للدعوة والعاصين، وصنع الله بهم من النصر أو التدمير. وثانيها: ذكر مجادلات الخصوم. وثالثها: أخذ الزاد والأهبة للاستعداد.

فهذه أنحاء ستة تدور عليها معاني القرآن الكريم، فإذا نظرنا إلى سورة الفاتحة وجدناها حاوية على أربعة من هذه الأنحاء. ولذلك سمّاها النبيّ (صلى الله عليه وآله) أمّ الكتاب.

كما أنه (صلى الله عليه وآله) قال: «سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن» لأنها تحوي على اثنين من هذه الستة... ولذلك كانت آية الكرسي سيّدة آي القرآن. ويروى أنه (صلى الله عليه وآله) سأل أبي بن كعب، فقال: أيّ آية معك في كتاب الله أعظم؟ فقال: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم...» فضرب (صلى الله عليه وآله) في صدره وقال: «ليتهنك العلم، أبا المُنذر» وكانت كنية أبيّ بن كعب.

قال: وكل هذا يرجع إلى المعاني، لا إلى الألفاظ، فاعرف ذلك وبَيِّنْه لرموزه وأسراره^(١).

(١) المثل السائر: ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٨.

قسما الإيجاز

والإيجاز إمّا بظاهر الحذف، في حرف أو كلمة أو جملة... ممّا يتنبّه له اللبيب من غير كبير كلفة، لدلالة فحوى الكلام عليه. أو غير محذوف الظاهر، سوى أنه من قليل اللفظ كثير المعنى. ويسمى إيجاز القصر.

قال ابن الأثير: والتنبّه لمواضع القصر فيه عسر جداً، يحتاج إلى فضل تأمل وطول تدبّر، لحفاء ما يستدلّ عليه. ولا يستنبطه إلّا من رست قدمه في ممارسة هذا العلم (البيان) وصار له خليقة وملكة^(١).

إيجاز حذف:

قال ابن الأثير: أمّا الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر شبيه بالسحر، وذاك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجبدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق، وأتمّ ماتكون مبيّناً إذا لم تبين. وهذه جملة تُنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر^(٢).

ومن شرط حسنه، بل من لزوم حكم البلاغة فيه، أنه متى أظهر صار الكلام إلى شيء غثّ، لا يناسب ما كان عليه أولاً من الطلاوة والجمال. وقد أكثر القرآن منه وأجاد فيه بما أثار الإعجاب، وأبان سرّاً من أسرار الإعجاز. القرآن لا يقف عند حدّ اجتناب الحشو والفضول من الكلام، وانتقاء الألفاظ والكلمات الثامّة الانطباق بالمعنى المراد. بل إنه كثيراً ممّا يسلك في الإيجاز سبيلاً أعزّ وأعجب تراه يعمد - بعد حذف فضول الكلام وزوائده - إلى حذف شيء من أصوله وأركانه التي لا يتمّ الكلام في العادة إلّا به، ولا يستقيم

(٢) المصدر: ص ٢٧٩.

(١) المثل السائر: ج ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٦.

المعنى بدونه، وفي نفس الوقت يستثمر من تلك البقية الباقية ما يؤدّي المعنى كاملاً، في وضوح وطلاوة وعذوبة، حتى يُخيّل إليك من سهولة المسلك أنّ لفظه أوسع من المعنى قليلاً.

وإذا ما طلبت سرّ ذلك رأيته قد أودع معنى تلك الكلمات المحذوفة أو الجمل المطوية، في كلمة هنا وحرف هناك، ثم أدار الاسلوب إدارة عجيبة، وأمر عليها جندرة البيان^(١) بيد صناعته، فأحكم بها خلقه وسوّاه، ثم نفخ فيه من روحه، فاذا هو مصقول أملس، وإذا هو نير مشرق، لا تشعر النفس بما كان فيه من حذف أو طي، ولا بما صار إليه من استغناء واكتفاء، إلّا بعد تأمل وفحص دقيق.

انظر إلى قوله تعالى: «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضِّيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ»^(٢).

وردت الآية بشأن أولئك المجرمين، ممّن كان يتجاسر بموقف الرسول وبتهمّ به، قائلاً متمسخراً: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»^(٣).

وقد قال تعالى بشأنهم: «وَأِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوْفِّئَكَ فَأَلَيْنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ»^(٤).

وقال: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ. أَتَمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ»^(٥).

(١) يقال: جندرت الكتاب بمعنى أمر القلم على مدارس منه (النبا العظيم: ص ١٣١).

(٢) يونس: ١١.

(٣) الأنفال: ٣٢.

(٥) يونس: ٥١.

(٤) يونس: ٤٦.

إلى غيرها من آيات تنم عن سفه أحلام المجرمين، وقد أُلْحِدُوا في آياته.
فقد جاء قوله تعالى - في الآية - ردّاً على سفههم في استعجال العذاب: ماذا
يستعجل هؤلاء؟ أيستعجلون الشرّ؟ وهل ذاك في صالحهم لويُعَجِّلَ الله لهم
بالشرّ؟... فكانت الآية في نظمها الطبيعي مسوقة في ثلاثة مقاطع:
أولاً: لو كانت سنة الله أن يعَجِّلَ للناس الشرّ إذا استعجلوه كاستعجالهم
بالخير لعَجِّلَ لهم بالشرّ كما يعَجِّلَ لهم بالخير.

ثانياً: لكن سنته تعالى جرت بإمهال الظالمين حتى يحين حينهم.
ثالثاً: فعلى وفق هذا النظام الرتيب يُترك الظالمون وشأنهم في هذه الحياة
حتى يأتي يومهم الموعود.

تلك جل ثلاث كان الكلام في وضعه العادي مؤتلفاً منها، اثنتان
مقدمتان، والثالثة هي النتيجة، على شكل برهان. لكن القرآن اقتصر على
الجملة الأولى والأخيرة، طاوياً ذكر الثانية الوسطى، والتي كانت جملة
استدراكية حسب الترتيب المنطقي المؤلف.

وبعد، أفهل يحسّ بنقص في الكلام، أو بخلل في نظمه وتأليفه؟ أم هو
كلام واحد منسجم تمام الانسجام ووافٍ بإفادة الغرض من الكلام تمام
الإيفاء؟

ولعلّك عرفت البديل من المحذوف المطويّ، هي دلالة «لو» الامتناعية في
صدر الكلام و«فاء» النتيجة في ذيله. وهذا البديل أغنى عن ذكر المحذوف،
ولعلّه أنساه من طيّ الكلام بالمرّة، ولو ذكر لكان حشواً.

ومن ثمّ عيب على بيت الحماسي قوله:

ولو طار ذو حافر قبلها لطارت ولكنّه لم يطر

إذ لا حاجة إلى ذكر الاستثناء بعد وضوحه ودلالة الكلام عليه.

وأبرع الإيجاز ما كان بحذف الجمل التامة، هي أسئلة مقدرة أو تعاليل وأسباب ومسببات أو غير ذلك مما فضله علماء البيان^(١).

من ذلك قوله تعالى: «قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبْنِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِتُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ. وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ»^(٢).

فكان قوله «وَقَالَ الْمَلِكُ...» واقعاً بعد تقدير جمل، كأنه قال: فرجع الرسول إليهم، فأخبرهم بمقالة يوسف، فعجبوا لها، وقال الملك...

قال ابن الأثير: والمحذوف إذا كان كذلك دلّ عليه الكلام دلالة ظاهرة، لأنه إذا ثبتت حاشيتا الكلام وحذف وسطه ظهر المحذوف ظهوراً تاماً.

وهكذا ورد قوله تعالى: «فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ. قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ»^(٣).

فقد حذف من هذا الكلام جملة، تقديرها: ثم إنهم تجهزوا وساروا إلى مصر، فلما دخلوا على يوسف...

قال: وقد ورد من هذا الضرب (الإيجاز بحذف الجمل) في القرآن الكريم كثيراً، كقوله تعالى: «وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى

(١) راجع المثل السائر: ج ٢ ص ٢٨١.

(٢) يوسف: ٤٧ - ٥٠.

(٣) يوسف: ٩٦ - ٩٩.

أهل بيتٍ يكفُلُونَهُ لَكُمْ وهم له ناصِحُونَ. فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا»^(١).
لأنَّها لما قالت: «هَلْ أَذْلُكُمْ...» قالوا: نعم، فدلتهم على امرأة فجيء بها،
وهي أمُّه، ولم يَعْلَمُوا بها، فأرضعته، فكان قوله: «فَرَدَدْنَاهُ...» تعقيباً على
ذلك المحذوف ودليلاً عليه.

ومما يجري على هذا المنهج قوله تعالى في قصة سليمان (عليه السلام) مع
الهُدُودِ فِي إِرْسَالِهِ بِالْكِتَابِ إِلَى بَلْقِيسَ: «قَالَ سَتَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ
الْكَاذِبِينَ. أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ.
قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ»^(٢).

تقديره: فأخذ الكتاب، وذهب به، فلما ألقاه إلى المرأة وقرأته قالت...
قال: ومن الإيجاز بحذف الجمل ما يعسر تقدير المحذوف منه، بخلاف
ما جاء في القرآن الكريم، ألا ترى أنَّ الآيات المذكورة كلها إذا تأملتها وجدت
معانيها متصلة من غير تقدير للمحذوفات التي قدّرنا الحذف فيها، انتظاماً لظاهر
نظم الكلام، على أنَّ تقدير تلك المحذوفات سهل ببديهة النظر^(٣).

أنحاء الإيجاز بحذف الجمل

وهي أربعة ضروب

الجمل المقدرة حذفها قد تكون مستقلة بالإفادة وتامة، وأخرى غير تامة
كجملته الشرط أو الجزاء ونحو ذلك. والقسم الأول خاص بالقرآن، وهو أدلّ
على حسن الاختصار، قال ابن الأثير^(٤): وهذا أحسن المحذوفات جميعها، ولا
تكاد تجده إلا في كتاب الله العزيز الحميد، وسائر الكلام خلومنه البتة، فكان

(٣) المثل السائر: ج ٢ ص ٢٩١.

(١) القصص: ١٢ و ١٣.

(٤) المثل السائر: ج ٢ ص ٢٨٠.

(٢) النمل: ٢٧ - ٢٩.

وجهاً في الإعجاز.

وجملة القسمين أربعة أضرب:

الضرب الأول: حذف السؤال المقدّر، ويسمّى «الاستئناف». وهوتارة بإعادة الاسم أو الصفة، وأخرى بغير إعادتها ولا إشارة إليهما. والأحسن ما كان بإعادة الصفة، لانطوائه على بيان السبب الموجب لتخصيصه، وهذا أبلغ.

فتمّا ورد من ذلك قوله تعالى: «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(١) فإنه تعالى لمّا وسّمهم بتلك السّمات العظام أتجه لسائل أن يقول: ما بال المستقلين بتلك الصفات قد اختصّوا بالهدى والفلاح دون غيرهم؟ فأجيب بأنّ تلك السّمات أهلتهم لذلك، ففازوا بعناية الله لهم بالهدى عاجلاً وبالفلاح آجلاً. واسم الإشارة هنا بمنزلة إعادة الصفات أي أولئك الموسومون بالإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيله تعالى... الخ.

ومّمّا ورد بغير إعادة اسم ولا صفة قوله تعالى: «وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُون. إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُون. قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ»^(٢).

فخرج هذا القول «قِيلَ ادْخُلِ...» مخرج الاستئناف، لأنّ ذلك من

(١) البقرة: ٥.

(٢) يس: ٢٢ - ٢٧.

مظانّ المسألة عن حاله عند لقاء ربّه.

وكأنّ قائلًا قال: كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربّه، بعد ذلك التصلّب في دينه، والتسخّي لوجهه بروحه؟ فقل...
ولم يقل: قيل له، لانصباب الغرض إلى القول، لا إلى المقول له، مع كونه معلومًا.

وكذلك قوله: «يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ» مرتّب على تقدير سؤال سائل عمّا وجد.

ومن هذا النحو قوله عزّ وجلّ: «يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ»^(١).

والفرق بين إثبات الفاء في «فسوف» في آية أخرى نظيرتها: «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ»^(٢) وبين حذف الفاء في الآية الأولى أنّ إثباتها وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل، وحذفها وصل خفيّ تقديرّي بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدّر. كأنهم قالوا: فإذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وعملت أنت؟ فقال: سوف تعلمون... فوصل تارةً بالفاء، وتارةً بالاستئناف، وذلك كله تفتّن في البلاغة. وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف، وهو قسم من أقسام علم البيان، تتكاثر محاسنه، فاعرفه واغتم.

الضرب الثاني: الاكتفاء بالسبب عن المسبّب أو العكس.

(١) هود: ٩٣.

(٢) الزمر: ٣٩ و ٤٠.

أما الاكتفاء بالسبب فكقوله تعالى: «وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ»^(١). كأنه قال: وما كنت شاهداً لموسى (عليه السلام) وما جرى له وعليه، ولكننا أوحينا إليك. فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة، ودلّ به على المسبّب الذي هو الوحي، على عادة اختصارات القرآن.

وتقدير الكلام: ولكننا أنشأنا - منذ انقطاع الوحي بعد موسى - قروناً كثيرة، فتطاول عليهم العمر، أي أمد انقطاع الوحي، فاندurst العلوم واختلت المعارف بشؤون الأنبياء، ومن جملتها العلم بسيرة موسى (عليه السلام)، فدعت الحاجة إلى تجديد الوحي ببعث نبيّ جديد، فأرسلناك وعرفناك العلوم والمعارف. فالحذوف جملة مقيدة، وهي جملة مطولة، دلّ السبب فيها على المسبّب.

* * *

وكذلك ورد قوله تعالى عقيب هذه الآية أيضاً: «وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا آتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»^(٢).

فإنّ فيه تقديراً لولاه لم يستقم نظم الكلام. تقديره: ولكن عرفناك ذلك، وأوحيناه إليك رحمةً من ربك، لتنذر قوماً... فذكر الرحمة التي هي سبب إرساله (صلّى الله عليه وآله) إلى الناس، ودلّ بها على المسبّب الذي هو الإرسال.

ومما حذف فيه الجملة غير التامة من باب حذف المسبّب لدلالة السبب،

(١) القصص: ٤٤ و ٤٥.

(٢) القصص: ٤٦.

قوله تعالى: -حكاية عن مريم (عليها السلام)-: «قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشْرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا»^(١).

فقوله: «وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً...» تعليل معلله محذوف، أي: وإنما فعلنا ذلك لنجعله آية للناس. فذكر السبب الذي صدر الفعل من أجله، وهو جعله آية للناس، ودلّ به على المسبب الذي هو الفعل.

وأما الاكتفاء بالمسبب عن السبب فكقوله تعالى: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(٢). أي: إذا أردت قراءة القرآن فاكتفي بالمسبب الذي هو القراءة عن السبب الذي هو الإرادة.

والدليل على ذلك أنّ الاستعاذة قبل القراءة، أي استعذ إذا قرأت، أي أردت القراءة.

ونظيره قوله تعالى: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا...»^(٣) لأنّ الوضوء قبل القيام إلى الصلاة.

وأيضاً قوله: «فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا»^(٤). أي فضرب فانفجرت منه... وتسمى هذه الفاء فاء الفصيحة.

الضرب الثالث: الإضمار على شريطة التفسير. بأن يحذف من الكلام شيء، ويكون في آخر الكلام ما يدلّ عليه من لفظه.

(١) مريم: ٢٠ و ٢١.

(٢) النحل: ٩٨.

(٣) المائدة: ٦.

(٤) البقرة: ٦٠.

كقوله تعالى: «أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»^(١).

تقديره: أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه؟! ويدل عليه قوله -بعد ذلك-: «فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ».

وكقوله: «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا...»^(٢). فطرف الاستواء محذوف، دلت عليه الجملة بعدها.

* * *

الضرب الرابع: ما لا يكون أحد الثلاثة المتقدمة، كما في قوله تعالى: «قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا -إِلَى قَوْلِهِ: - وَفِيهِ يَعْصِرُونَ. وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ»^(٣).
فبين قوله: «وَفِيهِ يَعْصِرُونَ» وقوله: «وَقَالَ الْمَلِكُ...» تقدير جمل كثيرة، تقديرها: فرجع الرسول إليهم، فأخبرهم بمقالة يوسف، فعجبوا لها، فتشاوروا بينهم ماذا يفعلون، فاستقر أمرهم على أن يطلبوه، فيكلموه مشافهة... وقال الملك...

والمحذوف المقدّر قد دلّ عليه الكلام دلالة ظاهرة، وذلك لدلالة حاشيته.

* * *

وكذلك قوله: «فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ. قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. فَلَمَّا دَخَلُوا

(١) الزمر: ٢٢.

(٢) الحديد: ١٠.

(٣) يوسف: ٤٧ - ٥٠.

عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبُوهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِينَ»^(١).
تقديرها: ثم إنهم تجهّزوا وساروا إلى مصر، فلما دخلوا على يوسف...

قال ابن الأثير: وقد ورد هذا الضرب في القرآن الكريم كثيراً، كقوله تعالى: «وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ. فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا»^(٢).

في هذا محذوف، وهو جواب الاستفهام. لأنها قالت: هل أدلكم...؟ وتقدير الجواب: نعم. ودلّتهم على امرأة، فجيء بها، وهي أمّه، ولم يعلموا بمكانها، فأرضعته. وهذه الجملة الثانية - أعني قوله تعالى: «فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ...» - تدلّ على المحذوف. لأنّ رده إلى أمّه لم يكن إلّا بعد ردّ الجواب على أخته، ودلالتها إياهم على امرأة وصفتها لهم لكي ترضعه.

قال: ويكفي هذا الموضع وحده لمن يتبصر في مواقع المحذوفات وكيفيةها.

ومما يجري على هذا المنهج قوله تعالى - في قصة سليمان (عليه السلام) مع الهدهد وإرساله بالكتاب إلى بلقيس -: «قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ. قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ»^(٣).

تقديره: فأخذ الكتاب، وذهب به، فلما ألقاه إلى المرأة وقرأته قالت...

قال: ومن حذف الجمل ما يعسر تقدير المحذوف منه، بخلاف ما تقدّم، ألا

(٣) التل: ٢٧ - ٢٩.

(١) يوسف: ٩٦ - ٩٩.

(٢) القصص: ١٢ و ١٣.

ترى أن الآيات المذكورة كلها إذا تأملتها وجدت معانيها متصلة من غير تقدير للمحذوفات التي قدر حذفها. ثم إذا قدرت سهل تقديرها ببديهة النظر. ولكن هناك ما ليس كذلك، بل إذا تأمله المتأمل وجده غير متصل المعنى، وإذا أراد أن يقدر المحذوف عسر عليه.

فَمَا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ. وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ. اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ»^(١).

فهذا الكلام إذا تأملته لم تجده متصل المعنى، ولم يتبين وجه لمحيء ذكر داود (عليه السلام) رادفاً لقوله: «اصبر على ما يقولون». وإذا أردت أن تقدر هنا محذوفاً يوصل به المعنى عسر عليك.

وتقديره يحتمل وجهين:

أحدهما: أنه قال: «اصبر على ما يقولون»، وخوفهم أمر معصية الله، وعظمها في عيونهم بذكر قصة داود الذي كان نبياً وقد آتاه الله الملك والنبوة، ومع ذلك لما زلَّ زلَّةً قبل بكذا وكذا، فما الظنَّ بكم أنتم مع كفركم؟ والوجه الآخر: أنه قال: «اصبر على ما يقولون» واحفظ نفسك أن تزلَّ في شيء مما كلفته من مصابرتهم، واحتمال أذاهم. واذكر أخاك داود وكرامته على الله كيف زلَّ تلك الزلَّة، فلي من توبيخ الله مالمقى؟!!

فهذا الكلام كما ترى يحتاج إلى تقدير، حتى يتصل بعضه ببعض، وهو من أغمض ما يأتي من المحذوفات. وبه يتنبه على مواضع أخرى غامضة.

ومن هذا الضرب، وكأنَّ الجمل المحذوفة غير تامة، قوله تعالى: «يَا زَكَرِيَّا

إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ - إِلَى قَوْلِهِ: - بُكْرَةً وَعَشِيًّا. يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا»^(١).

تقديره: ولما ولد له الغلام المبشّر به ونشأ وترعرع قلنا له: يا يحيى خُذِ الكتاب!

وعلى هذا المنهج ورد قوله تعالى: «وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ - إِلَى قَوْلِهِ: - حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى. قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا...»^(٢).

تقديره: فلما رجع موسى وراهم على تلك الحال من عبادة العجل قال لأخيه: يا هارون...

وكذلك ورد قوله في قصة سليمان (عليه السلام) مع بلقيس: «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا - إِلَى قَوْلِهِ: - فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ - إِلَى قَوْلِهِ: - قَالَ نَكْرُوا لَهَا عَرْشَهَا...»^(٣).

تقديره: فلما جاء به قال: نكروا لها عرشها...^(٤).

وبقي حذف المفردات، وأحكامها كثيرة، هي ذوات شأن مرتبطة بمسائل النحو، أمسّ منها بمسائل البلاغة والبيان... ومن ثم تركناه.

أنواع الحذف:

ذكر جلال الدين السيوطي أنواعاً من الحذف البليغ، وقد جاء في القرآن

(١) مريم: ٧ - ١٢.

(٢) طه: ٩٠ - ٩٢.

(٣) النمل: ٣٨ - ٤١.

(٤) المثل السائر: ج ٢ ص ٢٧٥ - ٢٩٥.

أبلغها وأوفأها، بل ألطفها وأبأها، وهي أربعة أنواع:
أحدها: مايسمى بالاقطاع، وهو حذف بعض أحرف الكلمة، تخفيفاً
وتسهيلاً في الأداء أو لرعاية المناسبة وفواصل رؤوس الآي.
وأنكر بعضهم وقوع هذا النوع في القرآن! وردّ بأنّ بعضهم جعل الحروف
المقطّعة في فواتح السور منه، باعتبار اقتطاعها من أسمائه تعالى. وكذا في قراءة
بعضهم: «وَنَادُوا يَا مَالٍ»^(١) بالترخيم... وقد سمعها بعض أهل الظرف فقال:
ما أغنى أهل النار عن الترخيم؟!^(٢).

قلت: والأحسن التمثيل بقوله تعالى: «والليل إذا يسر»^(٣).
وقد سأل السدوسيُّ الأَخْفَشَ عن هذه الآية، فقال: عادة العرب أنّها اذا
عدلت بالشيء عن معناه نقصت حروفه. والليل لما كان لايسري، وإنما
يسرى فيه، نقص منه حرف، كما قال تعالى «وَمَا كَانَتْ أُمُكِ بَغِيًّا»^(٤).
الاصل: بغية، فلما حوّل عن «فاعل» نقص منه حرف^(٥).
وهكذا نون «لَمْ يَك...»^(٦) وواو «سَتَدْعُ الزَّبَانِيَةَ...»^(٧). وياء
«الْكَبِيرُ الْمُتَعَال...»^(٨) وأمثال ذلك.

الثاني: مايسمى بالاكْتفاء، وهو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم
وارتباط، وإن كان هو تناسب الضدّ مثلاً، فيكتفي بذكر أحدهما ويترك
الآخر، لمعلوميّته أولاً، ولنكته ثانياً، كما في قوله تعالى: «سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ
الْحَرَّ»^(٩) أي والبرد. وخصّص ذكر الحرّ، لأنّ الخطاب مع عرب البادية،

(٦) الأنفال: ٥٣.

(١) الزخرف: ٧٧.

(٧) العلق: ١٨.

(٢) معترك الأقران: ج ١ ص ٣١٩.

(٨) الرعد: ٩.

(٣) الفجر: ٤.

(٩) النحل: ٨١.

(٤) مريم: ٢٨.

(٥) معترك الأقران: ج ١ ص ٣٠٧.

وهي صحراء قاحلة أكثر أحوالها حارة تهبّ فيها أرياح ساقّة، فهم بما يقيهم من سموم الحرّ أخرج منهم لبرد القرّ.

ومن هذا الباب أيضاً قوله: «يَبِيدُكَ الْخَيْرُ»^(١) أي والشر، وإنّما ترك لعدم مناسبته في ظاهر النسبة إلى المولى الكريم. ولأنّ الخير هو مطلوب العباد ومرغوبهم لديه تعالى. وقيل: لأنّ الخير هو الأكثر وجوداً في العالم. وقوله: «فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى»^(٢) فترك هارون، لأنّ الخطاب كان مع موسى (عليه السّلام).

* * *

الثالث: ما يسمّى بالاحتباك . وهو من ألطف أنواعه وأبدعها. وقيل من تنبه له، أو نبّه عليه من أهل البلاغة. قال البقاعي: وهو نوع عزيز، هو: أن يُحذف من أول الكلام ما أثبت نظيره في مؤخره، أو من آخر الكلام ما أثبت نظيره في أوله. ومنه في القرآن الطرفة.

مثاله من محذوف الأول قوله تعالى: «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ»^(٣). أي ومثل الذين يدعون إلى الحقّ مع الذين كفروا كمثل الذي ينقّ بالبهائم.

قال الزمخشري: لابدّ من مضاف محذوف، تقديره: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينقّ... والمعنى: ومثل داعيهم إلى الإيمان - في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلّا جرس النغمة ودويّ الصوت، من غير إلقاء في أذهان ولا استبصار - كمثل الناقق بالبهائم.

وقد تكون الآية ممّا حذف فيه المؤخر، ليكون التقدير: ومثل الذين كفروا

(١) آل عمران: ٢٦.

(٢) طه: ٤٩.

(٣) البقرة: ١٧١.

كبهائم الذي ينطق...^(١).

وفي الغرائب للكرماني: التقدير: مثل الذين كفروا معك يا محمد كمثّل الناعق مع الغنم. فحذف من كل طرف ما يدلّ عليه الطرف الآخر... قال: وله في القرآن نظائر، وهو أبلغ ما يكون من الكلام...

قال السيوطي: ومأخذ هذه التسمية من الحبك بمعنى الشد والإحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثوب. فحبك الثوب شد ما بين خيوطه وشدّه وإحكامه بحيث يمنع عنه الخلل، مع الحسن والرونق. فلمّا كانت مواضع الحذف من الكلام بمنزلة الفرج والخلل، لولا أنّ الناقد البصير بصوغه الماهر في نظمه وحوكه قد صاغه بما يمنع عنه ظهور أيّ خلل فيه، فقد حبكه بما شدّ عليه الفرج، مع ما أكسبه من الحسن والرونق^(٢).

ومن لطيفه قوله تعالى: «فِتْنَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ»^(٣) أي فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت... وقوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ اقْتَرَأْ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ»^(٤) أي إن افتريته فعليّ إجرامي وأنتم برآء منه، وإن افتريتم فعليكم إجرامكم وأنا بريء ممّا تجرمون.

وقوله: «وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ»^(٥) أي يطهرن ويتطهرن، فإذا طهرن وتطهرن فأتوهن.

الرابع: ما يستمى بالاختزال، وهو ما لا يبدو عليه أثر التقدير، ولا يعرف منه

(١) راجع الكشف: ج ١ ص ٢١٤.

(٢) معترك الاقراء: ج ١ ص ٣٢٣.

(٣) آل عمران: ١٣.

(٥) البقرة: ٢٢٢.

(٤) هود: ٣٥.

مواضع الحذف سوى أنه كلام صيغ في غاية الجودة والاختصار، وافٍ بالمقصود مع حسن الإيجاز.

وهذا من أحسن الحذف وأجمله، وهو في القرآن كثير جداً. قال ابن جني: في القرآن منه زهاء ألف موضع، وقد سردها الشيخ عز الدين في كتابه «المجاز» على ترتيب السور والآيات^(١).

منه قوله تعالى: «الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ»^(٢) لأنَّ تعلق الفعل بالزمان هو تعلق المظروف بالظرف، لولا أنَّ في الآية حمل أحدهما على الآخر حل اتحاد. وهو من لطيف البيان وظريفه، فلو قدرت: وفست الحج أشهر، أو فعل الحج في أشهر، لذهبت برونق الكلام وجماله.

ومنه تعلق الأحكام التكليفية الشرعية بنفس الذوات، فإنه لابد من تقدير فعل مناسب. وذلك في مثل قوله تعالى: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ»^(٣). وقوله: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ امْهَاتُكُم وَبَنَاتُكُم وَأَخَوَاتُكُمْ»^(٤). وقوله: «أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا»^(٥).

فإنَّ في هكذا تعابير لا يبدو عليها أثر التقدير، وليست مثل قوله: «وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا»^(٦) البادي عليها أثر التقدير وكانت من مجاز الحذف لامحالة. على خلاف ما مثلنا به من آيات التحريم، إذ ليس فيها مجاز الحذف أصلاً.

ومنه أيضاً قوله: «وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ»^(٧). فلو أردنا التقدير لكان: ولكن ذا البر من آمن... أو بر من آمن. لكنه ليس كذلك، وإنما الجملة

(١) معترك الاقارن: ج ١ ص ٣٢٣.

(٥) الأنعام: ١٣٨.

(٢) البقرة: ١٩٧.

(٦) يوسف: ٨٢.

(٣) المائدة: ٣.

(٧) البقرة: ١٧٧.

(٤) النساء: ٢٣.

بكاملتها تفسير وتوضيح لعمل البرّ بأنّ من يؤمن بالله... الخ، فهذا هو البرّ والعمل الصالح.

وقوله: «وَلِلّٰهِ الْأُمُورُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ»^(١) أي من قبل الغلب ومن بعده، من غير أن يكون التقدير ظاهراً وإن كان مراداً واقعاً.

ومن هذا القبيل جميع الموارد التي قيل فيها بحذف المبتدأ أو الخبر أو الصفة أو الموصوف، وحتى المعطوف أو المعطوف عليه، أو حذف جملة الشرط أو جملة الجزاء. أو حذف المفعول به أو الحال، ممّا فصله علماء النحو^(٢).

* * *

ويكثر حذف القول من أثناء الكلام بدلالة العقول. قال أبو علي: حذف القول من حدّ «حدّث عن البحر ولا حرج».

ومنه قوله تعالى: «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا...»^(٣). أي يقولان رَبَّنَا^(٤).

فوائد الحذف

منها: مجرّد الاختصار والاحتباس عن العبث لظهوره.

ومنها: التنبيه على أنّ الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأنّ الاشتغال بذكره يفضي الى تفويت الأهم - كما في بابي التحذير والإغراء - وقد اجتمعا معاً في قوله تعالى: «نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا»^(٥) ف«ناقّة الله» تحذير، بتقدير: ذروا،

(١) الروم: ٤.

(٢) راجع معترك الأقران: ج ١ ص ٣٢٤.

(٣) البقرة: ١٢٧.

(٤) معترك الأقران: ج ١ ص ٣٢٧.

(٥) الشمس: ١٣.

و«سقيها» إغراء، بتقدير: إلزموا.

ومنها: التفتخيم والإعظام، لما فيه من الإيهام. فقد يحذف الشيء وتترك النفس تحول لتعثر عليه بباعث حب الاستطلاع، فيدعو ذلك الى الاهتمام به. ولهذا القصد يؤثر الحذف في مواضع يراد فيها التعجب والتهويل على النفوس.

ومنه قوله تعالى - في وصف أهل الجنة -: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا...»^(١) فحذف الجواب لدلالة فحوى الكلام على عظم الكرامة التي يلقونها حينذاك. فقد ضاق الكلام عن الإحاطة بذكر تلك الأوصاف.

وكذا قوله - بشأن أهل النار -: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُّوا عَلَى النَّارِ»^(٢). أي لرأيت أمراً فظيماً لا تكاد تحيط به العبارة.

ومنها: التخفيف، لكثرة دورانها على الألسن، كما في حذف حرف النداء في قوله تعالى: «يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا»^(٣).

ومنها غير ذلك حسبما فصله علماء البيان، فراجع^(٤).

إيجاز قصر:

وهو ما لاحذف فيه ولا تقدير، سوى أنه من قليل اللفظ كثير المعنى، ويكون نضد الكلمات بحيث لا يوجد بينها لفظ زائد، حتى لو أزيل لفظ من موضعه أو رفعت كلمة أو أبدلت إلى غيرها لا اختل المعنى وأفاد غير المقصود، وهذا من البلاغة بمكان، وقد يبلغ حد الإعجاز كما في القرآن.

فمما جاء منه قوله تعالى: «قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ. مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ.

(١) الزمر: ٧٣.

(٢) الأنعام: ٢٧.

(٣) يوسف: ٢٩.

(٤) معترك الاقتران: ج ١ ص ٣٠٥-٣٠٨.

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ. ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ. ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ. ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ. كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ»^(١).

فَقَوْلُهُ: «قَتَلَ الْإِنْسَانَ...» دَعَاءٌ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ: «مَا أَكْفَرَهُ...» تَعَجُّبٌ مِنْ إِفْرَاطِهِ فِي كُفْرَانِ نَعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ.

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: وَلَا نَرَى اسْلُوباً أَغْلَظَ مِنْ هَذَا الدَّعَاءِ وَالتَّعَجُّبِ، وَلَا أَحْشَنَ مَسّاً، وَلَا أَدَلَّ عَلَى سَخَطٍ، مَعَ تَقَارُبِ طَرَفَيْهِ، وَلَا أَجْمَعَ لِلْأَثْمَةِ، عَلَى قَصْرِ مَتْنِهِ.

ثُمَّ إِنَّهُ أَخَذَ فِي صِفَةِ حَالِهِ مِنْ ابْتِدَاءِ حَدُوثِهِ إِلَى مَنْتَهَى أَجَلِهِ وَمَالَ أَمْرِهِ، فَقَالَ: «مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ».

ثُمَّ بَيَّنَ الشَّيْءَ الَّذِي خَلَقَ مِنْهُ: «مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ» أَيُّ هَيَأَتِهِ لَمَّا يَصْلُحُ لَهُ.

«ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ» أَيُّ سَهْلٍ سَبِيلُهُ، وَهُوَ مَخْرَجُهُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ. أَوِ السَّبِيلَ الَّذِي يَخْتَارُ سُلُوكَهُ فِي الْحَيَاةِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

«ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ» أَيُّ جَعَلَهُ ذَا قَبْرِ يَوَارِي فِيهِ.

«ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ» أَيُّ أَحْيَاهُ لِيَوْمِ النُّشُورِ.

«كَلَّا» رَدَعَ لِهَذَا الْإِنْسَانَ الْكَفُورَ، الْعَاقِي، الْعَاصِي لِأَمْرِ رَبِّهِ الْكَرِيمِ.

«لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ» أَيُّ لَمْ يَقْضِ مَعَ تَطَاوُلِ عَهْدِهِ بِالتَّكْلِيفِ. يَعْنِي أَنَّ إِنْسَاناً لَمْ يَخْلُ مِنْ تَقْصِيرٍ قَطُّ.

أَلَا تَرَى إِلَى هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي لَوْ أَرَدْتَ أَنْ تَحْذِفَ مِنْهُ كَلِمَةً وَاحِدَةً لَمَا قَدَرْتَ عَلَى ذَلِكَ، لِأَنَّكَ كُنْتَ ذَهَبْتَ بِجُزْءٍ مِنْ مَعْنَاهُ، وَلَا خَلَلْتَ بِأَسِّ مِنْ أُسُسِ الْمَقْصُودِ. فَلِلَّهِ دَرَّةٌ مِنْ كَلَامٍ وَجِيزٍ بَلِيغٍ.

قال ابن الأثير: والإيجاز هو أن لا يمكنك أن تسقط شيئاً من ألفاظه^(١).

والآيات الواردة من هذا الضرب كثيرة كقوله تعالى: «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ»^(٢).

ما أجل هذا الكلام وأكمّله وأوفاه، في حين وجازته البالغة. فقولوه: «فَلَهُ مَا سَلَفَ» من جوامع الكلم، ومعناه: أن خطاياها الماضية قد غُفرت له، وتاب الله عليه فيها. إلا أن قوله: «فَلَهُ مَا سَلَفَ» أبلغ... أي أن السالف من ذنوبه لا يكون عليه إنما هو له أي موهوب له. وكذلك ورد قوله: «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ»^(٣).

فقولوه: «فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» كلمة جامعة، تغني عن ذكر ضروب من العذاب، لأن من أحاط به كفره فقد أحاطت به كل خطيئته.

وعلى نحو من هذا جاء قوله: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ»^(٤).

فهذه الآية من جوامع الآيات الواردة في القرآن الكريم، الباهرة البالغة أعلى درجات الإعجاز، المثيرة للإعجاب!

روي أن النبي (صلى الله عليه وآله) قرأها على الوليد بن المغيرة، فقال له: يا ابن أخي أعده. فأعاد النبي (صلى الله عليه وآله) قراءتها عليه. فقال له: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما

(١) المثل السائر: ج ٢ ص ٣٤٨.

(٢) البقرة: ٢٧٥.

(٣) فاطر: ٣٩.

(٤) النحل: ٩٠.

هو بقول البشر^(١).

ومن هذا النحو قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ. وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ. وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ. لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»^(٢).

هذه الآيات من قوارع القرآن العجيبة - التي دلت على تخويف وإرهاب - ترق له القلوب وتقصّر منه الجلود. وهي مشتملة على قصرها على حال الانسان منذ خلقه إلى حين حشره وحشر غيره من الناس. وتصوير ذلك اليوم الرهيب والأمر الفظيع، في أسهل لفظ وأرقّ تعبير. وما مرّ عليه إنسان مكابد خطاياها إلا تيقظ عنده تيقظاً.

ومن هذا الضرب ورد عن النبي (صلّى الله عليه وآله) في دعائه لأبي سلمة^(٣) عند موته: اللهم ارفع درجته في المهتدين، واخلفه في عقبه في الغابرين، لنا وله يارب العالمين. وهذا دعاء يجمع بين الإيجاز وبين مناسبة الحال التي وقع فيها. فأؤله

(١) المثل السائر: ج ٢ ص ٣٣٥.

(٢) ق: ١٦ - ٢٣.

(٣) هو زوج أم سلمة رضي الله عنها واسمه عبدالله، وأمه برة بنت عبدالمطلب. وكان متناً هاجراً المهجرتين. وجرح يوم أحد، فمات منه سنة ثلاث من الهجرة.

مفتتح بالمهمّ الذي يفتقر إليه المدعّوله في تلك الحال، وهو رفع درجته في الآخرة. وثانيه مردف بالمهمّ الذي يؤثره المدعّوله من صلاح حال عقبه من بعده في الدنيا. وثالثه مختم بالجمع بين الداعي والمدعّوله.
قال ابن الأثير: وهذا من الإيجاز البالغ الذي هو طباق ما تُقصد له^(١).

ومن الإيجاز بالقصر ما لا يمكن التعبير عنه بمثل ألفاظه وفي عدتها، لا بل يستحيل ذلك عادة، وهو أعلى طبقات الإيجاز وأشرفها وأعزّها شأنًا، ولا يوجد مثله في كلام البلغاء إلّا شاذًّا نادرًا. قال ابن الأثير: والقرآن الكريم ملآن منه^(٢).

قال تعالى: «خُذِ الْعَفْوَ وَأَثْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ»^(٣). فقد جمعت الآية جميع مكارم الأخلاق والقصد في السلوك الذي هو الصراط المستقيم في الحياة.

وهذا شأن جلّ آيات الذكر الحكيم، وإن كان قد يرتقى شأن البلاغة في بعضها أوجهاً فوق أطباق السماء، وقد يتنزّل بعضها إلى آفاق قريبة من متفاهم الأعراف، «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا»^(٤). «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»^(٥). ومن ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): مَنْ شاء يرتع رياض الأناثق فعليه بآل حم. ومنه قوله تعالى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ»^(٦). إذ لا يمكن التعبير عنه إلّا بألفاظ كثيرة - على ما عرفت في كلام مسبق -.

قال ابن الأثير: ولا يلتفت إلى ماورد عن العرب: «القتل أنفى للقتل».

(٤) الإسراء: ١٠٦.

(٥) الزخرف: ٣.

(٦) البقرة: ١٧٩.

(١) المثل السائر: ج ٢ ص ٣٣٧.

(٢) المثل السائر: ج ٢ ص ٣٣٣ و ٣٤٨ و ٣٥٢.

(٣) الأعراف: ١٩٩.

فإنّ من لا يعلم يظنّ أن هذا على وزن الآية، وليس كذلك. بل بينهما فرق من ثلاثة أوجه:

الأول: أنّ «القصاص حياة» لفظتان. و«القتل أنفى للقتل» ثلاثة ألفاظ.

الثاني: أنّ في قولهم تكريراً، ليس في الآية.

الثالث: أنه ليس كل قتل نافياً للقتل، إلّا إذا كان على حكم القصاص.

وقد صاغ أبو تمام هذا المعنى الوارد عن العرب في بعض بيت من شعره:

وأخافكم كي تغمدوا أسيافكم إنّ الدم المعتّر يحرسه الدم

فإنّ قوله: «إنّ الدم المعتّر يحرسه الدم» أحسن ممّا ورد عن العرب^(١).

والدم المعتّر: النفس المهتدة المضطربة تخاف هدرها.

وقد ورد في الأخبار النبوية من هذا الضرب (من الإيجاز البليغ) شيء

كثير. وإليك نماذج منه:

فمن ذلك قوله (صلّى الله عليه وآله): حلال بين، وحرام بين، وبينهما

شبهات^(٢).

وهذا من أجمع الأحاديث للمعاني الكثيرة. وذلك أنّه يشتمل على جلّ

الأحكام الشرعية، فإنّ الحلال والحرام إمّا أن يكون الحكم فيهما بيناً لاخلاف

فيه بين العلماء، وإمّا أن يكون خافياً يتجاذبه وجوه التأويلات، فكل منهم

يذهب فيه مذهباً.

وكذلك جاء قوله (صلّى الله عليه وآله): الأعمال بالنيات، وإنّما لكلّ

(١) المثل السائر: ج ٢ ص ٣٥٢-٣٥٣.

(٢) عوالي اللئالي: ج ١ ص ٨٩.

أمرئ^(١) مانوى هو من جوامع الكلم ومن غرر الكلام.

قال ابن الأثير: ومما أطربني من ذلك حديث الحديبية، وهو أنه جاء بدليل ابن ورقاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقال: إني تركت كعب بن لؤي، معهم العوذ المطافيل^(٢) وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

فقال له النبي (صلى الله عليه وآله): إن قریشاً قد نهكتهم الحرب، فإن شأوا ماددناهم مدة، ويدعوا بيني وبين الناس، فإن أظهر عليهم وأحبوا أن يدخلوا فيما دخل الناس، وإلا كانوا قد جموا، وإن أبوا، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا، حتى تنفرد سالفتي هذه، ولينفذ الله أمره.

هذا الحديث من جوامع الكلم وهو من الفصاحة والبلاغة على غاية لا ينتهي إليها وصف الواصفين^(٣).

وذكر الشريف الرضي في نهج البلاغة عن مولانا أمير المؤمنين (عليه السلام) كلامه التالي: الحجر الغصيب في الدار رهن على خرابها^(٤).

ثم قال: ويروى هذا الكلام عن النبي (صلى الله عليه وآله)، ولا عجب أن يشتبه الكلامان لأن مستقاهما من قلب ومفرغها من ذنوب. فلنذكر من جلائل كلامه (عليه السلام) نتفاً:

قال (عليه السلام): لنا حقّ فإن أعطيناه وإلا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السرى^(٥) فما أجمله من استعارة لطيفة وأوفاهها بهدف المقصود. قال الشريف الرضي: وهذا من لطيف الكلام وفصيحته.

(١) عوالي اللثالي: ج ١ ص ٨١ و ٣٨٠.

(٢) العوذ: الحديثات النتاج من الظباء وكل انثى. والمطافيل: جمع مَظْفَل بمعنى من يصحب معه طفله.

(٣) المثل السائر: ج ٢ ص ٣٤٢.

(٤) الكلمة رقم ٢٣٧.

(٥) الكلمة رقم ٢١.

ومعناه: إنا إذا لم نعط حقنا لم نكن ممن يتنكب الطريق ويعتزل عن جماعة المسلمين. بل نشق طريقنا إلى الامام مع ركب الجماعة، وإن كنا في حالة حرجة وركوب مشقة. لأن ركوب مؤخرات الإبل مما يشق احتماله والصبر عليه. وإلى هذا يشير في خطبته الشقشقية: فصبرت وفي الحلق شجى وفي العين قذى... أرى تراثي نهبا.

وقال (عليه السلام): لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه^(١). قال الشريف: وهذا من المعاني العجيبة الشريفة. والمراد: أن العاقل لا يطلق لسانه إلا بعد مشاورة الروية ومؤامرة الفكرة. والأحمق تسبق حذفات لسانه وفلتات كلامه مراجعة فكره ومماخضة رأيه. فكأن لسان العاقل تابع لقلبه، وكأن قلب الأحمق تابع للسانه.

وقال (عليه السلام): قيمة كل امرئ ما يحسنه^(٢). قال الشريف: وهذه الكلمة، التي لا تُصاب لها قيمة، ولا توزن بها حكمة، ولا تقرن إليها كلمة...

(١) الكلمة رقم ٤٠.

(٢) الكلمة رقم ٨٠.

التخلص والاقتضاب

وفصلُ الخطاب

من بديع البيان وظريفه حسن التخلص، وهو قدرة كلامية قلّ من توفّق لها في ظرافة وبراعة كظرافة القرآن وبراعته^(١).

وهو: أن يأخذ المتكلّم في معنى من المعاني، فيبينا هوفيه إذ أخذ في معنى آخر غيره، بلطف ورفق، وكأنّما الأوّل مدرج إليه أو سبب من الأسباب المؤاتية له. وبذلك يكون الكلام كلّهُ آخذاً بعضه برقاب بعض، وكأنّما أفرغ إفراغة واحدة. الأمر الذي يدلّ على حذق المتكلّم وقوة تصرّفه في مجاري الألفاظ والمعاني. فتراه ينتقل من موضوع إلى موضوع آخر من غير أن يقطع كلامه أو يستأنف كلاماً جديداً. على عكس «الاقتضاب» الذي هو الققطع والاستئناف، وقد كان مذهب العرب الأوائل ومن يليهم من المخضرمين. فخالفهم القرآن وأتى بطريقة جديدة في الانتقال من غير قطع ولا استئناف. وهي طريقة بديعة تأخذ بمشاعر السامع في شتى المذاهب من غير أن يشعر بالتصرّف والانتقال، في رفق ولين وسحريان.

(١) هذا البحتري، فإنّ مكانه من الشعر لا يجهل، وشعره هو السهل الممتنع الذي تراه كالشمس قريباً ضوؤها بعيداً مكانها، وهو على الحقيقة قينة الشعراء في الإطراب، وعنقاؤهم في الاغراب. ومع هذا فإنه لم يوفّق في التخلص من الغزل الى المديح، بل اقتضبه اقتضاباً. قال ابن الأثير: ولقد حفظت شعره فلم أجده له من ذلك شيئاً مرضياً إلا اليسير. (المثل السائر: ج ٣ ص ١٢٦).

قال ابن معصوم: وهو الركن الثاني من الأركان الأربعة للبلاغة الفائقة، والتي نبّه مشايخ البديع على وجوب التأنيق فيها. وهو عبارة عن أن ينتقل المتكلم ممّا ابتدأ به من فنون الكلام إلى ذات المقصود على وجه سهل، برابطة ملائمة، وجهة جامعة مقبولة، يختلس به نحو المطلوب اختلاساً رشيقاً، بحيث لا يفتظن السامع للانتقال من المعنى الأول إلّا وقد رسخت ألفاظ المعنى الثاني في سمعه، وقرّ معناه في قلبه لشدة الالتئام والوثام بينهما^(١).

وقال ابن أبي الاصبع: وهي في الكتاب العزيز معرفة الوصل من الفصل، وقد ذهب بعض المتكلمين إلى أنها أحد وجوه الإعجاز. وهو دقيق يكاد يخفى في غير الشعر إلّا على الحاذق من ذوي النقد وهو مبشوث في الكتاب العزيز إذا تُتبعُ وجد. كابتداء آيات قد يجدها البادي في النظر غير متناسبة لما قبلها من فواصل وآيات. لكن لا يكاد يعرف التناسب بينها إلّا من كانت له ذرية بهذه الصناعة، ويُعد إمعان نظر وتدقيق فكر^(٢).

ومن عجيب الرأي ما زعمه أبو العلاء محمد بن غانم^(٣) قال: إنّ كتاب الله خالٍ من التخلّص لما فيه من التكلّف^(٤).

قال ابن الأثير: وهذا القول فاسد، لأن حقيقة التخلّص إنما هي الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره، بلطفية تلائم بين الكلام الذي خرج منه والكلام الذي خرج إليه. وفي القرآن مواضع كثيرة، كالخروج من الوعظ

(١) أنوار الربيع: ج ٣ ص ٢٤٠.

(٢) بديع القرآن: ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٣) المعروف بالغانمي، كان من الشعراء الفضلاء، وهو من شعراء نظام الملوك.

(٤) حسبنا نقله عنه الزركشي في البرهان: ج ١ ص ٤٣.

والتذكير والإنذار والتبشير، إلى أمر ونهي ووعد ووعيد، ومن محكم إلى متشابه، ومن صفة لنبي مرسل وملك منزل، إلى ذم شيطان مريد وجبار عنيد، بلطائف دقيقة ومعانٍ أخذ بعضها برقاب بعض.

فَمَا جَاءَ مِنَ التَّخْلَصِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَوْلُهُ تَعَالَى:

«وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَاكِفِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. قَالَ أَقْرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ. رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. واجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ. واجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ. وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ. وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ. وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ. فَكَبَّكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ. وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ. قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ. تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَمَا أَضَلُّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ. فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ. وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ. فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»^(١).

قال ابن الأثير: هذا كلام يُسَكَّرُ العقول، ويُسَحَرُ الأبواب. وفيه كفاية لطالب البلاغة. فإنه متى أنعم فيه نظره، وتدبر أثناءه ومطاوي حكمته، علم أن في ذلك غنى عن تصفح الكتب المؤلفة في هذا الفن. ألا ترى ما أحسن مراتب

إبراهيم عليه السّلام كلامه مع المشركين، حين سأهم أولاً عمّا يعبدون، سؤال مقرر لاسؤال مستفهم. ثم أنحى على آهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، وعلى تقاليد آبائهم الأقدمين فكسره، وأخرجه من أن يكون شبهة، فضلاً عن أن يكون حجة. ثم أراد الخروج من ذلك إلى ذكر الإله الذي لا تجب العبادة إلّا له، ولا ينبغي الرجوع والإنابة إلّا إليه، فصور المسألة في نفسه دونهم بقوله: «فإنّهم عدوّ لي» على أنّي فكّرت في أمري فرأيت عبادتي لها عبادة لعدوّ وهو الشيطان فاجتنبتها، وآثرت عبادة من الخير كلّ في يده. وأراهم بذلك أنّها نصيحة ينصح بها نفسه، لينظروا فيقولوا: مانصحنّا إبراهيم إلّا بما نصح به نفسه، فيكون ذلك أدعى لهم الى القبول لقوله، وأبعث على الاستماع منه. ولو قال: فإنّهم عدوّ لكم، لم يكن بتلك المثابة. فتخلّص عند تصويره المسألة في نفسه إلى ذكر الله تعالى، فأجرى عليه تلك الصفات العظام، من تفخيم شأنه وتعدد نعمه، من لدن خلقه وأنشأه، إلى حين وفاته. مع ما يرجّى في الآخرة من رحمته. ليعلم من ذلك أنّ من هذه صفاته حقيق بالعبادة، واجب على الخلق الخضوع له والاستكانة لعظمته.

ثم خرج من ذلك الى ما يلائمه ويناسبه، فدعا الله بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهاال الأوّابين. لأنّ الطالب من مولاه اذا قدّم - قبل سؤاله وتضرّعه - الاعتراف بالنعمة كان ذلك أسرع للإجابة، وأنجح لحصول الطلبة.

ثم أدرج في ضمن دعائه ذكر البعث ويوم القيامة، ومجازاة الله تعالى من آمن به واتّقاء بالجنة، ومن ضلّ من عباده النار. فجمع بين الترغيب في طاعته والترهيب من معصيته.

ثم سأل المشركين عمّا كانوا يعبدون سؤالاً ثانياً عند معاينة الجزاء، وهو سؤال موبّخ لهم مستهزئ بهم. وذكر ما يدفعون إليه عند ذلك من الندم والحسرة

على ما كانوا فيه من الضلال، وتمتني العودة ليؤمنوا.

فانظر أيها المتأمل الى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض، مع احتوائه على ضروب المعاني، فيخلص من كل واحد منها إلى الآخر بلطفية ملائمة، حتى كأنه أفرغ في قالب واحد، فخرج من ذكر الأصنام وتنفير أبيه وقومه من عبادتهم إياها - مع ماهي فيه من التعري عن صفات الإلهية، حيث لا تضمر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع - إلى ذكر الله تعالى، فوصفه بصفات الإلهية، فعظم شأنه، وعدد نعمه، ليعلم بذلك أن العبادة لا تصح إلا له.

ثم خرج من هذا إلى دعائه إياه وخضوعه له. ثم خرج منه إلى ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه، فتدبر هذه التخلصات اللطيفة المودعة في أثناء هذا الكلام.

وفي القرآن مواضع كثيرة من التخلصات، كالذي ورد في سورة الأعراف، فإنه ذكر فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية، من آدم الى نوح عليهما السلام وكذلك إلى قصة موسى عليه السلام حتى انتهى إلى آخرها الذي هو:

«وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ. وَكُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُذُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي

أَنْزَلَ مَعَهُ أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(١).

هذا تَخْلَص من التخلّصات الحسان، فَإِنَّ الله تعالى ذكر الأنبياء والقرون الماضية إلى عهد موسى عليه السّلام، فلمّا أراد ذكر نبيّنا صلّى الله عليه وآله ذكره بتخلّص انتظم به بعض الكلام ببعض.

ألا ترى أنه قال: قال موسى: واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة، فأجيب بقوله تعالى: قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا عَنْهُمْ حَقَّ وَصْفَتِهِمْ كَيْتٌ وَكَيْتٌ. وهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي. ثم وصفه صلّى الله عليه وآله بصفاته... إلى آخر الكلام.

قال ابن الأثير: ويا لله العجب كيف يزعم الغانمي أَنَّ القرآن خالٍ من التخلّص؟! ألم يكفه سورة يوسف عليه السّلام فإنّها قصّة برأسها، وهي مضمّنة شرح حاله مع إخوته من أول أمره إلى آخره. وفيها عدّة تخلّصات في الخروج من معنّى إلى معنّى، وكذلك إلى آخرها.

ولو أخذت في ذكر ما في القرآن الكريم من هذا النوع لأطّلت. ومن أنعم نظره فيه وجد من ذلك أشياء كثيرة^(٢).

قال بدر الدين الزركشي -ردّاً على مزعومة الغانمي-:

ومن أحسن أمثلته قوله تعالى: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... الآية»^(٣) فإنّ فيها خمس تخلّصات، وذلك أنه جاء بصفة النور وتمثيله، ثم تخلّص منه إلى ذكر الزجاجة وصفائها، ثم رجع إلى ذكر النور والزيت يستمدّ منه، ثم تخلّص

(٣) النور: ٣٥.

(١) الأعراف: ١٥٥ - ١٥٧.

(٢) المثل السائر: ج ٣ ص ١٢٨ - ١٣٢.

منه إلى ذكر الشجرة، ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت، ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور وتضاعفه، ثم تخلص منه إلى نعم الله بالهدى على من يشاء.

ومنه قوله: «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ... الآية»^(١) فإنه سبحانه ذكر أولاً عذاب الكفار وأن لا دافع له من الله، ثم تخلص إلى قوله: «تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ...» بوصف «ذي المعارج»!

ومنه قوله: «إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ. أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»^(٢).

وقوله: «أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ»^(٣). وهذا من بديع التخلص، فإنه سبحانه خلص من وصف المخلصين وما أعد لهم إلى وصف الظالمين وما أعد لهم.

قال: واعلم أنه حيث قصد التخلص فلا بد من التوطئة له. ومن بديعه قوله تعالى: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ»^(٤) يشير إلى قصة يوسف عليه السلام فوطأ بهذه الجملة إلى ذكر القصة، يشير إليها بهذه النكتة من باب الوحي والرمز.

وكقوله سبحانه موطأً للتخلص إلى ذكر مبتدأ خلق المسيح عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا... الآية»^(٥)^(٦).

(٤) يوسف: ٣.

(١) المعارج: ١-٤.

(٥) آل عمران: ٣٣.

(٢) النمل: ٢٣-٢٦.

(٦) البرهان: ج ١ ص ٤٥.

(٣) الصفات: ٦٢.

قال ابن أبي الاصبع: ومن براعة التخلّص في الكتاب العزيز قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ»^(١) فإنه سبحانه وطأ بها إلى سياقة خبر ميلاد المسيح عليه السّلام، فذكر اصطفاء آدم عليه السّلام توطئة يخلص بها إلى ذكر ولده نوح عليه السّلام، وذكر اصطفاء نوح يتخلّص إلى ذكر ولده إبراهيم عليه السّلام، وذكر اصطفاء آل إبراهيم بعد ذكر آل نوح توطئة ليتخلّص بذكرهم إلى آل عمران من ولد إبراهيم، وتخلّص بذكر آل عمران إلى ذكر امرأة عمران، ليسوق قصة حملها بمرم عليهما السّلام وكفالة زكريا عليه السّلام لها، وذكر ولده يحيى عليه السّلام وقصة حمل مريم بالمسيح عليهما السّلام وما كان في ذلك من الآيات الباهرات، وما آتاه الله تعالى من المعجزات.

قال: فوقع في هذه الآية من التخلّصات البارة التي أتت على أحسن ترتيب، وأبين تهذيب، ما لا يقع في شيء من الكلام. حيث ذكر سبحانه الآباء من الأعلى إلى الأدنى، فابتدأ بذكر آدم الأب الأعلى، وتلاه بذكر نوح الأب الثاني، الذي انتشرت الأمم من عقبه، وأتت كافة البشر من ذريته. ثم ذكر بعده إبراهيم أبا الأنبياء والمرسلين. وخصّ من ولده بالذكر آل عمران، ليتخلّص إلى ذكر المسيح... فسيبحان المتكلم بهذا الكلام!!^(٢).

الاقتضاب:

وأما الاقتضاب فهو قطع الكلام واستئناف كلام آخر غيره بلا علاقة بينه وبينه.

لكن منه ما يقرب من التخلّص، ويسمّى «فصل الخطاب».

والذي أجمع عليه المحققون من علماء البيان هو قوله «أما بعد» كما هو المتعارف، يفتح الكلام في كل أمر ذي بال بذكر الله وتحميده والصلاة على نبيه وآله، فإذا أراد الخروج إلى الغرض المسوق له الكلام فصله بقوله: «أما بعد».

ومن الفصل الذي هو أحسن من الوصل لفظة «هذا» تجعل خاتمة الكلام السابق وفتحة الكلام اللاحق. وهي العلاقة الوكيدة بين الكلامين، وقد استعملها القرآن على ألطف وجه، كقوله تعالى:

«وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ. وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ. هَذَا ذِكْرٌ وَإِنِّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ. جَنَّاتٍ عِدْنٍ مَفْتُحَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ... هَذَا وَإِنِّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ»^(١).

ألا ترى إلى ما ذكر قبل «هذا»؟ ذكر من ذكر من الأنبياء عليهم السلام وأراد أن يذكر على عقبه باباً آخر غيره، وهو ذكر الجنة وأهلها، فقال: «هذا ذكر». ثم قال: «وَإِنِّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ». ثم لما أتم ذكر أهل الجنة وأراد أن يعقبه بذكر أهل النار قال: «هذا وَإِنِّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ». وذلك من «فصل الخطاب» الذي هو ألطف موقعاً من التخلص^(٢).

التميم

وهو من ظرف البديع وكماله وبلاغه. قال ابن رشيق: هو أن يحاول الشاعر أو المتكلم معنى، فلا يدع شيئاً يتم به حسنه إلا أورده وأتى به، إما

مبالغة وإما احتياطاً واحتراساً من التقصير^(١). وفُسِّرَ بعضهم بأن يكون المتكلم آخذاً في معنى، فيعترضه شك في إيفاء كلامه، أو احتمال راد سوف يرد عليه، أو إثارة سؤال يحاول الإجابة عليه فرضاً وتقديراً في الكلام. فيلتفت قبل فراغه من التعبير عن ذلك المعنى، فيبادر إلى إزالة كل شبهة محتملة، وحل كل مشكلة معترضة، والإجابة على أي سؤال سوف يثيره الكلام^(٢) ليكون كلامه وافياً شافياً ومؤدياً تمام الغرض وكمال المراد. وهذا من ظرف البديع وكمال البلاغة في الكلام.

وقد جاء في القرآن على أحسنه وأفضله، منها قوله تعالى: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا»^(٣). فإنَّ السري لا يكون إلا بالليل، فذكره يغني عن قوله: «لَيْلًا» لولا إرادة تتميم الفائدة للدلالة على تقليل المدة، بمعنى أنَّ السري وقع في بعض الليل، يدل عليه التنكير.

قال الزمخشري: فإن قلت: الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذكر الليل؟ قلت: أراد بقوله: «لَيْلًا» بلفظ التنكير، تقليل مدة الإسراء، وإنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام - مسيرة أربعين ليلة - وذلك أن التنكير فيه قد دلَّ على معنى البعضية^(٤).

وقوله تعالى: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا»^(٥). فقلوه: «وهو مؤمن» تتميم في غاية الحسن، وأفاد الشرط الأول في قبول الطاعات، فلو حذفت هذه الجملة لاختل المعنى.

وقوله تعالى: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا»^(٦). والشاهد في قوله: «عَلَى حُبِّهِ» إن عاد الضمير على الطعام، فيزيد تأكيداً لمعنى

(٤) الكشف: ج ٢ ص ٢٤٦.

(١) العملة: ج ٢ ص ٥٠.

(٥) طه: ١١٢.

(٢) وهذا بمعنى الاستدراك أشبه.

(٦) الإنسان: ٨.

(٣) الإسراء: ١.

الإيثار المقصود من الكلام. أي مع حاجتهم إليه آثروا غيرهم على انفسهم. فهو تتميم أفاد المبالغة المقبولة، فلو طرح لنقص المعنى واختل حسن التركيب. وكذا لو عاد الضمير في «عَلَى حَبَّة» على الله. أي أطعموهم لرضائه تعالى، فهو أكد للدلالة على الإخلاص في هذا الإيثار. وعلى أي تقدير فلا يخلو موقع هذه الكلمة من الظرافة والحسن البديع^(١).

* * *

ومن أروع أنحاء التتميم وأفخمه قدراً أن تجتمع أنواعه في كلام واحد، وهي كما أشرنا: تتميم نقص أحس به المتكلم، أو مبالغة في إيفاء مراده، أو احتياط واحتراس عن الشكوك والاعتراضات الواردة.

وقد اجتمعت الثلاثة في قوله تعالى: «أَيُّودُ أَحْذُكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّتٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ»^(٢).

هذه الآية فيها محاولة لإبراز حالة الأسف المرير لِمَنْ فَقَدَ شيئاً كان ثمن حياته، في وقت لا يمكنه تداركه، ويخاف سوء المصير.

قال ابن أبي الاصبع: جاءت في هذه الآية ثمانية مواضع، في كل موضع منها تتميم. وأتت على جميع أقسام التتميم الثلاثة:

فأولها قوله - في تفسير الجنة -: «مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ» لاحتمال أن تكون جنة ذات أثل وخط^(٣). فَإِنَّ لَفْظَ الْجَنَّةِ يَصْدُقُ عَلَى كُلِّ شَجَرٍ مِلْتَقٍ يَسْتَرِ الْأَرْضَ بِظِلِّ أَغْصَانِهِ، كَائِنًا مَا كَانَ. ومن الشجر ما له نفع عظيم عميم كالنخيل والأعناب، وما له نفع قليل كالأثل والخطمط. ومع هذا فلو احترقت

(١) أنوار الربيع: ج ٣ ص ٥٢.

(٢) البقرة: ٢٦٦.

(٣) الأثل نوع من الطرفاء. والخطمط نبت له مرارة. وكلاهما من الأشواك المرة.

لاشَدَّ أَسَفُ صَاحِبِهَا، فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ.
ثمَّ إِنَّ الْجَنَّةَ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ، فَمَا لَمْ تَجْرَ الْأَنْهَارُ مِنْ تَحْتِ
أَشْجَارِهَا لَمْ يَكُنْ لَهَا نَفْعٌ عَظِيمٌ بِسَكْنِهَا، وَلَمْ تَكُنْ لَهَا حَيَاةٌ وَنَضَارَةٌ الْبَتَّةَ. فَتَمَّ
هَذَا النِّقْصَ بِقَوْلِهِ: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

وَإِذَا انْضَمَّتْ إِلَى النَخِيلِ وَالْأَعْنَابِ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَانَ وَصْفُهَا أَتَمَّ وَنَفْعُهَا
أَعْظَمُ وَالْأَسَفُ عَلَى فُسَادِهَا أَشَدَّ. وَلِذَلِكَ تَمَّ هَذَا النِّقْصَ وَبَالِغٌ فِيهِ بِقَوْلِهِ:
«لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ».

وَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ وَصْفِ الْجَنَّةِ شَرَعَ فِي وَصْفِ صَاحِبِهَا، فَوَصَفَهُ بِالْكِبَرِ، وَهِيَ
حَالَةٌ يَأْسُ عَنْ إِمْكَانِ اسْتِثْنَاءِ الْعَمَلِ لَوْ ذَهَبَتْ الْأَتْعَابُ أَدْرَاجَ الرِّيحِ. فَقَالَ
-مَحْتَاطًا-: «وَأَصَابُهُ الْكِبَرُ».

ثُمَّ لَوْ كَانَ عَقِيمًا وَلَمْ يَخْلَفْ ذُرَّارِي ضَعْفًا كَانَ الْأَمْرُ هَيئًا بَعْضُ الشَّيْءِ،
وَسَلَاةٌ قَرِبَ الْأَجَلِ، لَكِنْ إِذَا كَانَ قَدْ خَلَفَ ذُرِّيَّةً ضَعْفَاءَ فَإِنَّ الْأَسَفَ عَلَى
ضَيَاعِهَا أَمْرٌ وَأَشَدُّ. وَلِذَلِكَ تَمَّ بِقَوْلِهِ: «وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ». وَأَضَافَ وَصْفُهَا
بِالضَّعْفِ «ضَعْفَاءَ» لِأَنَّ الْإِطْلَاقَ يَحْتَمِلُ كَوْنَهُمْ أَقْوِيَاءَ لِحَاجَةِ لَهُمْ إِلَى تَرْكَةِ
أَبِيهِمْ. فَكَانَ ذَلِكَ يَخْفِضُ مِنْ شِدَّةِ أَسَفِهِ، وَيَقْلُ مِنْ وَطْأَةِ غَمِّهِ.

وَأَخِيرًا أَخَذَ فِي وَصْفِ الْحَادِثِ الْمَهْلِكِ الَّذِي أَصَابَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ:
«فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ». لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْإِعْصَارُ لَا يَعْجَلُ فُسَادَ الشَّجَرِ وَالزَّرْعِ مَا لَمْ
يَكُنْ فِيهِ نَارٌ تَمِّمُهُ بِقَوْلِهِ: «فِيهِ نَارٌ» تَأْكِيدًا عَلَى ذَلِكَ.

وَالْإِعْصَارُ عِبَارَةٌ عَنْ تَقَابُلِ الرِّيحِ الْمُثِيرَةِ لِلْعَجَاجِ الْكَثِيفِ الَّذِي دَوَامُهُ
وَاسْتِمْرَارُهُ يُعْمِي عَيُونَ الْأَنْهَارِ وَيَطْمُ الْآبَارَ، وَيَحْرِقُ بُوْهَجَ سُمُومِهِ الزَّرْعَ
وَالْأَشْجَارَ، وَهَذَا مَعْنَى «فِيهِ نَارٌ» أَدَارَهَا عَلَى الْجَنَّةِ فَاحْتَرَقَتْ مِنْ شِدَّةِ لَهَبِهَا
وَوُهْجِهَا. كَأَنَّهَا نَارٌ تَدُورُ عَلَيْهَا فِي وَسْطِ ذَلِكَ الْإِعْصَارِ.

وَلَمَّا كَانَتْ مَظَنَّةُ سَلَامَةِ الْأَشْجَارِ عَنِ الْإِحْتِرَاقِ -لَمَّا فِيهَا مِنْ رَطُوبَةٍ وَخَضَرٍ-

احتاط تلافيه بقوله: «فاحترقت» أي كانت شدة الإعصار ووهجة النار بحيث أثرت في يبسها واحتراقها في نهاية الأمر. ففي هذه التسميمات المتتالية المتنوعة كمال إيفاء بالمقصود، ليس يوجد مثله في سائر الكلام. وهذا كما قال ابن معصوم: والله درّ شأن القرآن ومدى اعتلاء بلاغته الخارقة!

قال ابن أبي الاصبع: فانظر ما تضمّنت الآية من تقاسيم هذا النوع من بديع الكلام، منضمّاً إلى ما فيه من ائتلاف اللفظ والمعنى والتهذيب وحسن النسق والتمثيل وحسن البيان والمساواة، لتعلم أنّ هذا الكتاب العزيز - بأمثال هذه الآية - عَجَزَ الفصحاء وبلّد الأذكياء وأعْيى على البلغاء^(١).

الاستخدام

أن يؤتى بلفظ يحتمل معنيين أو معاني، فيراد به أحد معانيه، ثم يتعقّب بما يفهم منه إرادة معناه الآخر، مجازاً أو حقيقةً بالاشتراك، أعمّ منه أو أخصّ أو مابين.

وهي طريقة في البيان أشبه بالتورية، قلّ من يستطيع سلوكها بسلام وتجنّب لأخطارها، من الوقوع في الكذب أو التشويش على السامع، بإجمال أو إيهام في كلام.

لكنه فنّ بديع واسلوب رقيق، إن دلّ فإنما يدلّ على سلطة في البيان، ويكون آخذاً وثيقاً بأعنة الكلام يوجهه حيثما شاء، لا يخاف دركاً ولا يخشى. وقد استعمله القرآن بسهولة ويُسر وسلامته عن الخلل والفساد، الأمر الذي لا يوجد نظيره في سائر الكلام.

من ذلك قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ

(١) بديع القرآن: ص ٤٦ - ٤٨.

حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا»^(١).
فالصلاة مراد بها أولاً معناها المعهود. لكنّه في قوله: «وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ» أريد موضعها وهو المسجد، حيث كان المتعارف إيقاع الصلاة فيه ذلك العهد.

ومثّل له ابن أبي الاصبع بقوله تعالى: «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ. يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»^(٢).

فالكتاب في «لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ» يحتمل معنيين: الأمد المحدود لا يتغيّر ولا يتبدّل، كقوله تعالى: «حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ»^(٣) أي أمدّه المقرّر شرعاً وهو تمام العدة. والمعنى الآخر: هو الكتاب بمعنى المكتوب المكنون، كقوله تعالى: «فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ»^(٤).

قال: وقد توسّطت لفظة «كتاب» بين قوله: «لِكُلِّ أَجَلٍ» مراداً به الأمد المحدود، وبين قوله: «يَمْحُو... وَيُثَبِّتُ» مراداً به الكتاب المكنون... فيكون تقدير الكلام: لكل حدّ مؤقت مكتوب يُمحى ويُثبّت^(٥).

وخلاصة المعنى: إنّ الآجال مقدّرة محدودة ومثبّته في كتابٍ عند الله. وكل أمة إنّما تقضي أجلها. وهو لا يتغيّر ولا يتبدّل عمّا أثبته الله في الكتاب. نعم هذا لا يعني أنّ الأمور ختمت على ما ثبتت أولاً، وإنّما أزمنة الأمور بيده تعالى، يحومنها ما يشاء ويثبت حسب علمه تعالى بمصالح العباد.

ومنه قوله تعالى: «وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ - إلى قوله -

(٤) الواقعة: ٧٨.

(٥) بديع القرآن: ص ١٠٤.

(١) النساء: ٤٣.

(٢) الرعد: ٣٨ و ٣٩.

(٣) البقرة: ٢٣٥.

وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ»^(١).

فالمراد بالمطلقات أولاً المدخول بهن من المتزوجات، سواء كان الطلاق خلعيّاً بائناً ليس للزوج حق الرجوع، أم رجعيّاً له الحق. لأن الاعتداد واجب على كلا التقديرين.

وأما الضمير في «بُعُولَتُهُنَّ» فيعود على الرجعيّات من المطلقات، ليس العموم.

قال الطبرسي: وهذا يختص بالرجعيّات، وإن كان أول الآية عاماً في جميع المطلقات الرجعية والبائنة^(٢).

وقوله تعالى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ. جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا»^(٣).
قوله: «أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ» أي علمه.

قوله: «اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا» الإضافة ليست تشريفية، كما في قوله: «بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ»^(٤) مراداً به بخت نصر العاتي وجنوده العتاة.

قوله: «فمنهم...» الضمير يعود على المصطفين... لأن الأمة التي ورثت الكتاب هي الأمة المفضلة. كما في قوله: «وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ»^(٥).
قوله: «ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ». إشارة إلى إراث الكتاب للمصطفين،

(٤) الاسراء: ٥.

(١) البقرة: ٢٢٩.

(٥) المؤمن: ٥٤.

(٢) مجمع البيان: ج ٢ ص ٣٢٧.

(٣) فاطر: ٣٣ و ٣٤.

فإنه عن فضله تعالى ولطفه بعباده.

قوله: «جَنَاتُ عَدْنٍ» بيان للفضل، على طريقة الاستخدام، وذلك لأنَّ الفضل من الله كان السبب الباعث لإيراث الكتاب والاصطفاء. فكانت نتيجته الحاصلة هي دخول جنات عدن. فكان فضله تعالى أن أورث عباده الكتاب والحكمة، وأدخلهم الجنة بسببه رحمةً ولطفاً. وكان كلا الأمرين فضلاً كبيراً.

وقوله: «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ»^(١).

قوله: «الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا» مراداً به حقائق الموجودات كُلَّهَا على سبيل العموم.

وقوله: «ثُمَّ عَرَضَهُمْ... الخ» مراداً صفوة الخلق من ذوي العقول الراجعة. على طريقة الاستخدام، كما ورد في التفسير.

وقيل: إنه من باب التغليب كما في قوله: «فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ»^(٢).

(١) البقرة: ٣١.

(٢) النور: ٤٥.

المذهب الكلامي

هو من ظريف البديع، أن يسترسل الشاعر في تغزله، والخطيب في تفكهه، فيستظرف في اسلوب بيانه، يقترب من مطلوبه شيئاً فشيئاً، ويدنو إليه على طريقة أهل الاستدلال في خُطى حثيثة متواصلة، بتمهيد مقدمات منتهية إلى النتيجة المتوخاة، فيأتي بشواهد ودلائل، ويقيس كما يقيس الفقيه المتكلف، ويبرهن على شاكلة الحكيم المتفلسف، وهكذا يقترب من مقصوده ملياً... وهو فن من أساليب البيان، دقيق مسّه، رقيق رسمه. قلّ من يتوفّق لمثله في قدرة الاستحواذ على مشاعر من سمع الخطاب. «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا».

انشد ابن المعتز لنفسه:

أُسْرِفْتُ فِي الْكُتْمَانِ	وَذَاكَ مَنِّي دَهَانِي ^(١)
كُتِمْتُ حَبَّكَ حَتَّى	كُتِمْتُه كُتْمَانِي
فَلَمْ يَكُنْ لِي بَدَءٌ	مَنْ ذَكَرَهُ بِلِسَانِي

قال ابن رشيق: وهذه الملاحاة نفسُها، والظرف بعينه.

وقال أبو نؤاس:

سَخُنْتُ مِنْ شِدَّةِ الْبُرُودَةِ حـ	حَتَّى صَرْتُ عِنْدِي كَأَنَّكَ النَّارُ

(١) دهي فلاناً: أصابه بداهية.

لا يعجب السامعون من صفتي كذلك الثلج بارد حار
قال ابن رشيق: فهذا مذهب كلامي فلسفي^(١).

قال ابن معصوم: وهذا النوع أول من ذكره الجاحظ: وهو عبارة عن أن يأتي البليغ بحجة على ما يدعيه على طريقة المتكلمين، وهي أن تكون بعد تسليم المقدمات مستلزمة للمدعى^(٢).

قال ابن أبي الاصبغ: وزعم الجاحظ أنه لا يوجد منه شيء في القرآن. والكتاب مشحون به^(٣) ومنه محاججات إبراهيم عليه السلام مع قومه من قوله تعالى: «وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ - إلى قوله -: وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ»^(٤). وذكروا أن من أول سورة الحج إلى قوله: «وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ»^(٥) خمس نتائج تستنتج من عشر مقدمات رتيبة.

وذكر أبو الحسن الرماني - في الضرب الخامس من باب المبالغة -: إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل والمظاهرة في الاحتجاج. فن ذلك قوله تعالى: «وَأَنَا أَوْ يَأْتِكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ»^(٦). وقوله: «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ»^(٧) وعلى هذا النحو خرج مخرج قوله تعالى: «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا»^(٨) جاء على التسليم أن لهم مستقراً خيراً من جهة السلامة من الآلام، لأنهم (أي المشركون) ينكرون إعادة الأرواح إلى الأجساد، فقل: على هذا أصحاب الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا. ومنه

(٦) سبأ: ٢٤.

(١) العمدة: ج ٢ ص ٧٩ و ٨٠.

(٧) الزخرف: ٨١.

(٢) انوار الربيع: ج ٤ ص ٣٥٦.

(٨) الفرقان: ٢٥.

(٣) بديع القرآن: ص ٣٧.

(٤) الأنعام: ٨٠ - ٨٣.

(٥) الحج: ١ - ٧.

قوله: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ»^(١) على التسليم أن أحدهما أهون من الآخر فيما يسبق إلى نفوس العقلاء^(٢).

* * *

سَطْوَعُ بَراهِينِهِ:

قلت: دلائل القرآن لامعة، وبراهينه ساطعة، لكن لاعلى الأساليب المعقّدة التي ينتهجها أرباب الكلام، بل على طريقة العقلاء في متعارفهم، في قوة منطق وإناقة بيان. فقد أخذ من المسلّمات (القضايا البديهية والمعترف بها) برهاناً على النظريات، ومن المشاهدات المحسوسة دليلاً على حقائق راهنة لا محيص عنها. كل ذلك على طريقة واضحة ومحبّة لائحة. يستدقيقها الطبع، ويستلذّها الذوق، وتستسلم لها العقول. «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ»^(٣).

* منها قوله تعالى: «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ»^(٤).

هذا استدلال على الطريقة العقلانية، إذ لو كان لله ولد - كما يقوله هؤلاء البعداء عن ساحة قدسه تعالى - لكان أول معترف به هم الرسل الذين جاؤوا من عنده، وهم أقرب إليه ممّن سواهم.

* وقوله: «لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا»^(٥). وقد أوضحته آية أخرى: «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ»^(٦). أيضاً طريقة عقلانية يتسلّمها العقلاء عند المقايسة.

(٤) الزخرف: ٨١.

(١) الروم: ٢٧.

(٥) الأنبياء: ٢٢.

(٢) النكت في إعجاز القرآن: ص ١٠٥.

(٦) المؤمنون: ٩١.

(٣) ق: ٣٧.

* وقوله: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ»^(١) إذ كان الخصم معترفاً بأن الله هو الذي بدأ الخلق. إذأ فالإعادة أهون من البداءة، لأنها من شيء، وتلك لامن شيء.

* وقوله تعالى: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ. لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ»^(٢).

كانت العرب تعترف بالمبدأ الأعلى وهو الله تعالى، وإنما يعبدون الأوثان ليقربوهم إلى الله زُلفى^(٣) فكانوا يعتبرونهم آلهة صغاراً، هم شفعاء ووسطاء بينهم وبين الله الكبير المتعال. تعاليم ورثوها من أمم مجاورة: الفرس والروم واليونان.

فإذ قد تسلّموا بربوبيته تعالى، وأنه الحاكم على الخلائق أجمعين، فإنه يحكم بهؤلاء وما يعبدون أنهم حصبُ جهنم. ولا يدخلها الأصاغر حقير، لا يملك شفاعة ولا يستحق عبادة.

* وقوله: «وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ»^(٤) فقد رتب دخولهم الجنة على ولوج الحبل الغليظ في خرم الأبرة. ولما كان ذلك أمراً ممتنعاً، كان ذاك أيضاً مثله. فقد أبدى امتناع دخولهم الجنة بهذا الشكل القياسي كناية بديعة.

* وقوله: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ»^(٥) فقد رتب النتيجة على صغرى القياس مع حذف الكبرى لظهورها، وهي: أن من أعطاه الله

(١) الروم: ٢٧.

(٢) الأنبياء: ٩٨ و ٩٩.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: «مَا تَعْبُدُونَ إِلَّا لِيُقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى» (الزمر: ٣).

(٤) الأعراف: ٤٠.

(٥) الكوثر: ١ و ٢.

الكوثر-وهي مجموعة المكرمات- فينبغي له أن يؤدي شكره الواجب، بالابتهاال إلى الله والمثلول لديه بكل الوجود.

* وقوله: «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ»^(١) قياس استثنائي مركّب من قضيّة شرطية مضمونها: «وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعِيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعِيُهُمْ مَشْكُورًا»^(٢). وأخرى حملية استثنائية مضمونها: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى»^(٣).

* وقوله: «فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ»^(٤). الكبرى مطوية، أي وكلّ أفل غير مستحقّ للعبادة.

* وقوله تعالى: «أَمْ خُلِقُوا مِن غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ»^(٥)... هذا أشبه بقياس السبر والتقسيم، لأنّ الأمر يدور بين ثلاثة: إمّا أن يكونوا قد خُلِقُوا من عند أنفسهم ليس لهم خالق، أو يكونوا هم الذين خلقوا أنفسهم، أو ينتهي خلقهم إلى خالق خارج من أنفسهم، ولا رابع لذلك.

أمّا الأول- ليكونوا قد خُلِقُوا لا من شيء، ولا خالق لهم، وأنهم وجدوا لا من علّة وسبب- فهذا ممّا يستحيله العقل، إذ لا معلول بلا علّة ولا موجود بلا موجد. فلا تترجح كفّة الوجود على كفّة العدم، في دائرة الممكنات، لسوى مرجح خارجي.

وكذا الثاني، لأنّه دور مستحيل، وتوقف وجود الشيء على نفسه ممّا يمتنع في بديهة العقل.

(٤) الأنعام: ٧٦.

(١) الأعراف: ١٧٦.

(٥) الطور: ٣٥.

(٢) الإسراء: ١٩.

(٣) طه: ١٢٤-١٢٦.

إذاً فالصحيح المعقول هو الفرض الثالث، أنهم مخلوقون، وأن لهم خالقاً، هو واجب الوجود لذاته، ويكون منتهى سلسلة الموجودات في دائرة الإمكان.

* وقوله تعالى: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ»^(١). وقوله: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ»^(٢). وقوله: «أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ»^(٣).

وهذا من قياس النظر على النظر، فقد قيس أمر الإعادة على أمر البدء، قياساً معقولاً، لأنّ الذي فعل شيئاً قادر على أن يفعل مثله، إذ حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد...

بل المسألة هنا هي الإعادة، وهي أهون من الإبداع. كما سبق في قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ...»^(٤).

* ومن هذا القبيل قوله تعالى: «قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ»^(٥).

استدلال لطيف على إمكان الإحياء، قياساً على البدء أولاً، لأنّ الإعادة أهون من الإنشاء... ثم القياس على المحسوس المشاهد... وأنّ الذي ينشئ من العود الرطب ناراً كيف يعجزه إفاضة الحياة على العظام الرميم؟! وأخيراً فإنّ خلق السماوات والأرض أعظم من خلقهم، وهو القادر والخالق العليم بكيفية الخلق والإعادة...

* وكذا جميع ما قيس من إعادة الحياة وحشر الأموات، على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والإنبات.

(٤) الروم: ٢٧.

(١) الأعراف: ٢٩.

(٥) يس: ٧٨ - ٨١.

(٢) الأنبياء: ١٠٤.

(٣) ق: ١٥.

* وأجل حجاج جاء إفحاماً للخصم ودحضاً لحجته قوله تعالى: «وَأَقْسُمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللّٰهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ. إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»^(١).

انظر إلى هذه المحاجة اللطيفة والرد الجميل، كيف أنهم أقسموا بالله لإنكار البعث، فردّ عليهم بقوله «بلى»! وأنّ الذي تقسمون به فانه يناقضكم صريحاً!

ثم قرّر البعث ببيان سببه الموجب، وأخيراً إمكانه بعظيم قدرته. ولابن السيّد هنا - في هذه الآية - بيان لطيف أورده السيوطي في الإتيان، قال: وتقريرها، أنّ اختلاف الناس في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه، وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه، والحق في نفسه واحد. فلما ثبت أنّ هاهنا حقيقة موجودة لا محالة، وكان لا سبيل لنا في حياتنا إلى الوقوف عليها وقوفاً يوجب الائتلاف ويرفع عنّا الاختلاف، إذ كان الاختلاف مركزاً في فطرنا، وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله إلّا بارتفاع هذه الجبلّة، ونقلها إلى صورة غيرها، صحّ - ضرورةً - أنّ لنا حياة أخرى غير هذه الحياة، فيها يرتفع الخلاف والعناد. وهذه هي الحالة التي وعد الله بالمصير إليها، فقال: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ»^(٢) أي حقد. فقد صار الخلاف الموجود - كما ترى - أوضح دليل على كون (أي ثبوت) البعث الذي ينكره المنكرون^(٣).

(١) النحل: ٣٨ - ٤٠.

(٢) الأعراف: ٤٣.

(٣) الاتقان: ج ٤ ص ٥٤.

الاستدلال في القرآن

مزيج اسلوبين: الخطابة والبرهان
إمتاع العقل والنفس معاً

امتاز القرآن في استدلالاته بالجمع بين اسلوبين يختلفان في شرائطهما، هما: اسلوب الخطابة واسلوب البرهان ذاك إقناع للعامة بما يتسلمون به من مقبولات مظنونات، وهذا إفهام للخاصة بما يتصادقون عليه من أوليات يقينيات. ومن الممتنع عادة أن يقوم المتكلم بإجابة ملتمس كلا الفريقين، ليجمع بين الظن واليقين في خطاب واحد... الأمر الذي حققه القرآن فعلاً بعجيب بيانه وغريب اسلوبه.

والبرهان: ما تركب من مقدمات يقينية، سواء أكانت ضرورية (بديهية أو فطرية) أم كانت نظرية (منتهية إلى الضروريات). والقضايا الضرورية ستة أنواع:

- ١ - أوليات، وهي قضايا قياساتها معها. يكفي في الجزم بالحكم مجرد تصوّر الطرفين. كقولنا: (الكلّ أعظم من الجزء). أو مع تصوّر الواسطة وحضورها في الذهن، كقولنا: (الأربعة زوج) لأنه ينقسم إلى متساوين.
- ٢ - مشاهدات، هي قضايا محسوسة بالحواس الظاهرة كإضاءة الشمس.

- ٣ - وجدانيات، منشأها الحسّ الباطني كالإحساس بالخوف والغضب.
- ٤ - متواترات، أخبار جماعة يمتنع عادةً تواطؤهم على الكذب والاختلاق.
- ٥ - مجزبات، يحصل الجزم بالنتيجة على أثر تكرّر المحسوس.
- ٦ - حدسيات، هي سرعة الانتقال من المبادئ إلى المطالب، ويقابلها الفكر، الذي هو حركة الذهن نحو المبادئ ثم رجوعه إلى المطالب، فلا بدّ فيه من حركتين، على خلاف الحدس، إذ لا حركة فيه. لأنّ الحركة تدريجية. والانتقال آني.

* * *

أما الخطابة فهي ماتركب من مقدّمات كانت مقبولة معتقداً بها لأمر سماوي أو لزيد عقل ودين.

ونظيرها الجدل، المتركب من قضايا مشهورات تقبلتها العامة وخضعت لها أعرفهم ونسجت عليها طبائعهم. فألفوها وأذعنوا بها إذعائاً.

أو قضايا مسلّمت تسلم بها المخاطبون كأصول مفروضة مسلّم بها.

* * *

والقرآن الكريم قد استفاد في دلائله من كل هذه الأساليب، وفي الأكثر جمع بينها في خطاب مع العامة يشترك معهم الخواصّ.

هذا غاية في القدرة على الاستدلال وإقامة البرهان.

ولنضرب لذلك أمثلة:

١ - قال سبحانه وتعالى - بصدد نفي آلهة غير الله - : «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا»^(١).

هذه الآية - بهذا النمط من الاستدلال - في ظاهرها البدائي احتجاج على

أساس الخطابة والإقناع، قياساً على العُرف المعهود، إنّ التعدّد في مراكز القرار سوف يؤدّي إلى فساد الإدارة.

ونظيرها آية أخرى: «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ»^(١).

يقول العلامة الطباطبائي: وتقرير الحجّة في الآية أنّه لو فرض للعالم آلهة فوق الواحد لكانوا مختلفين ذاتاً، متباينين حقيقةً. وتباين حقائقهم يقضي بتباين تدبيرهم، فتنفسد التدابير، وتفسد السماء والأرض^(٢).

وهذا النمط من الاستدلال، طريقة عقلانية يتسلّمها العرف العام قياساً على ما ألفوه في أعرافهم.

ولكن إلى جنب هذا، فهو استدلال برهاني دقيق، قوامه الضرورة واليقين، وليس مجرد قياس إقناعي صرف.

ذلك أنّ الآية دلّت العقول على أنّ تعدّد الآلهة، المستجمعة لصفات الالهية الكاملة، يستدعي إما عدم وجود شيء على الإطلاق، وذلك هو فساد الأشياء حال الإيجاد... أو أنّها إذا وجدت وجدت متفاوتة الطبائع متنافرة الجنسيات، الأمر الذي يقضي بفسادها، إثر وجودها وعدم إمكان البقاء.

وذلك لأنّه لو توجّهت إرادتان مستقلّتان من إلهين مستقلّين - في الخلق والتكوين - إلى شيء واحد يريدان خلقه وتكوينه، فهذا ممّا يجعله ممتنع الوجود، لامتناع صدور الواحد إلّا من الواحد، إذ الأثر الواحد لا يصدر إلّا ممّا كان واحداً. ولا تتوارد العلّتان على معلول واحد أبداً.

وفرض وجوده عن إرادة أحدهما، مع استوائيهما في القدرة والإرادة، فرض

ممتنع. لأنّه ترجيح من غير مرجح، بل ترجح من غير مرجح، وهو مستحيل. ولو توجّهت إرادة أحدهما إلى إحداث شيء، وأراد الآخر عدم إحداثه! فلو تحققت الإرادتان كان جمعاً بين النقيضين. أو غلبت إحداها الأخرى فهذا ينافي الكمال المطلق المفروض في الإلهين. وإلا فهو ترجيح من غير مرجح. ولو توجّهت إرادة أحدهما إلى إحداث نظام ومخلوق، والآخر إلى نظام ومخلوق غيره... إذاً لذهب كل إله بما خلق... ولكان هناك نظامان وعالمان مختلفان في الخلق والنظام، وهذا الاختلاف في البنية والنظام يستدعي عدم التآلف والوثام والانسجام، وسوف يؤدي ذلك إلى تصادم وأن يطغى أحدهما على الآخر ولعلا بعضهم فوق بعض. الأمر الذي يقضي بالتماحق والتفاسد جميعاً.

وكل أولئك باطل بالمشاهدة، إذ نرى العالم قد وجد غير فاسد. وبقي غير فاسد. ونراه بجميع أجزائه، وعلى اختلاف عناصره وتفاوت أوضاعه - من علو وسفل وخير وشر - يؤدي وظيفة جسم واحد، تتعاون أعضاؤه مع بعضها البعض، وكل عضو يؤدي وظيفته بانتظام، يؤدي إلى غرض واحد وهدف واحد. وهذه الوحدة المتناسكة - غير المتنافرة - في نظام الأفعال دليل قاطع على الفاعل الواحد المنظم لها بتدبيره الحكيم، وهو الله رب العالمين. وهذا هو البرهان القائم على قضايا يقينية في بديهة العقل.

٢ - وقال تعالى - بصدد نفي المثل -: «ليس كمثله شيء»^(١). جاءت الدعوى مشفوعة ببرهان الامتناع، على طريقة الرمز إلى كبرى القياس. ذلك أنّ (المثل) المضاف إليه تعالى رمز إلى الكمال المطلق، أي الذي بلغ

النهاية في الكمال في جميع أوصافه ونعوته، الذي هو مقتضي الألوهية والربوبية المطلقة. لأنك إذا حققت معنى الألوهية فقد حققت معنى التقدم على كل شيء والمسيطر على كل شيء، «فأطر السماوات والأرض»^(١). «له مقاليد السماوات والأرض»^(٢).

إذاً فلو ذهبت تفترض الاثنينية في هذا المجال، وفرضت اثنين يشتركان في هذه الصفات التي هي غايات لجميع الأوصاف والنعوت، فقد نقضت وتناقضت في افتراضك ذلك أنك فرضت من كل منها تقدماً وتأخراً في نفس الوقت وأن كلاً منها مُنشئاً ومُنشأً. ومستعلٍ ومستعلٍ عليه، إذ النقطة النهائية من الكمال لا تحتل اثنين، لأن النقطة الواحدة لا تنحل إلى نقطتين، وإلا فقد أحلت الكمال المطلق إلى كمال مقيد في الطرفين، إذ تجعل كل واحد منها بالإضافة إلى صاحبه ليس سابقاً ولا مستعلياً فأنى يكون كل منها إلهاً، وللإله المثل الأعلى؟!

ويرجع تقرير الاستدلال إلى البيان التالي:

إن الإله هو ما استجمع فيه صفات الكمال وبلغ النهاية في الكمال. ومثل هذا الوصف (مجمع الكمال) لا يقبل تعدداً لا خارجاً ولا وهماً. إذاً فلا تعدد في الإله، وليس له فردان متماثلان.

وهذا من أروع الاستدلال على نفي المثل.

وكلمة (المثل) هذه تكون إشارة إلى ما حواه المثل من صفات وسمات خاصة تجعله أهلاً لهذا النعت (إيجاباً أو سلباً) في القضية المحكوم بها. مثلاً لو قيل - خطاباً لشخصية بارزة -: (أنت لا تبخل) كان ذلك دعوى بلا برهان. أما لو قيل له: (مثلك لا يبخل) فقد قرنت الدعوى بحجتها، إذ تلك

(٢) الزمر: ٦٣.

(١) الأنعام: ١٤ وقد جاءت في خمس سور أخرى.

خصائصه ومميزاته هي التي لا تدعه أن يبخل، فكأنك قلت: (إنك لا تبخل، لأنك حامل في طيِّك صفاتٍ ونعوتاً تمنعك من البخل).
وهكذا جاءت الآية الكريمة: إنَّ من كان على أوصاف الألوهية الكاملة فإنَّ هذا الكمال والاستجماع لصفات الكمال هو الذي يجعل وجود المثل له ممتنعاً (بالبيان المتقدم).

وعليه، فليست الكاف زائدة، كما زعم البعض، لأنَّ المثل - على مفروض البيان - إشارة إلى تلك الصفات والسمات التي تحملها الذات المقدسة . ولم يكن المراد من المثل التشبيه، فهو بمنزلة (هو) محضاً.
فكان المعنى: ليس يُشبه مثله تعالى شيء، أي ليس يشبهه في كمال أوصافه ونعوته شيء.

قال الاستاذ دراز: الآية لا ترمي نفي التشبيه له تعالى فحسب، إذ كان يكفي لذلك أن يقول: (ليس كالله شيء) أو (ليس مثله شيء)، بل ترمي وراء ذلك دعم النبي بما يصلح دليلاً على الدعوى والإنعاط إلى وجه حجة هذا الكلام وطريق برهانه العقلي، ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي نقيصة عن إنسان فقلت: (فلان لا يكذب) أو (لا يبخل) كان كلامك هذا مجرد دعوى لا دليل عليها. أمّا إذا زدت كلمة المثل وقلت: (مثل فلان لا يكذب) أو (لا يبخل) فكأنك دعمت كلامك بحجة وبرهان، إذ من كان على صفاته وشيمه الكريمة لا يكون كذلك، لأنَّ وجود هذه الصفات والنعوت ممّا تمنع الاستفسال إلى رذائل الأخلاق. وهذا منهج حكيم وضع عليه أسلوب كلامه تعالى. وأنَّ مثله تعالى ذا الكبرياء والعظمة لا يمكن أن يكون له شبيه، أو أنَّ الوجود لا يتسع لاثنين من جنسه^(١).

فقد جيء بأحد لفظي التشبيه ركناً في الدَّعوى، وبالأخر دعامة لها وبرهاناً عليها. وهذا من جميل الكلام وبديع البيان، ومن الوجيز الوافي.

* * *

٣ - وقال تعالى - بصدد بيان لانهاية فيوضه عزّت الآؤه - : «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ»^(١).

هذه مقارنة بين المحدود واللامحدود، وأن المحدود مهما بلغ عدده وتضخم حجمه فإنه لا يُقاس بغير المحدود، إذ ذاك ينتهي وهذا لا ينتهي، ولا مناسبة بين ما ينتهي إلى أمد مهما طال أو قصر، وما يمتد إلى ما لا نهاية أبداً. والكلمة - في هذه الآية - يُراد بها الوجود المفاض بأمره تعالى، المتحقق بقوله: (كن).

قال تعالى: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»^(٢). وكل موجود - في عالم الخلق، وهو ما سوى الله - فهو كلمته تعالى. كما أطلق على المسيح (عليه السّلام) كلمة الله: «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ»^(٣)^(٤). والمعنى: أنه لو جعلت الأشجار أقلاماً والأبحر مداداً - ليكتب بها كلمات الله - لنفدت الأقلام والمداد قبل أن تنفذ كلمات الله، لأنها غير متناهية... وذلك لأنّ كلماته تعالى إفاضات، ولا ينتهي فيضه تعالى إلى أمد محدود أبداً.

* * *

٤ - وقال تعالى - ردّاً على احتجاج اليهود - : «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا

(٣) النساء: ١٧١.

(١) لقمان: ٢٧.

(٤) الميزان: ج ١٦ ص ٢٤٥.

(٢) يس: ٨٢.

مَعَهُمْ»^(١).

امتنعت اليهود من اعتناق الإسلام بحجة أنهم على طريقة نبيهم موسى (عليه السلام) وعلى شريعته ، ولذلك لا يمكنهم اتخاذ سيرة أخرى والإيمان بشريعة سواها.

هذا اعتذار زعمت اليهود وجاھته في منابذة الإسلام... وقد فتد القرآن هذا التذرّع الكاسد والاحتجاج الفاسد. إذ لا منافرة بين الشريعتين ولا منافاة بين الطريقين، والكل يهدف مرمى واحداً ويرمي هدفاً واحداً. وقد جاء الأنبياء جميعاً لينيروا الدرب إلى صراط الله المستقيم، صراطاً واحداً وهدفاً واحداً، لا تنافر ولا تنافي ولا تعدد ولا اختلاف.

والدليل على ذلك أن هذا القرآن يصدق بأنبياء سالفين وبشرائعهم وكتبهم وما بلغوا من رسالات الله، ولو كان هناك تنافٍ وتنافر لما صحّ هذا التصديق. وقد جاء هذا التصديق بلفظة «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» في ثمانية مواضع من القرآن^(٢).

وبلفظة «مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ» في ثلاثة مواضع^(٣).

وبلفظة «مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ» في ثلاثة مواضع^(٤).

ومن ثم قال: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ...».

«فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنَ...».

«وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ

(١) البقرة: ٩١.

(٢) البقرة: ٩٧، آل عمران: ٣، المائدة: ٤٦ مرتين و٤٨، الأنعام: ٩٢، فاطر: ٣١، الأحقاف: ٣٠.

(٣) البقرة: ٨٩ و٩٠ و١٠١.

(٤) البقرة: ٤١، آل عمران: ٨١، النساء: ٤٧.

تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ»^(١).

وفي الآية وما يتعقبها نكات وظرف دقيقة:

منها: قوله: (مصدقاً لما معهم) أو (مصدقاً لما معكم) - في آية أخرى - وهذا تنويه بأن المتبقي من التوراة ليس كلها وإنما هو بعضها... لكنه لم يقل: (لما بقى من التوراة عندكم) وعبر (بما معكم) لئلا يتنبه اليهود إلى ذريعة أخرى لعلهم يتذرعون بها، هو أن المنافرة إنما كانت بين القرآن وماذهب من التوراة، فيجادلون الإسلام بهذه الطريقة... وهي طريقة أخذ ماتسالم الخصم دليلاً عليه...

ولم يقل: (مصدقاً بالتوراة عندكم) لأنه حينذاك كان اعترافاً بأن الموجود هو تمامها لا بعضها.

فأتى بما لا يمكنهم المحاصمة جدلاً، ولا كان اعترافاً بصدق ما عندهم أنه توراة كله. وهذا من دقيق التعبير الذي خص به القرآن الكريم. وأيضاً في التعقيب بقوله: «فَلَيْمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ»^(٢). نسبة القتل إليهم بالذات، لأنهم رضوا بفعل آبائهم ومشوا على طريقهم، ولو قال: «فَلَيْمَ قَتَلَ آبَاؤُكُمْ...» لكان فيه حديث أخذ الجار بذنب الجار، وكان أشبه بمُحاجة الذئب: عدا على حَمَل صغير، بحجة أن أباه قد عكّر الماء عليه في قناة كان يشرب منها^(٣).

إقناع العقل وإمتاع النفس:

ميزة أخرى في احتجاجات القرآن، هو حينما يحاول إخضاع العقل ببراهينه

(٣) النبأ العظيم: ص ١١٧.

(٢) البقرة: ٩١.

(١) آل عمران: ١٩ و ٢٠.

المتينة تراه لا يتغافل عن إمتاع النفس بلطائف كلامه الظريفة ورقائق بيانه العذبة السائغة، جامعاً بين اناقة التعبير وفخامة المحتوى، سهلاً سلساً يستلذه الذوق ويستطيبه الطبع، عذباً فراتاً لذّة للشارين.

إنّ للنفس الإنسانية جهتين: جهة تفكير يكون مركزه العقل، وجهة إحساس يكون مركزه وجدان الضمير، وحاجة كل واحدة منها غير حاجة أختها. فأما إحداها فإنّها تنقّب عن الحقّ لمعرفته أولاً، وللعمل به ثانياً. وأما الأخرى فإنّها تحاول تسجيل أحاسيسها بما في الأشياء من لذّة وألم، ومتعة وغذاء للنفس.

والبيان التامّ هو الذي يوفّي لك للحاجتين جميعاً، ويطير بنفسك بكلا الجناحين، فيؤتيها حظّها من الفائدة العقلية، إلى جنب إيفائها متعة الوجدان وإشباع غريزتها في عواطف الإحساس.

أما الحكماء فإنّما يؤدّون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك، ولا يهتمهم جانب استهواء نفسك ونهم عاطفتك، يقدّمون حقائق المعارف والعلوم، لا يأبهون لما فيها من جفاف وعري ونبو عن الطباع.

وأما الشعراء فإنّما يسعون إلى استشارة وجدانك وتهيييج عواطفك وأحاسيسك، وإمتاع سمعك وضميرك، فلا يباليون بما صوّروه لك أن يكون غيباً أو ورشداً، وأن يكون حقيقة أو تخيلاً، فتراهم جادّين وهم هازلون، يستبكون وإن كانوا لا يبيكون، ويطربون وإن كانوا لا يطربون «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَم تَرَأْنَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنْهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ»^(١).

وكلّ إنسان حيناً يفكر فإنّما هو فيلسوف، وكلّ إنسان حيناً يحسّ فإنّما هو شاعر. ولا تتكافأ القوتان: (قوة التفكير وقوة الوجدان). وكذا سائر القوى

النفسية على سواء... ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل عند قليل من الناس فإنها لا تعمل في النفس دفعة وبنسبة واحدة، بل متناوبة في حال بعد حال، وكلما تسلّطت قوّة اضمحلت أخرى وكاد ينمحي أثرها. فالذي ينهك في التفكير تتناقص قوّة وجدانه، والذي يسعى وراء لذائذه عند ذلك تضعف قوّة تفكيره وهكذا لا تقصد النفس إلى هاتين الغايتين قصداً واحداً أبداً «مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ»^(١).

وكيف تطمح أن يهب لك إنسان مثلك هاتين الطلبتين على سواء وهو لم يجمعهما في نفسه على سواء، وما كلام المتكلم إلا انعكاس الحالة الغالبة عليه، (وكلّ إناء بالذي فيه ينضح). «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِيهِ»^(٢) وفاقد الشيء لا يستطيع أن يمنحك به.

هذا مقياس يمكنك أن تتبين فيه مالكلّ لسان وما لكلّ قلم من قوّة غالبية عليه، حينما ينطق وحينما يكتب. فإذا رأيته يتّجه إلى حقيقة فرغ له بعد ما قضى وطره ممّا مضى... عرفت بذلك أنّه يضرب بوترين، ويتعاقب على نفسه الشعور والتفكير تعاقب الليل والنهار لا يجتمعان.

وأما أنّ اسلوباً واحداً يتّجه اتجاهاً واحداً، ويستهدف هدفاً واحداً، ويرمي إلى غرض واحد، ولكنته مع ذلك قد جمع لك بين الطريقتين: إقناع عقلك وإمتاع نفسك معاً، وفي آنٍ واحد وفي كلام واحد، كما يحمل العنصر الواحد من الشجرة الواحدة أوراقاً وأثماراً، أنواراً وأزهاراً، معاً، أو كما تجري الروح في الجسد والماء في العود الأخضر... فذلك ما لا تظفر به في كلام بشر على الإطلاق، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية... «مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ».

فمن أين لك بكلام واحد وبيان واحد واسلوب واحد، يفيض عليك من الحقيقة البرهانية والدلائل العقلانية، بما يرضي أولئك الفلاسفة الحكماء، والمتعمقين النبلاء، ويرضخ بعقولهم الجبارة.

وإلى جانب ذلك - وفي نفس الوقت - يضي عليه من المتعة الوجدانية والعذوبة والحلاوة والطلاوة، ما يستفهم هؤلاء الشعراء المرحين وأصحاب الأذواق الرقيقة الفكهين.

ذلك هو الله رب العالمين، الذي لا يشغله شأن عن شأن، القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان واحد، وأن يمزج الحق والجمال جميعاً، يلتقيان ولا يبغيان... فيستخرج منها اللؤلؤ والمرجان... ويسقيك من هذا وذاك شراباً طهوراً، عذباً فراتاً، سائغاً لذة للشاربين.

هذا هو الذي تجده في كتاب الله الكريم، حيثما توجهت وأينما توليت بوجهك. إنه في فسحة قصصه وأخباره عن الماضين، لا ينسى حق العقل من حكم وعبر. وأنه في مزدحم براهينه ودلائله، لا يغفل حظ القلب من رغبة ورهبة وشوق ورجاء. يبت ذلك بوفرة شاملة، في جميع آياته وبيئاته، في مطالعها ومقاطعها وتضاعيفها، الأمر الذي «تَقَشَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ»^(١). و«إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ. وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ»^(٢).

(١) الزمر: ٢٣.

(٢) الطارق: ١٣ و ١٤.

أنواع من الاستدلال البديع

في القرآن

قلنا: من بديع بيانه تعالى لإقناع الخصوم هو ذاك لطيف برهانه، همساً في الأسماع ووخزاً في القلوب. فتلك حججه قاطعة ودلائله لا تُحصى، ترفع الغبار عن وجه الحقيقة بيد ناعمة وليس خفيف، وتكشف النقاب عن محيى الحق بإشارة خفية نافذة إلى الأعماق.

ومما وقف عليه العلماء من أسرار بيان القرآن هو جمعه لأنواع البراهين العقلية، ولكن لا يمثل تلك التعقيدات التي تكلفها المتكلمون، بل جرياً مع المتعارف من الكلام المعقول. «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ»^(١). فإن الراغب في دقيق الحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام. ومن استطاع أن يفهم الأكثر بالأوضح من البيان لا يلجأ إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون.

فقد أخرج الله تعالى مخاطباته في محاجة العباد في أبهى صورة وأجلى بيان، ليفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يربي على ما أدركه فهم الخطباء، وهذه مزية خارقة في القرآن، فناعة كافية للعوام، وحجة وافية للعلماء، وبذلك فاق سائر الكلام.

وقد بينا أنواع القياس الاقتراضي والاستثنائي الواردة في القرآن على أساليب متعارفة وبديعة، وإليك أنواعاً أخر من الأقيسة:

السبر والتقسيم:

من أنواع الحجج المصطلح عليها في علم الجدل (السبر والتقسيم) باستقصاء جوانب المسألة وكل محتملاتها، ثم إخراجها فرداً فرداً، ليبقى الاحتمال الأخير هو الصحيح المطلوب.

ومن أمثلته في القرآن ما جاء في سورة الأنعام بشأن ما زعمه المشركون من حرمة ذكور الأنعام تارةً واناتها أخرى، واسناد تحريمها إلى شريعة الله، افتراء عليه. فجاء ردّ مزعومتهم بالشكل التالي:

«ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ

مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْإُنثَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإُنثَيْنِ أَمْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ»^(١).

خلاصة الاستدلال: إن الله تعالى هو الذي خلق الزوجين من الأنعام - الذكور والأنثى - فهل كانت علة تحريم ما ذكرتم هي الذكورية؟ وعليه فيلزم تحريم كل ذكر من الأنعام، ولا يخص بعضاً دون بعض! وإن كانت علة التحريم هي الانوثة فلازمه أيضاً تحريم جميع الاناث من الأنعام! وإن كانت لأجل اشتمال الأرحام عليها فلازمه تحريم الصنفين معاً ذكوراً واناتاً! وعليه

(١) الأنعام: ١٤٣ و ١٤٤.

فبطل تحريمهم لبعض دون بعض لغير ما سبب معقول.
وأما احتمال أن يكون شريعة التحريم أخذوها عن الله - بواسطة رسول أو
بلا واسطة - فهو منفي، أولاً: لأنهم لم يدعوه. وثانياً: ظهور بطلان الدعوى لو
ادعوها، إذ لم يأتوا عليها بسultan.

ومن ثم عقبها بقوله: «قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ
يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجْسٌ أَوْ فِسْقًا
أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ»^(١).

القول بالموجب:

قال ابن معصوم: هونوع من البديع غريب المعنى، لطيف المبني، راجع
الوزن في معيار البلاغة، مفرغ الحسن في قالب الصياغة. وهو والاسلوب
الحكيم^(٢) رضيعا لبان وفرسا رهان^(٣).

قال ابن أبي الاصبع: هو أن يتكلم أحد بشيء، فيعمد السامع إلى لفظة
من كلامه، فيبني عليها ويناقضه بسببها، ردّاً عليه من كلام نفسه. وذلك
يوجب معاكسة مقصود المتكلم ونقض غرضه. قال: لأن حقيقة القول بالموجب
هو ردّ كلام الخصم من فحوى لفظه^(٤) وهونوع «المسلّمات» من القياس

(١) الأنعام: ١٤٥.

(٢) سنأتي عليه، وهو: تلقى المخاطب بغير ما يترقب، يحمل كلامه على خلاف مراده، تنبيهاً على أنه
الأولى بالقصد. كقول القبصري للحجاج لما قال له متوعداً: لأهلك على الأدهم - أراد به القيد -
فقال: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب - أراد به الفرس - (راجع: أنوار الربيع: ج ٢
ص ٢١١).

(٣) أنوار الربيع: ج ٢ ص ١٩٨.

(٤) بديع القرآن: ص ٣١٤.

الجدلي في مصطلح علماء الميزان^(١).

نعم، هو من أطف أنوع البديع، في معاكسة كلام صديق أو مناقضة قول خصيم.

قال ابن حجاج:

قُلْتُ ثَقُلْتُ إِذْ أَتَيْتُ مَرَارًا قَالَ ثَقَّلْتُ كَاهِلِي بِالْأَيَادِي
قُلْتُ طَوَّلْتُ، قَالَ لِي بَلْ طَوَّلَ سَتْ وَأَبْرَمْتُ، قَالَ حَبْلَ وَدَادِي

* ومن أمثله في القرآن المجيد قوله تعالى: «يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ» - يريدون بالأعز أنفسهم، وبالأذل المؤمنين... وصادقهم تعالى على إخراج الأعز الأذل، غير أنه تعالى فسرها على عكس مطلوبها «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ»^(٢) كناية عن أن المؤمنين سوف يكونون هم الذين يخرجون المنافقين من المدينة، لأنهم هم الأعزاء وغيرهم الأذلاء.

* وقوله تعالى: «وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرَ لَكُمْ»^(٣) كانه قيل: نعم، هو أذن، ولكن نعم الأذن، أي هو أذن كما قلتم، إلا أنه أذن خير لا أذن سوء. فسلم لهم قولهم فيه، إلا أنه فسره بما هو مدح له، وإن كان قصدوا به المذمة. ولا شئء أبلغ في الرد من هذا الأسلوب، لأن فيه إطماعاً في الموافقة، وكرراً إلى إجابتهم في الإبطال، وهو كالقول بالموجب في الأصول^(٤).

(١) هو القياس المؤلف من قضايا مسلم بها لدى الخصم، فيبتنى عليها الكلام لدفعه.

(٢) المنافقون: ٨.

(٣) التوبة: ٦١.

(٤) نقله ابن معصوم عن الطيبي، راجع أنوارالربيع: ج ٢ ص ٢٠٠.

الاسلوب الحكيم:

قال ابن معصوم: يشترك «القول بالموجب» و«الاسلوب الحكيم» في كون كل منهما من إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر، ويفترقان باعتبار الغاية. فإن «القول بالموجب» غايته رد كلام المتكلم وعكس معناه. و«الاسلوب الحكيم» هو تلقي المخاطب بغير ما يترتب، بحمل كلامه على خلاف مراده، تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد. أو السائل بغير ما يتطلب، بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيهاً على أنه الأولى بحاله والمهم له.

أما الأول: فكقول القبعشري للحجاج: «مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب» وقد تقدم (١).

وأما الثاني: فكثير منه في القرآن، ويعد من بدائع خطابه مع أولئك الأقوام الجهلاء بما يصلحهم ويناسب شأنهم.

من ذلك قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَاتَّقَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٢).

كانوا سألوا عن الهلال ما باله يبدو دقيقاً ثم لا يزال يزداد حجماً حتى يكتمل بدرأ، ثم يعود شيئاً فشيئاً حتى يصير كما بدأ؟ فأجيبوا: بما في الآية تنبيهاً على أن الذي ينفعهم وهو أهمُّ بحالهم، ويكون وفق إدراكهم هو هذا، لا الذي سألوه.

وقوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدِينَ

وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ»^(١).

سألوا عن الذي ينفقونه، فأجيبوا ببيان مصارف الإنفاق، تنبيهاً على أن المهم هو معرفة موضع الإنفاق، أما الذي يجب أن ينفق فهو خير ما تيسر، من أي جنس كان. لأن النفقة لا يعتد بها إلا أن تقع موقعها. وكل ما فيه خير وصلاح فهو صالح للإنفاق. ومن ثم ختمت الآية بنوايا صاحب الإنفاق وأن الله عليم بذات الصدور^(٢).

الاستدراج:

وسمّاه بعضهم «مجاراة الخصم» ليعثر، بأن يسلم له بعض مقدماته حيث يراد تبكيته وإلزامه، كمن يجاري الصيد ليستولي عليه ويقبضه.

قال ابن معصوم: هو إرخاء العنان مع الخصم ليعثر حيث يراد تبكيته وإفحامه، وهو من مخادعات الأقوال والتصرفات الحسنة التي هي من السحر الحلال، حيث يُسمعه الحق على وجه لا يُغضب.

كقوله تعالى: «لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ»^(٣)، لم يقل عَمَّا تجرمون احترازاً عن التصريح بنسبة الجرم إليهم واكتفاء بالتعريض في قوله «عَمَّا أُجْرَمْنَا». لئلا تأخذهم الحمية الجاهلية والأنفة، وليتفكروا في حالة أنفسهم وحالة من خالفهم في العمل، إن صلاحاً أو فساداً، فيدركوا بالتأمل ما هو الحق منها^(٤).

وقد فصل الكلام في ذلك ابن الأثير، وعقد له باباً استخرجه من كتاب الله وشرحه شرحاً وافياً، قال:

(١) البقرة: ٢١٥.

(٣) سبأ: ٢٥.

(٢) راجع أنوار الربيع: ج ٢ ص ٢٠٩ و ٢١٠.

(٤) أنوار الربيع: ج ٦ ص ٦٢ و ٦٣.

وهذا البابُ أنا استخرجته من كتاب الله تعالى، وهو مخادعاتُ الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال، والكلامُ فيه وإنّ تضمّن بلاغة، فليس الغرض هاهنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرضُ ذكر ما تضمّن من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم. وإذا حُقّق النظرُ فيه عُلِمَ أنّ مدار البلاغة كلّها عليه، لأنّه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، ولا المعاني اللطيفة الدقيقة، دون أن تكون مُستجيبة لبلوغ غرض المخاطب بها. والكلامُ في مثل هذا ينبغي أن يكون قصيراً في خلاصه، لا قصيراً في خطابه.

فإذا لم يتصرّف الكاتب في استدراج الخصم إلى إلقاء يده، وإلا فليس^(١) بكاتب، ولا شبيه له إلا صاحب الجدل، فكما أنّ ذاك يتصرّف في المغالطات القياسيةّة، فكذلك هذا يتصرّف في المغالطات الخطائية. وقد ذكرتُ في هذا النوع ما يتعلّم منه سلوكُ هذه الطريق.

فمن ذلك قوله تعالى: «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ»^(٢).

ألا ترى ما أحسن مأخذ هذا الكلام وألفظه، فإنّه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم، فقال: لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذباً فكذبُه يعودُ عليه ولا يتعدّاه، أو يكون صادقاً فيصيبكم^(٣) بعض الذي يعدّكم إن تعرّضتم له. وفي هذا الكلام من حُسن الأدب والإنصاف ما أذكره لك، فأقول: إنّها

(١) سياق المعنى يقتضي حذف كلمة «وإلا».

(٢) غافر: ٢٨.

(٣) في الأصل «يصبكم».

قال: «يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ» وقد علم أنه نبيٌّ صادقٌ، وأنَّ كلَّ ما يَعِدُهُمْ به لا بدَّ وأنَّ يُصِيبَهُمْ، لا بعضه، لأنَّه احتاجَ في مُقَاوَلَةِ خُصُومِ مُوسَى عليه السَّلام أن يسلكَ معهم طريقَ الإنصاف والملاطفة في القول، ويأتيهم من جهة المناصحة، ليكون أدعى إلى سُكُونِهِمْ إليه، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله، وأدخل في تصديقهم إياه، فقال: «وإنَّ يَكُ صادقاً يُصِيبُكُمْ بعضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ» وهو كلامُ المنصف في مقابلة غير المشتطِّ، وذلك أنَّه حينَ فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادقٌ في جميع ما يَعِدُ به، لكنَّه أردفَ بقوله: «يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ» ليهضمَّه بعضُ حقِّه في ظاهر الكلام فيريهم أنَّه ليس بكلام من أعطاه حقَّه وافيّاً، فضلاً عن أن يتعصَّب له، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل، كأنَّه بَرَّطَلَهُمْ^(١) في صدر الكلام بما يزعمونه، لئلاَّ ينفروا منه.

وكذلك قوله في آخر الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» أي هو على الهدى، ولو كان مُسْرِفاً كَذَّاباً لما هداه الله للنبوة، ولا عَصَدَه بالبينات. وفي هذا الكلام من خداع الخَصم واستدراجه ما لا يخفاء به، وقد تضمَّن من اللطائف الدقيقة ما إذا تأمَّلتَه حقَّ التأمل أعطيتَه حقَّه من الوصف. ومما يجري على هذا الأسلوب قوله تعالى: «وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً»^(٢).

(١) يقال: برطل فلان فلاناً أي: رشاه، فبرطل: فارثى.

(٢) مريم: ٤١ - ٤٥.

هذا كلامٌ يهزُّ أعطافَ السامعين، وفيه من الفوائد ما أذكُرُهُ، وهو أنه لما أرادَ إبراهيم عليه السَّلام أن ينصحَ أباه ويعظه ويُنقِذه ممَّا كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم الذي عَصَى به أمرَ العقل رتبَ الكلام معه في أحسن نظام، مع استعمال المجاملة واللفظ، والأدب الحميد، والخلق الحسن، مُستنصِحاً في ذلك بنصيحة ربِّه، وذلك أنه طلب منه أولاً العلةَ في خطيئته طلباً مُنبِّه على تماديهِ، مُوقِظٍ من غفلته، لأنَّ المعبود لو كانَ حيّاً مميّزاً سميعاً بصيراً مقتدرّاً على الثواب والعقاب - إلّا أن بعض الخلق يستخفُّ عقل من أهله للعبادة، ووصفه بالربوبية ولو كان أشرف الخلائق كالملائكة والنبّيين - فكيف بمن جعل المعبود جماداً لا يسمُع ولا يبصر، يعني به الصنم.

ثم ثنّى ذلك بدعوته إلى الحق، مترقّقاً به، فلم يسمِّ أباه بالجهل المطلق، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إنَّ معي لطائفة من العلم وشيئاً منه، وذلك عِلْمُ الدلالة على سُلوِك الطريق، فلا تستنكف، وهب أنِّي وإيّاك في مسيرٍ وعندي معرفة بهداية الطريق دونك، فاتَّبِعني أنجِكَ من أن تضلَّ.

ثم ثلث ذلك بتشبيهُه عمّا كان عليه ونهيه، فقال: إنَّ الشيطان الذي استعصى على ربِّكَ - وهو عدوُّكَ وعدوُّ أبيكَ آدم - هو الذي ورَّطكَ في هذه الورطة، وألقاك في هذه الضلالة، وإنَّما ألغى إبراهيم عليه السَّلام ذكر معاداة الشَّيطان آدمَ وذُرِّيَّته في نصيحة أبيه لأنَّه لإمعانه في الإخلاص لم يذكر من جنايتي الشيطان إلّا التي تختصُّ بالله، وهي عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى ذكر مُعاداته آدمَ وذُرِّيَّته.

ثم ربَّع ذلك بتخويفه إيَّاه سوء العاقبة، فلم يصرِّح بأنَّ العقابَ لا حِقُّ به، ولكنه قال: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ»، فنكَّر العذاب ملاطفةً لأبيه، وصدَّر كل نصيحة من هذه النصائح بقوله «يَأْبَتِ» توسلاً إليه، واستعطافاً وهذا بخلاف ما أجابه به أبوه، فإنَّه قال: «أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا

إبراهيم» فأقبل عليه بفظاظة الكفر، وغلظ العناد، فناده باسمه، ولم يقابل قوله «يا أبت» بقوله «يا بني»، وقدّم الخبر على المبتدأ في قوله «أراغب أنت» لأنّه كان أهمّ عنده، وفيه ضربٌ من التعجُّب والإنكار لرغبة إبراهيم عن أهله. وفي القرآن الكريم مواضع كثيرةٌ من هذا الجنس لاسيّما في مخاطبات الأنبياء صلواتُ الله عليهم للكفار، والردّ عليهم، وفي هذين المثالين المذكورين هاهنا كفاية ومقنع^(١).

فصاحة القرآن

في كفة الميزان

في ختام البحث عن دلائل إعجاز القرآن البياني كان يجدر بنا عرض علوم البلاغة وفنون البديع على آيات الذكر الحكيم، عرضاً تطبيقياً نموذجياً، ليكون شاهد صدق على شموله لجلائل هذه العلوم ودقائق هذه الفنون. فكان بذلك قد ارتفع شأنه وعظم قدره وفاق سائر الكلام.

وقد وقع اختيارنا على مقال ضافي، أورده الأمير يحيى بن زيد العلوي في خاتمة كتابه «الطراز»^(١) بحثاً مستوفى على وجازته، ومستوعباً على اختصاره، شاملاً لجميع جوانب البلاغة وفنون البديع الواردة في القرآن الكريم... وكان من الوفاء والشفاء بحيث اخترناه.

انتهج - رحمه الله - في ذلك أولاً طريقة الاختصار وجعلها على ثلاثة مسالك، ثم عقبها بالتفصيل والبيان.

قال:

الطريقة الأولى: مجمل

وفيه مسالك ثلاثة:

الأول: هو أننا قد قررنا فيما سبق معنى البلاغة والفصاحة وحقائقها، وأشرنا

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم وحقائق الإعجاز: ج ٣ ص ٢١٤ فابعده.

إلى بيان التفرقة بينهما، وتلك المعاني التي ذكرناها فيها حاصلة في القرآن، فيجب القضاء بكونه فصيحاً، سواء قلنا إن الفصاحة راجعة إلى الألفاظ، والبلاغة راجعة إلى المعاني، أو قلنا إنها شيء واحد يقعان على فائدة واحدة، فكل كلام فصيح فهو بليغ، وكل بليغ من الكلام فهو فصيح، فعلى جميع وجوهها فهما حاصلان في القرآن على أوضح حصول وأكملة، فيجب القضاء بكونه فصيحاً، وهذا هو المقصود من الدلالة.

الثاني: هو أنك إذا فكرت وأمعنت النظر في كلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وفي كلام أمير المؤمنين عليه السلام وغيرهما ممن كان معدوداً في زمرة الفصحاء وكان له منطق في البلاغة في المواعظ والخطب والكلم القصيرة ومواقع الإطناب والاختصار في المقامات المشهودة، والمحافل المجتمعة وجدت القرآن متميزاً عن تلك الكلمات كلها تمييزاً لا يتمازى فيه منصف، ولا يشبهه على من له أدنى ذوق في معرفة بلاغة الكلام وفصاحته.

وذلك التميز تارة يكون راجعاً إلى ألفاظه من فصاحة أبيته، وعدوبة تركيب أحرفها، وسلاسة صيغها، وكونها مجانبية للوحشي الغريب، وبُعدها عن الركيك المسترذل، ألا ترى قوله تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ» لم يقل الفلك لما في الجري من الإشارة إلى باهر القدرة، حيث أجراها بالريح، وهي أرق الأشياء وألطفها، فحرّكت ما هو أثقل الأمور وأعظمها في الجرم، وقال «في البحر» ولم يقل في الطمطم، ولا في العباب، وإن كانت كلها من أسماء البحر، لكون البحر أسهل وأسلّس، ثم قال «كالأعلام»^(١) ولم يقل كالروابي، ولا كالأكام، إيثارةً للأخف الملتذبه، وعدولاً عن الوحشي المشترك.

وتارة يكون راجعاً إلى المعاني لإغراقها في البلاغة ورسوخها في أصلها،

وسببها حسنُ النظم وجودة السبك، فمن أجل ذلك يحصل قانون البلاغة ويبدو رونقها ولا شك أن ما هذا حاله قد حصل في القرآن على أتم وجه وأكمله.

وإن اعتاص عليك ماذكرته من معرفة هذه الأسرار في كتاب الله تعالى، ودقَّ عليك تمييزُ بلاغة معانيه وفصاحة ألفاظه، وصُعُب عليك معرفة حُسن التأليف منه وعجيب انتظامه وجودة سياقه، فاعمد إلى أفصح كلام تجده من غير القرآن، وقابل به أدنى سورة من سورهِ أو آية من آياته، في وعظٍ أو وعيدٍ أو وعيد، من تمثيلٍ أو استعارةٍ أو تشبيه، أو غير ذلك من أفانين الكلام وأساليبه، فإنك إذا خلعت ربة الهوى، وسلبت عن نفسك رداء التعصُّب، وجدت مصداق ماقلته من ذلك.

فهذا كلام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليس بعد كلام الله تعالى إلا كلامه، وهو أفصح من غيره من سائر الكلام، فاذا قابلت قوله تعالى: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ»^(١) بقوله عليه السلام: (كأنَّ الموت فيها على غيرنا كُتِب، وكأنَّ الحقَّ فيها على غيرنا وجب، وكأنَّ الذي نُشِيع من الأموات سفرٌ عمَّا قليل إلينا راجعون) فهما قد اتفقا على وصف معنى واحد، وهو الموت والعودُ إلى الآخرة، وتصرُّم الدنيا وانقضاء أحوالها وطبيعتها، والورود إلى الآخرة، ولكن القرآن متميز في تحصيل هذا المعنى وتأديته، تمييزاً لا يدرك بقياس، ولا يعتوره التباس.

وإذا كان القرآن فائقاً على كلام الرسول وكلام أمير المؤمنين، مع أنها النهاية في البلاغة والفصاحة فهو لغيرهما أفوق، وعلوه عليها أبلغ وأحق.

وهذه طريقة مرضية في الدلالة على فصاحة القرآن، ويتضح ذلك بمثال، وهو أن أهل بلد لو كانوا أربعين فأرادوا مناظرة رجل واحد فاختروا من أولئك

الأربعين أربعة من كل عشرة واحداً، ثم اختاروا من تلك الأربعة رجلاً واحداً، فناظر ذلك العالم، ثم إنَّ ذلك العالم استطال عليه وقطعه وحده وبَلَّده، فإنه يكون لامحالة لغيره أقطع، وعلى تحيّرهم وإدهاشهم أقدر.

فهكذا حال القرآن إذ كان فائقاً لكلام رسول الله وكلام أمير المؤمنين، فهو لغيرهما بذلك أحقّ لعلو الرتبة، وأعظم استبداداً بالفصاحة وأحوى لأسرار البلاغة.

الثالث: هو أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما أيده الله بالقرآن جعله له معجزة باقية على وجه الدهر، لا تنقضي عجائبه، ولا تخلق على كثرة الترداد جدته. وقد عرّضه على من كان في وقته من أهل الفصاحة من قريش وغيرهم، فحير ألبابهم، وأدهش أفهامهم، وخرق قراطيس أسماعهم، وما ذاك إلا لما تحقّقوا وعرفوا من بلوغه الغاية في فصاحته، وإنافته على كل كلام في جزالته وبلاغته، حتى قال الوليد بن المغيرة فيه ما قال حين جاء إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: اتلّ عليّ يا محمّد ما أنزل إليك، فأسرع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى ذلك طمعاً في الانقياد، فقرأ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «بسم الله الرحمن الرحيم. حم تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته...» إلى آخر حم السجدة، فقال: إنَّ أعلاه لمورق، وإنَّ أسفله لمُعذّق، وإنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، فما تيسر منهم إنسان، ولا فاة لأحد منهم لسان، إلى مماثلة شيء من أساليبه، ولا إلى الإتيان بأقصر سورة من سوره. وهذا يدلّك على أمرين، أحدهما: اختصاصه بما لا يقدرّون عليه، ولهذا أظهروا الإعجاب من نفوسهم، وخرجوا بالاستطراف من ألسنتهم. وثانيهما: علمهم بالعجز واعترافهم بالقصور. فهذا ما أردنا ذكره من الدلالة على كونه بالغاً أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة من جهة الإجمال، والله تعالى أعلم بالصواب.

الطريقة الثانية: من جهة التفصيل

اعلم أنه لا مطمع لأحد من الخلق وإن عظم حاله في الإحاطة بجميع مزايا القرآن والاستيلاء على عجائبه، وما اختص به من دقائق المعاني وكنوز الأسرار وعلو مرتبته في الفصاحة، وكونه فائقاً في البلاغة، ومباينته لكلام فصحاء العرب، وكل ذلك فيه دلالة على شرفه، وأنه فائق على غيره من سائر الكلام كله بحيث لا يُدانيه كلام، ولكنتي أنبئه من تلك الأسرار على أدناها مستعيناً بالله تعالى، مستمداً من فضله، طالباً للإرشاد في كل مقصد ومراد، وليس تخلو تلك المزية التي تميز بها حتى صار في أعلا ذروة الفصاحة ومقتعد صهوة البلاغة، إما أن تكون راجعة إلى الألفاظ، أو إلى المعاني، فهاتان مرتبتان.

الأولى: في المزايا الراجعة إلى ألفاظه

تارة ترجع إلى مفردات الحروف، وتارة إلى تأليفها من تلك الأحرف، ومرة إلى مفردات الألفاظ، ومرة إلى مركباتها. فهذه أوجه أربعة لا بد من اعتبارها في كون اللفظ فصيحاً، وكلها حاصلة في القرآن على أتم وجه وأكملة.

(الأول) مفردات الأحرف، ولا بد من أن تكون مستعملة من هذه الأحرف التسعة والعشرين، فإنها جميعاً حروف العربية، فلا يكون اللفظ الفصيح مؤتلفاً إلا منها، وما خرج عنها فقد يكون مستعملاً، وقد يكون مستهجنًا.

أما المستعمل فهو: همزة بين بين، وألف الإمالة، والتفخيم نحو إمالة هُدى وهاد، ونحو الصلاة في التفخيم، والنون الساكنة نحو عنك، فإن هذه وإن كانت خارجة عن أحرف العربية التسعة والعشرين لكنها فصيحة مستعملة في كتاب الله تعالى، وفي كل كلام فصيح.

وأما المستهجن فهو: الطاء التي كالتاء في نحو (تالب) في (طالب) والطاء التي كالتاء نحو في (ثالم) في (ظالم) والفاء التي كالباء في نحو قولك (ضرف) في (ضرب) والجيم التي كالكاف في نحو (كابرس) في مثل قولنا (جابر) إلى غير ذلك مما يكون خارجاً عن اللغة الفصيحة.

فما هذا حاله لا يكون في الكلام الفصيح، وإنما الغالب عليه لغة الأنباط والأعاجم والأكراد، فما هذا حاله فكتابُ الله تعالى مُجَنَّبٌ عنه لا يجوز دخوله فيه، لما فيه من الركة والتواء اللسان، فأما الجيمُ التي أُطْبِقَ من قوله: «جَعَلَ رَبُّكَ»^(١) وفي نحو قوله: «وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا»^(٢) فهي فصيحةٌ مقروءٌ بها في السبعة، فما هذا حاله لا يجب تنزيه كتاب الله تعالى عنه.

(الثاني) في حسن تأليفها، وهي وإن حصلت على ما ذكرناه من كونها من حروف العربية فلا بد من كونها مؤلفة تأليفاً يسهل النطقُ به ويَرَقُّ على اللسان ويعذُّب، فاذا تباعد المخرجان كان أحسن ما يكون وألطف، وإذا تقارب المخرجان كان دون ذلك في الحسن كقولك (أَمْرَأْتُ) فإنَّ الهمزة من الحلق والباء والميم من الشفة، فلا جَرَمَ كان حسناً، بخلاف قولنا (هُعْخُع) اسم شجر، فإنَّ تأليفه متنافرٌ لما كانت المَخارجُ متقاربة، لأنها كلُّها من الحلق، فلهذا صعب مخرجها على اللسان لِمَا فيها من الثقل، وهكذا قولنا (مَلَعَ) فإنها ركيكة التأليف لما كانت متقاربة المَخارج، فإنَّ حروفها كلُّها من الفم والحلق، لكن لَمَّا تقدَّم حرف الفم ثقلت، فلو تقدَّم حرف الحلق كان حسناً، فاذا قلبت تأليفها بـ (عَلِمَ وَعَمِلَ) كان رقيقاً خفيفاً. فينحلُّ من مجموع ما ذكرناه أنه لا بد من مراعاة أحوال الحروف المفردة، من رِقَّتْها ولطافتها وأن تكون مألوفاً مستعملة في اللغة العالية، وأن يكون بريئاً من الحروف النادرة المستهجنة، نحو ماروي

من كشكشة بني تميم، وهي إبدالهم من كاف المؤنث شيئاً، فيقولون: مررت بش، قال شاعرهم:

فَعَيْنَا شَ عَيْنَاهَا وَجِيدَشَ جِيدُهَا وَلَكِنَّ عَظَمَ السَّاقِ مَنَشٍ رَقِيقُ
وكسكسة بني بكر، وهي إلحاقُ كَبافِ المؤنثِ سيناً، فيقولون مررت بكس. والكشكشة في بني تميم هي بالشين بثلاث من أعلاها، والكسكسة بالسين، وهي في بني بكر. ونحو الطُمطمانيّة في حيز، وهي عدم الإبانة في الكلام والإفصاح فيه. ونحو الغمغمة في قضاة، وهي اللكنة في الكلام. ونحو الفُراتية في أهل العراق، واللخلخانية فيهم، وهما العُجمة في الكلام، وهذه كلّها عاهات في الكلام ولكنة فيه، وكتابُ الله تعالى منزّه عن هذه اللغات، لبُعدها عن الفصاحة وميلها عن الأحرف العربية.

وأنه لابدّ من مراعاة حسن التاليف مع حسن الأحرف ورقتها، فتنى حصل الأمران - أعني عذوبة الأحرف ورشاقة تأليفها - كان الكلام في غاية الحسن والإعجاب، فإذا لابدّ لاعتبار كون الكلمة فصيحة من أمور ثلاثة:

أما (أولاً) فبأن تكون حروفها صافية الذوق في مخارجها، لذيدة السماع طيبة المجرى على اللسان.

وأما (ثانياً) فبأن تكون معتدلة في تأليفها، بأن تكون ثلاثية، لأنّ مادونها لا يُعَدُّ من الأساء لنقصان وزنه، أو فوق الثلاثي، من الرباعي والخماسي، وإن كانت مستعملة، لكن الثلاثي أعدّها في الوزن، وأخفّها على الألسنة.

وأما (ثالثاً) فتكون تارة ساكنة الوسط، لأنها إذا كانت كلّها متحركة كانت ثقيلة على اللسان بعض الثقل، فيحصل من أجله صعوبة في النطق، وإن تحرك وسطها كان تحركه بالفتح أخفّ من تحركه بالضم والكسر، لما فيها من مزيد الثقل الحاصل بالحركة، فلا بدّ من مراعاة ما ذكرناه لتحصل الفصاحة في الألفاظ.

وإذا تأملت كتاب الله تعالى وجدته على ما ذكرناه من اعتبار هذه الشرائط فيه كلّها.

(الثالث) في بيان ما يكون راجعاً إلى مفردات الألفاظ، وقد زعم بعض الخائضين في هذه الصناعة أنه لأقبح في الألفاظ، فإنّ مستندها هو الوضع، والواضع لا يضع إلّا ما كان حسناً.

وهذا فاسدٌ، فإن فيها: الخفيف، والثقيل، والشاذّ، والمستعمل، من جهة وضعها، فأحوالها متباينة كما ترى، ولهذا فإنّ الخمر أحسن من قولنا: زرجون، وأسدّ أحسن من قولنا: غضنفر، والغضنفر أحسن من قولنا: فدوكس، وهرماس وسيف أحسن من قولنا: خنثليل.

فإذا تقرّر ما قلناه فلا بدّ من مراعاة محاسن الألفاظ في كون اللفظ فصيحاً، وذلك يكون بمراعاة أمور ثلاثة:

أما (أولاً) فلا بدّ من اعتبار كونها عربية، فلا تكون معربة، فارسية، ولا رومية، ولا حبشية، ولا سندية، لأنها إذا كانت خالصة كانت أدخل في فصاحة اللفظ.

وأما (ثانياً) فإن تكون مألوفة مستعملة، ولا تكون شاذّة نادرة، فما هذا حاله من الألفاظ لا يُعدّ فصيحاً، ولا يكون جارياً في أساليب الفصاحة.

وأما (ثالثاً) فإن تكون خفيفة على السماع طيّبة الذوق في تأليفها، ولا تكون وحشية غريبة. وقد زعم بعضهم أنّ الكلام إنما يكون فصيحاً إذا كان فيه غنّجهايةً وبُعد عن الأفهام، وهذا فاسدٌ، فما هذا حاله عند النظار لا يكون معدوداً في الفصاحة، وإنما الفصيح ما كان معتاداً مألوفاً يفهمه كلُّ أحد من الناس، فحصل من هذا أنّ كلام الله حائزٌ لهذه الخصال متميّزٌ بها عن سائر الكلام في جميع ألفاظه، لا يوجد فيه شيء من هذه العاهات التي ذكرناها.

(الرابع) أن يكون راجعاً إلى تركيب مفردات الألفاظ العربية، وهذا معدودٌ

من جملة المحاسن المعدودة في فصاحة الكلام وبلاغته، ولا بد فيه من مراعاة أمرين:

١. أما (أولاً) فإن تكون كل كلمة منظومة مع ما يُشاكلها ويُماثلها، كما يكون في نظام العقد، فإنه إنما يحسن إذا كان كل خُرزة مؤتلفة مع ما يكون مُشاكلاً لها، لأنه إذا حصل على هذه الهيئة كان به وقع في النفوس وحسن منظر في رأي العين.

وأما (ثانياً) فإذا كانت مؤتلفة فلا بد أن يقصد ما وضع لها بعد إحراز تركيبها، والمثال الكاشف عما ذكرناه، العقد المنظوم من اللثائي ونفائس الأحجار، فإنه لا يحسن إلا إذا أُلّف تأليفاً بديعاً بحيث يُجعل كل شيء من تلك الأحجار مع ما يلائمه، ثم إذا حصل ذلك التركيب على الوجه الذي ذكرناه فلا بد من مطابقته لما وُضع له، بأن يُجعل الإكليل على الرأس، والطوق في العنق، والشنف في الأذن، ولو أُلّف غير ذلك التأليف فلم يُجعل كل شيء في موضعه، بطل ذلك الحسن، وزال ذلك الرونق، فلو جعل الإكليل في موضع الخلخال من الرجل لم يكن حسناً لعدم المطابقة لوضعه، وهكذا لو جعل الطوق على الأذن لم يحصل المقصود به، وهكذا حال الكلام إذا كان مؤلفاً تأليفاً بديعاً ولم يُقصد به مطابقة الغرض المطلوب لم يكن معدوداً في البلاغة ولا كان فصيحاً.

وكلام الله تعالى قد أحسن تأليفه كما ترى في ألفاظه، فإنها مُعجبة رائقة في تأليفها، ثم إنها قد قُصد في حقها مطابقة الأغراض المقصودة، بحيث لا تُخالف ما قُصِدت به.

فهذا ما أردنا ذكره من إحراز القرآن لهذه اللطائف الراجعة إلى الألفاظ بتمامها وكما لها. ولنورد مثلاً من القرآن العظيم جامعاً لما ذكرناه من الأوجه الأربعة وهو قوله تعالى: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ

الماء وَقُضِيَ الأَمْرُ واستوت على الجودي»^(١).

فانظر إلى مفردات أحرف هذه الآية، ما أسلسها وأرقها وألطفها، ثم في تأليفها ما أسهله على اللسان، ثم انظر إلى مفردات ألفاظه ما أعذبها وأجرأها على الألسنة من غير صعوبة ولا عُسرة، ثم انظر إلى تأليف مفرداتها كيف طابقت الغرض المقصود منها، وسيقت على أتم سياق وأعجبه، فلما كان من أمر الطوفان ما كان من تطبيقه للأرض ذات الطول والعرض، وإذن الله بإهلاك قوم نوح به، واقتضت الحكمة الإلهية إخراجهم ومن معه من الفلك إلى الأرض.

ابتدأ بقوله «قيل» إيهاماً للقاتل وإعظاماً لأمره، حيث بُني لما لم يُسم فاعله، تهويلاً للأمر وإعظاماً لحاله، ولم يقل: قال الله ثم نادى الأرض بالابتلاع للماء، فيحتمل أن يكون هناك خطابٌ كما هو ظاهر، ويحتمل أن لا يكون هناك خطابٌ كما في قوله تعالى: «كُنْ فَيَكُونُ»^(٢) ليس الغرض أنه لا بد في التكوين من قوله (كُنْ) ولكن كُنْ بذلك عن سرعة الإجابة عند الإرادة للفعل، بحصول الداعية إليه من غير أن يكون هناك خطاب، ثم أمر السماء بالإقلاع، جرياً على ما ذكرناه في الأرض، ثم قال «وغيض الماء» تصديقاً لقوله «ابلعي» و«أقلعي» لأنه مهما حصل غاض الماء لا محالة لعدم ما يُمِده، ثم قال «وقُضِيَ الأمر» إما في إهلاكهم وإما بحصول المراتب في الأرض بإخراجهم إليها، ثم قوله «واستوت على الجودي» إخبارٌ بالاستقرار للسفينة على هذا الجبل، وأن خروجهم منها كان إليه، وقوله «بعداً للقوم الظالمين» فيه إشارة إلى عظم الغضب واستحقاق العقوبة الأبدية.

فهذا تنبيه على أسرار الآية على جهة الإجمال والإحاطة لمعانيها على جهة التفصيل مما لا تقدر عليه القوى البشرية، ولكنا نرمر إلى ما يحضرنا من

(١) هود: ٤٤.

(٢) البقرة: ١١٧، آل عمران: ٤٧ و ٥٩، الأنعام: ٧٣، النحل: ٤٠، مريم: ٣٥، يس: ٨٢، غافر: ٦٨.

لطائفها، ونُشير من ذلك إلى مباحث خمسة: (١)

المرتبة الثانية: في بيان المزايا الراجعة إلى معانيه

اعلم أنَّ بإحكام النظر في هذه المرتبة، وإمعان الفكرة فيها، تظهر عجائب التنزيل، وتبرز بدائعُه وغرائبُه، وتتجلى محاسنُه، وتصفو مشاربُه، لما فيها من الكشف لأسراره والإحاطة بغوائله وأغواره، ولن يحصل ذلك كلَّ الحصول، إلَّا بعد ذكر ما يتعلَّق بعلوم الإعجاز، لأنها تكون كآلة في تقرير تلك المحاسن، وإظهار كنوز تلك المعادن، فنذكر ما يتعلَّق بالعلوم المعنوية، ثم نُردفه بما يتعلَّق بالأسرار البيانية، ثم نذكر ما يتعلَّق بالبلاغة اللفظية، ثم بالبلاغة المعنوية، ثم نذكر على إثرهما ما يتعلَّق بأسرار البديع، فهذه أقسام ثلاثة، يحرزها والاطلاع على رموزها يظهر الإعجاز للإنسان ظهور المرئيِّ في العيان، ونحن الآن نذكر ما يتعلَّق بكل قسم من هذه الأقسام بمعونة الله تعالى.

الأول ما يتعلَّق بالعلوم المعنوية:

وهو في لسان علماء هذه الصناعة عبارة عمَّا ينشأ من الألفاظ العربية على اختلاف أحوالها، وحقيقته آتلة إلى أنه علم تُدرك به أحوال الألفاظ العربية على حسب المقصود منها. فقولنا (علم تدرك به أحوال الألفاظ) نحتز به عن علم البيان، فإنه يُدرك به أسرارُ تنشأ عن التراكيب كما سنوضحه. وقولنا (على حسب المقصود منها) نُشير به إلى الأمور الخبرية، والأمور الإنشائية الطلبية، وغيرهما مما يكون مفهوماً من الألفاظ العربية، وينحصر المقصود منه في أنظار خمسة:

الأول

ما يكون متعلِّقاً بالأمور الخبرية، والأخبارُ واردة في كتاب الله تعالى

(١) وقد أوردناها في المجال المناسب له، وإن شئت فراجع ص ٨٣-٩٧ من هذا الجزء.

أكثر من أن تُحصى كالأخبار عن العلوم الغيبية، كقوله تعالى: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا»^(١) وقوله تعالى: «الم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِيهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بَضْعِ سِنِينَ»^(٢) وقوله تعالى: «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا»^(٣) وهكذا الكلام في قصص الأنبياء مع قومهم وأخبارهم، كقصة موسى وفرعون، إلى غير ذلك مما حكاها الله تعالى عما كان وسيكون.

ثم إنَّ وروده على أوجه ثلاثة: (أحدها) أن يكون الخبر خالياً من التردد، وما هذا حاله من الأخبار، فإنه يكون مستغنياً عن مؤكِّدات الحكم، كقوله تعالى: «وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى»^(٤) وقوله تعالى: «وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّوْيَا»^(٥) إلى غير ذلك من الأخبار التي وردت ساذجة، لأنه لم يعرض في حقها شيء، والغرض منها مطلق الأخبار، فلهذا وردت مطلقة كما ترى.

(وثانيها) أن يطلب منها حُسن تقوية بمؤكِّد إذا كان هناك تردد وهذا كقوله تعالى: «إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ»^(٦) وقوله تعالى: «إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ»^(٧) إلى غير ذلك مما يطلب به توكيد وتقوية للخبر، ولهذا وردت هذه الأخبار مؤكَّدة بـ(إنَّ) كما هو ظاهر.

(وثالثها) أن يكون الخبر يُعتقد إنكاره، فيجب تأكيده، وهذا كقولك: إنَّ زيداً لقائم، لمن ينكر ذلك ويحيله، ولهذا قال تعالى في المرة الأولى: «إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ»^(٨) لَمَّا أَنْكَرُوا وَكَذَّبُوا، وفي الثانية «إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ»^(٩) تأكيداً

(٦) القمر: ٢٧.

(١) الفتح: ١.

(٧) العنكبوت: ٣٤.

(٢) الروم: ١-٤.

(٨) يس: ١٤.

(٣) الفتح: ٢٠.

(٩) يس: ١٦.

(٤) القصص: ٢٠.

(٥) الصافات: ١٠٤ و ١٠٥.

بمحرفين لما ازداد إنكارهم وتكذيبهم.

ويستى الأول من الاخبار (ابتدائياً) لما كان الغرض به مطلق الخبر من غير تعرض لما وراءه. ويستى الثاني (طلبياً) لما كان المقصود به الطلب، فيؤكد تقريره في النفس ويوضحه. ويستى الثالث (إنكارياً) لما كان المطلوب منه وجوب تأكيده بالحروف لأجل إنكاره.

ومن المطلق قوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ»^(١) وليس منه قوله تعالى: «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ»^(٢) وقوله تعالى: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا»^(٣) وقوله تعالى: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»^(٤).

ومن المؤكد قوله تعالى: «إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ»^(٥) وقوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ»^(٦) فهذا وما شاكلة مؤكداً بحرف واحد. ومن المؤكد محرفين قوله تعالى: «وَأَيْنَهُمْ عِنْدَنَا لِيَمَنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارَ»^(٧) وقوله تعالى: «وَإِن لَّهٗ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ»^(٨) وقوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ»^(٩).

وهذا الخبر المؤكد قد يرد مؤكداً، إما من غير إنكار فيكون تأكيده حسناً، وقد يرد على جهة الإنكار فيكون تأكيده واجباً، والأمثلة فيه كثيرة. ثم إن الإسناد وارء على وجهين: (الوجه الأول) منها حقيقي، وهو أن يكون الفعل مضافاً إلى فاعله، وهذا كقولك: قام زيد، وضرب عمرو، وكقول الله تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا»^(١٠) وقوله تعالى: «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ

(١) المؤمنون: ١.

(٢) البقرة: ٢٥٤.

(٣) المنافقون: ٦.

(٤) الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧.

(٥) الزمر: ٢١، ق: ٣٧.

(٦) القدر: ١.

(٧) الأعراف: ١٨٠، الزمر: ٧.

(٨) الفتح: ٢٩.

(٩) ص: ٤٦.

ماء»^(١) وقوله تعالى: «وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ»^(٢) إلى غير ذلك من الأخبار التي يكون إسنادها إلى فاعلها على جهة الحقيقة.

(الثاني) أن يكون الإسناد على جهة المجاز العقلي، والمراد من هذا هو أن إسنادها إلى فاعلها يقضي العقل باستحالة، فلا جرم كان مجازاً عقلياً، وهو في القرآن كثير، ويقال له المجاز المركب، والغرض أن مجازه ما كان إلا من أجل تركيبه، وهذا كقوله تعالى: «وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا»^(٣) فإن الإخراج حقيقة في الدلالة على معناه، والأرض حقيقة، لأنها موضوعة على معناها الأصلي، والمجاز إنما نشأ من جهة إسناد الإخراج إلى الأرض، وهكذا قوله تعالى: «وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا»^(٤) فإن قوله «ثَلَيْتَ» دالة على حقيقته، والآيات على حقيقتها، لكن المجاز جاء من جهة إسناد (ثليت) إلى الآيات^(٥)، ونحو قوله: «حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَارَّيْنَتْ»^(٦) فالأخذ على حقيقته، والأرض على حقيقتها، لكن المجاز حاصل من جهة إسناد الأخذ إلى الأرض، وقوله تعالى: «يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ»^(٧) في قصة فرعون، فإن الذبح والأبناء دالان على معنيهما بالحقيقة، لكن المجاز إنما كان من أجل إسناد الذبح إلى فرعون، وليس ذابحاً، وإنما الذابح غيره، وهكذا حال الاستحياء في قوله تعالى: «وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ».

فهذا ما أردنا ذكره من بيان ما يتعلق بمطلق الإسناد، ولتردده بما يتعلق

(١) النور: ٤٥.

(٢) النحل: ٥١.

(٣) الزلزلة: ٢.

(٤) الأنفال: ٢.

(٥) هذا سهو، وإنما المجاز العقلي في قوله تعالى: «زادتهم إيماناً».

(٦) يونس: ٢٤.

(٧) القصص: ٤.

بتفاصيله من ذكر المسند والمسند إليه، فهذان ضربان، نذكر ما يخصهما بمعونة الله تعالى.

الأول: في بيان خصائص المسند إليه

وتعرض له حالات، بعضها يستحقها بالأصالة، وبعضها بالعروض لأغراض وفوائد نفصلها:

(منها) ذكر المسند إليه، إما على جهة الابتداء كقوله تعالى: «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ»^(١) وإما على جهة الفاعلية كقوله تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا»^(٢) لأنَّ كل واحد من الفاعل والمبتدأ مسندٌ إليهما، فذكرهما هو المطرد المعتاد، وإما لكونه هو الأصل، وإما لزيادة الإيضاح والتقرير كقوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ»^(٣)، وإما لإظهار التعظيم كقوله تعالى: «هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ»^(٤)، وإما لبسط الكلام من أجل الاعتناء به بذكر المسند إليه كقوله تعالى: «هِيَ عَصَايَ»^(٥)، وإما للتنبيه على فضله وعظم منزلته كقوله تعالى: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»^(٦)، وإما للاحتياط لضعف التعويل على القرينة كقوله تعالى: «وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا»^(٧)، إلى غير ذلك من الأوجه والمعاني الموجبة لذكره، فاعلاً كان أو مبتدأً.

(ومنها) حذفه، إما للدلالة على الجواز كقوله تعالى: «مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ»^(٨) بالرفع على تأويل: هو ملك يوم الدين، وإما للاحتراز عن العبث ببناءً على الظاهر حيث يكون معلوماً، فتحذفه اتكالاً على العلم به كقوله تعالى: «فَصَبِّرْ

(١) النور: ٤٥.

(٢) المائدة: ٩، النور: ٥٥، الفتح: ٢٩.

(٣) الروم: ٤٠.

(٤) الحشر: ٢٤.

(٥) طه: ١٨.

(٦) الفتح: ٢٩.

(٧) الزلزلة: ٢.

(٨) الفاتحة: ٤.

جميل»^(١) أي، فأمرني صبرٌ جميل، فإنما حذف لما ذكرناه من وضوح الأمر فيه، فلا جرمَ كان مُسلطاً على حذفه، ومن حذف المسند إليه قوله تعالى: «ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوِ الْآيَاتِ لَيْسْجُثْنُهُ حَتَّى حِينٍ»^(٢) لأنَّ التقدير فيه: ثم بدا لهم أمرٌ، ومنه قوله تعالى: «لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ»^(٣) أي: هو هدى في أحد وجوهه.

(ومنها) تنكيره، إمّا للافراد كقوله تعالى: «وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ»^(٤)، وإمّا للنوعية: كقوله تعالى: «وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ»^(٥) فإنَّ المراد من ذلك: وعلى أبصارهم نوعٌ من الغشاوات المعطية، ويحتمل أن يكون المراد به الوحدة، أي واحدة من الأمور التي حجبَت أعينهم عن إبصار الحقِّ واتباعه، وإمّا للتكثير أو التعظيم كقوله تعالى: «وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ»^(٦) أي: رسلٌ ذُؤوا عدد كثير أو رسلٌ لهم شأنٌ عند الله وقدَّرَ عظيم، خصَّهم بمعجزات باهرة، وآياتٍ عظيمة، ومن التعظيم قوله تعالى: «وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ»^(٧) أي: رضوانٌ أيُّ رضوان، أو رضوانٌ لا تُحيط بوصفه العقول، ومنه قوله تعالى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ»^(٨) أي: حياةٌ عظيمة، وقوله تعالى: «وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ»^(٩) أي: شفاءٌ أيُّ شفاء.

(ومنها) تعريفه، وتختلف معانيه بحسب ما يعرض له من أنواع التعريفات، كالإضمار، والعلمية، والإشارة، والموصولية، وباللام، وبالإضافة، ولتُشر إلى حقائقها وخواصها اللائقة بها.

(١) يوسف: ١٨ و ٨٣.

(٦) فاطر: ٤.

(٢) يوسف: ٣٥.

(٧) التوبة: ٧٢.

(٣) البقرة: ٢.

(٨) البقرة: ١٧٩.

(٤) القصص: ٢٠.

(٩) يونس: ٥٧.

(٥) البقرة: ٧.

أما تعريفه بالإضمار، فمن أجل الحاجة إلى التكلّم كقوله تعالى: «إِنِّي أَنَا اللَّهُ»^(١) وقوله تعالى: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا»^(٢) وقوله تعالى: «أَنَا رَاوِدُهُ عَنْ نَفْسِهِ»^(٣) أو من أجل الحاجة إلى الخطاب كقوله تعالى: «قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ»^(٤) وقوله تعالى: «أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ»^(٥) وقوله تعالى: «أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ»^(٦)، وإما حاجة إلى الغيبة كقوله تعالى: «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ»^(٧) وقوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى»^(٨).

وأصل الخطاب أن يكون وارداً على جهة التعيين، وقد يُعَدَّل به إلى غير ذلك ليُعْمَ كلّ مخاطب كقوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ»^(٩) وقوله تعالى: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ»^(١٠) فيحتمل أن يكون الخطابُ للرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وهذا هو الأصل، ويحتمل أن يكون على جهة العموم من غير تعيين. ويكون المعنى إنّ حال أصحاب الفيل، وحال المجرمين، قد بلغا مبلغاً عظيماً في الظهور، بحيث لا يختصّ به مخاطب، لبلوغهما في الانكشاف كل غاية.

وأما تعريفه بالعلمية، فقد يكون لإحضاره في ذهن السامع ابتداءً باسم

(١) طه: ١٤.

(٢) العنكبوت: ٣٢.

(٣) يوسف: ٥١.

(٤) الصافات: ٥٤.

(٥) الشعراء: ٧٦.

(٦) المائدة: ١١٦.

(٧) الدخان: ٩.

(٨) التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩.

(٩) الفيل: ١.

(١٠) السجدة: ١٢.

يختصّ به كقوله تعالى: «الله لا إله إلا هو»^(١) أو تعظيمه كقوله تعالى: «ربُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ»^(٢) لأنّ التقدير فيه: الله ربكم وربّ آبائكم الأولين، وهذا مبنيٌّ على أنّ قولنا: الله اسمٌ، وليس صفة كما زعمه بعضهم، وعلى أنه لقبٌ غيرٌ حقيقيّ، لبطلان تحويله وتبديله، ومن شأن الألقاب الحقيقية جوازُ تغييرها وتبديلها، فما فيه من الاسمية تكون الصفات الإلهية تابعة له، إذ لا بدّ لها من موصوف تستند إليه، وبما فيه معنى اللقب يكون مفيداً للاختصاص كإفادة الألقاب لما هي مختصة به كزيد وعمرو، وهل يكون جامداً أو مشتقاً؟ فيه تردّد، وإن قلنا بكونه مشتقاً فإمّا من التحيّر^(٣) لأنّ العقول تحيّر في ذاته تعالى، وإمّا من الاحتجاب^(٤) لأنّه تعالى محتجب عن إدراك العيون، وإمّا من غير ذلك، فأما من زعم كونه اسماً عجمياً سُرانياً فقد أبعد، إذ لا دلالة على ذلك، والقرآنُ كلُّه عربيٌّ، إلّا ما قام البرهان القاطع على كونه فارسياً أو رومياً.

وقد يذكر العلّم المسندُ إليه، والمراد به التحقير كقوله تعالى: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ»^(٥) فإيراده هنا باسمه دالٌّ على تحقيره وإهانته، والمعنى: تَبَّتْ يَدَا رجلٍ حقير مهين، أو يُراد بذكره كنايةً، كأنه قال: تَبَّتْ يَدَا مَنْ يستحق اللعن والعذاب العظيم، وهو هذا، فلقبه هذا نازكٌ منزلة العلم في حقّه لما فيه من الإشادة والإشهار به، فمن أجل ذلك ذكره الله تعالى به، وحذف اسمه العلم، وهو (عبدُ العزى) لاشتماله على ما ذكرناه من صفاته المذمومة، كأنه قال

(١) البقرة: ٢٥٥، آل عمران: ٢، طه: ٨، النمل: ٢٦، القصص: ٧٠، التغابن: ١٣.

(٢) الشعراء: ٢٦.

(٣) الصواب أن يقول: فإمّا من (ألة) بمعنى تحيّر.

(٤) هذه عبارة ساقها ولا أصل لها.

(٥) المسد: ١.

صاحب هذه الكنية هو الكافر اللعين المتمرد، صاحب العداوة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، والمستحق لغضب الله تعالى وسخطه.

وأما تعريفه بالإشارة، فقد يكون لتعريف حاله وإيضاحه، إما لتعظيم حاله بالإشارة الموضوعية للبعد كقوله تعالى: «ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ»^(١)، وإما للتحقير كقوله تعالى: «إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ»^(٢). وقد يرد لتعظيم حاله بالإشارة الموضوعية للقريب كقوله تعالى: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ»^(٣)، أو للتحقير كقوله تعالى: «أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ»^(٤)، وقد يرد بالإشارة المتوسطة، إما للتعظيم وكمال العناية به كقوله تعالى: «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(٥)، وإما للتحقير كقوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ»^(٦). ومما ورد على جهة الإشارة في البعد قوله تعالى: «فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ»^(٧) ولم يقل: هذا يوسف، ولا قال: فذاك، على جهة القرب والتوسط، وإنما أشار إليه بما يقتضي البعد، رفعا لمنزله في الحُسن، واستبعاداً عن أن يُداني فيه، وتنبهاً على كونه مستحقاً لأن يُحِبَّ ويُفْتَتَنَ به، ومنه قوله تعالى: «وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»^(٨).

ولطائف هذا الجنس لا تكاد تنحصر، ومواقعه أكثر من أن تحصى، وقد جرى في تعريف الإشارة ما ليس على جهة المسند إليه كقوله تعالى - في الإشارة إلى القريب «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ»^(٩) فإنه ليس من المسند إليه في شيء،

(٦) المؤمنون: ١٠٣.

(١) البقرة: ٢.

(٧) يوسف: ٣٢.

(٢) آل عمران: ١٧٥.

(٨) الزخرف: ٧٢.

(٣) قريش: ٣.

(٩) قريش: ٣.

(٤) الأنبياء: ٣٦.

(٥) البقرة: ٥.

وجريته كان على جهة التوسع في التمثيل.

وأما تعريفه بالموصولية، فإنه يُقصد بتعريفه بالصلة إحضاره في الذهن بجملة معلومة للمخاطب، ومن ثمَّ اشترط فيها أن تكون معلومة له كقولك: هذا الذي قديم من الحضرة، لمن لا تعرفه، وتفيد مع ذلك أغراضاً غير ذلك، كإفادة التعظيم في نحو قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ»^(١) «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا»^(٢)، ولزيادة التقرير كقوله تعالى: «وَرَأَوْهُ التِّي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ»^(٣)، وقد يرد لتفخيم الأمر وتعظيمه كقوله تعالى: «فَغَشَّيْهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا غَشَّيْهُمْ»^(٤) وربما سبق لتعظيم شأن القضية كقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ»^(٥) فهذا وارد على جهة تعظيم هذه القضية كما ترى، ومنه قوله تعالى: «سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى. وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى»^(٦) ومن هذا قوله تعالى: «الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِي. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»^(٧).

فهذه الأمور كلها واردة على إفادة مقصد التعظيم والامتنان بهذه النعم، وغير ذلك من الفوائد التي لا تُحصى، وانما نُنبّه بالأدنى على الأعلى، وبالأقلَّ على الأكثر.

وأما تعريفه باللام، فاعلم أنه متى كان معرفاً باللام، فتارة تُفيد الاستغراق

(١) الشورى: ٢٢.

(٥) المؤمنون: ٥٧ - ٥٩.

(٢) فاطر: ٣٦.

(٦) الأعلى: ١ - ٤.

(٣) يوسف: ٢٣.

(٧) الشعراء: ٧٨ - ٨٢.

(٤) طه: ٧٨.

كقوله تعالى: «والعصر. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ»^(١) لَأَنَّ المعنى إِنَّ كل إنسان متقلبٌ في خَسَارَةٍ «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»^(٢) فَإِنَّهُمْ على خلاف ذلك، ويصدق استغراقه وروذ الاستثناء منه، وهو لا يصحّ إِلَّا في مستغرق، ومنه قوله تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا»^(٣) أي: كل سارق وسارقة، وقوله تعالى: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى»^(٤) أي: كل ساحر فهو غير مُفْلِح في سحره.

وتارة تُفيد العهدية كقوله تعالى: «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى»^(٥) أي: ليس الذكر الذي طلبته كالأُنْثَى التي أعطيتها.

وتارة تُفيد الإشارة إلى الحقيقة في نحو قولك: أهلك الناس الدينارُ والدرهمُ، والرجلُ خيرٌ من المرأة، ومن المعهود في غير الإسناد قوله تعالى: «كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ»^(٦) يريد موسى عليه السَّلام. وأما تعريفه بالإضافة، فإذا خُلِيَ المسند إليه عن سائر أنواع التعريف المختصة به وأريد تعريفه من جهة غيره أضيف إلى معرفة فيكتسب منها تعريفها، وقد ترد لأُمور أخر غير التعريف، كالتعظيم في مثل قولك: عبدُ الله، وعبدُ الرحمان، وعبدُ الرحيم، وقد يُقصد به الإهانة كقولك: عبدُ اللات، وعبدُ العزى، في حق الموحدين دون غيرهم ممّن يعظم الأصنام، ولإفادة الرحمة كقوله تعالى: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ»^(٧) فإضافتهم إليه دلالة على أَنَّ من شأن السيّد أن يرحم عبده، ولإفادة مزيد الشرف وقُرب المنزلة كما يقال في بعض كلمات الله: عَبْدِي من آثَر طاعتي على هواه.

(٥) آل عمران: ٣٦.

(٦) المزمل: ١٥ و ١٦.

(٧) البقرة: ١٨٦.

(١) العصر: ١ و ٢.

(٢) العصر: ٣.

(٣) المائدة: ٣٨.

(٤) طه: ٦٩.

وتحت الإضافة أسرارٌ ورموزٌ تختلف أحوالها بحسب اختلاف مواقعها، وعلى الفطن إعمال نظره واستنهاض فكرته ليحصل عليها، فهذه مواضع التعريفات قد حصرناها.

(ومنها) وصفه، الوصف يُراد للفرقة بين ملتبسين في القلب، فتقول جاءني زيدٌ الطويل، تخرزبه عن زيد القصير، وقد يجيء للمدح والتعظيم، وهذه هي الأوصاف الجارية في حق الله تعالى، فإنه لا يعقل فيه معنى سواه كقوله تعالى: «الخالقُ البارئُ المصورُ»^(١) وقوله تعالى: «غافرُ الذنبِ وقابلُ التوبِ شديدُ العقابِ ذي الطولِ»^(٢)، وقد يرد للذم والإهانة كقولك: فلانُ الفاسقُ الخبيث، ويرد للتأكيد كقولك: أمسِ الدابر، ونفخةٌ واحدة.

(ومنها) بيان ما يقتضي تخصيصه، إما بالتأكيد، وعطف البيان، والبدل، والعطف عليه، فهذه الأمور كلها متفقة في كونها موضحة له ومبيّنة.

فأما بيانه بالتوكيد فقد يكون لإزالة الشكّ والوهم الواقع في ذهن السامع، في نحو قولك: جاء زيدٌ نفسه، إزالة لأن يكون الجائي كتابه أو رسوله، قال الله تعالى: «كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ»^(٣)، وقد يفيد تقرير الشيء في نفسه في مثل قولك: جاء زيدٌ نفسه، وقد يفيد الشمول والإحاطة في نحو قولك: جاء الرجالُ كلُّهم، والرجلان كلاهما، الى غير ذلك من الأمور المؤكدة.

وأما بيانه بعطف البيان، فالمقصود به الإيضاح باسم مثله، نحو جاءني أخوك زيدٌ، ومنه قوله: أقسم بالله أبوحفص عمر، وقد يرد على خلاف هذه الصفة كقوله تعالى: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ»^(٤) فذكرُ الأرض مع قوله «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ» وذكرُ قوله «يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ» مع تقدّم طائر إنما

(٣) المائدة: ١١٧.

(١) الحشر: ٢٤.

(٤) الأنعام: ٣٨.

(٢) غافر: ٣.

وَرَدَا عَلَى قَصْدِ الْبَيَانِ لَلْفِظِ الدَّابَّةِ وَلِفِظِ طَائِرٍ، وَتَقْرِيرًا لِمَعْنَاهُمَا، وَرَفْعًا لِمَا يَحْتَمِلَانِهِ مِنْ غَيْرِ الْمَقْصُودِ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ»^(١) فَقَوْلُهُ: «مِنْ فَوْقِهِمْ» إِنَّمَا وَرَدَ عَلَى جِهَةِ الْبَيَانِ وَرَفْعِ الْإِحْتِمَالِ مِنْ لَفْظَةِ السَّقْفِ.

(ومنها) تقديمه على المسند نفسه، وذلك ليكون لأحوال نَرْمُزُ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا. إِمَّا لِأَنَّ تَقْدِيمَهُ هُوَ الْأَصْلُ وَلَمْ يَعْضُ مَا يَقْتَضِي الْعَدُولَ عَنْهُ، وَإِنَّمَا كَانَ هُوَ الْأَصْلُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ طَرِيقٌ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا يَذْكُرُ بَعْدَهُ، وَمِنْ ثَمَّ اشْتَرَطَ تَعْرِيفَهُ إِلَّا لِعَارِضٍ.

وَأَمَّا لِأَنَّهُ اسْتَفْهَامٌ فَيَسْتَحِقُّ التَّصْدِيرَ كَقَوْلِكَ: أَيُّهُمْ عِنْدَكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا»^(٢) فِي أَحَدٍ وَجْهَهُ. وَإِنَّمَا لِأَنَّهُ وَارِدٌ عَلَى جِهَةِ الشَّأْنِ وَالْقِصَّةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»^(٣).

وَأَمَّا لِأَنَّ فِي تَقْدِيمِهِ تَشْوِيقًا لِلْسَّامِعِ إِلَى مَا يَكُونُ بَعْدَهُ مِنَ الْخَبَرِ كَقَوْلِكَ: الْأَمِيرُ قَادِمٌ، وَالْخَلِيفَةُ خَارِجٌ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَأَمَّا لِأَنَّهُ يَتَقَوَّى إِسْنَادُ الْخَبَرِ إِلَيْهِ لِأَجْلِ تَقْدِيمِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّحْلِ: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا»^(٤) فَكَرَّرَ ذِكْرَ اسْمِهِ وَقَدَّمَهُ، لِمَا يَرِيدُ مِنْ تَعْدِيدِ نِعْمَةٍ، وَظَهْوَرِ قُدْرَتِهَا، وَعَلَوْ أَمْرِهَا عَلَى الْخَلْقِ.

وَأَمَّا مِنْ أَجْلِ تَعْظِيمِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»^(٥) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُقْتَضِيَةِ لِتَقْدِيمِهِ الْمُؤَذِّنَةَ بِأَسْرَارٍ تَحْتَ التَّقْدِيمِ لَا تَكُونُ مَعَ التَّأْخِيرِ.

(٤) النحل: ٨١.

(١) النحل: ٢٦.

(٥) البقرة: ٢٥٥، آل عمران: ٢.

(٢) مريم: ٦٩.

(٣) الإخلاص: ١.

الثاني: في بيان المسند به

ويعرض له ما يعرض للمسند إليه في وجوه، ويُخالفه في وجوه، وجملة ما يُذكر من حاله أمور:

أولها: ذكره للبيان كقوله تعالى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»^(١) وقوله تعالى: «فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا»^(٢) وقوله تعالى: «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»^(٣) إلى غير ذلك من الآيات التي يذكر فيها الخبر عن المبتدأ، أو الفعل المسند إلى فاعله. وثانيها: حذفه لئلا تكال على القرينة كقوله تعالى: «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ»^(٤) فإنما حذف الفعل هاهنا لقيام حرف الشرط وهو (لَوْ) مقام الفعل، من أجل كونه مؤذناً بالفعل، من جهة أنَّ الشرط لا يليه إلّا الفعل، لأنَّ التقدير فيه: قل لو ملكتم، فلما حذف الفعل لاجرم انفصل الضمير، ونحو قوله تعالى: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ»^(٥) أي فصبرٌ جميلٌ أجلٌ، فحذف الخبر للقرينة الدالة على حذفه، وهذا قد ذكرناه مثلاً في جواز حذف المبتدأ، فهو محتمل للأمرين كما ترى.

نعم، يُقال: أيُّهما يكون أرجح؟ فنقول: كلاً الوجهين لا غبار عليه، خلا أنَّ حذف الخبر فيه يكون أقوى لأمرين: (أما أولاً) فلا أنَّ حذف الخبر أكثر وجوداً، وأعم جرياناً في لغة العرب، فكان حمله على الأكثر أحقّ من حمله على الأقل. (وأما ثانياً) فلا أنَّ نجد في كلام العرب أنَّ حذف الخبر قد يكون قياساً في نحو قولك: لولا زيدٌ لأكرمته، ولا يكاد يكون حذف المبتدأ قياساً، فلهذا كان حمله عليه أولى.

وقد نظرنا في كتاب الإيجاز: أنَّ الأقوى هو حذف المبتدأ لأمر ذكرناه

(٤) الاسراء: ١٠٠.

(١) البقرة: ٢٥٥، آل عمران: ٢.

(٥) يوسف: ١٨ و ٨٣.

(٢) البقرة: ١٠.

(٣) الحشر: ١٥، التغابن: ٥.

هناك ، ومن أمثلته قوله تعالى: «وَلئن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»^(١) أي: خلقهنَّ الله، فحذف المسند به لقيام القرينة على حذفه، وتقول: زيدٌ منطلقٌ وعمروٌ، فتحذف خبر عمرو، لتقدّم ما يدلّ عليه، ونحو قولك: خرجت فإذا الأسدُ، أي: فإذا الأسدُ واقفٌ.

وثالثها: كونه اسماً لأنه هو الأصل، وإنما يعدل إلى غيره لقرينة، نحو: زيدٌ منطلق، وزيدٌ أخوك، قال الله تعالى: «اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ»^(٢) وقال تعالى: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»^(٣) وإنما كان اسماً لأنه يفيد الاستمرار على تلك الصفة من غير تجدد، بخلاف ما لو كان فعلاً فإنه يدلّ على خلاف ذلك، وأنشد النحاة:

لا يَأْلَفُ الدَّرْهَمُ الْمَضْرُوبُ صُرَّتَنَا لَكِنْ يَمُرُّ عَلَيْهَا وَهُوَ مُنْطَلِقُ

ورابعها: أن يكون فعلاً كقوله تعالى: «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ»^(٤)

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً»^(٥) وإنما جاز كونه فعلاً للدلالة على الأزمنة المستقبلية والماضية، وللإشعار بالتجدد أيضاً، وهذه المعاني تختلف باختلاف مواقعها، فتارةً يؤثر ذكر الاسم، وتارةً يؤثر ذكر الفعل، على حسب ما يعين من المعاني.

وخامسها: أن يكون شرطاً، إمّا بـ(إن)، وإمّا بـ(لو)، وإمّا بـ(إذا)، فهذه كلها أدوات للشرط.

فإن، إنما يكون ورودها في الأمور المحتملة المشكوك في وقوعها كقوله تعالى: «فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ»^(٦) وقوله تعالى: «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ»^(٧) وتخصّص بالأزمنة المستقبلية، لأنّ الشرط لا يعقل

(٥) النحل: ٧٨.

(١) لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨.

(٦) المائدة: ٤٢.

(٢) الشورى: ١٥.

(٧) التوبة: ٨٠.

(٣) الزمر: ٦٢.

(٤) النور: ٤٥.

إِلَّا فِيمَا كَانَ مُسْتَقْبَلًا.

وَأَمَّا (إِذَا) فَإِنَّمَا تَسْتَعْمَلُ فِي الْأُمُورِ الْمُحَقَّقَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا»^(١) وَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»^(٢) وَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ»^(٣) وَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ»^(٤) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْثَلَةِ الْكَثِيرَةِ، فَهَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا مُحَقَّقَةٌ، فَلِهَذَا حَسَنَ دُخُولِ (إِذَا) فِيهَا.

وَأَمَّا (لَوْ) فَهِيَ شَرْطٌ فِي الْمَاضِي عَكْسَ (إِنْ) وَمَعْنَاهَا امْتِنَاعُ الشَّيْءِ لَامْتِنَاعٍ غَيْرِهِ فِي مِثْلِ قَوْلِكَ: لَوْ كُنْتُ قَدْ قُتِلْتُ، فَامْتِنَاعُ الثَّانِي إِنَّمَا كَانَ مِنْ جِهَةِ امْتِنَاعِ الْأَوَّلِ، وَحَكِي عَنِ الْفَرَاءِ أَنَّهَا شَرْطٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِثْلَ (إِنْ) وَالْأَكْثَرُ خِلَافَ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ»^(٥) وَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا»^(٦) وَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا»^(٧) وَإِنْ دَخَلْتَ عَلَى الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فَعَلَى جِهَةِ الْمَجَازِ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِئْتُكُمْ»^(٨) وَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ»^(٩) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الْأَزْمَنَةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِقَصْدِ اسْتِمْرَارِ الْفِعْلِ فِيمَا مَضَى وَقْتًا فَوْقَتًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ»^(١٠).

وَسَادِسُهَا: تَنْكِيرُهُ، إِنَّمَا لِإِرَادَةِ الْأَصْلِ فِيهِ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُخْبَرُ بِمَا لَا يَكُونُ مَعْلُومًا،

(١) الزلزلة: ١. (٧) السجدة: ١٣.

(٢) التكوثر: ١. (٨) الحجرات: ٧.

(٣) الانفطار: ١. (٩) محمد: ٣٠.

(٤) النساء: ١٠٢. (١٠) إبراهيم: ١٧.

(٥) البقرة: ٢٠.

(٦) الأعراف: ١٧٦.

وإما لإرادة عدم الحصر كقوله تعالى: «إِنَّهُمْ رَوْوْفٌ رَحِيمٌ»^(١) وقوله تعالى: «اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ»^(٢) وقوله تعالى: «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»^(٣)، وإما لإرادة التفخيم كقوله تعالى: «هُدًى لِلْمُتَّقِينَ»^(٤) لأنَّ المراد إنما هو هُدى أي هدى، أو لإرادة التكثير كقوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ»^(٥).

وسابعتها: تعريفه، إما لإفادة السامع الحكم بأمر معلوم على أمر معلوم كقوله تعالى: «وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ. ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ»^(٦)، أو من أجل إفادة تعريف الجنس كقوله تعالى: «هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ»^(٧) إذا جعلناه خبراً لاصفة، وإن جعلناه صفةً فهو ظاهر، وإما على جهة الحصر كقوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا»^(٨) أي: الله المرسل، ومعناه أنه لا مرسل سواه.

وثامنها: كونه جملة، وهو واردٌ على خلاف الأصل من جهة أنَّ أصل الخبر يكون بالمفردات، إما للتعقُّي لأنَّ الخبر بالجملة أقوى من الخبر بالمفرد، وإما لكونه سببياً كقولك: زيدٌ أبوه منطلق، ومن الخبر بالجملة قوله تعالى: «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُوَبِّحَ عَلَيْكُمْ»^(٩) وبالجملة الماضية كقوله تعالى: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطْنِ أُمِّهَاتِكُمْ»^(١٠) وبالجملة الابتدائية كقوله تعالى: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»^(١١) والجملة نوعان إما جملة ابتدائية، وإما جملة فعلية، إما شرطية، وإما ظرفية، وإما حرفية، وكلها مندرجة تحت الجملة الفعلية.

وتاسعها: تقديمه، إما للاهتمام به كقوله تعالى: «وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ

-
(١) التوبة: ١١٧.	(٧) الحشر: ٢٤.
(٢) الشورى: ١٩.	(٨) فاطر: ٩.
(٣) الزمر: ٦٢.	(٩) النساء: ٢٧.
(٤) البقرة: ٢.	(١٠) النحل: ٧٨.
(٥) هود: ١٠٧.	(١١) الشعراء: ٩ و ٦٨ و ١٠٤ و ١٢٢ و ١٤٠ و ١٥٩ و ١٧٥ و ١٩١.
(٦) البروج: ١٤ و ١٥.	

لِإِبْرَاهِيمَ»^(١)، وإِذَا لَتَخَصَّيْصَهُ بِالْمَسْنَدِ إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «لَا فِئْهَا غَوْلٌ»^(٢) بخلاف خُمُور الدنْيا، ومن أَجْلِ هَذَا لَمْ يَقْدِّمِ الظَّرْفَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «لَا رِيبَ فِيهِ»^(٣) مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَعْرِضٌ بِالرِّيبِ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ كَالْتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ.

وعاشرها: التثنية والجمع، لأجل المطابقة لما هو خبر عنه كقوله تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ»^(٤) وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ»^(٥)، وهكذا حال التذكير والتأنيث، فإن هذه إمّا وردت في المسند به لأجل المطابقة بين المسند إليه والمسند به، لأنهما صارا مقولين على ذاتٍ واحدةٍ، فهذا ما أردنا ذكره في الأمور الخبرية، والله أعلم.

النظر الثاني

في بيان الأمور الإنشائية الطلبية، وجملة ما نورد من الأمور الطلبية: الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والعرض، والدعاء، والنداء، فهذه ضروبٌ سبعة نشرحها، ونبين ما يختص بها من الحقائق المعنوية، وما يتعلق بها من الخصائص القرآنية، التي من أنعم فيها نظره وفكره، واستجمع في تقريرها خاطره، أطلعته على حقائق محجوبة تحت أستار، وكشفت له عن وجوه الإعجاز ومكنتها في نفسه عن تحققي واستبصار، وألحقت نور البصيرة برأى البصر في ضوء النهار، فإن ملاك الأمر في ذلك كله مؤسس على علم المعاني وعلم البيان، فإن عليهما

(١) الصافات: ٨٣.

(٢) الصافات: ٤٧.

(٣) البقرة: ٢، آل عمران: ٩ و ٢٥، النساء: ٨٧، الأنعام: ١٢، يونس: ٣٧.

(٤) النساء: ١٦٢.

(٥) المعارج: ٣٣.

تدور رَحَاهُ، ويستحكم أساسه وبناءه، وقصاراهُما آثلهُ إلى تحكيم الذوق السليم والطبع المستقيم، فن أحرز هذا وذاك فقد فاز بالخصل، وظفر بالتجح من الإعجاز، ونال أعلى ذروته، وتمكّن من الاستواء على صهوته.

الأول: الأمر

وهو صيغة تستدعي الفعل، أو قولاً ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء، وحقيقة قولنا: افعل، الطلب، والتردد فيه هل هو حقيقة في الوجوب، مجاز في الندب، أو بالعكس، أو مشترك بينهما، فأما ما عدا ذلك من الإباحة كقوله تعالى: «كُلُوا وَاشْرَبُوا»^(١)، أو التسخير كقوله تعالى: «كُونُوا قِرَدَةً»^(٢)، أو الإهانة كقوله تعالى: «قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً»^(٣)، أو التهديد كقوله تعالى: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ»^(٤)، أو التسوية كقوله تعالى: «اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا»^(٥)، أو غير ذلك من المعاني المستعملة في غير الطلب، فإنها على جهة المجاز، وهذا كقوله تعالى: «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي»^(٦) وقوله تعالى: «أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»^(٧) ونحو قوله تعالى: «أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ»^(٨) وقوله تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ»^(٩) إلى غير ذلك من الأوامر

(١) البقرة: ٦٠ و ١٨٧، الطور: ١٩، الحاقة: ٢٤، المرسلات: ٤٣.

(٢) البقرة: ٦٥، الأعراف: ١٦٦.

(٣) الإسراء: ٥٠.

(٤) فصلت: ٤٠.

(٥) الطور: ١٦.

(٦) البقرة: ١٥٢.

(٧) غافر: ٦٠.

(٨) البقرة: ٤٣ و ٨٣ و ١١٠، النساء: ٧٧، الحج: ٧٨، النور: ٥٦، المجادلة: ١٣، المزمل: ٢٠.

(٩) آل عمران: ١٠٢.

الشرعية، والمطلوبات الواجبة والتفلية.

الثاني: النهي

وهو عبارة عن قول يُنبئ عن المنع من الفعل على جهة الاستعلاء، كقوله تعالى: «وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ»^(١) «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ»^(٢) «وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»^(٣) إلى غير ذلك من المناهي الشرعية، فإنها دالة على المنع والتحريم.

الثالث: الاستفهام

ومعناه طلب المراد من الغير على جهة الاستعلام، وآلاته على نوعين أسماءٍ وحروفٍ، فالحروف: الهمزة، وهل، لاغير. والأسماء على وجهين أيضاً: ظروف وأسماء، فالظروف الزمانية نحو: متى، وأَيَّانَ، والظروف المكانية نحو: أين، وأَنَّى، وأَمَّا الأسماء فهي: مَنْ، وَمَا، وَكَمْ، وكيف، فهذه آلات كلها كما ترى للاستفهام.

ثم إنها تنقسم باعتبار ما تؤديه من المعنى إلى ثلاثة أقسام: (فالقسم الأول منها) موضوع للتصوّر، وهو: مَنْ، وَمَا، وَكَمْ، وكيف، وأَيْنَ، وَأَنَّى، ومتى، وأَيَّانَ.

ومعنى قولنا: إنها دالة على التصوّر، هو أنها موضوعة للسؤال عن الماهية الحاصلة في الذهن من غير أن يُضاف إليها حكمٌ من الأحكام، ممّا هو موضوع للتصوّر في السؤال كقولك: ما الجسمُ؟ وما العَرَضُ؟ وما المَلِكُ؟ ولهذا فإنه

(١) الأنعام: ١٥١.

(٢) البقرة: ١٨٨.

(٣) الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤.

يَحِقُّ عَلَى الْمُجِيبِ أَنْ يُجِيبَ بِذِكْرِ مَا هِيَ هَذِهِ الْأُمُورُ، لِيَكُونَ جَوَابُهُ مُطَابِقاً لِسُؤَالِ السَّائِلِ، وَقَدْ يُسْأَلُ بِهَا عَنِ اللَّفْظِ، فَيُقَالُ: مَا الْعَقَارُ؟ وَمَا الزَّرْجُونُ؟ فَيُقَالُ: الْخَمْرُ، قَالَ السَّكَاكِيُّ: وَقَدْ يُسْأَلُ بِهَا عَنِ الصِّفَةِ، فَيُقَالُ: مَا زَيْدٌ؟ وَجَوَابُهُ: الطَّوِيلُ، أَوِ الْقَصِيرُ.

وَأَمَّا (مَنْ) فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى التَّصَوُّرِ أَيْضاً كَقَوْلِكَ: مَنْ جَبْرِيلُ؟ أَيْ مِنْ أَيِّ الْحَقَائِقِ هُوَ؟ أَبَشَرٌ هُوَ؟ أَمْ جَنِّيٌّ؟ أَمْ مَلَكٌ؟ وَتَقَعُ سُؤَالاً عَنِ الشَّخْصِ مِنْ أُولَى الْعِلْمِ كَقَوْلِكَ: مَنْ فِي الدَّارِ؟ فَتَقُولُ: زَيْدٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي السُّؤَالِ بـ (مَا) فِي قِصَّةِ الْبَقَرَةِ: «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا»^(١) يَعْنِي مِنْ أَيِّ حَقِيقَةِ الْأَلْوَانِ لَوْنُهَا؟ فَأُجَابُ: بِأَنَّهَا صَفْرَاءُ، كَمَا قَالَ: «قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَتْ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ»^(٢) وَقَالَ فِي سُؤَالِ فِرْعَوْنَ: «وَمَارِبُ الْعَالَمِينَ»^(٣) فَأُجَابَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذِكْرِ الصِّفَةِ وَحَقِيقَتِهَا. فَهَذَا كُلُّهُ دَالٌّ عَلَى أَنَّهَا مَوْضُوعَةٌ لِلتَّصَوُّرِ فَمَا كَانَتْ سُؤَالاً عَنْهُ، سِوَاءَ كَانَ ذَاتاً أَوْ صِفَةً، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي السُّؤَالِ بـ (مَنْ): «أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً»^(٤) وَقَالَ: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ»^(٥) فَهَذَا سُؤَالٌ عَنِ حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَتَصَوُّرِ مَا هِيَ.

وَأَمَّا (أَيُّ) فَإِنَّهُ سُؤَالٌ عَنِ تَصَوُّرِ حَقِيقَةِ الْبَعْضِيَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً»^(٦) وَالْمَعْنَى أَنْحُنْ، أَمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى»^(٧) يَعْنِي مِنْ هَذِهِ الذَّاتِ الْمُتَصَوِّرَةِ، أَوْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُتَصَوِّرَةِ.

(٥) النمل: ٦٢.

(١) البقرة: ٦٩.

(٦) مريم: ٧٣.

(٢) البقرة: ٦٨.

(٧) الإسراء: ١١٠.

(٣) الشعراء: ٢٣.

(٤) النمل: ٦١.

وَأَمَّا (كَمْ) فَإِنهَا سَوَالٌ عَنْ تَصَوُّرِ حَقِيقَةِ الْعَدَدِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ»^(١) وَقَالَ تَعَالَى: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ»^(٢) وَقَالَ تَعَالَى: «وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيَةٍ»^(٣).

وَأَمَّا (كَيْفَ) فَإِنهَا سَوَالٌ عَنْ حَقِيقَةِ الْحَالِ وَتَصَوُّرِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ»^(٤) وَقَالَ تَعَالَى: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ»^(٥).
وَأَمَّا (أَيْنَ) فَإِنَّهُ سَوَالٌ عَنْ تَصَوُّرِ حَقِيقَةِ الْمَكَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ»^(٦) وَقَالَ تَعَالَى: «أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ»^(٧).

وَأَمَّا (أَيَّانَ) فَإِنَّهُ سَوَالٌ عَنْ تَصَوُّرِ حَقِيقَةِ الزَّمَانِ الْمُسْتَقْبَلِ، قَالَ تَعَالَى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا»^(٨) وَقِيلَ: إِنَّهُ مَخْتَصٌّ بِالْأُمُورِ الْهَائِلَةِ الْعَظِيمَةِ.

وَأَمَّا (مَتَى) فَإِنَّهُ مَخْتَصٌّ بِتَصَوُّرِ حَقِيقَةِ الزَّمَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»^(٩) وَقَالَ تَعَالَى: «وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ»^(١٠) فَهَذَا كُلُّهُ حَكْمُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ إِذَا كَانَتْ مُسْتَعْمَلَةً فِي الطَّلَبِ.

(القسم الثاني) في بيان ما يكون دالًّا على التَّصَوُّرِ وَالتَّصَدِيقِ جَمِيعًا، وَهَذَا هُوَ الْهَمْزَةُ، فَإِفَادَتُهَا لِلتَّصَوُّرِ فِي مِثْلِ قَوْلِكَ: إِذَا مَلَكَ زَيْتٌ أَمْ عَسَلٌ، وَأَعِمَّامَتُكَ قُطْنٌ أَمْ حَرِيرٌ، وَأَمَّا كَوْنُهَا سَوَالًا عَنْ التَّصَدِيقِ فِي مِثْلِ قَوْلِكَ: أَقَامَ زَيْدٌ، وَأُزِيدُ قَاعِدٌ، وَنَحْوُ: أَأَنْتَ رَاكِبٌ، فِي الْأَوَّلِ يَكُونُ الْجَوَابُ بِذِكْرِ حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَتَصَوُّرِ مَا هَيْتِهِ، وَفِي الثَّانِي يَكُونُ الْجَوَابُ بِذِكْرِ جُصُولِ الصِّفَةِ أَوْ نَفْيِهَا، وَهَذِهِ هِيَ فَائِدَةُ

(١) النجم: ٢٦. (٦) الأنعام: ٢٢.

(٢) الإسراء: ١٧. (٧) الشعراء: ٩٢.

(٣) الأنبياء: ١١. (٨) الأعراف: ١٨٧، النازعات: ٤٢.

(٤) الفيل: ١. (٩) يونس: ٤٨، الأنبياء: ٣٨، النمل: ٧١، سبأ: ٢٩، يس: ٤٨، الملك: ٢٥.

(٥) النساء: ٤١. (١٠) الإسراء: ٥١.

التصوّر والتصديق، وقد يكون سؤالاً عن العلة في نحو قولك: أُللعالم صانعٌ، ولهذا تحببه بذكر المؤثر أو عدمه.

(القسم الثالث) أن يكون موضوعاً للسؤال عن التصديق لا غير، وهو (هل) فإنك تقول: هل قام زيد أو قعد، وهل عمرو خارجٌ، ويكون بمعنى (قد) قال الله تعالى: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ»^(١) فهذا تقريرُ الكلام على كون هذه الآلات دالة على الطلب، وكيفية استعمالها فيه، وقد ترد مستعملة في غير الطلب على جهة المجاز، فالهمزة قد تستعمل للتقرير كقوله تعالى: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ»^(٢) وقوله تعالى: «أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً»^(٣)، وللإنكار كقوله تعالى: «أَغْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ»^(٤) وقوله تعالى: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ»^(٥)، وللتكذيب كقوله تعالى: «أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ»^(٦)، وقد ترد للهكم كقوله تعالى: «أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا»^(٧).

و(هل) قد تستعمل بمعنى قد، كما أشرنا إليه، وقد ترد (ما) للتعجب كقوله تعالى: «مَالِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ»^(٨).

وتستعمل (مَنْ) للتعظيم كقراءة ابن عباس في قوله تعالى: «وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ. مَنْ فِرْعَوْنُ»^(٩) بدليل: «إِنَّهُ كَانَ عَالِيّاً مِنَ الْمُسْرِفِينَ»^(١٠)، وللتحقير كقولك: مَنْ هَذَا، تحقيراً لحاله، ومن التعظيم قوله تعالى: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً»^(١١).

و(كَمْ) تستعمل للاستبطاء كقولك: كَمْ دَعْوَتُكَ.

(١) الإنسان: ١.	(٦) الإسراء: ٤٠.
(٢) الشرح: ١.	(٧) هود: ٨٧.
(٣) الشعراء: ١٨.	(٨) النمل: ٢٠.
(٤) الأنعام: ٤٠.	(٩) و(١٠) الدخان: ٣٠ و٣١.
(٥) الزمر: ٣٦.	(١١) البقرة: ٢٤٥، الحديد: ١١.

و(أَنْتَى) تستعمل للاستبعاد كقوله تعالى: «أَنْتَى لَهُمُ الدَّكَرَى»^(١).

الرابع: التمني

وهو عبارة عن توقُّع أمر محبوب في المستقبل، والكلمة الموضوعة له حقيقة هو (لَيْتَ) وحدها، وقد يقع التمني بـ(هل) كقوله تعالى: «هَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا»^(٢) وبـ(لو) كقوله تعالى: «لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً»^(٣) وليس من شرط التمني أن يكون ممكناً بل يقع في الممكن وغير الممكن، قال الله تعالى: «يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ»^(٤) وقال تعالى: «يَا لَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا»^(٥) وقال تعالى: «يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ»^(٦) فأما: لَوْ لَا ولَوْ مَا، وَهَلَا، وَأَلَا، بقلب الهاء همزة، فإنها مركبة من: لو، وهل، مزيدتين معهما: ما، ولا، لإفادة التحضيض في الأفعال المضارعة في نحو قولك: هَلَا تَقُومُ، وَلَوْ مَا تَقُومُ، والتوبيخ في الماضي كقولك: هَلَا قَتَ، وَأَلَا خَرَجْتَ، ففي الأول حُتَّ على الفعل ليفعله في المستقبل، وفي الثاني توبيخٌ على الفعل، لِمَ لَمْ يفعله، وتنديمٌ له على تركه، والعرض هو نحو قولك: أَلَا تَنْزَلُ فَتُصِيبَ خَيْرًا، وهو مؤلَّدٌ عن الاستفهام، خلا أنه لما توجه بحكم قرينة الحال أنه ليس الغرض هو الاستعلام، وإنما المقصود منه: أَلَا تُحِبُّ النزول مع تَحِيَّاتِهِ، فلهذا كان عرضاً.

وأما (لَعَلَّ) فهو للتوقع في مرجوٍّ أو مخوفٍ، فالمرجو في مثل قوله تعالى: «لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ»^(٧) والمخوف في مثل قوله تعالى: «وَمَا يُدْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ»^(٨) وقد تستعمل لعلَّ في التمني في مثل قوله: لَعَلِّي أَزُورُكَ فَتُكْرِمَنِي، فهي مولدة للتمني، والسبب في ذلك هو بُعد المرجو عن

(٧) غافر: ٣٦ و ٣٧.

(٤) القصص: ٧٩.

(١) الدخان: ١٣.

(٨) الشورى: ١٧.

(٥) الأنعام: ٢٧.

(٢) الأعراف: ٥٣.

(٦) النساء: ٧٣.

(٣) هود: ٨٠.

الحصول، فلهذا أشبه المتمنى لما كان قد يكون في الممكن وغير الممكن، والسبب في خروج بعض هذه المعاني إلى بعض هو تقارُّبها، والمعتمد في ذلك على قرائن الأحوال، فلاجل ذلك يجوز استعمال بعضها مكان بعض.

الخامس: النداء

وهو من جملة المعاني الإنشائية الطلبية، ولهذا فإنه إذا قيل: يا زيد، لم يُقل فيه: صدقت أو كذبت لما كان إنشاء، وحروفه يا، وأخواتها، فمنها ما يستعمل للقريب كالهزمة، ومنها ما يستعمل للبعيد كأيا، ومنها ما يستعمل فيها جميعاً، وهو (يا) كما هو مقرر في علم الإعراب. ومعنى النداء هو التصويت بالنادي لإقباله عليك، هذا هو الأصل في النداء. وقد تخرج صيغة النداء إلى أن يكون المراد منها غير الإقبال، بل يراد منها التخصيص كقولك: أما أنا فأفعل كذا أيها الرجل، ونحن نفعل كذا أيها القوم، واللهم اغفر لنا أيتها العصابة، ولم يعنو بالرجل، والقوم، إلّا أنفسهم، وهكذا مرادهم بأننا، ونحن، فلو كان منادى لكان المقصود غيره، كما إذا قلت: يا زيد، فإن المنادي الطالب هو غير المنادي المطلوب، فهذا ما أردنا ذكره من الأمور الإنشائية الطلبية، والله أعلم.

(دقيقة) اعلم أن الخبر والإنشاء متضادان، لأنّ الخبر ما كان محتملاً للصدق والكذب، والإنشاء ما ليس يحتمل صدقاً ولا كذباً، فلا يجوز في صيغة واحدة أن تكون حاملة لإنشاء وخبراً، لما ذكرناه من التناقض بينهما. نعم قد ترد صيغة الخبر والمقصود بها الإنشاء، إمّا لطلب الفعل، وإمّا لإظهار الحرص على وقوعه، وهذا كقوله تعالى: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ»^(١) ونحو قوله

تعالى: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا»^(١) فليس وارداً على جهة الإخبار فيها جميعاً، لأنه يلزم منه الكذب، وهو محالٌ في كلامه تعالى، لأنَّ كثيراً من الوالدات لا تُرضع الحولين، بل تزيد وتنقص. وهكذا قد يدخل البيت مَنْ هو خائف، فلهذا وجب تأويله على جهة الإنشاء. والمعنى فيه: لِتُرضع الوالدات أولادهنَّ حولين على جهة التدب والإرشاد الى المصالح. وهكذا قوله: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» معناه ليأمن مَنْ دخله، ومخالفة الأوامر لافساد فيها، ولا يلزم عليه محالٌ، بخلاف الأخبار فإنه يلزم من مخالفتها الكذب، ولا يرد الإنشاء، ويكون في معنى الخبر، إلّا على جهة الندرة في مثل قولك: وجدت الناس (أخبرْتُكُلَّهُ) أي وجدت الناس يقال عندهم هذا القول، والسُرُّ في ذلك هو أنَّ الإنشاء إذا ورد بمعنى الخبر فليس فيه مبالغة، بخلاف عكسه، فإنه يفيد المبالغة، وهو الدوام والاستمرار كما مثلناه في الآيتين اللتين تَلَوْنَاهُمَا.

وتحت هذه الأمور- التي ذكرناها من هذا القسم في المسائل الخبرية والطلبية، من المعاني القرآنية، والأسرار التنزيلية، ممّا يكون متعلّقاً بفنّ المعاني- ما لا يحصى عدّه، ولا يُحصَرُ حدّه، يَذَرِيهِ كُلُّ الْمَعْيِيِّ نَحْرِيْر، ويفهمه كلُّ ذكيٍّ بصير، ولا يزداد على كثرة الرّدّ والمطالعة إلّا وضوحاً وتقريباً.

النظر الثالث

في التعلّقات الفعلية، اعلم أنَّ الفعل يذكر وله تعلّقات تخصّه من الذكر والحذف والشرط، ويذكر الفاعل وله تعلّقات تخصّه أيضاً، ويذكر المفعول وله تعلّقات تخصّه من الذكر والحذف، فهذه ضروب ثلاثة نذكر ما يخصّ كل واحد منها، وإنما صدّرنا هذا النظر بذكر تعلّقات الأفعال لِمَا كان أصل

التعلق لها، فلهذا كان مصدراً بها، والله الموفق.

(الأول)

في بيان ما يكون مختصاً بالأفعال أنفسها، والأصل هو ذكر الفعل، لأنه هو الأصل في البيان، كقوله تعالى: «وَجَاءَ رَبُّكَ»^(١) وقال الله تعالى: «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»^(٢) «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ»^(٣) إلى غير ذلك من الآيات التي يذكر فيها الفعل، مما لا يحصى كثرة، ولكن يعرض له التقديم والتأخير، والحذف، وتعلق الشرط به، فهذه حالات ثلاث نذكرها بمعونة الله تعالى: الأولى: تقديمه وتأخيرها، وذلك يكون على أوجه ثلاثة، الوجه الأول: أن يكون مؤخرًا، وإنما حسن فيه ذلك لأمرين:

أما (أولاً) فلأنّ تقديم المفعول ربّما كان من أجل الاهتمام به، والعناية بذكره، ومثال هذا من يكون له محبوبٌ يتغيّب عنه، فيقال له: ماتمتنى؟ فيقول معاجلاً: وجه الحبيب أتمنى. وكمن يمرض كثيراً فيقال له: ماتسأل الله تعالى؟ فيجيب تعجلاً للإجابة: العافية أسأل.

وأما (ثانياً) فبأن يكون أصل الكلام هو التقديم، لكن في مقتضي الحديث ما يقتضي تأخيرها لعارض لفظي، ففي هذين الوجهين إنما حسن تأخيرها من جهة الاهتمام بغيره، فلهذا كان أحق بالذكر، وإذا حسن تقديم مفعوله كان مؤخرًا. وثانيها: تقديمه وهو الأصل، كقولك: ضربت زيداً، وأكرمته، فتقدم الفعل لما كان الأصل هو تقديمه، قال الله تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا»^(٤) وقال تعالى: «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ»^(٥) إلى غير ذلك، وهو كثير، فاكثفينا

(١) الفجر: ٢٢.

(٤) المائدة: ٩، الفتح: ٢٩.

(٥) الأحزاب: ٢٥.

(٢) غافرة: ٦٠.

(٣) البقرة: ١٥٢.

بالأمثلة القليلة، فحصل من مجموع ما ذكرناه أنَّ الفعل إذا كان مقدماً فهو الأصل، لأنه عاملٌ، ومن حقِّ العامل أن يكون مقدماً على معموله، وإذا كان مؤخراً فهو على خلاف الأصل لغرض وفائدة كما نبهنا عليه.

وثالثها: توسطه بين مفعولية، وإنما كان كذلك من أجل الاهتمام بالمقدم منها.

الحالة الثانية: حذفه، وهو يكون على أوجه ثلاثة: (أولها) أن يكون جواباً كقولك: مَنْ جاءك؟ فتقول: زيدٌ، أي جاءني زيد، وإنما جاز حذفه لأجل القرينة الحالية، فلاجل هذا كانت مغنية عن ذكره، قال الله تعالى: «وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»^(١) وتقديره: خلقهنَّ الله، وقال تعالى: «وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»^(٢) والمعنى: نزله الله. فهذان الفعلان قد حذفاً، اتكالا على القرينة الدالة عليهما.

(وثانيها) أن يكون المسلط على حذفه هو كثرة الاستعمال مع قيام حرف الجرِّ مقامه، ومثال ذلك قولنا (بسم الله) فإنه إنما يذكر للتبرُّك عند كلِّ فعل من الأفعال، فإنَّ الفعل هاهنا يكون محذوفاً، لما ذكرناه من الكثرة، وهكذا في مثل قولهم (بالرفاء والبنين) دعاء للعرس، والمعنى: نكحت أو تزوجت بالرفاء والبنين.

(وثالثها) أن يكون هناك ما يدلُّ على الفعل المحذوف، ممَّا يشعر بالفعل، كحرف الشرط في نحو قولهم (إن ذلوثه لانا) والمعنى: إن لَانَ ذلوثه لانا، وقولهم (لو ذات سوار لطمتي) والتقدير: لو لطمتي ذات سوار، قال الله تعالى: «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي»^(٣) لأنَّ التقدير فيه: لو تملكون، فلمَّا

(١) لقمان: ٢٥، الزمر: ٣٨.

(٢) العنكبوت: ٣٣.

(٣) الإسراء: ١٠٠.

حذف الفعل انفصل الضمير لامحالة، وقوله تعالى: «إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ»^(١) أي: هلك امرؤ هلك، والذي جَرَّأ على حذفه هو دلالة حرف الشرط عليه، لأنَّ الشرط إنّما يتصل بالفعل لا غير ويختص به.

الحالة الثالثة: تعلق الشرط به، واعلم أنَّ جميع الشروط كلّها مختصة بالأفعال، لأنها تتجدد، والأفعال متجددة، فلا جرم ناسب معناها الفعل فاخصت به.

فإنَّ الشرطية لا تقع إلّا في المواضع المحتملة المشكوك فيها، قال الله تعالى: «وإن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا»^(٢) وقال تعالى: «وإن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ»^(٣) وقال تعالى: «فإن جَاؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ»^(٤) ف«إن» استعملت في مقام القطع، فإمّا أن يكون على جهة التجاهل وأنت قاطعٌ بذلك الأمر، ولكنك تُري أنك جاهلٌ به، وإمّا على أنَّ المخاطب ليس قاطعاً بالأمر، وإن كنت قاطعاً به كقولك لمن يكذبك فيما تقوله وتخبر به: إن صدقت فقل لي ماذا تفعل، وإمّا لتنزيل المخاطب منزلة الجاهل، لعدم جريه على موجب العلم، وهذا كما يقول الأَبُّ لابنٍ لا يقوم بحقه: إن كنتُ أباك فاحفظ لي صنيعي فيك.

وأما (إذا) فإنها تكون شرطاً في الأمور الواضحة كقوله تعالى: «ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ»^(٥) وتقول: إذا طلعت الشمسُ جئتُك، وقال تعالى: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ»^(٦).
(وَمَنْ) للتعميم في أولي العلم، قال الله تعالى: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءً يُجْزَ بِهِ»^(٧)

(٥) الروم: ٣٣.

(١) النساء: ١٧٦.

(٦) النساء: ٨٣.

(٢) الأنفال: ٦١.

(٧) النساء: ١٢٣.

(٣) فاطر: ٤.

(٤) المائدة: ٤٢.

وقال تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»^(١).

و(أي) لتعميم ماتضاف إليه في أولي العلم وغيرهم، قال الله تعالى: «ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَنتَهُم أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا»^(٢) لأنَّ تقديره ننزعه، في أحد وجوهها.

و(متى) للتعميم في الأوقات المستقبلية، وتستعمل مجردة عن (ما) وتستعمل مؤكدة (بما) كقولك: متى ما تأتني آتِكَ.

و(أَيْنَ) لتعميم الأماكن، قال الله تعالى: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ»^(٣) وقال تعالى: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا»^(٤).

و(أَنَّى) لتعميم الأحوال كقولك: أَنَّى تكن أكن. و(حيثما) لتعميم الأماكن، قال الله تعالى: «وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ»^(٥).

و(مَا) تكون للتعميم في كل الاشياء، قال الله تعالى: «وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ»^(٦) وقال تعالى: «وَمَا تَقْدُمُوا لَأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ»^(٧). و(مهما) أعم، قال الله تعالى: «مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ»^(٨).

وأما (لو) فهي للشرط في الماضي دالة على امتناع الشيء لامتناع غيره، قال الله تعالى: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا»^(٩) أي امتنع الفساد

(١) الزلزلة: ٧ و ٨.

(٦) البقرة: ٢١٥.

(٢) مريم: ٦٩.

(٧) البقرة: ١١٠، المزمل: ٢٠.

(٣) النساء: ٧٨.

(٨) الأعراف: ١٣٢.

(٤) البقرة: ١٤٨.

(٩) الأنبياء: ٢٢.

(٥) البقرة: ١٤٤ و ١٥٠.

لامتناع وجود الآلهة.

وأما (إمّا) المكسورة فهي (إن) أُكِّدَتْ (بما) فأُكِّدَ شرطها بالنون المؤكدة، قال الله تعالى: «فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا»^(١).

و(أما) المفتوحة فهي للتفصيل، وفيها معنى الشرط، قال الله تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ»^(٢) «وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَبِئْسَ الْجَنَّةُ»^(٣) فهذا كلامٌ فيما يختصُّ بالفعل نفسه من هذه الأمور.

(الضرب الثاني)

في بيان الأمور المختصة بالفاعل نفسه وتعرض له أحوالٌ لا بدَّ من ذكرها. أمّا حذفه فقليلٌ مَا يُوجَدُ، لأنه صار معتمداً للحديث، وقد جاء حذفه مع قيام الدلالة عليه في نحو قوله تعالى: «ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُزْءٌ مِنْهُمَا إِلَّا كَمَا يُسْفَرُ الْوَجْهُ»^(٤) أي بدا لهم سجنه، وفي ضمير الشأن والقصة، في مثل: كان زيدٌ قائمٌ، أي الأمر والشأن، وإنما جاز حذفه لِمَا كانت هذه الجملة قائمة مقامه، وسادة مسدّده ومفسرة له، وفي مثل: نِعَمَ رَجُلًا زَيْدٌ، لأنَّ التقدير فيه: نِعَمَ الرجلُ رَجُلًا زَيْدٌ، وإنما جاز حذفه لمكان ما ذكر من التفسير بقولنا: رجلاً، ولا يجوز الإقدام على حذفه إلّا مع قرينة تدلّ عليه دلالة تُرشِدُ إليه، والأقرب أن يقال في (نعم، وبئس، وضمير الشأن) إنه مضمّرٌ وليس محذوفاً، لأنَّ ما يقتضي الإضمار حاصلٌ وهو الفعل، فلهذا كان جعله مضمراً أحق. وأما ذكره فهو الأكثر المطرد، إمّا ظاهراً كقوله تعالى: «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ»^(٥)، وإمّا مضمراً كقوله تعالى: «اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ

(٤) يوسف: ٣٥.

(٥) الأحزاب: ١٠٦.

(١) مريم: ٢٦.

(٢) هود: ١٠٦.

(٣) هود: ١٠٨.

عَلَيْكُمْ»^(١)، وإمّا مشاراً إليه كقولك: جاءني هذا، وإمّا موصولاً كقوله تعالى: «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ»^(٢).

وأما تقديمه على الفعل فلا يجوز عند الأكثر من النحاة، لأنّ الفعل عاملٌ فيه، ومن حقّ العامل أن يكون سابقاً على معموله، فأما المفعول فإنما جاز تقديمه وتأخيرُه لدلالة دلّت عليه.

(الضرب الثالث)

في بيان الأمور المختصة بالمفعول، أمّا ذكرُه فن أجل البيان كقوله تعالى: «اذْكُرُوا نِعْمَتِي»^(٣) «فَإِذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ»^(٤) وقوله تعالى: «وَأَسْأَلُكُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ»^(٥) «فَأَسْأَلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ»^(٦) ظاهراً ومضمراً، ومشاراً إليه كقولك: اضرب هذا، وموصولاً كقوله تعالى: «فَأَسْأَلُ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ»^(٧).

وأما حذفُه فهو على نوعين، فالنوع الأول: أن يُحذف لفظاً ويُراد معنىً وتقديراً، وهذا كقوله تعالى: «فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ»^(٨) والتقدير فيه: لو شاء هدايتكم لهداكم، لكنه حذف لَمَّا كان سياق الكلام دالاً عليه.

وهكذا قوله تعالى: «مِمَّا كَتَبْتُ أَيْدِيَهُمْ»^(٩) أي: عملته، وقوله تعالى: «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ»^(١٠) والتقدير: ما كان لهم الخيرة فيه، وقد يحذف للتعميم مع إفادة الاختصار كقول من قال: قد كان منك ما يؤلم. أي: كل أحد، وعليه دلّ قوله تعالى: «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ

(١) البقرة: ٤٠ و ٤٧ و ١٢٢.

(٢) النمل: ٤٠.

(٣) البقرة: ٤٠ و ٤٧ و ١٢٢.

(٤) البقرة: ١٥٢.

(٥) الأعراف: ١٦٣.

(٦) الإسراء: ١٠١.

(٧) يونس: ٩٤.

(٨) الأنعام: ١٤٩.

(٩) البقرة: ٧٩.

(١٠) القصص: ٦٨.

السَّلام»^(١) أي: كل أحد، فحذف لدلالة الكلام عليه، ومن هذا ما يكون محذوفاً على طريق الاختصار، نحو: أصغيتُ إليه، أي: أدنيتُ. ومنه قوله تعالى: «أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ»^(٢) أي: أَرِنِي ذاتك، وقد يحذف رعاية للفاصلة كقوله تعالى: «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى»^(٣) والتقدير: وما قلاك، لكته حذفه ليطابق ما قبله من الفاصلة، وقد يُحذف لاستهجان ذكره، كما حُكي عن عائشة (رض) أنها قالت: مَا رَأَيْتُ مِنْهُ وَلَا رَأَى مِنِّي، والمراد العورة، فهذا تقرير ما يُحذف لفظاً، ويُراد من جهة المعنى.

وأما النوع الثاني: وهو ما يُحذف ويجعل كأنه صار نسياً منسياً، فهو على وجهين، أحدهما: أن يُجعل الفعل المذكور كناية عنه متعدياً كقول البحتري: شَجَوُ حُسَادِهِ وَغَيِظَ عِدَائِهِ أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِي فجعل قوله: (أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِي) كناية عن الفعل ومنعوله، وعلى هذا يكون المعنى: أَنْ يَكُونَ ذَا رُؤْيَا وَذَا سَمْعٍ فَيَدْرِكَ مُحَاسِنَهُ وَأَوْصَافَهُ الظاهرة وأخباره الدالة على استحقاقه للإمامة والخلافة، فلا يكون منازعاً فيها. وثانيهما: أَنْ يَكُونَ المرادُ ذكر الفعل مطلقاً من غير تفريع على ذكر متعلقاته كقوله تعالى: «هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ»^(٤) ومن هذا قولهم: فلانٌ يُعطي ويمنعُ، ويصلُ ويقطعُ، فالغرض هو ذكر الفعل من غير حاجة إلى أمر سواه، فهذا ما أردنا ذكره في التعلقات الفعلية.

النظر الرابع

في الفصل والوصل، ولهما محلٌ عظيمٌ في علم المعاني، وواقعان منه في الرتبة

(٣) الضحى: ٣.

(٤) الزمر: ٩.

(١) يونس: ٢٥.

(٢) الأعراف: ١٤٣.

العلياء، ونحن الآن نشير إلى زُبد منها ممّا يتعلّق بغرضنا.

أمّا الفصلُ فهو- في لسان علماء البيان- عبارة عن ترك الواو العاطفة بين الجملتين، وربما أطلق الفصلُ على توسط الواو بين الجملتين، والأمر في ذلك قريبٌ بعد الوقوف على حقيقة المعاني، لكن ما قلناه أصدقُ في اللقب من جهة أنّ الجملة الثانية منفصلة عمّا قبلها، فلا تحتاج إلى واصل هو الواو، فلأجل هذا كان ماورد من غير واو بين الجملتين أحقّ بلقب الفصل، وهذا يرد في التنزيل على أوجه نذكرها:

أولها: أن تكون الجملة واردة على تقدير سؤال يقتضيه الحال، فلأجل هذا وردت هذه الجملة مجردة عن الواو، جواباً له، ومثاله قوله تعالى في قصة موسى عليه السّلام مع فرعون: «قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ»^(١) فإنما جاءت من غير واو على تقدير سؤال تقديره: فإذا قال فرعون لمّا دعاه موسى إلى الله تعالى؟ قال فرعون «وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ» ثم قال موسى «قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ»^(٢) وإنما جاءت من غير واو لأنها على تقدير سؤال كأنه قال: فما قال موسى؟ قال: الآية، وهلمّ جرّاً إلى آخر الآيات التي أتت من غير واو كقوله تعالى: «قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ. قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ. قَالَ لَنْ اتَّخِذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ. قَالَ أَوْلَوْ حِثُّكَ بِشْيءٍ مُبِينٍ. قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»^(٣) فانظر إلى مجيء القول من غير واو على جهة الاتّصال بما قبله على تقدير السؤال الذي ذكرناه.

(١) الشعراء: ٢٣.

(٢) الشعراء: ٢٤.

(٣) الشعراء: ٢٥ - ٣١.

وهكذا وَرَدَ في سورة الذاريات قال الله تعالى: «إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ»^(١) ثم قال: «فَقَرَرْتُهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ»^(٢) وهذا من الاختصار العجيب اللائق بالتنزيل.

وثانيها: أن تكون الجملة الثانية واردة على جهة الإيضاح والبيان بالإبدال كقوله تعالى: «بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ. قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ»^(٣) فالقول الأول هو الثاني، أوردَ على جهة الشرح والبيان، لما دلَّ عليه الأول، وقوله تعالى: «وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ»^(٤) فانظر كيف شرح الإمداد الثاني، إيضاحاً للأول وتقوية لأمره. وقوله تعالى: «قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ»^(٥) فالاتباع الثاني واردٌ على جهة الإيضاح، وهكذا القول في كل جملة أتت عقب أخرى على الإبدال منها، فإنها تأتي من غير واو لما ذكرناه.

وثالثها: أن تكون الجملة الأولى واردة على جهة الحفاء، والمقام مقام رفع لذلك اللبس، فتأتي الجملة الثانية على جهة الكشف والإيضاح لما أبهم من قبل، ومثاله قوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ»^(٦) ثم قال: «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ»^(٧) فجردَّ قوله «يُخَادِعُونَ اللَّهَ» عن الواو، إرادة لإيضاح ما سلف من قوله: «آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» ومراده أن كل ما كان قولاً باللسان من غير اعتقاد في القلب فهو خداعٌ لامحالة، وهذه هي حالتهم فيما صدر منهم من الإيمان باللسان.

(٥) يس: ٢٠ و ٢١.

(١) الذاريات: ٢٥.

(٦) البقرة: ٨.

(٢) الذاريات: ٢٧.

(٧) البقرة: ٩.

(٣) المؤمنون: ٨١ و ٨٢.

(٤) الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤.

وقوله تعالى: «فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ»^(١) فأتى بقوله: «قَالَ يَا آدَمُ» مجرداً عن الواو تنبيهاً على إيضاح الوسوسة وكشف غطاها وشرح تفاصيلها، ولو أتى بالواو لم يُعْطَ هذا المعنى لما فيها من إيهام التغاير المؤذن بعدم الكشف والإعراض عن التقرير.

ورابعها: أن تكون الجملة الثانية واردة على جهة رفع التوهم عن الجملة الأولى عن أن تكون مسوقةً على جهة التجوُّز والسهو والنسيان، ومثاله قوله تعالى في صدر سورة البقرة: «الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ»^(٢) فلما كانت هذه الجملة واردة على جهة الإيضاح بأنَّ هذا القرآن قد بلغ أعلى مراتب الكمال، وسيقت على المبالغة بإعظامه، وأنه لارتبة فوقه، حيث صدرَّ السورة بالأحرف المقطعة إشعاراً ببلاغته، وجيء باسم الإشارة مع اللام تنبيهاً على ماتصمَّنته من البُعد على صفة الإغراق في وصفه، فلما كان الأمر فيه هكذا، سبق إلى فهم السامع أنَّ ما يرقى به من هذه السمات البالغة إنما هي على جهة الخَرْف والسهو والذهول، وأنه لاحقيقة لها، أراد رفع الوهم بماعقبه من الجمل المردفة، فلهذا وردت من غير واو، إشعاراً بما ذكرناه، فقال: «لَارَبَّ فِيهِ» أي ليس أهلاً لأن يكون مرتاباً فيه، وأن يكون محطاً للريبة ومحلاً لها، ثم أردفه بقوله تعالى: «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ» أي: إنه هادٍ لأهل التقوى معطياً لهم حظَّ الهداية به.

ومن هذا قوله تعالى: «مَا هَذَا بَشَرًا»^(٣) ثم قال: «إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ»^(٤) فقولُه: «إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» سيق من أجل رفع الوهم بالجملة الأولى، غير أن تكون على ظاهرها من الدلالة على الإغراق في مدحه. ومنه قوله تعالى: «كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا»^(٥) فقولُه: «كَأَنَّ فِي

(٣) و(٤) يوسف: ٣١.

(٥) لقمان: ٧.

(١) طه: ١٢٠.

(٢) البقرة: ١ و ٢.

أُذنيه وقرأ» إنَّما ورد على جهة الاتصال من غير واو، تقريراً لما سبق من الجملة الأولى من عدم السماع، وإيضاحاً لها.

وخامسها: أن تكون الجملة الثانية واردة على إرادة قطع الوهم على ما قبلها من الجمل السابقة، ومثاله قوله تعالى: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ»^(١) فإنَّما وردت من غير واو، دلالة على أنَّ عطفها على ماتقدَّم من الجملة السابقة متعذِّر، فلهذا وردت من غير واو، رفعاً لهذا التوهم وقطعاً له، ويجوز أن تكون واردة على جهة الاستئناف، تنبيهاً على البلاغة بمطابقة محزَّها ومفصلها، وإعلاماً من الله تعالى بأنهم من أجل خداعهم ومكرهم مستحقون من الله تعالى غاية الخزي والنكال، وتسجيلاً عليهم بأنَّ الله تعالى هو المتولَّى لذلك دون سائر المؤمنين، ونبه بالفعل المضارع في قوله: «يَسْتَهْزِئُ» بحدوث الاستهزاء وتجذُّده.

فإنَّما قوله تعالى: «إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ»^(٢) فإنَّما أتى من غير واو، لاندرجاه على جهة البيان تحت قولهم: «إِنَّمَا مَعَكُمْ»^(٣) أي إِنَّا مَعَكُمْ على الموافقة على ذنبكم في التكذيب والجحود غير مفارقين لكم مستمرين على اليهودية، وكوننا معهم ليس على جهة التصديق، إنما كان على جهة الاستهزاء والسخرية بما هم عليه من الإيمان، فهذا يكون ورودُ الفصل في كتاب الله تعالى.

والله دُرُّ لطائف التنزيل، لقد أطلَّعت طلابها على مطالع أنوارها، وأوضحت لهم المَنَارَ، فاستضاءوا بضوء شموسه وأنوار أبقارها.

وأما الوصل فهو عطف الجملة على الجملة، والمفرد على مثله. بجامع ما، وهو قد يرد لرفع الإيهام كقولك: لا، وأَيْدِكَ اللهُ، فالواو هاهنا جاءت لرفع الوهم

(١) البقرة: ١٥.

(٢) و(٣) البقرة: ١٤.

عن أن يكون دعاء عليه في ظاهر الأمر كما ترى، وكما يَرُدُّ في المفرد، فقد يَرُدُّ في الجمل، فهذان ضربان، نذكرُ ما يتعلَّق بكل واحد منها بمعونة الله تعالى.

(الأول) في بيان عطف المفردات بعضها على بعض بالواو، ونذكر فيه من التنزيل آيتين.

الآية الأولى: قوله تعالى في سورة الغاشية: «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ»^(١)، فعطف بعض هذه المفردات على بعض، ولا بدَّ هناك من رعاية الملائمة والمناسبة في تقديم بعضها على بعض لئلا يخلو التنزيل عن أسرار معنوية ودقائق خفية، يتفطن لها أهل البراعة، ويقصُر عن إدراكها من لاحظة له في معرفة هذه الصناعة، فلا بدَّ من أن يكون لتقديم المعطوف عليه على المعطوف وجهٌ يسوِّغه، وإلا كان لغواً، ولهذا ضعف: زيد قائمٌ وعمرو باع داره، إذ لا عُلُقَةً بين هاتين الجملتين تكونُ سبباً لعطف إحداهما على الأخرى، ولهذا عيب على أبي تمام قوله:

لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى صَبْرٌ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمٌ

إذ لا مناسبة بين مرارة النوى، وكرم أبي الحسين.

فأمَّا الآية فلنشر إلى الأسرار التي لأجلها قُدِّم بعضها على بعض، فأمَّا تقديم الإبل، فإنما كان ذلك من أجل أن الخطاب للعرب من أهل البلاغة، فن أجل ذلك كان الاستجلاء على حسب ما يألُفونه، وذلك أن العرب أكثر تعويلهم في معظم تصرفاتهم على المواشي في المطاعم والملابس والمشارب والمراكب، وأعمُّها نفعاً هي الإبل، لأنَّ أكثر المنافع هذه لا تصلح إلا فيها على العموم، مع

ما اختصت به من الخلق العظيم والإحكام العجيب، فمن أجل ذلك صدرها بالنظر فيها لذلك .

ثم إنه أردفها بذكر النظر في خلق السماوات، ووجه الملائمة بينها هو أن قوام هذه الأنعام ومادة المواشي إنما هو بالرعي، وأكل الخلى، وكان ذلك لا يكون إلا بنزول المطر من السماء، مع ما اختصت به من التأليف الباهر والامتداد العظيم، والسعة الكلية، فمن أجل ذلك عقيب بها ذكر الإبل، إشارة إلى ما قلناه.

ثم أردف ذلك بذكر النظر في الجبال وما تضمنته من العجائب العظيمة من أجل أنهم إذا قعدوا في البراري وبطون الأودية لا يأمنون التخطف لهذه الأنعام والنفوس والأموال، فأشار إليها لما فيها من التحفظ على أموالهم ونفوسهم بارتفاعها وكونها شوامخ لا يوصل إليها لعلوها وارتفاعها، فعقب بها ذكر السماء، لما أشرنا إليه. ووجه آخر وهو أنها لما كانت في غاية الارتفاع والسمو أشبهت السماء في علوها وارتفاعها، فلهذا عقيبها بها.

ثم أردفها بذكر الأرض، منبهاً على مآلهم فيها من المعاش والاستقرار بأنواع الارتفاعات التي لا يعلم تفاصيلها إلا الله تعالى من الأرزاق والثمار والفواكه والمعادن ومجاري العيون والأمواه، وغير ذلك، فأشار الله تعالى إلى هذه العجائب الأربعة، لما كانت من أعظم الآيات الباهرة، وقد عددنا هذه في عطف المفردات نظراً إلى عطف المجرورات بعضها على بعض وكان ما بعدها منفصلاً عنها فهذا هو الذي حسن منه.

والأقرب أن يكون من الجمل، لأن ما تقدم من المجرورات هو متعلق بالجمل بعدها، فلهذا كان معدوداً من الجمل.

الآية الثانية: ذكرها في سورة آل عمران وهي قوله تعالى: «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

والخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ»^(١) فانظر إلى عجائب هذه الآية ولطافة معناها في تقديم بعضها على بعض، فلما كانت الآية مسوقة من أجل تزيين المشتيات في أفئدة بني آدم واستيلائها عليها قُدِّمَ ما هو الأدخُلُ في ذلك، فصَدَّرَها بذكر النساء، تنبيهاً على أن لا مُشْتَى يغلبُ على العقول مثلهنَّ لَمَّا يغلب على القلوب من تَوْقَانِ النفوس إليهنَّ وعن هذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ وَسَلَّمَ: «مَارَأَيْتُ أَغْلَبَ لَذْوِي الْعُقُولِ مِنَ النِّسَاءِ». وعن إبليس: «مَانَصَبْتُ فَحًّا أَثْبَتْتُ فِي نَفْسِي مِنْ فَحٍّ أَنْصَبُهُ بَامْرَأَةٍ» وفي هذا دلالة على استيلائهنَّ على العقول، لأنَّهنَّ أدخُلُ في المشتيات.

ثم عَقَّبَهُ بذكر البنين لما كانوا ممَّا يلي النساء في الرقة والرحمة والشفقة والخُنُو، مع المشاكلة في الخلقة والصورة.

ثم أَرَدَفَ ذلك بالأموال الذهبية والفضية، لما يحصل فيها من اللذة والسرور والاطمئنان وانسراح الصدور بها والاستطالة والقوة، كما يحصل بالأبناء، لكن الأولاد أدخُلُ فرحاً وأشدَّ محبَّةً، وأكثرُهم رحمةً ورأفةً.

وقوله: «الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ» مبالغة في وصفها، كما قالوا: إبلٌ مؤبلة، وظلفٌ ظالِفٌ، أي شديد.

ثم عَقَّبَ ذلك بذكر الخيل، لما يحصل بها من الجمال والهيئة الحسنة والقوة والاستطالة على الأعداء بالقهر.

وأردفها بذكر الأنعام لما يحصل بها من المنافع، وهي دون منافع الخيل. وأتبعها بذكر الحرث، وختم هذه المنافع بذكره، لأنَّ كل واحد من هذه الأشياء على مرتبة في السبق على قدر حالها في الجمال والمنفعة، وقد أشار الله تعالى إلى ترتيبها كما سردها، تنبيهاً على أن ماتقدّم منها فهو أحقّ من غيره،

لاختصاصه بما اختص به.

ولنقتصر على هذا القدر من التنبيه على درجات الفصل، وأغفلنا ذكر مايتعلق بهاتين الآيتين من العلوم المعنوية والعلوم البيانية، ومايليق بهما من علم البديع، ميلاً إلى الاختصار.

وهذا من مغاصات بحار التنزيل المحصّلة لخالص عقيانه، وأسماط عقوده المؤلفة من دُرره وحصيد مرجانه، قد استخرجها النقاد والغاصّة، واستولوا على لُباب تلك الأسرار، وأحاطوا منها بالخلاصة.

(الضرب الثاني) في بيان عطف الجمل بعضها على بعض، وما هذا حاله فهو كثيرُ الدّور في كتاب الله تعالى، ولا بدّ أن يكون بينهما نوع ملائمة، لأجله جاز عطف إحداها على الأخرى كقوله تعالى: «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ»^(١) وقوله تعالى: «يُرَاوُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا»^(٢) ونحو قوله تعالى: «كُلُّوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا»^(٣) فأما قوله تعالى: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ»^(٤) فإنما وردَ من غير ذكر الواو، لما كان وارداً على جهة التعليل، فلهذا لم ترد فيه واو، كقوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ»^(٥) ومن هذا قوله تعالى: «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ. وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ»^(٦) فهذه الأمور كلّها عطف بعضها على بعض بجامع يجمعها، وهو كونها من أمارات القيامة.

ومن هذا قوله تعالى: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطَ. وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ»^(٧)، فإنما جاز العطف

(٥) الأنفال: ١٣، الحشر: ٤.

(١) و (٢) النساء: ١٤٢.

(٦) الانفطار: ١ - ٤.

(٣) الأعراف: ٣١.

(٧) ق: ١٢ - ١٤.

(٤) الأنعام: ١٤١، الأعراف: ٣١.

في هؤلاء بعضهم على بعض، باعتبار أمر جامع، وهو تكذيب الرسل وجمد ما جاؤوا به من المعجزات الظاهرة، فهم وإن اختلفوا وتباينوا فهم متفقون فيما ذكرناه، وهكذا قوله تعالى: «وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ»^(١) إنما عُطِفَ أحدهما على الآخر باعتبار كونها ضدّين، والضدُّ ملازمٌ لضدّه، فهذا هو الذي سَوَّغَ العطف فيها، ولا تزال في تصفُّحِكَ لآي التنزيل، واستهلال أسرارهِ تَطَّلِعُ على فوائد جَمَّة، ونكت غزيرة.

النظر الخامس

في الإيجاز والإطناب والمساواة، اعلم أنَّ الكلام بالإضافة الى معناه كالقMISS بالإضافة إلى قَدِّ مَنْ هُوَ له، فربّما كان على قدر قَدِّهِ من غير زيادة ولا نقصان، وهذا هو المساواة. وتارةً يكون زائداً على قَدِّهِ، وهذا هو الإطناب. وربّما نقص عن قَدِّهِ، وهذا هو الإيجاز. فإذا الكلام لا يخلو عن هذه الأنواع الثلاثة، ونحن نذكرها:

الأول: الإيجاز

وهو في مصطلح أهل هذه الصناعة عبارة عن تأدية المقصود من الكلام بأقلّ من عبارة مُتعارف عليها. ثم إنه يأتي على وجهين: (أحدهما) القِصْر، وهو الإتيان بلفظ قليل تحته معانٍ جَمَّة، وهذا كقوله تعالى: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ»^(٢) فإنه قد دلّ على معناه بأوجز عبارة وأخصرها، وقد فاق على ما أثر عن العرب في معناه من قولهم (القتلُ أنْفَى للقتل) من أوجه:

من جهة إيجازه، فإنّ حروفه عشرة، ومآلوه أربعة عشر حرفاً.

ومن جهة سلامته عن التكرار.

ومن جهة تصريحه بالمقصود، وهو لفظ الحياة.

ومن جهة بلاغة معناه، فإن تنكير الحياة أعظم جزالة، وأبلغ فخامة، وغير ذلك من الأوجه التي تميّزها عن غيره.

وكقوله تعالى: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءً يُجْزِيْهِ»^(١) فهذا كلام مختصر وجيز دالٌّ على معناه بحيث لا يُدرك إيجازه ولا يُنال كُنْهه.

ومنه قوله تعالى: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»^(٢).

(وثانيهما) إيجازٌ بالحذف، ومثاله قوله تعالى: «وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا»^(٣) فإن الغرض أهل القرية.

ويتبع في ذلك الأمور المحذوفة من حذف علّة أو جواب شرط كقوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحٍ مَا نَفِذَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ»^(٤) المعنى: لتنفذ كلمات الله ما نفذت.

ومنه قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى»^(٥) التقدير: لكان هذا القرآن.

وقوله تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ»^(٦) التقدير فيه: لشاهدوا ماتقصر العبارة عن كنهه، أو لتحسروا وانقطعت أفئدتهم، لأنّ المقام مقام تهويل، فلا بد من تقديره كما ترى.

وكقوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ

(٥) الرعد: ٣١.

(٦) الأنعام: ٢٧.

(١) النساء: ١٢٣.

(٢) الزلزلة: ٧ و ٨.

(٣) يوسف: ٨٢.

(٤) لقمان: ٢٧.

تُرَحَّمُونَ»^(١) التقدير فيه: أعرضوا عن استماعه ونكصوا عن قبوله، ويدلّ عليه ما بعده.

ومن أراد الاطلاع على حقيقة البلاغة من الإيجاز بالحذف فعليه بتلاوة سورة يوسف، فإنه يجد هناك ما فيه شفاء لكل علة، وبيان لكل علة.

النوع الثاني: الإطناب

وهو تأدية المقصود من الكلام بأكثر من عبارة متعارف عليها.

ثم إنه يأتي على أوجه ثلاثة:

(أولها) أن يكون مجيئه على جهة التفصيل، ومثاله قوله تعالى: «قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ»^(٢) فهذا وما شاكله فيه تفصيل بالغ وتعيد نَمَنَ يجبُ الإيمان به من الأنبياء، وما أُوتوا من الكتب المنزلة على أتم وجه وأبلغه، ولو أثر إيجازه لقال: قولوا آمنا بالله وبجميع رسله وما أُوتوا، لكنه بسطه على هذا البسط العجيب، لما فيه من وفائه بالإيمان بالله وبرسله وما اشتمل عليه من ذكر هذه الزوائد المؤكدة.

ومنه قوله تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»^(٣).

فلينظر الناظر، وليحك قريحته بالتأمل البالغ فيما اشتملت عليه هذه الآية الباهرة من شرح عجائب هذه المخلوقات، واختلاف أنواع المكونات، وترتيبها

(٣) البقرة: ١٦٤.

(٢) آل عمران: ٨٤.

(١) يس: ٤٥.

على هذه الهيئة التي تعجز عن إدراكها القوى البشرية، فقد نزلها على مراتب ثلاث:

١ - الإشارة إلى المكونات السماوية وما اشتملت عليه من عجائب الملكوت وإتقان الصنعة، وبديع الحكمة في تكوينها ورفعها، وما فيها من المخلوقات العظيمة في أطباقها من أصناف الملائكة وحشوها بهم في أرجائها، مع ما اختصوا به من عظم الخلق ونيل الزلفي والقرب إلى الله تعالى، وأنه لا خلق أعظم ولا أرفع منزلة عند الله تعالى منهم، لِمَا خَصَّهم به من امتثال أمره والاعتراف بعظمته.

٢ - الإشارة إلى المكونات الأرضية وما اشتملت عليه من الاختصاص بمنافع الخلق من أنواع الحيوانات والنبات والفواكه والأشجار والمعادن، وأنها صارت موضعاً ومستقراً لهم يتقلبون في منافعهم ودفع مضارهم عليها، وسهل لهم من سلوك مناكبها في البر والبحر.

٣ - الإشارة إلى المكونات الحاصلة بين السماء والأرض من نزول الأمطار لإحياء الأرض ونمو الثمار والزرع وتصريف الرياح في مهاجتها للمصالح الأرضية كلها، واختلاف الليل والنهار وما ناط بالسماء من هذه الكواكب النيرة، الشمس والقمر والنجوم، وجعلها إعلماً للخلق، واهتداءً إلى مصالحهم، وما بث فيها من الحيوانات العظيمة على اختلاف أجناسها وأنواعها، فقد أشار إلى ما ذكرناه من هذه التفاصيل في هذه الآية على أتم نظام وأعجب سياق ولو أتر الإيجاز على ذلك لقال تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ الْمُكُونَاتِ لآيَاتٍ لِّلْعُقَلَاءِ.

(وثانيها) مجيئه على جهة التتميم، ومثاله قوله تعالى: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى»^(١) فقلوه: «الصَّلَاةِ الْوُسْطَى» إطناباً على جهة التتميم

لما قبله، ومنه قوله تعالى: «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ»^(١) فذكره لهما إطناباً على جهة التتميم لما سبق، وقوله تعالى: «رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي»^(٢) فإننا كرر ذكر الجار والمجرور في قوله (لي) إطناباً على جهة التتمة والتكملة لما قبله.

(وثالثها) مجيئه على جهة التذييل، ومعناه تعقيبُ جملة بجملة تأكيداً لمعنى الأولى وإيضاحاً لها، ومثاله قوله تعالى: «وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا»^(٣) فقوله: «إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا» خارجٌ مخرج المثل تقريراً لما سلف من ذكر الجملتين قبله، وقوله تعالى: «ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ»^(٤) فقوله: «وهل نُجَازِي» واردٌ على جهة الإطناب، تذيلاً لما قبله من الجملة على جهة الإيضاح، وهكذا يكون ورود الإطناب في شرح حقائق الوعد لأهل الجنة، والوعيد لأهل النار، بذكر ما يليق بكل واحد منها من الأوصاف، وإذا أمعنت فيه فكرتك وجدته كما شرحتُ لك من الإطناب الطويل والشرح الكثير.

الثالث: المساواة

هي في مصطلح فُرسان البيان عبارةٌ عن تأدية المقصود بمقدار معناه من غير زيادة فيه ولا نقصان عنه.

ثم إنها جارية على وجهين، أحدهما: أن تكون مساواة مع الاختصار، وهذا نحو أن يتحرى البليغ في تأدية معنى كلامه أوجز ما يكون من الألفاظ القليلة الأحرف الكثيرة المعاني، التي يتعسرُ تحصيلها على مَنْ دونه في البلاغة، ومن

(٣) الإسراء: ٨١.

(١) البقرة: ٩٨.

(٤) سبأ: ١٧.

(٢) طه: ٢٥ و ٢٦.

هذا قوله تعالى: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ»^(١) وقوله تعالى: «وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ»^(٢) فهذه أحرفٌ قليلةٌ تحتها فوائدٌ غزيرة، ونكتٌ كثيرةٌ، فهذا نوعٌ من المساواة.

وثانيهما: أن يكون المقصود المساواة من غير تحرُّ ولا طلب اختصار، ويسمى (المتعارف).

والوجهان محمودان في البلاغة جميعاً، خلا أن الأول أدلُّ على البلاغة وأقوى على تحصيل المراد، ولهذا فإنك ترى أهل البلاغة متفاوتين في ذلك، فأعظمهم قدراً فيها مَنْ كان يمكنه تأدية مقصوده في أخصر لفظ وأقله، وهذا لا يكون إلا لمن كان له موقعٌ فيها بحيث يمكنه التقصير والاختصار في لفظ قليل، ولنقتصر على هذا القدر من العلوم المعنوية، ففيه كفاية للمطلوب.

* * *

القسم الثاني مايتعلّق بالعلوم البيانية:

وهو في مصطلح أرباب هذه الصناعة عبارة عن إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة وبالنقصان عنها، ومثاله أنك إذا أردت أن تحكي عن زيد بأنه شجاع فبالطريق اللغوية أن تقول: زيدٌ شجاعٌ يشبه الأسد في شجاعته، وإذا أردت الإتيان بهذا المعنى على طريق البلاغة فإنك تقول فيه: رأيت الأسد، وكأنّ زيداً الأسد، فالأول هو الاستعارة، والثاني على طريق التشبيه، فعلم البيان إنما يكون متناولاً للدلالة الثانية، لأنّ فيها تحصيل الزيادة والنقصان في المعنى المقصود وفائدته الاحتراز عن الخطأ في مطابقة الكلام لتام المراد منه، فصارت الدلائل ثلاثاً: دلالة المطابقة، وهي الدلالة اللغوية،

كدلالة لفظ الإنسان والفرس على هاتين الحقيقتين المخصوصتين، وهي دلالة لغوية تختلف باختلاف الاصطلاحات والأوضاع. ودلالة الالتزام، وهي التي تدلّ على أمر خارج غير المسمّى، ومثاله دلالة لفظ الفرس، والإنسان على ما يكون لازماً لهما عقلاً - نحو الكون في الجهة والحصول في الأماكن - فهذه دلالة التزامية لأنه لا ينفك عما ذكرناه. ودلالة التضمن، وهي الدلالة على جزء من أجزائه، كدلالة الفرس والإنسان على أجزائهما.

واعلم أنّ المقصود الأعظم من هذه القاعدة هو بيان أنّ القرآن قد نزل في أعلا طبقات الفصاحة، وأنّ كل كلام غيره وإن بلغ كلّ غاية في البلاغة، فإنه لا يُدانيه ولا يُماثله، وأنّ الثقلين من الجنّ والإنس لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله، أو بسورة منه، أو بآية، ما قدروا، كما حكى الله تعالى من تصديق هذه المقالة بقوله تعالى: «قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً»^(١) وقد حصل عجز الخلق عن الإتيان بمثله قطعاً كما سنقرّره بعد هذا بمشيئة الله تعالى، سواء أكان العجز بالإضافة إلى ماتضمنه من علوم المعاني، أم كان العجز بالإضافة إلى ماتضمنه من علوم البيان، وقد مرّ الكلام على ماتضمنه من علوم المعاني والذي نذكره هاهنا هو مانضمنه من علوم البيان، فنذكر ماتضمنه من التشبيه، ثم نردفه بما تضمنه من الاستعارة، ثم نذكر على إثره ماتضمنه من الكناية، ثم نذكر التمثيل، ونختتم الكلام فيه بالأسرار التي تضمنها من الحقائق والمجازات.

والذي نحاول تقريره هاهنا هو أنّ القرآن فاق في هذه المعاني على غيره، وأنّ شيئاً من الكلام المتقدم لا يُدانيه ولا يُقاربه فيها، ليحصل الناظر من ذلك على كونه قد بلغ الغاية بحيث لا غاية فوقه، وأنه فائت لكلام أهل البلاغة في

جميع أحواله.

(النظر الأول) في التشبيه، يتحصّل المقصود منه بأن نرسم الكلام في أربعة أطراف:

الأول: في بيان آلاته، وهي: الكافُ وكأَنَّ ومثْل. ف(الكاف) في نحو قوله تعالى: «فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ»^(١) ونحو قوله تعالى: «أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ»^(٢) وقوله تعالى: «كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ»^(٣).

وأما (كَأَنَّ) فكقوله تعالى: «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ»^(٤) وقوله تعالى: «كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ»^(٥).

وأما (مَثَلُ) فكقوله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً»^(٦) وقوله تعالى: «إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ»^(٧) وقوله تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً»^(٨).

فحاصل الأمر أَنَّ التشبيه بالإضافة إلى آتية يَرُدُّ على وجهين، أحدهما: أن يكون وارداً على جهة الإنشاء كقوله تعالى: «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ»^(٩) وغير ذلك، والغرضُ بكونه إنشاءً أَنَّهُ لا يَحْتَمِلُ صدقاً ولا كذباً. وثانيهما: أن يكون وارداً على جهة الإخبار، كقوله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً»^(١٠) وقوله تعالى: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ»^(١١) إلى غير ذلك ممّا يكون وارداً

(١١) الأعراف: ١٧٦.

(٦) البقرة: ١٧.

(١) الفيل: ٥.

(٧) يونس: ٢٤.

(٢) إبراهيم: ١٨.

(٨) الجمعة: ٥.

(٣) يونس: ٢٤.

(٩) الرحمن: ٥٨.

(٤) الرحمن: ٥٨.

(١٠) البقرة: ١٧.

(٥) الصافات: ٤٩.

على طريقة الإخبار، وهما مستويان في الإفادة لمقصود التشبيه وإن اختلفا فيما ذكرته.

الثاني: في بيان الغرض من التشبيه، اعلم أن الغرض من حال التشبيه أن يكون المشبه به أعظم حالاً من المشبه في كل أحواله، وقد يأتي على العكس كقول من قال:

وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَنَّ غَرَّتْهُ وَجْهُ الْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدِّحُ
فبالغ حتى جعل المشبه أعلى حالاً من المشبه به في الوضوح والجلال، لأن الغالب في العادة هو تشبيه بياض الوجه بغرة الفجر، فأما هاهنا فعلى العكس من ذلك، وقد يرد لأغراض كثيرة:

أولها: التقرير والتمكين في النفس، كمن يراه يسعى في أمر لا طائل فيه ولا ثمرة له، فيقال له: ماسعيك في هذا الأمر إلا كمن يرقم على الماء ويخط على الهواء، فيترك الأمر لعدم فائدته وبطلان جدواه.

وثانيها: أن يكون المقصود بيان جنس المشبه إما في علو نفسه، كتشبيه بعض الأشخاص بالملائكة، لطهارة نفسه وعفة أثوابه، قال:

فَلَسْتُ لِإِنْسِي وَلَكِنْ لِمَلَائِكِي تَنْزَلُ مِنْ جَوِّ السَّاءِ يَصُوبُ

وإما في نزول همته، كتشبيه بعض الأشخاص بالسباع، كما شبه الله المنافقين في ذهابهم عن الدين، وضعف أفهامهم عن قبول الحق بقوله: «كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنَفِرَةٌ. فَرَّتْ مِنْ قَسْوَةٍ»^(١) فثُلَّ حالهم في نفارهم عن الحق وبعدهم عن قبوله، كمثّل حمير الوحش عند نفارها ودَهَشها وقلقها، برؤية بعض الآساد، فما تَمَالَكَ في الهرب، ولا تَرَعَوِي عند رؤيته، وتَرَكَب الصعَب والدَّلُول، وهكذا حال اليهود، فإنه تعالى مثّلهم - فيما حمّلوا من أحكام التوراة ثم

أعرضوا عنها وتركوها وراء ظهورهم- بحمار يحمل كُتُباً كثيرة فوق ظهره، لا يدري ما شتمت عليه من أنواع الهداية، فهكذا حال اليهود يتلون التوراة وهم أبعد الناس عن العمل بها، وعن المواظبة على ماتصمتته من الأوامر والنواهي. وثالثها: ضعف الإيمان ورقته وتلاشي أمره وعدم الثبوت عليه، وأنه يضمحل عن القلوب بأدنى شيء، كما ضربته الله مثلاً لمن هذه حاله في ضعف إيمانه، وأنه على غير قرار من أمره فيه، وأنه على شرف الانقلاب إلى الكفر، بغزل العنكبوت وبيتها، فإنه من أضعف الأشياء قواماً، وأرقها حالة، يتغير بقوة الريح، فضلاً عما وراء ذلك من الأمور الصلبة التي تقاربه، فهكذا حال من لا وثاقة له في الدين، فإنه عن قريب ينكص على عقبيه.

ورابعها: التلاشي في البطلان، كما قال الله تعالى: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدَرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا»^(١) وضربه الله تعالى مثلاً لبطلان أعمال الكفرة وأنه لا فائدة فيما عملوه ولا جدوى له بالتراب الدقيق الواقع على حجر صلد أملس، فيصيبه المطر، فإنه أسرع شيء في الذهاب، وأبطل ما يكون عند وقوع الماء عليه، فهكذا حال الكفر، فإنه إذا صادف الأعمال من غير قرار على الإيمان فإنه يُبطلها ويُذهبها لا محالة.

وخامسها: قوله تعالى: «أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُرٌّ يُجْعَلُونَ أَصَابِعُهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ»^(٢) فالغرض مما ذكره من التشبيه هو تشبيه حال الكفار فيما هم فيه من الكفر، والتمادي على الجحود والإصرار، بمن أصابته هذه الأمور الهائلة، فهو على قلق وخوف وإشفاق على نفسه مع الغم والألم مما يلاقي من هذه الأشياء النازلة به، فهكذا حال الكفار فيما وقعوا فيه من ظلم الكفر وحيرته، لا يأمنون مما يقع عليهم من الحوائج

العظيمة، والإيلامات المهلكة، فهكذا ترى جميع التشبيهات الواقعة في التنزيل، فإن لها مقاصد عظيمة، ومضمّنة لأغراض دقيقة يعقلها من ظفر في هذه الصناعة بأوفر حظّ، وكان له فيها أدنى ذوق، وحام حول تلك الدقائق بذهن صافٍ عن كدور البلادة، فعن قريب يحصل على البُنية بلطف الله تعالى وحسن توفيقه.

الثالث: في كيفية التشبيه، وهو في وروده يكون على أوجه أربعة: أولها: أن يكونا - أعني المشبه والمشبه به جميعاً - مدرّكين بالحس، وهذا نحو تشبيه الخدّ بالورد، والشعر الفاحم بالليل، ومن هذا قوله تعالى: «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ»^(١) وقوله تعالى: «كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ»^(٢) وغير ذلك ممّا يكون طريقه الحسّ والمشاهدة، وهو أجلى ما يكون من التشبيهات، لقوته وظهور طريقه.

وثانيها: أن يكونا جميعاً عقليين من غير إحساس، كالعلم بالحياة، فيشبه العلم بالحياة لما فيه من النفع في الآخرة، ويشبه الجهل بالموت لما فيه من خول الدّكر، وقد أشار الله تعالى إلى هذا بقوله: «أَوْ مَنْ كَانَ مِثْنًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا»^(٣) فالإحياء والإماتة هنا مجاز في العلم والجهل، وأنّ المقصود من الآية تفاوت ما بين الحالتين، بين مَنْ أحياه الله تعالى بالعلم، وبين مَنْ أماته الله تعالى بالجهل، كما أنّ مَنْ كان في الظلمة ليس حاله كحال مَنْ هو في النور، يتصرّف ويتقلّب.

وثالثها: أن يكون أحدهما حسياً، والآخر عقلياً، كالمنيّة بالسبع، فالمنيّة

(١) الرحمن: ٥٨.

(٢) الصافات: ٤٩.

(٣) الأنعام: ١٢٢.

هاهنا هي المشبهة وهي عقلية، بالسُّع وهو حسي، قال:
 وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْقَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
 ورابعها: أن يكون المشبهُ حسيّاً والمشبّه به عقلياً كالإعطرب بخلق الكريم ومنه
 قوله تعالى: «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لَجْجٍ»^(١) فشبه حال الكفرة فيما هم فيه من
 الكفر والجُحود والإصرار والتمادي على الباطل بظلمات بعضها فوق بعض،
 فلا يدرك لها حالة في النور ولا يهتدي إليه.

الرابع: في حكم التشبيه، وربّما كان قريباً، وربّما كان بعيداً، وتارة يكون
 واضحاً، ومرة يكون خفياً، وربّما كان غريباً وحشياً، وربّما كان مألوفاً.
 واعلم أن جميع التشبيهات الواردة في كتاب الله تعالى خالية عن هذه
 الشوائب كلّها، أعني الغرابة والبُعد في مفرداتها ومركباتها، لا يعترضها شيء من
 هذه العوارض في التشبيهات الواردة في غيرها، والحمد لله.

فأما المفردة فهي كل ما كان التشبيه فيها حاصلًا باعتبار صورة بصورة، أو
 معنئى بمعنى من غير زيادة، وهذا كقوله تعالى: «فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ»^(٢)
 فشبه السماء يوم القيامة بالدّهان، وهو الجلد الأحمر، ونحو قوله تعالى: «فَلَمَّا رَأَاهَا
 تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ»^(٣) فشبه العصا بالجنان لا غير، من غير زيادة، وهي كثيرة في
 القرآن، أعني التشبيهات المفردة، وهي في ورودها على جهة القرب في تشبيهها
 غير بعيدة، ومألوفة غير مستنكرة، قد حازت من اللطافة والرفقة ما لا يخفى حاله
 على ناظر، ومثال البعيد تشبيه القمح - إذا كان فيه جمر - ببحر من مسك مؤجّه
 ذهب، ونحو تشبيه الدم بنهر من ياقوت، فها هذا حاله يصعب وجوده إلا على
 جهة التصوّر، ومثال الخفي تشبيه الأمور المحسوسة بالمعاني، كما شَبَّهَت النجوم

(١) النور: ٤٠.

(٢) الرحمن: ٣٧.

(٣) النمل: ١٠، القصص: ٣١.

في الظلام بالسُّنن خالطتهن البدعة، فها هذا حاله من التشبيهات خالي عن تشبيهات القرآن العظيم وبمعزل عنها كما قلناه.

وأما المركبة فكقوله تعالى: «وَمَثَلُ الْكَلِمَةِ خَبِيثَةٌ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ»^(١) وقوله تعالى: «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَعَقُّ بِمَا لَا يَسْمَعُ»^(٢) وقوله تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا»^(٣).

وحاصل المركبة أنها في مقصود التشبيه، تشبيه أمرين بأمرين أو أكثر، إلى غير ذلك من التركيبات، ومن تشبيه المفرد بالمركب قوله تعالى: «مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ»^(٤) فشبه النور المفرد بالمشكاة المركبة من هذه الأجزاء والأوصاف.

فأما تشبيه المركب بالمفرد فلم أجد في القرآن مثلاً له وما ذاك إلا لقلته وغرابته، وهو موجود في الشعر على جهة الندرة، فقد حصل لك ممّا ذكرنا أنّ التشبيهات الواردة في القرآن جامعة للأوصاف التامة المعتمدة في البلاغة ليس فيها غرابة ولا بُعد عن المألوف، والله أعلم بالصواب.

(النظر الثاني) في الاستعارة، اعلم أنّ الاستعارة من أشرف ما يُعدّ في القواعد المجازية، وأرسخها عُرفاً فيه، ولا خلاف بين علماء البيان في كونها معدودة من المعاني المجازية، وإنّما الخلاف إنّما وقع في قاعدة التشبيه، هل يُعدّ من المجاز أو لا؟ وفيه خلافٌ قد شرحناه، وأظهرنا وجه الحقّ في ذلك، فأغنى عن تكريره، وقد أشرنا إلى بدائع أسرارهِ من قبل، والذي نذكرها هنا هو كيفية وقوعها في التنزيل، وهي واقعة على أضرب أربعة:

(٣) الجمعة: ٥.

(١) إبراهيم: ٢٦.

(٤) النور: ٣٥.

(٢) البقرة: ١٧١.

الأول منها: استعارة المحسوس للمحسوس، وهذا كقوله تعالى: «وَأَشْتَلَ الرُّأْسُ شَيْبًا»^(١) فالمستعار هو النار، والمستعار له هو الشيب بواسطة الانبساط والإسراع، فالطرفان محسوسان كما ترى، والجامع بينهما محسوس، ولكنه في النار أظهر، ويلحق بهذا الضرب قوله تعالى: «إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ»^(٢) فالمستعار له هو الريح، والمستعار منه هو المرأة، والجامع بينهما عدم الإنتاج وظهور الأثر، فالطرفان هاهنا حسيان، لكن الجامع بينهما أمر عقلي، بخلاف الأولى، فإن الجامع أمر حسي.

ومن هذا قوله تعالى: «وَأَيُّ لَيْلٍ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ»^(٣) فالمستعار له هو ظهور النهار من الليل وظلمته، والمستعار منه هو ظهور المسلوخ من جلده، فالطرفان حسيان كما ترى، والجامع بينهما ما يعقل من ترتيب أحدهما على الآخر.

ومنه قوله تعالى: «فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ»^(٤) فالمستعار له هو الأرض المتزخرفة المتزينة بالنبات، والمستعار منه هو نباتها، وهما حسيان، والجامع بينهما الهلاك، وهو أمر معقول غير محسوس.

ومن هذا قوله تعالى: «حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ»^(٥) فأصل الحمد للنار، فالمستعار منه هو النار، والمستعار له هو القوم المهلكون، والجامع بينهما هو الهلاك.

ونحو قوله تعالى: «وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ»^(٦) فالمستعار منه هو الطائر، والمستعار له هو الولد، والجامع بينهما هولين العريكة وانحطاط الجانب، وهو معقول غير محسوس.

(٤) يونس: ٢٤.

(١) مريم: ٤.

(٥) الأنبياء: ١٥.

(٢) الذاريات: ٤١.

(٦) الإسراء: ٢٤.

(٣) يس: ٣٧.

ومن هذا قوله تعالى: «إِلَّا جَعَلْتُهُ كَالزَّمِيمِ»^(١) والرميم هو العظم البالي، استعير للإهلاك، والأمثلة في التنزيل أكثر من أن تُحصى بجانب الاستعارة.

الثاني: استعارة معقول من معقول بواسطة أمر معقول، وهذا كقوله تعالى: «مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا»^(٢) فالمستعار هو الرقاد، والمستعار له هو الموت، والجامع بينهما هو سكون الأطراف وبطلان الحركة.

وهكذا قوله تعالى: «وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ»^(٣) فوصف الغضب بالسكوت على جهة الاستعارة، فالمستعار هو السكوت، والمستعار له هو الغضب، والجامع بينهما هو زوال الغضب، كما أن السكوت زوال الكلام، وهذه كلها أمور عقلية.

ومن هذا قوله تعالى: «تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ»^(٤) فالتمييز هاهنا هو شدة الغضب، فالمستعار منه هو حالة الإنسان عند غضبه، استعيرت للنار عند شدة تلتهبها، والجامع بينهما هو الحالة المتوهمة عند شدة الغيظ، فهي مستعارة للنار، اللهم أجرتنا منها برحمتك الواسعة.

ومن هذا قوله تعالى: «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا»^(٥) ففيه استعارتان، الأولى منها: قوله تعالى: «وَقَدِمْنَا» فإنما يستعمل في حق الغائب، فاستعير لعرض أعمال الكفار على الله تعالى، والجامع بينهما أمر معقول، وهو تصييرها إلى البطلان والتلاشي. والثانية: قوله تعالى: «فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا» والهباء حقيقة الغبار الثائر من الأرض عند دخول الشمس من الكوة، وهو مستعار للأعمال الباطلة، والجامع بينهما هو التلاشي والبطلان، وهذان المثالان حسيان، لكننا إنما أوردناهما في هذا الضرب وإن كان استعارة

(٤) الملك: ٨.

(١) الذاريات: ٤٢.

(٥) الفرقان: ٢٣.

(٢) يس: ٥٢.

(٣) الأعراف: ١٥٤.

المعقول من المعقول، لِمَا كان الجامع بينهما أمراً معقولاً كما ترى.

الثالث: استعارة المحسوس للمعقول، ومثاله قوله تعالى: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ قَيْدَمَغُهُ»^(١) والغرض من هذا إثبات الصفات المحسوسة للأُمُور المعقولة على جهة الاستعارة، وبيانه هو أنَّ القذف والدمغ من صفات الأجسام، يُقال: دَمَغُهُ إذا هَاضَ قَحْفَ رأسه، وَقَذَفُهُ بالحجر إذا رَمَاهُ به، وقد استعير هاهنا للحقّ والباطل، والجامع بينهما هو الإعدام والذهاب.

ومن هذا قوله تعالى: «فَاصْذَعْ بِمَا تُؤْمَرُ»^(٢) والصدع من صفات الأجسام، يقال: انْصَدَعَ الإبريقُ والقارورة، وقد اسْتُعِيرَ هاهنا لوضوح أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به من الحق وإظهار النبوة، والجامع بينهما هو التفرقة بين الحق والباطل وإزالة التباس أحدهما بالآخر.

ومن هذا قوله تعالى: «وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ»^(٣) فالزَّلْزَلَةُ حقيقتها هي الاضطراب في الأجسام، وقد اسْتُعِيرَتْ هاهنا للَفْشَل والاضطراب في الأحوال، والجامع بينهما هو تَغْيِيرُ الأحوال.

وهكذا قوله تعالى: «فَنَبِّذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ»^(٤) فحقيقة النبذ إنما يكون مستعملاً في طرح الشيء من أعلى إلى أسفل، ثم استعمل مجازاً على جهة الاستعارة في إلقاء ما حُمِّلُوهُ من التكاليف عن أنفسهم بترك الامتثال، والجامع بينهما هو الإعراض عما أُلْزِمُوا به من تلك الأمور كلّها، إلى غير ذلك من الاستعارات الرائقة من محسوس بمعقول.

الرابع: استعارة المعقول للمحسوس، ومثاله قوله تعالى: «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ»^(٥) فالطغيان هو التكبر والاستعلاء بغير حق، وهما أمران

(٤) آل عمران: ١٨٧.

(٥) الحاقة: ١١.

(١) الأنبياء: ١٨.

(٢) الحجر: ٩٤.

(٣) البقرة: ٢١٤.

معقولان، ثم استعير الطغيان للماء، وهو محسوس، والجامع بينهما هو الخروج عن الحد في الاستعلاء على جهة الإضرار، ومن هذا قوله تعالى: «بريح صرصر عاتية»^(١) فالعتو هو التكبر، وهو من الأمور المعقولة، استعير هاهنا للريح، وهي محسوسة، والجامع بينهما هو الإصرار الخارج عن حد العادة، ولنقتصر على هذا القدر من لطيف الاستعارة، ففيه كفاية لِمَا أردناه هاهنا.

* * *

(النظر الثالث) في أسرار الكناية، اعلم أنّ الكناية في لسان علماء البيان ماعول عليه الشيخ عبد القاهر الجرجاني، وحاصل مقاله هو أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له بل يأتي بتاليه، فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه، وتلخيص مقاله هو اللفظ الدال على ما أريد به بالحقيقة والمجاز جميعاً، ومثاله قولهم: فلان كثير رماذ القدر، فإنّ هذا الكلام عند إطلاقه قد دلّ على حقيقته ومجازه معاً، فإنه دالّ على كثرة الرماد، وهو حقيقته، وقد دلّ على كثرة الضيفان، وهو مجازه، وهذا يخالف الاستعارة، فانك إذا قلت: جاءني الأسد، وأنت تريد الإنسان، فإنه دالّ على المجاز لا غير، والحقيقة متروكة، وهذه هي التفرقة بين الكناية والاستعارة.

والتفرقة بين التعريض والكناية، هو أنّ الكناية دالة على ما تدلّ عليه بجهة الحقيقة والمجاز جميعاً، بخلاف التعريض، فإنه غير دالّ على ما يدلّ عليه حقيقة ولا مجازاً، وإنما يدلّ عليه بالقرينة، فافترقا.

وأمثلة الكناية كثيرة في كتاب الله تعالى ولكننا نقتصر منها على قوله تعالى: «وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ»^(٢) فهذه الآية الكريمة قد اشتملت على أسرار في الكناية قد أشرنا

إليها ورمزنا إلى مقاصدها في قاعدة الكناية من الكتاب.

ومن ذلك قوله تعالى: «كَانَا يَا كُلَانِ الطَّعَامَ»^(١) فهو دالٌّ على ما وُضع له في أصله من إفادته لحقيقة الأكل، لكنّه مقصودٌ به قضاء الحاجة، وهو مجازٌ في حقّه، فلهذا قلنا بأن الكناية دالّة على حقيقة الكلام ومجازه.

ومن ذلك قوله تعالى: «وَأَوْرَثَكُمُ أَرْضَهُمْ وَدَيَارَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَّأُوهَا»^(٢) فقلوه: «وَأَرْضاً لَمْ تَطَّأُوهَا» كما يحتمل الحقيقة وهي الأرض المنبتة فهو يحتمل أن يراد به المجاز، وهو الفروج التي ملكهم إياها بالاسترقاق، فلهذا أحلّ الوطء، ويصدق هذه الكناية قوله تعالى: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَيْتُمُ»^(٣) فأما التعريض فهو كما أشرنا إليه دالٌّ بالقرينة وليس دالّاً على حقيقة ولا مجاز.

وهذا كقوله تعالى في قصّة إبراهيم عليه السّلام: «قَالُوا أَنْتَ فَاعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلُهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ»^(٤) فهذه الآية إنما وردت كناية وتعريضاً بحالهم، وتهكماً واستهزاءً بعقولهم، ولم يُرد إسناد الفعل إلى كبيرهم، فذلك مستحيلٌ لكونه جامداً، ولكنّه أراد التسفيه لحلومهم، والاستضعاف لعقولهم، كأنه قال: يا جهال البريّة كيف تعبدون ما لا يسمع ولا يعقل ولا يحيب سؤالاً ولا يحير جواباً، وتجعلونه شريكاً لخالق السماء والأرض في العبادة، فإن كان كما تزعمون فهو إنّما فعله كبيرهم «فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ».

ومن ذلك قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الظَّالِمُ

(١) البقرة: ٢٢٣.

(١) المائدة: ٧٥.

(٤) الأنبياء: ٦٢ و ٦٣.

(٢) الأحزاب: ٢٧.

والمطلوب. مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ»^(١) فهذه الآية إنما وردت على جهة التعريض بحال الكفار من عبدة الأوثان والأصنام، وأن من هذا حاله في الضعف والهوان والعجز كيف يستحق أن يكون معبوداً، وأن توجه إليه العبادة، وهو لا يستنقذ شيئاً من أضعف الحيوانات، ولا يقدر على دفعه لو أراد به سوء، فهذه في دلالتها على ماتدلّ عليه لم تُبق عليهم في النعي شيئاً، ولا تركت عليهم بقية في نقص عقولهم، والازدراء بأحلامهم، والتسفيه لما هم عليه من ذلك، فصدر الآية بما هو المقصود على جهة التأكيد بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» ولم يقل إن هذه الأوثان، تقريراً بالصلة والموصول لما هم عليه من اتخاذهم شركاء، واسم الأوثان والأصنام لا يؤدي هذا المعنى، ثم عقبها بالنفي على جهة التأكيد بـ(لن) في المستقبل بقوله: (لَنْ يَخْلُقُوا دُبَابًا) دلالة على العجز وإظهاراً في أن من هذا حاله فلا يستحق أن يكون معبوداً، ولا يستأهل الشركة في الإلهية، ثم بالغ في استحالة الخلق منهم للذباب بقوله تعالى: «وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ» لأنّ بالاجتماع تكون المظاهرة حاصلة، فإذا كان الإيأس من خلقه مع الاجتماع، فهو مع الانفراد أحقّ لاحالة، ثم أكد ذلك بقوله: «وإن يَسْلُبْهُمْ الدُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ» يشير بذلك إلى أنهم عاجزون عن خلق الذباب وتديره نهاية العجز، ويدلّ على ذلك أنهم لو أخذ منهم الذباب شيئاً على جهة السلب والاستيلاء ماقدروا على أخذه والانتصار منه.

وهذا هو النهاية في تقاصر الهمم وحقارتها وأنهم في الحقيقة جامعون بين خصلتين، كل واحدة منها كافية في العجز، فضلاً عن اجتماعهما، إحداهما: عدم القدرة على خلق الذباب، والثانية: عدم الانتصار منه إذا رام أخذ شيء منهم.

وخلاصة هذا الكلام وغايته: أنه يستحيل عليهم بإدخال النقص في خلومهم وضلالهم عن الحق فيما جاؤوا من عبادة هذه الأصنام، أن أذلّ المخلوقات وأحقرها وأضعفها حالة، وأصغرها حجماً، يقهرها ويسلبها ويأخذ متاعها لا تنتصر منه، وأدخل من هذا في العجز أنه قادرٌ على سلبهم فلا يمتنعون منه.

ثم قال: «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ» فعقب هذه الآية دلالة على الاستواء في الضعف بالإضافة إلى جلال الله تعالى وعِظَم قدرته، وأنَّ الكلَّ من الذباب والأصنام ضعيفةٌ حقيرة، بل لا تمتنع أن يكون الذباب أتمَّ خلقاً لكونه حيواناً قادراً، والأصنام جماداً لا حراكَ بها، ولا شكَّ أن خلق الحيوان أتمَّ من خلق الجماد وأكمل حالةً.

وحكي عن ابن عباس: أنهم كانوا يطلون الأصنام بالزعفران، ويضعون على رؤوسها العسل، فيأتي الذباب فيقع على رؤوسها من الكوى فلا تنتصر منه، ثم قال: «مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» في ادعاء الشركة بينه وبين الأصنام في استحقاق الإلهية والعبادة، فجعلها ختاماً لما قدّم من حكاية حالهم في نهاية الضعف والعجز.

ولنقتصر على هذا القدر من التنبيه على ما اشتملت عليه هذه الآية، وتحتها من الأسرار واللطافة، مالو ذكرناه لسودنا أوراقاً كثيرة ولم نذكر منه أطرافاً.

* * *

(النظر الرابع) في ذكر التمثيل، اعلم أن التمثيل نوعٌ من أنواع البيان. وهو مخالف للتشبيه، فإن التشبيه إنما يكون في المظهر الأداة، وهذا نوع من الاستعارة، وهو محدود من أنواع المجاز، وإنما قلنا إنه من الاستعارة من جهة أن الاستعارة حاصلةٌ فيه، وإنما تقع التفرقة من جهة أن الوجه الجامع إن كان منتزِعاً من عدة أمور فهو التمثيل، وإن كان مأخوذاً من أمر واحد فهو الاستعارة.

ثم إنه قد يتفاوت في الحسن، لأنه يستعمل على وجهين، أحدهما: أن لا يظهر وجه التشبيه في الاستعارة، بل يكون تقدير التشبيه فيها عسراً صعباً، فما هذا حاله يُعدُّ من أحسن الاستعارة.

وهذا كقوله تعالى: «فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ»^(١) وقوله تعالى: «وَأَخْفِضْ لَهَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ»^(٢) فما هذا حاله استعارة لا يظهر فيها وجه التشبيه، فلو أردت التكلف في إظهار وجه المشابهة لخرج الكلام عن حدّ البلاغة، وكلّمّا ازدادت الاستعارة خفاءً ازدادت حسناً ورونقاً، وهذا هو مَجْرَاهَا الواسع المطّرد.

وثانيهما: أن يكون هناك مشبّه ومشبّه به من غير ذكر أداة التشبيه، فما هذا حاله من الاستعارة دون الأول في الحسن. والتشيل في القرآن كقوله تعالى: «صُمُّ بُكْمٌ عُمَيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ»^(٣) فالآية إنما جاءت مَسْوَقة على أن حال هؤلاء الكفار قد بلغوا في الجهل المفرط والعمى المستحكم في الإصرار والجحود على ما هم عليه من الكفر والعناد، بمنزلة من هو أصمُّ أبكمُّ أعمى، فلا يهتدي إلى الحق ولا يترعوي عمّا هو عليه من الباطل.

ومنه قوله تعالى: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً»^(٤) فحاصل الأمر: أن كلَّ مَنْ انقاد لهواه وأعرض عن حكم عقله في كل أحواله وصار العقل مُنْقَاداً في حكمة الذلِّ مَوطُوءً بَقَدَمِ الهوى فإنه ينزل فيما هو فيه منزلة مَنْ خُتِمَ على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، فهو مُعْرَضٌ عمّا يأتيه من الحقّ صَادِقٌ عنه.

وهكذا قوله تعالى: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً»^(٥).

(٥) البقرة: ٧.

(٣) البقرة: ١٨.

(١) النحل: ١١٢.

(٤) الجاثية: ٢٣.

(٢) الإسراء: ٢٤.

فما هذا حاله معدود في التمثيل، وتقديره: أنهم لما نكصوا عن قبول الحق وأعرضوا عما جاء به الرسول من نور الهدى صاروا في حالتهم هذه بمنزلة من خُتِمَ على قلبه وسمعته وجُعِلَ على بصره غشاوة، فمن هذا حاله لاهتداء له إلى الحق ولا طريق إليه.

فهكذا حال التمثيل في جميع مجاربه يكون مخالفاً للتشبيه المظهر الأداة، ومخالفاً للاستعارة أيضاً، فيكون على ما ذكرناه من أحد نوعي الاستعارة، وهو الذي يكون الوجه الجامع منتزعا من عدة أمور. وإذا وقفت على حقيقة الأمر فيه فلا عليك في التلقيب، وفيما ذكرناه كفاية في التنبيه على ما أردنا ذكره من العلوم البيانية.

* * *

القسم الثالث من علوم البلاغة علم البديع:

اعلم أن هذا الفن من التصرف في الكلام مختص بأنواع التراكيب، ولا يكون واقعاً في المفردات، وهو خلاصة علمي المعاني والبيان ومُصااص سُكّرهما، وقد قرّنا فيما سبق ماهية الفصاحة والبلاغة، فأغنى عن ذكرهما. فلنذكر علم البديع وأسراره، وهي منقسمة إلى ما يكون متعلقاً بالفصاحة اللفظية، وإلى ما يكون متعلقاً بالفصاحة المعنوية، فهذان طرفان نذكر ما يتعلق بكل واحد منها من الأمثلة، والله تعالى الموفق للصواب.

الأول: في بيان ما يتعلق بالفصاحة اللفظية

اعلم أننا جعلنا هذا الطرف متعلقه الفصاحة اللفظية لما كان أمره وشأنه متعلقاً بالألفاظ ومُشاكلةً للكَلِمِ وازدواج الألفاظ، فلاجل هذا جعلناه متعلقاً باللفظ، وجملة ما نذكر من ذلك ضروب عشرة.

الأول منها: التجنيس، وهو على تنوعه عبارة عن اتفاق اللفظين في وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما، وهو عظيم الموقع في البلاغة، جليل القدر في الفصاحة، ولولا ذلك لما أنزل الله كتابه المجيد على هذا الأسلوب، واختاره له كغيره من سائر أساليب الفصاحة، ثم ينقسم إلى كامل وإلى ناقص، فالكامل هو أن تتفق الكلمتان في الوزن والحركات والسكنات، ويقع الاختلاف في المعاني.

ولم يقع في كتاب الله تعالى تجنيس كامل إلا في قوله تعالى: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ»^(١). وأما الناقص فأبنيته كثيرة ومضطرباته واسعة.

فنه التجنيس الناقص، وهو أن تكون إحدى الكلمتين مشتملة على لفظ الأخرى مع زيادة، ومثاله قوله تعالى: «وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقِ»^(٢) فزيادة الميم في المساق هو الذي أوجب كونه جناساً ناقصاً، وهذا يقال له (المذيل) أيضاً، ومنه (المصحف) وهو أن تتفق الكلمتان خطأً لالفاظاً، ومثاله قوله تعالى: «وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»^(٣).

ومنه (المضارع) وهو أن تتفق الكلمتان في حرف واحد، سواء وقع أولاً أو آخراً أو وسطاً، ومثاله قوله تعالى: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ»^(٤) فقد اتفق الأمر والأمن، في الهمزة والميم.

ومنه (المتوازن) وهو أن تتفق الكلمتان في الوزن وتختلفان فيما عداه، ومثاله قوله تعالى: «وَتَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ. وَزُرَابِي مَبْثُوثَةٌ»^(٥).

ومنه (المعكوس) ومثاله قوله تعالى: «كُلُّ فِي فَلَكٍ»^(٦) ومعنى العكس في

(٤) النساء: ٨٣.

(١) الروم: ٥٥.

(٥) الغاشية: ١٥ و ١٦.

(٢) القيامة: ٢٩ و ٣٠.

(٦) الأنبياء: ٣٣، يس: ٤٠.

(٣) الكهف: ١٠٤.

هذا أنه يُقرأ من آخره كما يُقرأ من أوله ونحو قوله تعالى: «وَرَبُّكَ فَكَبَّرُ»^(١) وقد يجيء العكس على غير هذا في الكلم في مثل قولهم (عاداتُ الساداتُ ساداتُ العادات).

ومنه (الاشتقائي) وهو أن تتفق الكلمتان في معنى واحد يجمعهما، ومثاله قوله تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ»^(٢) وقوله تعالى: «وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانُ»^(٣) وقوله تعالى: «فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»^(٤) ونحو قوله تعالى: «فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ»^(٥) فهذا ما أردنا ذكره من التجنيس.

الثاني: التسجيع، وهو في كتاب الله تعالى أكثر من أن يُعدَّ ويُحصى، وهو في النثر نظير التقفية في الشعر، ويردُّ تارةً طويلاً، وتارةً قصيراً، ومرةً على جهة التوسط، فهذه وجوهٌ ثلاثة:

أولها: القصير، كقوله تعالى في سورة المدثر: «وَرَبَّكَ فَكَبَّرُ. وَثِيَابَكَ فَطَهَّرُ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرُ»^(٦) إلى آخر الآيات بعد قوله: «يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ». وقوله تعالى: «وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى»^(٧).

وثانيها: الطويل، ومثاله قوله تعالى في سورة الملوك: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ. الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ»^(٨).

وثالثها: أن يكون متوسطاً، ومثاله قوله تعالى: «لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مَنْ

(١) المدثر: ٣. (٥) الواقعة: ٨٩.

(٢) الروم: ٤٣. (٦) المدثر: ٣ - ٥.

(٣) الرحمن: ٥٤. (٧) النجم: ١ - ٤.

(٤) الروم: ٣٠. (٨) الملوك: ٢ و ٣.

ضَرِيعٌ. لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ»^(١) وقوله تعالى: «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ»^(٢).

وأكثر العلماء على حُسن استعماله، ولهذا وَرَدَ القرآن على استعماله، ومنهم مَنْ أنكره.

ثم إن الفواصل التي تكون مقررة عليها الآي أقلها فاصلتان، ويردان على أوجه ثلاثة:

(أولها) أن تكونا متساويتين في أنفسهما من غير زيادة ولا نقصان، وهذا كقوله تعالى: «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا»^(٣). وقوله تعالى: «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ»^(٤).

(وثانيها) أن تكون الفقرة الثانية أطول من الأولى، ومثاله قوله تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا. إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا. وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّرِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا»^(٥) فالثانية كما ترى أطول من الأولى.

(وثالثها) عكس هذا، وهو أن تكون الثانية أقصر من الأولى، وهو معيب عند جماهير أهل هذه الصناعة، ولا يكاد يوجد من هذا الضرب شيء في القرآن، وإنبا أكثر وروده على الوجهين الآخرين.

الثالث: لزوم ما لا يلزم، ويقال له الإعنات أيضاً، وقد ورد في كتاب الله تعالى، وحاصله أن يلتزم الناثراً حرفاً مخصوصاً مع اتفاق الكلمتين في الإعجاز، ومثاله قوله تعالى: «وَالطُّور. وَكِتَابٍ مَسْطُور»^(٦) فالتزم وجود الواو مع التزام الراء في آخر السجعتين.

(١) الغاشية: ٦ و ٧.

(٤) الضحى: ٩ و ١٠.

(٢) الغاشية: ١٧ و ١٨.

(٥) الفرقان: ١١ - ١٣.

(٣) العاديات: ١ - ٣.

(٦) الطور: ١ و ٢.

ونحو قوله تعالى: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ»^(١) وقوله تعالى: «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ»^(٢) وقوله تعالى: «فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ»^(٣).

وهو كما يرد في النثر، فهو واردٌ في النظم.

الرابع: برء العجز على الصدر، وهو أن يأتي في آخر الكلام بما يوافق أوله، ومثاله قوله تعالى: «وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ»^(٤) وقوله تعالى: «لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى»^(٥) فهذه أمثلة لرد العجز على الصدر مع الزيادة، وقد يكون الاتفاق على جهة المساواة، كقولهم: الحيلة ترك الحيلة، والقتل أنفى للقتل.

الخامس: المطابقة، ويقال له: الطباق أيضاً، والتضاد، والتكافؤ، والمقابلة، وحاصله الإتيان بالنقيضين والضدين.

ومثاله قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ»^(٦) فانظر إلى ما تضمنته هذه الآية من المقابلات الحالية، والمتضادات المتكافئة. فالأمر قد اشتمل على ثلاث مقابلات، والنهي قد اشتمل على عكسها وضدها، ثم إن الأمر في نفسه يقتضي النهي كما ترى.

وقوله تعالى: «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»^(٧) فالأمر يقتضي النهي، والعبادة نقيضها الشرك، إلى غير ذلك من التقابل العجيب الذي اشتمل عليه القرآن.

(٥) طه: ٦١.

(١) العلق: ١ و ٢.

(٦) النحل: ٩٠.

(٢) الضحى: ٩ و ١٠.

(٧) النساء: ٣٦.

(٣) الواقعة: ٢٨ و ٢٩.

(٤) الأحزاب: ٣٧.

السادس: الترصيع، وهو من علم البديع بمحلّ ومكان رفيع، ولم يرد في القرآن شيء منه على علوّ قدره وظهور بلاغته، وهو قليلٌ نادرٌ لصعوبة الأمر فيه، ولولا ماورد من اختلاف الجمعين في الأبرار والفُجّار وفي قوله: «لني نعيم» لكان ترصيعاً في قوله تعالى: «إِنَّ الْأَبْرَارَ لَنِي نَعِيم. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَنِي جَحِيم»^(١) فإنه لو أبدل الفُجّار بلفظ يوازن الأبرار وأبدل لفظ في لكان ترصيعاً، لكن لما ورد هكذا لم يُعدّ ترصيعاً، فلوقال مثلاً: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَنِي نَعِيم، وَإِنَّ الْأَشْرَارَ لَمَن جَحِيم، لكان ترصيعاً، ولكنه جمع الفُجّار للكثرة، وجمع الأبرار للقلّة، فأخرجه عما يرد من الترصيع تنبيهاً على قلّة أهل الإيمان وكثرة أهل الفجور، وقد عرفت مثاله لوورد على ماقلناه.

السابع: اللفّ والنشر، وهو ذكر الشئين على جهة الاجتماع مطلقين من غير تقييد، ثم يرمي بما يليق بكل واحد منها اتكماً على قريحة السامع، بأن يُلحق بكل واحد منها ما يستحقّه، ومثاله قوله تعالى: «وَمَن رَّحِمَ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ»^(٢) فجمع أولاً بين الليل والنهار بواو العطف، ثم إنه بعد ذلك أضاف إلى كل واحد منها ما يليق به، فأضاف السكون الى الليل، من جهة أنّ تصرف الخلق يقلّ ليلاً لأجل مايعترهم من النوم، ثم قال بعد ذلك «وَلَتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ» أضافه إلى النهار، لأنّ ابتغاء الأرزاق إنّما يكون نهراً بالتصرف والاحتياال، واكتفى في البيان والتفصيل بمايظهر من قرينة الحال في معرفة حكم كل واحد منها كما مرّ بيانه.

الثامن: الموازنة، وهو اتفاق آخر الفقرتين في الوزن، وإن لم يتجانسا في الأحرف، ومثاله قوله تعالى: «وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ»^(٣) فقوله: المستبين، والمستقيم، وزنهما واحد كما ترى، ونحو قوله

(٣) الصّاقات: ١١٧ و ١١٨.

(٢) القصص: ٧٣.

(١) الانفطار: ١٣ و ١٤.

تعالى: «لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا»^(١) ثم قال بعد ذلك «وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدْقًا»^(٢) فالعز والصدق مستويان في الزنة، وهكذا قوله تعالى: «تَوَرَّطَهُمْ أَزْرًا»^(٣) مع قوله: «إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا»^(٤) وهو كثير الورد في كتاب الله تعالى.

التاسع: المقابلة، وحاصلها مقابلة اللفظ بمثله، ثم هي تأتي على وجهين أحدهما: مقابلة المفرد بالمفرد، ومثاله قوله تعالى: «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ»^(٥) وقوله تعالى: «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ»^(٦) وقوله تعالى: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا»^(٧).

وثانيهما: مقابلة الجملة بالجملة، ومثاله قوله تعالى: «وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»^(٨) وقوله تعالى: «قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي»^(٩) فما هذا حاله من المقابلة في الوجهين جميعاً له حظ في البلاغة، ومقصده عظيم، لا يخفى على من له أدنى ذوق مستقيم.

العاشر: الترديد، وفائدته أن تُورد اللفظة لمعنى من المعاني، ثم تَرُدُّهَا بعينها وتُعلّق بها معنى آخر، ومثاله قوله تعالى: «حَتَّى نُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ»^(١٠) وهو كثير دَوْرُهُ في المنظوم والمنثور من كلام الفصحاء، وقد يحصل في مصراع واحد كما قال بعض الشعراء:

لَيْسَ بِمَا لَيْسَ بِهِ بِأَشْ بَاسٍ وَلَا يَضُرُّ الْمَرْءَ مَا قَالَ النَّاسُ
فانظر إلى تكرير هذه اللفظة وترديدها، وإفادتها لمعاني مختلفة، ولتقتصر على هذا القدر من الفصاحة اللفظية.

(١) مريم: ٨٠.

(٢) الروم: ٤٤.

(٢) مريم: ٨١.

(٣) الشورى: ٤٠.

(٣) مريم: ٨٣.

(٤) آل عمران: ٥٤.

(٥) مريم: ٨٤.

(٦) سبأ: ٥٠.

(٤) مريم: ٨٤.

(٧) الأنعام: ١٢٤.

(٥) الرحمن: ٦٠.

الطرف الثاني: في بيان مايتعلق بالفصاحة المعنوية

وإنما أوردنا هذا بياناً للفصاحة المعنوية لما كان متعلقاً بالمعاني دون الألفاظ، وجملة مانورده من ذلك ضروبٌ عشرة، ففيها كفاية في غرضنا.

الأول: التتميم، وهو الإتيانُ بجملة عقيب كلامٍ متقدّمٍ لإفادة التوكيد له والتقرير لمعناه، ومثاله قوله تعالى: «ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ»^(١) فقوله: «وَهَلْ نُجَازِي» إنَّما ورد على جهة التوكيد لما مضى من الكلام الأول، وقوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ» ثم قال: «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ»^(٢) فأورده على جهة توكيد الكلام الأول، ثم قال: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ»^(٣) تأكيداً ثانياً لما سلف من الجملة الأولى، والله أعلم بالصواب.

الثاني: الائتلاف والملاءمة، وهو أن يكون اللفظ ملائماً للمعنى، فإذا كان الموضع موضعاً للوعد والبشارة كان اللفظ رقيقاً، ومثاله قوله تعالى: «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ»^(٤) وقوله تعالى: «نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ»^(٥) فانظر إلى هذه الألفاظ كيف رقت وكان فيها من السلاسة ما لا يخفى، وإذا كان الموضع موضعاً للوعيد والندارة كان اللفظ جزلاً، ومثاله قوله تعالى: «وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا»^(٦) وقوله تعالى: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ»^(٧) فانظر إلى التفاوت بين المقامين في الجزالة والرقّة،

(٥) الصف: ١٣.

(٦) الأنعام: ٢٧.

(٧) القصص: ٦٢ و ٧٤.

(١) سبأ: ١٧.

(٢) الأنبياء: ٣٤.

(٣) الأنبياء: ٣٥.

(٤) التوبة: ٢١.

وكلُّ واحد منها مُلائمٌ للمعنى الذي جيء به من أجله، وهكذا تجد ألفاظ القرآن على هذه الصفة، وهذا إنما يُدرك بالقريحة الصافية والذوق السليم.

الثالث: الجمع والتفريق، وهما أيضاً من أوصاف البلاغة، فأما الجمع فكقوله تعالى: «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ»^(١) وقوله تعالى: «الْمَسَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ»^(٢) فهذه الأمور قد جمعها. وأما التفريق فكقوله تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ... وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ»^(٣) وقوله تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ... وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ»^(٤) إلى غير ذلك من أفانين الجمع والتفريق، وهما كثيرا الورود في كتاب الله تعالى.

الرابع: التهكم، وهو إنما يكون عن شدة الغضب، ومثاله قوله تعالى: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»^(٥) فالبشارة إنما تُورد في الأمور السارة اللذيذة، وقد أوردناها هنا في عكسها تهكماً بهم وغضباً عليهم، ونحو قوله تعالى: «إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ»^(٦) فالغرض من مقصودهم إنك السفیه الجاهل، ولكنهم أخرجوه على هذا المخرج تهكماً به، وإنزالاً لدرجته عندهم، ووروده في القرآن أكثر من أن يُحصى على أفانين مختلفة، وقد أشرنا إليها فيما سبق.

الخامس: التسجيل، وهو عبارة عن تطويل الكلام لإفادة مدح أو ذم، ومثاله الآيات الواردة في عبدة الأوثان والأصنام، فإنَّ الله تعالى ما ذكرهم إلا وسجل عليهم بالنعي لأفعالهم، والذم لمقالتهم، والاستهجان لعقولهم، والإنزال لدرجاتهم، وهذا كقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ

(٤) آل عمران: ١٠٦ و ١٠٧.

(١) آل عمران: ١٤.

(٥) آل عمران: ٢١، التوبة: ٣٤، الانشقاق: ٢٤.

(٢) الكهف: ٤٦.

(٦) هود: ٨٧.

(٣) هود: ١٠٦ - ١٠٨.

أمثالكم»^(١) وقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ»^(٢) فهذا كله مثال في تسجيل الذم.

وأما التسجيل في المدح، فكالأوصاف التي ذكرها الله وأطنب في شرحها في حق أهل الإيمان، كآليات التي في فواتح سورة البقرة في صفة المتقين^(٣)، والآيات التي في صدر سورة المؤمنين^(٤)، فهذا كله معدود في التسجيل.

السادس: الإلهاب والتهيج، وهما عبارتان عن الحث على الفعل لِمَنْ لَا يَخْلُوعَنِ الْإِيْتَانِ بِهِ، وعلى ترك الفعل لِمَنْ لَا يَتَصَوَّرُ مِنْهُ تَرْكُهُ، ومثاله قوله تعالى: «لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ»^(٥) وقوله تعالى: «بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ»^(٦) «فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ»^(٧) وقوله تعالى: «فَاقِمِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً»^(٨) وقوله: «فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ»^(٩) وقوله تعالى: «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْبَاجِلِينَ»^(١٠) فهذا كله وإرد على جهة الحث لرسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم والتحذير له عن مَوَاقِعِ هذه الأفعال.

السابع: التلميح، وهو عبارة عن الإشارة في أثناء الكلام إلى الأمثال السائرة، ومثاله قوله تعالى: «كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ»^(١١) وقوله تعالى: «فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ»^(١٢) وقوله: «كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً»^(١٣) فما هذا حاله إذا ورد في

(٨) الروم: ٣٠.

(١) الأعراف: ١٩٤.

(٩) هود: ١١٢.

(٢) الحج: ٧٣.

(١٠) الأنعام: ٣٥.

(٣) البقرة: ٣-٥.

(١١) العنكبوت: ٤١.

(٤) المؤمنون: ٢-١٤.

(١٢) الأعراف: ١٧٦.

(٥) الزمر: ٦٥.

(١٣) الجمعة: ٥.

(٦) الزمر: ٦٦.

(٧) الزمر: ٢.

الكلام فإنه يكسبه بلاغة ورشاقة، ويزيده وضوحاً، وبصير كالشامة في بدن الإنسان ويزيده في الأذهان قبولاً ونضارة.

الثامن: جودة المطالع والاستفتاحات للكلام، اعلم أن ما هذا حاله تتفاوت الناس فيه كثيراً، فإنه إذا كان حسناً كان مفتاحاً للبلاغة وديباجة للبراعة، ولهذا فإنك تجد الافتتاحات في القرآن الكريم على أحسن ما يكون وأبلغه، للملاءمة المقصود بالسورة من إيقاظ كقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ، يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ»^(١) وغير ذلك، أو بشارة كقوله تعالى: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ»^(٢) أو إنذار كقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ»^(٣) وهكذا جميع السور فإنها دالة على المقصود في الابتداء.

التاسع: التخلص، وهو عبارة عن الخروج إلى المقصد المطلوب عقيب ما ذكره من قبل، ومثاله قوله تعالى في سورة المدثر: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ»^(٤) ثم تخلص بعد ذلك إلى ما هو المقصود بقوله: «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً»^(٥) فلما اتعظ الرسول بالأمر بالإنذار عقبه بالوعيد الشديد للوليد بن المغيرة بقوله: «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً» إلى آخر الآيات، وهكذا في كل سورة تجده يتخلص إلى المقصود بأعجب خلاص، كما قال تعالى في سورة النور: «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا»^(٦) ثم تخلص يذكر حكم الزانية والزاني إلى ما هو المقصود بعدما قدم ما قدمه من ذكر السورة المفروضة المحكمة.

العاشر: الاختتامات، وهو عبارة عن توخي التكميل ختم كلامه بما يُشِيرُ بالنجاح والتمام لغرضه، وهذا تجده في القرآن على أحسن شيء وأعجبه، فإن

(٤) المدثر: ١ و ٢.

(١) وهي فواتح سور: المزل، المدثر، النساء، الأحزاب.

(٥) المدثر: ١١.

(٢) المؤمنون: ١.

(٦) النور: ١.

(٣) الحج: ١.

الله تعالى ختم سورة البقرة بالدعاء والإيمان بالله تعالى والتصديق لرسله، وختم سورة آل عمران بالتنبيه على النظر في المخلوقات والأمر بالصبر والمُصابرة والمرابطة، إلى غير ذلك من جميع السور، فإنك تجدها ملائمة، وتجذ المظالم والمقاصد والخواتيم كلها مسوقة على أعجب نظام وأكمل، ولنتقصر على هذا القدر من تعريف ما وقع من علم البديع في كتاب الله تعالى.

خاتمة لما أوردناه في هذا الفصل

اعلم أن المقصود بما ذكرناه هو بيان أن القرآن في أعلى طبقات الفصاحة، وقد مهّدا طريقه، وذكرنا أنه حاصل على الوجوه الثلاثة بالبلاغة والأسرار المتعلقة بالفصاحة بحيث لا تُتصوّر في غيره إلّا وهي فيه أتم وأخلق، ولا توجد في غيره إلّا وهي فيه أقدم وأسبق، وما ذاك إلّا لأنه لم تُصغ أسلأت الألسنة، ولا أنضج بنار الفكرة، وإنّا هو كلام سماوي ومعجز إلهي، مازالت رحال الخواطر الذكية معقولة بفنائه لتطلع على رُموزه، وما برحت الأنظار الصافية مأسورة في رق ملكه لتقع على أدنى جوهر كنوزه، فأبى الله من ذلك إلّا ماسح به للخاصة من أوليائه، والمَرْمُوقِينَ بعين المحبة والمودة من أصفياه، الذين شغلوا أنفسهم وأتعبوا خواطرهم في إدراك سرّه وتحقيقه، وتعطشوا لتل محزون تلك الأسرار، فسُقُوا مِنْ صَفْوَرَحِيْقِهِ وَجَهَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي إِدْرَاكِهَا، وَأَظْمَأُوا هَوَاجِرَهُمْ فِي طَلَبِهَا حَتَّى صَارُوا أُمَّةً مَقْصُودِينَ وَسَادَةً مَعْدُودِينَ «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ»^{(١)(٢)}.

إلى هنا تم ما أردنا نقله من تحقيق الإمام الزيديّ حول فصاحة كتاب الله العزيز الحميد، فشكر الله سعيه.

رسالة الزمخشري

في إعجاز سورة الكوثر

رأينا من المناسب هنا إيراد رسالة في إعجاز سورة الكوثر، للعلامة جارا لله الزمخشري (المتوفى سنة ٥٢٨هـ) مع مقدمة في إعجاز القرآن الكريم وفضل اللسان العربي، كتبها جواباً عن أسئلة وشُبه بعثها إليه صديق له سائلاً إياه الإجابة عليها. وقد كان في السؤال والجواب دلائل ومساائل بشأن إعجاز القرآن ومختلف الآراء فيه، لا تخلو من فوائد جليلة وعوائد جميلة، قد أدلى الزمخشري برأيه الحاسم في المسألة، كاشفاً عن وجه النقض على سائر الآراء بصورة بديعة، على أسلوبه الأدبي الرفيع.

وكانت أصل النسخة محفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق، فاستنسخ منها صديقنا العلامة السيد عبدالعزيز الطباطبائي بتاريخ ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٨٣هـ نسخته التي سمح بطبعها بتحقيق الأستاذ حامد الحقفاف في ٢١ رجب ١٤٠٨ في النشرة الفصلية التي تصدرها مؤسسة آل البيت لإحياء التراث في عددها الرابع (١٣) من السنة الثالثة - شوال ١٤٠٨هـ.

وإليك نصّ الرسالة المبعوثة إلى العلامة الزمخشري من بعض معاصريه، التي كانت رسالته التالية إجابةً عليها وبياناً لما تضمنته من شبه وإيرادات:

بسم الله الرحمن الرحيم

ساعات سيّدنا الإمام الزاهد الحبر العلامة جارا لله شيخ العرب والعجم،

أدام الله إمتاع المسلمين ببقائه، وإن كانت مقصورة على الاستعداد للمعاد، مستغرقة في إتعاب خاطره الوقاد في فنون الاجتهاد، لا يفرط طرفة عَيْن عن تصنيف ينفث فيه سحره، ويلفظ للغواصين فيه دَرَه، بعد أن جشم خاطره في «الكشاف عن حقائق التأويل» وأجال رويته في البحث عن وجوه التأويل، مدبباً في الفكر مطاياها، متغلغلاً في علم البيان إلى زواياه وخباياه، حتى ارتفع كتاباً ساطعاً بياناً، جلياً برهانه، مشحوناً بفوائد لا يدركها الإحصاء، ومحاسن لا يقصرها الاستقصاء، لكتبه مع هذا يُتَوَقَّع من دينه المتين وفضله المبين أن يتصدَّق على معشر الداعين لأَيَّامه، الشاكرين لإنعامه، بالجواب عن اعتراضات تنزاح بسببه شُبَّه المرتابين، ليتوصلوا بنتائج خاطره، وبركات أنفاسه، إلى ثلج الصدور وبرد اليقين، والله تعالى وليّ توفيقه في مايكسبه جزيل المثوبة في العقبى، وحسن الاحدوثة في الدنيا، إن شاء الله.

فنها: سأل سائلٌ فقال: ذكرتم أنَّ لغة العرب لها من الفضيلة ما ليس لسائر اللغات، فقلتم قولاً غفلاً ساذجاً من غير أن تشيروا إلى بيان وجه التفضيل، وتبينوا الخواص التي لأجلها أحدث وصف الفضيلة والشرف، وتعدوها فصلاً فصلاً، وتشيروا إليها شيئاً فشيئاً، وما أنكرتم على من قال لكم: إنَّ لغة العرب وغيرها من اللغات المختلفة كالسريانية والعبرانية والهندية والفارسية كلها على السواء، لافضيلة لبعضها على البعض، وإنما هي مواضع ورسوم واصطلاحات وضعت لأجيال الناس للإفهام والإعلام، لتكون دلالات على المقاصد والأغراض.

وذكرتم أنَّ في لغة العرب دقائق وأسراراً لا تنال إلّا بمجهود التأمل وفرط التيقُّظ، فلا يخفى أنَّ هذه الأسرار والدقائق لا يمكن دعواها في الأسماء المفردة والأفعال المفردة والحروف المفردة، وإنَّما يمكن دعوى هذه الأسرار على تقدير ارتباط الكلم، وجعل بعضها يتصل بسبب بعض وينتظم، ومثل هذا موجود في

كل لسان إذا ربطت بعض الكَلِم ببعض، وراعت في ربطها الأليق فالأليق، حصل لك المقرّر والمقصود، وقارن في هذه القضية لغة العرب وغيرها من اللغات على السواء.

ومنها: أنه لا يخفى أنّ القرآن سيّد معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام، والعلم بكونه معجزاً علم ضروريّ، ولكنّ الشأن في بيان إعجازه.

فمن قائل يقول وهو النظام ومن تبعه: إنّ الآية والأعجزية في القرآن اختصاصه بالإخبار عن الغيوب بما كان ويكون، وبمنع الله العرب أن يأتوا بمثله. قال: وأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد، لولا أنّ الله تعالى منعهم وأعجزهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم.

ومن قائل يقول: وجه الإعجاز في القرآن أنه أسلوب من أساليب الكلام، وطريقة ما عهدتها العرب ولا عرفوها، ولم تكن مقدورة لهم.

ومن قائل يقول: وجه الإعجاز فيه علمنا بعجز العرب العاربة عن أن يأتوا بمثله، وتركهم المعارضة مع تكرار التحدي عليهم وطول التقريع لهم، فإذا عجز العرب عن ذلك فنحن أولى بالعجز.

ومن قائل يقول: وجه الإعجاز فيه هو ما اختصّ به من الفصاحة والبلاغة التي بهرهم عند سماعها، وطأطأوا رؤوسهم عند طروقها، وعليه الأكثرون.

فإن عسى اعترض المعترض وقال: ماذا أعجزهم؟ وماذا أبهرهم؟ ألفاظ القرآن أم معانيه؟!

إن قال: أردت الألفاظ مع شيء منها لا يجب فضل البتة على تقدير الانفراد، لأنّ الألفاظ [لا] تراد لنفسها، وإنّما تراد لتجعل دلالات على المعاني، ولأنّ الألفاظ التي نطق بها القرآن ليست إلّا أسماءً وأفعالاً وحروفاً مرتبطاً بعضها ببعض، ويستعملونها في مخاطباتهم، وكذلك الجمل المنظومة.

وإن قال: أعجزهم المعاني، يقال له: أليس أنّهم كانوا أرباب العقول

وأهل الحِجَى، يدركون غوامض المعاني بأفهامهم، ولهم المعاني العجيبة، والتمثيلات البديعة، والتشبيهات النادرة.

وإن قال: بهرهم النظم العجيب، يقال له: أليس معنى النظم هو تعليق الكلِم بعضها ببعض، وهي الأسماء والأفعال والحروف، ومعرفة طرق تعلّقها كتعلّق الاسم بالاسم، بأن يكون خبراً عنه أو صفةً له أو عطف بيان منه، أو عطفًا بجرف عليه، إلى ما شاكلة من سعة وجوهه، وكتعلّق الاسم بالفعل، بأن يكون فاعلاً له، أو مفعولاً، إلى سائر فروعه وأتباعه، وكتعلّق الحرف بهما كما هو مذكور في كتب النحو، وهم كانوا يعرفون جميع ذلك، وكانوا يستعملونه في أشعارهم وخطبهم ومقاماتهم، ولو لم يعرفوا وجوه التعلّق في الكلِم ووجوه التمثيلات والتشبيهات لَمَا تَأَتَّى لَهُمُ الشعر الذي هو نفث السحر.

فحين تَأَتَّى لهم ذلك، ومع هذا عجزوا عن المعارضة، دلّ على أنّ الله تعالى أحدث فيهم عجزاً ومنعاً.

قال: ولأنّ الإعجاز في القرآن لو كان لمكان اختصاصه بالفصاحة والبلاغة لنزل القرآن من أوّله إلى آخره في أعلى مراتب الفصاحة، ولكان كلّه على نسق قوله تعالى: «وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيَضَ الْمَاءُ...»^(١). وليس كلّه نزل على هذا النسق، بل فيه ما هو في أعلى مراتب الفصاحة كما ذكرنا، وما هو دونه كقوله تعالى: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ»^(٢) و«إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ»^(٣) و«قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ»^(٤).

ولأنّ الحال لا تخلو إِمّا أن يقال: لارتبة في الفصاحة أعلى من رتبة القرآن، كما ذهب إليه بعض أهل العدل، فقالوا: لو كان في المقدور رتبة أعلى منها

(٣) النصر: ١.

(١) هود: ٤٤.

(٤) الكافرون: ١.

(٢) المسد: ١.

لأنزل الله سبحانه وتعالى عليها القرآن، إذ لا يحسن أن يقتصر المكلف على أدنى البيانين مع قدرته على أعلاهما، ولأنّ في أعلى البيانين وجه الدلالة على صدق الرسول أقوى.

وإما أن يقال بأنّ القرآن وإن كان فصيحاً بليغاً في مقدور الله تعالى ما هو أعلى منه مرتبة في الفصاحة. فيقول المعترض: فهلاً أنزله من أوله إلى آخره على أعلى مراتب الفصاحة التي ليس وراءها منتهى.

قال: فهذا دليل على أنّ العُمدة في الإعجاز ليس اختصاصه بالفصاحة والبلاغة، لكن عجز ومنع أحدثهما الله تعالى فلم يشغلوا بالمعارضة. ومنها: أنّ الله تعالى أنزل القرآن وأودع فيه من العلوم ما عليم أنّ حاجة الخلق تمسّ إليه إلى قيام الساعة، لاجرّم بذل العلماء في كل نوع منه مجهودهم، واستفرغوا فيه جهدهم ووسعهم، فأهل الكلام - خصوصاً أهل العدل والتوحيد - استظهروا في مذهبوا إليه من العدل والتوحيد بالآيات الواردة فيه على صحّة ما اعتقدوه، وعلى [إبطال] ما ذهب إليه أهل الأهواء والبدع وفساد ما انتحلوا.

وأهل الفقه غاصوا في بحور النصوص فاستنبطوا منها المعاني وفرّعوا الأحكام عليها.

وأهل التأويل خاضوا في محكمها ومتشابهها، ومجملها ومفصلها، وناسخها ومنسوخها.

وأهل النحو بسطوا الكلام في تصانيفهم بسطاً، فكل أنفق على قدر مارزق، ثم لم يبلغنا عن واحد منهم أنّه شمّر ذيله وأدّرع ليله^(١) في بيان وجه الإعجاز على التفصيل سورة فسورة وآية فأية، فابتدأ مثلاً بفاتحة الكتاب،

(١) يقال: «شمّر ذيلًا وأدّرع ليلًا» أي استعمل الحزم وأتخذ الليل جلاً.

فكشف عن وجه الإعجاز في ثلاث آيات منها، ثم ترقى إلى ثلاث آيات أخرى، فكشف عنها أيضاً وجه الإعجاز إلى أن ينتهي إلى آخرها، مع شدة الحاجة إلى ذلك في كل زمان، إذ حجة الله تعالى قائمة، ومعجزته على وجه الدهر باقية. وكذلك لم ينقل أنهم صَنَّفُوا في هذا الباب على هذا الوجه تصنيفاً مع تهالكهم ولولعهم، والعجب أنهم صَنَّفُوا في حُلِيِّ الصحابة والتابعين وهيئاتهم، فذكروا الطوال منهم والقصار، ومن ابتلي منهم بالعمى والقور والعرج والعجمة والزمانة والشلل، مع أن بالخلق مندوحة وغنية عن ذلك.

وهذا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ صَنَّفَ كتاباً في الجدِّ والهزل تكاد لا تُعدُّ ولا تُحصى^١، فصَنَّفَ كتاباً سَمَّاه «الْقَعْرَةَ وَالشَّفِيرَةَ»^(١) وآخر سَمَّاه «مفخرة الشتاء والصيف» إلى أشياء هذا كثيرة، صعد فيها وصوب، وشرق وغرب، وحشاها بما لاحاجة للخلق فيه إلى معرفته. ثم لما آل الأمر إلى بيان وجه الإعجاز على التفصيل آية فآية وسورة فسورة، ضَمَّ شفتيه ضمّاً، وختم على لسانه ختماً، فلم ينبس بكلمة أو كلمتين ورضي من الغنيمة بالإياب^(٢).

وإذ صَحَّ أَنَّ السلف رحمهم الله مع تقدّم الخواص منهم في علم البيان، والتبحر في الإحاطة بمقائق المعاني، وصدق رغبتهم في إحراز الثواب، وحاجتهم إلى أن يكون لهم لسان صدق في الآخرين ممرّ الأحقاب، لم يشتغلوا ببيان الإعجاز على التفصيل في كلّ آية منه، بل أعرضوا عن ذلك بواحدة مع أنهم

(١) امرأة قعر وقعيرة: بعيدة الشهوة، عن اللحائي. وقيل: هي التي تجد الغُلمة في قعر فرجها. وقيل: هي التي تريد المبالغة. وقيل: نعت سوء في الجماع.

والشفيرة والشفيرة من النساء: التي تجد شهوتها في شفرها فيجيء ماؤها سريعاً. وقيل: هي التي تقنع من النكاح بأيسره، وهي نقيض القعيرة.

(٢) مثل سائر، أول من قاله امرؤ القيس بن حجر في بيت له، وهو: وقد طَوَّقْتُ في الآفاق حتى رضيتُ من الغنيمة بالإياب

يضرب عند القناعة بالسلامة. «مجمع الأمثال ١: ٢٩٥/١٥٦٠».

أشاروا إلى ذلك على سبيل الإجمال، والحال لا تخلو إماماً أن يقال خفي عليهم وجه الإعجاز على التفصيل على هذا الوجه فلم يَقِفُوا عليه ولم يَهْتَدُوا إليه، أولاً.
فإن قيل: خفي عليهم ولم يَقِفُوا عليه ولم يجدوا طريقاً إليه. فيقال: إذاً مؤونة البحث والتنقيب عنهم ساقطة، ووجوه العذر لهم في الإعراض عن ذلك ظاهرة. ولئن لم يخفَ عليهم فَلَيْمَ لَمْ يصرفوا معظم همهم إلى هذا الأمر العظيم، والخطب الجسم، فيصنفوا ويشرحوا كما صنفوا في فروع الأحكام من الحلال والحرام، وصنفوا في فروع الكلام، فلم يبق إلّا أن يقال: أحدث في الكلّ منعاً منعه عن ذلك لمصلحة رآها فيه.

فهذه عدة أسئلة فليتنفّض أدام الله علوه بالإجابة عنها، والله يعصمه من الخطأ والزلل، ويوفقه لإصابة القول والعمل، إنّه على ما يشاء قدير. (تمت).

بسم الله الرحمن الرحيم

نَمَقَّتْ يَدُ الْإِخ فِي اللَّهِ الْإِمَام الصَّمصَمَام زَادَهُ اللَّهُ فِي الدِّين طَمَأْنِينَةً وَثَلَجاً^(١)، وفي مواقف الجدل فوزةً وفلجاً^(٢)، صحيفة قداحتني في تجويدها وترتع، وتبدع في إنشائها وتبرّع، ولم يألها تمليحاً وترشيحاً، وما أذخر عنها توشيحاً وتطويقاً، وخرّج سؤالات لو صكّ بها ابن الأهمّ لهُتِمَت أسنانه^(٣)، أو

(١) يقال: ثلجت نفسي بالأمر تثلج ثلجاً، وثلجت تثلج ثلجاً إذا اطمأنت إليه وسكنت، وثبت فيها ووثقت به «النهاية - ثلج - ١: ٢١٩».

(٢) الفالغ: الغالب أو المنتصر، أنظر «النهاية - فلج - ٣: ٤٦٨».

(٣) صكه ضربه شديداً، ومنه قوله تعالى: «فصكّت و-بها». وابن الأهمّ هو عمرو بن سنان الأهمّ، وإنّا لقّب أبوه سنان بالأهمّ لأنّه هتمت ثنيته يوم الكلاب أي كسرت، يقال: هتمت الثنية إذا كسرتها، وهتمت هي إذا انكسرت.

وعمره هذا من أكابر سادات بني تميم وشعرائهم وخطبائهم في الجاهلية والإسلام، وهو بليغ القول فصيح العبارة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ من البيان لسحراً» لما سمع منه ما قاله في حقّ الزبرقان بن بدر. (أنظر شرح رسالة ابن زيدون عند الكلام على قوله: وعمرو بن

ابن المُقَفَّع لُقِّفَت بَنَانُهُ، أَوْ ابْنُ الْقِرَّةِ^(١) لَبِقَ خَابِطاً فِي مَرِيَّةٍ^(٢)، وَإِنْ أَفْرَغَ صِمَاحَ قِرَّتِهِ^(٣)، وَهَكَذَا جَحَاجِحَةُ الْعَرَبِ، لَا تَتَخَطَّاهُمْ فِي رَشْقِ أَصَابِهِ، وَلَا تُسْقَطُ لِنَازِعِهِمْ فِي قَوْسٍ نَشَابِهِ^(٤).

وَسَأَلَنِي الْإِجَابَةُ عَنْ تِلْكَ السُّؤَالَاتِ بِنَظْمٍ رِسَالَةٍ مِنْ أُبْلَغِ الرِّسَالَاتِ، تَقَعُ مِنَ السَّائِلِ مَوْقِعَ الْفُرَاتِ^(٥) مِنَ الْحَرَانِ^(٦)، وَتَنْزِلُ مِنْهُ مَنْزِلَةُ السَّدَادِ مِنَ الْحَيْرَانِ، وَكَرَّرَ الطَّلَبَ وَرَدَّدَ، وَأَلَحَّ فِيهِ وَشَدَّدَ، وَضَيَّقَ عَلَيَّ الْأَمْرَ وَعَوَّصَهُ، وَقَالَ: أَنْتَ الَّذِي عَيَّنَهُ اللَّهُ وَشَخَّصَهُ، حَتَّى لَمْ أَجِدْ بَدْءاً مِنْ إِجَابَتِهِ إِلَى مَا أُرَادُ، وَإِسْعَافَهُ بِمَا أَبْدَأُ فِيهِ وَأَعَادُ، وَكَانَ أَمْثَلُ الْأَمْرَيْنِ أَنْ أَجْهَمَ نَفْسِي وَأَحْجَرَهَا، وَأَنْ أَلْقَمَهَا حَجَرَهَا، وَلَا أَفْغِرَ بِمَنْطِقِي فَاءً، وَلَا أَبْلُ بِجَوَابٍ قَلَمًا، وَلَيْسَ بَيْنَ فِكْرِي

الْأَهَمُّ إِنَّهَا سِحْرُ بَيَانِكَ).

(١) هُوَ أَيُّوبُ بْنُ زَيْدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ زُرَّارَةَ الْهَلَالِيِّ، أَحَدُ بُلْغَاءِ الدَّهْرِ، خَطِيبٌ يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلَ، يُقَالُ: «أُبْلَغَ مِنْ ابْنِ الْقِرَّةِ» وَالْقِرَّةُ جَذَتُهُ، قَتَلَهُ الْحِجَاجُ سَنَةَ ٨٤ بَعْدَ أَنْ أَسْرَهُ فِي وَقْعَةِ دَيْرِ الْجَمَاجِمِ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَهُ: وَاللَّهِ لَا زَيْرِيْنِكَ جَهَنَّمَ! قَالَ: فَأَرْحَنِي فَإِنِّي أَجِدُ حَرَّتَهَا! فَأَمْرُ فُضِّرَتْ عُنُقُهُ. وَلَمَّا رَأَى قَتِيلًا قَالَ: لَوْ تَرَكْنَاهُ حَتَّى نَسْمَعَ كَلَامَهُ. وَأَخْبَارُهُ كَثِيرَةٌ. أَنْظِرْ «وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ ١: ٢٥٠/١٠٦، الْكَامِلُ فِي التَّارِيخِ ٤: ٤٩٨، الْأَعْلَامُ ٢: ٣٧».

(٢) الْمَرَاءُ: الْجَدَالُ، وَالتَّمَارِيُّ وَالْمَمَارَةُ: الْمَجَادَلَةُ عَلَى مَذْهَبِ الشَّكِّ وَالرِّيْبَةِ.

(٣) أَفْرَغَ: صَبَّ، وَصِمَاحٌ - كَكِتَابٍ -: الْأُذُنُ، - وَكَفَرَابٍ -: الْمَاءُ، وَقِرَّةٌ: الْحَوْصَلَةُ. وَالْمُرَادُ بِهَا مَا اشْتَهَرَهُ مِنَ الْبَلَاغَةِ حَتَّى صَارَتْ لَهُ كَالْعِلْمِ، كَمَا صَارَ اسْمُ حَاتِمٍ لِلْكَرَمِ، وَالتَّفْسِيرُ عَلَيْهَا دُونَ الْقَرْيَةِ وَاحِدَةً الْقَرْيَ، وَدُونَ الْقَرْيَةِ سِقَاءُ الْمَاءِ وَاللِّبْنِ، أَيْ وَإِنْ صَبَّ أُذُنُ حَافِظَتِهِ، أَوْ اسْتَنْزَفَ مَاءَ قَرْيَتِهِ، كُنَايَةً عَنْ إِجْهَادِ نَفْسِهِ فِي الْبَيَانِ، وَخَنَقِ فَرَسِهِ فِي الْمِيْدَانِ، فَهَذِهِ الْأَسْئَلَةُ إِنْ قَرَعَتْ لَهُ سَمْعًا يُضَيِّقُ بِهَا ذُرْعًا، وَيَبْقَى خَابِطًا فِي الشَّكِّ وَالْجَدَلِ، لَا حَوْلَ لَهُ بِهَا وَلَا حِيلَ. (هَامِشُ الْمَخْطُوطَةِ).

(٤) لَا تُسْقَطُ: أَيْ لَا تُخْطِئُ، وَنَزَعَ الْقَوْسُ: مَذَّاهَا، وَنَشَابُهُ: أَيْ نَبْلُهُ، أَيْ هَذِهِ السُّؤَالَاتُ كَمَا يَقْصُرُ عَنْهَا الْمَذْكُورُونَ مِنْ أُمَّةِ الْأَدَبِ، فَإِنَّهَا تُصِيبُ بِلَاغَةَ سَادَاتِ الْعَرَبِ، وَلَا تَخْطِئُ نَبْلَ مُتَقَوِّسِهِمْ فِي أَرْبِ. (هَامِشُ الْمَخْطُوطَةِ).

(٥) الْفُرَاتُ: أَشَدُّ الْمَاءِ عَذُوبَةً.

(٦) الْحَرَانُ: الْعِطْشَانُ.

لسانٌ دافع، وليس في ماضغيّ ضرشٍ قاطع، ولا بين جنبِيّ نفس حركة نشيطة، ولكن حردة^(١) مُستشيطه، لِمَا أنا مفجوع به من مفارقة كل أخ كان يسمع مِنِّي الكلمة الفذّة فيضعها على رأسه، ويَعَضُّ عليها بأضراسه، ويتقبلها بروحه، ويلصقها بكبده، ويجعلها طوقاً في أعلى مُقلّده، ويُسكنها صميم فؤاده، ويخطّها على بياض ناضره بسواده، لولا خيفة أن تسوّل له نفسه أنّي أقلتُ الاكتراث بمراسلته، وأخللتُ الاحتفال بمسألته، وأن يقول بعض السمعة -ممنّ يحسب لساني لسان الشمعة-: أقسم بالله قسماً، ما وجد في ديسم^(٢) دسماً، فن ثمّ ضَرَبَ عنه صفحاً، وطوى عنه كشحاً، ولم يوله لمحّة طرف، ولم ينطق في شأنه بحرف.

أما العرب فقد صحَّ أن تُغتيا أصحّ اللغات، وأنّ بلاغتها أتمّ البلاغات، وكل من جمح في عنان المناكرة، وركب رأسه في تيه المكابرة، ولم يرخ للتسليم والإذعان مشافره^(٣)، فما أفسد حواسّه ومشاعره! وهو ممنّ أذن بحربٍ منه لعقله الذي هو إمامه في المرشد، ولتمييزه الذي هو هاديه إلى المقاصد.

اعلم يا من فُطِرَ على صلابة النيع، وأمدّ بسلامة الطبع، ووُفّق للمشي في جادة العدل والإنصاف، وعُصِمَ من الوقوع في عاثور الجور والاعتساف، فإنّ واضع هذا اللسان الأفصح العربي من بين وضّاع الكلام، إن لم يكن واضعه رافع السماء وواضع الأرض للأنام، فقد أخذ حروف المُعْجَم التي هي كالماذّة

(١) يقال: حرّد الرجل حُروداً إذا تحوّل عن قومه وانفرد.

(٢) الديسم: بالفتح ولد الدب، قال الجوهري: قلت لأبي الغوث: يقال إنّه ولد الذئب من الكلبة، فقال: ماهو إلّا ولد الدب، وقال في المحكم: إنّه ولد الثعلب. وقال الجاحظ: إنّه ولد الذئب من الكلبة، وهو أغبر اللون، وغبرته ممتزجة بسواد، وحكمه تحريم الأكل على كلّ تقدير. «الحيوان» ٣٤٣:١.

(٣) الشُّفر -بالضم، وقد يفتح-: أصل منبت شعر الجفن.

والعنصر، وبمنزلة الإكسير والجوهر، فعجمها مبسوطات فرائد، وذافها^(١) الواحد فالواحد، وتقلقلت في يده قبل التأليف، تقلقل الدنانير في أيدي الصياريف^(٢)، حين تراهم ينفون زيفها وبهرجها^(٣)، ويصطفون إبريزها وزبرجها، فتختير من بينها أطوعها مخارج، وتنخل منها أوطأها مدارج وميز أسلسها على الأسلات^(٤)، وأعذبها على العذبات^(٥)، وأحلاها في الذوق وأسمحها، وأبهاها عند السبر وأملحها، وأبعدها من مَجّ الأسماع، وأقربها امتزاجاً بالطباع، وأوقعها لفحول الأمة الناعمة بأجراسها، وأحسنها طباقاً لطرق أنفاسها.

ولما انتقل من انتقاء وسائطها، بعد انتقاد بسائطها، إلى أن يؤلف ويركّب، ويرصّف ويرتّب، عمد في عمل التراكيب إلى أشرف الأنماط والأساليب، فألف أنماطاً تستهش^(٦) أنفس الناطقين، وكلمات تتحلّب^(٧) لها هُلى^(٨) الذائقين، وتجول في فجوات الأفواه، فتتمطق^(٩) بها مستلذات، ويطرق

(١) داف الشيء دوقاً، وأدافه: خلطه.

(٢) لم يرد جمع الصيرفي أي النقداء على هذه الصيغة إلا في الشعر، قال ابن منظور: «الجمع صيارف وصيارفة، والهاء للنسبة، وقد جاء في الشعر الصيارف، فأما قول الفرزدق:

تنفي يداها الحصى في كل هاجرة
نفي الدراهم تنقاد الصياريف

فعلى الضرورة لما احتاج إلى تمام الوزن أشيع الحركة ضرورة حتى صارت حرفاً».

وقال الفيروزآبادي: «وقد جاء في الشعر صياريف» ولعل ما أورده الزمخشري تبعاً لاقتضاء سجع العبارة ظاهراً، أنظر «لسان العرب ٩: ١٩٠، القاموس المحيط ٣: ١٦٢، مادة صرف».

(٣) البهرج: الباطل، واللفظة معربة، وقيل: كلمة هندية أصلها نبهله، وهو الردي، فنقلت إلى الفارسية، فقيل نبهره، ثم عُربت فقيل: بهرج.

(٤) الأسلات: جمع أسلة، وهي طرف اللسان.

(٥) عذبة اللسان: طرفه، والجمع «عذبات» كقصبة وقصبات.

(٦) يقال: استهشني أمر كذا فهششت له أي: استخفني فخففت له.

(٧) تحلّب العرق وانحلّب أي: سال.

(٨) جمع هلاء، وهي اللحمتان في سقف أقصى الفم.

(٩) يقال: ذاقه فتمطق له إذا ضمّ شفثيه إليه وألصق لسانه بنطع فيه مع صوت.

بها الآذان فتَهوي بها مغذّات ^(١)، وما طنّت على مسامع أحد من أجيال الأعاجم، وأخياف الطماطم ^(٢) إلّا أصغى إليها متوجّساً، وأصاخ لها مستأنساً، وأناس ^(٣) قَوْدِيه ^(٤) مستعجباً، وأمال عطفيه مستغرباً، وقال: ما هذا اللسان المستلذّ على الصِمَاح ^(٥) إيقاعه، المُحلّولي في مخارق الآذان استماعه، المفارق لجميع اللغات والألسنة، المَصُون من الحروف الملكنة.

وما ذاك إلّا لأنّ حكم المسموعات حكم المبصرات والممسوسات، وغيرها من سائر المحسوسات، فكما أنّ الأعين فارقة بين المناظر العثا والملاح، والأوجه القباح والصباح، والأنوف فاصلة بين الأعطار الفوائح، وبين مستكرهات الروائح، والأفواه مُميّزة بين طعوم المآكل والمشارب، وبين المستبشعات منها والأطائب، والأيدي مفرزة لِمَا استلانت ممّا استخشنت، ولمّا استخفّت ممّا استرزنت ^(٦)، كذلك الآذان تعزل مستقيّات الألحان من عوجها، وتعرف مقبول الكلام من مجوجها، والألسن تنبسط إلى ما أشبه من الكلام مُجَاج الغمام ^(٧)، وتنقبضُ عمّا يُشاكل منه أجاج ^(٨) الجِمَام ^(٩)، وهذه طريقة عامية يسمّعها ويبصرها ويسلّمها ولا ينكرها من يُرى به شيء من

(١) مغذات: مسرعات.

(٢) أخياف أي مختلفون، والطماطم جمع طمطم، وهو الذي في لسانه عجمة لا يفصح.

(٣) أناس الشيء يونس نوساً ونوساناً: تحرك وتذبذب متديلاً.

(٤) القَوْدُ: معظم شعر الرأس ممّا يلي الأذن، ووفودا الرأس جانباه.

(٥) صِمَاح الأذن - بالكسر -: الخرق الذي يفضي إلى الرأس، وهو السميع، وقيل هو الأذن نفسها.

(٦) رزنت الشيء أرزنه رزناً، إذا رفعت له لتظنر ماثقله من خفته، وشيء رزين أي: ثَقِيل. «الصحيح - رزن - ٥: ٢١٢٣».

(٧) مُجَاج الغمام: مطره.

(٨) ماء أجاج أي ملح، وقيل: مُرّ، وقيل: شديد المرارة، وقيل: الأجاج: الشديد الحرارة.

(٩) الجُمة: المكان الذي يجتمع فيه ماؤه، والجمع: الجِمَامُ.

طرف، أو يرامق^(١) بأدنى عرف.

وأما الطريقة الخاصية التي تضحّل معها الشُّبّه، ويسكت عندها المنطيق المفوّه، فما عني بتدوينه العلماء، ودأب في تضييفه العظماء، في ألفاظ العربية وكليّتها، من بيان خصائصها ونوادِر حِكَمِها، ممّا يتعلّق بذواتها، ويتّصل بصفاتِها، من العِلْمَيْن الشريفين، والعِلْمَيْن المنيّفين، وهما علم الأبنية وعلم الاعراب، المشتملان على فنون من الأبواب، وناهيك بكتاب سيبويه^(٢) الذي هو الكتاب، يُطلق فلا تضلّه الألباب، وهو الديوان الأقدم، والميزان الأقوم، والقانون الذي هو لكل محتذٍ مثال، والمعقل الذي لكل منضوٍ تمثال، وكأنّه الرأس الذي هو رئيس الأعضاء، والراز^(٣) الذي بيده مطمّر^(٤) البتاء، والإمام الذي إن نزلت بك شُبّه أنزلتها به، وإن وقعت بك مُعضلة أوردتها على بابه، والحكمة التي قيدت بها الفلاسفة فهي حاجلة^(٥) قراسيفه^(٦).

حشا غامضات سيبويه كتابه وأحرّ بأن تعتاص تلك وتشتدّا

(١) رmqه بعينه رمقاً: أطال النظر إليه.

(٢) هو عمرو بن عثمان بن قنبر، مولى بني الحارث، يكتى أبا بشروأبا الحسن، الملقّب بـ«سبويه» ومعناه بالفارسية: رائحة التفّاح، ولد في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة فلزم الخليل بن أحمد ففاقه، وصنّف كتابه المعروف بـ«كتاب سيبويه» في النحو، لم يُصنّع قبله ولا بعده مثله، توفي سنة ١٨٠هـ، وفي مكان وفاته والسنة التي مات بها خلاف.

أنظر «أنباء الرواة ٢: ٣٤٦/٥١٥، وفيات الأعيان ٣: ٤٦٣/٥٠٤، تاريخ بغداد ١٢: ١٩٥/١٦٥٨، الأعلام ٥: ٨١».

(٣) الراز: رأس البتّائين.

(٤) المِطمّر: الزيج الذي يكون مع البتّائين.

(٥) الحَجَل والحِجَل: القيد، يفتح ويكسر، والحَجَل: مشي المقيد، وحَجَل يَحْجَلُ حجلاً: إذا مشى في القيد.

(٦) الرّسْف: مشي المقيد، ورسف في القيد: مشى مشي المقيد، وقيل: هو المشي في القيد رويداً، فهو راسف.

إذا وقع الأحبار فيها تحيروا
فلم يجدوا من مرجع القهقري بدا
آخران:

ألا صلى الملك صلاة صدقٍ على عمرو بن عثمان بن قنبر
فإن كتابه لم يغن عنه بنو قلم ولا أبناء منبر
ثم لا تسأل عن تناسق هذه اللغة وتتاليها، وعن تجاذب أطرافها وتجااليها،
وما ينادي عليه طرق اشتقاقها من حسن تلاؤمها واتفاقها، يصادف المشتق
الصيغ متناصرة، آخذاً بعضها بيد بعض متخاصره، ووراء ذلك من الغرائب ما
لا ينزف وإن نزف البحر، ومن الدقائق ما لا يدق معه الكهانة والسحر، ولا
يعرف ذلك إلا من فقه فيها وطب^(١)، وزاولها مذ شت إلى أن دب، وضرب
آباطها^(٢)، حتى بلغ نياطها^(٣).

ولا أذكر لك ما في كلام فصحاءهم، من خطبائهم وشعرائهم، من طرق
فصاحة انتهجوها، وخيل بلاغة أجموها وأسرجوها، وما وجد في مراكضهم
ومضاميرهم، من سبقهم ومحاضيرهم، من الافتتان في بابي الكناية والمجاز،
وإصابة مواقع الإشباع والإيجاز، والإبداع في الحذف والإضمار، والإغراب في
جملة اللطائف والأسرار، فإنك تُعارضني بأن هذه الأشياء أشرك الله فيها
العقلاء، ورأينا الأعاجم قد صنفوا فيها معاجم، فكم في الفرس من الفرسان،
وما أهل خراسان بالخرسان، على أنني لو قلت تلك^(٤) لوجدت مقالاً، وصادفت

(١) رجل طَبَّ - بالفتح - أي: عالم.

(٢) من المجاز قولهم: نزل بإبط الرمل، وهو مسقطه، وبأبط الجبل، وهو سفحه، وضرب آباط المفازة،
وتقول: ضرب آباط الأمور ومغابنها واستشف ضمايرها وبواطها.

(٣) التوط: عرق غليظ علق به القلب من الوتين، قال أبوطالب في رسول الله صلى الله عليه وآله:
بُنِيَ أَحْيَى وَنُوطَ الْقَلْبِ مَتْنِي وَأَبْيَضُ مَاؤُهُ غَدَقٌ كَثِيرٌ

ومن المجاز: مفازة بعيدة النياط أي: الحذ والمتعلق، ولا يخفى ما في المتن من تعبير مجازي.

(٤) الكلمة قلقة في هذه العبارة.

لفرسي مجالاً، ولأصبت فيه وجهاً من الاحتجاج، ورداً للشغب واللبجاج، فإن هذه الأشياء لا تجمل ولا تجزل، ولا تنبل ولا تفحل، ولا تحسن ولا تهبي، ولا تحتال ولا تزهى، إلا واقعة في هذا اللسان، دائرة بين أظهر هذا البيان، ومثل ذلك مثل الوشي الفاخر، والحلي من سريّ الجواهر، تلبسها الحساء فتزيدها حسناً إلى حسن، وتعطيها زيناً إلى زين، فإن نقلتها إلى الشوهاء تخاذل أمرها وتضاد، وتناقض وتتراد، وعصف بنصف حسنها وزينها، ماتطلع الشوهاء من قبورها وشينها، وكفاك بما عدت عليك أدلة متقبلة، وشهوداً معدلة، على أن هذا اللسان هو الفائز بالفصل، الحائز للخصل^(١)، وأن ما عداه شبه^(٢) إلى العسجد، وشب^(٣) إلى زبرجد.

ثم اسمع بفضلك، فقد آن أن أفذك^(٤)، وأختم هذا الفصل بما يخلق الحلاقم^(٥) ويجز الغلاصم^(٦)، وهو أن الله تعالى أذخر لمحمد عليه صلاته وسلامه كل فضيلة، وزوى عنه كل رذيلة، واختصه بكل توقير وبعد حاله من كل تحقير، واختار له كل ما يقع عليه الاختيار، وخوله ما يطول به الافتخار، فجعل ذاته خيرة الإنس، وصفوة الأنبياء، وسيد الأموات والأحياء، والأئمة التي انتصاه منها خير أمة، والأئمة الذين استخلفهم بعده خير أئمة، وكتابه الذي

(١) يقال: أصاب تحصله وأحرز تحصله: غلب على الرهان، وقال بعضهم: الخصلة: الإصابة في الرمي.

(٢) الشبه والشبهة: النحاس الأصفر.

(٣) الشب: حجر معروف يشبه الزاج، وقد يدبغ به الجلود.

(٤) يقال: فذلك حسابه: أنها وفرغ منه.

(٥) الحلقوم: الحلق، وقال الزجاج: الحلقوم بعد الفم وهو موضع النفس وفيه شعب تتشعب منه، وهو مجرى الطعام والشراب.

(٦) الغلصمة: رأس الحلقوم بشواربه وحرقدته، وهو الموضع الناق في الحلق، والجمع: الغلاصم، وقيل:

الغلصمة: اللحم الذي بين الرأس والعنق. وقيل: متصل الحلقوم بالحلق إذا ازدرد الآكل لقمته فزلت عن الحلقوم، وقيل: هي العجرة التي على ملتقى اللهاة والمري.

أنزل عليه خير كتاب، وأصحابه الذين قرنهم به خير أصحاب، وزمانه الذي بعثه فيه خير زمان، ولسانه الذي نطق به خير لسان، ولا يحسن أن ينزل على أفضل رسول، أفضل كتاب بلسان مفضل، ومن لم يعقل عن الله تعالى: «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»^(١) فلا عَقْل، ومن لم ينقل: (خير اللسان العربي) فلا نقل، ثم هو لسان أهل الجنة، وذلك طول من ذي الطول والمِنة.

ووجدت العرب كما يتباهون بالشدة في مواطن الحرب، وبالنجدة في مقاوم الطعن والضرب، وبدقهم في النحور صدور الرماح، وحطمهم في الرقاب متون الصفاح، يتحلّقون فيعدّون أيّامهم في الجاهلية والإسلام، ووقائعهم في أشهر الحلّ والإحرام، كذلك حالهم في التباهي بالكلام الفحل، والتباري في المنطق الجزل، والافتخار بالألسن اللدّ، وإرسالها في أودية الهزل والجدّة، ويثبات الغدّر^(٢) في مواقف الجدل والخصام، وعند مصاكّ الركب ومصافّ الأقدام، ليسوا في مجادلتهم بأشدّ منهم في مجادلتهم، ولا في مقاتلتهم بأحدّ منهم في مقاولتهم، ولقد نطقت بذلك أشعارهم، وشهدت به آثارهم.

قال لبّيد^(٣):

ومقام ضيق فرجته ببياني ولساني وجدل

(١) الشعراء: ١٩٥.

(٢) يقال: رجل ثبت الغدّر أي: ثابت في قتال أو كلام.

(٣) لبّيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية من أهل عالية نجد، أدرك الإسلام، ووفد على النبي صلى الله عليه وآله، وتعدّ من الصحابة ومن المؤلّفة قلوبهم، وترك الشعر، فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، قيل هو:

ما عاتب المرء الكريم كنفه والمرء يصلحه الجليس الصالح
وسكن الكوفة، وعاش عمراً طويلاً، وهو أحد أصحاب الملقّات، ومطلع ملقّته:

عفت الديار محلّها فقامها بنى تأبّد غولها فرجامها

توفي سنة ٤١ للهجرة. «الأعلام ٥: ٢٤٠»..

لويقوم الفيلُ أوفِيَّاله زَلَّ عن مثل مقامي وزَحَل^(١)
ورأيتهم يسوون بين الجبناء واللكن، ولا يفصلون بين العيِّ والجبن،
ويستكفون من الخطأ واللحن.

قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «أنا أفصح العرب بيد أني من
قريش، واسترضعت في سعد بن بكر، فأتني يأتيني اللحن»^(٢).

ويتحرّون أن ينطقوا بالكَلِم الفصاح، وأن يمضوا فيها على الأساليب
الصِّحاح، باحثين عن مفرق الصواب، ومصيبين منحرا لإعراب، متيقِّضين لما
يُستفصح، متنبِّهين على ما يُستملح، يسمعون الكلمة العِيناء فيشرِّبونها لها،
واللفظة العَوراء فيشمئزون منها.

قال بعض أمراء العرب لأعرابي رأى معه ناقة فأعجب بها: هل أنزيت
عليها؟ قال: نعم أضربتُها أيُّها الأمير! قال: أضربتُها؛ قد أحسنت حين
أضربتُها، نعم ما صنعت إذ أضربتُها، فجعل يردِّدها.

قال الراوي: فعلمت أنه إنما يريد أن يثقف بها لسانه.
وسمعت أنا كوفياً يسأل بدويّاً عن ماوان^(٣) وقد شارفناها، فقال: هي
ميَّه. فقال الكوفي: أميه ممّا كانت؟ قال: إي والله أموه ممّا كانت. كأنَّه
يصحّحها عليه.

ورأيتُ الخلق في المسجد الحرام يتراذون الكلام في اللغات الفصحى،

(١) زَحَل الشيء عن مقامه: أي زَلَّ عن مكانه «لسان العرب - زحل - ٣٠٢: ١١» وفيه البيت الثاني عن
لبيد.

(٢) ذكره المتقي الهندي في كترالعمال ٤٠٤: ١١/٣١٨٨٤ باختلاف يسير.

(٣) ماوان: واد فيه ماء بين الفقرة والربذة، فغلب عليه الماء فسَمِّي بذلك الماء ماوان؛ قال في المعجم:
فأما ماوان السنور فليس بينه وبين مساكن العرب مناسبة، ولعلَّ أكثرهم مايدري ماالسنور: وهي
قرية في أودية العلاء من أرض اليمامة، أنظر «معجم البلدان ٥: ٤٥٥، مراصد الإطلاع ٣: ١٢٢٢».

ويتعادون من له في ميدان البلاغة الخطى الفُسْحى، ويتذكرون الكلمات التي تزيغ فيها الحاضرة^(١) عن السنن، ولا ينقحونها من العُجْر^(٢) والأُبْن^(٣)، كأن أفواههم للحكمة ينابيع، وهم على ذلك مطابيع.

هذا، ولما سمعت العرب القرآن المجيد ملأت الروعة قلوبهم وملكت نفوسهم، وهز الاستعجاب مناكبهم، وأنغض رؤوسهم، وبقي أذلقتهم لساناً، وأغرقهم بياناً، كالمحجوج إذا أبكتته الحجة، فأخذته الرجّة، وكالياسر إذا أصبح مقموراً مقهوراً، فقعد مبهوتاً مبهوراً، وكالصريع إذا عن له من لايبالي بصراعه، وكالمرتبع^(٤) إذا غلبه من لايلتفت إلى ارتباعه، ولقد قابلوه بأفصح كلامهم، فقال منصفوهم: جرى الوادي فطم على القرّي^(٥)، ومن يعبأ بالعباء مع الوشي العبقري^(٦).

وقال الوليد بن المغيرة المخزومي^(٧): والله لقد نظرت فيما قال هذا الرجل،

(١) أي أهل الحضرة لأنهم مظنة اللحن.

(٢) العُجْر: جمع عجرة، وهي العقدة في عود وغيره، ويقال: في كلامه عَجْرِيَّةٌ وتعجرف أي جفوة.

(٣) الأُبْن: العُقد تكون في القسي تُفسدُها وتعاب بها.

(٤) رُبِعَ الحجر وارتباعه إشالته ورفعته لإظهار القوة.

(٥) مثل سائر، معناه: جرى سيل الوادي فطم أي: دَقَن، يقال: طَمَّ السيلُ الركبة أي: دفنها، والقرّي: مجرى الماء في الروضة، والجمع أقرية وقريان و«على» من صلة المعنى أي: أُنِيَ على القرّي، يعني أهلكه بأن دفنه، أنظر «مجمع الأمثال ١: ١٥٩/٨٢٣».

(٦) الوشي: من الثياب معروف. والعبقري: الديباج.

(٧) الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، أبو عبد شمس، من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش، ومن زنادقتها، أدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم دعوته، ذكره ابن الأثير في الكامل تحت عنوان: ذكر المستهزئين ومن كان أشد الأذى للنبي صلى الله عليه وآله، وهو والد خالد بن الوليد، هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر وهو ابن خمس وتسعين سنة، ودفن بالحجون، أنظر «الكامل في التاريخ ٢: ٧١، الأعلام ٨: ١٢٢».

فإذا هو ليس بشعر، وإنَّ له الحلاوة، وإنَّ أعلاه لَمُشمر، وإنَّ أسفله لمعذق^(١)، وإنَّه ليعلو وما يُعلَى^(٢).

وبلغنا أنَّ أعرابياً صلَّى خلف ابن مسعود^(٣) رضي الله عنه فتعنت في قراءته، فقال الأعرابي: ارتبك الشيخ، فلمَّا قضى ابن مسعود صلاته قال: يا أعرابي إنَّه والله ما هو من نسجك ولا من نسج آبائك، ولكنَّه عزيز من عند عزيز نزل، وهو الحَمَل ذوالوجه، والبحر الذي لا تنقضي عجائبه. قال الله لموسى عليه السَّلام: إنَّما مثل كتاب محمَّد في الكتب كمثّل سقاء فيه لبن كلّما مخضته استخرجت زبده.

فحينما عجزوا عن المماننة^(٤) فزعوا إلى المفاتنة، ولمَّا لم يقدرُوا على المقابلة أقبلوا على المقاتلة، فكان فزعهم إلى شيء، ليس من المُتحدّي فيه في شيء، دليلاً قاطعاً على تمام المعجزة، وشاهد صدق لصحة النبوة بظهور المعجزة، على أنَّ عداوة المُتحدّي هي العجز بعينه، والتقصير بذاته، لأنَّ كل ذي منقبة إذا توقَّل^(٥) في مرتبة قد عجز عنها مدَّعوها، ولم يقدرُوا أن يطلعوها، كان نتيجة

(١) أي: له شعب وجذور، وفي بعض المصادر: لمغذق، وهو من الغدق أي: الماء الكثير، وفي بعضها الآخر: لعذق، والعذق: النخلة، وهو استعارة من النخلة التي ثبت أصلها.

(٢) ورد باختلاف في لفظه في «دلائل النبوة ٢: ١٩٨، تاريخ الإسلام: ١٥٥، السيرة النبوية ١: ٢٨٩، الوفا بأحوال المصطفى: ٥٥». وأخرجه الحاكم النيسابوري في مستدركه ٢: ٥٠٦، عن ابن عباس، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري، ولم يخرجاه.

(٣) عبدالله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، من صحابة رسول الله صلَّى الله عليه وآله السابقين إلى الإسلام، وولّي بعد وفاة النبي صلَّى الله عليه وآله بيت مال الكوفة، ثمّ قدم المدينة في خلافة عثمان، فتوفي فيها عن نحو ستين عاماً في سنة ٣٢ هـ. أنظر «الإصابة في تمييز الصحابة ٢: ٣٦٨/٤٩٥٤، تهذيب التهذيب ٦: ٢٤/٤٣، منعجم رجال الحديث ١٠: ٣٢٢/٧١٦٠، الأعلام ٤: ١٣٧».

(٤) المماننة: المعارضة في جدل أو خصومة.

(٥) التوقّل: الإسراع في الصعود.

عجزهم أن يشتملوا على الغيظ والضجر، وقربة تقصيرهم أن يقصدوه بالنكاية والضرر، وأن يُقشوروه^(١) بالعصا ويرجموه بالحصى.

والذي طولبوا به فعجزوا عنه هو الإتيان بسورة لو كتبت بين السور، لم تكن مشخلة^(٢) بين الدرر، ولكن كواحدة منهن في حسنها وبهائها، ونورها وضيائها، وبيانها الباهر، وديباجها الفاخر، حتى لو عرضت على صيارفة المنطق ونقاده، المميزين زيوفه وجياده، لقالوا هي منها بالقرب، لم يقولوا ليس عليها أبهة دارالضرب، والجهة التي أتاهم العجز عنها امتياز السورة عن هذه الأجناس، التي تتقلب في أيدي الناس، من خطب يجبرونها^(٣)، وقصائد يُسيرونها، ورسائل يسطرونها، كما أن كل واحد من هذه الأجناس له حيز، وبعضها عن بعض متميز، وكل مستبد بطريق خاص إليه ينتحي وإياه ينتهج، ومثال ومنوال عليه يحتذي وعليه ينتسج، فلو تُحدّي الرجل بقصيدة شاعرة فجاء بخطبة باهرة، أو رسالة نادرة، أو تُحدّي بخطبة أو رسالة غراء، فعارض بقصيدة حذاء^(٤)، لم يكن على شاكلة التحدي عاملاً، ونُسب إلى قلة التهدي عاجلاً، وتمثل له بقوله:

شكونا إليه خراب السواد فحرّم فينا لحوم البقر
فكنا كما قال من قبلنا أربها الشها^(٥) وتُرني القمر^(٦)

(١) قشوره بالعصا: ضربه.

(٢) قال الليث: مشخلة كلمة عراقية ليس على بنائها شيء من العربية، وهي تتخذ من الليف والخرز أمثال الحلي.

(٣) يقال: حبرت الشيء تحبيراً إذا حسنته.

(٤) الحدو: من أجزاء القافية، حركة الحرف الذي قبل الرفع، يجوز ضمته مع كسره ولا يجوز مع الفتح غيره، قاله ابن منظور عن ابن سيده.

(٥) الشها: كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى، والناس يمتحنون به أبصارهم.

(٦) مثل سائر، ذكره الميداني في «مجمع الأمثال ١: ٢٩١/١٥٤٥» تحت عنوان «أربها استها وتُرني

ذلك أَنَّ الشعر كلام ذو وزن وقرِّي^(١)، وقافية وروِّي، أكثره تمويهاً وتخائيل، وأكاذيب وأباطيل، ومن ثم سَمَّوه سحرًا، وزعموا أن لكل شاعر جنًّا، وأنه معه رثيًّا، وأنَّ ذلك الجنِّي يخطر بجنانه، ويلقنه إياه ويلقيه على لسانه.

والخطب والرسائل لا يمسّ طنب القريض أطناها، ولا تقرق يده أبوابها، والسورة أبعد شوطاً منها في التميّز، وأعلى فوقاً في المباينة والتحيز، بديباجتها الخاصّة وذوقها، وندائها على أن لا منظوم بطوقها، وعلى أنها ليست من القريحة، المعتصر لها ثرى السجّحة^(٢)، المستعان فيه بالروية والفكر، المستمل من لسان الزّكن^(٣) والحجر^(٤)، وأنَّ مثلها معه مثل الحيوان الذي هو تسوية الله وتقديره، مع التماثيل التي هي نقش المصوّر وتصويره، عليها ضياء الجلالة الربّانية، وسيمياء^(٥) الكتب السماوية، وأبهة المسطور في اللّوح المنزل في اللّوح^(٦)، وآئين^(٧)

القمر» وذكر قصته، وقال: وبعضهم يرويه «أرّها الشّها وترني القمر»، يضرب لمن يغالط فيما لا يخفى.

(١) قال الزمخشري وغيره: أقرأ الشعر: قوافيه التي يختم بها، كأقراء الطهر التي ينقطع عندها، الواحد قرء، وقرء، وقرّي، لأنّها مقاطع الأبيات وحدودها.

(٢) السجّحة: الطبيعة.

(٣) الزكن والإزكان: الفطنة والحُدس الضادق.

(٤) الحجر: العقل واللب، لإمساكه ومنعه وإحاطته بالتميز، وفي التنزيل: «هل في ذلك قسَمٌ لِّذي جبر» (الفجر: ٥).

(٥) السومة والسيمة والسماء والسيمياء: العلامة.

(٦) اللّوح الأول - بالفتح - هو اللّوح المحفوظ، والثاني - بالضم - الهواء. «لسان العرب - لوح - ٥٨٥: ٢».

(٧) آئين: كلمة فارسية بمعنى الزينة، استعملها الجاحظ في البخلاء في قصة محمّد بن أبي المؤمل فيما حكاه عن لسانه: وكانوا يعلمون أن إحصار الجدي إنّما هو شيء من آئين الموائد الرفيعة.

وفي تاريخ العتبي عند شرح هذا البيت في رثاء الصاحب بن عباد:

لم يبق للجدود رسم منذ بنت ولا
للسؤدد اسم ولا للمجد آئين

الملقن منه وهو لسان الروح، كأتك إذا قرأتها مشاهد سُبحات^(١) وجه فاطرك ، ومعاین للملائكة عرشه بناظرک .

عن جعفر الصادق^(٢) رضي الله تعالى عنه: والله لقد تجلّى الله تعالى لخلقه في كلامه ولكتهم لم يبصروه^(٣).

والمعاني التي تستودع الكتب والرسائل، من معانيه ومؤدياته على مراحل، وقد انطوت رصانة هذه المعاني والمقاصد، تحت سلس الألفاظ العذبة الموارد، مع تكاثر نكت علم البيان وفقره، ومحاسن حجوله وغرره، وغرائب وشيه

قال: وكأته تعريب آئين، وهو أعواد أربعة تنصب في الأرض، وترتين بالبسط والستور والشباب الحسان، ويكون ذلك في الأسواق والصحارى وقت قدوم ملك .
أقول: هو قوس النصر في مصطلح عصرنا هذا.

(١) سُبحات الله: جلاله وعظمته، وهي في الأصل جمع سُبحه، وقيل: أضواء وجهه.
(٢) أبو عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، سادس أئمة أهل البيت عليهم السلام، وإليه ينمى المذهب الجعفري، لقّب بالصّادق لصّدق حديثه، ولد في ١٧ ربيع الأول سنة ٨٠ هـ، أمره في الشرف والفضل والعلم والعصمة أجلّ من أن يذكر في سطور، قال ابن حجر: «نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في البلدان» وجمع أصحاب الحديث أسماء الرواة عنه من الثقات على اختلافهم في الآراء والمقالات فكانوا أربعة آلاف رجل، ذكرهم الحافظ ابن عقدة في كتاب رجاله، وذكر مصنفاتهم فضلاً عن غيرهم، استشهد عليه السلام مسموماً لعشر سنين خلت من خلافة المنصور العباسي سنة ١٤٨ هـ، ودفن بالبقيع مع أبيه وجده عليهم السلام. أنظر «أعيان الشيعة ١: ٦٥٩، حلية الأولياء ٣: ١٩٢، وفيات الأعيان ١: ٣٢٧/١٣١ سير أعلام النبلاء: ٦/٢٥٥/١١٧».

(٣) رواه الشهيد الثاني في كتابه «أسرار الصلاة: ٣٦»، ونقله عنه الفيض الكاشاني في «الحجة البيضاء ٢: ٢٤٧» وفيها: ولكنهم لا يبصرون.

وفي المصدرين أيضاً، عنه عليه السلام: وقد سألوه عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشياً عليه فلما أفاق قيل له في ذلك، فقال: ما زلت أردّد الآية على قلبي وعلى سمعي حتى سمعتها من المتكلّم بها، فلم يثبت جسمي لمعينة قدرته.

قال الفيض: وفي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة.

وأعلام جبره، تنثال ارسالاً على الناظر البصير، وتزدهم أسراباً على الناقد التحرير.

وأنا أضرب لك سورة الكوثر - وهي أقصر السور - مثلاً أنصبه بين يديك ، وأجعله نصب عينيك ، فأنت أكيس الأكياس ، ومعك نُهية^(١) كشعلة المقباس ، تكفيك الرزمة وإن كانت خفية ، والتنبيهة وإن كانت غير جلية ، فكيف إذا ذلت بأنور من وضح الفلق ، وأشهر من شية^(٢) الأبلق .

أقول وبالله التوفيق: ورد على رسول الله صلى الله عليه وآله عن عدو الله العاص بن وائل^(٣) ما يهدم مقاله ، ويهزم محاله^(٤) ، وينقّس عن رسوله ، وينيله نهاية سؤله ، فأوحى إليه سورة على صفة إيجاز واختصار ، وذلك ثلاث آيات قصار ، جمع فيها ما لم يكن ليجتمع لأحد من فرسان الكلام ، الذين يخطمونه بالخطام^(٥) ويقودونه بالزمام ، كسحبان^(٦) وابن عجلان ، وأضربهما من الخطباء المصاقع والبلغاء البواق^(٧) الذين تفسّحت في هذا الباب خطاهم ، وتنقّس في

(١) النُهية: العقل.

(٢) الشِّيةُ: كلّ لون يخالف معظم لون الفرس وغيره ، وأصله من الوشي .

(٣) العاص بن وائل بن هاشم السهمي ، من قريش ، أحد الحكام في الجاهلية ، كان نديماً لهشام بن المغيرة وأدرك الإسلام ، وظلّ على الشرك وبعده من المستهزئين ومن الزنادقة الذين ماتوا كفاراً وثنيين ، وهو والد عمرو بن العاص صاحب معاوية . «الأعلام ٣: ٢٤٧» .

(٤) يقال: رجل يحال: أي يدافع ويجادل ، من الحال - بالكسر - وهو الكيد ، وقيل: المكر ، وقيل: القوة والشدة .

(٥) الخطامُ: الزمام . وخطمْتُ البعير: زممته .

(٦) سحبان بن زفر بن ايّاس الوائلي ، من باهلة ، خطيب يضرب به المثل في البيان ، يقال: «أخطب من سحبان» و«أفصح من سحبان» اشتهر في الجاهلية وعاش زمناً في الإسلام ، وكان إذا خطب يسيل عرقاً ولا يعيد كلمة ، أسلم في زمن النبي ولم يجتمع به . أنظر «الإصابة ٢: ١٠٩/٣٦٦٣ ، بلوغ الأرب ٣: ١٥٦» ، مجمع الأمثال ١: ٢٤٩ ، الأعلام ٣: ٧٩» .

(٧) الباقعة: الرجل الداهية .

ميادينه مداهم.

أنظر إلى العليم الحكيم كيف هذا ثلاث الآيات على عدد المُسَلِّيات، من إجلال محلّ رسول الله وإعلاء كعبه، وإعطائه أقصى ما يؤمله عند ربّه^(١)، ومن الإعزاز إليه أن يقبل على شأنه من أداء العبادة بالإخلاص^(٢)، وأن لا يحفل بما ورد عليه من ناحية العاص، ولا يحيد عن التفويض إليه محيداً، فلا يذره واثباً وحيداً، ومن الغضب له بما فيه مسلاته من الكرب، من إلصاق عار البتر بالكلب^(٣)، والإشعار بأن كان عدوّ الله بوراً، ولم يكن إلّا هو صنبوراً^(٤).

ثم انظر كيف نُظِّمت النظم الأنيق، ورُتِّب الترتيب الرشيق، حيث قدّم منها ما يدفع الدعوى ويرفعها، وما يقطع الشبهة ويقلعها، ثم لما يجب أن يكون عنه مسبباً، وعليه مترتباً، ثم ما هو تتمّة الغرض من وقوع العدو في مُغَوَّاتِه^(٥) التي حفر، وصلّيه بحرّ ناره التي سحر، ومن الشهادة على إلصاقه بالسليم عيبه، وتوريكه على البريئ ذنبه^(٦).

وتأمل كيف أنّ من أسند إليه إسداء هذه العطية، وإيتاء هذه الموهبة السنية، هو ملك السماوات والأرض، ومالك البسط والقبض، وكيف وسّع العطية وكثرها، وأسبغها ووقرها، فدلّ بذلك على عظم طرفي المعطى، وعلى جلال جنبي المسدي والمسدى، وقد علم أنّه إذا كان المُعْطِي كبيراً، [كان] العطاء كثيراً، فيا لها من نعمة مدلول على كمالها، مشهود بجلالها.

(١) إشارة إلى قوله تعالى: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ».

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ».

(٣) إشارة إلى قوله تعالى: «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

(٤) أي أبتر لا عقب له.

(٥) مُغَوَّاةٌ: حفرة كالزبية تحفر للذئب، ويجعل فيها جدي إذا نظر إليه سقط عليه يريده، ومنه قيل لكلّ مهلكة مُغَوَّاة.

(٦) ورك عليه ذنبه: حمله عليه.

وأراد بالكوثر أولاده إلى يوم القيامة من أمته^(١)، جاء في قراءة عبدالله: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبوهم وأزواجه أمهاتهم»^(٢) وما أعطاه الله في الدارين من مزايا الإثرة والتقديم، ووضع في يديه من نواصي التفضيل والتكريم، والثواب الذي لم يعرف إلا هو كنهه، ولم يعط إلا الملك شبهه، ومن جملة الكوثر ما اختصه به من النهر الذي حاله المسك^(٣)، ورَضْرَاضُهُ التُّوم^(٤)، وعلى حافاته من أواني الذهب والفضة ما لا يعاده النجوم.

ثم تبصر كيف نكت في كل شيء تنكيتاً، يترك المنطق سكيناً، حيث بنى الفعل على المبتدأ فدلّ على الخصوصية، وجمع ضمير المتكلم فأذن بعظم الربوبية، وصدر الجملة المؤخرة على المخاطب أعظم القسم، بحرف التأكيد

(١) قال الطبرسي: ما ذكره جارا الله هنا ليس بالوجه، لأنه لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز من غير ضرورة. وقد قال النبي صلى الله عليه وآله للحسن والحسين عليهما السلام: ابناي هذان قاما أو قعدا. وقال للحسن عليه السلام: أن ابني هذا سيد. وفي التنزيل: «ما كان محمدٌ أباً أحدي من رجالكم» (الأحزاب: ٤٠) فكيف يحمل الكوثر على أولاد أمته الذين أبى الله أن يكون رسوله أباً أحدي منهم؟ ولا يحمل على أولاد ابنيه من ابنته، الذي طبقوا البر والبحر، وملأوا السهل والجبل بكثرتهم «جوامع الجامع ص ٥٥٣».

(٢) قال المصنف في الكشاف ٣: ٢٥١: وفي قراءة ابن مسعود: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم». وقال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١٢٣: ثم إن في مصحف أبي بن كعب «وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم» وقرأ ابن عباس «من أنفسهم وهو أب لهم» [وأزواجه أمهاتهم].

وقال الطبرسي في مجمع البيان ٤: ٣٣٨: وروي أن النبي صلى الله عليه وآله لما أراد غزوة تبوك، وأمر الناس بالخروج، قال قوم: نستأذن آبائنا وأمهاتنا، فنزلت هذه الآية.

وروي عن أبي وابن مسعود وابن عباس أنهم كانوا يقرأون «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم» وكذلك هو في مصحف أبي، وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام.

(٣) حاله المسك: أي طينه المسك.

(٤) الرضراض: الحصى الصغار، والتوم: الدر.

الجازي مجرى القسم، ماورد الفعل بلفظ الماضي، على أن الكوثر لم يتناول عطاء العاجلة، دون عطاء الآجلة، دلالة على أن المتوقع من سيب^(١) الكريم في حكم الواقع، والمتروك من نعمائه بمنزلة الثابت الناقع. وجاء بالكوثر محذوف الموصوف، لأنّ المثبت ليس فيه ما في المحذوف، من فرط الإبهام والشياع، والتناول على طريق الاتّساع، واختار الصفة المؤذنة بافراط الكثرة، المترجمة عن المعطيات الدثرة، ثم بهذه الصفة، مُصدّرة باللام المعرفة، لتكون لما يوصف بها شاملة، وفي إعطاء معنى الكثرة كاملة.

وعقب ذلك بفاء التعقيب، مستعارة لمعنى التسبيب، يشتقها معنيان، صحّ تسبيب الإنعام بالعطاء الأكثر، للقيام بما يضاهيه من الشكر الأوفر، وتسليمه لترك المبالاة بقول ابن وائل، وامثال قول الله عزّ من قائل، وقصد باللامين^(٢) التعريف بدين العاص وأشباهه، ممّن كانت عبادته ونحره لغير إلهه، وتثبيت قدمي رسول الله على صراطه المستقيم، وإخلاصه العبادة لوجهه الكريم، وأشار بهاتين العبادتين إلى نوعي العبادات، وصنّفَي الطاعات، أعني الأعمال البدنية التي الصلاة إمامها، والمالية التي نحر البدن سنامها، ونّبّه على ما لرسول الله من الاختصاص بالصلاة التي جعلت لعينه قرّة^(٣)، ونحر البدن التي كانت همّته بها المُشْمَخِرَة.

روينا بالإسناد الصحيح أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه بُرّة^(٤) من ذهب^(٥).

(١) السيب: العطاء.

(٢) أي: بلام «لربك»، واللام المحذوفة في قوله «وانحر» أي: وانحرله، كما سيصرّح بذلك.

(٣) إشارة إلى قوله صلّى الله عليه وآله: حبّ إليّ من الدنيا ثلاث: النساء، والطيب، وجُعل قرّة عيني في الصلاة. «الخصال»: ٢١٧/١٦٥ و٢١٨.

(٤) البُرّة: حلقة تجعل في لحم الأنف، وربّما كانت من شعر. (٥) أخرجه البيهقي في سننه ٥: ٢٣٠.

وحذف اللام الأخرى لدلالته عليها بالأولى، مع مراعاة حق التسجيع، الذي هو من جملة صنعة البديع، إذا ساقه قائله مساقاً مطبوعاً، ولم يكن متكلفاً أو مصنوعاً، كما ترى أسجاع القرآن وبعدها عن التعسف، وبرائها من التكلف.

وقال: «لربك»، وفيه حسنان، وروده على طريقة الالتفات^(١) التي هي أمّ من الأمّهات، وصرف الكلام عن لفظ المضمر، إلى لفظ المظهر، وفيه إظهار لكبرياء شأنه، وإنافة لعزة سلطانه، ومنه أخذ الخلفاء قولهم: يأمرك أمير المؤمنين بالسمع والطاعة، وينهاك أمير المؤمنين عن مخالفة الجماعة.

وعن عمر بن الخطاب أنّه حين خطب الأزدية أتى أهلها فقال لهم: خطب إليكم سيّد شباب قریش مروان بن الحكم، وسيّد أهل المشرق حسن بن بحيلة ويخطب إليكم أمير المؤمنين -عنى نفسه-.

وعلم بهذه الصفة أنّ من حقّ العبادة أن يخصّ بها العباد ربّهم ومالكهم، ومن يتولّى معاشهم ومهالكهم، وعرض بخطأ من سفه نفسه ونقض قضية لبّه، وعبد مربوباً وترك عبادة ربّه.

وقال: «إنّ شأنك» فعلّل الأمر بالإقبال على شأنه وقلة الاحتفال بشأنه، على سبيل الاستئناف، الذي هو جنس حسن الموقع رائع، وقد كثرت في التنزيل مواقعه، ويتّجه أن يجعلها جملة للاعتراض، مرسلّة إرسال الحكمة لخاتمة الأغراض، كقوله تعالى: «إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين»^(٢).

(١) قال ابن حزم العلوي في الطراز ٢: ١٣٢: الالتفات: هو العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأول، وهذا أحسن من قولنا: هو العدول من غيبة إلى خطاب، ومن خطاب إلى غيبة، لأنّ الأول يعمّ سائر الالتفاتات كلّها، والحدّ الثاني إنّما هو مقصور على الغيبة والخطاب لا غير، ولا شك أنّ الالتفات قد يكون من الماضي إلى المضارع، وقد يكون على عكس ذلك، فلهذا كان الحدّ الأول هو أقوى دون غيره.

(٢) القصص: ٢٦.

وعنى بالشأنى السهمي المرمي بسهمه، وإنّا ذكره بصفته لا باسمه، ليتناول كل من كان في مثل حاله، من كيده بدين الحق ومحاله، وفيه أنّه لم يتوجّه بقلبه إلى الصدق، ولم يقصد به الإفصاح عن الحق، ولم ينطق إلّا عن الشنآن الذي هو توأم البغي والحسد، وعن البغضاء التي هي نتيجة الغيظ والحرد^(١)، وكذلك وسمه بما ينبئ عن المقت الأشدّ، ويدلّ على حنق الخصم الألدّ، وعرف الخبر ليتّم له البتر، كأنّه الجمهور^(٢) الذي يقال له الصنبور، وأقحم الفصل لبيان أنّه المعين لهذه النقيصة، وأنّه المشخص لهذه الغميصة^(٣)، وذلك كلّ مع علوّ مطلعها، وتمام مقطعها^(٤)، ومجاوبة عجزها لهاديتها^(٥)، وسببها^(٦) لناصيتها، واتّصافها بما هو طراز الأمر كلّ من مجيئها، مع كونها مشحونة بالنكت الجلائل، مكتنزة بالمحاسن غير القلائل، خالية من تصنع من يتناول التنكيت، وتعمّل من يتعاطى بمحاجته التبكيت^(٧)، كأنّها كلام من يرمي به على عواهنه، ولا يتعمّد إلى إبلاغ نكته ومحاسنه، ولا يلقاك ذلك إلّا في كلام ربّ العالمين، ومدبر الكلام والمتكلّمين، فسبحان من لو أنزل هذه الواحدة وحدها، ولم ينزل ما قبلها وما بعدها، لكفى بها آية تغمر الأذهان، ومعجزة توجب الإذعان، فكيف بما أنزل من السبع الطوال، وما وراءها إلى المُفصّل^(٨)، والمُفصّل، يالها من معجزة كم معجزات في طيّها، عند كل

(١) الحرد: الغضب. (٢) يقال: اغتمصت فلاناً اغتماصاً: احتقرته.

(٣) كذا. (٤) مقاطع القرآن: مواضع الوقوف.

(٥) في الحديث: «طلعت هوداي الخيل» يعني أوائلها، والهادي والهادية: العنق؛ لأنّها تتقدم على البدن، ولأنّها تهدي الجسد.

(٦) السَّيْبُ: شعر الذنب.

(٧) بكنه بالحجة أي غلبه.

(٨) المُفصّل من القرآن السبع الأخير، وذلك للفصل بين القصص بالسور القصار، والفواصل أواخر الآي «مفردات ألفاظ القرآن: ٣٨١».

ثلاث آيات تقرّ الألسن بعيّتها، لو أراد الثقلان تسليية المغيظ المحنق؛ لأخذت من أفاصحهم بالمحنق، إن همّوا بإنشاء سورة توازيها، وثلاث آيات تدانيها، هيّات قبل ذلك يشيب الغراب، ويسيب الماء كالسراب.

ودع عنك حديث الصرفة^(١)، فما الصرفة إلّا صُفْرَة^(٢) من النّظام، وفهّة^(٣) منه في الإسلام، ولقد ردّت على النّظام صُفْرته، كما ردّت عليه طفرته، ولو صحّ مقال له لوجّب في حكمة الله البالغة، وحجّته الدامغة أن ينزّله على أركّ نمط وأنزله، وأفسل^(٤) أسلوب وأسفله، وأعراه من حلل البلاغة وحليّتها، وأخلّاه من بهيّ جواهر العقول وثرّيّتها، ثمّ يقال لولاة أعلى الكلام طبقةً وأمّته، ولأرباب آتقه طريقةً وأحسنه: هاتوا بما ينحونحوه، وهلمّوا بما يحذو حذوه، فيعترضهم الحجز، ويتبيّن فيهم العجز، فيقال قد استصرفهم الله عن أهون ما كانوا فيه ماهرين، وأيسر ما كانوا عليه قادرين، ألم ترهم كيف كانوا يعنقون^(٥) في المضمّار فوققوا، وينهبون الحلبة بخطاهم فقطفوا^(٦)، ولا يقال الله قادر على أن يأتي بما هو أفصح وأفصح، وأملح لفظاً ومعنى وأملح، فهلّا أتى بذلك المتناهي في الفصاحة، والمتماذي في الملاحاة، فإنّ الغرض اتّضاح الحُجّة وقد اتّضحت،

(١) الصرفة: هي ممّا ذهب إليه النّظام المعتزلي في إعجاز القرآن، وهو صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً؛ حتى لو خلّاهم سبحانه لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغةً وفصاحةً ونظماً. أنظر «الملل والنحل ١: ٥٨».

(٢) يقال: إنّه لفي صُفْرَة، للذي يعتريه الجنون، إذا كان في أيام يزول فيها عقله، لأنهم كانوا يسمّونه بالزعران.

(٣) الفهّة: السقطة والجهلة. يقال: فه الرجل يفتّه فهّاهة وفهّة، فهوفّه وفهية: إذا جاءت منه سقطة من العي وغيره.

(٤) الفسل: الرديع من كل شيء.

(٥) يعنقون: أي يسرعون.

(٦) القِطاف: تقارب الخطو في سرعة، من القطف: وهو القطع.

وافترض الشبهة وقد افترضت، وإذا حصل الغرض، فليس وراءه معترض.

وأما إغفال السلف لِمَا نحن بصدد، وإهمالهم الدلالة على سننه، والمشي على جده^(١)، فلأنَّ القوم كانوا أبناء الآخرة، وإن نشأوا في جِبر هذه الغادرة، ديدنهم قصر الآمال، وأخذ العلوم لتصحيح الأعمال، وكانوا يتوخَّون الأهمَّ فالأهمَّ، والأولى فالأولى، والأزلف فالأزلف من مرضاة المولى، ولأنَّهم كانوا مشاغل بجرِّ أعباء الجهاد، مُعْتَنَيْن^(٢) بتقويم صفات أهل العناد، مَعْكُوفِي الهِمَم على نشر الأعلام لنصرة الإسلام، فكان ما بُعث به النبي عليه الصلاة والسلام لتعليمه وتلقينه، وأرسل للتوقيف عليه وتبيينه، أهمَّ عندهم ممَّا كانوا مطبوعين على معرفته، مجبولين على تبين حاله وصفته، وكان إذ ذاك البيان غَضًّا طريًّا، واللسان سليماً من اللكنة بريًّا، وطرق الفصاحة مسلوكة سائرة، ومنازلها مأهولة عامرة، وقد مهَّد عذرهم تعويلهم على ماشاع وتواتر، واستفاض وتظاهر، من عجز العرب وثبات العلم به ورسوخه في الصدور، وبقائه في القلوب على ممرِّ العصور.

وبعد انقراض أولئك العرب، المألثة دَلْوِ البلاغة الى عقد الكرب^(٣)، وبقاء رباعها^(٤) بغير ظلل^(٥) ورسم^(٦)، وذهابها ذهاب جديسٍ وطُسم^(٧)، لم

(١) الجَدُّ: الأرض الصلبة، وفي المثل: «من سلك الجدد أَمِنَ العثار».

(٢) مُعْتَنَيْن: أي متعبين.

(٣) مثل سائر مأخوذ من قول الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب حيث يقول:

من يُسَاجِلني يُسَاجِل ماجداً يملأ الدلو إلى عقد الكرب

وهو الجبل الذي يشدُّ في وسط العراقي ثم يثني، ثم يثلث، ليكون هو الذي يلي الماء فلا يعفن الجبل

الكبير، يُضرب لمن يبالغ فيما يلي من الأمر. أنظر «مجمع الأمثال ٢: ٤٢١/٤٧١٥».

(٤) الرُّبْع: المنزل ودار الإقامة، وربيع القوم محلَّتْهم، والزَّياع جمعه.

(٥) الظِّلُّ: ما شخص من آثار الدار، والجمع: أطلال وطلول.

(٦) الرِّسْمُ: الأثر.

(٧) جَدِيس: قبيلة من العرب العارية البائدة، كانت مساكنهم الهامة والبحرين، وكان يجاورهم طُسم،

يَبْقَ من هذا العلم إلّا نحو الغراب الأعصم^(١)، والنكتة^(٢) البيضاء في نقبة الأدهم^(٣)، وجملة تلك البقية قد اتّبعوا سنن الأولين، وكانوا على عجز العرب معولين، ولم يقولوا كم بين إيمان السحّار وبين إيمان النظّار، ثم أدرج هذا العلم تحت طيّ النسيان، كما يدرج الميت في الأكفان.

ولولا أنّ الله أوزعني أن أنفض عليه لمّتي^(٤)، وألهمني أن أنهض إليه بهمتي، حتّى أنفقت على النظر فيه شبابي، ووهبت له أمري، وكانت إجابة الفكر في غوامضه دهري، لم تسمع من أحد فيه همساً، ولم تلق من ينبس منه بكلمة نبساً، والله أسأل أن يهديني سُبُل الإصابة، ويشيبيني على ذلك أحسن إثابة، فما نويت بما لقيت فيه من عرق الجبين، إلّا التوصل إلى ما فيه من ثلج اليقين، وإلّا استبانته حجة الله وبرهانه، واستيضاح أنوار قرّانه، وآنه يوقّني للخير وطلبه، وأن ينظمي في زمرة أهله ويمخّم لي به (تمّت).

هذا، ولعلّنا قد أوفينا ما أردنا نقله بهذا الشأن، من غرر كلمات أعلام الفنّ، ودُرر وصفات أمراء البيان، وهم أعرف بمواقع كلام الله العزيز الحميد، وأدّل على مواضع أسرار بلاغته ونكت إعجازه. وفي دلائلهم الحجة القاطعة والبرهان الساطع وفصل الخطاب. فلله الحمد وله الشكر على التمام والكمال، وصلى الله على محمّد وآله الطاهرين.

قم - محمّد هادي معرفة

وهي قبيلة من العرب العاربة أيضاً، تنتسب إلى طشم بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح، وقد انقرضت. أنظر «معجم قبائل العرب ١٧٢:١ و ٦٨٠:٢»، ومصادره.

(١) الغراب الأعصم: الذي في جناحه ريشة بيضاء لأنّ جناح الطائر بمنزلة اليد له.

(٢) النكتة بالضم -: النقطة.

(٣) الدّهم: السواد. يقال: فرس أدهم، ويعبر أدهم، وناقه دهماء، إذا اشتدّت ورقته حتى ذهب البياض الذي فيه.

(٤) اللّمة: الهمة، والخطرة تقع في القلب.

الفهارس

- ١ - فهرس الآيات
- ٢ - فهرس الأحاديث
- ٣ - فهرس الأعلام
- ٤ - فهرس الأشعار
- ٥ - فهرس الفِرَق والمذاهب
- ٦ - فهرس البلدان والأماكن
- ٧ - فهرس الجماعات والقبائل
- ٨ - فهرس مواضيع الكتاب

فهرس الآيات

رقم الآية	الصفحة
(١) سورة الفاتحة	
٤	مالك يوم الدين ٥٣٥
٦	اهدنا الصراط المستقيم ٣٢٦
(٢) سورة البقرة	
١	الم ٥٦٦
٢	ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ٥٣٩ و ٥٣٦ و ٣٢٦ و ٦٨ و ٥٤٧ و ٥٤٨ و ٥٦٦
٣	يؤمنون بالغيب ٦٩
٥	أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ٥٣٩ و ٤٥٥
٧	ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ٥٩٢ و ٥٣٦ و ٣٧٩
٨	ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ٥٦٥
٩	يُخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم ٥٦٥ و ٤٤
١٠	في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب اليم ٥٦٥ و ٤٤
	بما كانوا يكذبون ٢٧١ و ٢٨٠ و ٥٤٤
١٤	إنا معكم إنما نحن مستهزئون ٥٦٧
١٥	الله يستهزئ بهم ٥٦٧

- ١٦ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ... ٢٥٩ و ٤١٢
- ١٧ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ٥٧٩
- ١٨ صم بكم عمي فهم لا يرجعون ٥٩٢
- ١٩ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ... ٥٨١
- ٢٠ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ٥٤٦
- ٢١ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم ٢٤٩
- ٢٤ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار ٤٢٦ و ٤٤٥
- ٢٩ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء ٣٦٠
- ٣١ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ... ٤٩١
- ٣٥ اسكن أنت وزوجك الجنة وكلامنا رغداً ... فتكونا من الظالمين ٢٨٦ و ٩٩
- ٣٦ فأخرجهما مما كانا فيه ٢٨٦
- ٣٨ ومن أحسن من الله صبغة ٣٧٧
- ٤٠ اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ٥٦٢
- ٤١ مصداقاً لما معكم ٥٠٦
- ٤٢ ولا تلبسوا الحق بالباطل ٣٨٢
- ٤٣ أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ٥٤٩
- ٤٧ اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ٥٦٢
- ٥٨ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم ١٠٠
- ٦٠ فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ٥٤٩ و ٣٤ و ٥٨ و ٥٤٩
- ٦٢ آمن ٦٩
- ٦٥ كونوا قردة ٥٤٩
- ٦٨ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ... ٥٥١

٥٥١	قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها	٦٩
٣٣٥	فهي كالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً	٧٤
٥٦٢	مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ	٧٩
٣٨٢	بلى من كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ	٨١
٥٤٩	أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ	٨٣
٢٨٥	فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ	٨٧
٥٠٦	مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ	٨٩
	وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آمَنُوا بَمَا نَزَّلَ اللَّهُ قَالُوا	٩١
٥٠٧ و ٥٠٥	نُؤْمِنُ... فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ	
٣٧٤ و ٢٢٦	وَمَا هُوَ بِعَزِيزٍ حَرِيصٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ	٩٦
٥٠٦	مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ	٩٧
٥٧٦	مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ	٩٨
٥٠٦	مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ	١٠١
	أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقَدَّمُوا	١١٠
٥٦٠ و ٥٤٩ و ٣٧٧	لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ	
٥٣٠	كُنْ فَيَكُونُ	١١٧
٥٦٢	اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ	١٢٢
٤٦٧	وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ...	١٢٧
١٥٣	فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ	١٣٧
٥٦٠	وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ	١٤٤
٥٦٠	أَيْنَمَا تَكُونُوا يُآتِيَكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا	١٤٨
٥٦٠	وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ	١٥٠
٥٤٩ و ٥٥٧ و ٥٦٢	فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ	١٥٢

- ١٦٤ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار... ٥٧٤
- ١٦٨ ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ٣٧٥
- ١٧١ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع
إلا دُعاءً ونداءً ٥٨٤ و ٤٦٤ و ٣٥٧
- ١٧٧ ولكن البر من آمن بالله... آتى المال على حبه... ٤٦٦ و ٦٩
- ١٧٩ ولكم في القصاص حياة ٥٧٢ و ٥٣٦ و ٤٧٢ و ٦٠
- ١٨٤ خير لكم ٦٩
- ١٨٦ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ٥٤١
- ١٨٧ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ... كُلُوا وَاشْرَبُوا ٥٤٩ و ٤٢٣ و ٤٠٩ و ٣٣٧
- ١٨٨ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ٥٥٠
- ١٨٩ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس ٥١٥ و ٢٣٩
- ١٩٤ فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ٤٤٥
- ١٩٧ الحج أشهر معلومات... فلا رفث ولا فسوق
ولا جدال... وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ٤٦٦ و ٣٧٧ و ٢٦٥
- ٢٠٤ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا
ويشهد الله على ما في قلبه ٣٦٣
- ٢٠٥ وإذا سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل... ٣٦٣
- ٢٠٨ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ٣٧٨
- ٢١٠ وقضي الأمر ٤٢٨
- ٢١٤ وزلزلوا حتى يقول الرسول ٥٨٧
- ٢١٥ يسألونك ماذا ينفقون... وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ٥٦٠ و ٥١٥
- ٢٢٠ ويسألونك عن اليتامى ٢٤٢
- ٢٢٢ ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فائتوهن ٤٦٥

٢٢٣	نساؤكم حرث لكم فانتوا حرثكم أنى شئتم	٥٨٩ و ٤٢٣ و ٣٣٧
٢٢٩	والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء	٤٨٩
٢٣٠	تنكح	٦٩
٢٣٣	والوالدات يُرضعن أولادهن حولين	٥٥٥
٢٣٥	ولكن لا تواعدوهن سراً... حتى يبلغ الكتاب أجله	٤٨٩ و ٤٢٣
٢٣٨	حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى	٥٧٥
٢٤٥	من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً... والله يقبض ويبسط	٥٥٣ و ٣٨٣
٢٤٦	ألم ترالى الملا من بني اسرائيل من بعد موسى...	٣٦٤
٢٥٣	ورفع بعضهم درجات	٤١٨
٢٥٤	يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون	٥٣٣ و ٢٨٦
٢٥٥	الله لا إله إلا هو الحي القيوم... وسع كرسيه	
	السموات والأرض	٥٤٤ و ٥٤٣ و ٥٣٨ و ٣٨٢
٢٥٦	فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى	٣٨٢
٢٥٧	الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور	٣٨٢ و ٣٤٩
٢٦٤	يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى...	
	فمثل كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل...	٥٨١ و ٣٧٦ و ٣٥٥ و ٣٥١
٢٦٥	ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله...	٣٧٦ و ٣٥٥
٢٦٦	أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب	٤٨٦
٢٧٥	فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف	٤٧٠
٢٨٢	وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله	٢٦٥
٢٨٥ و ٢٨٦	آمن الرسول بما أنزل إليه... لا يكلف الله نفساً إلا وسعها...	٢٥١

(٣) سورة آل عمران

٢	الله لا إله إلا هو الحي القيوم	٥٤٤ و ٥٤٣ و ٥٣٨

٥٠٦	مصدقاً لما بين يديه	٣
٢٥٧	وهب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهاب	٨
٥٤٨	لا ريب فيه	٩
٤٦٥	فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة	١٣
٦٠١ و ٥٦٩	زُيِّنَ للناس حبُّ الشهوات من النساء والبنين ...	١٤
٥٠٦	وقل للذين أُوتوا الكتاب والأُميين ...	١٩
٥٠٦	وإن تولَّوْا فإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ	٢٠
٦٠١ و ٤٠٤	فبشرهم بعذابِ أليم	٢١
٥٤٨	لا ريب فيه	٢٥
٤٦٤	بيدك الخير	٢٦
٢٦١	قل إن تُخَفِّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبَدِّوْهُ يَعْلمَهُ اللَّهُ ...	٢٩
٣٧٧	يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضراً وما عملت من سوء	٣٠
٤٨٣ و ٤٨٢	إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ ...	٣٣
٥٤١	وليس الذكر كالأنثى	٣٦
١٦٨	يا مريم إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ ...	٤٥
٥٣٠	كُنْ فَيَكُونُ	٤٧
٢٧٩	والتوراة والإنجيل	٤٨
٢٧١	وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ	٤٨
٢٧٩ و ٢٧١	ورسولاً إلى بني إسرائيل أَنِي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ	٤٩
٣٦	فلما أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ	٥٢
٥٩٩	ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين	٥٤
٣٨٣	إِنِّي مُتَوَقِّعٌ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ	٥٥
٥٣٠	كُنْ فَيَكُونُ	٥٩
٢٦٩	لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ	٧٢

٢٦٩	واسع عليهم	٧٣
٣٥٨	إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا...	٧٧
٥٠٦	مَصْدَقًا لِمَا مَعَكُمْ	٨١
٢٧١	أُفْغِرْ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ لَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ	٨٣
٥٧٤	قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ	٨٤
٥٥٦	وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا	٩٧
٥٤٩	وَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ	١٠٢
	وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا... عَلَى شَفَا	١٠٣
٣٧٣ و ٣٦١ و ٣٤٩	حَفْرَةٍ مِنَ النَّارِ	
٦٠١	فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ	١٠٦
٦٠١	وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ	١٠٧
	مَثَلٌ مَا يَنْفَقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا	١١٧
٣٥٦ و ٢٢٣	كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ	
٦٩	وَلَا تَهْنُوا	١٣٩
٣٦٦	وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ...	١٥٢
٣٦٦	إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ...	١٥٣
٣٦٦	ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَعَاسًا يُغْشَى طَائِفَةٌ مِنْكُمْ	١٥٤
١٥٤	فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ	١٥٩
٥٣٩	إِنَّمَا ذَلِكَ كُفُّ الشَّيْطَانِ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ	١٧٥
٣٧٤	فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ	١٨٥
٥٨٧	فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ	١٨٧
٢٦٩	لَا تُخَلَّفُ الْمِيعَادُ	١٩٤
٢٧٠	حُسْنُ الثَّوَابِ	١٩٥

(٤) سورة النساء

٢٩٠	يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة	١
	وإن خفتن أن لا تُقسطوا في اليتامى فانكحوا	٣
٢٤٢ و ٢٤١	ما طاب لكم من النساء	
٤٦٦	حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ	٢٣
٥٤٧	والله يريد أن يتوب عليكم	٢٧
٥٩٧	واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً	٣٦
٥٥٢	فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد	٤١
	يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم	٤٣
٤٨٨ و ٤١٦	سكارى... أو لا مستم النساء	
٥٠٦	مصدقاً لما معكم	٤٧
٢٢٥	وإن منكم لمن يُبِطُنَّ	٧٢
٥٥٤	يا ليتني كنت معهم	٧٣
٥٤٩	أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة	٧٧
٥٦٠	أبنا تكونوا يدرككم الموت	٧٨
٥٩٤ و ٥٥٩	واذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به	٨٣
٥٤٨	لا ريب فيه	٨٧
٣٧٨	إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق...	٩٠
٥٤٦	وإذا كنت فيهم فأقت لهم الصلاة	١٠٢
٢٦٤	إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله	١٠٥
٥٧٣ و ٥٥٩	من يعمل سوء يُجز به	١٢٣
٣٨١	ولا يظلمون نقيراً	١٢٤
٢٤٢	ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب	١٢٧

٢٧٠	١٣٣	إن يشأْ يُذهبكم أيُّها الناس ويأت بآخرين
٥٧١	١٤٢	يخادعون الله وهو خادعهم... يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً
٥٤٨	١٦٢	والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك
٥٠٥	١٧١	وكلمته ألقاها إلى مريم
٢٧٠	١٧٢	لن يستنكف المسيح أن يكون عبد الله ولا الملائكة...
٥٥٩	١٧٦	إن امرؤ هلك

(٥) سورة المائدة

٤٦٦ و ٢٦٥	٣	حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير... وما ذبح على النُصب...
٤٥٨ و ٤٢٣ و ٤١٦	٦	إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا... أوجاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء
٥٥٧ و ٥٣٥	٩	وعَد الله الذين آمنوا
٥٤١ و ٥٥٥	٣٨	والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما
٥٥٩ و ٥٤٥	٤٢	فإن جاؤوك فاحكم بينهم
٢٦٤	٤٤	ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون
٢٦٤	٤٥	ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون
٥٠٦ و ٢٦٥	٤٦	وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة
٢٦٥ و ٢٦٤	٤٧	وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله... فأولئك هم الفاسقون
٥٠٦ و ٢٥٥	٤٨	مصدقاً لما بين يديه... لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً
٢٦٤	٤٩	وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم
٢٧١ و ٢٥٩	٥٠	أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون

٦٤	وقالت اليهود يد الله مغلولة... بل يدها مبسوطتان...
٤٢٧ و ٤٢٦ و ٣٨٣ و ٣٨١	وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
٦٦	وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ
٧٥	كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ
٧٩	لِبئس ما كانوا يفعلون
١١٦	أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ
١١٧	كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ

(٦) سورة الأنعام

١	وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ
٦	أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ
٧	وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ...
١٠	وَلَقَدْ أَسْهَزَىٰ بَرُسٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخَّرَوهُمْ مِنْهُم...
١٢	لَا رَيْبَ فِيهِ
١٤	فَاطْرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
٢٢	أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ
٢٥	وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
٢٧	وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا
٦٠٠ و ٥٧٣ و ٥٥٤ و ٤٦٨	نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا
٣١	وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ
٣٥	وَأَنْ كَانَ كِبَرُكَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ... فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ
٣٨	وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ
٤٠	أَغْيَرَالَهُ تَدْعُونَ
٤٥	فَقُطِّعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

- ٥٩ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر... ١٧٢
- ٧١ قُلْ أُنَدِّعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا... ٣٧٤ و ٣٥٩
- ٧٣ كُنْ فَيَكُونُ ٥٣٠
- ٧٦ فَلَمَّا أَفْلَحَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ ٤٩٦
- ٨٠ وَحَاجَّه قَوْمَهُ ٤٩٣
- ٨٣ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ٤٩٣
- ٩٢ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ٥٠٦
- ٩٥ فَالِقَ الْهَبِّ وَالنَّوَى يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ١٧١
- ٩٦ فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ١٧١
- ٩٧ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ... ٢٦٦
- ٩٨ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ٢٦٧
- ٩٩ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٢٦٧
- ١٠٣ لَا تَذْكِرْهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُذَكِّرُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٧١ و ٢٥٤
- ١٢٠ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ٣٧٨
- ١٢١ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَانَّهُ لَفَسَقٌ ٢٦٥
- ١٢٢ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ... ٥٨٢ و ٤٠٤
- ١٢٤ حَتَّى تُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلَ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ٥٩٩
- ١٣٨ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ٤٦٦
- ١٤١ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ٥٧١
- ١٤٣ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعِزَّائِينَ... ٥١٢
- ١٤٤ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرَاتَيْنِ... ٥١٢
- ١٤٥ قُلْ لَا أَجِدُ فِي أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ... ٥١٣ و ٢٦٥
- ١٤٩ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ٥٦٢

١٥١	قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ... نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَأَيُّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ
١٥٢	وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
١٦٤	وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى

(٧) سورة الأعراف

١٨	أَخْرِجْ مِنْهَا مُذْمُومًا
١٩	فَكَلا
٢٣	رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ
٢٦	يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ اتَّكُم...
٢٩	كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ
٣١	كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ
٣٢	قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ...
٣٣	إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ
٤٠	إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا... وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى
٤٩٥ و ٣٧٣ و ٣٥٤	يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخَيْطِ
٤٣	وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ
٤٤	هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ
٥٣	هَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءَ فِي شَفْعِهِمْ أَلَا
٥٤	ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا
٨٩	وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا
١٣٢	مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَّ بِهَا فَانْخَلِكْ بِمُؤْمِنِينَ
١٤٣	أَرْنِي أَنْظِرْ إِلَيْكَ

- ١٥٤ ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح ٣٤٥ و٣٧٣ و٣٩١ و٥٨٦
- ١٥٥ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا... ٤٨٠
- ١٥٦ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة... ٤٨٠ و٢٦٣
- ١٥٧ والذين يتبعون الرسول النبي الأمي... ٤٨٠ و٤٠٢
- ١٥٨ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً... ٤٤١
- ١٦١ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم ١٠٠
- ١٦٣ واسألهم عن القرية ٥٦٢
- ١٦٦ كونوا قردة ٥٤٩
- ١٦٨ وقطعناهم في الأرض أمماً ٤٠١
- ١٧٢ ألسئ بربكم قالوا بلى ٣١
- ١٧٥ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها... ٣٧٥ و٣٦٠
- ١٧٦ ولوشئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع ٣٦٠ و٣٥٠ و٢٤٤
- هواه فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ٦٠٢ و٤٩٦ و٥٤٦ و٥٧٩ و٦٠٢
- ١٨٧ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ٥٥٢
- ١٨٩ هو الذي خلقكم من نفس واحدة... فلما تغشاهما حملت ٤٢٣ و٤٢٢ و٤٠٨ و١٧٤
- ١٩٤ إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم ٦٠٢
- ١٩٩ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ٤٧٢
- ٢٠١ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا... ٢٨١
- ٢٠٢ وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ٢٨١

(٨) سورة الأنفال

٥٣٤	وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا	٢
٥٧١	ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ	١٣
٣٨٣	وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى	١٧
٢٤٣	يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ...	٢٤
٤٥١	اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا ...	٣٢
٢٨٢	إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكَمْ قَلِيلًا ...	٤٣
	وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذَا التَّقِيمُ فِي أَعْيُنِكُمْ ... لِيَقْضِيَ اللَّهُ	٤٤
٢٨٢ و ٢٨٠	أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا	
٤٢٤	يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ	٥٠
٤٦٣	لَمْ يَكْ مُغْتَبَرًا نِعْمَةً	٥٣
٣٤	لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ	٦٠
٥٥٩	وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا	٦١

(٩) سورة التوبة

٦٠٠	يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَّاتٍ ...	٢١
٣٨١	ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ	٢٦
٥٣٧	هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى	٣٣
٦٠١	فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ	٣٤
٣٨٢	أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا	٤٩
٥١٤	وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ	٦١
٥٣٦	وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ	٧٢
٥٤٥	إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ	٨٠

٨١	قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا	٤١٧
٩٤	قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ	
	وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ ...	١٠١ و ١٠٠
٩٧	وَأَجْدُرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا	٥٢٦
١٠١	وَمَنْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوْا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ	٣٤
١٠٥	فَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَاسْتَردُّونَ	١٠٠
١٠٩	أَفَنْ أَسَّسَ بَنِيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ ...	
	أَسَّسَ بَنِيَانَهُ عَلَى شِفَا جُرْفٍ هَارِفٍ أَنهَارُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ	٣٦٢ و ٣٧٣
١١٢	التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ ...	١٠١
١١٧	إِنَّهُ رَوْفٌ رَحِيمٌ	٥٤٧
١١٨	وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ ...	٣٧٨

(١٠) سُورَةُ يُونُسَ

١١	وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ	٤٥١
٢٢	هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ ...	٣٦٣ و ٤٤٠
٢٣	فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ...	٤٤٠
٢٤	إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ	
	فَاخْتَلَطَ بِهِ ... حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ... فَجَعَلْنَاهَا	
	حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَمْ بِالْأَمْسِ	٥٣٤ و ٥٧٩ و ٥٨٥
٢٥	وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ	٥٦٢
٢٧	كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مَظْلَمًا	٣٨٠
٣٢	فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ	١٤١
٣٧	لَا رَيْبَ فِيهِ	٥٤٨
٤٦	وَإِمَّا نُرَيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فِإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ	٤٥١

٥٥٢	ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين	٤٨
٤٥١	قُلْ أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون	٥١
٥٣٦	وشفاء لما في الصدور	٥٧
٤٤٧	قالوا أجبثنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا ...	٧٨
٤٤٧	واوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصرييوتاً	٨٧
٥٦٢	فاسأل الذين يقرأون الكتاب	٩٤

(١١) سورة هود

٥٦	كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير	١
٣٨٢	وكان عرشه على الماء	٧
٢٢٥	ارأيتم إن كنث على بينة من ربّي وآتاني رحمة من عنده	٢٨
٤٦٥	أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعليّ إجرامي ...	٣٥
	وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أفلعي وغيض	٤٤
٣٩٢ و ١٧٢ و ٧٦	الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي	
٦٠٨ و ٥٢٩ و ٤٢٩		
٤٤٢	قالوا يا هود ما جئنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك	٥٣
٤٤٢	إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ...	٥٤
٣٧٣	فلما ذهب عن إبراهيم الرّوع وجاءته البشري ...	٧٤
٥٥٤	لو أنّ لي بكم قوّة	٨٠
	قالوا يا شعيب أصلا تك تأمرك أن نترك ما يعبد	٨٧
٦٠١ و ٥٥٣ و ٢٥٩	آباؤنا ... إنك لأنت الحليم الرشيد	
٤٥٦	يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعملون ...	٩٣
٤٤٤	إنّ في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس	١٠٣
٦٠١ و ٥٦١	فأمّا الذين شقوا في النار	١٠٦

١٠٧	إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ	٥٤٧
١٠٨	وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَنَفَى الْجَنَّةَ	٦٠١ و ٥٦١
١١٢	فَاسْتَقَمَّ كَمَا أَمَرْتُ	٦٠٢

(١٢) سورة يوسف

٢	إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا	١٧٥
٣	نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ	٤٨٢
٤	رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ	٢٨٥
١٨	فَصَبِرْ جَمِيلٌ	٥٤٤ و ٥٣٥
٢٣	وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ	٥٤٠ و ٤٢٣
٢٩	يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا	٤٦٨
٣١	مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ	٥٦٦
٣٢	فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ	٥٣٩
٣٥	ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جَنَّتُهُ حَتَّى حِينٍ	٥٦١ و ٥٣٦
٤٦	لَعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ	٢٨٥
٤٧	قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سَبِيلِهِ...	٤٥٩ و ٤٥٣
٤٨	ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ...	٤٥٣
٤٩	ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يَغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعِصْرُونَ	٤٥٩ و ٤٥٣
٥٠	وَقَالَ الْمَلِكُ انْتَوْنِي بِهِ	٤٥٩ و ٤٥٣
٥١	أَنَا رَاوِدُتُهُ عَنْ نَفْسِهِ	٥٣٧
٨٢	وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنْتَ فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا	٥٧٣ و ٤٦٦
٨٣	فَصَبِرْ جَمِيلٌ	٥٤٤ و ٥٣٥
٨٥	تَا اللَّهُ تَفَتَّوْا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا	٦٦
٩١	آثَرَكَ اللَّهُ	٦٩

٤٥٩ و ٤٥٣ و ١٥٤	فلما أن جاء البشيرُ ألقاه على وجهه فارتدَّ بصيراً...	٩٦
٤٥٩ و ٤٥٣	قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين	٩٧
٤٥٩ و ٤٥٣	قال سوف أستغفر لكم ربِّي إنه هو الغفور الرحيم	٩٨
٤٥٩ و ٤٥٣	فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر	٩٩
٥٩	فاطر السماوات والأرض	١٠١

(١٣) سورة الرعد

٤٦٣ و ٢٨٥ و ١٧١	عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال	٩
٢٨٣	وما لهم من دونه من وال	١١
٢٨٣	ويُنشئ السحاب الثقال	١٢
٣٤٤ و ١٧١	ويستبح الرعد بحمده... يجادلون في الله وهو شديد المحال	١٣
٣٥٦	له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء...	١٤
٤٢١ و ٤٠٥	أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً	١٧
٤١٨	إنما يتذكر أولوا الألباب	١٩
٥٧٣	ولو أن قرآنًا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض...	٣١
٤٨٩	لكل أجل كتاب	٣٨
٤٨٩	يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب	٣٩

(١٤) سورة إبراهيم

٢٦٢	الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة...	٣
٥١١	وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم	٤
٢٦٢	وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد	٨
٢٦٢	ألم يأتكم نبيُّ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود...	٩
٥٩	فاطر السماوات والأرض	١٠

- ١٣ وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجكم من أرضنا أولتعودن في ملتنا ٢٦٢
- ١٧ يتجرعنه ولا يكاد يسيغه... ومن ورائه عذابٌ غليظ ٥٤٦ و ٣٨٠
- ١٨ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ٥٧٩ و ٣٧٦ و ٣٥٤
- ٢٤ ألم تركيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة... ٣٧٧ و ٣٥٢
- ٢٥ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس ٣٧٧ و ٣٦٧ و ٣٥٢
- ٢٦ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ٥٨٤ و ٣٧٧ و ٣٥٢
- ٢٧ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا... ٣٥٢
- ٢٨ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ٢٦٣
- ٣١ لا بيع فيه ولا خلال ٢٨٦
- ٣٤ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ٢٦٣ و ٢٦٢

(١٥) سورة الحجر

- ١٤ و ١٥ ولوفتحنا عليهم باباً من السماء... لقالوا إنما سكرت... ٣٦٢
- ١٩ وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ٣٢٢
- ٢٢ وأرسلنا الرياح لواقح ٣٧٣
- ٨٧ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ٢٩١
- ٩٤ فاصدع بما تؤمر ٥٨٧ و ٣٨٢ و ٣٤٩

(١٦) سورة النحل

- ١٦ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ٢٦٢
- ١٧ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ٢٦٢
- ١٨ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ٢٦٢

٥٤٣	فخرّ عليهم السقف من فوقهم	٢٦
٤٩٨	وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت...	٣٨
٤٩٨	لُيَبِّينَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ	٣٩
٥٣٠ و ٤٩٨	إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ	٤٠
٥٣٤	وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ	٥١
	وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطْنِ أُمّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً	٧٨
٥٤٧ و ٥٤٥ و ٥٤	وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ	
٥٤٣ و ٤٦٣	وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظُلُمَاتٍ... سُرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ	٨١
٥٩٧ و ٤٧٠	إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى...	٩٠
٣٨٠	وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً	٩٢
٢٤٣	يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ	٩٣
٤٥٨	فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ	٩٨
١٣٩	وَهَذَا السَّانُّ عَرَبِيٌّ مَبِينٌ	١٠٣
٥٩٢ و ٤١٢	فَأَذِقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ	١١٢

(١٧) سورة الإسراء

	سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى	١
٤٨٥ و ٢٤٠	الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى	
٢٤٠	وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ	٢
٤٩٠	بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ	٥
٥٣٣ و ٣٧٧	وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى	١٥
٥٥٢	وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ	١٧
٤٩٦	وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ...	١٩
٥٩٢ و ٥٨٥ و ٣٨١ و ٣٤٩	وَخَفِضَ لَهَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ	٢٤

١٠٠	نحن نرزقهم وإياكم	٣١
٥٧	ولا تقل لهما أُفْ	٣٣
٥٥٠	ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن	٣٤
٣٧٥ و ١٨٥	ولا تقفْ ما ليس لك به علم إنَّ السمع والبصر والفؤاد...	٣٦
٢٦١	كل ذلك كان سيّئة عند ربك مكروهاً	٣٨
٥٥٣	أفأصفاكم ربكم بالبنين	٤٠
٣٤٣ و ٢٦١	تُسَبِّحُ له السماوات السبع والأرض ومن فيهنّ...	٤٤
٥٤٩	قل كونوا حجارةً أو حديداً	٥٠
٥٥٢	ويقولون متى هو	٥١
٢٧٠	وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون	٥٩
٣٨١	ولا يظلمون فتيلاً	٧١
٥٧٦	وقُلْ جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً	٨١
٥٠٩ و ٣٥٩	قل كلّ يعمل على شاكلته	٨٤
٥٧٨ و ٢٠	قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن	٨٨
٢٨٤	هل كنْتُ إلا بشراً رسولاً	٩٣
٥٥٨ و ٥٤٤	قُلْ لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربّي	١٠٠
٥٦٢	فاسأل بني إسرائيل	١٠١
٤٧٢	وقرآننا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث...	١٠٦
٥٥١	قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى	١١٠

(١٨) سورة الكهف

١٠١	سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم	٢٢
٣٦٩	واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب...	٣٢

٣٣٩	كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً...	٣٣
٣٦٩	وكان له ثمر	٣٤
٦٠١	المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك	٤٦
٤٤٤	ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة...	٤٧
	لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا	٤٩
٣٧٧ و ٢٨٧	ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً	
٢٨٦	وما كنت متخذ المضللين عضداً	٥١
١٦٣	ذلك ما كنا نبغ فارتد على آثارهما قصصاً	٦٤
١٠٢	لقد جئت شيئاً إمراً	٧١
١٠٣	ألم أقل إنك	٧٢
١٠٢	لقد جئت شيئاً نكراً	٧٤
١٠٣	ألم أقل لك إنك	٧٥
٣٤٣	فوجد فيها جداراً يُريد أن ينقض	٧٧
١٠٣	فأردت أن أعيها	٧٩
١٠٣	فأردنا أن يبدلها ربهما خيراً منه	٨١
١٠٣	فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما	٨٢
٣٧٩	الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى	١٠١
٥٩٤	وهم يُحسبون أنهم يحسنون صنعاً	١٠٤
٣٧٤	قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربِّي لنفد البحر...	١٠٩

(١٩) سورة مريم

١٦٣	ذكر رحمة ربك عبده زكريّا	٢
١٦٣	إذ نادى ربّه نداءً خفياً	٣

- ٤ قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً
١٦٦ و ١٦٣ و ٧٢ و ٦٩
و ١٧٠ و ٣٣٧ و ٣٧٦
و ٤٠١ و ٤٠٦ و ٥٨٥
- ٧ يا زكريّا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى
٤٦١
- ١١ بُكَرَةً وَعَشِيًّا
٤٦٢
- ١٢ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيّاً
٤٦٢
- ٢٠ قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً
٤٥٨
- ٢١ قال كذلك قال ربك هو عليّ هين ولنجعلهُ آيةً للناس ...
٤٥٨
- ٢٤ جعل ربك
٥٢٦
- ٢٦ فإما ترين من البشر أحداً
٥٦١
- ٢٨ وما كانت أملك بغياً
٤٦٣
- ٣٠ إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً
١٦٦
- ٣١ وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً
١٦٦
- ٣٥ كُنْ فِيكَون
٥٣٠
- ٤١ واذكري الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً
٥١٨
- ٤٢ إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً
٥١٨
- ٤٣ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني
٥١٨
- ٤٤ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً
٥١٨
- ٤٥ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ...
٥١٨
- ٥٨ اذ اتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجداً وبُكياً
١٦٦
- ٦٩ ثم لننزعن من كل شيعة أئهم أشد على الرحمن عتياً
٥٤٣ و ٥٦٠
- ٧٣ أي الفريقين خير مقاماً
٥٥١
- ٨٠ ليكونوا لهم عزاً
٥٩٩
- ٨١ ويكونوا عليهم ضدّاً
٥٩٩

٥٩٩	تَوَزَّهْمُ أَرْأَ	٨٣
٥٩٩	إِنَّمَا نَعُدُّهُمْ عِدَّةً	٨٤
٤٣٧	وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا	٨٨
٤٣٧	لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا	٨٩
٢٧٠	فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ	٩٧

(٢٠) سورة طه

١٦٧	طه	١
١٦٧	مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى	٢
١٦٧	إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى	٣
١٦٧	تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى	٤
١٧٠ و ١٦٧	الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى	٥
٤٢٧ و ١٧٥		
١٦٧	لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى	٦
١٦٧	وَإِن تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى	٧
٥٣٨ و ١٦٧	اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى	٨
٥٣٧	إِنِّي أَنَا اللَّهُ	١٤
١٧٠	إِن السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لُتَجْزَى كُل نَفْسٌ بِمَا تَسْعَى	١٥
٥٣٥	هِيَ عَصَايَ	١٨
٥٧٦	رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي	٢٥
٥٧٦	وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي	٢٦
٤٦٤	فَمَنْ رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى	٤٩
٥٩٧ و ٢٥٧	لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَاحَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَن افْتَرَى	٦١
٢٨٥	فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى	٦٧

٥٤١	ولا يُفْلح السّاحر حيث أتى	٦٩
٢٧٥	بربّ هارون وموسى	٧٠
١٧٠	إنه من يأت ربّه مجرماً فإنّ له جهنّم لا يموت	٧٤
١٧٠	ولقد أوحينا الى موسى أن أسرعبادي فاضرب لهم طريقاً	٧٧
٥٤٠ و ١٧٠	فأتبعهم فرعون بجُنوده فعشيهم من اليمّ ما غشيهم	٧٨
١٧٠	وأضلّ فرعون قومه وما هدى	٧٩
٤٦٢	ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم ...	٩٠
٤٦٢	حتى يرجع إلينا موسى	٩١
٤٦٢	قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا	٩٢
١٦٧	وعنت الوجوه للحيّ القيوم وقد خاب من حمل ظلماً	١١١
٤٨٥	ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً	١١٢
٢٧١	وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتّقون	١١٣
٤٤٧ و ٢٨٦	فلا يُخرجتكما من الجنة فتشقى	١١٧
٥٦٦	فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم	١٢٠
٤٩٦	ومن أعرض عن ذكرى فإنّ له معيشة ضنكاً ...	١٢٤
٤٩٦	قال ربّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً	١٢٥
٤٩٦	قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى	١٢٦

(٢١) سورة الأنبياء

٥٥٢	وكم قصصنا من قرية	١١
٥٨٥	حتى جعلناهم حصيداً خامدين	١٥
٥٨٧ و ٤٢٢ و ٣٨١	بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق	١٨
٥٦٠ و ٥٠٠ و ٤٩٤ و ٥٨	لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا	٢٢
٥٩٤	كل في فلك	٣٣

٦٠٠	أفإن متَّ فهم الخالدون	٣٤
٦٠٠	كل نفس ذائقة الموت	٣٥
٥٣٩	أهذا الذي يذكر آلهتكم	٣٦
٥٥٢	ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين	٣٨
	ونضع الموازين القسط ليوم القيامة... وإن كان	٤٧
٣٨١ و ٣٨٠	مثقال حبة من خردل أتينا بها	
٥٨٩	قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم	٦٢
٥٨٩ و ٤١٩ و ٤١٧	قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون	٦٣
٢٨٦	وجعلناهم أمّة	٧٣
٣٤٤	وسخرنا مع داود الجبال يُسبحن	٧٩
٤٢٤	والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا	٩١
٤٤١	إن هذه أمتكم أمّة واحدة وأنا ربكم فاعبدون	٩٢
٤٤١	وتقطّعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون	٩٣
٤٤١	إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون	٩٨
٤٩٥	لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون	٩٩
٤٩٧	كما بدأنا أول خلق نعيده	١٠٤

(٢٢) سورة الحج

٦٠٣ و ٢٩٠	يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم	١
	يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا	٥
	خلقناكم من تراب... وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا	
٣٧٢ و ٦٥	عليها الماء اهتزت وربت	
٤٩٣	وأن الله يبعث من في القبور	٧
٣٧٣ و ٣٦٠	ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به	١١

١٥	من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد
٣٧٥	بسبب الى السماء ثم ليقطع ...
٢٥	إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله
٤٤٣	ومن يشرك بالله فكأنها خر من السماء فتخطفه الطير
٣١	أوتهوي به الريح في مكان سحيق
٤٤٣ و ٣٧٥ و ٣٥٨ و ٢٢٦	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة
٤٤٣ و ٢٥٥	له ما في السماوات وما في الأرض وإن الله هو الغني الحميد
٢٥٥	ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره
٢٥٥	إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ...
٦٠٢ و ٥٨٩	ما قدروا الله حق قدره
٥٩٠	أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة
٥٤٩	

(٢٣) سورة المؤمنون

١	قد أفلح المؤمنون
٥	والذين هم لفروجهم حافظون
٤٢٥	ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين
٢٥٦	ثم جعلناه نطفة في قرار مكين
٢٥٦	ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ...
٢٥٨ و ٢٥٦	ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين
٢٨٥	وشجرة تخرج من طور سيناء
٥٤٠	إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون
٥٤٠	والذين هم بآيات ربهم يؤمنون
٥٤٠	والذين هم بربهم لا يشركون

٨١	بل قالوا مثل ما قال الأولون	٥٦٥
٨٢	قالوا أنذامتنا وكثارت رباً وعظماً أثناً لمبعوثون	٥٦٥
٩١	ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا ذهب ...	٥٠١ و ٤٩٤
١٠٣	أولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون	٥٣٩

(٢٤) سورة النور

١	سورة أنزلناها وفرضناها	٦٠٣
٢	الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة	٥٥
٣٠	قُلْ للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ...	٤٢٥
٣١	وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن	٤٢٥
٣٣	ولا تكرر هوأفتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً	٢٠٤
٣٥	الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح	
	المصباح في زجاجة الزجاجة ...	٥٨٤ و ٤٨١ و ٣٣٨
٣٩	والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء	٣٤٠
٤٠	أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه سحاب	
	من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور	٥٨٣ و ٣٤٠ و ٢١٥
٤١	كل قد علم صلاته وتسييحه	٣٤
٤٥	والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه	٥٤٥ و ٥٣٥ و ٥٣٣ و ٤٩١
٥٥	وعَد الله الذين آمنوا ... ليستخلفتهم في الأرض	٥٣٥ و ١٥٣
٥٦	أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة	٥٤٩

(٢٥) سورة الفرقان

١١	بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً	٥٩٦

١٢	إذا رأيتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً	٣٤٤ و ٣٧٢ و ٥٩٦
١٣	وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مُقرنين دعوا هنالك ثبوراً	٥٩٦
٢٣	وقدِمنّا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً	٣٥٤ و ٣٧٤ و ٥٨٦
٢٥	أصحاب الجنة يؤمّنون خيراً مستقراً	٤٩٣
٧٢	وإذا مروا باللغو مروا كراماً	١٨٥
٧٤	واجعلنا للمتقين إماماً	٢٨٦

(٢٦) سورة الشعراء

٩	وإن ربك هو العزيز الرحيم	٥٤٧
١٨	ألم نربك فينا وليداً	٥٥٣
٢٣	قال فرعون وما رب العالمين	٥٥١ و ٥٦٤
٢٤	قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين	٥٦٤
٢٥	قال لمن حوله ألا تستمعون	٥٦٤
٢٦	قال ربكم ورب آبائكم الأولين	٥٣٨ و ٥٦٤
٢٧	قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم	٥٦٤
٢٨	قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون	٥٦٤
٢٩	قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين	٥٦٤
٣٠	قال أولو جنتك بشي عزمين	٥٦٤
٣١	قال فانت به إن كنت من الصادقين	٥٦٤
٤٨	رب موسى وهارون	٢٧٥
٦١	فلما تراء الجمعان	٤٣
٦٨	وإن ربك هو العزيز الرحيم	٥٤٧
٦٩	واتل عليهم نبأ إبراهيم	٤٧٨

٤٧٨	إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون	٧٠
٤٧٨	قالوا تعبد أصناماً فنظّل لها عاكفين	٧١
٤٧٨	قال هل يسمعونكم إذ تدعون	٧٢
٤٧٨	أو ينفعونكم أو يضرون	٧٣
٤٧٨	قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون	٧٤
٤٧٨ و ١٦٢	قال أفرأيت ما كنتم تعبدون	٧٥
٥٣٧ و ٤٧٨ و ١٦٢	أنتم وآباؤكم الأقدمون	٧٦
٤٧٨ و ١٦٢	فإنهم عدوّي إلّا رب العالمين	٧٧
٥٤٠ و ٤٧٨ و ١٦٢	الذي خلقني فهو يهدين	٧٨
٥٤٠ و ٤٧٨ و ١٦٢	والذي هو يطمعني ويسقين	٧٩
٥٤٠ و ٤٧٨ و ١٦٢	وإذا مرضت فهو يشفين	٨٠
٥٤٠ و ٤٧٨ و ١٦٢	والذي يُميتني ثم يُحيين	٨١
٥٤٠ و ٤٧٨ و ١٦٢	والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين	٨٢
٤٧٨	رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين	٨٣
٤٧٨	واجعل لي لسان صدق في الآخرين	٨٤
٤٧٨	واجعلني من ورثة جنة النعيم	٨٥
٤٧٨	واغفر لأبي إنه كان من الضالين	٨٦
٤٧٨	ولا تُخزني يوم يبعثون	٨٧
٤٧٨	يوم لا ينفع مال ولا بنون	٨٨
٤٧٨	إلا من أتى الله بقلب سليم	٨٩
٤٧٨	وأزلفت الجنة للمتقين	٩٠
٤٧٨	وبُرزت الجحيم للغاوين	٩١
٥٥٢ و ٤٧٨	وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون	٩٢
٤٧٨	من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون	٩٣

٤٧٨ و ٢٢٦	٩٤	فككبوا فيها هم والغاؤون
٤٧٨	٩٥	وجنود إبليس أجمعون
٤٧٨	٩٦	قالوا وهم فيها يختصمون
٤٧٨	٩٧	تالله إن كنا لفي ضلال مبين
٤٧٨	٩٨	إذ نسوؤكم رب العالمين
٤٧٨	٩٩	وما أضلنا إلا المجرمون
٤٧٨	١٠٠	فألنا من شافعين
٤٧٨	١٠١	ولا صديق حميم
٤٧٨	١٠٢	فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين
٥٤٧	١٠٤	وإن ربك هو العزيز الرحيم
٥٤٧	١٢٢	وإن ربك هو العزيز الرحيم
٥٦٥	١٣٢	واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون
٥٦٥	١٣٣	أمدكم بأنعام وبنين
٥٦٥	١٣٤	وجنات وعيون
٥٤٧	١٤٠ و ١٥٩	وإن ربك هو العزيز الرحيم
٢٥٧	١٦٨	قال إني لعملكم من القالين
٥٤٧	١٧٥ و ١٩١	وإن ربك هو العزيز الرحيم
٦١٩	١٩٥	بلسان عربي مبين
٣٧٩	٢١٢	إنهم عن السمع لمعزولون
٥٠٨	٢٢٤	والشعراء يتبعهم الغاؤون
٥٠٨	٢٢٥	ألم ترأنهم في كل واديهيمون
٥٠٨	٢٢٦	وأنهم يقولون ما لا يفعلون

(٢٧) سورة النمل

١٠	فلما رآها تهتز كأنها جانّ	٥٨٣
١٤	وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً	١٤١
٢٠	مالي لا أرى الهدّهد	٥٥٣
٢٣	إنّي وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء	٤٨٢
٢٤	وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله	٤٨٢
٢٥	ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض	٤٨٢
٢٦	الله لا إله إلا هو ربّ العرش العظيم	٥٣٨ و ٤٨٢
٢٧	قال سننظر أصدقت أم كُنت من الكاذبين	٤٦٠ و ٤٥٤
٢٨	اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم	٤٦٠ و ٤٥٤
٢٩	قالت يا أيّها الملأُ إنّي أُلقي إليّ كتاب كريم	٤٦٠ و ٤٥٤
٣٨	قال يا أيّها الملأُ أتكم يا تبني بعرشها	٤٦٢
٤٠	قال الذي عنده علم من الكتاب . . فلما رآه مستقراً عنده	٥٦٢ و ٤٦٢
٤١	نكروا لها عرشها	٤٦٢
٦١	أمن جعل الأرض قراراً	٥٥١
٦٢	أمن يحيب المضطرّ إذا دعاه	٥٥١
٧١	ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين	٥٥٢
٨٠	ولا تسمع الصمّ الدعاء إذا ولوا مدبرين	٢٥٩
٨٧	ويوم يُنفخ في الصور ففرع من في السماوات ومن في الأرض	٤٤٤
٨٨	وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّمرّ السحاب	
	صنّع الله الذي أتقن كل شيء	٣٤٥ و ٣٤٣

(٢٨) سورة القصص

٥٣٤	يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ	٤
٣٢٦	فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً	٨
٤٦٠ و ٤٥٣	وحزنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت	١٢
٤٦٠ و ٤٥٤	فرددناه إلى أمه كي تقر عينها	١٣
٥٣٦ و ٥٣٢	وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى	٢٠
٦٣٠	إن خير من استأجرت القوي الأمين	٢٦
١٦٠	إني أنا الله رب العالمين	٣٠
٥٨٣	فلما رآها تهتز كأنها جان	٣١
١٥٦	وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ...	٣٨
٤٥٧	وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ...	٤٤
٤٥٧	ولكننا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر	٤٥
٤٥٧	وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك ...	٤٦
٦٠٠	ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون	٦٢
٥٦٢	وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة	٦٨
٥٣٨	الله لا إله إلا هو	٧٠
٢٥٥	قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة	٧١
٢٥٦	قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة	٧٢
٥٩٨	ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ...	٧٣
٦٠٠	ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون	٧٤
٥٥٤	يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون	٧٩

(٢٩) سورة العنكبوت

٥٣٧	نحن أعلم بمن فيها	٣٢
٥٥٨	ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحياه الأرض...	٣٣
٥٣٢	إنّا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء	٣٤
٦٠٢ و ٣٥٧ و ٣٥١	مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت	٤١
٦٨	وما كنت تتلون من قبله من كتاب	٤٨
٣٧٩	يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم	٥٥
٥٢٣	وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب...	٦٤
٦٠٤	والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا...	٦٩

(٣٠) سورة الروم

٥٣٢	ألم	١
٥٣٢	غلبت الروم	٢
٥٣٢	في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون	٣
٥٣٢ و ٤٦٧	في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد	٤
٤٩٧ و ٤٩٥ و ٤٩٤	وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه	٢٧
٦٠٢ و ٥٩٥	فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها	٣٠
٥٥٩	ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم برهم يُشركون	٣٣
٥٣٥	الله الذي خلقكم ثم رزقكم	٤٠
٥٩٥	فأقم وجهك للدين القيم	٤٣
٥٩٩	من كفر فعليه كفره	٤٤
٥٩٤	ويوم تقوم الساعة يُقسّم المجرمون ما لبثوا غير ساعة	٥٥

(٣١) سورة لقمان

٦	ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليُضلّ عن سبيل الله	١٨٤ و ١٨٢
٧	كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً	٥٦٦
١١	هذا خلق الله	٦٩
٢٥	ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ الله	٥٥٨ و ٥٤٥
٢٧	ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده	٥٧٣ و ٥٠٥

(٣٢) سورة السجدة

١٢	ولو ترى إذ المجرمون	٥٣٧
١٣	ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها	٥٤٦
٢٦	أولم يهد لهم كم أهلكنا من القرون...	٢٥٤
٢٧	أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً	٢٥٤

(٣٣) سورة الأحزاب

٤	ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه	٥٠٩ و ٣٨٠
٩	يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود...	٣٦٥
١٠	إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت	
	الأبصار... وتظنون بالله الظنونا	٣٧٩ و ٣٦٥ و ٢٨٤
١١	هنا لك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلازلاً شديداً	٣٦٥
١٢	وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله...	٣٦٥
١٣	وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا...	٣٦٥
٢٥	وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً	
	وكفى الله المؤمنين القتال	٥٦١ و ٥٥٧ و ٢٥٤

٣٨١	وقذف في قلوبهم الرعب	٢٦
٥٨٩ و ٤٢١	وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها	٢٧
١٨٥	ولا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض	٣٢
٤٢٥	والحافظين فروجهم والحافظات	٣٥
٥٩٧	وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه	٣٧
٣٢٢	وكان أمر الله قدراً مقدوراً	٣٨
٤٣٧	إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين	٥٠
٢٨٤	أطعنا الرسولاً	٦٦
٢٨٤	فأضلُّونا السبيلاً	٦٧
٢٢١	يا أيُّها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً	٧٠
٢٢١	يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم	٧١
٣٤٤	إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين...	٧٢

(٣٤) سورة سبأ

٢٩	اعملوا آل داود شكراً	١٣
٦٠٠ و ٥٧٧ و ٥٧٦	ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور	١٧
٤٠١	ومزقناهم كل ممزق	١٩
٤٩٣	وإنّا أويناكم لعلّ هدىً أو في ضلالٍ مبين	٢٤
٥١٦	لا تُسألون عما أجرنا ولا تُسأل عما تعملون	٢٥
٥٥٢	ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين	٢٩
٥٩٩	قل إن ضللت فإنما أضلّ على نفسي	٥٠
٣٢٥	وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياءهم من قبل	٥٤

(٣٥) سورة فاطر

١٨٠ و ٥٩	١	فاطر السماوات والأرض... يزيد في الخلق ما يشاء
٥٥٩ و ٥٣٦	٤	وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك
٢٤٣	٨	يُضِلّ من يشاء ويهدي من يشاء
٥٤٧ و ٤٤٣	٩	والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميث... ٥٤٧ و ٤٤٣
٥٣٣ و ٣٧٧	١٨	ولا ترزّ وازرة وزر أخرى
٥٠٦	٣١	مصدقاً لما بين يديه
٤٩٠	٣٣	ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا...
٤٩٠	٣٤	جئات عدن يدخلونها
٥٤٠ و ٢٢٢	٣٦	والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا
٢٢٢	٣٧	وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً...
٤٧٠	٣٩	من كفر فعليه كفره

(٣٦) سورة يس

٣٧٩	٨	إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون
٣٧٩	٩	وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم...
٥٣٢	١٤	إنّا إليكم مرسلون
٥٣٢	١٦	إنّا إليكم لمرسلون
٥٦٥ و ٢٥٩	٢٠	قال يا قوم اتبعوا المرسلين
٥٦٥ و ٢٥٩	٢١	اتبعوا من لا يسألكم أجرأ وهم مهتدون
٤٥٥ و ٤٣٩ و ٤١٨	٢٢	وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون
٤٥٥ و ٤١٨	٢٣	أأنتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر...
٤٥٥	٢٤	إنّي إذا لقي ضلال مبين

٤٥٥ و ٤٣٩	إني آمنت بركم فاسمعون	٢٥
٤٥٥	قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون	٢٦
٤٥٥	بما غفرت لي ربّي وجعلني من المكرمين	٢٧
٣٣٧ و ٢٥٨	وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون	٣٧
٥٨٥ و ٤٠٣		
٣٣٨ و ٣٣٥	والقمر قد رآه منازل حتى عاد كالعرجون القديم	٣٩
	لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق	٤٠
٥٩٤ و ٣٧١ و ٣٤٥ و ٢٨٥	النهار وكل في فلك يسبحون	
٥٧٣	وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون	٤٥
٥٥٢	ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين	٤٨
٥٨٦ و ٤٠٣	من بعثنا من مرقدنا	٥٢
١٣٧	وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين	٦٩
٤٩٧	قال من يحيى العظام وهي رميم	٧٨
٤٩٧	قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ	٧٩
٤٩٧	الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ	٨٠
٤٩٧	أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ	٨١
٥٣٠ و ٥٠٥	إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ	٨٢

(٣٧) سورة الصافات

٢٨٣	عذابٌ واصب	٩
٢٨٣	إنا خلقناهم من طين لازب	١١
٥٤٨	لا فيها غول	٤٧
٣٤٠	وعندهم قاصرات الطرف عين	٤٨

٥٨٢ و ٥٧٩ و ٣٤٠	كأنهنَّ بيض مكنون	٤٩
٥٣٧	قال هل أنتم مظلعون	٥٤
٤٨٢	أذلك خيرٌ نزلًا أم شجرة الزقوم	٦٢
٥٤٧	وإن من شيعته لإبراهيم	٨٣
٥٣٢	وناديناه أن يا إبراهيم	١٠٤
٥٣٢	قد صدقت الرؤيا	١٠٥
٥٩٨ و ٢٨٠ و ٢٧٩	وآتيناها الكتاب المستبين	١١٧
٥٩٨ و ٢٨٠ و ٢٧٩	وهديناهما الصراط المستقيم	١١٨
٢٨٤	وأنكم لتترون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون	١٣٧ و ١٣٨

سورة ص (٣٨)

٤٦١	وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق	١٥
٤٦١	وقالوا ربنا عجل لنا قسطنا قبل يوم الحساب	١٦
٤٦١	اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود...	١٧
٣٤٤	إننا سخّرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق	١٨
٥٣٣	وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب	٢٥
٣٠٩	كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته...	٢٩
٤٨٤	واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار	٤٥
٥٣٣ و ٤٨٤	إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار	٤٦
٥٣٣ و ٤٨٤	وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار	٤٧
٤٨٤	واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار	٤٨
٤٨٤	هذاذكرواإن للمتقين لحسن مآب	٤٩
٤٨٤	جنت عدن مفتحة لهم الأبواب	٥٠
٤٨٤	هذا وإن للطاغين لشر مآب	٥٥

٤٢٢	إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة...	٦٣
٣٤	ولتعلمن نبأه بعد حين	٨٨

(٣٩) سورة الزمر

٦٠٢	فاعبد الله مخلصاً له الدين	٢
٥٣٣ و ٣٧٧	ولا تزرُ وازرةٌ وزر أخرى	٧
٥٦٣ و ٤١٨	إنما يتذكر أولوا الألباب	٩
	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه	٢١
٥٣٣ و ٣٥٢	ينابيع في الأرض... إن في ذلك لذكرى	
٤٥٩	أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه...	٢٢
٥١٠	تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين	٢٣
١٣٩	قرآنًا عريباً غير ذي عوج	٢٨
٥٥٣	أليس الله بكاف عبده	٣٦
٥٥٨ و ٥٤٥	ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنَّ الله	٣٨
٤٥٦	قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون	٣٩
٤٥٦	من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحلّ عليه عذابٌ مقيم	٤٠
٥٩	فاطر السماوات والأرض	٤٦
٢٦٣	قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله	٥٣
٢٦٣	وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب	٥٤
٥٤٧ و ٥٤٥	الله خالق كل شيء	٦٢
٥٠٣ و ٥٩	له مقاليد السماوات والأرض	٦٣
٦٠٢ و ٤١٨	لئن أشركت ليحبطنَّ عملك	٦٥
٦٠٢	بل الله فاعبد وكن من الشاكرين	٦٦
٤٢٧ و ٣٨٢ و ٣٥٢	والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة	٦٧

٧٣	حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها	٤٦٨ و ١٠١
٧٥	وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين	٣٢٥

(٤٠) سورة غافر

٣	غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول	٥٤٢
٧	ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك	١٦٧
١٥	رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء	١٧١
١٨	وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين	
	ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع	٣٧٨ و ١٦٧
١٩	يعلمُ خائنة الأعين وما تخفي الصدور	١٧١
٢٨	وقال رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتمُ إيمانه...	٥١٧
٣٢	يوم التناد	٢٨٥
٣٦	لعلِّي أبْلُغُ الأسباب	٥٥٤
٣٧	أسباب السماوات	٥٥٤
٥٤	وأورثنا بني إسرائيل الكتاب	٤٩٠
٦٠	أدعوني أستجب لكم	٥٥٧ و ٥٤٩
٦٨	كُنْ فيكون	٥٣٠

(٤١) سورة فصلت

١١	ثم استوى الى السماء وهي دُخانٌ فقال لها	
	وللأرض اثنيًا طوعاً	٣٧١ و ٣٤٤ و ٣٨٢ و ٣٨٧ و ٣٩٨
١٢	ففضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها	٤٣٩
٢٦	لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه	٣١٣

٣٧	ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر...	٦٦
٣٨	فإن استكبروا قال الذين عند ربك يستبحون له...	٦٦
٣٩	ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء...	٣٧٢ و ٦٦
٤٠	اعملوا ما شئتم	٥٤٩
٤٦	من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها...	٢٦٣
٥٣	سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين أنه الحق	٥٥

(٤٢) سورة الشورى

١١	فاطر السماوات والأرض... ليس كمثله شيء	٥٠٢ و ٤٢٠ و ٥٩ و ٥٦
١٥	الله ربنا وربكم	٥٤٥
١٧	وما يدريك لعل الساعة قريب	٥٥٤
١٩	الله لطيف بعباده	٥٤٧
٢٢	والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات	٥٤٠
٣٢	ومن آياته الجوار في البحر	٥٢٢
٤٠	وجزاء سيئة سيئة مثلها	٥٩٩
٥٢	وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب	١٠

(٤٣) سورة الزخرف

٣	إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون	٤٧٢
١٨	أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين	٤٢٦
٣٦	ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين	٣٢
٥٥	فلما آسفونا انتقمنا منهم	٧٠
٧٢	وتلك الجنة التي أورتهموها بما كنتم تعملون	٥٣٩

٤٦٣	ونادوا يا مالِك	٧٧
٤٩٤ و ٤٩٣	قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ	٨١

(٤٤) سورة الدخان

٤٤٠	حَم	١
٤٤٠	وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ	٢
٤٤٠	إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ	٣
٤٤٠	فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ	٤
٤٤٠	أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ	٥
٤٤٠	رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ	٦
٥٣٧	بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ	٩
٥٥٤	أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى	١٣
٣٩٨	فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ	٢٩
٥٥٣	وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ	٣٠
٥٥٣	مَنْ فَرَعُونَ إِنَّهُ كَانَ عَلَالِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ	٣١

(٤٥) سورة الجاثية

٢٥٦	إِنِّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ	٣
٢٥٦	وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ	٤
٢٥٦	وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ	٥
٢٦٤	قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ	١٤
٢٦٣	مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ	١٥
٥٩٢	أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ...	٢٣

(٤٦) سورة الأحقاف

٦٩	أنذر	٢١
٥٠٦	مصدقاً لما بين يديه	٣٠

(٤٧) سورة محمد

	ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر	٢٠
٣٦٤	فيها القتال ...	
٣٧٩	أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفاها	٢٤
٥٤٦	ولونشاء لأريناكمهم	٣٠

(٤٨) سورة الفتح

٥٣٢	إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً	١
٣٨٢	يد الله فوق أيديهم	١٠
٣٤	فعلم ما في قلوبهم	١٨
٥٣٢	وعدكم الله مغنم كثيرة تأخذونها	٢٠
٥٣٧	هو الذي أرسل رسوله بالهدى	٢٨
	محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء	٢٩
٥٥٧ و ٥٣٥ و ٥٣٣ و ٣٤٨	على الكفار... وعد الله الذين آمنوا...	

(٤٩) سورة الحجرات

٥٤٦	لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم	٧
	ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحِبُّ أحدكم أن يأكل	١٢
٥٨٨ و ٤٢٠ و ٣٨٠ و ٣٥١	لحم أخيه	

(٥٠) سورة ق

٢٨٠	ق والقرآن المجيد	١
٢٨٠	بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون ...	٢
٤٢٤	وما لها من فروج	٦
٥٧١	كذّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسّ وثمود	١٢
٥٧١	وعادّ وفرعون وإخوان لوط	١٣
٥٧١	وأصحاب الأيكة وقوم تبع	١٤
٤٩٧	أفبعينا بالخلق الأول	١٥
٤٧١	ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ...	١٦
٤٧١	إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد	١٧
٤٧١	ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد	١٨
٤٧١	وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد	١٩
٤٧١	ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد	٢٠
٤٧١	وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد	٢١
٤٧١	لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك ...	٢٢
٣٧٢ و ٣٤٤	يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد	٣٠
٥٣٣ و ٤٩٤	إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد	٣٧

(٥١) سورة الذاريات

٥٦٥	إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام	٢٥
٥٦٥	فقرّبه إليهم قال ألا تأكلون	٢٧
٥٨٥	إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم	٤١
٥٨٦	إلا جعلته كالرميم	٤٢

(٥٢) سورة الطور

٥٩٦ و ٢٨١	والطور	١
٥٩٦ و ٢٨١	وكتاب مسطور	٢
٥٤٩	اصبروا أو لا تصبروا	١٦
٥٤٩	كلوا واشربوا	١٩
٤٩٦	أم خلّقوا من غير شيء أم هم الخالقون	٣٥

(٥٣) سورة النجم

٥٩٥ و ٢٨١ و ١٦١	والنجم إذا هوى	١
٥٩٥ و ٢٨١ و ١٦١	ما ضلّ صاحبكم وما غوى	٢
٥٩٥ و ١٦١	وما ينطق عن الهوى	٣
٥٩٥ و ١٦١	إن هو إلا وحيّ يوحى	٤
١٦١	علّمه شديد القوى	٥
١٦١	ذو مِرَّة فاستوى	٦
١٦١	وهو بالأفق الأعلى	٧
١٦١	ثمّ دنا فتدلى	٨
١٦١	فكان قاب قوسين أو أدنى	٩
١٦١	فأوحى إلى عبده ما أوحى	١٠
١٦١	ما كذب الفؤاد ما رأى	١١
١٦١	أفتمارونه على ما يرى	١٢
١٦١	ولقد رآه نزلةً أخرى	١٣
١٦١	عند سدرة المنتهى	١٤
١٦١	عندها جنة المأوى	١٥

١٦١	إذ يغشى السدرة ما يغشى	١٦
١٦١	ما زأغ البصر وما طغى	١٧
١٦١	لقد رأى من آيات ربه الكبرى	١٨
١٦١	أفرأيتم اللات والعزى	١٩
١٦١	ومناة الثالثة الأخرى	٢٠
١٦١	ألكم الذكرو له الأنثى	٢١
١٦١ و ١٥٣	تلك إذ أقسمه ضيزى	٢٢
٥٥٢	وكم من ملك في السماوات	٢٦
	ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين	٣١
٤٢٩	أحسنوا بالحسنى	

(٥٤) سورة القمر

٢٨٢	اقتربت الساعة وانشق القمر	١
٢٨٢	وإن يروا آية يعضوا ويقولوا سحر مستمر	٢
١٦٣	يوم يدع الداع إلى شيء نكر	٦
١٦٣	خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر	٧
١٦٣	مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر	٨
٢٨٣	ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر	١١
٤٠٨ و ٢٨٣	وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر	١٢
٢٨٣	وحملناه على ذات ألواح ودسر	١٣
٢٨٧ و ٢٢٣ و ١٦٧	إننا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر	١٩
٢٢٣	تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر	٢٠
٥٣٢	إننا مرسلوا الناقة فتنه لهم	٢٧

١٥١	ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر	٣٦
٢٨٧	وكل صغير وكبير مستطر	٥٣
٢٨٦	إن المتقين في جنات ونهر	٥٤

(٥٥) سورة الرحمن

١٠٣	والسما رفعها ووضع الميزان	٧
١٠٣	ألا تطغوا في الميزان	٨
١٠٤	وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان	٩
٥٨٣	فكانت وردة كالدهان	٣٧
٢٨٦	ولن خاف مقام ربه جنتان	٤٦
٥٩٥ و ٦٨	وجنى الجنتين دان	٥٤
٤٢٩	فيهن قاصرات الطرف	٥٦
٥٨٢ و ٥٧٩	كأنهن الياقوت والمرجان	٥٨
٥٩٩ و ٥٧٧	هل جزاء الإحسان إلا الإحسان	٦٠

(٥٦) سورة الواقعة

٥٩٧ و ٢٨١	في سدر مخضود	٢٨
٥٩٧ و ٢٨١	وطلح منضود	٢٩
٢٨١	وظل ممدود	٣٠
٣٧٢	وظل من يحموم	٤٣
٣٧٢	لا بارد ولا كريم	٤٤
٤٨٩	في كتاب مكنون	٧٨
٣٧٨	فلولا إذا بلغت الحلقوم	٨٣
٣٧٨	وأنتم حينئذ تنظرون	٨٤

٨٩ رَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ٥٩٥ و ٥٩٦

(٥٧) سورة الحديد

١٠ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ... ٤٥٩
 ١١ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ٥٥٣
 ٢٠ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ وهوٌ وزينةٌ وتفاخري بينكم ٣٥٢

(٥٨) سورة المجادلة

١٣ أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ٥٤٩

(٥٩) سورة الحشر

٤ ذلك بأنهم شاقوا الله ٥٧١
 ٩ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ...
 ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ٣٨٩ و ٣٠
 ١٠ ولهم عذابٌ أليم ٥٤٤
 ١٩ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ٢٤٤
 ٢٤ هو الله الخالقُ البارئُ المصورُ ٥٤٧ و ٥٤٢ و ٥٣٥

(٦٠) سورة الممتحنة

١٣ ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ٤٢٤

(٦١) سورة الصف

٩ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ٥٣٧
 ١٣ نصر من الله وفتحٌ قريبٌ وبشر المؤمنين ٦٠٠

(٦٢) سورة الجمعة

- ٥ مثل الذين حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ
الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ٥٧٩ و ٥٨٤ و ٦٠٢

(٦٣) سورة المنافقون

- ٦ هم الذين يقولون لا تُنْفِقُوا ٥٣٣
٨ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٥١٤

(٦٤) سورة التغابن

- ٥ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥٤٤
٩ يَوْمَ يُبْعَثُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ٤٤٤
١٣ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٥٣٨

(٦٥) سورة الطلاق

- ١ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ٢٦٥
١١ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا... ٢٧١
١٢ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ... ٢٨٠ و ٢٧١
لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(٦٦) سورة التحريم

- ١ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ٢١٨
٥ مَسَلِمَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ١٠١
١٢ الَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رَوْحِنَا ٤٢٤

(٦٧) سورة الملك

٢	الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيتكم أحسن عملاً...	٥٩٥
٣	الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن...	٥٩٥
٧	إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور	٣٩١ و ٣٧٢ و ٣٤٤
٨	تكاذّبتميزُ من الغيظ	٥٨٦ و ٣٩١ و ٣٧٢ و ٣٤٤
٢٥	ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين	٥٥٢

(٦٨) سورة القلم

٢	ما أنت بنعمة ربك بمجنون	٢٨١
٣	وإن لك لأجراً غير ممنون	٢٨١
١٠	ولا تطع كل حلافٍ مهين	١٠٢
١١	هَمازٍ مشاءٍ بنميم	١٠٢
١٢	متاعٍ للخير معتدٍ أثيم	١٠٢
١٣	عُتِلَّ بعد ذلك زنيم	٢٢٦ و ١٠٢
١٧	إنّا بلونا هم كما بلونا أصحاب الجنة	
	إذ أقسموا...	٣٦٧
١٨	ولا يستثنون	٣٦٧

(٦٩) سورة الحاقة

٦	وأما عاذاً فاهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية	٢٢٣ و ١٧٤
٧	سَخَّرَها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام...	٥٨٨ و ٣٤١ و
	أعجازُ نخلٍ خاوية	٢٨٧ و ١٧٤

٥٨٧ و ٣٩١ و ٣٤١	أَنَا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ	١١
١٦٣	فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينُهُ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ	١٩
١٦٣	إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ	٢٠
١٦٣	فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ	٢١
٥٤٩	كُلُوا وَاشْرَبُوا	٢٤
٢٨٧	مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ	٢٨
٢٨٧	هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ	٢٩
٢٨١	خَذُوهُ فَعْلُوهُ	٣٠
٢٨١	ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلُّوهُ	٣١
٢٨١	ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ	٣٢
٢٢٨	وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ	٣٦
٢١٨	وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ	٤٤
٢١٨	لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ	٤٥
٢١٨	ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ	٤٦
٢١٨	فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ	٤٧

(٧٠) سورة المعارج

٤٨٢	سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ	١
٤٨٢	تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ	٤
٢٧٩	إِنَّهُمْ يَرُونَهُ بَعِيدًا	٦
٢٧٩	وَنَرَاهُ قَرِيبًا	٧
٢٧٩	يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ	٨
٢٧٩	وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ	٩
٣٧٢ و ٣٤٤ و ٢٧٩	كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَى	١٥

٣٧٢ و ٣٤٤ و ٢٧٩	١٦	نِزَاعَةٌ لِلشَّوَى
٣٧٢ و ٣٤٤ و ٢٧٩	١٧	تَدْعُو مِنْ أَدْبُرٍ وَتَوَلَّى
٣٧٢ و ٢٧٩	١٨	وَجَمَعَ فَأَوْعَى
٤٢٥	٢٩	وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ
٥٤٨	٣٣	وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ

(٧١) سورة نوح

٢٧٩	١٣	مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً
٢٧٩	١٤	وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً

(٧٣) سورة المزمل

٥٤١	١٥	كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً
٥٤١	١٦	فَعَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ
	٢٠	أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ... وَمَا تَقَدَّمُوا
٥٦٠ و ٥٤٩		لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ

(٧٤) سورة المدثر

٦٠٣ و ١٧٦	١	يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ
٦٠٣ و ١٧٦	٢	قُمْ فَأَنْذِرْ
٥٩٥	٣	وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ
٥٩٥ و ٤٢٤	٤	وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ
٥٩٥	٥	وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ
٦٠٣	١١	ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً
٣٤٢	٣٣	وَاللَّيْلَ إِذَا دُبِرَ

٣٤٢	والصبح إذا أسفر	٣٤
٥٨٠	كأنهم حُمُرمستنفرة	٥٠
٥٨٠	قرت من قسورة	٥١

(٧٥) سورة القيامة

٢٤١	لا تحرك به لسانك لتعجل به	١٧
٥٩٤	والتقت الساق بالساق	٢٩
٥٩٤	إلى ربك يومئذ المساق	٣٠

(٧٦) سورة الانسان

٥٥٣	هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر	١
٢٢٤	ويخافون يوماً كان شره مستطيراً	٧
٤٨٥	ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً	٨
٢٢٥	إنّا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قطيراً	١٠
٢٨٥	كانت قواريراً	١٥
٤٣٧	وسقاهم ربهم شراباً طهوراً...	٢٢
٣٨٠	ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً	٢٧

(٧٧) سورة المرسلات

٢٨٢	والمرسلات غُرْفاً	١
٢٨٢	فالعاصفات عَصْفاً	٢
٥٤٩	كُلُوا واشربوا	٤٣

(٧٨) سورة النبأ

٣٣٦	وجعلنا الليل لباساً	١٠

٢٢٧

٣٥ إِلَّا حَمِيماً وَغَسَاقاً

(٧٩) سورة النازعات

٢٢٤

٣٤ فَاذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى

٥٥٢

٤٢ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرَسَاهَا

(٨٠) سورة عبس

٤٦٨

١٧ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ

٤٦٨

١٨ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

٤٦٩

١٩ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ

٤٦٩

٢٠ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ

٤٦٩

٢١ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ

٤٦٩

٢٢ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ

٤٦٩

٢٣ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ

٢٢٣ و ١٦٨

٣٣ فَاذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ

٢٢٣ و ١٦٨

٣٤ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ

٢٢٣ و ١٦٨

٣٥ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ

٢٢٣ و ١٦٨

٣٦ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ

١٦٨

٣٧ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ

٢٢٣

٤٠ وَوَجْهُهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ

٢٢٣

٤١ تَرَهُّقُهَا قَتَرَةٌ

٢٢٣

٤٢ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرَةُ

(٨١) سورة التكوير

٥٤٦

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ

٤١٩	وإذا الموءدة سئلت	٨
٤١٩	بأيّ ذنب قُتلت	٩
٢٨١	فلا أقسم بالحنّس	١٥
٢٨١	الجوار الكنّس	١٦
٣٤٢ و ٢٧٩ و ١٧٤	والليل إذا عسعس	١٧
٣٧١ و ٣٤٢ و ٢٧٩ و ١٧٤	والصبح إذا تنفس	١٨

(٨٢) سورة الانفطار

٥٧١ و ٥٤٦	إذا السماء انفطرت	١
٥٧١	وإذا الكواكب انتثرت	٢
٥٧١	وإذا البحار فجرت	٣
٥٧١	وإذا القبور بعثرت	٤
١٦٨	يا أيّها الإنسان ما غرّك بربك الكريم	٦
١٦٨	الذي خلقك فسوّك فعدلك	٧
١٦٨	في أيّ صورة ما شاء ركبك	٨
٥٩٨ و ٢٧٩	إنّ الأبرار لفي نعيم	١٣
٥٩٨ و ٢٧٩	وإنّ الفجار لفي جحيم	١٤

(٨٤) سورة الانشقاق

٢٨١	والليل وما وسق	١٧
٢٨١	والقمر إذا انّسق	١٨
٦٠١	فبشّرهم بعذاب ألیم	٢٤

(٨٥) سورة البروج

٥٤٧	وهو الغفور الودود	١٤

٥٤٧	ذوالعرش المجيد	١٥

(٨٦) سورة الطارق

٢٧٠	الطارق	٢
٢٧٠	النجم الثاقب	٣
٥١٠	إنه لقولٌ فصل	١٣
٥١٠	وما هو بالهزل	١٤

(٨٧) سورة الأعلى

٥٤٠	سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى	١
٥٤٠	الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى	٢
٥٤٠	وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى	٣
٥٤٠	وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى	٤

(٨٨) سورة الغاشية

٥٩٥ و ٢٢٧	لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ	٦
٥٩٦	لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ	٧
٢٧٩	فِيهَا سُرٌّ مَرْفُوعَةٌ	١٣
٢٧٩	وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ	١٤
٥٩٤ و ٢٧٩	وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ	١٥
٥٩٤ و ٢٧٩	وَزُرَابِيٌّ مَبْثُوثَةٌ	١٦
٥٩٦ و ٥٦٨	أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ	١٧
٥٩٦ و ٥٦٨	وَأِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ	١٨
٥٦٨	وَأِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ	١٩

٥٦٨	وإلى الأرض كيف سُطحت	٢٠
٢٧٩	إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ	٢٥
٢٧٩	ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ	٢٦

(٨٩) سورة الفجر

١٦٣	والفجر	١
١٦٣	وليلٍ عشر	٢
١٦٣	والشفع والوتر	٣
٤٦٣ و ٣٧١ و ٣٤٣ و ٢٨٥ و ١٦٣	والليل إذا يسر	٤
١٦٣	هل في ذلك قَسَمٌ لذي حجر	٥
٥٥٧ و ٣٨٣ و ٢٢٤	وجاء ربك والملك صفاً صفاً	٢٢
٢٢٤	وجيء يومئذٍ بجهنم يومئذٍ تكرا الإنسان...	٢٣

(٩١) سورة الشمس

٤٦٧	ناقة الله وسُخياها	١٣

(٩٣) سورة الضحى

١٦٩	والضحى	١
١٦٩	والليل إذا سجدى	٢
٥٦٣	ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وما نَقَى	٣
٥٩٧ و ٥٩٦ و ٢٨١ و ٢٨٠	فأما اليتيم فلا تقهر	٩
٥٩٧ و ٥٩٦ و ٢٨١ و ٢٨٠	وأما السائل فلا تنهر	١٠

(٩٤) سورة الشرح

٥٥٣ و ٢٨١	ألم نشرح لك صدرك	١

٢ ووضعنا عنك وزرك ٢٨١

(٩٥) سورة التين

٢ وطور سينين ٢٨٥

(٩٦) سورة العلق

١ اقرأ باسم ربك الذي خلق ٥٩٧ و ١٧٦

٢ خلق الإنسان من علق ٥٩٧

١٨ سندع الزبانية ٤٦٣

(٩٧) سورة القدر

١ إنا أنزلناه في ليلة القدر ٥٣٣

(٩٩) سورة الزلزلة

١ إذا زلزلت الأرض زلزالها ٥٤٦

٢ وأخرجت الأرض أثقالها ٥٣٥ و ٥٣٤

٦ يومئذ يصدّر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ٢٥٨

٧ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ٥٧٣ و ٥٦٠ و ٢٦٣ و ٢٥٨

٨ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ٥٧٣ و ٥٦٠ و ٢٦٣ و ٢٥٨

(١٠٠) سورة العاديات

١ والعاديات ضبحاً ٥٩٦

٢ فالموريات قدحاً ٥٩٦

٣ فالمغيرات صبحاً ٥٩٦

٤٤٦	إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ	٦
٤٤٦	وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ	٧
٤٤٦	وَإِنَّهُ لَحُبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ	٨

(١٠١) سورة القارعة

٣٨١	فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ	٦
٣٨١ و ١٦٣	وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ	٨
١٦٣	فَأَمَّهُ هَٰوِيَةٌ	٩
١٦٣	وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهٗ	١٠
١٦٣	نَارٌ حَامِيَةٌ	١١

(١٠٢) سورة التكاثر

١٠٦	كَأَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ	٣
١٠٦	ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ	٤

(١٠٣) سورة العصر

٥٤١	وَالْعَصْرِ	١
٥٤١	إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ	٢
٥٤١	إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ	٣

(١٠٥) سورة الفيل

٥٥٢ و ٥٣٧	أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ	١
٥٧٩	فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ	٥

(١٠٦) سورة قريش

٥٣٩	فليعبُدوا ربَّ هذا البيت	٣

(١٠٧) سورة الماعون

٣١	فويلٌ للمصلِّين	٤

٣١	الذين هم عن صلاتهم ساهون	٥

(١٠٨) سورة الكوثر

٤٩٥	إِنَّا أعطيناكَ الكوثر	١

٤٩٥	فصلّ لربِّكَ وانحر	٢

(١٠٩) سورة الكافرون

٦٠٨	قل يا أيُّها الكافرون	١

(١١٠) سورة النصر

٦٠٨	إذا جاء نصر الله والفتح	١

(١١١) سورة المسد

٦٠٨ و ٥٣٨ و ٤٢٦	تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ	١

(١١٢) سورة الإخلاص

٥٤٣	قل هو الله أحد	١

فهرس الأحاديث

(أ)

- ٢١٢ الصادق (ع): أجر المغنية التي تزف العرائس ليس به بأس
- ٣٢ النبي (ص): اعتق النسمة وفك الرقة...
- ١٧٧ النبي (ص): اقرأوا القرآن بألحان العرب وأصواتها
- ٤٧٣ النبي (ص): الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى
- ٢١٢ الباقر (ع): التي يدخل عليها الرجال حرام والتي تُدعى...
- ٤٧١ النبي (ص): اللهم ارفع درجته في المهتدين...
- ٣٠٩ الصادق (ع): «الم» رمز وإشارة بينه تعالى وبين حبيبه محمد (ص)...
- ٢١٩ الكاظم (ع): أن أمور الأديان أمران أمر لا اختلاف فيه...
- ١٧٧ النبي (ص): إن حسن الصوت زينة القرآن
- ٦٢٩ في الخبر: أن رسول الله (ص) أهدى مائة بدنة فيها...
- الكاظم (ع): إن علي بن الحسين (ع) كان يقرأ القرآن
- ٢٠٧ و ١٨٠ فربما مرّ به المار فضعق
- ٢١١ و ١٧٨ النبي (ص): إن القرآن نزل بالحنن فاذا قرأتموه فابكوا
- ١٧٨ الصادق (ع): إن القرآن نزل بالحنن فاقرأوه بالحنن
- ٤٧٤ النبي (ص): إن قريشاً قد نهكتهم الحرب فإن شاؤوا...

- النبيّ (ص): إنّ من أجل الجمال الشعر الحسن ونغمة ... ١٧٧
 في الخبر: أنّ موسى بن جعفر (ع) كان حسن الصوت ... ١٨٠
 النبيّ (ص): أنا أفصح العرب بيد أني من قریش ... ٦٢٠
 النبيّ (ص): أنت رجل مضار ٤٥

(ب)

- الباقر (ع): بينا رسول الله (ص) ذات يوم بفناء الكعبة ... ١٤٨

(ح)

- الامام علي (ع): الحجر الغصيب في الدار رهن على خرابها ٤٧٤
 النبيّ (ص): حسّنوا القرآن بأصواتكم فإنّ الصوت
 الحسن يزيد القرآن حسناً ١٧٧ و ١٨٠
 النبيّ (ص): حلال بين وحرام بين وبينهما شبهات ٤٧٣
 النبيّ (ص): الحمد لله ربّ الموت وربّ الحياة ... ١٤٨

(ز)

- النبيّ (ص): زينوا القرآن بأصواتكم ١٧٧ و ١٧٩

(س)

- في الخبر: السمع وما وعى والبصر وما رأى والفؤاد وما عقد عليه ١٨٥

(ش)

- الصادق (ع): شراؤهن وبيعهنّ حرام ٢١٣
 الصادق (ع): (الرجس من الأوثان) الشطرنج و(قول الزور) الغناء ١٨٢

(ع)

٤٩ الصادق (ع): عدة التي تحيض ويستقيم حيضها ثلاثة قروء...

(غ)

- ١٨٤ في الخبر: الغناء رقية الزنا
 ١٨٤ في الخبر: الغناء عشّ النفاق
 ١٨٤ عن المعصوم (ع): الغناء مجلس لا ينظر الله إلى أهله
 ٢١٤ الصادق (ع): الغناء ممّا قال الله (ومن الناس من يشتري...)
 ٢١٤ الباقر (ع): الغناء ممّا وعد الله عزّ وجلّ عليه النار
 ١٨٤ عن المعصوم (ع): الغناء يُورث النفاق ويُعقّب الفقر

(ف)

- ٤٧٥ الإمام علي (ع): فصبرت وفي الخلق شجى وفي العين قذى
 ٣١١ الامام علي (ع): فما تصنعون بـ (المص)...

(ق)

- ٢٠٩ الصادق (ع): قال رسول الله (ص): اقرأوا القرآن بألحان العرب...
 ٢٠٦ الصادق (ع): قال النبي (ص): إنّ من أجمل الجمال الشعر الحسن
 ٢٠٦ الصادق (ع): قال النبي (ص): لكل شيء حلية وحلية القرآن...
 ١٨١ الصادق (ع): (واجتنبوا قول الزور) قول الزور الغناء
 ٤٧٥ الامام علي (ع): قيمة كل امرئ ما يحسنه

(ك)

- ٢٠٧ الصادق (ع): كان علي بن الحسين (ع) أحسن الناس صوتاً بالقرآن

(ل)

- الصادق (ع): لا بأس، إنَّ علي بن الحسين (ع) كان أحسن الناس ... ١٨٠
- الكاظم (ع): لا بأس به ما لم يُعص به ٢٠٥ و ١٨٣
- عن المعصوم (ع): لا تدخلوا بيوتاً الله مُعرض عن أهلها ١٨٤
- الكاظم (ع): لا حاجة لي فيه، إنَّ هذا سحت وتعليمهنَّ كفر ٢١٤
- النبي (ص): لا ضرر ولا ضرار في الاسلام ٤٤
- الامام علي (ع): لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه ٤٧٥
- النبي (ص): لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن ١٧٧
- الامام علي (ع): لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب ... ٣١٤
- النبي (ص): لم يعط امتي أقل من ثلاث: الجمال والصوت ... ٢٠٧
- الامام علي (ع): لنا حق فإن أعطيناه وإلا ركبنا أعجاز الإبل ٤٧٤
- الصادق (ع): ليس به بأس ١٨٤
- النبي (ص): ليس مثا من لم يتغنَّ بالقرآن ١٧٨
- النبي (ص): ليهنك العلم أبا المنذر ٤٤٩

(م)

- الصادق (ع): ما بعث الله عز وجل نبياً إلا أحسن الصوت ٢٠٧
- النبي (ص): ما رأيت أغلب لذوي العقول من النساء ٥٧٠
- السجاد (ع): ما عليك لو اشتريتها فذكرتك الجنة ٢١٣
- الصادق (ع): المغتية التي تزف العرائس لا بأس بكسبها ٢١٢
- الصادق (ع): المغتية ملعونة وملعون من أكل كسبها ٢١٣
- النبي (ص): من تغنى بغناء حرام يبعث فيه على المعاصي ... ١٨٣

الصادق (ع): منه قول الرجل للذي يُعْتَنِي أَحْسَنَت ١٨٢

(ن)

الامام علي (ع): نزل القرآن بلسان قریش ٢٣٠

(هـ)

الصادق (ع): هو أن تتمكث فيه وتُحَسِّن به صوتك ١٧٧

الصادق (ع): (فاجتنبوا الرجس من الأوثان...) هو الغناء ٢١٤

(و)

الصادق (ع): والله لقد تجلّى الله تعالى لخلقه في كلامه ٦٢٥

ولكنهم لم يبصروه ٦٢٥

الباقر (ع): ورجع بالقرآن صوتك فإن الله عز وجل يحب ٢١٨ و ٢٠٦

الصوت الحسن ٢١٨ و ٢٠٦

النبي (ص): الولد للفرّاش وللعاهر الحجر ٢١٩

النبي (ص): وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم ٣٨٨

إلا حصائد ألسنتهم ٣٨٨

(ي)

الباقر (ع): يا أبا محمّد اقرأ قراءة ما بين القراءتين ٢٠٥

الباقر (ع): يا فلان إذا ميّز الله بين الحقّ والباطل ١٨٥

فأين يكون الغناء؟ ١٨٥

فهرس الأعلام

(أ)

٥١٩ و ٤٨٣ و ٤٨٠ و ٤٤٦ و ٩٩	آدم (ع)
٥٨٩ و ٥٢٠ و ٥١٩ و ٤٩٣ و ٤٧٩ و ١٦٢ و ١٥٣ و ١١٨	إبراهيم (ع)
٢١٤	إبراهيم بن أبي البلاد
١٩٦	إبراهيم بن غياث الدين الاصفهاني
٤٨٣ و ٤٧٧ و ٤٤٦ و ٣٩٠ و ٣٠٣ و ٣٠١	ابن أبي الاصبع
٥١٣ و ٤٩٣ و ٤٨٩ و ٤٨٨ و ٤٨٦	
٤٢٤ و ٤٢٣	ابن أبي حاتم
١٨٥	ابن أبي عباد
١٣١	ابن أبي كبشة
٣٤٧ و ٣٤٠ و ٣٣٨ و ٣٣٦ و ٣٣٣ و ٢٨٩ و ٢٨٨ و ٦٣ و ٦١ و ٥٨ و ٤٨	ابن الأثير
٣٨٦ و ٣٨٧ و ٣٨٩ و ٣٩٧ و ٤١٦ و ٤١٧ و ٤٢٠ و ٤٢١ و ٤٣٠ و ٤٣٥ و	
٤٣٨ و ٤٤١ و ٤٤٢ و ٤٤٣ و ٤٤٤ و ٤٤٨ و ٤٥٠ و ٤٥٤ و ٤٦٠ و ٤٦٩ و	
٤٧٠ و ٤٧٢ و ٤٧٤ و ٤٧٧ و ٤٧٨ و ٤٨١ و ٥١٦	
١٧٨ و ٥١	ابن الأعرابي
٦١١	ابن الأهم
٣١	ابن الجنيد

٢٣١ و ٢٢٨	ابن الحاجب
٥١٤	ابن حجاج
١٣٠	ابن حسنون المقرئ
٢٧	ابن درستويه
٤٩٣ و ٤٩٢ و ٣٩٥ و ٣٩٣ و ٣٩١ و ٣٨٦ و ٢٥٧	ابن رشيق
٤١١	ابن الرومي
١٤٩	ابن السائب
٢٧٦ و ٢٠٦ و ٢٠٥	ابن سنان الخفاجي
٢٨٦	ابن سيده
٣٠٩ و ٢١٨	ابن طاووس
٤٢٣ و ٢٦٥ و ٢٢٤ و ١٣٠ و ٨٩	ابن عباس
٦٢٦	ابن عجلان
٢١	ابن عطية
٤٨ و ٤٧	ابن فارس
٦١٢	ابن القرية
٦٢٢ و ٣٢٧	ابن مسعود
٤٩٢ و ٣٣٤	ابن المعتز
٥١٦ و ٥١٥ و ٥١٣ و ٤٩٣ و ٤٨٨ و ٤٧٧ و ٣٥١ و ٣٠٢ و ٣٠١ و ٢٩١	ابن معصوم
٦١٢	ابن المقفع
١٩٣	ابن المنذر
٥٠	ابن منظور
٣١	ابن النضر
٧٠	ابن وائل
٣٣٤ و ٢٥٨	ابن وكيع

٢١٤و٢١٢و٢٠٥و٢٠٢و١٨٣	أبوبصير
٥٦٨و٤٧٣و٤١١و٣٩٧و٣٤٧و٣٤٠و٦٢	أبوتمام
٦٢٩	أبوجهل
٢٧٤	أبوالحسن الأشعري
٤٩٣و٢٧٦و٢٧٣و٢٥٢و١٣٧و٣٦	أبوالحسن الرقاني
١٨٨	أبوالحسن الشعراني
٥٦٨	أبوالحسين
٢١٩و٤٨	أبوحنيفة
١٣٢و٤٩	أبوذر الغفاري
٥٢	أبوزيد
٣٤٧	أبوسعيد
٤٧١	أبوسلمة
٢٨و١٧	أبوسليمان البُستي
٣٠	أبوالشعثاء
٣٣٤	أبو الطيب
٣٢و٣١	أبو العالية الرياحي
٥١	أبو العباس
٣٠	أبو عبد الرحمن
١٧٩	أبو عبيد
٥١	أبو عبيدة
٣٣٦	أبو العتاهية
٤٦٧	أبو علي
٥٣و٥٢و٥١	أبو عمرو
٢٣٥	أبو الفتوح

١٢٩	أبو القاسم بن سلام
٢٠٤	أبومسكين
٥١ و ٢٤	أبومنصور الثعالبي النيسابوري
٤٩٢ و ٣٩٧	أبونؤاس
٦٢ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٣٤ و ٣٥ و ٣٨ و ٤٤ و ٤٦	أبو هلال العسكري
٣١١	أبوياسر بن أخطب
٤٤٩ و ٣٢٨ و ٣٢٧	أبي بن كعب
٣٠	أحمد بن إبراهيم بن مالك
١٣٠	أحمد بن عبيد (أبو العباس)
١٣٠	أحمد بن محمد بن سعيد بن أبان القرشي
٢١٤	إسحاق بن عمر
١٥٣	إسماعيل (ع)
٢٠٤	إسماعيل بن الجامع
١٣٠	إسماعيل بن عمرو بن إسماعيل بن راشد الحداد المقرئ (أبو محمد)
١٩٥	أكبر إيراني
٥١	الأزهري
٢٣٢ و ٢٣١ و ٢٢٩	الاسترابادي
٩٨	الإسكافي
٥٣ و ٥١	الأصمعي
١٤٣	الأقرع بن حابس
٤٤	الأنصاري
٩٣	امرؤ القيس
١٣٧ و ١٣٢	أنيس بن جنادة

(ب)

٦٧	البارزي
٣٠٧ و ٢٧٦ و ٢٧٥ و ٢٧٤ و ١٣٨	الباقلاني
٥٦٣ و ٣٩٠	البحثري
٤٢٦	بدرالدين ابن مالك
٢٣٩ و ٢٥٢ و ٢٥٤ و ٢٥٦ و ٢٥٨ و ٢٥٩ و ٢٦١	بدرالدين الزركشي
٢٦٩ و ٢٨٠ و ٢٨٣ و ٣٠٠ و ٣٠٧ و ٣١٤ و ٣٢٥ و ٤٨١	
٤٧٤	بديل بن ورقاء
٣٢	البراء بن عازب
٣٢٨ و ٣٣٠ و ٣٣١ و ٤٦٤	برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي
١٤٨	بكر بن وائل
٣٠٩	البلاغي
٤٥٤ و ٤٦٠ و ٤٦٢	بلقيس

(ت)

١٠٩ و ٢٦٨ و ٣٣٥ و ٤١١ و ٤١٢	التفتازاني
١٠٥	توبة بن الحمير

(ث)

٥١	ثعلب

(ج)

٤٩٣	الجاحظ

١٥٣	جالوت
٣٠	جامع بن شداد
٣٩٠	جرير
٣١	جعفر بن سليمان
١٨٣ و ١٨٢ و ١٨١ و ١٨٠ و ١٧٧ و ١٧٦ و ١٧٥ و ١٧٤ و ١٧٣ و ١٧٢ و ١٧١ و ١٧٠ و ١٦٩ و ١٦٨ و ١٦٧ و ١٦٦ و ١٦٥ و ١٦٤ و ١٦٣ و ١٦٢ و ١٦١ و ١٦٠ و ١٥٩ و ١٥٨ و ١٥٧ و ١٥٦ و ١٥٥ و ١٥٤ و ١٥٣ و ١٥٢ و ١٥١ و ١٥٠ و ١٤٩ و ١٤٨ و ١٤٧ و ١٤٦ و ١٤٥ و ١٤٤ و ١٤٣ و ١٤٢ و ١٤١ و ١٤٠ و ١٣٩ و ١٣٨ و ١٣٧ و ١٣٦ و ١٣٥ و ١٣٤ و ١٣٣ و ١٣٢ و ١٣١ و ١٣٠ و ١٢٩ و ١٢٨ و ١٢٧ و ١٢٦ و ١٢٥ و ١٢٤ و ١٢٣ و ١٢٢ و ١٢١ و ١٢٠ و ١١٩ و ١١٨ و ١١٧ و ١١٦ و ١١٥ و ١١٤ و ١١٣ و ١١٢ و ١١١ و ١١٠ و ١٠٩ و ١٠٨ و ١٠٧ و ١٠٦ و ١٠٥ و ١٠٤ و ١٠٣ و ١٠٢ و ١٠١ و ١٠٠ و ٩٩ و ٩٨ و ٩٧ و ٩٦ و ٩٥ و ٩٤ و ٩٣ و ٩٢ و ٩١ و ٩٠ و ٨٩ و ٨٨ و ٨٧ و ٨٦ و ٨٥ و ٨٤ و ٨٣ و ٨٢ و ٨١ و ٨٠ و ٧٩ و ٧٨ و ٧٧ و ٧٦ و ٧٥ و ٧٤ و ٧٣ و ٧٢ و ٧١ و ٧٠ و ٦٩ و ٦٨ و ٦٧ و ٦٦ و ٦٥ و ٦٤ و ٦٣ و ٦٢ و ٦١ و ٦٠ و ٥٩ و ٥٨ و ٥٧ و ٥٦ و ٥٥ و ٥٤ و ٥٣ و ٥٢ و ٥١ و ٥٠ و ٤٩ و ٤٨ و ٤٧ و ٤٦ و ٤٥ و ٤٤ و ٤٣ و ٤٢ و ٤١ و ٤٠ و ٣٩ و ٣٨ و ٣٧ و ٣٦ و ٣٥ و ٣٤ و ٣٣ و ٣٢ و ٣١ و ٣٠ و ٢٩ و ٢٨ و ٢٧ و ٢٦ و ٢٥ و ٢٤ و ٢٣ و ٢٢ و ٢١ و ٢٠ و ١٩ و ١٨ و ١٧ و ١٦ و ١٥ و ١٤ و ١٣ و ١٢ و ١١ و ١٠ و ٩ و ٨ و ٧ و ٦ و ٥ و ٤ و ٣ و ٢ و ١ و ٠	جعفر بن محمد الصادق أبو عبد الله (ع)
٢٩٣	جلال الدين السيوطي
٢٩٣	الجويني

(ح)

١٠٥	الحارث بن عبّاد
٢٧٧	حازم بن محمد القرطبي (أبو الحسن)
٣٢ و ٣١	الحسن
٦٣٠	حسن بن بجيلة
١٨٥	حسن بن هارون
١٣٠	الحسين بن محمد
٢٠٩	حذيفة بن اليمان
٢٥	الخطيئة
١٨٢	حمّاد
١١٠ و ١٠٨	حمد بن محمد الخطابي
٣١١	حيي بن أخطب

(خ)

١٧٦	خديجة بنت خويلد

١٩١	الخراساني
٢٣٥ و ١٣٥ و ١٣٤	الخليل بن أحمد الفراهيدي
١٩٤	الحميني
١٤٢	خناخربن التوام الحميري
١٩٣	الخنوي
٣٢٨	الخنوي

(د)

٤٦١	داود (ع)
٥٠٤ و ٢٤٤ و ١٥٩ و ١٣٣ و ٥٨ و ٢١	درّاز

(ر)

٣٠٨ و ٢٥٠ و ٢٤٣	الرازي
٤٢٥ و ٢٢٧ و ٥٠ و ٣٣	الراغب الاصفهاني
١٦٤	الرافعي
١٧٩	الربيع
٣٢١ و ٣١٦	رشاد خليفة
٣٤٧	رشيد رضا
٣٠٩ و ٢١٨	رضي الدين ابن طاووس
٤٩٣ و ٢٧٦ و ٢٧٣ و ٢٥٢ و ١٣٧ و ٣٦	الرماني

(ز)

١٤٢	زبراء
١٧٩	الزبيدي

٤٥	الزجاج
١٤٢	زرقاء اليمامة
٤٨٣ و ٤٠٦ و ١٦٦ و ٧٢	زكريّا (ع)
٣٠٥ و ٥٧ و ٦٣ و ٧٠ و ١٧٩ و ٢٤٠ و ٢٦٠ و ٢٧٢ و ٣٠٥	الزخشري
٣٩٢ و ٣١٣ و ٣١٤ و ٣٤٥ و ٣٤٩ و ٣٨٧ و ٣٩٠ و ٣٩١ و ٣٩٢	
٦٠٥ و ٤٠١ و ٤١٧ و ٤٢١ و ٤٣٤ و ٤٣٥ و ٤٦٤ و ٤٨٥ و ٦٠٥	
١٨١	زيد الشّحّام

(س)

١٩٢ و ١٨٩	السبزوري
٤١٩ و ٤١٧	السبكي
٦٢٦	سحبان بن زفر بن أياس الوائلي
٤٦٣	السدوسي
٤١٠ و ٤٠١ و ٣٨٦ و ٣٨٥ و ٣٣٥ و ٣٣٤ و ١٥١ و ١٣٥ و ٧٧	السكاكي (أبو يعقوب)
٤٤٢ و ٤٣٤ و ٤٣١ و ٤١٩ و ٤١٨ و ٤١٦ و ٤١٣ و ٤١١	
١٤٢	سلمى الهمدانية الحميرية
٤٦٢ و ٤٦٠ و ٤٥٤	سليمان (ع)
٤٤	سيرة بن جندب
٤٢٣	السهيلي
١٤٦ و ١٤٥ و ١٤٢	سواد بن قارب الدوسي
٢٣١ و ٢٣٠ و ١٦٥ و ٣٣ و ٣٢	سيبويه
٣٥٣ و ٣٤٢ و ٢٤٤ و ٢٢٧ و ٢٢٥ و ٢٢٤ و ١٦٠ و ١١	سيد قطب
٢٣٢	السيرافي

(ش)

١٧٩ و ٤٨	الشافعي
٤٢٥	السيد شبر
١٢٩	شرف الدين أبي الحسن علي بن الفضل المقدسي
٣٣٢ و ٣٣١	شريعتي
٤٧٥ و ٤٧٤ و ٣٨٩	الشريف الرضي
٣٠٨	الشعبي
٢٥٩	شعيب (ع)
٣٠٠	شهاب الدين المقدسي (أبوشامة)

(ص)

٤٢	الصاحب بن عباد
٣٠٤	صدر الدين بن معصوم المدني
٢٠٤	صدقة
١٣٠	صلاح الدين المنجد

(ض)

١٤٣	ضمير بن ضميرة

(ط)

١٥٣	طالوت
٥٠١ و ٣١٤ و ٣١٣ و ٦٠	الطباطبائي
٤٩٠ و ٤٢٥ و ٢٤٣ و ١٠٥ و ٧٠	الطبرسي

طريفة (كاهنة اليمن) ١٤٣ و ١٤٢
 طه حسين ١٤٠
 الشيخ الطوسي - أبو جعفر ٤٩ و ١٨٧ و ١٨٩ و ١٩١ و ١٩٢ و ٢١٢ و ٢٧٢
 الطيبي ٤١٨

(ع)

عائشة ٥٦٣ و ٤٩
 العاص بن وائل ٦٢٦
 عاصم الجحدري ٣١
 عامر بن شراحيل (أبو عمرو) ٣٠٨
 عبد الأعلى ١٨٢
 عبد الله بن الحسين بن حسن بن المقرئ ١٣٠
 عبد الله بن سنان ٢٠٩
 عبد الله بن محمد (أبو محمد) ٢٧٦
 عبد الله بن مسعود ٣٢٨ و ٣٠
 عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ٣٢
 عبد الله عمر نصيف ٣٢١
 عبد الرحمان بن عيسى الهمداني ٤٢
 عبد الرزاق المقرم ١٩٣
 عبد الرزاق نوفل ٣٢٢
 عبد العظيم بن عبد الواحد (أبو محمد) ٢٥٣
 عبد القاهر الجرجاني ١٤ و ١٠٩ و ١٠١ و ١٥١ و ٣٣٤ و ٣٤٨ و ٣٥٣ و ٣٨٥ و ٣٩٣ و ٣٩٥ و ٣٩٨ و ٤٠٠ و ٤٠٧ و ٥٨٨
 عبد الملك (ابن جريح) ١٣٠

١٧٩	عبد الملك البغوي
١٣٢	عتبة بن ربيعة
٣٢٧	عثمان بن عفان
١٠٩	العجاج
٤٦٦ و ٣٢٤	عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام
١٣٠	عطاء
١٤٢	عفراء الحميرية
٥٢٤ و ٥٢٢ و ٤٧٤ و ٣١٤ و ٣١١ و ٢٣٠ و ١٤٣	علي بن أبي طالب - أمير المؤمنين (ع)
٢٠٥ و ١٨٣	علي بن جعفر
٢١٣ و ٢٠٧ و ١٩٤ و ١٨٩ و ١٨٠	علي بن الحسين (ع)
٤٩٣ و ٢٧٦ و ٢٧٣ و ٢٥٢ و ١٣٧ و ٣٦	علي بن عيسى الرقاني (أبو الحسن)
٢٠٧	علي بن محمد النوفلي
١٨٥ و ١٨٠	علي بن موسى الرضا (ع)
١٦٩	عمر بن أبي ربيعة
٣٠	عمر بن حفص السدوسي
٦٣٠ و ١٤٦	عمر بن الخطاب
١٤٧	عمر بن معد يكرب
١١١ و ١٠٩	عيسى بن عمر النحوي
٤٢٣ و ١٦٨	عيسى بن مريم (ع)

(ع)

٤٨١

١٤٤

الغانمي
الغطيلة (اسم كاهنة)

(ف)

١٤٢	فاطمة الخثعمية
٤٢٤ و ١٠٦ و ٣١	الفراء
٣٩٠	الفرزدق
٥٦٤ و ١٧٠ و ١٥٧ و ١٥٦	فرعون
٣٣٠	الفضيل بن الحسن الطبرسي (أبو علي)
١٧٩	الفيروز آبادي
١٩٤	الفيض الكاشاني

(ق)

١٢٩	القاسم بن سلام
٢٥٨	القاضي محمد بن خلف (أبو محمد)
٣٠٧ و ٢٧٦ و ٢٧٥ و ٢٧٤ و ١٣٨	القاضي محمد بن الطيب الباقلاني (أبو بكر)
٤٤٥ و ٢٧٨	قدامة بن جعفر
١٥٠ و ١٤٩ و ١٤٨ و ١٤٧	قس بن ساعدة الأيادي

(ك)

١٩١	الكاشاني
٤٦٥ و ٩٨	الكرماني
٣٣ و ٣٢	الكسائي
٣٧	كعب الأشعري
٤٧٤ و ١٤٥ و ١٤٤	كعب بن لؤي
١٠٥ و ٦٣	كليب

(ل)

٦١٩	ليبد
١٤٦	لؤي بن غالب
١٠٧ و ١٠٥	ليلي الأخيلية

(م)

١٩٧ و ١٩٦ و ١٩٥ و ١٨١	ماجد بن إبراهيم الحسيني البحراني
٣١	مالك بن دينار
٣٠	المأمون
٢٧ و ٢٦ و ٢٥	الميرد
١٩٦	المحقق الطهراني
١٤٥	محمد بن إسحاق
١٣٠	محمد بن أيوب المقرئ (أبو جعفر)
٣١١	محمد بن جرير الطبري (أبو جعفر)
٣٠٩	محمد بن الحسين السلمي (أبو عبد الرحمن)
٣١	محمد بن سعدويه
١٢٩	محمد بن عبد الله (أبو القاسم)
	محمد بن عبد الله - رسول الله - النبي (ص)

٣٢ و ٣٣ و ٤٥ و ٨٧ و ١٣٢ و ١٤٠ و ١٤٥ و ١٤٦ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٤٩ و
 ١٥٠ و ١٥٤ و ١٦٧ و ١٧٣ و ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٨ و ١٧٩ و ١٨٠ و ١٨٣ و
 ١٨٩ و ١٩٧ و ١٩٩ و ٢٠٦ و ٢٠٧ و ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢١١ و ٢١٩ و ٢٣٠ و
 ٢٤٥ و ٢٥٧ و ٢٩٦ و ٣٠٧ و ٣٠٩ و ٣١١ و ٣١٤ و ٣٢٣ و ٣٢٤ و ٣٢٧ و
 ٣٣١ و ٣٣٨ و ٣٣٩ و ٣٥٠ و ٣٨١ و ٣٨٨ و ٤١٨ و ٤٢٨ و ٤٣٨ و ٤٤٨ و
 ٤٤٩ و ٤٦٥ و ٤٧٠ و ٤٧١ و ٤٧٢ و ٤٧٤ و ٥١٤ و ٥٢٢ و ٥٢٣ و ٥٢٤ و
 ٥٣٧ و ٥٣٩ و ٦٠٢ و ٦١٨ و ٦٢٠ و ٦٢٢ و ٦٢٦ و ٦٢٧ و ٦٢٩ و ٦٣٣

٢١٤و٢١٢و٢٠٧و٢٠٥و١٨٥و١٨٠و١٧٨و١٤٨	محمد بن علي الباقر- أبو جعفر (ع)
٣٠٩و١٩٤و١٧٨و١٥٠و١٤٩و١٤٨	محمد بن علي الصدوق (أبو جعفر)
١٨٠	محمد بن علي بن محبوب الأشعري
٤٧٧	محمد بن غانم (أبو العلاء)
٢٤٧	محمد بن محمد المدني
٢١٤	محمد بن مسلم
٣١٢	محي الدين ابن عربي
٦٣٠	مروان بن الحكم
٤٨٣و٤٥٨و٤٢٣و١٦٨	مريم بنت عمران (ع)
٣١	مساور
٣٠	المسعودي
١٦٩	مصطفى محمود
٢٥٧	معاذ بن جبل
١٨٠	معاوية بن عمار
٣٤٥	معاوية بن قرة
٢١٤	مهران بن محمد
١٠٥و٦٣	مهلهل بن ربيعة
٩٨و١٥٧و١٦٠و١٧٠و٢٤٠و٢٧٥و٢٨٥و٣٤٥و٣٩١و٤٤٧و٥٦٤و٤٦٢و٤٦٤و٤٨٠و٤٨١و٥١٨و٥٤١و٥٦٤	موسى (ع)
٢١٩و٢٠٧و١٨٣و١٨٠	موسى بن جعفر الكاظم- أبو الحسن (ع)

(ن)

١٩٦	نادر شاه أفشار
٥٤٥	النحاة

٣١	نصر بن عاصم الليثي
٣٠	النضر بن شميل
٢٣٥	النظام الحسن بن محمد النيسابوري
٤١١	نوبخت
٤٨٠ و ٩٦ و ٩٢ و ٩٠ و ٨٣ و ٨١	نوح (ع)

(هـ)

٢٧٥ و ٤٤٧ و ٤٦٢ و ٤٦٤	هارون
٣٢ و ٣٣ و ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢١٩	هارون الرشيد
١٥٦ و ١٥٧	هامان
٥١	الهذلي
١٨٥	هشام بن إبراهيم العباسي
١٤٩	هشام بن محمد بن السائب الكلبي

(و)

٣٢٥	ولي الله محمد بن أحمد الملوي المنفلوطي
١٠ و ١٣ و ١٧٣ و ٤٧٠ و ٥٢٤ و ٦٠٣ و ٦٢١	الوليد بن المغيرة المخزومي

(ي)

٤٨٣	يحيى (ع)
٨٣	يحيى بن حمزة العلوي
١٢ و ٥٢١	يحيى بن زيد العلوي
٦٧	يعقوب (ع)
١١٧ و ١٥٥ و ٤٥٣ و ٤٥٩ و ٤٦٠ و ٤٨١	يوسف (ع)
١١٦	يونس (ع)

فهرس الأشعار

الصفحة	الشاعر	عجز البيت	صدر البيت
٣١١	مجهول	إلا أن تشاء	بالخير خيراً
٤١١	أبو تمام	حاجة في السماء	ويصعد حتى
٢٥	مجهول	ذامال وذانشب	امرتك الخير
١٠٦	الفراء	عليّ وأوجبوا	وكائن وكم عندي
١٦٩	عمر بن أبي ربيعة	أخت الرباب	قال لي صاحبي
٢٨٢	جرير	فقد أصابا	أقلّي اللوم
٤١١	ابن الرومي	يأتهم بالحساب	أعلم الناس
٤١١	ابن الرومي	المكرمات الصعاب	بل بأن يشاهدوا
٤١١	ابن الرومي	بتكلم الأسباب	مبلغ لم يكن
٥٨٠	مجهول	السماء يصوب	فلست لانسي
٣١١	مجهول	إلا أن تا	بالخير خيراً
٣٣٦	أبو العتاهية	حمر اليواقيت	ولا زودية
٣٣٦	أبو العتاهية	أطراف كبرت	كأنها فوق
١٠٩	العجاج	ومرسناً مسرجاً	ومقلة وحاجباً
٣٩٧	أبونؤاس	يشكو ويصيح	بح صوت
٥٨٠	مجهول	حين يمتدح	وبدا الصباح

٢٥	الخطيئة	النأي والبعد	ألا حبذا هند
٣٣٦	الصنوبري	على رماح من زبرجد	وكان محمر الشقيق
٣٩٧	أبو تمام	مرهف حسن القد	وكم أحرزت منكم
٦١٦	مجهول	تلك وتشدا	حشا غامضات
٦١٧	مجهول	القهقري بدا	إذا وقع
٣٧	كعب الأشعري	يا عمرو	وما جاءنا من نحو
٤٩	مجهول	يكون لها قطر	إذا ما السماء
١٤٩	قس بن ساعدة	لنا بصائر	في الأولين
١٤٩	قس بن ساعدة	لها مصادر	لما رأيت
١٤٩	قس بن ساعدة	والأصاغر	ورأيت قومي
١٤٩	قس بن ساعدة	الباقي غابر	لا يرجع الماضي
١٤٩	قس بن ساعدة	القوم صائر	أيقنت أنني
١٧٩	مجهول	الشعر مضمار	تغن بالشعر
٢٥٠	مجهول	للنجم في الصغر	والنجم تستصغر
٣٩٦	مجهول	شفتيه الصفارا	فبتنا جلوساً
٤١١	مجهول	على القمر	لا تعجبوا
٤٥٢	مجهول	ولكنه لم يطر	ولو طار
٤٩٢	أبونؤاس	كأنك النار	سكنت من
٤٩٣	أبونؤاس	بارد حار	لا يعجب السامعون
٦١٧	مجهول	عثمان بن قنبر	ألا صلى الملك
٦١٧	مجهول	أبناء منبر	فإن كتابه
٦٢٣	مجهول	لحوم البقر	شكونا إليه
٦٢٣	مجهول	وتريني القمر	فكنا كما قال
٥٩٩	مجهول	ما قال الناس	ليس بما ليس

٤٤٦	مجهول	جبة وقيصا	قالوا اقترح
٥٦٣	البحثري	ويسمع واعى	شجوحساده
٥٨٣	مجهول	تميمة لا تنفع	وإذا المنية
٣١٠	مجهول	نسينا الايحاف	قلنا لها ففى لنا
١٠٧	مجهول	ليلى ينق	نق الغراب
١٤٩	قس بن ساعدة	بزهم حرق	ياناعى الموت
١٤٩	قس بن ساعدة	نومائه الصعق	وعهم فإن لهم
١٤٩	قس بن ساعدة	الأورق الخلق	منهم عراة
١٤٩	قس بن ساعدة	بعدهم خلقوا	حتى يعودوا
١٨٩	مجهول	لها كل حاذق	إذا هي غنت
٥٢٧	مجهول	منش رقيق	فعيناش عيناها
٥٤٥	التحاة	وهو منطلق	لا يالف الدرهم
٩	مجهول	على الفؤاد دليلاً	إن الكلام لنى
٣٣٤ و ١٣٩	أبو الطيب	بعض دم الغزال	فان تفق الأنام
٣٩٦	مجهول	وبين الجحفل	تسمع للماء
٣٩٧	أبونؤاس	منك الكلالا	مال الرجل
٣٩٨	أبو تمام	مالك أسفل	بلونك إما
٤١١	مجهول	عزاء جميلاً	هى الشمس
٤١١	مجهول	إليك النزولا	فلن تستطيع
٦١٩	لييد	ولسانى وجدل	ومقام ضيق
٦٢٠	لييد	مقامى وزحل	لويقوم
٥١	الهدلى	فوق الفطيم	قتلنا مخلداً
٦٢	أبو تمام	يحرسه الدم	وأخافكم كى
١٠٦	الفراء	كم وكم	كم نعم كانت

٢٨٢	جرير	من الايامي	أيها منزلنا
٢٨٢	جرير	أيها الخيام	متى كان الخيام
٣٤٠	أبو تمام	بالمحب المغرم	وفتكت بالمال
٣٤٧	أبو تمام	برأسه وسنامه	ونقاسم الناس
٣٤٧	أبو تمام	وعروقه وعظامه	وتركت للناس
٣٩٠	البحثري	وخلاه قائمه	تعزفان السيف
٤٧٣	أبو تمام	يحرسه الدم	وأخافكم كي
٥٦٨	أبو تمام	أبا الحسين كريم	لا والذي هو عالم
١٠٧	مجهول	أين أيننا	هلا سألت
٣٩٠	الفرزدق	تناطح البحرين	ماضرتغلب
١٠٧	مجهول	أولى لها	أردت لنفسي
١٤٦	لؤي بن غالب	العيس بأقتابها	عجبت للجن
١٤٦	لؤي بن غالب	الجن ككذابها	تهوى إلى مكة
١٤٦	لؤي بن غالب	كأذناها	فارحل إلى الصفوة
٣٠٩	مجهول	للخلق يحكيه	بين المحبين
٣١٠	مجهول	إذايا	ما للظلم
٣٣٦	مجهول	ما كان غاليا	يقولون ليل
٤٩٢	ابن المعتز	متي دهاني	أسرفت في
٤٩٢	ابن المعتز	كتماني	كتمت حُبك
٤٩٢	ابن المعتز	بلساني	فلم يكن
٥١٤	ابن حجاج	بالأيادي	قلت ثقلت
٥١٤	ابن حجاج	حبل ودادي	قلت طوالت

فهرس الفرق والمذاهب

(أ)

٢٩٩ و ٢٤٤ و ٢٠٣ و ١٤٧ و ١٤٥ و ١٤٢ و ٤٦ و ٤٤
و ٣٥٨ و ٤٥٩ و ٥٠٦ و ٥٠٧ و ٦١٩ و ٦٣٢ و ٦٣٣

الاسلام

(م)

٦٠٦ و ٤٧٥ و ٤٣٧ و ٣٧٣ و ٣٦١ و ٢٤٥

المسلمين

(ن)

٤٢٣

التصارى

(ي)

٥٨١ و ٥٨٠ و ٥٦٧ و ٥٠٧ و ٥٠٦ و ٣١٢

اليهود

فهرس البلدان والأماكن

(أ)

١٤٥ و ١٤٤

أحد

٣٢١

اديزونا

١٩٦

اصفهان

(ب)

١٤٥ و ١٤٤

بدر

٢٠٤

بغداد

(ج)

١٢٣ و ١٢٢

الحبشة

٣٣٩ و ١١٤ و ١١٢

الحجاز

٤٧٤

الحديبية

١٤٢ و ١٢٤ و ١٢٢ و ١١٨ و ١١٤ و ١١٢

حضر موت

(س)

١٢١ و ١١٤ و ١١٢

سبأ

(ش)

٤٨٥

الشام

١٤٢

الشحر

(ط)

٤٥

الطائف

٢٨٥

طور سيناء

(ع)

٤٥

العراق

١٤٨

عكاظ

١٢٥ و ١٢٣ و ١٢١ و ١١٨ و ١١٧ و ١١٥ و ١١٤ و ١١٣ و ١١٢

عمان

(ق)

٢٤١

القدس

(ك)

٢٤٩ و ١٥٠ و ١٤٨

الكعبة

(م)

٦٢٠

ماوان

١١٢

مدين

٥١٤ و ٣١١ و ٢٤٩ و ٢٠٤

المدينة

٣٠

مرو

٤٣٨

المسجد الأقصى

٦٢٠ و ٤٣٨

المسجد الحرام

٤٨٥ و ٣٢١ و ٢٤١ و ٢٠٤ و ١٤٨ و ١٤٣ و ١٤٢

مكة

(هـ)

٤٢

الهند

(ي)

١٤٢ و ١١٤ و ١١٢

اليمامة

١٤٥ و ١٤٢ و ١٢٣ و ١٢٠ و ١١٢

اليمن

٤٩٥

اليونان

فهرس الجماعات والقبائل

(أ)

٤٨٣	آل إبراهيم
٤٨٣	آل عمران
٤٨٣	آل نوح
٢٠٨ و ١٩٩ و ١٨٠ و ٤٩	أئمة أهل البيت (عليهم السّلام)
٣٣٤	أدباء العراق
٣٣٤	أدباء مصر
١٢٨ و ١٢٧ و ١٢٣ و ١٢٢ و ١٢١ و ١١٦ و ١١٣ و ١١٢	ازدشنوة
١٤٥	أشراف قریش
١١٧ و ١١٢	الأحباش
١٢٨ و ١٢٣ و ١٢٠ و ١١٩ و ١١٢	الأشعريون
١٢٣ و ١١٧ و ١١٤ و ١١٢	الأنباط
٢٩١	الأنبياء (عليهم السّلام)
١٢٦ و ١١٢	الأوس
١٢٨ و ١٢٢ و ١١٨ و ١١٢	أنمار
٢٣٢	أهل البحرين
٢٨٩ و ١١	أهل البيان

٢٨٣ و ٢٣٠ و ٤٨	أهل الحجاز
٦١٧	أهل خراسان
١٠	أهل السجع
٥٢٧ و ٤٨	أهل العراق
٢٤	أهل الفصاحة
١٤٣	أهل مأرب
٣٦٦	أهل المدينة
٣٣٨	أهل مصر
١٢٥	أهل اليمن

(ب)

١٢٧ و ١١٢	البربر
٦٣	بكر بن وائل
٤٤٧ و ٢٤٠ و ٩٨	بنو إسرائيل
٢٠٤	بنو أمية
٥٢٧	بنو بكر
٣٩٠	بنو تغلب
٥٢٧ و ٢٨٣	بنو تميم
١٢٣ و ١٢١ و ١١٤ و ١١٢	بنو حنيفة
١٤٢	بنو سعد
١٤٤	بنو سهيم
١٢٥ و ١١٢	بنو عامر
٢١٨ و ٢٠٤	بنو العباس

(ت)

١٢٤ و ١١٢

تغلب

١٢٣ و ١٢٢ و ١١٩ و ١١٨ و ١١٧ و ١١٦ و ١١٥ و ١١٤ و ١١٣ و ١١٢

تميم

(ث)

١١٥ و ١١٢

ثقيف

١٥٠

ثمود

(ج)

١١٨ و ١١٢

جذام

١١٨ و ١١٧ و ١١٦ و ١١٥ و ١١٤ و ١١٣ و ١١٢

جرهم

١١٩ و ١٢٠ و ١٢١ و ١٢٢ و ١٢٤ و ١٢٧ و ١٤٣

(ح)

١١٨ و ١١٧ و ١١٦ و ١١٥ و ١١٣ و ١١٢

حمير

١١٩ و ١٢٠ و ١٢١ و ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٤

١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٨ و ١٢٩

(خ)

١١٢ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٧ و ١٢٩

خشعم

١١٢ و ١١٣ و ١١٤

خزاعة

(د)

١١٢ و ١١٩ و ٤٩٥

الروم

(س)

١١٢ و ١١٣ و ١١٤	السريان
٦٢٠	سعد بن بكر
١١٢ و ١١٨	سعد العشيرة
١١٢ و ١١٦	سليم

(ط)

١١٢ و ١١٣	طي

(ع)

١٧٤ و ١٥٠	عاد
١١٢	العبرانيون
٦٠٥	العجم
١٢١ و ١١٢	عذرة
١٠ و ١٤ و ٢١ و ٢٤ و ٢٦ و ٤٢ و ٤٥ و ٤٤ و ٥٤ و ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٨ و ١٠٩ و ١١٠ و ١١٢ و ١٣١ و ١٣٢ و ١٣٤ و ١٣٥ و ١٣٧ و ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤٠ و ١٤١ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٤٧ و ١٥٣ و ١٥٨ و ١٥٩ و ١٦٤ و ١٦٥ و ١٧٨ و ١٧٩ و ١٨٨ و ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢٤٩ و ٢٧٧ و ٢٧٨ و ٣٠٦ و ٣١٠ و ٣١٣ و ٣٨٤ و ٤٠٨ و ٤٢٢ و ٤٣١ و ٤٣٤ و ٤٦٣ و ٤٧٢ و ٤٧٣ و ٤٧٦ و ٥٢٥ و ٥٤٤ و ٥٦٨ و ٦٠٥ و ٦٠٦ و ٦٠٧ و ٦١٢ و ٦٢٠ و ٦٣٣ و ٦٢١	العرب
٢٤ و ١٤ و ١٠	علماء البيان

(غ)

١١٢ و ١١٥ و ١١٧

غسان

(ف)

١١٢ و ١١٧ و ١١٩ و ١٢٥

الفرس

٧٧

فصحاء قریش

٤٩

فقهاء الحجاز

(ق)

١١٢ و ١١٧ و ١٢٠

القبط

٨٧ و ١٠٥ و ١١٢ و ١١٤ و ١١٥ و ١١٦ و ١١٧ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٠ و

قریش

١٢١ و ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ و ١٢٨ و ١٢٩ و ١٣٢ و

١٤٢ و ١٤٤ و ١٤٧ و ١٤٨ و ٢٣٠ و ٢٣٤ و ٢٤٠ و ٢٦٣ و

١١٢ و ١١٤ و ١١٥ و ١١٧ و ١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٦ و ١٢٩ و

قيس بن عيلان

(ك)

١٠٧ و ١١٢ و ١١٧ و ١٢٠ و ١٢٣ و ١٢٥

كندة

١١٢ و ١١٣ و ١١٥ و ١١٦ و ١١٧ و ١١٨ و ١١٩ و ١٢٠ و ١٢١ و ١٢٢ و

كنانة

١٢٣ و ١٢٦ و ١٢٨ و ١٢٩

(ل)

١١٢ و ١١٥

لخم

(م)

١٢٩و١١٧و١١٥	مدين
١٢٧و١٢٦و١١٩و١١٧و١١٣	مذحج
١١٤و١١٢	مزينة
١٥٠و١٤٩	معشرأباد

(ن)

١٤٢	نجد

(هـ)

١٢٣و١٢٢و١٢١و١٢٠و١١٩و١١٨و١١٦و١١٥و١١٤و١١٢	هذيل
١٤٢و١٢٩و١٢٨و١٢٧و١٢٦و١٢٥و١٢٤	
١٢٨و١١٢	همدان
١١٧و١١٤و١١٢	هوازن

(ي)

٣١١	يهود المدينة
٤٩٥	اليونان

فهرس مواضيع الكتاب

المقدمة

٥

الباب الأول

في الإعجاز البياني

- ٩ بديع نظمه وعجيب رصفه
١٣ ١- دقيق تعبيره ورقيق تحبيره
٢٤ نماذج من فوارق اللغة
٤٤ زيادة المباني تستدعي زيادة المعاني
٤٥ الاشتراك والترادف في اللغة
٤٧ لا اشتراك مع رعاية الجامع
٥٠ لا ترادف مع ملاحظة الفوارق
٥٤ شواهد من القرآن (دقائق ونكات رائعة)
٥٤ تقديم السمع على البصر
٥٥ آيتا السرقة والزنا
٥٦ ليس كمثله شيء
٥٩ آية القصاص
٦٥ أرض هامة وأرض خاشعة
٦٦ الحلف بالتاء
٦٧ دقائق ونكات
٧٠ سورة الكوثر وبدائع نكتها، تلخيص العلامة الطبرسي
٧٢ دعوة زكريّا ربّه

- ٧٦ أعجب آية باهرة
- ٨٣ بحوث خمسة حول لطائف هذه الآية
- ٩٨ نكت وظرف
- ٩٩ أمثلة لما تكرّر من آيات الذكر الحكيم
- ١٠٨ هل في القرآن لفظة غريبة؟
- ١٣١ ٢- طرافة سبكه وغبابة اسلوبه
- ١٤٧ خبر قسّ بن ساعدة
- ١٥١ ٣- عذوبة ألفاظه وسلاسة عباراته
- ١٥٨ ٤- تناسق نظمه وتناسب نغمه
- ١٦٨ الموسيقى الباطنة للقرآن
- ١٧٧ التغني بالقرآن
- ١٧٧ ورتل القرآن ترتيلاً
- ١٨١ الغناء من الوجهة الشرعية
- ١٨٦ إلفات نظر
- ١٨٧ نظرة إلى آراء الفقهاء
- ١٩٧ رسالة إيقاظ النائمين وإيعاظ الجاهلين
- ١٩٧ المقدمة
- ٢٠٠ علم الموسيقى
- ٢٠٥ الأحاديث الواردة في باب الغناء وتحقيق ما هو المراد
- ٢١٦ تتميم القول في تحقيق الحقّ من طريق آخر
- ٢١٨ خاتمة
- ٢٢٢ ٥- تجسيد معانيه في أجراس حروفه
- ٢٢٢ ألفاظ وتعبير أم قوامع من حديد؟
- ٢٢٨ صفات الحروف عند ابن الحاجب
- ٢٣٦ قائمة صفات الحروف
- ٢٣٨ ٦- تلاؤم فرائده وتآلف خرائده

٢٣٩	تناسب الآيات مع بعضها
٢٤٦	التناسب القائم في كل سورة بالذات
٢٥٢	تناسب فواصل الآي
٢٥٣	١- التمكين
٢٥٧	٢- التصدير
٢٥٨	٣- التوشيح
٢٥٨	٤- الايغال
٢٥٩	فواصل خفي وجه تناسبها
٢٦١	نكت وظرف
٢٦٨	ضابط الفواصل
٢٧٣	هل في القرآن سجع
٢٧٨	أنحاء الفواصل
٢٨٤	مناسبة الفواصل كفة راجحة
٢٨٨	فواتح السور وخواتيمها
٢٩٠	المبادئ والافتتاحات في كلام الله تعالى
٢٩٢	فواتح السور
٣٠٠	تلك عشرة كاملة
٣٠١	خواتيم السور
٣٠٥	الحروف المقطعة في أوائل السور
٣٠٨	الحروف المقطعة في مختلف الآراء
٣١١	ما قيل في حل تلك الرموز
٣١٤	الرأي المختار
٣١٦	الإعجاز الحسابي في فواتح السور
٣٢٢	الإعجاز العددي للقرآن الكريم
٣٢٤	تناسب السور
٣٣٣	٧- حسن تشبيهه وجمال تصويره

- ٣٣٩ أنواع التشبيه
- ٣٤١ تعبير بلفظ أم إفاضة بحياة؟
- ٣٤٦ التصوير الفني في القرآن
- ٣٤٧ فوائد التمثيل
- ٣٥٣ أنحاء من التصوير الفني في القرآن
- ٣٥٣ تجسيد المعاني الذهنية
- ٣٥٨ تصوير الحالات النفسية
- ٣٦٤ تشخيص الحوادث الواقعة
- ٣٦٧ أمثال مضروبة أم أشخاص مشهودة
- ٣٧٠ ألوان من التخيل الحسي
- ٣٧٦ تجسيم الأعمال وتجسيد المعنويات
- ٣٨٤ ٨- جودة استعارته وروعة تخيله
- ٣٨٥ تعريف الاستعارة
- ٣٨٦ وفرة الاستعارة في القرآن
- ٣٩٣ الاستعارة أفضل أنواع المجاز
- ٣٩٥ الاستعارة المفيدة
- ٤٠٠ الاستعارة في مدارج البلاغة
- ٤٠٣ أنواع الاستعارة
- ٤٠٤ ١- وفاقية وعنادية
- ٤٠٤ ٢- عامية وخاصة
- ٤٠٩ ٣- أصلية وتبعية
- ٤١٠ ٤- تجريد وترشيح
- ٤١٢ ٥- تقنية وتخيل
- ٤١٤ ٦- الاستعارة التمثيلية
- ٤١٦ ٩- لطيف كنياته وظريف تعريضه
- ٤٢٢ حكمة الكناية وفوائدها

- ٤٣٠ ١٠- طرائف وظرائف
- ٤٣٤ حدّ الالتفات وفائدته
- ٤٤٨ إيجاز وإيفاء أم براعة في بلاغة البيان؟
- ٤٥٠ قسما الإيجاز
- ٤٥٠ إيجاز حذف
- ٤٦٨ إيجاز قصر
- ٤٧٦ التخلص والاقتضاب وفصل الخطاب
- ٤٨٤ التتميم
- ٤٨٨ الاستخدام
- ٤٩٢ المذهب الكلامي
- ٤٩٤ سُطوع براهينه
- ٤٩٩ الاستدلال في القرآن
- ٥٠٧ إقناع العقل وإمتاع النفس
- ٥١١ أنواع من الاستدلال البديع في القرآن
- ٥١٢ السبر والتقسيم
- ٥١٣ القول بالموجب
- ٥١٥ الاسلوب الحكيم
- ٥١٦ الاستدراج
- ٥٢١ فصاحة القرآن في كفة الميزان
- ٥٢١ الطريقة الأولى: مجملة
- ٥٢٥ الطريقة الثانية: من جهة التفصيل
- ٥٢٥ المرتبة الأولى: في المزايا الراجعة إلى ألفاظ القرآن
- ٥٢٥ ١- مفردات الأحرف
- ٥٢٦ ٢- حسن تأليفها من تلك الأحرف
- ٥٢٨ ٣- مفردات الألفاظ
- ٥٢٨ ٤- تركيب مفردات الألفاظ

- المرتبة الثانية: في المزايا الراجعة الى معاني القرآن
 ٥٣١ ١- ما يتعلق بالعلوم المعنوية
 ٥٣١ أ- ما يكون متعلقاً بالأُمور الخبرية
 ٥٤٨ ب- ما يكون متعلقاً بالأُمور الإنشائية الطلبية
 ٥٥٦ ج- التعلّقات الفعلية
 ٥٦٣ د- الفصل والوصل
 ٥٧٢ هـ- الإيجاز والإطناب والمساواة
 ٥٧٧ ٢- ما يتعلق بالعلوم البيانية
 ٥٧٩ أ- التشبيه
 ٥٨٤ ب- الاستعارة
 ٥٨٨ ج- الكناية
 ٥٩١ د- التمثيل
 ٥٩٣ ٣- ما يتعلق بأسرار البديع
 ٥٩٣ أ- ما يتعلق بالفصاحة اللفظية
 ٦٠٠ ب- ما يتعلق بالفصاحة المعنوية
 ٦٠٥ رسالة الزمخشري في إعجاز سورة الكوثر
 ٦٠٥ نصّ الرسالة المبعوثة الى العلامة الزمخشري
 ٦١١ جواب العلامة الزمخشري على الرسالة



الحمد لله وصلى الله على محمد نبي الله وعلى آله آل الله

لقد قامت مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية
بمقر المشرق بنشاطات واسعة في مجال نشر المعرفة وإحياء التراث الاسلامي، وإليك
سرداً لبعض منشوراتها:

من الكتب التي تم طبعها

من مسند أحمد بن حنبل	* أحاديث المهدي
محمد الكنجي الشافعي	مع «البيان في أخبار صاحب الزمان»
الشيخ المفيد	* الاختصاص
العلامة الحلي	* إرشاد الأذهان إلى أحكام الإيمان (ج ١ و ٢)
الشيخ المفيد	* الأمالي
الشيخ محمد حسين المظفر	* الإمام الصادق (ع) (ج ١ و ٢)
العلامة الحلي	* إيضاح الاشتباه
الشيخ محمد حسين الإصفهاني	* بحوث في الاصول، وتشمل على:
	أ- الاصول على النهج الحديث
	ب- الطلب والإرادة
	ج- الاجتهاد والتقليد
الشيخ محمد حسين الإصفهاني	* بحوث في الفقه، وتشمل على:
	أ- صلاة الجماعة
	ب- صلاة المسافر.
	ج- الإجارة
العلامة الطباطبائي	* بداية الحكمة

السيد علي الاستربادي

الشيخ الطوسي

ابن شعبة الحرّاني

الشيخ ضياء الدين العراقي

الشيخ أبي الصلاح الحلبي

الشيخ الصدوق

القاضي ابن البرّاج

المولى عبد الله اليزدي

الشيخ يوسف البحراني

المحقّق الكرّكي

الفاضل القطيني

المقدّس الأردبيلي

الفاضل الشيباني

الشيخ الصدوق

الشيخ الطوسي

الشيخ عبد الكريم الحائري

الشهيد الأول

الشهيد الصدر

السيد المرتضى علّم الهدى

محمّد الرازي الدولابي

الشيخ أحمد بن علي النجاشي

الشيخ الطوسي

السيد محمّد الفشاركي

* تأويل الآيات الظاهرة

* التبيان في تفسير القرآن

* تحف العقول عن آل الرسول (ص)

* تعليقة استدلالية على العروة الوثقى

* تقريب المعارف في الكلام

* التوحيد

* جواهر الفقه

* الحاشية على تهذيب المنطق

* الحدائق الناضرة (ج ١-٢٥)

* الخراجيات، وتشمل على:

أ- قاطعة اللجاج في تحقيق حلّ الخراج

ب- السراج الوهاج لدفع عجاج قاطعة اللجاج

ج- رسالتان في الخراج

د- رسالة في الخراج

* الخصال (ج ١ و ٢)

* الخلاف (ج ١-٤)

* درر الفوائد

* الدروس الشرعية في فقه الامامية (ج ١-٣)

* دروس في علم الاصول (ج ١ و ٢)

* الذخيرة في علم الكلام

* الذرية الطاهرة

* رجال النجاشي

* الرسائل العشر

* الرسائل الفشاركية